

لِلْهَيْبَةِ

فِي بَيَانِ مَا يُجْتَنَبُ مِنَ النِّجَابِ
الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ

تَأليف
أبي الحسن علي بن محمد بن فرحون القيسي القطبي
المتوفى سنة ٦٤٦ هـ

تحقيق
أبي عبد الله محمد بن محمد بن اسماعيل الشافعي

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر. أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦١١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohatory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

الرشاش
في بيان ما يجنب من المنجيات
الصغار والكبار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
أما بعد :

قال الشيخ المزني : سمعت الإمام الشافعي يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر في الفقه نبه قدره ، ومن تعلم اللغة دقّ طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ^(١) .
والعلم الكامل هو : ما أورث الخشية وهي تعظيم تصحبه مهابة .

قال ابن عباد : وعلامة خشية الله تعالى ترك العلائق الأربع : الدنيا ، والخلق ، ومجاراة النفس ، والشيطان ^(٢) .

واعم أنه لا بد للعبد من أربعة أشياء : العلم ، والعمل ، والإخلاص ، والخوف ؛ فيعلم الطريق أولاً وإلا فهو أعمى ، ثم يعمل بعلمه ثانياً وإلا فهو محجوب ثم يخلص العمل ثالثاً وإلا فهو مغرور .

فإن الأعمال بخواتيمها وما يدري ما يختم له ^(٣) .

وللاشتغال بالعلم آفات كثيرة :

منها : الوثوق بالزمن المستقبل فترك التعلم حالاً إذ اليوم في التعلم والتعليم

أفضل من غده ، وأفضل منه أمسه ، والإنسان كلما كبر كثرت عوائقه .

ومنها : الوثوق بالذكاء فكثير من فاته العلم بركونه إلى ذكائه وتسويفه أيام

الاشتغال .

(١) انظر السبع كتب مفيدة لعلوي السقاف { ص/٧٢ }

(٢) انظر السبع كتب مفيدة لعلوي السقاف { ص/٥ }

(٣) انظر السبع كتب مفيدة لعلوي السقاف { ص/٥ }

ومنها : التنقل من علم قبل إتقانه إلى آخر ، ومن شيخ إلى آخر قبل إتقان ما بدأ به عليه ، فإنه هدم لما قد بنى .

ومنها : طلب الدنيا والتودد إلى أهلها والوقوف على أبوابهم .

ومنها : ولاية المناصب ، فإنها شاغلة مانعة كما أن ضيق الحال أيضاً مانع ^(١) .

والكتاب الذي بين أيدينا من قبيل علم الأخلاق .

وهو : علم بأصول يعرف بها أنواع الفضائل وكيفية إكتسابها وأنواع الرذائل

وكيفية اجتنابها .

وفائدته : الاتصاف بأنواع الفضائل واجتناب أضرارها ^(٢) .

وأما مؤلفه فهو : علي بن أبي القاسم محمد بن فرحون المدني الأديب المتوفى

سنة ٦٤٦ هـ ، وقيل سنة ٧٤٦ هـ .

من مؤلفاته :

الإعتبار ، وتواريخ الأخيار ، والتعريف بالنسبة إلى النبي المختار ، وديوان شعره

- والزهرة في المواعظ والحكايات - وهو كتابنا هذا - ، والأحاديث ، والذخائر ^(٣) .

وقد نسب كتاب الزهرة لابن فرحون حاجي خليفة في كشف الظنون ^(٤) .

تنبيه : كانت هناك كلمات موضعها في الأصل بياض جعلناه بين معكوفين ولم نشر

إليه في الهامش .

* * *

(١) انظر السبع كتب مفيدة لعلوي السقاف {ص/٦}

(٢) انظر السبع كتب مفيدة لعلوي السقاف {ص/٧}

(٣) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة {٧٠٩/٥}

(٤) {٩٤٨/٢}

وصف المخطوط

قد اعتمدنا بفضل الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد في تحقيق هذا الكتاب على النسخة الخطية الكائنة بدار الكتب المصرية تحت رقم { ٣٩٥٦ } - وتقع في { ١٢٤ / لوحة } وهي ذات خط نسخ واضح لا إشكال فيه ، وقد يسر لنا الواحد الاحد إتمامها حتى خرجت محققة على هذا الوجه المتواضع الضعيف ، فليعذرنا أهل العلم على هذا التقصير .

والشكر الخالص لمشايعي الذين أذكركم دائماً وهم :

الشيخ / جاد الرب رمضان - رحمه الله - .

والشيخ / الحسيني الشيخ - أمد الله في عمره - .

والدكتور / كمال عبد العظيم العناني .

والمرحوم الشيخ / محمد أنيس عبادة .

والشيخ / مسعد عبد الحميد السعدني .

ولكل من عاوننا في إخراج هذا الكتاب :

كالاخ / خالد حسين .

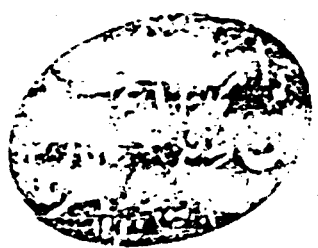
والاستاذ / فتحى صالح توفيق { جمع تصويري / كومبيوتر }

ولأعضاء مكتبنا المتواضع .

محمد حسن محمد حسن إسماعيل

١٨ / محرم / ١٤١٨ هـ

كتاب الزاهر في بيان ما يحتجب من الخبايا
 الصغائر والكباير ، تأليف الفقير الى الله المستمسك بالله
 المتوكل على الله الشيخ ابى الحسن علي بن محمد بن فرحون القيس
 القرطبي عذ الله عنه وعن جميع المسلمين امين امين
 وصلى الله على سيدنا ومولانا وشفيهم ذنوبنا محمد وعلى
 اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا اياها يدوام بلك الله



باسمه سبحانه
 من كتب اقل الطلبة من الناس
 عمدا لكرم من علم من الناس
 انهم يصعدون
 به من وجوه وجوه
 آمين بالاربع

عمل على رسول الله عم
 ما تقول في طمش طام وعاد محمد
 ترزنجبار وشيلا فقال
 الترشيب للشرب قديما



الترتيب الامان والذين
 ٤٣
 في كتاب

صورة عنوان الكتاب

عدد آيات الشعر في هذا الديوان الف وثلاثمائة وتسع وتسعون بيانا المؤلف
رضي الله عنه مائة واربعون بيتا قال المؤلف وقد نظمت في عنت طسبعة آيات وفي

ياسأبلى كم في الكتاب لثا هرد من بيت شعرا صح او وا جر
فذلك الف واحد من بعدها . ثلاثة ميقون كالجوا هر
يتبعها تسعون ثم تسعة . في كل بيت حكمة للناس
تتممكم الحان رحة رتنا تسفيكم كاس المتاب الوا فير
يارتنا اغفر للعصاة جميعهم . مصنف وقارئ وشا غير
يتوتلوا لك بالنبي محمد . في العفوعن صغائر وكيا ير
صلى الاله عليه افضل شافع . علم الهدى في اقبل وقا خير

تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام
الافضلان الاكابر الامان على سيدنا ومولانا وشيخنا
محمد وعلى آله وصحبه وعترته صلاة وسلاما داعين بدوام ملك

الله رب العالمين والحمد لله رب العالمين

على يد العبد الفقير الى رحمة ربه المعترف بذنوبه عبيد الله ابي القاسم زين العابدين داود البلوي
الاناسي غفر الله تعالى له ولوالديه ولاخوانه ولجنه عالم بالزجة والمغفرة والتوبة امين
ختموه يوم الجمعة الموافق ثلاثين لشهر الورد الشريف ربيع الاول سنة ثلاثين وتسماية غفر الله خيرا
كتبته من نسخة مختلفة كثيرة الخلل فاصححت ما تيسر اصلاحه وعلمت على بعض النسخ ان يستر الله تعالى في نسخة
وعلمت على بعض تلك النسخ بالتحفة بالعرض اعني لعله لان يعجز من وضعه والله المبرر رحمة

ما كتبه من نسخة
الاصح

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

قال الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن فرحون القرطبي رضي الله عنه :

لبارئنا التقديس والإعظام ، والجلال والإكرام ، والطول والإنعام ، وله الحمد حيث أنعم علينا بجوده ورحمته ، وهدانا للإسلام والإيمان بفضله ومته ، وعرفنا نفسه بكتابه المبين على لسان نبيه الصادق المصدوق الأمين ، واختصنا بمعرفته من جميع العالمين ، وجعل لنا في مخلوقاته الدلائل والبراهين ، وأمر بالتفكير والاعتبار جميع المكلفين ، وشهد بنفسه لنفسه أنه إلهٌ واحدٌ لا شريك له في ملكه ، وأنه المقدر الخالق المخترع لما سواه من المخلوقات أجمعين ، تعالى ربنا وتقدس وتنزه عن قول المرتابين الملحدين ، والحمد لله رب العالمين كثيراً ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب الثبات عليه إلى يوم الدين ، أحمده على لطفه وأنعامه ، وأسأله المزيد من إكرامه وأفضاله .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بارئ الخلق وباسط الرزق ، ومحبي الميت وميت الحي ، ومبين الرشد من الغي ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه المكين ، الذي اختصه بعلمه على الخلائق أجمعين ، فجعله آيةً للسائلين ، وضمن له العلو والتمكين على كل دين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحابه أجمعين .

وبعد : فلإني رأيت حرص الطالب المريد ، وتعطش المسترشد المستفيد ، على الوقوف على حصر هذه الخبائث الذميمة ، التي تحجب النفس عن الإبصار ، وتصدها عن فائدة الاعتبار بصريح الافتكار في ملكوت العزيز الجبار ، وعن معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ { الحشر : ٢ } ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ { يوسف : ١٠٥ } . وعن معنى قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ { الذاريات : ٢١ ، ٢٢ } ، وعن معنى قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ { ص : ٢٩ } ، وعن معنى قوله : ﴿ أولم ينظروا في

ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴿الأعراف : ١٨٥﴾ .

فبين تعالى أن كل ما خلق الله من شيء موضوع للفكر، ومطلوب للدلالة، فمتى صدرت من العباد فكرة ونظرة، قابلتها آية وعبرة، فالفكرة زبالة مهينة للإشراق بالأنوار لا للإحراق بالنار .

١ - ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: « فِكْرَةٌ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ »^(١) ، إن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب ، وأنشدوا :

بعثتُ سلامي قبلَ نطقي بخاطري وقلتُ لهمك أنت بالشوق أعلمُ
فسلمُ عليهم من فؤادي وقُلْ لهم: مكانكم عندي عزيزٌ مكرمُ
فلا تطلبوا مني تحيةً منطقي سلام فؤادي بالمودة أحكمُ

فاهتمت بحصر مهمها تابعًا وأولاً، ونظمتها نظامًا أنيقًا متصلًا، وجمعتها جملة واحدة، ورجوت في ذلك لمن وقف عليها فاجتنبها السعادة والفائدة، ليسهل على الطالب المستبصر التحرز عن لدغها، ولا يخاطر في مذاق سمها ، لأن من نظر إلى السم وعلم أنه مهلك لا يقدم عليه ، ولا يشربه عن تجربة مخافة ما يصل منه من الهلاك إليه، وقد ذكرها أشياخنا - رحمهم الله - في تصانيفهم مفترقة فحصرتها الآن بتوفيق الله - عز وجل - وحسن عونه ، لمن رغب في الوقوف عليها جملة ومتسقة ، وهذه الخبائث هي التي أكثر العُصاة عليها مقبولون وفيها يتنافسون ، وبها يفتخرون ، وعلى الحذر عن لدغها غافلون ، فهم بسمها هالكون ، وبِرَيْنِهَا عن الطريق الواضح والنور الساطع محجوبون ، وعن دقيقتها وجليلها مسئولون ومحاسبون ، إذا كشف الغطاء وأبصروا ما هم عنه غافلون، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وطلبوا الإقالة فلا يقالون ، ولا يقبل منهم العذر حين يعتذرون ، ولا ينفعهم الندم إذا هم نادمون ، وقيل لهم هيهات هيهات لما توعدون ، إنما تجزون ما كنتم تعملون ، أذهبتم طيباتكم في حياتكم

(١) موضوع: أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣) ، من طريق عثمان بن عبد الله القرشي، حدثنا إسحاق بن نجیح الملقبي، حدثنا عطاء الخراساني ، عن أبي هريرة مرفوعًا به ، وزاد بعد قوله : وعبادة : « ستين » ، وتعقبه السيوطي في «اللائل» (٢٢٧/٢) : بقوله : « قلت : اقتصر العراقي في « تخريج الإحياء » على تضعيفه ، وله شاهد » . قلت : وشاهده هو حديث أس بن مالك ، وفيه سعيد بن مسيرة ، كذاب وضاع . وانظر : تنزيه الشريعة (٣٠٥/٢) ، والفوائد المجموعة (٢٤٢) .

الدنيا واستمتعتم بها ، ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، ونصحكم النذير فلم تقبلوا ، وناداكم الرسول فلم تسمعوا ، وقنعتم بالعاجل وتناسيتم الآجل ، فالיום تجزى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم . وأنشدوا :

ترفق بدمعك لا تقنه
فبين يديك بكاءً طویلُ

وأنشدوا أيضاً :

هجروك فاستوحشت من هجرانهم
لو كنت أهلاً للوصال لو اواصلوا
كم عاملوك على الوفاء فختهم
كم لاحظوك وأنت عنهم غافلُ
كم تستر البلوى وسرك ظاهراً
كم تدعي حقاً وحقك باطلُ
أنظن أنهم نسوا لك ما مضى
لو كنت جاملت الأمور لجاملُ
لا تقدمن على الجواب فإنه
لم يبق عندك ما يقول القائلُ

فما جواب من بهذا يخاطب، وعنه يسئل، في حضرة الجبار الملك الأعدل، فكيف لا تسمح نفس العاقل بترك قليل لكثير، وحقير لخطير، فعساه يخلص من هذا الهول العظيم الكبير، أسأل الله الذي خلقنا في خير أمة، ببعث أفضل مرسل، أن يجعلنا ممن اهتدى واقتدى بآيات القرآن الحكيم المنزل، وأن يجعل قلوبنا لقبول معرفته مستعدة صافية، وأن لا يعدمنا وإياكم عافية غير عافية، وأوانا وإياكم إلى ظل عصمة منه كافية. وأنشدوا :

أنخنا في فنائك يا إلهي
إليك مفوضين بلا اعتلال
فسسنا كيف شئت ولا تكلنا
إلى تدبيرنا باذا المعال

وهذا عين ابتداء وباللله التوفيق .

واعلم وفقك الله إنه ليس في الوجود إلا شيئان لا ثالث لهما ؛ قديم ومحدث ، وخالق ومخلوق ، ومصور ومصور ، فالمصور هو الله الخالق القديم المخترع ، العزيز الحكيم ، الأزلي الذي لا بداية له ، الأبدي الذي لا نهاية له ، كما قال تعالى :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ {الحديد : ٣}

وكل شيء دونه حادث، واختراعه وقدرته محكم بعلمه، مصور بحكمته ، سبحانه القديم في أزليته ، المرتفع عن التشبيه والتكليف بعظمته ، ليس لذاته تكيف ،

ولا لفعله تكليف ، يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، ويفعل بغير روية ، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رويته ظلام ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، يرى من غير حدقة ولا أجفان ، ويسمع من غير أصمخة ولا آذان ، ويتكلم بغير شفة ولا لسان ، يطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، عالم الغيب لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون ، دبر الأمور بلا ترتيب أفكار ، ولا تربص زمان ، فلذلك لا يشغله شأن عن شأن . فالطريق إلى معرفة صفاته الفكر والاعتبار بآياته ، إذ ليس إلى معرفة ذاته سبيل ، فمعرفة ذاته محجوبة عن العقول ، وعن كل شيء سوى الله ، فإنه لا يعرف الله إلا الله ، ولا يدرك الحسن إلا المحسوس . كما قال الشاعر :

إذا رمدت عيني تداويت منكم بنظرة حسنٍ أو بصوت كلام
فإن لم أجد ماءً تيممت باسمكم وصلت فـرضي والديار أمام

٢- لذلك تبرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله: « لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) .

وقال أبو بكر - رضي الله عنه - : « العجز عن درك الإدراك إدراك » ، وقال أحد الحكماء : لو تناهت حكمة الباري في حدّ العقول لكان ذلك تقصير الحكمة ، لكنه عز وجل احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، واحتجب عن في السماء كما احتجب عن في الأرض ، فقد رجع معنى الوصف في الوصف ، وعمى القلب عن الفهم ، والفهم عن الدرك ، والدرك عن الاستنباط ، ودار الملك في الملك ، وانتهى المخلوق إلى مثله ، وأخذه الطلب إلى شكله .

قال بعض الحكماء : ينبغي لنا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا من قبل الترقى إلى معرفة غيرنا ، فاجتهد في أن تعرف نفسك وذاتك ، ولا تطمع في أن تعرف ربك ما لم تعرف نفسك ، فمعرفة توحيدة .

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٢٢/٤٨٦) ، وأبو داود (٨٧٩) ، والترمذي (٣٤٩٣) ، والنسائي (١٠٢/١) ، وأحمد (٥٨/٦) ، وابن خزيمة برقم (٦٥٤٠) ، والدارقطني (١٤٣/١) ، والبيهقي (١١٦/٢) ، وغيرهم ، من حديث عائشة - رضي الله عنها - .

٣ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ » (١) .
 فبإفعاله فيك تعرفه ، وينقص عزائمك توحده . وأنشدوا :

إلهي إني شاكركَ حامدٌ وإنك مهما زلت النعل بالفتى تباعدت مجدًا وأدبيت تعطفًا ومالي على شيء سواك معولٌ أغيبرك أذعو إلهًا وخالقًا وقد ما دعوا قوم سواك فلم يقم وبالفلك الدوار قد ضل معتر وللعقل عباد وللتفلس شيعمة وكيف يقل القصد ذو العلم والنهي وهل في التي طاعوا لها وتعبدوا وهل يوجد المعلول في غير علة وهل غبت عن شيء فينكر منك وفي كل معبود سواك دلائل ولك وجود من وجودك كائن سرت منك فيها وجدة لو منعتها وكم لك في خلق الفتى من دلائل كفى مكذب لجاحديك نفوسهم	ولاني لساعٍ في رضاك وجاهد على العايد التوابع بالعفو عابد وعلمًا فأنت المدني المتباعد إذا دهمتني العضلات الشدايد وقد أوضح البرهان أنك واحد على ذاك برهان ولا لاح شاهد والنيرات السبع دأع وساجد وكلهم عن منهج الحق حابد ونهج الهدى مذ كان نحوك قاصد لامرك عاص أو لحقك جاحد إذا صح فكر أو رأي الرشيد راشد وجودك أم لم تبد منك الشواهد من الصنع تنبي أنه لك عابد فواجد أصناف الورى لك واجد لأصبحت الأشياء وهي بوائد يراهها الفتى في نفسه ويشاهد تخاصمهم إن أنكروا وتعاقد
---	--

واعلم أن الله تعالى خلق الخلق على أربعة أقسام : ملائكة ، وآدميين ،

(١) لا أصل له : قال ابن تيمية : « بعض الناس يروي هذا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وليس هذا من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا هو في شيء من كتب الحديث ، ولا يُعرف له إسناد » انظر : فتاويه (٣٤٩/١٦) . وقال أبو المظفر بن السمعاني : « لا يُعرف مرفوعًا ، وإنما يُحكى عن يحيى بن معاذ الرازي من قوله » . وكلما قال النووي : إنه ليس بثابت . انظر : المقاصد الحسنة (ص ١٩٨) . وقال السيوطي في « القول الأشبه من « الحاروي للفتاوي » (٣٥١/٢) : « هذا الحديث ليس بصحيح » . وانظر : تنزيه الشريعة (٤٠٢/٢) ، والأسرار المرفوعة (٥٠٦) ، وكشف الخفاء (٣٦٢/٢) ، وتمييز الطيب (١٤٠٢) ، وتذكرة الموضوعات (١٦) ، والدرر (٣٩١) .

وشياطين ، وبهائم . فركب في الملائكة عقلاً بلا هوى ولا شهوة ، وفي البهائم شهوة بلا عقل ، وفي الشياطين العقل والشهوة والهوى ، وكذلك بنو آدم ركب فيهم العقل والشهوة والهوى . فأما الشياطين فغلبت شهواتهم على عقولهم فقطعوا دهرهم بالأخلاق المذمومة في الكبر ، والعجب ، والفخر ، والحقد ، والغل ، والحسد ، والغضب وسائر الأخلاق المهلكة . وأما البهائم فقطعت أوقاتا في شهوات البطن والفرج ، والملائكة مقدسون عن هذه الرذائل جميعها ، ولهذا لم يفتروا ساعة من طاعة ربهم كما قال تعالى : ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يُسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ { الأنبياء : ١٩ - ٢٠ } ، ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ { التحريم : ٦ } . فالراعي منهم راعي أبداً ، والساجد منهم ساجد أبداً ، والقائم منهم قائم أبداً ، وما منهم إلا له مقام معلوم .

وأما بنو آدم فإنهم لما اجتمع فيهم عقل الملائكة وأخلاق الشياطين وشهوات البهائم لم يجرؤوا على أممؤذج واحد كالملائكة والشياطين والبهائم ، ولكن اقتسموا أربعة أقسام : فمنهم : من غلب عقله على هواه وشهوته ، فكأنه من عالم الملائكة كالأنبياء ، والأولياء ، والأصفياء ، والصالحين وقليل ما هم ، ولذلك لا يأنسوا إلى الخلق لبعد همهم عن مجالستهم ، كما قال عليّ - رضي الله عنه - في كلام له : أولئك الأقلون عدداً ، الأكثرون عند الله قدراً ، نور الله قلوبهم بنور اليقين ، وشرح صدورهم بنور الهدى ، فاستلنا ما أحسنه المترفون ، واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبتوا الدنيا بأجساد أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ﴿ يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ { الفرقان : ٦٣ } ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

والقسم الثاني : غلبتهم شهواتهم ، وأسرتهم لذاتهم فأصبحوا يكرعون في اللذات ، وينهمكون في الطيبات والحلال من الرزق ، والتنعّم بالمباحات من المطاعم والملابس والمناكح و ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ { آل عمران : ١٤ } ، وهم مع ذلك قد كسبوه من الحلال ، وأنفقوه في المباح ، فهؤلاء من عالم البهائم ، يتلذذون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وإنما أحقوا بعالم البهائم لأنه لا تكليف على البهائم ، فكذلك هذه

المباحات لا حرج في الاستمتاع بها بعد أن تكون كسبت من حل ويكون استعمالها على الوجه الغير منهي عنه في الشرع . والقسم الثالث : أن يكون الغالب عليهم أخلاط الشياطين من الكِبْرِ ، والعُجْبِ ، والفخر ، والحسد ، والغش والخداع ، إلى سائر الأخلاق المذمومة ، فهؤلاء من عالم الشياطين . وأما القسم الرابع : وهو أن يجتمع في الشخص إفراط الشهوات واتباع الهوى والأخلاق المذمومة ، وهو مع ذلك يكسب من غير حيلة ، وينفق في غير حقه ، فهذا يكون آدمياً في صورته ، شيطاناً في أخلاقه ، بهيمياً في شهوته ، وهذا القسم أخس رتبة أن يتكلم عليها - نعوذ بالله من عمى البصيرة وظلام السريرة ، واتخاذ الهوى إلهاً ، ومن سوء المنقلب ، ونسأله تنوير قلوبنا بأنوار هدايته ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، قال الله سبحانه : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ { الإسراء : ٧٢ } .

٤ - وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خلق الله الجن ثلاثة أصناف ؛ فصنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الحساب والعقاب ، وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف ؛ صنف كالبهائم - وهذه إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ { الأعراف : ١٧٩ } - وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين - وهذه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ { الأنعام : ١١٢ } - وصنف في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله - وهذه إشارة إلى قول الله سبحانه : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ { فاطر : ٣٢ }^(١)

(١) حديث صحيح : أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكائد الشيطان » برقم (١)، وفي « الهواتف » برقم (١٥٦) ، وابن حبان في « المجروحين » (١٠٧/٣) ، وأبو الشيخ في « العظمة » برقم (١٠٩٧) . من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه . وفي الباب عن : أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - ؛ أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (ج ٢٢ برقم ٥٧٣) ، وسنده حسن ، وكذا أخرجه للحاكم (٤٥٦/٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٨٨)، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٧/٥) .

ولذلك فاعلم أن ابن آدم أكمل خلق الله - عز وجل - وأنه ما من سائر الحيوان شيء إلا وقد اختصه الله تعالى بطبع واحد وأفرده به وجمعها كلها في ابن آدم ، وفضله على الكل بالعقل ، وإنما جعل الله - عز وجل - لعباده العقول التي هي نور من نوره ليصروا بها أمره ويعرفوا بها قدره ، فيشهدوا لله بما شهد به لنفسه وشهدت له به ملائكته وأولوا العلم من خلقه ، فأيدي العقول تمسك أئنة النفوس ، فالجسم مخر للنفس ، والنفس مخرة للعقل ، والعقل يستمد من الحضرة الإلهية ، وعنه تصدر الحكمة التي هي رأس العلوم ، وميزان العدل ، ولسان الإيمان ، وعين البيان ، وروضة الأرواح ، وأمن الخائفين ، وأنس المستوحشين ومتجر الراغبين ، وحظ الدنيا والآخرة ، وسلامة العاجل والآجل ، لا تندرس آثارها ، ولا تعفو ربوعها ، ولا يهالك عبد بعد علمه بها ، وإنها سميت الحكمة حكمة لأنها محكمة ، والمحكم المتقن ، والمتقن الذي ليس فيه نقص ولا شيء يشينه ، وهي الهدية من الحكيم إلى قلب الحكيم ، وهي حياة القلوب . كما قال لقمان - رحمه الله - لابنه : « يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك يُحيى قلبك ، فإن الله تعالى يُحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يُحيى الأرض بوابل المطر » .

قال الله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيى الأرض بعد موتها ﴾ فالمطر أثر رحمة يُحيى به الأرض بعد موتها ، والحكمة أثر رحمة يُحيى بها القلوب الغافلة الميتة ، إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ، قال الله سبحانه : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ { الانعام : ١٢٢ } .

وذكر أن إبراهيم - عليه السلام - أمره ربه بدعوة الخلق إليه ، فقال : يا رب كيف أدعوهم إليك مع قساوة قلوبهم ، فأمره الله تعالى بخروجه إلى الساحل ، فأخرج له من البحر دابة طولها فرسخ ، فمزقتها السباع والطيور ، ثم أحيهاها الله تعالى وسبحت في الماء فقال الله تعالى : إن الذي أحيها ما ترى قادر على أن يُحيى القلوب الميتة ، ولذلك الإشارة بقوله تعالى :

﴿ أولم يروا أن الله خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يُحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ { الاحقاف : ٣٣ } .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والحكمة في نفسها إصابة الحق ، فإذا وردت على القلب تنبت بالحق وكشفت سنن الجهل ، ودلت على مكامن الهدى ، وجلت القلوب من صداها ، والعقل هو رأس التدبير ، وبه صلاح النفس وموات العيوب ، وهو أرفع شيء خلقه الله - عز وجل ، فبه يرتقي الطالب إلى معرفة أسرار الكون الخفية عن الأبصار ، المحيطة بالافكار ، فتعاین القلوب حقائق الغيوب ، وبصحة شواهد الأسرار تلج الضمائر في بحار الافكار ، وتطمئن القلوب إلى ما لحقت به من العالم المحجوب عن الأبصار ، فكلما شقت الغيوب دلتها عن صنع وفكرة ، وقابلها من القلوب هبة وفكرة ، فالعقول شاهدة بحقائقها ، ممتنعة عن العلم بإحاطتها ، وإنها ترتقي إليها وهماً لا تحقيقاً ، وتعلم ذلك تفكيراً لا نظراً ، فلولا العلل لصفّت المعرفة ، ولولا العلائق لانكشفت الحقائق ، ولولا فتنة النفس لارتفعت الحجب ، ولولا ظلمة الكون لظهر نور الغيب ، ولولا البعد لشوهد الحق ، فإذا انكشف الحجاب بحسم هذه الأسباب ، وترتفع العوائق بقطع العلائق ، فانت الآن محجوب عن ذاتك بلذاتك بذاتك ، وممنوع عن صفاتك لصفاتك عن اكتساب حياتك في حياتك ، ومن حُماّتك لغلبة عداّتك ، فلولاك لولاك ، أنت علة عقابك ، أنت السبب في عذابك ، أنت المثبت لذللك في كتابك ، أنت المنجس لثيابك ، أنت الميتة في إهابك ، أنت المهاجر لأحبابك ، أنت النائي عن اقترابك ، أنت الراغب في توبيخك وعتابك ، أنت المضيق للفضائل في كهولك وشبابك ، أنت الغافل عن دائك ومابك ، أنت المسيء لنفسك في حياتك ، أنت المبتاع بالجفاء عداوة صاحبك ، أنت القاطع بسوء فعلك صلة قرابتك وأحبابك ، أنت المغلق بتماديك على المعاصي جميع أبوابك ، لم نفسك فاللوم أولى بك . وأنشدوا :

بدا لك سرّ طال عنك اكتمامه	ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه	ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حلّ فيه وطنبت	على منكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يُمل سماعه	شهى إلينا نشره ونظامه

وأما الوصول الحقيقي بعد مباينة اللطيف الكثيف . وأنشدوا :

سِير بِالرُّوحِ إِلَى أَعْلَى الْعُلَى وَسَقَى مِنْ مَاءٍ بَرْدٍ وَنَسِيمٍ

رَجَعَ الْأَصْلُ إِلَى عُنْصُرِهِ وَبَقِيَ الْهَيْكَلُ فِي التُّرْبِ رَمِيمٌ

٥ - وبلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لعلي - رضي الله عنه : « يا علي ! إذا اكتسب الناس أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربهم ، فاكسب أنت أنواع العقل تفتهم بالزلفى في الدنيا والآخرة » (١) . فلذلك فاعلم أن الإنسان إنما كلف وخوطب لأجل عقله ، ولولا عقله ما كلف شخصه شيئاً من العبادات ، ولا استقل جسمه بحمل أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . قيل : لما عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فقال لها : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوريت ، وإن أسأت جوريت وعوقبت . قالت : لا . فقد بان أن الإنسان إنما كلف حملها لما ركبه الله فيه من العقل ، فبالعقل صار الإنسان هو الحامل والمكلف والمخاطب ، وأنشدوا :

مَا وَهَبَ اللَّهُ لِمَرْءٍ هَبَةً أَحْسَنَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أَدَبِهِ
هُمَا حَيَاةُ الْفَتَى فَإِنْ فُقِدَا فَقَفَدَهُ لِلْحَيَاةِ أَجْمَلُ بِهِ

واعلم أن العقل عقلاان ؛ عقل إلهي ، وعقل يكتسبه الرجل بالتجربة والتهديب ، فمن غلب عقله هواه افتضح ، ومن زاد علمه على عقله كان وبالأعلى عليه ، ومن لم ينفعه العلم لم يأمن ضرر الجهل ، فأنت إذا أجلت فكرك اعتبرت ، ومن أكثر الفكر اعتبر ، فإن القلب يبصر ما يعمي عنه البصر .

وأنشدوا لعلي رضي الله عنه :

أَنْتَ الَّذِي حُزْتُ كُلَّ أَيْنٍ فَحَيْثُ لَا أَيْنَ ثُمَّ أَنْتَ
وَحُزْتُ حَدَّ الدُّنُو حَيْثُ لَا يَعْلَمُ الْأَيْنَ أَيْنَ أَنْتَ
فَحَيْثُ لَا أَيْنَ مِنْكَ أَيْنَ وَلَيْسَ أَيْنَ بِحَيْثُ أَنْتَ
وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ فَيْئِكَ وَهْمٌ نَبِيْعِلْمِ الْوَهْمِ أَيْنَ أَنْتَ
فَأَنْتَ مِنْي خَيْالٌ عَيْنِي وَحَيْثُ مَا كُنْتُ كُنْتُ أَنْتَ

(١) موضوع : قال ابن القيم - رحمه الله - في « المنار المنيف » (ص ٢٥) : « أحاديث العقل كلها كذب » .

وقال ابن حجر - رحمه الله - في « المطالب العالية » (١٣/٣) عن أحاديث العقل :

« موضوعة كلها ، لا يثبت منها شيء » . أم .

وفي فنائي فَنافِنائي وفي فناء وَجَدتْ أَنْتَ
فَمَنْ بِالْعَفْوِ يَا إِلَهِي فلستُ أَرْجُو سِوَاكَ أَنْتَ
مَحوتِ رَسْمِي وَرُوحَ جِسْمِي سُئِلَ عَنِّي فَقُلْتَ أَنْتَ

واعلم أن مخرج الاعتبار من القلب ، فإذا كان القلب طاهراً نفذ الاعتبار في الغيب ، وسمت به الهمة ، ولم يمنعها مانع من الأئس ، وأشرقت به أنوار الحكمة .
وأنشدوا في ذلك :

الْإِنَّمَا نالَ التَّذْكَرَ مِنْ يَخْشَى وَاللهِ أَسْرارُ تُصْانُ وَلَا تُفْشَى
فَمَنْ رُزِقَ التَّقْوَى وَإِصْلاحُ نَفْسِهِ رَأى فِيهِ لِلأَشْياءِ أَجمَعِها نَفْشَى
فِيالكَ مَنْ خَلقَ عَجيبَ لِفَاطِرٍ تَصوورَ ما فِي اللُّوحِ فِيهِ أَنْشَى

واعلم أن بالفكر الثاقب يدرك الأمر العازب ، فمن تذكر سلم ، ومن روى غنم ، ومن سأل علم ، ومن ترك السؤال غرق في الجهل ، فالفكر طريق إلى الحق ، ودليل على الصدق إذا كان سديداً ، فإذا نسبت سلوك طريق الفكر السديد ، فاقنت بهدى الشرع الحميد ، فإن وصلت إلى معرفة علم التوحيد فهو العلم الذي تريد ، وإن خالفته في جواب أو سؤال فاعلم أنك على ضلال وتحقق أنك غالط ، فاستدرك الفارط .

الفكر أصل ثمرته المعرفة ، والمعرفة ثمرة طعمها العمل ، والعمل طعمة لذتها الإخلاص ، والإخلاص غاية لذتها النعيم ، ونعيمها غاية ليس لها انقضاء ، هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وأنشدوا :

عَلَيْكَ بِالفِكرِ رَأْسَ العِلْمِ وَالعِبرِ إِنْ التَّفْكَرَ قَوَتْ النَفْسُ فَادْكِرِ
وَلَا تَكُنْ بِظِلَامِ الجِهْلِ فِي عِماءِ فَالعِلْمُ نَورٌ وَلَا يَبْيدُ بِلا نَظَرِ
فَإِنْ أَجَلَى لِلوَرَى مِنْ هَمِّ هَمَّتِهِ أَخْلَى سَويَدائِهِمْ مِنْ يَقطِظَةِ الفِكرِ

واعلم أن لكل عمل كمالاً ، وكمال الدين الورع عن المحارم ، ومعرفة الباري – جل وعز – باليقين به ، فاعتبر المخلوقات المعبر عنهم بالعالم بثاقب ذهنك ونظرك ، تجد افتقار بعضهم إلى بعض متصاعداً من الأرض إلى العرش ، ومنحدراً من العرش إلى الثرى ، لا يستغنى بعضه عن بعض ، ولا يقوم بعضه بنفسه دون بعض ، قال الله

تعالى : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ [الملك : ٣ - ٤] .

فجميع الخلق من سبل العرش متصلة إلى معرفته ، وحجة ناطقة بالغة بوحدانيته وربوبيته ، فالعالم كله كتاب حروفه أشخاصه يقرؤه المستبصرون على قدر بصائرهم .

وأنشدوا :

حروف الليالي مبهمات عويصة فإن كنت ذالِب ستشرحها شرحا
حجاك ضياءً في دجاك مغيب كنار زناد فلتعدله قدحا
حبيبٌ بنور العلم فاعكف بيا به محباً فإن الله يفتحه فتحا

فبعض العالم آلة لبعضه ، وبيعضه يتم بعضه ، وبكله يتم كله ، لأن الجنس جنس للنوع ، والنوع نوع في الجنس ، فهو جزء منه ، فكل نوع حكمه حكم جنسه ، وكل جنس حكمه حكم نوعه في الهيئة ، والجنس ، والنهاية ، والحدود ، التوصيل ، والتفصيل والحركة ، السكون ، فلذلك كانت الأنواع أجناساً لما تحتها ، وأنواعاً في الأجناس التي فوقها ، وذلك من جهة المشاكلة والخصوص والعموم لا من جهة المخالفة ، فالجنس الأعلى المحيط بجميع ما تحته من الأجناس والأنواع ، لا يقوم بذاته ونفسه ، فإذا لم يقم المحيط بذاته ونفسه فأحرى أن لا يقوم من دونه بنفسه وذاته ، فوجب لذلك أن يكون فوق العالم مالك للأجناس وما تحتها ، يقيمها ويمسكها ، ليس جنساً ولا نوعاً ولا مشاكلاً لشيء من الجنس والنوع بل خلافهم ، فهم من كل جهة اضطراراً فذلك الله رب العالمين . ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ [غافر : ٦٢] . ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٤] . القائم بذاته وكل شيء دونه قائم به ، الموجود بذاته لا بغيره ، وكل ما سواه حادث بعد العدم ، وإنما لها الوجود في غيرها على سبيل العارية ، والوجود لله تعالى ذاتي ليس بمستعار ، خلق من كل زوجين اثنين ، فجعل الوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان ، والنور في مقابلة الظلمة ، والحق في مقابلة الباطل ، والإيمان في مقابلة الكفر ، والحلال في مقابلة الحرام ، والذكر في مقابلة الأنثى ،

والذَّكر في مقابلة النسيان ، والررزق في مقابلة الحرمان ، والجنة في مقابلة النار ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [الذاريات : ٤٩] . فالوحدانية لا تنبغي إلا له كما قال سبحانه : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص : ١] ، وقال عز وجل : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وقد دلنا العقل على أدلة قاطعة في افتقار أجناس العالم وأنواعها إلى واحد من نوعها ، ألا ترى إلى جنس الإنس كيف يفتقرون إلى والٍ يلي أمرهم ، وإلى حاكم يفصل بينهم ، والعسكر إلى أمير يقدمهم ، والسفينة إلى رئيس يديرها ، والجماعة إلى إمام يأمون به ، والقبيلة إلى زعيم يرجعون إليه ، والمدينة إلى سور يحيط بها ، والدار إلى حائط يحيط بها ، والماشية إلى راع يكلفهم ، وهذا كله مطرد في جميع الأشياء ، والكل يفتقرون إلى المبدي المعيد ، الفعال لما يريد ، القاهر فوق عباده .

وأنشد المؤلف رحمه الله تعالى :

تبارك موجود الأشياء طراً	فكل من سواه به يقوم
أحاط بكل جنس فوق نوع	فكل محدث وهو القديم
فليس كمثله شيء تعالى	هو الخلاق وهو به عليم

فقد ألزم سبحانه كل ما سواه الحدث فهو بائن بصفاته من خلقه ، فكلها قام بغيره فالضرورة تمسه ، وكلها بالحياة قوامه فالموت يعدمه ، وكلها بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه ، وكلها بالأدوات اجتماعه فقواها تمسكه ، وكلها يولفه وقت يفرقه وقت ، وكل من أواه محل إدراكه أين ، وكل من كان له جنس طالبه كيف ، وكل من له عرض فالطول مساحته ، وكلها يظفر به الرهم فالنصوير يرتقى إليه ، والذي يسكن جواً يغيب عن جوٍ ، وكلها له جسم له وزن ، وكلها يسكن يتحرك ، وكلها يتحرك يسكن ، وكلها يرتقف بشيء فالفاقة تلحقه ، ولكها يذكر فله النسيان ، وكل من يفكر فمشغول ، وكل من يشاور ناقص والله تعالى منزه عن ذلك كما قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى : ١١] . وأنشد المؤلف رضي الله عنه :

كل من كان حادثاً سيموت	والقديم في ملكه لا يموت
كل جنس وكل نوع فمنه	مبدأ الكل ثم كل خفوت

جل من مبدع ومن أزلي هو يحيي ويميت
ليس يبقى سواه شيء هنالك بك إذ كان ناطقاً أو صموتاً

واعلم أن ذوات الوجود مكتوب على صفحات ألواح نسماها بقلم التوحيد ، كلا بل هو الله ، ومقدمات الحدث تنطق بلسان كل محدث دالة على وحدانية الصمد المحدث بصحيح نتيجة ﴿ قل هو الله ﴾ . فيا منزه المالك من دعاوي النصرانية ، والمقر بأنه تبارك وتعالى ، مقدس عن باطل إفاك شرك الوثنية وقول المجوسية ، إياك أن تجعل له في ملكه شريكاً يُعبد ، أو ثانياً يقُدس ويمجد . ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ { الحج : ٧٣ } . ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ { المؤمنون : ٩١ - ٩٢ } .

واعلم أن الحق تعالى لا ينحصر في حد ، ولا يحد في جهة ، ولا يتنا بعد ولا يشتمل في وهم ولا يتكيف لهم تعالى عن المثل والضد ، وتقُدس عن التشبيه والند ، ونزه عن الولد والصاحبة والولد . ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ { سورة الإخلاص } .

ومن العجائب نقلة الإنسان	ناراً ونوراً في وعائك ركباً
فضلاً أفادك حلة الإحسان	نوراً فؤادك في التفكر في الذي
نال الصفاء مقدس الرحمن	نزهه عما لا يليق بوصفه
ماء معيناً من عيون معان	نعمت عيون العارفين وأمطرا
عرف أصاخ لعرفه الثقلان	ناموا عن الدنيا فتم لديهم
عنها فما تحتمل في الآذان	نطقوا بأسرار يضيق نطاقنا
أن خصصوا بحقائق القرآن	نودوا فراعوا حقه فقرأهم
فحنينهم لغرايب الأحنان	نزلوا فطوبى في مقبيل طيب
باق لباق والتواصل دان	نظروا بأبصار العيون لربهم
بنفائس الإيمان في الإيمان	نفسى الفداء لا نفس قد حُللت

فجميع ملكوته - عز وجل - مرتب بيد تدييره ، مصرف بتقديره ، مزمووم بزمامه محصور في إحاطته ، موقوف على حده ، مضطر إلى إرادته ومشيتته كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ { الملك : ١٤ } . ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ { الزخرف : ٨٥ } .

لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، لا حاكم فيه غيره ولا مدبر سواه ، سبحانه لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فتنة خاطر ، هو الله الواحد الكبير المحيط بجميع ما خلق ، القيوم القائم على كل نفس بما كسبت ، الفعال لما يريد لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لأحد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة على طاعته إلا بمعرفته وإرادته ، هو أكبر من أن ينال بالحواس ، أو يدرك كنه جلاله بالعقل والقياس ، لا يدركه العقل من جهة التمثيل ويدركه من جهة الدليل ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً .

وأشدد المؤلف ما حفظه في النوم عند بدءة التأليف :

كشفتُ قناعَ الشكِّ صدقًا وإنني لأعلمُ أن الكُلَّ في قبضة الصِّمِّدِ
فكلُّ حديثٍ عاجزٍ قاذمٍ به فقيرٌ إلى من لم يكن معه أحدٌ
فكان عظيمًا مستقلًّا بذاته عزيزًا غنيًّا عن عبادة من عبد

في المناجات : أن موسى - عليه السلام - قال : يا رب أين وجهك ، قبل المشرق أم المغرب أم البحر ؟ فأوحى الله تعالى : يا موسى ، أوقد نارًا ثم در حولها ، ثم انظر أين ترى وجهها ، ثم أوقد نارًا فدار حولها فرأها كلها وجهها ، فقال : يا رب أرى لها وجهها بكل مكان . قال : يا موسى : فأنا كذلك ، ثم قال : يا رب أنت تنام أم لا ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، املا قدحًا من ماء وضعه على يدك ثم قف بين يدي واحذر أن تنام ، ففعل ذلك فألقى الله عليه النعاس فوقع القدح من يده وانكسر واندفق الماء فصاح موسى وفرغ ، فقال الله له : يا موسى ، لو نمت طرفة عين لوقعت السماء على الأرض كما وقع هذا القدح من يدك . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

﴿ إِنْ اللَّهُ يَمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ { فاطر : ٤١ } .

وفي المناجات : أن موسى - عليه السلام - ، قال : يا رب لم خلقت الخلق
وليس لك إليهم حاجة ؟ فقال : يا موسى كنت في الهواء لا أعرف فخلقتهم ليعرفوني ،
فيسألوني فأعطيهم ويعصوني فأغفر لهم ، قال : يا رب ، هل خلقت شيئاً يسعك ؟
قال : نعم . قلب المؤمن المخلص لي . قال : يا رب كيف ذلك ؟ قال : لا ينساني ،
فقلبه بذكري محيط بعظمتي ، فأنا جليس من ذكرك ، قال الله سبحانه :

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من
ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ﴾ { المجادلة : ٧ } .

٦ - وقال ابن عمر - رضي الله عنه : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا
رسول الله ! أين الله في الأرض ؟ قال : « في قلوب عباده » ^(١) .

٧ - وفي الخبر قال الله تعالى : « لم يسعني أرضي وسمائي ووسعني قلب المؤمن اللين
الورع » ^(٢) . وأنشدوا :

لئن كنتَ عني نازحاً مُتباعداً فما أنتَ من قلب المشوق بعيدُ
أراك بقلبي كل وقتٍ وساعةٍ كأنك عندي حاضرٌ وشهيدُ

قال عليٌّ - رضي الله عنه : « إن الله تجلى لعباده في القرآن من غير أن يروه ،
وأراهم نفسه من غير أن يتجلى لهم ، لأنه عز وجل أعز من أن يرى في الدنيا وأظهر من
أن يخفى على العقول » .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما : « إنما بدا لموسى - عليه السلام - لمعة من نور
قائمة من قوائم العرش ، فخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبتُ إليك وأنا
أول المؤمنين . قال الله تعالى : يا موسى إن تراني عين تفتنى وإنما أحدثُ يوم القيامة في
بصرك إدراكُ بقاء تنظر به إلى الباقي » . فبالعقل عُرف ، وهو دال العقل ، ودليل الدليل
عليه ، والمؤدي بالمعرفة إليه ، فهو سبحانه ظاهر في غيب ، غائب في ظهور .

(١) موضوع : وانظر : « إتحاف السادة المتقين » للشريف محمد مرتضي الزبيدي الحسيني العلوي (٧/٢٣٤) .

(٢) لا أصل له : قاله الحافظ العراقي في « تخريجه لاحاديث الإحياء » ، وانظر : « إتحاف السادة » للشريف

الزبيدي (٧/٢٤٣) ، و « كشف الخفاء » (٢/٢٧٣) برقم ٢٢٥٦ ، وتنزيه الشريعة (١/١٤٨) ، والفتاوى لابن

تيمية (١٨/١٢٢ ، ٣٧٦) ، والدرر المنتشرة (٣٦١) ، والاحاديث الضعيفة والباطلة لابن تيمية برقم (١) .

وأنشدوا :

غِبْتَ وَمَا غَبْتَ عَنْ ضَمِيرِي فَمَا زَجَّتْ تَرَخَّتِي سُرُورِي
فَاتَّصَلَ الْوَصْلُ بِافْتِرَاقِي فَكَانَ فِي غَيْبَتِي حَضُورِي
فَأَنْتَ فِي سِتْرِ غَيْبِ غَيْتِي أَخْفَى مِنَ الْوَهْمِ فِي الضَّمِيرِ

واعلم أن كل ما يتوهم العقل كلفيته فهو جسم وله نهاية في جسمه وجنسه ونوعه ، وحركته وسكونه ، مع ما يلزمه من الحدود والمساحة من الطول والعرض وغير ذلك ، فالجسم لا يكون إلا في مكان أو تقدير مكان ، والحركة لا تكون إلا في مكان مقترنة بزمان فهي قدر الزمان ، وقد ترفع سبحانه على أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل الزمان والمكان وهو الآن كما كان ، وهو سبحانه منزّه عن صفة المحدود ومثال المحدود ، إذ هو الأزلي قبل سوابق العدم الأبدي بعد لواحق العدم ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم ، ولا لصفاته صفات ، جلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ، كما استحال أن يكون للذات المحدثّة صفة قديمة ، وكل جسم فهو ذو أجزاء مولفة بعد تفرقه ، فالتفرقة نهايته الأولى ، وإذا كان له نهاية فقد ثبت له العدم قبل التأليف ، وكل ما ثبت له العدم قبل ثبت له جواز العدم بعد ، والعدم لا شيء فلا شيء لا يكون منه شيء من ذاته لأنه لا ذات له إلا أن يكون منشئاً ينشيء شيئاً من لا شيء ، فذلك الله رب العالمين ، قال الله تعالى : ﴿أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ { مريم : ٦٧ } ، وقال سبحانه : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ { الإنسان : ١ } .

وأنشدوا :

تبارك من ذل العزیز لعزه ومن هو جبارٌ على الخلق قادرٌ
توحّد بالملك الذي هو أهله فليس له فيه شريكٌ يشاورٌ
له نعمةٌ لا تستطاع ورحمة وملكٌ على أشرفنا ومقادرٌ
لقد حارت الأوهام في ملكوته كما عميت عند العوين النواظرٌ
فسبحانه سبحانه جل ملكه هو الأول الباقي كما هو آخر
فليس لمخلوق على الله حجة وليس لمخلوق من الله ناصرٌ

قال ابن عمر - رضي الله عنهما : « من زعم أن الله معه بارئ أو خالق أو رازق أو قاضي ، أو يملك لنفسه ضرراً أو نفعاً أو موتاً أو حياة أو نشوراً لعنه الله وأعمى بصره ، وأخرس لسانه ، وجعل عمله هباءً مشوراً ، وقطع به الأسباب ، وأكبه الله على وجهه في النار » .

وقال جعفر الصادق - رضي الله عنه : « من زعم أن الله تعالى على شيء ، أو في شيء ، أو من شيء فقد أشرك ، لأنه سبحانه لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان عدماً » .

وسئل ابن معاذ - رحمه الله - عن الله تعالى فقال : « هو إلهٌ واحدٌ » . قيل : كيف هو ؟ قال : « ملكٌ قادرٌ » . قيل : فأين هو ؟ قال : « بالمرصاد » .

وقيل : سأل رجل الإمام أبي المعالي - رحمه الله - فقال له : إني أريد أن أسألك سؤال عامي فلا تعتب عليّ ، قال له : سل عما بدا لك ، قال له الرجل : ما الدليل على أن الله تعالى لا يُعرف بالجهات ؟

٨ - فقال له أبو المعالي : الدليل على ذلك قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تفضلوني على أخي يونس بن متى » ^(١) . فتعجب الطلبة من قوله ، وقالوا له : يا سيدنا سألك مسألة من العقائد أجبتة بحديث بلغك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ولم تشفه في مسألته ، فقال لهم : شغل خاطري ، قالوا : بماذا يا سيدنا ؟ قال لهم : من أجل دين وجب عليّ عدده خمسمائة دينار ، فقال الطلبة : نفترضها على أنفسنا ، قال : إنما أريدها من واحد ليكون أجمع لخاطري . قال له السائل : أنا أؤديها عنك واشفني في مسألتي شفاءً بيناً ، قال له الإمام : الدليل على أن الله تعالى لا يُعرف بالجهات دليل عقلي شرعي ، وهو قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقوله هداية وبيان : « لا تفضلوني على أخي يونس بن متى » إشارة لنفي القرب والبعد من المسافة والمساحة إذ كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عرج به إلى حيث شاء الله من غاية الارتفاع كما قال تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ { النجم : ٩ } ، وكان يونس بن متى - عليه السلام - في بطن الحوت في غاية الهوى والانخفاض في

(١) أخرجه بنحو البخاري (٣٤١٤) ، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ظلمات ثلاث ؛ ظلمة المعصية ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة ماء البحر ، فسار به في أربعين يوماً مسيرة أربعة آلاف سنة حتى طاف به السبعة الأبحر والدجلة والفرات ونيل مصر إلى انتهائه إلى اللجة الخضراء ، فلم يكن أحدهما أقرب من صاحبه بالمسافة ، فعرف الطلبة حينئذ مقصده ، والحكمة في ذلك قول الله سبحانه في كتابه العزيز ﴿ واسجد واقترب ﴾ { العلق : ١٩ } ، ولم يقل قم واقترب ، والبرهان يشهد أن القائم أقرب بالمساحة إلى السماء من الساجد ، فلما كان القرب إلى الله بالمسافة مستحيل لا يجوز عليه تحققنا أن القرب منه سبحانه إنما هو قرب الرحمة والرضوان ، لا قرب المسافة من المكان ، ولأن أيضاً السجود أكثر تذلاً وخضوعاً من القيام ، فلما بلغ الساجد الغاية في الخضوع بلغ الغاية في القرب .

٩ - ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « يا ابن آدم إن تقربت إليّ شبراً أتقرب إليك ذراعاً ، وإن تقربت إليّ ذراعاً تقربتُ إليك باعاً » ^(١) . وذلك قرب الرحمة لا قرب المسافة فاعلم .

وسئل الواسطي - رحمه الله - عن الكفر لله أو بالله ، فقال : الكفر والإيمان ، والدنيا والآخرة من الله ، وإلى الله ، وبالله ، والله ، ثم قال : من الله ابتداء وإنشاء ، وإلى الله مرجع وانتهاء ، وبالله بقاء وفناء ، والله ملك وخلق .

فينبغي لمن نور الله - عز وجل - قلبه بنور معرفته ، وشرح صدره للعلم بفضل رأفته ورحمته ، وفتح له طريقاً إلى معرفة جلاله وعظمته بالتفكير والاعتبار في مخلوقاته ومحكم صنعته التي اخترعها بقدرته وحكمته أن يستقبل هذه النعمة بالحمد والشكر ، ويستوهمه المزيد من فضله ، والثبات عليها يوم البعث والنشور ، ولا يتمادى على غفلة تمنع من الفوز بالأنوار والأذكار ، ولا يستمر على معصية تقطع المشتغل بها عن اللحاق بالآبرار ، ولا يتعاطى عن ملاحظة ساطع ضياء أنوار الحقائق ، فقد لاحت الأنوار ، ويخفى حاله وغداً تنتهك الأستار ، فمن تناسى التحقيق ضاع عن الطريق ، وفقد

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٧٥٣٦) ، وأحمد (٣/١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٠) ، من حديث أنس بن مالك - رضي

الله عنه - . والشبر : ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر . والدراع : ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع

الوسطى . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا بسطا .

وانظر : « الأربعون القدسية » لأبي الحسن القاري ، (ص ٧١ - ٧٢) .

الرفيق ، فمن أضيع من مستحسن العيوب ، ولا يرغب في انتشاق نسائم الغيوب .
قال الله سبحانه : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ { التوبة : ١٢٨ } ، قد
جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها .

واعلم أن لذة العقل معرفة الرفيق الأعلى ، ومناجاة العلي الأسنى .
قيل لأحد الحكماء : ما لذة الأنفس ؟ قال : مطالعة نسيم الحياة الدائمة ،
والوصول إلى حقائق الغيوب بضمائر القلوب ، والمعاينة بالأفكار لسرائر الأسرار .

وقيل ليحيى بن معاذ - رحمه الله - أخبرنا عن أحلى الأصوات في دار الدنيا ؟
قال : زمير أنس تظن في مقاصير قدس ، بألحان توحيد في رياض تمجيد ، بمطربات
المعاني من تلك المثاني المؤدية بأهلها إلى القسم الثاني ، القاذفة في مدرجات الأمانى في
مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وفي الخبر : أن الله تعالى أوحى إلى داود - عليه السلام - بي فافرح ،
وبمعرفتي فافتخر ، وبذكري فتلذذ ، فَعَمَّا قليل أفرغ الدار من الفاسقين ، وأنزل لعنتي
على الظالمين .

وأنشدوا في ذلك :

أهابك أن أبدي إليك الذي أخفي	وطرفك يدري ما يقول له طرفي
نهائي حياتي منك أن أكشف الهوى	فأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
ترأيت لي بالغيب حتى كأنما	تخيل لي بالغيب أنك في الكف
تلطفت في أمري فأديت شاهدي	إلى غائبي واللفظ يدرك باللفظ
أراك وبني من وحشتي لك هيبة	فتؤنسني بالأنس منك وبالعطف
ليحيى مُحب أنت في الحب حثفه	وذا عجب كون الحياة مع الحثف

وينبغي أيضاً أن لا يميل فيما أمر به من الطاعة واجتناب المعاصي إلى الرخص ،
ويذكى قلبه مع الساعات ، ويحييه بذكر الرب والمواعظ والقصص ، ويأخذ أمر دينه
بالحزم والجد دون تسويق ، فقد ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويق ،
فالذي يأخذ أمر دينه بالشدّة كالذي يتعلّق بحبلين ، إن انقطع الواحد تعلق بالآخر ،
والذي يأخذ أمر دينه بالرخصة كالذي يتعلّق بحبل واحد ، فإذا انقطع الحبل سقط

وهلك . فالخارم بمنزلة رجل قد دنت منه السباع ، فهو خائف حذر يخاف إن اشتغل أو غفل افترسته السباع وأكلته فهو مذعور وجل ، يطلب أسباب النجاة منها حتى يبلغ المأمن ، فكذلك ينبغي للعبد المرید لسعادة نفسه أن يكون بمنزلة هذا يحترس مما يخاف منه الهلاك حتى يبلغ المأمن بتوفيق الله تعالى .

١٠ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « الإيمان قولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح ، ويقينٌ بالقلب » (١) .

فهذه متعلقة بعضها ببعض ، لا يستغنى بعضها عن بعض . وأنشدوا :

أساسُ أعمالِ الورى نياتهم وعلى الأساس قواعدُ الحيطانِ

فينبغي أن يستحي العبد الضعيف من ربه الرقيب على قلبه الموجد له بعد العدم ، المنعم عليه في الظاهر والباطن بسوابغ النعم بغير استحقاق ولا وجود عليه ، بل بسعة الرحمة والتعطف والكرم ، مخرجه من الضلال إلى الهدى ، مطهرة بالاستغفار من دنس المعاصي والردى ، ويحاسب أيضاً نفسه قبل أن يحاسب ويذكرها ما هي صائرة إليه من معاينة هول ملك الموت ولقاء الجبار ، والبشارة من ربه جل وعز بالجنة أو النار ، إذ لا ثالث لهما ، فمن حرم الجنة صار إلى النار ، ويعلم يقيناً أنه من استقام على طاعة ربه وآمن بتحقيق من قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ { فصلت : ٣٠ }

وقال سبحانه : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ { الأنعام : ٨٢ } . وصدق برسالة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى يقبض على ذلك إذ لا تنفع شهادة التوحيد ما لم تقترن بشهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قال الله سبحانه أمراً منه لعباده وفرضاً عليهم : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ { التغابن : ٨ } .

(١) موضوع : أخرجه بنحوه ابن ماجه (٦٥) ، والأجري في « الشريعة » (ص ١٣٠ - ١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢/١) ، والخطيب في « تاريخه » (٣٤٣/١٠ - ٣٤٤ ، ٤٧/١١) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١٢٨/١) ، والمزي في « التهذيب » (٢/٨٣٢) ، وغيرهم . من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه ، وسنده موضوع ، المتهم به هو : عبد السلام بن صالح الهروي ، كذبه العقيلي وابن طاهر واتهمه ابن عدي .

وقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ {سورة محمد : ٢} .

وقال سبحانه : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ {النور : ٦٣} ، وقال سبحانه : ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ {الأعراف : ١٥٨} .

١١- وورد في الخبر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يقول الله تعالى : أقسمت بملكي وعظمتي وشأني وقدرتي أنني لا أعذب من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا أحرقه بالنار ، ومن قام بحدودها » ^(١) .

١٢- وقال عليه السلام : « لا صلاة بغير وضوء ، ولا إيمان لمن لم يؤمن بي » ^(٢) .

فإذا قبض العبد على ذلك صار إلى ملك لا يلى ولا يبيد ، ونعيم لا يفنى بل يتضاعف كل حين ويزيد ، ويشرف عند ذلك بالنظر إلى وجه ربه الغني الحميد ، في جنات ما هم منها بمخرجين أبد الأبدين ، لأنهم دخلوها بالفضل لا بالعهد ، الذي دخل به آدم - عليه السلام - فلما دخل بالعهد خرج منها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ {طه : ١١٥} .

والعهد قوله سبحانه : ﴿إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ {طه : ١١٧} ، فكانه تعالى يقول : يا آدم إن أطعما هذا العدو فيما يأمركما به أخرجكما من الجنة فتشقى ، فأضاف الأقوال إلى نفسه لقوله تعالى : ﴿اسكن أنت وزوجك﴾ {البقرة : ٣٥} ، وأضاف الإخراج إلى إبليس لأن المضيف إذا كان كريماً لا يخرج ضيفه من ضيافته ، فلما أطاع العدو نسي العهد أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض ، والمؤمن يدخل بالفضل فلا يخرج منها أبداً كما قال عز وجل : ﴿إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسه فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾ {الحجر : ٤٥ - ٤٨} ،

(١) لم أقف على سنده لأحكم عليه ، والله أعلم .

(٢) ضعيف جداً : رواه عبد الملك بن حبيب الأندلسي ، عن أسد بن موسى ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس . كذا في « التلخيص الحبير » (١/٧٥) . وقال الحافظ : « وعبد الملك شديد الضعف » . أهـ .

لأن الفضل لا ينقطع أبداً بل هو دائم بدوام الفضل ، ولهم فيها ما تشتهيهِ الأَنفس وتلذ الأَعين ، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال الله سبحانه : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ { ص : ٥٠ - ٥٤ } .

وقال تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ { ق : ٣٤ } .

١٣ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله أحاط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وأمر الملائكة فشققت فيها الأنهار ونزلت فيها الثمار ، فلما نظرت الملائكة إلى زهرها وحسنها قالت : طوبى لأهلك في منازل الملوك » (١) .

ومن حاد عن هذا الطريق المستقيم وأعرض عما جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام - أمر به الهوان والنكال والحجاب الذي هو رأس العذاب إلى النار التي حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وأنكالها حديد ، وأهلها فيها خلود ، والعذاب عليهم كل حين جديد ، وشرابهم فيها الصديد والحميم ، وعذابهم أبداً مقيم ، الزبانية تجمعمهم ، والهاوية تجمعمهم ، لهم فيها ضجيج ، قد شدت أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم بذل المعاصي ، أمانيهم فيها للهلاك ، وما لهم من أسرها فكاك ، ينادون يا مالك حق علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإننا لا نعود ، فيقول لهم بعد صراخهم ألف سنة هيهات هيهات لا خروج لكم من الهوان ، فمقامكم أبداً بين أطباق النيران ، اخسئوا فيها بغضب الرحمن ، قال الله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ { فاطر : ٣٦ - ٣٧ } . وقال تعالى : ﴿ فإن يصبروا

(١) حسن لغيره : أخرجه أبو نعيم في « الخلية » (٢٠٤/٦) ، وفي « صفة الجنة » برقم (١٤٠) ، وغيره ، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه .

وراجع : « تقريب البغية » بتحقيقنا ، كتاب الجنة ، والحمد لله وحده .

فالنار مثوى لهم ﴿ فصلت : ٢٤ ﴾ .

في المناجاة : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - يا موسى قل لبني إسرائيل إنه من تحول عما أكره إلى ما أحب تحولت عما يكره إلى ما يحب ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وروي عن الفضيل بن عياض - رحمه الله - أنه قال : مر موسى - عليه السلام - برجل ساجد يدعو بقضاء حاجته ، ثم رجع وهو ساجد ، فقال موسى - عليه السلام - : لو أن الذي يريد قضاءه بيدي لفعلت ، فأوحى الله إليه : يا موسى لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلت منه حتى ينتقل عما أكره إلى ما أحب .

وحكي أن موسى - عليه السلام - انتهى ذات يوم بأغنامه إلى واد كثير الذئاب ، وكان قد بلغ به التعب مداه ، فبقي متحيراً إن هو اشتغل بحفظ الأغنام عجز عن ذلك لغلبة النوم والتعب عليه ، وإن هو طلب الراحة والسكون عاثت الذئاب في الأغنام ، فرمق بطرفه نحو السماء وقال : إلهي أحاط علمك ، ونفذت إرادتك ، وسبق تقديرك ، ثم وضع رأسه فنام ، فلما استيقظ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه وهو يرمى الأغنام فتعجب من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد .

١٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « البرُّ لا يُبلى ، والذنبُ لا يُنسى ، والديانُ لا يفنى ، كن كيف شئت كما تدين تدان »^(١) ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إن أحستهم أحستهم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ { الإسراء : ٧ } .

قال عبد الواحد بن زيد : أتيت بيت المقدس فدخلت الصخرة وغلقت الأبواب ، فلما جنَّ عليَّ الليلُ فتحتها ، فدخل عليَّ ثمانية عشر رجلاً عليهم المدارع ونعال الخوص في أرجلهم ، والمصاحف معلقة في أعناقهم ، قال : فامتأ البيت ضوءاً من نورهم ، فقال بعضهم لبعض : هذا عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين إن كان كذلك ، قال :

(١) ضعيف : أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » (١٧٨/١١ - ١٧٩) ، والبيهقي في « الزهد » برقم (٧١٠) ،

وفي « الأسماء والصفات » (١/١٤٠) ، من مرسل أبي قلابة . وسنده ضعيف لإرساله .

وانظر : « المقاصد الحسنة » للحافظ السخاوي (ص ٥١٩) .

قلت : أسألكم بالذي أكرمكم بهذه الكرامة ألا أخبرتموني من أنتم ، ومن أين أنتم ، وبما وصلتكم إلى هذه الكرامة ؟ قالوا : يا عبد الواحد لا يوصل إلى ولاية الله تعالى إلا بترك الهوى . وقال بعضهم : ما عرف الله - عز وجل - من لم يستحي منه في الخلاء ، قال الله تعالى :

﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ { الملك : ١٢ } .

وقال فتح الموصلي : خرجت إلى بيت الله الحرام ، فلما توسطت البادية الفقراء إذا بغلام صغير في وسط البرية لم تجر عليه الأحكام ، فدنوت منه فسلمت عليه فرد عليّ السلام ، فقلت له : إلى أين أقبلت ؟ قال : أريد بيت ربي تعالى ، فقلت : حبيبي إنك صغير لم تجر عليك الأحكام ، فقال : إليك عني يا شيخ فلقد رأيت ملك الموت قبض روح من هو أصغر مني سنًا ، فقلت له : حبيبي إن الطريق بعيد وخطاك صغار ، فقال لي : الخطأ عليّ والبلاغ عليه ، ألم تسمع ما قال الله عز وجل : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ { العنكبوت : ٦٩ } ، قلت : حبيبي فما أرى معك زادًا ولا راحلة . قال : زادي اليقين أينما كنت يأتيني الله تعالى برزقي ، وراحلتي قدماي أمشي عليها حتى يبلغني الله تعالى ، قلت : لم أسألك عن هذا ، قال : عن ماذا سألتني ؟ قلت : عن الخبز والماء . قال : فما اسمك ؟ قلت : فتح الموصلي . قال : يا فتح : سألتك بمعبودك ألا ما أحببتي عما أسألك عنه ، قلت : سل عما بدا لك ، قال : لو أن أخًا من إخوانك أو خليلًا من أخلائك دعاك إلى منزله أما تستحي أن تحمل معك طعامًا تأكله في منزله ؟ قلت : بلى . قال : إليك عني يا ضعيف اليقين فإن مولاي دعاني إلى بيته وهو يطعمني ويسقيني ويكفيني كل مهم .

قال فتح : فوالذي نفسي بيده ما رأيت صغيرًا أصبح يقينًا منه ، ولا كبيرًا أزهد في الدنيا منه .

وحكي أن بعض الصالحين دخل على أمير فقال له الأمير : سل حاجتك ، فقال له الرجل : من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن به أن يكون لغير الله تعالى عليه منة .

وقيل لرجل من المتوكلين : لم لا تعمل عملاً تستغني به ، فقال : من عرف الله تعالى فلم يستغني به فلا أغناه الله .

وأنشدوا :

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَمْ تَغْنِهِ معرفة الله فذاك الشَّقِيُّ
مَا ضَرَّ ذَا الْفَاقَةَ مَا نَالَهُ في طاعة الله وماذا لقي
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بَعَزَ الْغَنِيِّ والعزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي

وحكي أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة فطال عليه الأمد وزين له إبليس المعصية فعصى الله تعالى عشرين سنة ، ثم نظر يوماً في المرأة فرأى الشيب في لحيته فسأه ذلك فقال : إلهي ، أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة أفإن رجعت إليك أتقبلني ، فسمع صوتاً ولم ير شخصاً : أحبيتنا أحببناك ، وتركتنا فأهلناك ، فإن رجعت إليه قبلناك . فانظر الذين وصلهم اليقين والرجوع بالتوبة عن المعاصي قبل لقاء أسرع الحاسيين .

وقال ذو النون - رحمه الله : وصف لي رجل باليمن برز على الخائفين وسما على المجتهدين ووصف باللب والحكمة والتواضع والرحمة ، فتحملت إليه لأنتفع بموعظته ، فأقمت على بابه أياماً ومعني أناس يطلبون منه ما أطلب ، وكان في القوم شابٌ عليه آثار الصالحين ومنظر الخائفين مصفر اللون من غير مرض ، أعمش العينين من غير رمد ، ناحل الجسم من غير سقم ، يحب الوحدة ويأنس بالخلوة ، تراه كأنه قريب عهد بمصيبة ، قال : فخرج الشيخ ذات يوم إلى الجمعة فاتبعناه بأجمعنا لنكلمه ، فبدر إليه الشاب وسلم عليه ، فأبدى له الشيخ السرور والترحيب ، ثم قال : إن الله - تبارك وتعالى : قد جعلك وأشباهك وأمثالك وأشكالك أطباء لسقام القلوب ، ومعالجين لأوجاع الذنوب ، وفي جرحٍ قد نغل ، وداء قد استكمل ، فإن رأيت أن تلتطف لي ببعض مراهمك ، وتعالجني برفقك ، قال له الشيخ : سل عما بدا لك ، فقال : يرحمك الله ، ما علامة الخوف من الله عز وجل ؟ قال : أن تأمن كل خوف غير خوفه ، فجعل الفتى يضطرب كالورقة في ريح عاصف والشيخ واقف بإزائه ، قال ثم إن الفتى ثبت وأمر يديه على وجهه ، ثم قال للشيخ : يرحمك الله ، ما علامة المحب ؟ قال : أن لا يراك أحداً سواه ، وأن لا يسكن قلبك إلا إياه . فانتفض الفتى انتفاضاً شديداً وجرت دموعه على خده كنظام اللؤلؤ ، قال له الشيخ : يا فتى درجة المحيين رفيعة ليس فوقها درجة ، قال الفتى : فلإني أحب أن تصفهم لي ، قال الشيخ : إن المحيين شق

لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلب إلى الله - عز وجل - فعادت أبدانهم دنياوية ،
وأرواحهم حجبية ، وعقولهم سماوية ، وقلوبهم نورانية تسرح بين أرواح الملائكة ،
ويشاهدون الأمور بالعيون ، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم لحبهم له لا لجنة ولا لنار .
قال : فصاح الفتى صيحة خر مغشياً عليه ، فحركه الشيخ فإذا هو ميت رحمه الله ،
فأكب عليه يلثمه وهو يقول : هذا مصرع الخائفين ، هذه درجة المجتهدين ، هذا أمان
المتقربين ، فأخذ في جهازه ودفنه رحمه الله ونضر وجهه . وأنشدوا :

تشاغل قـومٌ بدنـياهم	وقـومٌ تخلّوا لمولاهم
فطوراً ينادونه سُجـداً	ويبكون طوراً خطاياهم
ولا يعرفون سوى ربهم	فيشكوا إليه بيلواهم
يصفون في الليل أقدامهم	وعين المهيمن ترعاهم
وألزمهم باب مرضاته	وعن سائر الخلق أغناهم
إذا زين الخلق أسواقهم	فسوق المحبين نجواهم
بضاعتهم صومهم بالنهار	وطول القيام لمولاهم
هم القوم والواملك الملوك	بصدق القلوب فولاهم
فطوبى لهم ثم طوبى لهم	إذا بالتحية حياهم
وقال لهم مرحباً مرحباً	وأهلاً وسهلاً أدناهم

وذكر أن بلعام بن باعور لما غضب الله تعالى عليه أخذ بيده صخرة وجعل يضرب
بها صدره ويكي لأنه كان كلما أراد أن يذكر الله تعالى ولم يقدر ضرب بالصخرة صدره
ويكى وصاح وقال : واحرماته ، وامصيته ، وافضيحتاه ، واعدم رياه كان لي ذخرًا
عدمته ، وكان لي حبيبًا فقدته ، ثم يكي ويقول : مالي أنادي ولا أجاب ، أمحيت من
ديوان الأحباب أم جعل دوني الحجاب ، وحقت كلمة العذاب ، فياليتني كنت ترابًا ولم
أصل إلى هذه الغاية ، فكان كل من سمعه يكي عليه ويرحمه ، فأجيب يوماً فقيل
له : ما من شيء نقض عهدنا بعد آياتنا واتبع هواه إلا عذب قلبه ، وفقد ذكر ربه ،
وصار في عذاب جهنم مخلدًا ، فضرب بالصخرة صدره حتى عُشي عليه ، فقيل له :
لم تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : يحق لي بعد ما كان قلبي ملآن من محبته صار فارغًا من
معرفته ، فكان هذا دأبه .

وأنشدوا :

عصيتُ الهوى أيام شرخ شببتي فلما رمتني بالمشيب يد الكبر
أطعتُ الهوى تمس القضية ليتني خلقتُ كبيراً ثم عدتُ إلى الصغرِ

وقيل مصائب العالم في خمس ؛ المرض في الغربة ، والموت في الشباب ،
والفقر في المشيب ، والعمى بعد البصر ، والنكرة بعد المعرفة . وهي رأس الحرمان ثبتنا
الله على الوفاء بعهده ، وحشرنا عارفين له محيين فيه .

وقال بعض الحكماء : إذا اتقيت ربك ، وحذرت الطريق المؤدية إلى الشر لم تقع
في الشر . وأنشدوا :

اعمل لنفسك خيراً وأنت مالك مالك
من قبل أن تتفانى ولون حالك حالك
ولست تعلم يوماً أي المسالك سالك

١٥ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله تعالى يقول كل يوم : أنا العزيز ،
فمن أراد العزَّ فليطع العزيز » (١) .

وأنشدوا :

بتقوى الإله نجما وفاز وصار إلى ما رجا
ومن يتق الله يجعل له كما قال من أمره مخرجا
ويرزقه من حيث لا يحتسب وإن ضاق أمره به فرجاً

فالمرء المحب لسعادة نفسه لا يقصر عن نفسه لا سيما إذا كان المقام في هذه الدار
من الممتنع ، والخروج منها واجب ، فالمراد بالتطهير تبرئة القلب عن الأخلاق الذميمة ،
وتنزيهه عما لا يرضاه الله تعالى ، لأن القلب هو قطب البدن ، وعليه تدور حركته ،

(١) موضوع : أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٧١/٨) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١١٩/١) -

(١٢٠) ، والخليلي في « الإرشاد » كما في « لسان الميزان » (٥٩/٣) ، من حديث أنس - رضي الله عنه .

قلت : وسنده موضوع المتهم به هو : سعيد بن هبيرة المروزي ، قال ابن حبان : يروي الموضوعات عن
الثقات ، كأنه كان يضعها أو توضع له فيجيب فيها « أهـ .

وإنما الجوارح أتباع وخدم يستخدمهم القلب ويستعملهم استعمال الملك للعبيد ،
 واستخدام الراعي للرعية ، والصانع للآلة ، والقلب هو المقبول عند الله - عز وجل -
 إذا سلم من غير الله تعالى .

١٦ - قال كعب - رضي الله عنه : دخلت على عائشة - رضي الله عنها فقلت : الإنسان
 عيناه هادي ، وأذناه سمع ، ولسانه ترجمان ، ويده جناحان ، ورجلاه بريد ، والقلب
 ملك ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - يقول ^(١) .

وقال عليّ - رضي الله عنه - في تمثيل القلوب : « إن الله تعالى في أرضه آنية
 وهي القلوب ، فأحبها إليه أرقها وأصفها وأصلبها » . ثم فسر ذلك فقال : « أصلبها في
 الدين ، وأصفها في اليقين ، وأرقها على الإخوان » . وهذه إشارة إلى قوله تعالى :
 ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وإلى قوله عز وجل : ﴿ مثل نوره
 كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ [النور : ٣٥] .

شعر :

جررت ذيلك يا بطأل في لعب	وظللت تزهو بذات الدل والغنج
جمام عمرك قد أفضى إلى قصر	وحاج جسمك يكسى الآن بالسج
جلبابُ حسنك لا تبقى نضارته	يفنى الجمال مع الأيام والحجج
جمعت يا أيها الإنسان من ظلم	ومن ضياع مع الإظلام ممتزج
جهلت نفسك لم تعلم حقيقتها	فأنت من جملة الجهال والهمج
جاهد هواك ترى الأنوار ساطعة	فتستتير بصبح فيك منبلج
جواهر العلم في بحر الفؤاد فغص	فيه عليها وخلصها من اللجج
جسومها كالمشاكبي والنفوس بها	مثل الزجاج ونور القلب بالنهج
جرب نجد كل خير فيك مجتمعاً	إن ابن آدم يعطى أرفع الدرج
جمالنا باطل لو كنت مخرجه	إلى الوجود للاح الحق بالحجج

(١) لا يصح : عزاه الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (١٠/٣) إلى : أبي نعيم في « الطيبي النبوي »
 والطبراني في « مسند الشاميين » ، والبيهقي في « الشعب » من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .
 ثم قال : « ولا يصح منها شيء » . وانظر : « إنحاف السادة المتقين » (٧/٢٢٤) .

والقلب أيضاً هو الذي ورد فيه الخبر : هو المضغفة التي إذا صلحت صلح سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد .

١٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه كان عليه من الله حافظ » (١) .

١٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « القلوب أربعة ؛ قلب أجود فيه مصباح منير - أو قال سراج يزهر - فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس وهو قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصبح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب أحياناً ، ومثال النفاق فيه كمثل الأترجة يمدّها القبيح والصدّيد ، فأبي المدين غلب عليه حكم له به » .
وفي رواية « ذهباً به » (٢) .

ويقال : إن الله تعالى يشير إلى عبده المؤمن كأنه يقول له : عبدي سلمت إليك الدنيا بأسرها عاجلاً والعقبى آجلاً موافقة لسؤالك وإجابة لدعائك ، أفلا تسلم أنت إليّ واحداً من أعضائك وهو القلب ، نعم الرب أنا لك ، وبئس العبد أنت لي .

ولذلك فاعلم أن القلب ما دام يقظاناً صلح لخدمة الملك ، فإذا غفل نام ، فإذا نام مرض ، فإذا اشتد سقمه مات ، فإذا مات صار جيفة ، فإذا صار جيفة لم يصلح لخدمة الملك ، فيلقى حينئذٍ للكلب وهو إبليس - لعنه الله - والنكتة في ذلك أن الله - تبارك وتعالى - مثل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، فقال سبحانه :

﴿ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٥] .

(١) إسناده جيد : عزاه الحافظ العراقي في « تخرّيج الإحياء » (١٢/٣) إلى أبي منصور الديلمي في « مسند الفردوس » ، من حديث أم سلمة - رضي الله عنها ، وقال : « وإسناده جيد » أم .
وأما قوله : « كان عليه من الله حافظ » فقال العراقي - رحمه الله (١٢/٣) : « لم أجد له أصلاً » .
فالحديث جيد بلا قوله : « كان ... حافظ » ، والله أعلم .

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه أحمد (١٧/٣) ، والطبراني في « المعجم الصغير » (١٠٩/٢ برقم ١٠٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٨٥/٤) ، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه .
وفي سننه ليث بن أبي سليم ، صدوق لكنه اختلط جداً ، ولم يتميز حديثه فترك .

كأنه يقول للمؤمنين أنتم لا تطيقون مراعاة الشجرة الطيبة الباطنة حتى ينظر كل إلى شجرته ويحفظها ، وأنا أنظر كل يوم إلى قلبك ثلاثمائة وستين نظرة لخدمة شجرتي فاحفظها من آفات الهوى والوسوسة والزيف ، لأن الشجرة قيمتها بالثمرة والنوار ، وقيمة المؤمن بمعرفة الجبار ، فكان الله تعالى يقول عبدي قلبك موضع الشجرة ، أصلها معرفتي ، وأغصانها شهادتي ، وأوراقها طاعتي ، وثمرها توحيدتي ، وذلك منها نصيبي ، فيا عبدي وموحدتي ، أبوك آدم قصد شجرة كان فيها للعدو نصيب فأصابه الذل والهوان والخروج من الجوار لما أصاب منها ، أترى إذا قصد الشيطان شجرة لي فيها نصيب وهي موضع نظري ومقام معرفتي ، أترى أنني لا أمنعه وأطرده وأكافئه بأن أضع ذنوبك على عاتقه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا ﴾ { الإسراء : ٦٥ } .

١٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل القلب كممثل ريشة بأرض فلاة ، تقلبها الرياح ظهرًا لبطنٍ » ^(١) .

فزلات القلوب تحجب عن علام الغيوب ، فاستعن بالله تعالى واسأله التأييد على تطهير قلبك بالحزم والجد من جميع هذه الخباثات التي أنا أذكرها إن شاء الله تعالى .

٢٠ - وقد تكون هذه الخباثات هي سر قوله - صلى الله عليه وسلم - :

« يكون المؤمن في قبره في روضة خضراء قد فرج له قبره سبعون ذراعًا ، ويضئ وجهه كالقمر ليلة البدر ، هل تدررون فيما أنزلت ﴿ معيشة ضنكا ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « عذاب الكافر في قبره يسلم عليه تسعة وتسعون تنيئًا ، هل تدررون ما التنين ؟ تسعة وتسعين حية ينهشونه وينفخون في وجهه إلى يوم القيامة » ^(٢) .

فهذا التنين مركب من صفاته وعدد رؤوسه بقدر أخلاقه اللذيمة وشهواته لمبتاع الدنيا ، وأصل هذا التنين حب الدنيا ، ويتشعب عنه رؤوس بقدر ما يتشعب عن حب

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٤/٤١٩) ، وعبد بن حميد (٥٣٥) ، والروائي في « مسنده » برقم (٥٦٨) ،

وغيرهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) ضعيف : أخرجه ابن جبان (٧٨٢ - ٧٨٣ - موارد) ، والبيهقي في « عذاب القبر » برقم (٨٠) ، عن

أبي هريرة - رضي الله عنه . قلت : وسنده ضعيف لضعف دراج .

الدنيا من الخبائث من حب الدنيا، وحب الجاه، وحب المال، والحسد، والحقد، والعداوة، والبغضاء، والرياء، والمكر والخديعة، والغدر والغش، والخيانة والكذب، والنميمة والبهتان، والبخل وغير ذلك مما يطول ذكرها، فمعلوم بالبصيرة كثرة رؤوسها للدعاة، تلدغه لدغاً أعظم مما يفهم من لدغ التنين، وهو بعينه صفاته التي كانت معه في حياته، كما أن التنين الذي يلدغ العاشق إذا طلق امرأته، أو باع جاريتته، وقد كان يظن أن لا علاقة لها بقلبه، فإذا فارقها ثار لقلبه تين المحبة الذي كان مستكناً في قلبه استكان النار في الجحر، وهو غافل عنه، فقد انقلب ما كان سبب لذته سبب ألمه، وإنما تعذبك شهواتك لفراق محبوباتك، وافتضحك بظهور ما ينكشف لك في تلك الحال، وتجسرك على فوات ما تعرف قدره بعد الموت لا قبله. قال الله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال عز وجل: ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ [العنكبوت: ٥٤]. وقال سبحانه: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾ [الكهف: ٢٩].

٢١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم اجتمعوا في صعيد واحد وسألوني فأعطيت كل إنسان منهم ما سأل لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيتها عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم».

هذا مقال لا يراه من غوى	إلا فستى أم الطريق واشتري
لكل نفس وثن تعبده	من كلف تمنو لها ومن هوى
من ذا الذي تصفوله حرية	والحر مضطر ومن ثم هوى
والناس فيما تذكرون رتب	قد قصرُوا على الحظوظ والقوى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥/٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر - رضي الله عنه. وهو عنده طويل.

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْمَلُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ { التكاثر : ٥ - ٧ } . أي النار في بطونكم فاطلبوها بعلم اليقين لتروها من قبل أن تدركوها بعين اليقين .

قال أبو حامد - رحمه الله : إن الشر معجون مع الخير في طينة آدم - عليه السلام - عجنًا محكمًا لا يخلصه إلا إحدى نارين ؛ نار الندم ، أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضروري في تخلص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان ، وإليك الآن المبادرة إلى أخف النارين وأهون النشرين من قبل أن يطوى بساط الاختيار ، وتساق إلى دار الاضطرار إما إلى الجنة أو إلى النار . وأنشدوا :

من أدمن التشهير أسماله	نال بهما من هو أسماله
ومن يكن قد حط أحماله	للزهو فالتخفيف أحماله
يا عجبًا للمقتني ماله	لم لا يراه فإني ماله
من يفني في الغي أعماله	فرأيه ما زال أعماله
إن الذي فارق أوجاله	من زاره التوفيق أوجاله
من ير قبل الحوض أوحاله	كان من التخليص أوحاله
ومن يكن نازع أبطاله	فمدة الراحة أبطاله
ومن شكى في الأفس أسكاله	فهو مع الموحش أسكاله
إن خالع السابق أحلاله	كان مع الحلية أحلاله
من أبدى التفكير أعلاله	سوف يرى من هو أعلاله

٢٢ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « بعث بشيرًا ونذيرًا وليس لي من الهداية شيء ، وبعث إليليس مزيّنًا وليس له من الضلالة شيء ، فالطاعة بتوفيقه وامتنانه ، والمعصية بحكمته ، وخذلانه » (١) .

قال الله تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا ﴾ { الكهف : ١٧ } .

جعلنا الله وإياكم ممن تذكر فأبصر ، وعلم ما يراد به فشمّر وسلم وشكر .

(١) لم أقف على سنده ، والله أعلم .

ذكر أبواب الكتاب وهي تسعة وتسعون باباً :

— باب الصلاة : وهو جمع ثلاثة أبواب ، في ترك الصلاة ، أو تأخيرها عن وقتها ، أو ترك الإقبال بالعقل والقلب عليها — باب حب الدنيا — باب حب الجاه — باب حب المال — باب البخل ومنع الزكاة — باب الحسد — باب الكبر — باب العجب — باب الفخر — باب الرياء — باب الغضب — باب الظلم — باب الربا — باب أكل الحرام — باب أكل أموال اليتامى — باب الخيانة في الوزن والكيل — باب السرقة — باب الغدر والغل والغش والمكر والخديعة والبغي — باب القتل — باب شهادة الزور — باب البهتان والمباهة — باب الكذب — باب السعي في مضرة الخلق والعيبث بهم ، وقطع السبل — باب النميمة — باب الغيبة — باب الكلام فيما لا يعني — باب التجسس على عيوب الناس — باب فضيحة من يستتر بمعصيته — باب المن بالافضال والجود — باب الزنا — باب اللياسة — باب السماع إلى ما لا يحل — باب شرب الخمر — باب الأيمان الكاذبة — باب خدمة السلطان — باب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — باب الحمية لغير الله — باب تزكية النفس — باب سوء الخلق — باب الإطراء وحب المدح وخوف الذم — باب سوء العشرة مع صاحب — باب سوء العشرة مع الزوجة — باب إذابة الجار والجور على المملوك وقلة الرحمة على العباد — باب قطع صلة الرحم — باب عمقق الوالدين — باب خلف الوعد ونقض العهد — باب التطاول في البنيان — باب قلة الصبر على المكاره والشكوى بها — باب قلة الشكر على النعم — باب ترك الرضا بالقضاء — باب المزاح والضحك وقلة الخوف من الله تعالى — باب الطمع وكثرة الأكل وقلة إكرام الخبز وقلة شكر النعم — باب الاشتغال بالنساء والأولاد عن الطاعات وإهمال الأوقات — باب صحبة الجاهل — باب المرء والجدال — باب فضل العلم ومقت من يطلبه للدنيا — باب ترك حضور مجالس العلماء — باب القدح في العلماء والأئمة وسب الموتى واللعنة — باب ترك قراءة القرآن — باب ترك الذكر — باب ترك الدعاء — باب موالة أهل الكفر والجحد — باب فضل الجهاد والفرار من الزحف — باب فضل الصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - وفضل السلام عليه وحرمان من لا يصلي عليه إذا سمع ذكره صلى الله عليه وسلم - باب فضل الصحابة - رضي الله عنهم - وحرمان من أبغضهم - باب تسوية التوبة والإصرار والنسيان للذنوب وترك الاستغفار — باب قلة ذكر الموت والغفلة عنه .

١ - باب الصلاة

وإنما بدأتُ بها لأن موضعها من الدين كموضع الرأس من الجسد ، وهي أيضاً أول شرائع الإسلام بعد شهادة الحق على يقينها ، والإخلاص بها ، ومعرفة خاصة من جاء بها ، وهي فرضٌ على كل مسلم ، وهي مفتاح الطاعة وجماعُ الذكر ، وشعارُ الإسلام ، وبراءة الكفر ورأس القربان ، والحاكمة على ما وراءها من سائر الأعمال إن تمت نظر فيما بعدها ، ووجب العهد لصاحبها ، وإن ضعيت بطل عمل مضيعها ولم ينظر فيما سواها كما جاء في الأثر الذي مصداقه ساطعٌ في الكتاب في قوله تعالى :

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ ﴿ مريم : ٥٩ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ ﴿ العنكبوت : ٤٥ ﴾ ، وإنما تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إذا أتى بها على الكمال ، فنقصان الصلاة إذاً من الفحشاء والمنكر ، فمن نقص صلاته لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، ولم تأخذه صفة الله للمصلين وإن كان قد صلى بعضها ، لقوله تعالى :

﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ﴿ الماعون : ٤ - ٥ ﴾ ، أي غافلون ، فقد سمّاهم الله مُصلين وجعل لهم الويل إن لم تأخذهم صفة الله للمصلين ، فمن لم تأخذه صفة الله للمصلين فكأنه لم يستكمل الدخول في الدين ، فإذا لم يدخل في أوله لم يدخله ، ويدلك على أنه أول الدين أنه ليس قبلها إلا الشرك .

٢٣ - بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ليس بين العبد وبين الشرك والكفر إلا ترك الصلاة » ^(١) .

٢٤ - وقوله أيضاً - صلى الله عليه وسلم - : « نهيتُ عن قتل المصلين » ^(١) .
وقول الصحابة - رضي الله عنهم : « الصلاة حجاز الشرك » .

(١) أخرجه مسلم (١٣٤/٨٢) ، وأحمد (٣/٣٨٩) ، وغيرهما بنحوه من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما .

(١) إسناده ضعيف جداً : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (ج ١٨ برقم ٤٤) ، وفي سننه عامر بن يساف ، وهو منكر الحديث .

وانظر : « مجمع الزوائد » (١/٢٩٦) ، والحديث من حديث عتبان بن مالك - رضي الله عنه .

٢٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من لم تنه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بُعْدًا »^(١) .

وقد عظمها الله تعالى في كتابه العزيز ، وأوصى بها أنبياءه - عليهم السلام - في قول عيسى - عليه اسلام : ﴿ وأوصاني بالصلاة ما دمت حيا ﴾ { مريم : ٣١ } ، وقال في إسماعيل - عليه السلام - : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ { مريم : ٥٥ } ، وقال لنييه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ { طه : ١٣٢ } والآي فيها في القرآن كثيرة .

وعن الحسن - رحمه الله - في شرح قول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ { آل عمران : ٢٠٠ } ، وقال : معناه اصبروا على الهم والمصائب ، وصابروا على الصلاة ، ورابطوا على الأذان . وقيل : اصبروا في الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله .

٢٦ - وقد جاء في الحديث : « إن أول ما يستل عنه العبد من أعماله الصلاة »^(٢) .

وعلى الجملة : إن الصلاة صورةٌ مصورةٌ ، وصورها رب الأرباب كما صور الحيوان مثلاً ، وفروحها النية والإخلاص ، وحضور القلب ، وبدنها الأعمال ، وأعضاؤها الأصلية الأركان ، وأعضاؤها الكمالية الألفاظ ، فلذلك فاعلم أن المُصلي إذا طلب الوصول إلى ربه فافتتح بقرع الباب ويستأذن فهو قائم حتى يُؤذن له ، وليس يصل بجسمه وإنما يصل بقلبه ، فالإذن له أن يجد قلبه قد وصل إلى حلاوة ذكر من قام بين يديه وغشيه نور قُربه وإعظام جلاله لقيامه بين يديه ، فعرف حيثُذ أن الحجاب قد رُفِع ، وأن قيامه قد قُبِل فخر راعيًا للمنزلة التي أدنى إليها إعظامًا للقرب من ربه ، ولتقبله قيامه ثم هو يطلب في الركوع علامة التقبل والتقرب أيضًا ، فلما وصلت حلاوة

(١) ضعيف : أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » كما في « تفسير ابن كثير » (٣ / ٤١٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » برقم (١١٠٢٥) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٠٩) ، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قلت : وسنده ضعيف ، فيه لث بن أبي سليم ، ضعيف الحديث .

وانظر : السلسلة الضعيفة ، للشيخ الألباني برقم (٢) .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في « الأوسط » برقم (١٨٨٠) ، وغيره من حديث أنس - رضي الله عنه . وانظر بقية تخريجه في « معجم الأوسط » للطبراني بتحقيقي ، والحمد لله وحده .

الركوع إلى قلبه عرف أنه قد قبل ورفع له حجاب آخر فخر ساجداً إعظماً للقرب الثاني وإجلالاً للمقام الذي وصل إليه ، ثم طلب علامة المنزلة الأخرى ، فلما وجد خضوع السجود رفع ليكبر ويستكثر شكراً ، فلما كرر عرف أن هذه النعمة الحادثة عليه من هذا العمل هي نعمة الله تعالى ، فاحتاج أن يجدد شكراً مبتدئاً ، فرجع إلى القيام مستأنفاً للشكر ، فلما قام وركع ثم بلغ إلى السجود كملت له النعمة الأولى والشكر عليها حين بلغ الكمال وتم له الوصول ، فأذن له بالجلوس ليستقر بين يدي ربه - عز وجل - ، فيعلم أنه قد وصل وأكرم بالجلوس والاستقرار ، فحيا ربه تحية الوصول ، ثم سلم على نفسه عن ربه تعالى ليعلم أن ربه سمع تحيته ، فرد الله تعالى عليه بلسان نفسه ، ثم صلى على نبيه الذي هدى به إلى هذه المنزلة من قرب ربه ، فلما فعل ذلك أذن له في حوائجه ليسعف ويعطي ما سأل على يقين من شك فيه لمن صلى هذه الصلاة بهذا العلم وهذه النية ، فهو مراتب .

٢٧ - وهو قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من صلى صلاة يعقلها ويقبله بقلبه عليها غفر له ، ومن غفر له لم يرد عن شيء سأل » ^(١) .

٢٨ - وقوله أيضاً - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن مسعود وهو يدعو في آخر الصلاة : « سَلْ تُعْطَهُ سَلْ تُعْطَهُ » ^(٢) .

وقيل إن الله تعالى أوحى إلى شعيب - عليه السلام - : أرني من نفسك الخشوع ، ومن رقبتيك الخضوع ، ومن قلبك الرجوع ، ومن عينيك الدموع ، ثم ادعني فإنني أستجيب لك ، فبكى شعيب - عليه السلام - مائة عام حتى ذهب بصره ، فرده الله عليه ، ثم بكى مائة عام أخرى حتى ذهب بصره فرده الله عليه ، ثم بكى مائة عام حتى ذهب بصره ، فأوحى الله تعالى إليه : يا شعيب ، ما هذا البكاء ؟ إن كان خوفاً من ناري فقد أمتك منها ، وإن كان شوقاً إلى جنتي فقد أبحتك إياها . فقال : وعزتك وجلالك ما بكائي خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك ، ولكن عقد حبك على

(١) لم أقف على سنده ، والله أعلم .

(٢) حسن : أخرجه أحمد (٤٢٥٥) ط . الشريف المحدث أحمد شاكر الحسيني - رحمه الله - ، والطبراني في

« كبيره » برقم (٨٤١٧) ، من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه ، وفي سننه عاصم بن أبي النجود ،

حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن إن شاء الله تعالى .

قلبي عقدة ما يحلها إلا النظر إلى وجهك ، فقال تعالى له : أما إذا كان ذلك كذلك - فلا يحنك النظر إليّ في جنتي ، ولا بعثن إليك عاجلاً عبداً من عبيدي يخدمك عشر سنين ، ثم أجعله كليمي ببركة مناجاتك فجاء موسى - عليه السلام - خائفاً وجللاً جائعاً فخدمه .

٢٩- وجاء في الحديث : « إن أعمال العباد تنباهي عند الله تعالى ، فتقول الصلاة : أنا أفضلكم » (١) .

٣٠- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مثل الصلاة المكتوبة مثل الميزان ، من أوفى استوفى » (٢) .

٣١- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا ينظر الله تعالى إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه » (٣) .

وروي عن عليّ - رضي الله تعالى عنه - أنه كان إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون ، فيقال له : ما لك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .

٣٢- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » (٤) .

وقال سفيان - رضي الله عنه - : « جار المسجد الذي بينه وبين المسجد أربعون داراً » . وجاء في الحديث عن حذيفة أنه رأى رجلاً يُصلي ولا يتم ركوعها ولا سجودها

(١) لم أهد لإستاد ، والعلم عند الله .

(٢) ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » (٣١٥١) ، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - ، بسندٍ ضعيف فيه جهالة ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٠) من حديث الحسن البصري . وهو ضعيف لأنه مرسل ، وانظر : العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء (١٤٧/١) .

(٣) لا أصل له : قال الحافظ العراقي في « تخريج الإحياء » (١٥٠/١) : « لم أجده بهذا اللفظ » .

(٤) ضعيف : أخرجه الدارقطني (٤٢٠/١) ، والحاكم (٢٤٦/١) ، والبيهقي (٥٧/٣) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه . وسنده ضعيف ، فيه سليمان بن داود اليمامي ، ضعيف جداً . وانظر للمزيد ، السلسلة الضعيفة للعلامة الألباني برقم (١٨٣) .

فقال له : منذ كم تصلي هذه الصلاة ؟ فقال : منذ أربعين سنة . فقال : ما صليت قط ، ولو متُّ متَّ على غير الفطرة » .

٣٣- وجاء الحديث أن الرجل ليصلي ستين سنة ماله صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : « لا يتم الركوع ولا السجود أو يتم السجود ولا يتم الركوع ، أو يتم الركوع ولا يتم السجود » (١) .

٣٤- والحكمة في ذلك ما روي أنه لما عرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السماء فمن كان من الملائكة قائماً سلموا عليه قياماً ثم ركعوا شكراً لله على رؤيته ، ومن كان منهم راکعاً رفعوا رءوسهم من الركوع وسلموا عليه ثم سجدوا شكراً لله على رؤيته - فلذلك يجب أن يستوي من الركوع ثم يسجد - ومن كان منهم ساجداً رفعوا رءوسهم وسلموا عليه ثم سجدوا ثانية شكراً لله على رؤيته فلذلك صار السجود مثني مثني ، فلم يرد الله تعالى أن يكون للملائكة حال إلا وجعل لامة محمد - صلى الله عليه وسلم - حالاً مثل حالهم ، قال الله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : ١٩] فالسجود أفضل الصلاة ، والصلاة أول الفرائض وأفضلها ، فلذلك روي أن الله سبحانه يقول : إذا حصل المؤمنون في الجنة من سجد لي في الدنيا سجد لي هنا ، ثم يقول يا ملائكتي افرجوا لعبادي يسجدون فيسجدون لربهم فيما لا يصفه الواصفون طيباً ، ثم يقول لهم : بدل ما سجدتم لي على التراب والحجر أمرتكم بالسجود في هذا الطيب إكراماً لكم ، يا جبريل ارفع رءوسهم بيدك وقل لهم لا تتعبوا أنفسكم ليس هذا وقت سجود ، ولا هذه دار السجود ، ولا هذا يوم سجود ، هذا يوم الرؤية والوصلة والزلفة ، فطوبى لكم وحسن مآب (٢) .

٣٥- وجاء في الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا ينظر الله تعالى إلى عبدٍ لا يقيم صلته في الركوع والسجود » (٣) .

(١) لم أهدت إليه بهذا اللفظ ، والله أعلم .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٢٢/٤) من حديث طلق بن علي رضي الله عنه .

وانظر : « مجمع الزوائد » للهيتمي (٢/١٢٠) ، وزاد عزوه للطبراني في « كبيره » .

(٣) صحيح : أخرجه ابن خزيمة (١/٣٣٢) ، وأبو يعلى (٧١٨٤) ، من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله

عنه ..

٣٦- وجاء في الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلاً صلى صلاة فأخفها لم يتم ركوعها ولا سجودها ، فقال : « لومات هذا على ما يصنع لومات على غير ملتي »^(١) . وقال - صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أنفع للمؤمنين من الصلاة »^(١) .

٣٧- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قام في فلاة من الأرض فصلى أربع ركعات يتم ركوعها وسجودها يقول الله - عز وجل - عبدي صليتها مُخلصاً أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرتُ له »^(٢) .

٣٨- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ألا أدلكم على رضا الرب - تبارك وتعالى ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « عليكم بآية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة فإن الله تعالى أوحى إلى موسى - عليه السلام - أن من قرأ الآية التي يُذكر فيها الكرسي دُبر كل صلاة مكتوبة مرة واحدة أعطيته قلوب الشاكرين ، وأعمال الصديقين ، وثواب النبيين ، وبسطت الرحمة عن يمينه ، ولم أحجبه عن الجنة إلى أن يموت ، فإذا مات أدخلته الجنة »^(٣) .

٣٩- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ في الوتر آيتين من كنوز الجنة كتبهما الله تعالى بيده قبل أن يخلق الخلق وهما آية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ إلى آخر السورة ، فمن قرأهما كتب الله له ثواب مائتي شهيد ، وكأنا أحياء ستين ليلة ، وبنى الله له ستين مدينة ، وغفر له ولوالديه الذنوب كلها »^(٤) .

٤٠- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « تنزل الملائكة من عند ربكم - عز وجل - فيسلمون على كل قائم وقاعد ، فمن نالته تسليمة الملائكة وجبت له على الله الجنة ؛ القائم في الصلاة والجالس المستغفر »^(٥) .

(١- ١) لم أقف عليهما ، والعلم عند ربي .

(٢) لم أقف عليه ، والله أعلم .

(٣) موضوع : وانظر : « الموضوعات » لابن الجوزي (١/ ٢٤٤) .

(٤) لم أقف عليه ، ولوائح النكارة تفوح منه .

(٥) هو كالسابق .

٤١ - وعنه - صلى الله عليه وسلم - : « أخبر جبريل - عليه السلام - أن المؤمنين يتقربون إلى الله تعالى على أجنحة الملائكة ، وأن الملائكة يبسطون أجنحتهم للمؤمنين إذا سجدوا ، فإياكم أن تمسحوا مواضع السجود » ^(١) .

٤٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن للمؤمن ثلاث علامات ؛ الصلاة ، والزكاة ، والصيام » ^(٢) ، فقدم الصلاة .

٤٣ - وعنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « الصلاة عمود الإسلام » ^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ المؤمنون : ١ - ٢ . وقد أمر الله تعالى بالصلاة وندب إليها في قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ طه : ١٤ ، وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ البقرة : ١٥٣ . وقال عز وجل : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ الانفال : ٣ - ٤ . وقال تعالى : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة ﴾ الانبياء : ٧٣ الآية .

٤٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - « ليس بين العبد وبين الشرك والكفر إلا ترك الصلاة » ^(٤) . فمن ترك الصلاة فهو كافر .

وقال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ العنكبوت : ٤٥ ، لمن صلاها مقيماً بحدودها ، وأما من أخرجها عن وقتها أو صلاها لاه بقلبه ، غافل بعقله فلا تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر .

(١) لم أقف على هذا اللفظ فيما بين يدي من مراجع مطبوعة أو مخطوطة ، والله أعلم .

(٢) لم أهدأ إلى من خرجه ، والعلم عند الله .

(٣) ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » برقم (٢٨٠٧) من طريق عكرمة ، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

قلت : وسنده ضعيف ، عكرمة لم يسمع من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

(٤) سبق تخريجه .

٤٥ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حافظ على الصلاة كانت له نوراً وبرهاناً وإضاءةً . وقال : لحجة يوم القيامة ، ومن لم يُحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا إضاءةً ويأتي يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان » (١) .

٤٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال وضوئها ، وركوعها ، وسجودها ، ومواقبتها ، حرمَّ الله عليه النار » (٢) .

٤٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من مات وهو تارك الصلاة لقي الله وهو كافرٌ » (٣) .

٤٨ - وقال عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « خمسٌ صلوات كتبهن الله على عباده ، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهدٌ ، إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة » (٤) .

٤٩ - وعنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من تواني من غير علةٍ ولا مرضٍ أعقبه الله تعالى بخمس عشرة خصلة ؛ ستة في الدنيا ، وثلاث عند موته ، وثلاث في قبره ، وثلاث في وقوفه ، فأما الست التي في الدنيا : فأولها : ينزع الله البركة من ماله ومن رزقه ، والثانية : ينزع الله البركة من عمره ، والثالثة : لا حظَّ له في دعاء الصالحين ،

(١) لم أجده بهذا اللفظ ، وما وجدته أخرجه أحمد (١٦٩/٢) ، وعبد بن حميد في « مسنده » برقم (٣٥٣) - متخَب) ، والدارمي (٣٠١/٢ - ٣٠٢) ، وابن حبان (٢٥٤ - موارد) ، والطحاوي في « المشكل » (٢٢٩/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (١٧٨٨) ، والبيهقي في « الشعب » برقم (٢٨٢٣) ، وغيرهم من حديث ابن عمرو - رضي الله عنهما - ، مرفوعاً بلفظ : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً وحجة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها ، لم يكن له نور ولا برهان ولا حجة . وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » . انظر : « الترغيب والترهيب » للمنزري بتحقيقي ، والله الهادي لأقوم سبيل .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٤ / ٢٦٧) من حديث حنظلة الكاتب - رضي الله عنه - مرفوعاً به دون قوله : « بإكمال وضوئها » . وانظر : « مجمع الزوائد » للهيتمي (٢٨٩/١) .

(٣) لم أقف على سنته ، والله أعلم .

(٤) صحيح : أخرجه مالك (١/١٢٣) ، وأبو داود (٤٢٥ ، ١٤٢٠) ، والنسائي (١/٢٣٠) ، وابن حبان (١٧٢٩ - إحسان) ، وغيرهم .

والرابعة : يسبح الله سيماء الصالحين من وجهه ، والخامسة : لا ترفع له إلى الله دعوة ،
والسادسة : لا يستجيب الله دعوته . وأما الثلاث التي عند وفاته ؛ فيموت ذليلاً ، وجائعاً ،
وعطشاناً ، فلو سقي أنهار الدنيا ما روي . وأما الثلاث التي في قبره ؛ فظلمة قبره ، وضيق
لحده ، ويوكل الله به ملكين يعذبانه إلى يوم القيامة . وأما الثلاثة التي في الآخرة ؛ فطول
الوقوف ، وشدة الحساب ، وغضب الجبار « (١) .

واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقده الروح من الجسد ، فكذلك ،
الصلاة الناقصة غير صالحة للتقرب بها إلى الله تعالى ونيل الكرامة . وقد ذكر أن
الرجلين ليكونان في صلاة واحدة وأن بينهما من الفضل ما بين السماء والأرض ، لأن
الواحد خاشع مقبل على الله تعالى بقلبه وعقله ، والآخر ساه .

وبلغني أن الرجل إذا قام إلى الصلاة فقال الله أكبر أتاه الشيطان فقال له : اذكر
كذا اذكر كذا ، وذكره حوائجه وشغله ، فيناديه الملك في أذنه اليمنى ويقول له :
أقبل على صلاتك ، ويناديه الشيطان في أذنه اليسرى ، وقلبه ينازع إلى الأمرين ، فإن
أطاع الملك ضرب الملك الشيطان بجناحه وأخسأه وأبعده عنه ، وإن أطاع الشيطان ،
قال له الملك : سُحَقًا لك سُحَقًا لك ، أما إنك لو أطعتني لم تقم من مقامك إلا وقد
غفر الله لك .

وذكر أن من المصلين من لا يكتب له من صلاته إلا عشرها ، أو تسعها ، أو
ثمانها ، أو سبعها ، أو سدسها ، أو خمسها ، أو ربعها ، أو ثلثها ، أو نصفها ، أو لا
يكتب له منها قليل ولا كثير . والعلة في ذلك أنه لا يكتب للمصلي من صلاته إلا ما
عقل منها وحضر عقله وقلبه معه فيها ، فذلك القدر الذي يكتب له منها .

٥٠ - قال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من عبد يتوضأ وضوءاً سابغاً ثم يصلي مقبلاً
عليها بقلبه وبصره غير ساهٍ ولا لاهٍ ، ليس قلبه في غير شيء مما هو فيه إلا رجع من صلاته
كيوم ولدته أمه » (٢) .

(١) باطل : أخرجه ابن التجار في « تاريخه » من حديث أبي هريرة ، وفيه محمد بن علي العطار ، هو المتهم به
وقال ابن حجر : هو ظاهر البطلان من أحاديث الطرقية .

انظر : تنزيه الشريعة (٢/١١٣ - ١١٤) ، والميزان للذهبي (٣/٦٥٣) .

(٢) لم أقف عليه ، والله أعلم .

فأحضر قلبك كما تباشر اللفظ بلسانك ، وحرك قلبك بفهم الذكر كما تحرك لسانك بتفصيل اللفظ عند التلاوة وجميع الأذكار ، وإلا كنت المغبون الخائب من أكثر الحظ وأبر الفضل ، واعرف مقدار فضلها ومحوها للذنوب والخطايا .

فمن ذلك ما قيل أنه لما أهبط الله تعالى آدم - عليه السلام - إلى الأرض اسودَّ من القدم إلى الكعب ، ثم من الكعب إلى الركبة ، ثم من الركبة إلى الوركين ، ثم من الوركين إلى السرة ، ثم من السرة إلى العنق ، ثم من العنق إلى الرأس ، فخاف من ذلك خوفاً شديداً وجزع جزعاً عظيماً فأمره جبريل - عليه السلام - بصلاة الظهر فايض رأسه ، ثم أمره بصلاة العصر فايض عنقه ، ثم أمر بسائر الصلوات كلها حتى ابيض جسده كله .

٥١ - فلهذا جاء الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم : « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهن »^(١) .

والحكمة في ذلك فرضها خمس صلوات ما روي أن الله تعالى أمر إبراهيم - عليه السلام - ببناء الكعبة من خمسة أجبل ، فأتى بحجر من طور سيناء ، وحجر من طور تبنا ، وحجر من حجرا ، وحجر من جبل لبنان ، وحجر من الجودي ، فلما بناها من خمسة أجبل أمر الله تعالى بخمس صلوات ، فكانه يقول : عبدي إذا صليت الصلوات الخمس ، لو أن عليك ذنوباً بثقل هذه الجبال لغفرتها لك ولا أبالي .

والحكمة أيضاً في أن الصلاة بنيت على أربعة أركان أن المخلوقات على أربعة أصناف ؛ فنصف قائم مثل الأشجار والجبال وما أشبهها ، ونصف راعع مثل البهائم وذوات الأربع ، ونصف ساجد مثل الحيات والديدان ، ونصف قاعد مثل الحشيش والنبات . وكل نصف منهم ذاكراً لله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ ﴾ { الإسراء : ٤٤ } .

فأمرك بصلاة مبنية على أربعة أركان حتى يكون لك من كل حالٍ حالٍ أفضل منه وامتنان ، فكانه يقول : عبدي إذا أتيت بركن القيام أعطيتك مثل ثواب من عبدني قائماً ،

(١) لم أجده بهذا اللفظ ، والذي وجدته ما أخرجه مسلم (٢٣٣) ، والترمذي (٢١٤) ، وأحمد (٣٥٩/٢) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً بلفظ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، كفارات لما بينهن ما لم تغش الكبائر » .

وإذا أتيت بالركوع كذلك ، وبالسجود كذلك ، وبالقعود كذلك ، فإذا أتيت بهذه الأركان الأربع وتذكرني في هذه الأحوال كلها أعطيتك ثواب كل ذاك من التسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد فاكتبها في ديوانك .

٥٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا قام العبد إلى صلاة الفريضة نظر الله تعالى إليه ويقول : عبدي وعزتي وجلالي وارتفاعي في علو مكاني لأعطيتك سؤالك ، ولا أحرقت جسدك بالنار بعد مقامك هذا ، ثم يقول الله : يا جبريل ! اكتب لعبدي هذا بكل شعرة على جسده ستين حسنة ، وامح عنه ستين خطيئة ، وابن له في الجنة مدينتين من مسك إذفر ، وأنا أشفعه يوم القيامة في ستين من أهل بيته ، فإذا مات أدخل في قبره ستين نوراً وألبسه ستين حلة » (١) .

وقال محمد بن مقاتل : هذا في صلاة الفريضة للرجال والنساء سواء ، الصالحين والصالحات سواء ، الذين عميت أعينهم فلا ينظروا إلى الحرام ، وصمت آذانهم عن السماع لقول الزور والملاهي ، وأخرست ألسنتهم عن النميمة والكذب ، وعفت أيديهم عن أخذ الحرام ، وخصمت بطونهم من مخافة الحميم حقاً لهم إذا كانوا على مثل هذا أن يجزيهم الله أكثر من ذلك إن شاء الله .

وقال عثمان - رضي الله عنه : ما حضرت صلاة مكتوبة قط حتى ينادي منادي أذانهم يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أججتموها على أنفسكم فاطفئوها بصلاتكم كذلك في كل صلاة ، فمن ترك الصلاة فلا حظ له في الإسلام .

قال عمر - رضي الله عنه : ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، فمن ترك الصلاة فقد كفر . والتفريط أن يؤخر ميقاتها ، وعلامة المنافق أن يؤخر ميقاتها ثم يصلها كنقر الديك .

٥٣ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من ترك شيئاً من فرائض الله تعالى لم يتقبل الله منه سائر عمله » (٢) .

(١) لم أقف عليه ، والله أعلم .

(٢) لم أهد إلى من خرجه .

٥٤ - وقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن الله تعالى يقول : ابن آدم تفرغ في عبادتي - أملأ صدرك إيماناً وأسدُّ ففرك ، وإلا تفعل أملأ بدنك شغلاً ولم أسدِّ ففرك » (١) .

وقال الله تعالى لموسى - عليه السلام - : يا موسى لولا الصالحون لم أمهل للطالحين ، يا موسى لولا من يؤدي فرائضي في أوقاتها لصيبت البلاء على من يؤخرها عن أوقاتها صباً .

وقال لقمان - رحمه الله - لابته : يا بُني أصلح صلاتك التي فرضت عليك ، فإن مثل الصلاة المفروضة كمثل السفينة في البحر ، إن سلمت سلم من فيها ، وإن هلكت هلك من فيها ، يا بُني أصلح فريضتك التي فرضت عليك فإنها هدية المرء إلى ربه .

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله : اطلبوا الترة في ثلاثة أشياء ؛ في الصلاة ، والذكر ، والقراءة ، فإن لم تجدوا ذلك فاعلموا أن الباب مغلق .

وسئل حاتم الأصم عن صلاته فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء ، وأتيت موضع الصلاة فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم في مصلاي فأجعل الكعبة بين حاجتي والصراف تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن يساري ، وملك الموت من ورائي ، وأظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف فأكبر تكبيراً بتحنيين ، وأقرأ بترتيل ، وأركع ركوعاً بتواضع ، وأسجد سجوداً بتخشع ، وأتبعها بالإخلاص ، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا . وأنشدوا :

فإن امرء خشع لله اذاب	له الظلام إذا ما جنّ جلباب
سمت إلى الرتبة العلياء همته	إذا دجى ليله مأويه محراب
يرتل الذكر والإشفاق يقلقه	وللدمع على خديه تسكاب
قد صير البر والتقوى بضاعته	فماله في سوى هاذين ترءاب

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣٥٨/٢) ، والترمذي (٢٤٦٦) ، وابن ماجه (٤١٠٧) ، والحاكم (٤٤٣/٢) .

قلت : وليس معنى الحديث الجلوس دائماً في المسجد كما يظن البعض ، وترك العمل ، بل معناه : كن دائماً في طاعة الله ، في عملك اتقنه ، وداوم على تسبيحه وتقديسه فيبارك الله في رزقك ، ويسدّ ففرك ، والله أعلى وأعلم .

ويقال : كان مكتوبًا في محراب أبي الحسن الدينوي : لا أبرح حتى أفرح .
وقيل : كان في محراب داود - عليه السلام - مكتوبًا : أيها المصلي من أنت ، ولن
أنت ، وبين يدي من أنت ، ومن تناجي ، ومن يسمع كلامك ، ومن ينظر إليك .
واعلم أن صلاتك كمالك ، فإن شئت فاوفه ، وإن شئت فامحقه ، والصلاة خير
كلها ، فإن شئت فاقلل ، وإن شئت فأكثر . والمستصحب فيها العقل وحضور القلب ،
والمقصود عقد النية عند الدخول فيها ، والتمادي على بقيتها مستصحبًا عقله وقلبه ،
والنية هي الباعثة التي لولاها لم يتصور وجود العمل ، فمن عرف حقيقة النية ، وعلم
أنها روح العمل ، لم يتعب نفسه في عمل لا روح له ، فإذا لم تكن بهذه الصفة في
صلاتك فاعلم أن الشيطان اختلس منك عبادة قلبك التي قليلها والله أنفع لك من كثيرها
وأعود عاقبة ، فإذا بقلبك الذي هو عماد عبادتك خواء ففر من الذكر ، وإذا بك لم
تقبل على الله تعالى به فلم يقبل الله تعالى عليك لأنك خصصت بعبادته ظاهره دون
باطنك ، فلما سقط عمل القلب سقط عنه الخشوع ، فصرت كأنك في عمل من أعمال
الدنيا تكابده بحركة جسمك الظاهر ، فلما سقط الخشوع حرمت النور ، والنور هو باب
الفهم إلى المطلق ، فإذا بك مقتطع دون مطلع اليقين ، محروم قلبك أن يجول في
ساحة الملكوت ، وأن يأتيك بفوائد أولي الأبصار ، فتقطف يا مغرور عند ذهابك عمرك
وشدة فمرك من ذابل أغصان رياض غياض غرسك ثمرة ، ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من
عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ { الفرقان : ٢٣ } ، وتشرب من سبيل غشاء هواك ،
ومسنون قلة جسديك بماء سراب ببيعة ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ،
ويخرج لك التوقيع عند الحساب ، هنالك صار الورد من ذلك ﴿ ويحسبون أنهم على
شيء ألا إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب
الشيطان . ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ { المجادلة : ١٨ - ١٩ } .

وروي أن داود - عليه السلام - قال : إلهي من يسكن بيتك ، ومن تتقبل
الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتي وأتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي
وقطع نهاره بذكري ، وكف نفسه عن الشهوات لأجلي ، يطعم الجائع ، ويأوي
الغريب ، ويرحم المصاب ، فذلك الذي يضيء نوره في السماء كالشمس إذا دعاني
ليته ، وإن سألتني أعطيته .

وقال لقمان - رحمه الله - لابنه : يا بني عود لسانك قول اللهم اعف عني ، فإن
 لله تعالى أوقاتاً لا يردُّ فيها سائلاً ، يا بُني سمع الناس الكنوز في المحارب فحفروا
 المحارب وليس كذلك ولكن الكنوز في المحارب وإنما دبروها بالأيدي والجباه والركب
 فظهر لهم من طرائف الحكم ما أرادوه ، قال الله تعالى : ﴿ ووجد عندها رزقاً قال يا
 مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ﴾ { آل عمران : ٣٧ } . قيل " إنها فاكهة الشتاء
 في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء . وقيل : كلاماً استفادته مع انعزالها بالله تعالى .
 وأنشدوا :

نوائب الدهر أدبتني وإنما يوعظ اللبيب
 قد ذقت حلوها وذقت مرّاً كذلك عيش الفتى ضروب
 فما انقضت لذة وبؤس إلا ولى بهما نصيبُ

٢ - بابُ حُبِّ الدنيا

اعلم أن رأس هذه الخبائث كلها وجلّها ومعظمها وأصلها حُبُّ الدنيا ، فحبها
 يوجب الحرص على الجمع والطمع وقلة القناعة وطول الأمل ، وتعطيل الفرائض ،
 والغفلة عن ذكر الله ، والأمن من الحوادث ، وتسويق التوبة ، وبغض الآخرة ،
 وكرهية الموت ولقاء الله تعالى . ومن حبها يتشعب جميع الهلكات ، وذلك يوجب
 الرين على القلب ، والبعد من الله كما قال سبحانه : ﴿ فأعرض عن من تولى عن
 ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ { النجم : ٢٩ } ، فمن أعرض الله عنه كيف يرجو
 فلاحاً ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، وقد حذر الله تعالى ذلك بالكتاب والسنة ،
 وأغلظ سبحانه القول في حب الدنيا ونسب حبها إلى الكفار ، وجعل ذلك سبباً
 يستحقوا به العذاب مع كفرهم ، فقال تعالى : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم
 غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله
 لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم
 وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ { النحل : ١٠٦ - ١٠٩ }
 وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا
 هم ينصرون ﴾ { البقرة : ٨٦ } ، وقال سبحانه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها

نوفٌ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿ { هود : ١٥ } ، وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ { الشورى : ٢٠ } ، وقال عز وجل : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ { الإسراء : ١٨ - ٢٠ } ، وقال عز وجل : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ { الحديد : ٢٠ - ٢١ } .

فقد أمركم جلا وعلا برفض الدنيا ، وترك الحرص عليها ، والقناعة منها بما خف ، وأخذ ما خف مما لا بد منه ، والمسابقة إلى دار نعيمها لا يُبلى وملكها لا يفنى ، فبادروا رحمكم الله .

وقال سبحانه : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ { لقمان : ٣٣ } وهو الشيطان ، وقال جل وعز : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ { النازعات : ٢٧ } ، والآي في ذلك كثيرة .

٥٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من شيء أبغض إلى الله تعالى بعد الشرك بالله من حب الدنيا » ^(١) .

٥٦ - وقال - عليه الصلاة والسلام - : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » ^(٢) .

(١) لم أجده فيما بين يدي من مراجع ، والله أعلم .

(٢) حسن : أخرجه أحمد في « الزهد » (٢٨) ، وابن الأعرابي في « معجمه » (٩٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٧/٣ ، ٩٠/٧) ، والبيهقي في « الزهد » (٢٤٦) ، وأبو القاسم الأصبهاني قوام السنة في =

٥٧ - وقال - عليه الصلاة والسلام: « إن الله تعالى لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا ، وأنه لم ينظر إليها مذ خلقها ، ولا ينظر إليها يوم القيامة » (١) .

٥٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو سارت الدنيا عند الله تعالى قدر جناح بعوضة لما سقى الكافر فيها جرعة ماء » (٢) .

٥٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده ما الدنيا في الآخرة إلا كرجل وضع إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع » (٣) .

« الترغيب والترهيب » برقم (١٤٥٣) ، من طريق عبد الله بن الجراح ، ويحيى ، كلاهما عن : سفيان الثوري ، عن ابن المنكدر ، عن جابر به . وخالفهما - أي ابن الجراح ، ويحيى - مهرا بن أبي عمر ، فرواه عن الثوري به مرسلأ على المنكدر . أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » برقم (٧) ، والدارقطني في « العلل » (٢/١٦/٥ - مخطوط دار الكتب المصرية) ، وابن الجوزي في « العلل » (٣١٢/٢) .

وهذا إسناد ضعيف ، مهرا صدوق له أوهام ، وسيء الحفظ ، ومن خالفهم فيهما : يحيى ، وهو إما ابن آدم ، أو ابن سعيد ، وكلاهما ثقة ثبت ، فمخالفتهم مردودة بالطبع دون أدنى ريب .

وله شاهد من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عند الترمذي (٣/٣٨٤) ، وابن ماجه (٢/١٣٧٧) ، وسنده حسن ، وقد حسنه الشيخ الألباني - حفظه الله - في « صحيح الجامع الصغير » برقم (٣٤٠٨) .
(١) موضوع : أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » برقم (٤٠) ، من طريق عبد الوهاب بن عطاء ، عن موسى بن يسار ، مرفوعاً به .

قلت : وسنده سند موضوع ، والمتهم به هو موسى ذا ، والإسناد علاوة على ذا من البلاغات ، فقد قال موسى : بلغني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : . . . الحديث .

وقد حكم عليه الألباني في « ضعيف الجامع الصغير » برقم (١٦٤١) بما حكمتُ عليه ، والله الموفق .

(٢) أخرجه مسلم (٩٣/١٨) بنحوه من حديث جابر - رضي الله عنه - .

وفي الباب عن : سهل بن سعد - رضي الله عنه - ، أخرجه الترمذي (٦/٦١١) ، وابن ماجه (٤١١٠) ، والحاكم (٤/٣٠٦) ، وابن أبي عاصم في « الزهد » برقم (١٢٨) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » برقم (١) ، وسنده ضعيف لضعف زكريا بن منظور .

وفي الباب عن جماعة آخرين .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (١٧/١٩٢ - نووي) ، والترمذي (٢٤٢٥) ، وابن ماجه (٤١٠٨) ، وأحمد

(٤/٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠) ، وابن أبي عاصم في « الزهد » برقم (١٥٩) ، وابن أبي شيبه (١٣/٢١٨) ،

وابن المبارك في « الزهد » (٣٥٢) ، وآخرون ، من حديث المستورد أخي بني فهر .

٦٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - يوماً لأصحابه : « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُسلط عليكم الدنيا كما سلطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، فهلككم كما أهلكتهم » (١) .

٦١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود كيف يسعى لدار الغرور » (٢) .

٦٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « صُم الدنيا واجعل إفتارك الموت ، وفر من الدنيا كما تفر من الأسد » (٣) .

٦٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه عز وجل » (٤) .

٦٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء ، وألزم الله تعالى قلبه أربع خصالٍ ؛ هما لا ينقطع منه أبداً ، وشغلاً لا يتفرغ منه

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٢٣/٨) ، ومسلم (٩٥/١٨) ، والترمذي (١٦١/٧) ، وابن ماجه (٣٩٩٧) ، وأحمد (١٣٧/٤) ، وابن المبارك (٥٠٢) ، وابن أبي عاصم (١٧٨) كلاهما في « الزهد » من حديث عمرو بن عوف - رضي الله عنه .

وقوله : « فتنافسوها » ، التنافس : الرغبة في الشيء ومحبة الإنفراد به ، والمغالبة عليه . وتهلككم : أي : إن المال مرغوب فيه ، فترتاح النفس لطلبه ، فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للقتال المفضي للهلاك ، نسأل الله السلامة في دار الفناء .

(٢) موضوع : أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » برقم (١٤) من طريق النضر بن إسماعيل ، عن موسى الصغير ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي جعفر مرفوعاً به . قلت : وفي هذا السند ثلاث علل : الأولى : الإرسال ، والثانية : النضر ، ضعيف الحديث ، والثالثة : أبي جعفر ، واسمه : عبد الله بن المسور ، هو المتهم بوضع هذا الحديث .

وانظر : الميزان « للذهبي » (٢/٥٠٤ - ٥٠٥) ، والتاريخ الكبير (١٩٥/٥) ، وضعفاء العقيلي (٨٨٥) ، والمجروحين (٢/٢٤) ، وغيرهم .

(٣) لم أقف على من خرجه ، والله أعلم .

(٤) ضعيف جداً : أخرجه الطبراني في « الصغير » (٢٥٧/١) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/٢٥٣٠) ، والشجري في « أماليه » (١/٧٥) ، وغيرهم من حديث أنس - رضي الله عنه - . قلت : وسنده ضعيف جداً ، فيه وهب بن راشد البصري ، متروك الحديث .

أبدًا ، وفقرًا لا يبلغُ غناه أبدًا ، وأملًا لا يبلغُ متهاه أبدًا « (١) . وأنشدوا :

زعمَ الذي دنياه أكبرَ همه أن قد أصابَ وذاك قول الهازي
زرعوا بأرض نفوسهم بذر الهوى فما لهم لندامة ومخازي

٦٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره ، وفرق الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له » (٢) .

قال المؤلف - رضي الله عنه : كنت في عقب الليلة الثامنة من شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قاعدًا ، فسمعت المؤذن يقول : عباد الله ، قرب الصباح فمثلت الدنيا ليلاً وصباحها الموت ، فحركني ذلك فقلت :

يا نائمًا طال الرقاد فانتبه دنياك ليُّك فارتقبْ فجر الممات
فتحروا خُبز العبادَة واشربوا ماء الخلوص الذَّ من طعم الفتات
وتأهبوا للصباحكم وصيامكم فستفطرون على لذيد الطيبات
وتوسلوا بنببيكم للمليكم فبفضله يعفو عن الزلات
صلى عليه الله ذو العرش الذي أرسله بالصدق والآيات

ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

٦٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن أخي سليمان - عليه السلام - قال : لأطوفنَّ الليلة على مائة جارية يلدن مائة غلام كلهم يحمل السلاح ويقاتلون في سبيل الله ، فلم

(١) ضعيف : قال العراقي - رحمه الله - في « تخریج أحاديث الإحياء » (٣/٢٠٣) :

« أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٩٣٠ - مجمع البحرين) ، من حديث أبي ذر دون قوله « وألزم الله قلبه إلخ » ، وكذلك رواه ابن أبي الدنيا (في ذم الدنيا برقم ٣٩٩) ، عن أنس بإسناد ضعيف ، والحاكم من حديث حذيفة ، وروى هذه الزيادة منفردة « صاحب الفردوس » من حديث ابن عمر ، وكلاهما ضعيف » أهـ .

فقد خرجته بما لا مزيد عليه في « تقريب البغية » وسقت شواهد ، والحمد لله وحده .

(٢) موضوع : أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٩٢٨ - مجمع البحرين) ، من حديث أنس - رضي الله عنه - وفي سنده : داود بن المحبر ، كذاب ، ومتهم بالوضع .

تحمل منهن إلا واحدة ، فولدت نصف غلام ، فألقى على كرسيه جسداً « (١) .

وأراه ذلك لأنه أظهر الحرص على الدنيا بأن يولد له مائة ولد ، فلما علم أن الله

تعالى لا يحب أن يحرص على الدنيا تاب من ذلك ورجع .

فلذلك فاعلم أن الحبَّ شيءٌ عزيزٌ ، فالالتفات إلى غير المحبوب ولو بخطرة

واحدةٍ مذموم غير محمودٍ ، فمتى التفت أدبت في الحال ، ألا ترى أن سليمان - عليه

السلام - التفت إلى قميصه فوضعه الريح فقال لها : لم فعلت ولم آمرك ؟ فقالت :

إنما نطيعك إذا أطعت الله ، والتفت إلى ملكه خطرة فسلب الخاتم ، وأجلس الجبار على

كرسيه شيطاناً ، فكان الله تعالى يقول : يا سليمان ملت عنا بخطرة ملنا عنك بمملكة ،

وإن عدت عدنا ، فيا عجباً كل العجب لهذا الأمر بخطرة زالت مملكته ، وبدعوة غرقت

الأرض ومن عليها ، فما أعزه من حد محدود بين محب ومحبوب .

٦٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بُشِّرْتُ هذه الأمة بالسَّنة والرفعة

والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من

نصيب » (٢) .

٦٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ليجيئن أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم

كجبالٍ تهامة فيؤمر بهم إلى النار » قالوا : يا رسول الله ، أ يصلون هم ؟ قال :

(١) اللفظ الذي وجدته ، ما رويناه في « صحيح البخاري » (٢٨١٩ - معلقاً) ، ويرقم (٦٦٣٩) موصولاً ،

ومسلم (١٦٥٤) ، وأحمد (٢٢٩/٢) ، والنسائي في « العشرة » (١٤٦) ، وفي « التفسير » (٣٢٢) ، من

حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً بلفظ : « قال سليمان بن داود - عليهما السلام - لأطوفن

الليلة على مائة - وفي رواية تسع وتسعين ، وفي أخرى : ستون ، وثلاثة : سبعين ، ورابعة : تسعين -

امرأة فتاتي كل امرأة برجل يضرب بالسيف ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فجاءت واحدة

بنصف ولد ، ولو قال سليمان : إن شاء الله ، لكان ما كان » .

أما اللفظ الذي أورده المصنف لم أجده فيما بين يدي ، والله أعلم .

(٢) حسن : أخرجه أحمد (١٣٤/٥) ، وابن حبان (٦١٨ - موارد) ، وابن أبي عاصم في « الزهد » (١٦٨) ،

والحاكم (٣١١/٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٥/١) ، وعبد الله بن أحمد في « زيادات المسند »

(١٣٤/٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣١٨ / ٦) ، والبخاري في « شرح السنة » (٤١٤٥) ، والشاشي في

« مسنده » (١٤٩١ - ١٤٩٥) . وغيرهم من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه .

« نعم يُصلون ويصومون ويأخذون وهنة من الليل ، فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه » (١) .

قال قائل :

مرضى على الخيرات في بحر الردى غرقا فلا داعٍ لتهبج أقوام
شُغلوا بكل رذيلة مذمومة صُرِّفت وجوههم لوجه الدرهم
ناموا عن المقصود لم يستيقظوا ستكون يقظتهم لخطبِ أعظم

٦٩ - وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أبا هريرة ، ألا أريك الدنيا جميعاً ؟ » قلت : نعم يا رسول الله . قال : فأخذ بيدي إلى مزبلة فيها رءوس أناس وعُذرات وخرو وعظام ، فقال : « يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم وتؤمل آمالكم ، ثم هي اليوم عظام بلا جلد ، ثم كأنك بها صارت رفاتاً ، وهذا العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوا من حيث اكتسبوا ، ثم قذفوها من بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخروق البالية ، كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليك » (٢) . وأنشدوا :

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجباً ولم تبدي
حتى مررت على الكثيب فقال لي أموالهم ومتاعهم عندي

٧٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « احذروا الدنيا فإنها سحرت هاروت وماروت » (٣) .

(١) إسناده ضعيف : أخرجه أبو نعيم في « الخلية » (١٧٧/١ - ١٧٨) عن سالم مولى أبي حذيفة مرفوعاً به وسنده ضعيف ، فيه جهالة من حدث عنه ، وعمرو بن دينار مولى آل الزبير ، ضعيف الحديث .

(٢) لا أصل له : قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٢٠٣/٣) : « لم أجده أصلاً » .

(٣) منكر : أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » برقم (١٣٢) ، من حديث أبي الدرداء الرهاوي ، مرفوعاً به وقال الذهبي في « الميزان » (٥٢٢/٤) عن أبي الدرداء ذا : « لا يُدرى من هو ذا ، هذا منكر الحديث لا أصل له » .

٧١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك في أهل القبور » (١) .

٧٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنما الدنيا كظل شجرة استظل الرجل بها ثم زال عنها وتركها » (٢) .

٧٣ - وروى عمران بن حصين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جمع بني هاشم ذات يوم فقال لهم : « يا بني هاشم إني لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني هاشم إن أوليائي منكم المتقون . يا بني هاشم اتقوا الله ولو بشق تمره . يا بني هاشم لألفينكم تأتون بالدنيا تحملونها على ظهوركم ويأتي الناس بالآخرة يحملونها » (٣) .

فَعُلْم من موجب الخير أن أولياء الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - هم المتقون من العلماء الذين استعدوا لقبورهم ونشورهم ، لا أصحاب الدنيا وحطامها ، الذين جعلوا الآخرة خلف ظهورهم ، إذ النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر خيار أصحابه ومن هم أقرب الخلق إليه بهذا لا غير ، وليس من استعد للدنيا وطال أمله فيها ونسي الآخرة من المتقين .

(١) ضعيف بهذا التمام : أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٣) ، والترمذي (٦/٦٢٥) ، من طريق ليث ،

عن مجاهد ، عن ابن عمر - مرفوعاً به .

قلت : وسنده ضعيف ، فيه ليث ، هو ابن أبي سليم ، ضعيف الحديث .

والحديث صحيح دون قوله : « وعد نفسك في أهل القبور » ، أخرجه البخاري (٨/١٤) عن ابن عمر .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٣٧٧) ، وابن ماجه (٤١٠٩) ، وأحمد (١/٤٤١) ، وغيرهم من حديث

ابن مسعود - رضي الله عنه ، وهو صحيح .

(٣) ضعيف : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (ج ١٨ برقم ٣٥٤) ، من طريق محمد بن يزيد بن سنان ،

عن عبد الله بن حدير ، عن أبي مهلهل ، عن أبي سهل ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين مرفوعاً

به .

قلت : وهذا إسناده ضعيف ، مغلل بالآتي :

١ - محمد بن يزيد بن سهل ، ضعيف .

٢ - أبو سهل ، اسمه : محمد بن عمرو الأنصاري ، ضعيف .

٣ - أبو المهلهل ، لم أمتد إلى ترجمته .

٤ - الحسن البصري مدلس وقد عتته .

٧٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الدنيا لا تصفو للمؤمن ، كيف وهي سجنه وبلاؤه ؟ » (١) .

٧٥ - وفي الخبر : أن عمر بن الخطاب دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على حصير قد أثر في جنبه ، فقال : لو اتخذت يا رسول الله فراشاً أوتر من هذا ، فقال : « يا عمر مالي وللدنيا أم ما للدنيا ولي ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب صار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (٢) .

٧٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعمر - رضي الله عنه - : « يا عمر ، إنك لن تلقى من الدنيا إلا دنيا ذاهبة ، وقال وقيل ، إن القال والقييل هي المنقلات إلى النار » (٣) .

٧٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أنزل الله - تبارك وتعالى - إليّ جبريل - عليه السلام - بأحسن ما كان يأتي صورة ، فقال : إن السلام يقرئك اسلام ويقول لك إنني أوحيت إلى الدنيا أن تحرري وتكدرني وتضيقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، وتسهلي وتوسعي وتطبيي لأعدائي حتى يكرهوا لقائي ، وإنني جعلتها سجنًا لأوليائي وجنة لأعدائي حتى يكرهوا لقائي » (٤) .

٧٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أراد أن يؤتبه الله علمًا بغير علم ، وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا » (٥) .

(١) ضعيف : أخرجه ابن لال عن عائشة - رضي الله عنها - كما في « كشف الخفا » (١/٤٩٤) . ومظان كتاب

ابن لال الضعيف ، فهو المتفرد به فيما أعلم ، والعلم عند ربي .

(٢) صحيح بشواهده : أخرجه ابن حبان (٢٥٢٦ - موارد الظمان) ، وأحمد (١/٣٠١) ، والحاكم (٤/٣٠٩ -

٣١٠) ، وغيرهم من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - .

(٣) لم أمتد إلى من خرجه .

(٤) منكر : أخرجه الطبراني في « الكبير » (ج١٩ برقم ١١) ، والبيهقي في « الشعب » برقم (٩٨٠٠) ، من

حديث قتادة بن النعمان ، مرفوعاً به . وفي سننه مجاهيل ، وقد حكم عليه الالباني - حفظه الله - في

«السلسلة الضعيفة» برقم (٨٠٩) بأنه حديث منكر .

(٥) لا أصل له : انظر : تخريج أحاديث الأحياء للعراقي (٤/٢١٩) ، وكشف الخفا (٢/٣٠٥) ، والفوائد

(٢٨٦) ، والتذكرة (٢٠) ، وإتحاف السادة المتقين (٩/٣٣٣) .

وأنشدوا :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأومأ لي إلى ترك المعاصي
وقال بأن علم الله فضّل وفضل الله لا يؤتى لمعاصي

٧٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا زهد العبد في الدنيا ورثه الله تعالى ثلاثة خصال ؛ عزاً من غير عشيرة ، وغناً من غير مال ، وعلماً من غير تعلم » (١) .

٨٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا رأيت العبد قد زهد في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقن الحكمة » (٢) .

وقال عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل - : « في أي شيء ينبت الزرع ؟ » قالوا : في التراب . قال : « بحق أقول لكم فكذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب مثل التراب » ، وكتب عمر - رضي الله عنه - إلى أمراء الأجناد : « احفظوا من المطيعين ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة » .

وقال بعضهم : « إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكاً حكيماً يغرّس من أنوار الحكمة في قلبه كما يغرّس أحدكم من طرف الأشجار في بستانه » .

وقال عيسى - عليه السلام - : « لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد » .

وقال عيسى - عليه السلام - : « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها » .

وقال عيسى - عليه السلام - : « مثل صاحب الدنيا كمثّل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله » .

وروي أن عيسى - عليه السلام - كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز شوهاء عليها من كل رينة ، فقال لها : كم نكحت ؟ فقالت : لا أحصيهم . فقال عليه السلام : طلقوك أو ماتوا عنك ؟ قالت : بل قتلتهم كلهم . فقال عيسى عليه السلام : يؤمّساً لأزواجك الباقيين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين .

(١) لم أهد إلى من رواه ، والله أعلم .

(٢) هو كالسابق .

وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - يا داود تزعم أنك تحبني ، فإن كان كذلك فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حب الدنيا وحي لا يجتمعان في قلب واحد . ومما أوحى الله إلى داود - عليه السلام - ما لأولياي والهيم بالدنيا ، إن الهيم يذهب حلوة مناجاتي من قلوبهم ، إن محبتي من أولياي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون . وفي الزبور : أن الله تعالى يقول : إني أدعو عبادي الزاهدين يوم القيامة فأقول لهم : يا عبادي ! إني لم أزو عنكم الدنيا لهوانكم عليّ ولكني أردت أن تستوفوا نصيبكم موفوراً .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال : قال موسى - عليه السلام - : يا رب أمهلت فرعون أربعمئة سنة وهو يقول أنا ربكم الأعلى ويكذب بآياتك ويجحد رسالتك ، فأوحى الله تعالى إليه أنه كان حسن الخلق سهل الحجاب فأردت أن أكافئه .

وأنشدوا :

تعصي الإله وأنت تُظهِر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان يصدق حبه لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع
في كل يوم قد أتتك نعمة منه وأنت تجهل ذلك مُضيع

وفي الخبر أن موسى - عليه السلام - مر برجل وهو يبكي فقال : يا رب عبدك يبكي من مخافتك ، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران لو نزل دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى تسقطان لم أغفر له وهو يحب الدنيا ، فهذا أحب ما أبغض الله تعالى ، فاستوجب بذلك البغض من الله عز وجل .

وأنشدوا :

دعيت إلى معنى الجلالة والسعد ومعنى العلي والعز والفخر والمجد
دنوت من الدنيا ودنت بدينها فأصبحت عن دار السعادة في بعد
دهاك الذي أعى الإساءة دواءه وداءك قد أربى وطال على الحد
دواءك معتاص ولو كنت غائصاً على سره وفقنت للنهج والقصد
دجى الذنب صد النفس عن ساطع الهدى وكيف تلوح الشمس في الأعين الرمد
ولا من التقى لو كنت مشتغلاً به وقتك سهام النازع القاتل المرمد

وفي المناجات : أن موسى - عليه السلام - قال : يا رب بما أخرج حب الدنيا من قلبي ؟ قال : إذا رأيت العظام البالية فعد نفسك منه في لحد قبرك حتى تعلم أن غداً بالي ، وما جمعت فاني .

وفي المناجات : أن الله تعالى يقول : يا ابن آدم إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتى تطلب الجنة ، يا موسى الصبر على طاعتي أهون من الصبر على نارِي .

وكتب عليّ - رضي الله عنه - إلى سلمان الفارسي - رضي الله عنه - : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فأعرض عما يعجبك فيها لقله ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها ، وكن أحذر ما تكون فيها أسر ما تكون بها ، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصه منه مكروه .

وسئل أبو سليمان الداراني - رحمه الله - ما أقرب ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى ؟ فبكى وقال : مثلي يُسئل عن هذه المسألة ، ثم قال : إن أقرب ما يتقرب به إلى الله تعالى أن يطلع على قلبك أنك لا تريد من الدنيا والآخرة إلا إياه . وأنشدوا :

شغلت نفسك بالدنيا ولذتها كل سيفني ويبقى بعده الله
هي الغرور فلا تحمد لذاتها وكيف يحمد شيء ذمه الله

وقال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : احذروا الدنيا فإن أولها حلاوة وآخرها سُم ، واحذروا المعاصي ، فإن أولها سرور وآخرها وبال وثبور .
وأنشدوا :

أحبك للمودة لا سواها وأخشى أن أحبك للنوال

وقال لقمان لابنه : يا بني ، إن داراً لا يأتي عليك يوم من الدهر ولا ليلة إلا ظننت أنك مفارقها فلا منفعة بها ، فانظر منها ما تنزود لنفسك . وأنشدوا :

أرى الدنيا تهدد بانطلاق مشمرة على قدم وساق
فلا الدنيا بياقية لحي ولا حي على الدنيا بياق
فأيام تقضت بالأمني وأيام تقضت بالفراق
فوا أسفي على عمر تقضى ويا حزني على يوم التلاق

وقال لقمان - رحمه الله - لابنه : يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيفتنوك والدنيا بلاغك ، وابق فضول كسبك لأخرتك ، ولا ترفض كل الرفض فتكون عيلاً على أعناق الرجال . وقال بعض الصالحين : الناس في الدنيا على ثلاثة أنواع : فال مؤمن فيها يتزود ، والحريص فيها يتزيد ، والكافر فيها يتنعم ويتمرد .

وقال بعضهم : لو كانت الدنيا ذهباً يفتنى ، والآخرة خزفاً يبقى ، لكان يجب على كل ذي عقل أن يختار ما يبقى على ما يفتنى ، فكيف والدنيا خزف يفتنى ، والآخرة ذهب يبقى . وقال القائل :

أضغاث يوم أو كظل زائل إن اللبیب بمثلها لا يخدع

وقال لقمان - رحمه الله - : يا بني إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير ، فاجعل سفيتك فيه الإيمان بالله - عز وجل - ، والدنيا جسرك الذي تعبر عليه ، والأعمال الصالحة بضاعتك التي تحشر فيها ، وحرصك عليها ريحك التي يسيرها ، والأيام موجك الذي يجرجها ، والتوكل على الله - عز وجل - قلاعها الذي يقودها ويزجها ، وكتاب الله - عز وجل - دليلها الذي يهديها ورد النفس عن الهوى حبالها التي ترسيها ، والموت ساحلها الذي هو متهاها ، والقيامة أرض للمتجر الذي تبغي الريح فيها ، والله - عز وجل - ملكها الذي عليها ، واجعل زادك تقوى الله تعالى ، فإن نجوت فبرحمته ، وإن هلكت فبذنوبك . وأنشدوا :

رکبتُ بحار الحبِّ جهلاً بقدرها وتلك بحار لا يبين غريقها
فسرت على ریح تمر عليكم مسيراً قليلاً ثم غاب طريقها
إليكم بكم أرجو النجاة فأنتم أحق بنا منا وذاك حقيقتها

وقال وهب - رحمه الله - : إن الكثر كان علماً في لوح من ذهب ، طوله شبر في شبر ، مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله ، عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، عجباً لمن أيقن بالحساب غداً كيف يفعل ، وعجباً لمن نظر إلى الدنيا وتقلبها بأهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها .

٨١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عجباً كل العجب لشاك في قدرة الله وهو يرى خلقه ، يا عجباً للمكذب بنشور الموت وهو يموت في كل يوم

وبيعث ، ويا عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ،
ويا عجباً كل العجب للمختال الفخور وإنما خلق من نظفة ثم يعود جيفة وهو لا
يدري ما يصنع به « (١) . وقال محمد بن كثير : سمعت الأوزاعي يقول : خرجت إلى
الصحراء فإذا برحل من جراد في السماء ، وإذا رجل راكب منها على جرادة وهو شاك
في الحديد ، فكلما قال بيده هكذا تميل الجراد مع يده ، وهو يقول : الدنيا باطل ،
باطل ما فيها . وأنشد المؤلف رحمه الله :

الله نفسي التي تبغني الوصال وقد	أفنت شبيبتهما في اللهو واللعب
وفي المجوز وفي الأهواء قاطبة	وفي التمني وفي الأسماع والطرب
تؤمل المكث في دار نهايتها	تكدير صفو وأحزان مع التعب
وتكثر الحرص في شيء يزول غداً	عنها ويبقى لها كنز من الوصب
تقول عنه عيان الحق وأسفاً	أبعدت من أمني قريت من حجب
قد كنت في غفلة عما ندبت له	من الذي جاء في التنزيل والكتب
فقد تولي زمان كنت آلفه	وقد أتاني زمان الهم والنصب
فليس لي سيد يعفو وينقذني	إلا الإله وخير الخلق من عطب

وحكي عن الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله - أنه طاف في يوم شديد
الحر بمكة حرسها الله حتى أجهده الحر والتعب ، فقعده إلى حائط الكعبة ، فاجتمع
الناس إليه يسألونه ، فأقبل صبي لم يدرك الحلم ، فوقف على الحلقة وقال بعد أن
سلم : يا شيخ إياك أعني ، فقال الحسن : قل يا بني ، قال : أرضيت نفسك للموت ؟
قال الحسن : لا والله . قال : أفرضيت عملك للحساب ؟ قال الشيخ : لا والله . قال :
فما قصرت فيه من عملك اليوم تؤمل أن تتمه غداً ؟ قال الحسن : لا والله . قال : فما
بالك تركز إلى الراحة وتقعده في طريق الناس ؟ فأقسم الحسن أن لا يقعد في الطواف
بعدها أبداً . وأنشدوا :

فلم أرمثلي والحساب أمامه	ودار خلود والمنية والقبر
تنام وتلهو عن شقي وغيره	بميشاق يوم فيه قد نفذ الأمر

(١) لم آف على من خرجته ، والعلم عند ربي جل جلاله .

وحكي أن الحسن - رحمه الله - عاتبه إخوانه على ترك مجالسهم ، فقال :
 مجالسة الله أولى من مجالستكم ، وذكر الله تعالى أشهى من ذكركم ، أما بلغكم ما
 أوحى الله تعالى إلى إبراهيم - عليه السلام - يا إبراهيم إنك خليلي فانظر حتى لا أطلع
 عليك فأجذك قد شغلت قلبك بغيري ، فإني اختار لخليقي من لو ألقى في النار وهو في
 ذكرى لم يجد لمس النار ، ومن لو تراءت له الجنة وقد زخرفت وزينت بحورها وما فيها
 من النعيم لم يرها بعينه ولاشغل بها عن ذكرى ، فإذا كان كذلك نزلت عليه الطافي
 وقربته مني ، ووهبت له محبتي ، ومن وهبت له محبتي فقد استمسك بجبلي ، فأى
 نعمة تعدل ذلك ، وأي شرف أشرف منه ، فوعزتي وجلالي لأولينه وجهي ولاشقين
 صدره من النظر إليّ . فانظر يا أخي كيف يمنع الخلة من يلتفت إلى حريق النار إذا ألقى
 فيها ، ومن ينظر إلى نعيم الجنة وزينتها ، فكيف يكون حال من يقبل على الدنيا
 ويحرص عليها بجده واجتهاده وهو عما قليل راحل عنها .

وسئل إبراهيم - عليه السلام - عن خروجه من النار ، وكان قد أقام فيها أربعين
 يوماً ، أي أيامك كانت أشهى إليك ، فقال : الأربعين يوماً التي أتمت في النار ، فقيل
 له في ذلك ، فقال : لاني كنت عن الخلق فانيًا ، وبالحق مشغولاً .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما أمر إبراهيم - عليه السلام - إلى النار
 ضجت الملائكة ، وقالوا : إلهنا هؤلاء يحرقون خليلك بالنار ، فقال الله تعالى لجبريل -
 عليه السلام - : سر إليه فإن استغاث فأغثه ، فجاءه جبريل - عليه السلام - فقال : يا
 إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . فقال بعضهم : لو قال له لي حاجة لكان
 ذلك نقصاً في الخلة ، والمحبة من الخلة من أجل المنايح ، فإذا حصل الأجل لا يطلب
 بعده الأقل ، ولم يقل أيضاً لا حاجة لي لأن ذلك نقص في العبودية ، لأن العبد
 محتاج ذليل ، لكن قال له : أما إليك فلا ، حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فكأن الله
 تعالى يقول : يا خليلي لما رفعت الواسطة بيني وبينك في الذرأ ، قلت أنا للنار بغير
 واسطة كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، فراحة الأنبياء - عليهم السلام - في العزلة ،
 وراحة أبناء الدنيا في التهمة والشهرة ، لبس العبيد هم . وأنشدوا :

فلو قلت طا في النار واعلم أنه رضي لك أو مدن لنا من وصالك
 لقدمت رجلي نحوها فوطئتها مسروراً لاني قد خطرت ببالك

وحكي أن عبد الله بن زيد أتى بامرأة من الخوارج فأمر أن يمثل بها ، فلما رأت الحديد والحبال حمدت الله تعالى وأثنت عليه ، ثم قالت : هذا آخر يوم من أيام الدنيا التي لا أسف عليها ، وأول يوم من أيام الآخرة المرغوب فيها ، إن علمي بفناء الدنيا زهدني فيها وسهل عليّ جميع بلائها ، فما أحب تعجيل ما أخر الله ، ولا تأخير ما عجل الله ، فقطعت يداها ورجلاها فما تأوهت ولا نطقت بكلمة ، فأوتيت بنار لتكوى ، فلما رأت النار صرخت ، فقيل لها : قطعت يداك ورجلاك فلم تتكلمي ، فلما رأيت النار صرخت قبل أن تدنى منك ، فقالت : ليس من ناركم صرخت ، ولا على دنياكم أسفت ، ولكن ذكرت بها النار الكبرى ، فأمر بها ففقت عينها ، فقالت : اللهم قد طال في الدنيا حزني فأقر في الآخرة عيني ، وجعلت تعزي نفسها بالقرآن وتقول : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ { النحل : ١٢٧ } ، وتقول : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ { النحل : ١٢٦ } ، ثم قالت : لئن كنت على بصيرة من ربي إن هذا لقليل في جنب ما أطلب من عظيم ثواب الله تعالى ، فما تكلمت بغيرها حتى ماتت . قال القائل :

إن الزمان عدا عليّ فزادني علما بأنك مالكي تحقيقا
 ما مسني ضرر لأجل إساءة إلا عمرت بها إليك طريقا
 فامض القضاء مع الرضا يا مالكي إني وجدت في البلاء رفيقا
 وقال القائل رحمه الله :

هي الدار دار الأذى والضرر ودار الهموم ودار الكدر
 فلو نلتها بحدافيرها لمت ولم تقض منها وطرا
 فيا من يؤمل طول الحياة وطول الحياة عليه ضرر
 إذا ما تركت وراءك الشبَاب فلا خير في العيش بعد الكبر

وحكي أنه مر رجل براهب في صومعة فقال له : من أنيسك ؟ قال : قلبي . قال : فمن جليتك ؟ قال : الصبر . قال : فبأي شيء تصبر وقتك ؟ قال : بذكر الماضين . قال : فبأي شيء تتقوى ؟ قال : بذكر الموت . قال له : أي خير أصدق عندك في الدنيا : قال الراهب : ما رأيت أصدق في الدنيا من الموت . قال : فما بال

الخلق لا يتفكرون فيه ؟ قال الراهب : إنما يتفكر الأحياء ، وأما الموتى فقد أماتوا أنفسهم قبل الموت بحب الدنيا فهم لا يتفكرون . وأنشدوا :

طوبى لعبد عن عيبه نكسا نبه قلبنا بذنبه نعسا
اقترف الذنب فهو يحزنه يخلط هذا بذاك على عسا
إن قام قامت همومه معه ويجلس الحزن حيثما جلسا

وقال بعض الحكماء : ليس شيء أنفع للرجل من ألا يركن إلى حاله في الدنيا ولا يطمئن إليها . وقال آخر : من هانت عليه نفسه صغرت الدنيا وأهلها في عينيه ، ومن كرمت عليه نفسه كبرت الدنيا وأهلها في عينيه .

وقال آخر : الزهد في الدنيا راحة القلب ، فلا تتكلف ما قد كفيت من الأمر .

ويروي أن امرأة العزيز قالت ليوسف - عليه السلام - بعد ما ملك خزائن الدنيا : يا يوسف إن الحرص والشهوة صيرا للملوك عيباً ، وأن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً . فقال لها يوسف - عليه السلام - : قال الله تعالى : إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

ومن شؤم الحرص واتباع الشهوات ما ورد في الخبر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل جبريل - عليه السلام - فقال له : يا جبريل أكنت حاضرًا حين خلق الله آدم - عليه السلام - ؟ قال : نعم ، وسجدت له مع الملائكة ، يا محمد لو رأيت ذلك المقام لرأيت أمرًا عظيمًا ، وحالة لا تخرج من قلبك أبدًا ، وذلك أن الله تعالى خلقه فأحسن خلقه ، وكساه وحلاه وتوجه ومنطقه ، وأمر أن يوضع له كرسي ، وأمره أن يصعد عليه ، وأمر الملائكة بالسجود له إكرامًا لما أعلمهم بأسماء المخلوقات ، ثم أمر أن يزف به إلى الجنة فرفعناه على الأيدي والرقاب ، فلو رأيت ذلك لرأيت ملكًا عظيمًا ، ثم في ذلك اليوم أمر الملائكة الذين رفعوه إلى الجنة على أعناقهم أن يدفعوا في قفاه إلى أن أخرجه من الجنة ، فلما أن هبط إلى الأرض بعث الله تعالى إليه كفتًا من البر ليزدرعه ويكون قوته منها ، فأخذ يزدرع من ذلك فلم تطاوعه البقرة فضربها فأنطقها الله تعالى فقالت له : لم تضربني يا آدم ؟ فقال : لأنك خالفتني ولم تأمري ، فقالت : يا آدم وهكذا كل من خالف مولاي يُضرب ، قال : نعم ، قالت : فمن ضربك

أنت حين خالفت مولاك ؟ فاستحيا من قولها وبكى بكاءً شديداً حتى غشي عليه ، فلما أفاق هبط عليه جبريل - عليه السلام - فقال : يا آدم ! السلام يقرئك السلام ويقول لك : يا آدم أسجدت لك ملائكتي ابتداءً ، وتهاونت بك البقرة انتهاءً ، ذلك عز المرافقة ، وهذا ذل المخالفة ، ذاك عز الطاعة وهذا ذل المعصية فهكذا يكون حال من آثر شهوته على طاعة مولاة جل وعز . فانظر حال آدم - عليه السلام - كيف كان بالغداة ملكاً في الجنة ووقت العصر يسوق البقرة ويحرق ، فسبحان من لا حيف في أفعاله .
وقيل : الشهوة عدو واضح وخلافها صديق ناصح .

وأشدوا لعلّي بن أبي طالب - رضي الله عنه :

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة وكان عليها للقيح طريق
فدعها ودع ما تشتهيه فإنها هواك عدو والخلاف صديق

فسيلك أن تعتقد أنك إذا أمسكت عن الشهوات أنك أشجع منك إذا ظفرت بمحاربتك لأن غلبة الإنسان لذاته أصعب من مخالفته لعدوه ، فاختر أي الخلتين شئت ، إما أن تعذب أنت اللذات وإما أن تعاقب من جهتها .

وقال موسى - عليه السلام - : يا رب أي عبادك أسعد ؟ قال : من آثر هواي على هواه ، وغضب لي كما يغضب لنفسه . قال الله سبحانه : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ { القصص : ٥٠ } ، وقال سبحانه : ﴿ أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ { الفرقان : ٤٣ } ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ { الجاثية : ٢٣ } .

وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - : حذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة . وأنشدوا :

ظلمت نفسك إذ تابعت شهوتها ولم يقابل هواها منك أغلاظ
ظمئت والماء ذو قرب فما اقتربت إليه نفسك إذ للماء حفاظ
ظننت أنك تدنو منهم ولهم قوم أولوا نجدة في الحرب يقاظ
ظفرت لو كنت تروي من مياههم هذا الضيياء ولكن أين الحياظ

وقال عيسى - عليه السلام - : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود - عليه السلام - : إن أهون ما أنا صانع بعيد من عبيدي إذا أثر شهوته على أن أحرمه طاعتي . والحكمة في ذلك ما روي أن موسى - عليه السلام - صام ثلاثين يوماً ، فتناول ورقة من الزيتون فغير بها طعم فيه ، فأمر بعشرة أيام أآخر لقوله تعالى : ﴿ وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ { الأعراف : ١٤٢ } . فإذا كانت ورقة من الزيتون تمنع من المراد فكيف يطعم العاصي المهمل لجميع أوقاته أن يصل إلى المراد مع إقباله على الشهوات وحرصه عليها وذهاب عمره فيها .

وورد في الخبر أن رجلاً من بني إسرائيل أتى إلى داود - عليه السلام - فقال له : يا داود عصيت الله زماناً فما رأيته عاقبني ، فأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - يا داود قل لعبدي كم عاقبتك وأنت لا تدري . فقال الرجل : كيف عاقبني ؟ فأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - يا داود قل لعبدي أما أنسيك حلوة ذكري ، أما شغلتك عن تعظيم فضلي وبري ، وعن تعظيم حقي وقدرتي ، فأى بلاء أعظم من هذا إن عقلت . وكتب حكيم إلى حكيم : أما بعد ، فإن الله تعالى قد حف الدنيا بالشهوات ، وملاها بالآفات ، ومزج حلالها بالمؤنات وحرامها بالتبعات .

وذكر أن بعض الملوك مر ببقراط الحكيم وهو قائم ، فركضه برجله وقال : قم ، فقام غير فزع ولا خائف منه ولا ملتفت إليه ، قال له الملك : أما تعرفني ؟ قال : لا ، ولكن أراك طبع الدواب حيث تركض برجلك ، فغضب الملك ، وقال : تقول لي هذا وأنت عبدي ومملوكي ، فقال له بقراط : أنت والله عبد عبدي ومملوك مملوكي ، فقال له الملك : وكيف ذلك وأنا الملك ابن الأملاك السادة ، أملك من البلاد كذا ، ومن الرجال كذا ، ومن الأموال كذا ، فقال له بقراط : لأنك ملكت الشهوات والشهوات تملكك ، فأنت عبد عبدي ومملوك مملوكي ، فلا تفتخر عليّ بما ليس من جنسك ، وإنما سيئك أن تفتخر على نفسك .

وقال بقراط لتلامذته : احذروا الشهوات فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا قلوبها محجوبة عن الله عز وجل .

تقلدت العظام من الخطايا كأنني قد أمنت من العقاب
فمهما دمت في الدنيا حريصاً فلإني لم أوفق للصواب

وقال أحد الحكماء : عبد الشهوات أذل من عبد الرق . وقال أيضاً : الحكيم حكيمًا حتى يغلب جميع شهوات الجسد . وقال آخر : المحب لسعادة نفسه لا يقصر عن نفسه لا سيما إذا كان المقام في هذه الدنيا من الممتنع ، والخروج منها واجب لازم .

وقال أيضاً : يستوجب الزيادة من عرف نقص الدنيا . وقال أيضاً : الدنيا غنيمة الاكياس وحسرة الحمقى . وقال أيضاً : لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين ؛ ناطق عالم ، أو صموت واع . وقال أيضاً : من عرف الدنيا لم يفرح فيها برخاء ، ولم يحزن فيها على بلاء . وقال أيضاً لتلامذته : يا بني اقبلوا في ستر من أنتم ، فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا ، فإن كنتم لا تحسنوا أن تحذروها فاجعلوها شوكة ثم انظروا أين تضعوا أرجلكم . وقال أيضاً لتلامذته : يا بني هل أصابنا الخير كله إلا من الله ، قالوا : نعم . قال : فلم نكره لقاء من لم ير الخير إلا من عنده .

وقال آخر : يبصر الدنيا من لم ير الأخرى ، ويبصر الخلق من لم ير الحق ، فالدنيا حجاب عن الأخرى ، والخلق حجاب عن المولى ، فالتقي يعرض عن الدنيا والعارف يعرض عما سوى الله ، فكلمة أخذت من الدنيا أحببتها ونقصت محبة الأخرى ، وكلمة أخذت من الخلق أحببتهم ونقصت محبة المولى ، فالدنيا تذهب والآخرة تحجب ، فلا تشتغل بما يذهب ، ولا تلتفت لما يحجب ، واعلم أنك لا تكون صديقًا ما بقي لك في الخلق صديق . وأنشدوا :

فكم لام حالي من عذول مفند فقلت له أقصر فغير مصيب
أنا من إنسانا يفارق قلبه أتصلح أجسام بغير قلوب

وقال رجل لبعض الصالحين : عطني وادع لي ، فقال له : انظر ما تظنه بي فافعله وادع لي أنت ، فقال له الرجل : زدني ، فقال له : الزمان يذهب والصحائف تختم ، ودخل منزله وأغلق بابه .

وقالت امرأة من العرب لزوجها وقد رآته مغمومًا : إن كان همك للدنيا فقد فرغ منها ، وإن كان للآخرة فزادك الله همًا بها .

وقال أحد الحكماء : كما أن البدن إذا سقم لم ينفعه طعام ولا شراب ، كذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنفعه الموعظة . قال الله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر

بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿ الكهف : ٥٨ ﴾ . وأنشدوا :

رأيت الناس في يدي الزمان	كـدولاب يدور بلا توان
يقلبهم وينقل حالتهم	يصرفهم كتصرف البنان
فأمن بعد تخويف وخوف	وخوف بعد بسط في أمان
وتكدير وحزن بعد صفو	وصفو بعد تنغيص الجنان
وجمع بعد تشتيت ونأى	وتشتيت بلا جمع مكان
وسقم بعد عافية زماناً	وبرء بعد عقل في اللسان
وعيش مرة ووجود شخص	وموت فيه قلب للعيمان
فمن عرف الزمان يعيش حرّاً	ولا يغتم من مضض الزمان
ويرضى في نقلب حالتيه	ويجعل له طريقاً للجنان
فيدرك ما أراد وما تمنى	من الدرجات والحوار الحسان

وقال : الزمان واعظ لمن بقي بمن مضى ، حوادث الزمان هلاك قوم وغبطة آخرين . الشكوى إلى الزمان بعد العلم به نهاية العجز ، والشقة إليه غاية الغرور ، وسوء الظن به نفس الحزم من كانت الأيام به صائرة فلا يشك أن أعضائه بالية ، ومهجته عن الدنيا راحلة . وقال : كما أباد الزمان من تقدمك كذلك يببّدك ، وكما خان من تقدمك كذلك يخونك .

وقال لتلميذه : أي بني يكفيك من الزمان ما ترى من غيرك ، فبك فضلاً عما تراه في غيرك ، كيف ينقلك من حال إلى حال ، ويتحدر عنك وقتاً بعد وقت .

وقال : إن في ذهاب الزاهدين لعبرة لقوم غابرين . وقال : أبصر أمره من نظر في العواقب . وأنشدوا لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه :

نفذت مشيئة ربنا في خلقه	وتصرفت بمراده الأحكام
كتب المليك على الخلائق حكمه	من قبل فأقسمت به الأقسام
سبحانه ما للبرية كلها	في ملكه نقض ولا إبرام
لو شاء من رفع السموات العلى	في ملكه لم تعبد الأصنام

بقضائه قد جفت الأقسام
في مثلها تحجير الأوهام
ونتاج امرأة الفقير توأم
يأتي إليه ورزق ذاك حرام
يحمي حماه إذا الدليل يضام
ملء الحياة وعمر هذا عام
وأبوه شيخ ما أتاه حمام
وبعقل هذا قد هوى برسام
ولسان هذا في الخطاب حسام
نفع وهذا في الحروب همام
واكف ذا المسكين وهو غلام
يبكي وهذا بالغناء يمام
وبقلب هذا من هواه غرام
أولاده مع فقره أيتام
فحوتهم الأخوال والأعمام
أولاده سام وخيب حمام
وحوى الفاخر والمعالي سام
بكلام ربي لا يقاس كلام
فهم بتصرف الأمور قيام
فهم الدعاء إليه والأعلام
ومحمدًا للمرسلين إمام
طلع النهار وغسق الإظلام
قوم إذا اشتد الهجير صيام
فلهم نهوض عندها وقيام
تروي البلاد وبعضهن ركام
وكذا المشهور وهكذا الأعوام
والقدس والبلد الحرام حرام

ما كان إلا كل شيء شاء
انظر إلى أقسامه في خلقه
هذا كثير المال لا ولد له
هذا رزق حلال طيب
هذا له الأمر المطاع وذا غدا
هذا يعمر في الهنية عمره
كالطفل يقضي قبل حين فطامه
هذا رشيد عاقل في قومه
هذا به عي وهذا أخرس
هذا جبان في الوعى ما عنده
هذا يفتش في مصنف كتبه
هذا تلاوته كتاب مليكه
هذا سليم من صفايا الهوى
وكذا الفقير محسر بين الورى
وإذا الغني تيسامت أولاده
انظر إلى نوح النبي فإن من
حام له نسل طغاة جهل
واختص بالنور الجلي كلامه
وكذا الملائكة اصطفى رؤسائها
ثم اصطفى الرسل الكرام من الورى
واختارهم للمتقين أئمة
صلى عليه الله ربي كلما
سبقت إليه سادة من صحبة
سبقت مشيئته مشيئة غيره
وكذا السحاب فبعضهن رواكد
وكذا الكواكب فضلهن متفاوت
والأرض فضل بعضها عن بعضها

في كل وقت زار مكة زائرٌ
 وكذلك نبت الأرض فيه تفاوت
 والنخل والرمان والأعناب قد
 قس بين حنظلة إلى رمانة
 الكل منبته صعيدٌ واحدٌ
 فترى خبيثاً في المذاق وطيباً
 هرم الزمان فما يسر وإنما
 مالي أراه تغيرت أعلامه
 الأمن خوف والحلاوة مرة
 فمتى سررت بظل يومك إنه
 وإذا الليالي ساعدتك فلإنما
 وإذا أمد لك الزمان فقل له
 كم ذل فيك مستوج ومؤمرٌ
 كل بتقدير الإله وحكمه

ألقى عليه شروطها الإحرام
 منه الشفاء وبعضهن سقام
 أبدت صنوف ثمارها الأكمام
 يبدو لك التفضيل والإكرام
 تسقيه بالماء الروي غمام
 وكذا الرجال وهكذا الأنعام
 سر الفتى من قبل وهو غلام
 لم يبق فيه بشاشة بسام
 والنصح غش والحلال حرام
 فرحٌ لزخرفه لك الأحلام
 تأتي بغير مرادك الأيام
 ما صح منك لمن صحبت ذمام
 وتنكست بصروفك الأعلام
 ربُّ له الإجلال والإعظام

وقال أحد الحكماء : الدنيا وإن ومقت خطرة من لحظ ملتفت . وقال : الأعمال
 في الدنيا تجارة الآخرة لا اتباع الشهوات . وقال : أعظم الناس قدراً من لم يبال في
 يدي من كانت الدنيا . وقال لقمان - رحمه الله - : إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا
 فنافس في الآخرة .

وقال آخر : الدنيا تهين من كانت تكرمه ، والأرض تأكل من كانت تطعمه .
 وحكي أن معاوية - رضي الله عنه - قال يوماً لضرار السدائني : يا ضرار صف لي
 علياً - رضي الله عنه - ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال : صفه ، فقال ضرار :
 أما إذ لا بد من صفته ، فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم
 عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا
 وزهرتها ، ويستأنس بالليالي وظلمتها ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكر ، يقلب
 كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا
 كأحدنا يجيبنا إذا ما سألناه ، ويُنباؤنا إذا ما استنبأناه ، ونحن مع تقربه منا وتقريبه لنا لا

نكاد نكلمه لهيئته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا يياس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيت في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو قد تمثل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تلملم السليم ، ويكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا إليك عني غري غيري ، إليّ تعرضت أم إليّ تشوقت ، هيهات هيهات قد بتت ثلاثاً لا رجعة لي عليك فيها ، فبحرك قصير وخطرك حقير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

وأشردوا :

أراك تنظر من وراء حجاب	برح الخفاء فليس أمرك خافياً
وسقتك زيتها ألد شراب	برزت لك الدنيا بأحسن زينة
ولقد تعض بأقبح الأنياب	فتبسمت بشفر أشنب من لؤلؤ
فترى عيون الخلق كل عجاب	بيضاء تسطع للمحب جملة
عند اللبيب قبيحة الجلباب	بجمالها ساء النفوس وإنها
سترت خباها زينة الأنواب	برصاء ليس بياضها بمخلص
والطبع في الحقيق طبع غراب	بهرجت يا دنيا فصرت حمامة
غرس خوون لا تني عن باب	بيني ثلاثاً إن فحشك بين
لا ريب يا قتالة الأحاب	بتت أمرك والبتات فريضة
نزل القضاء فصرت لمع سراب	بيننا تراك العين شخصاً قائماً
خير الأنام وسيد الأصحاب	ثم الصلاة على النبي محمد

قال : فبكي معاوية - رحمه الله - حتى سالت دموعه على لحيته ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنتك عليه يا ضرار ؟ فقال : حزن من ذبح وحيدها في حجرها فهي لا ترقى لها دمة ولا تنقضي لها عبرة .

وأشردوا في مثل عليّ - رضي الله عنه :

فكأنه القصار ينضح ثوبه	والثوب منسلخ عن الأكدار
لا يبتغي الدنيا ولا يلهو بها	ترك النعيم لصحبة الجبار

وحكي أن إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - قال لمحمد بن واسع : ما غاية مراد

المؤمنين ، فقال : غاية مرادهم رضوان الله والجنة ، فقال إبراهيم : إنني لاستحيي من الله أن يكون مرادي شيئاً من المخلوقات ، قال له ابن واسع : فما غاية مرادك ؟ قال : غاية مرادي أن يجعل لي إليه سبيلاً فلا أرى شيئاً دونه ولا أشتغل بغيره ، فإذا قبضني دعاني ، فأمكنني من رؤيته يوم يتجلى لأوليائه ، فلا أبالي إلى أي الشواب صرت ، فانظر كيف يستحي أهل المعرفة من الاشتغال بشيء من المخلوقات دون جمال الوجه وهي الجنة ، فكيف من يشتغل بما هو أبغض الأشياء إليه بعد الشرك ، ولذلك قيل : الدنيا تمحجب عن الأخرى ، والأخرى تمحجب عن المولى ، فالتقي بالإيمان يشاهد الأخرى ، والعارف باليقين يشاهد المولى ، والتقي يعفي عن باطنه إذا كان مشغولاً بظاهره ، والعارف يعفي عن ظاهره إذا كان مشغولاً بباطنه ، فالزهاد غرباء الدنيا ، والعارفون غرباء الآخرة ، لأن الزهاد معرضون عن الدنيا ، والعارفون عما سوى المولى . ذكر أن الله تعالى أوحى إلى عيسى - عليه السلام - : يا عيسى إن أمامك لججاً وبحاراً وقفاراً من معرفتي لم تقطعها بعد .

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم - عليه السلام - يا إبراهيم طهر لي ظاهرك وباطنك ، فقال : يا رب أما طهارة الظاهر فقد أحكمتها ، وأما طهارة الباطن فلست أعرفها ، فأعلمني بذلك وعلمني إياها ، فأوحى الله إليه ، يا إبراهيم طهارة الباطن هي أن تبكي على ما فاتك مني وعلى ما يفوت ، فبيان ما فاته من كتاب الله وهو قوله تعالى : ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ [الأنعام : ٩١] .

٨٢ - ودليل ذلك ما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « أوحى الله إليّ يا محمد إنني أشكو إليك أهل السموات وأهل الأرض » قال : فقلت : يا رب أما أهل الأرض فبذنوبهم ، فما بال أهل السموات ؟ قال : فقال لي : يا محمد اقرأ : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ^(١) .

ولذلك فاعلم أن جماع الرُّشد في القلوة بمن مضى لأنهم المصطفين الأخيار في قليل الأمر وكثيره ، وبعضه وجميعه ، وأن جماع الضلالة والخيرة في مخالفة طريقهم .

(١) منكر وباطل : كيف ذا ، وأهل السماء راكعون ساجدون ليل نهار ، لا يعصون الله طرفة عين ، وإذا أمروا بأمر قاموا به على أتم وجه ، عليهم السلام جميعاً أهل السماء . والله الهادي لأقوم سبيل .

وأنشدوا :

طوبى لمن سهرت في الليل عيناه أوبات في قلق من حب مولاه
وقام يرعى نجوم الليل منفردا شوقاً إليه وعين الله ترعاه

وحكي عن حسين بن القاسم الوراق أنه قال : كنا عند عبد الواحد بن زيد وهو يعظ الناس ، فناداه رجل من ناحية المسجد ، يا أبا عبيدة كف فقد كشفت قناع قلبي ، فلم يلتفت عبد الواحد إلى كلامه ومد في الموعظة ، فلم يزل الرجل يقول كف يا أبا عبيدة كشفت قناع قلبي وعبد الواحد يعظ لا يقطع مرعظته حتى حشرج الرجل حشرجة الموت ، ثم خرجت نفسه فمات ، قال : فما رأيت بالبصرة يوماً أكثر باكيةً من يومئذ ، فكفن ودفن رحمة الله عليه . وأنشدوا :

أسير الهوى عينه تدمع	وفي ليله العين ما تهجع
تساعده عند تذكاره	بدمع غزير وما تقلع
سأبكي لأهل الهوى رحمة	لعلمي بأن الهوى موجه
سل الليل عن حال أهل الهوى	إذا لاحت الأنجم الطلع
فيخبرك لو أنه مخبرٌ	بأنهم سجد رُكع
فظوراً يناجون مولاهم	وهم في مناجاتهم خضع
يقولون يا من يرى حالنا	ويعلم في الليل ما نصنع
أعنا بصير على شوقنا	إليك فقد شفنا المطمع
حبيب القلوب متى الملتقى	لتهدي قلوبٌ ولا تجزع
هم الأولياء لمحبتهم	وهم في الجنان العلى رتع

قال بعض الصالحين : رأيت شاباً عليه من المحبة آثار ، وعليه من الحزن غبار ، وقد علاه اصفرار ، وعليه من الثياب أطمار ، فتوسمت فيه أنه من الأخيار ، فدخل الطواف فجعلت أرقبه ، فلما فرغ من طوافه دخل الحجر فصلى فيه ركعتين ، فلما فرغ من صلاته سمعته ينشد :

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآفاق

ثم استبكى نفسه وعاتبها فلم تساعده عينه ببيكاء ، فعاد إلى الطواف ، فلما أكمل طوافه دخل الحجر فركع ، ثم أنشد :

هذه دارهم وأنت مـحـب ما بقاء الدموع في الآماق

ثم حاول البكاء فلم يستطع فأنشد :

وقديماً رأيت أفنيـة الدار وفيها مصارع العشاق

ثم صاح صيحة سقط ميتاً رحمه الله . وأنشدوا في ذلك :

مولاي جئت مسلماً ومودعاً ومُبتٌ حال في الفؤاد مودعاً

ولئن رحلت فـإنني لهـيـمٌ بفنائكم وإن فقدت الموضعاً

فدم الدنيا كثير في التنزيل ، والحديث وإنما ذهبنا للاختصار . فلذلك فاعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وشعب الدنيا كثيرة فديناك عبارة عن حالة قبل الموت ، وآخرتك عبارة عن حالتك بعد الموت ، فكل مالك فيه حظ قبل الموت فهو من دنيائك ، والدنيا ظاهر وباطن ، فالظاهر ما تعلق بالأغيار من مركب ومنكح وغير ذلك ، والباطن ما تعلق منها بالقلوب كحب الجاه ، والرياء ، والكبر ، والحسد وغير ذلك ، وذلك يندرج فيه جميع المهلكات ، وجميع ذلك يفارقك بالموت إلا العمل ، والمعرفة ، والحرية فإنها ليست من الدنيا ، وإن كانت من الدنيا فإن المراد بها غير الدنيا . قال الله سبحانه : ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ { الشورى : ٣٦ } .

وهذه الدنيا المذمومة المهلكة هي بعينها مزرعة الآخرة .

٨٣ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الدنيا مزرعة الآخرة » ^(١) وأنشدوا :

حصاد الفتى ما كان يزرع في الدنا ويشرب سلسالاً على ذاك أولمحا

حسبت بأن الدهر يبقى نعيمه وقدها على كل الخليفة قد الحا

حدا بك حاد فانبسطت حذاءه فتنهض في ليل وتحسبه صباحا

(١) لا أصل له : انظر : تخريج أحاديث الإحياء (٤/١٩) ، وإحاث السادة المتقين للشريف الزبيدي الحسيني

(٨/٥٣٩) ، وكشف الخفا (١/٤٩٥) ، وغيرهم .

فهي في حق من عرفها مزرعة الآخرة إذ يعرف أنها منزل من منازل المسافرين إلى الله تعالى ، وهي كرباط بني على الطريق معدّ فيه الزاد والعلق وأسباب السفر ، فمن تزود منها لآخرته واقتصر منها على قدر الضرورة من الطعام والملبس والمنكح وسائر الضرورات ، فقد حصد وبذر ، ويحصد في الآخرة ما زرع ، ومن عرج عليها واطمان إليها واشتغل بلذاتها وطلب منها فوق ما تدعوا إليه الضرورة هلك .

ويقال : مكتوب في التوراة : من يزرع البر يحصد السلام . وفي الإنجيل : من يزرع الشر يحصد الندامة . وفي القرآن : ﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾ { النساء : ١٢٣ } .

وأشدوا للمؤلف رحمه الله :

إني نظرت إلى السماء تعجباً	فرايت صنماً من حكيم فاطر
سبعاً طباقاً ما لهن دعائم	من تحت كرسي وعرش زاهر
يمسكهن أن تزلق في الذرا	ذو قدرة سبحانه من قادر
زينهن بالكواكب رحمة	من ثابت وطالع وغابـر
اسكنهن صفوة من خلقه	من حامد وشاكر وذاكر
من تحتهن نقطة مبسوطة	وسط الهوى قد زينت للناظر
مرسية بالشامخات حكمة	من خالق كي لا تميد بعامر
مقسومة بسبعة أقالم	وكل أقليم خلاف الآخر
مملوءة كلهما من آفة	قنطرة لسالك وعابـر
مزرعة لدار أخرى غيرها	لا للمقيم الظالم المكائر
وسخر السبع البحار بقهره	تجري بها الفلك برمح زاخر
وبث فيها الجن والإنس معاً	وغيرها من سابع وطائر
فمن تقي زاهد وعالم	وجاهل وفاجر وجائر
كل بتقدير الإله وحكمه	سبحانه من مبدع وقاهر

قال أبو حامد - رحمه الله - : مثل الخلق في الدنيا كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهدت بهم إلى جزيرة فأمر بهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وخوفهم المقام واستعجال السفينة ففرقوا فيها فبادر بعضهم وقضى حاجته ورجع إلى السفينة فوجد مكاناً خالياً واسعاً

ووقف بعضهم ينظر في أنهار الجزيرة وأنوارها وطرائف أحجارها وعجائب غياضها ونغمات طيورها فرجع إلى السفينة فوجد مكاناً ضيقاً حرجاً ، وأكب بعضهم على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنهما فلم تسمح نفسه إلا بأن يستصحب منها شيئاً فاشتغل بجمعها فرجع إلى السفينة فلم يجد إلا مكاناً ضيقاً حرجاً دون ما يكفيه ويرضيه وزادته الحجارة ثقلاً وضيقاً فلم يقدر على رميها ولم يجد لها مكاناً فجعلها على عنقه فهو ييؤ بأعبائها ، وتولج بعضهم في الغياض ونسي المركب ، فاشتغل بالتفرج في تلك الأزهار ونغمات الاطيّار ، والتناول من تلك الثمار ، وهو في تفرجه غير خال من خوف السباع ولدغ الهوام ، والحذر من النكبات ، والتردي من الأهوية ، فلما رجع إلى السفينة لم يصادفها ، فبقي على الساحل كئيباً حزيناً ، فافترسته السباع ، ومزقته الهوام ، فهذه صورة أهل الدنيا ، بالإضافة إلى الدنيا والآخرة ، فتأملها واستخرج وجه الموازنة فيها إن كنت ذا بصيرة ، فمن عرف نفسه وعرف ربه وعرف الدنيا وعرف الآخرة شاهد بنور البصيرة عداوة الدنيا للآخرة أن ينكشف له قطعاً أن لا سعادة في الآخرة إلا لمن قدم على الله سبحانه ، عارفاً به ، محباً له ، ناصحاً لله ولرسوله وللمسلمين ، وأن المحبة لا تنال إلا بدوام الذكر ، وأن المعرفة لا تنال إلا بدوام الطب والفكر ، ولا يتفرغ لهما إلا من أعرض عن أشغال الدنيا ، ولا تستولي المعرفة والحب على القلب ما لم يتفرغ من حب الله تعالى ، ففراغ القلب من غير الله سبحانه ضرورة اشتغاله بحب الله - عز وجل - ومعرفته ، ولن يتصور ذلك إلا للمعرض عن الدنيا القانع منها بقدر الدار والضرورة .

٨٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من جاء يوم القيامة بخمسة لم يصد وجهه عن الجنة ؛ النصح لله ، ولدينه ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولجماعة المسلمين » ^(١)

٨٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله لمتخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون » ^(٢) . قال الله سبحانه : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » { الكهف : ٧ } .

(١) لم أتمد إلى من خرّج هذه اللفظة ، لكن النصح لله ، ولرسوله ، ولعامّة المسلمين ، ثابت في غير ما حديث ، والله أعلم .

(٢) ضعيف بهذا التمام : أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » برقم (٢٠) ، عن الحسن البصري مرفوعاً به . وسنده ضعيف لإرساله ، لكن قوله : « الدنيا حلوة خضرة » صحيح ، أخرجه ابن المبارك في =

وقال عيسى - عليه السلام - « يا معشر الخواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا » .

وقال وهب - رحمه الله - : قال الخواريون لعيسى - عليه السلام - يا روح الله ، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ قال : هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ونظروا إلى أجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خافوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما خافوا أن سيدركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وطلبهم لما أدركوا منها فوتاً ، وفرحوا بما أصابوا منها حزناً بما عارضهم من عارضها فأبوا إلا رفضوه ، وما عرضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت عندهم الدنيا فلم يجدوها ، وخربت فلم يعمروها ، وماتت في صدورهم فلم يحيوها ، فهم يبنون بها آخرتهم ، ويبيعون دنياهم فيشترون بها ما يبقى لهم ، رفضوها فكانوا برفضها فرحين ، ونظروا إلى أهلها غرقاً قد حلت بهم المثلثات ، فأحيوا ذكر الموت ، وأماتوا ذكر الدنيا ، يحبون الله تعالى ويحبون ذكره ، ويستضيئون بنوره ، لهم خبر عجيب ، وعندهم أعجب الخبر ، لهم قام الكتاب وبه قاموا ، ولهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه علموا ، ليس يرون قليلاً مع ما ينالون ، ولا أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يجدون . قال الله تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ { النور : ٣٧ - ٣٨ } .

قال سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله - : علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وعلامة حب النبي - صلى الله عليه وسلم - حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يدخر منها إلا زاداً وبلغته إلى الآخرة .

= « الزهد » برقم (٥٠٣) ، ومن طريقه البخاري (٧٨/٤) ، وغيرهما ، من حديث حكيم بن حزام - رضي الله عنه .

واعلم أنه من اطمأن إلى الدنيا وهو يثق أنه راحل عنها فهو من جلة الحمقاء .

قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله : مثل الدنيا مثل دار هياها صاحبها على الطريق وزينها لضيافة الواردين والصادرين ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبقاً من ذهب عليه بخور وريحان ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا يملكه ، فجهل رسمه ، وظن أنه وهب ذلك له ، فلما تعلق به قلبه استرجع ذلك منه فضجر وتوجع ، ومن كان عالماً برسمه وانتفع به وتركه ورده بطيبة قلبٍ وانشراح صدرٍ ، فكذلك سنة الله تعالى في الدنيا ، فإنها دار ضيافة على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها ما يتفعلون به كما يتفعل بالعارية ثم يتركونها لمن يلحق بعدهم بطيبة نفس من تعلق القلب بها ، فازهد في جميع ما يفارقك بالموت .

ففي المناجاة : أن الله تعالى يقول : يا ابن آدم أجاؤك في الدنيا ثلاث ؛ أهل ، ومال ، وعمل ، فمالك يفارقك عند قبض روحك ، وأهلك يفارقك عند دخول قبرك ، ولا يبقى معك إلا عملك ، فعملك باق معك ملازم أبداً .

٨٦ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اليوم المضمار وغداً السباق »^(١) . فالسباق الجنة ، والغاية النار ، بالعفو ينجون ، وبالرحمة يدخلون ، وبأعمالكم تقسمون .

٨٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة »^(٢) . ثم قال : احسبوا ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ { الحج : ٤٧ } .
وأشددوا :

تموت وننسى غير أن ذنوبنا إذا نحن متنا لا تموت ولا تنسى

(١) موضوع : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (ج ١٢ برقم ١٢٦٤٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣١/٧) ، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً ، وفيه : « اليوم الرهان » .

قلت : وسنده موضوع ، المتهم به أصرم بن حوشب ، كذاب خبيث ، لذا أورد هذا الحديث ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣٢٨/١ - ٣٢٩) .

(٢) موضوع : أخرجه حمزة السهمي في « تاريخ جرجان » (ص ١٤٠) ، من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - مرفوعاً به . قلت : وفي سننه العلاء بن زيد ، متهم بالكذب .

وكذلك العلم والإيمان ، لا يفارقك بعد الموت ، فإن الموت لا يهدم محل الإيمان والعلم أصلاً . قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : « إن الناس على ما ماتوا عليه يبعثون ، يبعث العالم عالماً ، والجاهل جاهلاً » .

وقال أبو حامد - رحمه الله - : لا تظن أنك إذا عدمت بالموت عدمت صفاتك ، فالموت ليس بعدم ، بل معنى الموت قطع علاقة الروح من البدن إلى أن يعاد إليه ، فهو على ما كان عليه قبل الموت من العلم والجهل . وأنشدوا في ذلك :

قل لإخوان رأوني مبيتاً	فبكوني إذ رأوني حزننا
أعلى الغائب مني حزنكم	أم على الحاضر مني ههنا
أنا في الصور وهذا جسدي	كان ثوبي وقميصي زمنا
أنا كنز وحب جابي طلسم	من تراب قد تنحنا للفنا
أنا در قد حواني صدف	كان سجنني فأفت السجنا
أنا عصفور وهذا قفصي	طرت عنه فتخلي رهنا
فأشكروا الله الذي خلقني	وبنى لي في المعالي ركنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم	فحببت وخلعت الكفنا
فأنا اليوم أناجي ملاً	وأرى الله جهاراً علنا
عاكف في اللوح أقرأ وأرى	كل ما كان ويأتي أو دنا
وطعامي وشرابي واحداً	وهو رمز فافهموا حسنا
ليس خمراً سائفاً أو عسلاً	لا ولا مـاءً ولكن لبنا
هو مشروب رسول الله إذ كان	يسـري قطرة يطيب بنا
فافهموا السر ففيه نبأ	أي معنى تحت لفظي كـمنا
واهدموا بيتي ورجنوا قفصي	وذروا الطلسم رهنا للفنا
وقميصي وردائي رمم	وذروا أكمل دفين نـتنا
قد ترحلت وخلفـتكم	ولست أرضى داركم لي وطنا
حتى ذا الدار نوم مغرق	فإذا مات أطار الوسنا
لا تظنوا الموت موتاً إنه	لحياة هي غايات المنا
لا تدعكم فجأة الموت فما	هي إلا نقلة من هنا

فاخلعوا الأرواح على أجسامكم
 وجدوا في الزاد جداً لا تنوا
 حسنوا الظن برب راحم
 ما أرى نفسي إلا أنتم
 عنصم الأنفس أمر واحد
 فمتى ما كان خير فلنا
 فارحموني ترحموا أنفسكم
 أسأل الله لنفسي رحمة
 وعليكم من سلامي طيب
 وتبصروا الحق جهاراً بينا
 ليس بالمعاقل منا من ونا
 تشكروا السمي وتأتوا أمنا
 واعتقادي أنكم أنتم أنا
 وكذا الأجسام ذي عمنا
 ومتى ما كان شرف لنا
 واعلموا أنكم في أثرنا
 رحم الله صديقاً أمنا
 وسلام الله بدء وثنا
 ولغيره أيضاً :

ما لقومي دفنوني ومضوا
 ليت شعري إذ رأوني ميتا
 أعلى الحاضر مني فيهم
 ما أراهم فقدوا مني سوى
 وبنوا بالتراب فوقي ما بنوا
 فبكوني أي جزئي بكوا
 أم على الغائب بما لم يروا
 صورة التأليف لكن ما دروا

فلتكن زاهداً في الدنيا ، مجتنباً لجميع ما يفارقك منها بالموت ، راغباً حريصاً
 مجتهداً على اكتشاف ما يبقى معك بعد الموت من الإيمان والعلم والمعرفة والحرية
 والأعمال الصالحة . فقد ورد في المناجاة : يا ابن آدم لو سمعت مخاطبة الأرض كل
 يوم حيث تقول : يا ابن آدم تضحك على ظهري ثم تبكي في بطني ، يا ابن آدم تأكل
 الشهوات على ظهري ثم يأكلك الدود في بطني . يا ابن آدم تدب على ظهري ثم تعذب
 في بطني . يا ابن آدم تفرح على ظهري ثم تحزن في بطني . يا ابن آدم أنا بيت
 الوحشة ، أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الهوان ، أنا بيت الروضة من رياض الجنة أو حفرة
 من حفر النيران ، فاعمرني قبل أن تدخلني ، فإني صندوق العمل . يا ابن آدم أكل من
 لحمك كما أكلت من ثماري ، وأشرب من دمك كما شربت من أنهارى ، وأهشم
 عظامك كما هשמته ثم لا مغيث لك ولا مستغيث . قال الله تعالى : ﴿ ومنها خلقناكم
 وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ { طه : ٥٥ } .

وأشدد ابن مسعود - رضي الله عنه - :

وتعمك الطعام وعن قريب ستطعمك ما منها طعمت

فإذا تحققنا أنها صندوق العمل ، فليس يصل إليها مما يتعلق بالدنيا قليل ولا كثير إلا ما كان لله منها ، وكل ما كان لله تعالى منها فهو كالذي لا يفارقك وهو الذي تجده مجموعاً في الصندوق ، فليكن لك فيمن تقدمك من الأنبياء والصدّيقين والأولياء والصالحين ، إسوة في زهدهم في الدنيا ورفضهم لها ، فاجتهد أيها الغافل عن نفسه ، المغتر بنضارة شبابه ، المستمسك بزور العمل وأسبابه في تقوى الله ، واحذر أن تجهل بعد إذ علمت وتهلك بعد ما فزت ، وتدع الطريق بعد إذ وضح لك ، وتقتدي بأهل الدنيا في طلبهم لها وحرصهم عليها ، وجمعهم لها ، فإن الهول شديد ، والخطر عظيم ، والأمد قريب ، فكان قد كان ، فتفرغ ثم فرغ قلبك ، ثم الجد الجد ، والهرب الهرب وارتحل للأخرة من قبل أن يرحل بك ، واستقبل رسل ربك ، وانكمش وشدّد متزرك من قبل أن يقضي قضاؤك ، ويحال بينك وبين ما تريد ، واستعن بالله فإن التوفيق من الله ، ومفاتيح التوفيق الدعاء والتضرع والاستكانة والندامة على ما فرطت ، ولا تضع حظك من هذه الأيام والليالي ، وكن كيساً حذراً ، شفقاً على نفسك وما قد سلف منك ومضى ، لا تدري ما يفعل بك ربك غداً ، وكن خائفاً على ما بقي من عمرك لا تدري ما يحدث بك فيها ، والخوف توجع القلب وانكساره ، وذلك يكون من يقين العبد ، إن الله تعالى قد اطّلع عليه في مواطن كثيرة لم يرضها منه ولم يفضحه ولم يعاقبه معجلاً ، فليلزم الخوف لذلك قلبه ، وينكسر حتى لا يرى إلا كأنه حديث عهد بمصيبة ، كما قيل : إن بعض العلماء سئل عن الخشوع ، فقال : هو الخوف الملازم للقلب ، واشتغل بذكر عيوبك عن ذكر عيوب غيرك . وأنشدوا :

المرء إن كان عاقلاً ورعاً إذا نحن متنا لا تموت ولا تنسى
كما المريض السقم يشغله عن وجع الناس كلهم وجمعه

وقال أحد الحكماء : العاقل لا تدعه عيوبه يفرح بما ظهر من محاسنه . وقال آخر : لكل امرئ في بدنه شغل لو عقل .

وقال آخر : من جعل همه واحداً كفي سائر الهموم . وأنشدوا :

أنا مشغول بعبيبي عن عيوب العالمينا
 لي ذنوب وخطايا تركت قلبي حزيننا
 ألبسني ثوب ذل من ثياب المذنبينا

فاحذر يا أخي على ما قد أوقرت ظهرك من الذنوب لعلك تخلص منها ، ولا تنس من ينسك ، ولا تغفل عن من قد وكل بك ، يحصي أمرك ويكتب عملك ، رقيب عليك في سريرتك وعلانيتك ، واستحي ممن هو معك ، وهو أقرب إليك من جبل الوريد ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من جبل الوريد ﴾ { ق : ١٦ } .

وادفع الشك باليقين ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك . وأنشدوا في ذلك :

لو كان قلبي له يقين كان على ما مضى حزين
 ولم يكن يالف الخطايا وكان بالله يستعين
 لكن قلبي أراه قاسي لا يستناهى ولا يلين

وصارم الفجار تزداد قرباً إلى الله تعالى ، وأحسن سريرتك يحسن الله علانيتك ، وأصلح فيما بينك وبين الله يصلح الله فيما بينك وبين الناس ، واعمل لآخرتك يكفيك الله أمر دنياك ، وبع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، لا تخافن إلا ذنبك ، ولا ترجون إلا ربك ، وارفق على نفسك وارحمها ، فإنك إن لم ترحمها لم ترحم ، ولا تغشها ولا توردها الشهوات ، وخذ منها لها فإنك بيومك ولست بغد ، فكأن الموت قد نزل بك ، ولا تتهاون بالذنب الصغير ، ولكن انظر من عصيته عصيت رباً عظيماً يعاقب على الصغير ويتجاوز عن العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ { النور : ١٥ } .

واعلم أن الله تعالى أرحم بك من أن يعاقبك على ما تطلق صبراً عنه ، وأعدل عليك من أن يغفر لك ما أظقت صبراً عنه .

٨٨ - وعن سهل بن سعد أن رسول الله - صلى الله عليه - قال :

« إياكم ومحقرات الذنوب ، فإن محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد

فجاء ذا يعود وجاء هذا يعود حتى جمعوا ما أنضجوا خبزهم « (١) .

وفي بعض الكتب المنزلة أن الله تعالى يقول : عبدي أنا ملك لا أزل ، فاطعني فيما أمرتك ، وانه عما نهيتك أجعلك حياً لا تموت . عبدي أنا الذي إذا أردت شيئاً أقول له كن فيكون ، فاطعني فيما أمرتك وانه عما نهيتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون .

وقال بعضهم : إياك والذنوب فإنها كحجارة المنجنيق إذا رمى بها حائط تهدم ودخل الهواء فأطفأ سراج المعرفة ، فأطع يا مسكين من منّ عليك بالهداية ، ثم رباك بالرعاية ، ثم تولاك بالكفاية حتى نلت الولاية ، واستحققت العناية ، من البداية إلى النهاية ، فكان الله تعالى يقول : هديتك بمتي ، وريبتك بنعمتي ، وزيتك بخدمتي ، وشرفتك بخلقتي ، وأدينتك لوصلتي ، وأنقلتك لرحمتي ، ودعوتك لمحبتني ، وألهمتك لطاعتي ، وبشركت برؤيتي ، ووعدتك برضائي وجنتي ، فمن ألطف بك مني ، فاجعل التوبة قبل الممات ، فقد بلغنا أن الله تعالى يقول : « لا أقبل عشرة المصرين في الدنيا والآخرة » . فلا شيء أعظم عند الله تعالى من الإصرار .

واعلم أن لكل شيء توبة ، وترك الذنوب أيسر من طلب التوبة . وقال الثوري - رحمه الله - : قلت لأستاذي : من الفتى ؟ قال : من عطل صاحب الشمال أن يكتب عليه السيئات . وقال المؤلف - رحمه الله - : الفتى من لا يغفل ولا يغيب عن مراقبة الرقيب ، ولا تقطع مواصلة ذكر الحبيب . وأنشدوا :

يا سائلاً من الفتى إن الفتى	من صدق النبي في أقواله
وطلق الدنيا ولم يعبأ بها	وراقب الرقيب في أفعاله
فأدمن الأذكار وجنب الهوى	وأخلص النية في أجماله
فألف الإخوان في خلوته	خوفاً من الحشر ومن أحواله
فهو الذي قد بان من أشكاله	وواصل الرفيق في أشكاله

(١) صحيح : أخرجه الإمام أحمد (٣٣١/٥) ، والطبراني في « الكبير » (ج ٦ برقم ٥٨٧٢) ، وفي « الصغير »

(٤٩/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٢٦٧) ، والرويان في « مسنده » برقم (١٠٦٥) ، من حديث سهل

ابن سعد - رضي الله عنه ، مرفوعاً به .

فإياك أن تغبط أهل الشهوات بشهواتهم وما يتقبلون فيه من النعمة ، فإن أمامهم يوم تنزل فيه الأقدام ، وترعد فيه الأجسام ، وتتغير فيه الألوان ، ويطل في القيامة ، ويشتد فيه الحساب ، وتتطاير فيه القلوب حتى تبلغ الحناجر ، وتبرز فيه الدواوين كالجبال الرواسي من أعمال الثقلين من الحسنات والسيئات ، يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، قد أخذهم فيه الجهد من الضنا ، والجوع والعطش ، والبكاء والكرب ، وذلك يوم عظيم شأنه وهو يوم القيامة ، ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الندامة ، ويوم الحسرة ، ويوم البعث ، ويوم الجزاء ، ويوم النشور ، ويوم ينظر المرء ما قدمت يده ، ويوم التغابن ، ويوم يصدر الناس أشعثاً ليروا أعمالهم ، ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، ويوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ، ويوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده ، ويوم كان شره مستطيراً ، ويوم لا ينفع الظالمين معذرتهم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار في صعيد واحد ، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، قد انقطعت الأعمال ، وفنيت الأموال ، وذهب الخيل من ذوي الألباب ، وذلت الملوك وخضعت الرقاب ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وختمت الأفواه وشهدت الجوارح ، وطمس البصر وشوهت الوجوه . قال الله سبحانه :

﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : ١٠٣] . فيا لها من ندامة ، ثم يا لها من ندامة على ما أصابوا من الشهوات .

٨٩ — قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ونبت عليه أجسامهم » ^(١) .

فإن أردت لحوفاً بال صالحين ، فعليك بالاعتداء بهم ، ولا تغتر فإن الله لا ينزل مع الصالحين إلا الصالحين ، واستغن بالله يغنيك ، فلن يخيب من قصده ، فمن انقاد

(١) موضوع : أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٧٩٨ - مجمع البحرين) ، من حديث عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه . قلت : وسنده موضوع ، فيه أصرم بن حوشب ، تقدم أنه متهم بالكذب ، وإسحاق بن وأصل ، متروك الحديث . وقد أعله الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٧٠ / ٩) بأصرم فقط .

جانح جواد فكره بالمواظب عن المعاصي والهوى حاز صفات المدح وحل خيمة العي
وثوى ودخل في عموم قول فالق الحب والنوى ، قوله تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام
ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ { النازعات : ٤٠ - ٤١ } .

وأشردوا :

إلهي إن كنت الغريق معاصيا فعفوك يا ذا الجود والسعة الرحب
بشدة فقري باضطراري بحاجتي بكشف ما أشكوا إذا اشتد بي كرب
بما بي من ضعف وعجز وفاقة بما ضمنت من وسع رحمتك الكتب
أمتني على دين النبي محمد وقلبي سليم ذكره وردك العذب
صلاة وتسليماً وراحاً وراحة على الصادق المصدوق ما انفلق الحب
أبو القاسم الماحي الأباطل كلها وأصحابه الأخيار والسادة النجب

جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين
هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب . آمين يا رب العالمين .

٣ - باب حُبِّ الجاه الذي يتوصل به إلى جمع المال

وهما مذمومان . فأما الجاه : فهو ممدوح لمن طلب به رفعة الآخرة ، ومذموم لمن
طلب به رفعة الدنيا ، قال الله سبحانه : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون
علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ { القصص : ٨٣ } .

٩٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « حب المال والجاه يُنبئان النفاق في القلب كما
ينبت الماء البقل » ^(١) .

٩١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر
فسادٍ من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم » ^(٢) .

(١) قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣/٢٣٢) : « لم أجده بهذا اللفظ » .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٤٨٢) ، والنسائي في « السنن الكبرى » كما في « تحفة الأشراف » (٣١٦/٨) ،
وأحمد (٣/٤٥٦ ، ٤٦٠) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٨١ - رياضات نعيم بن حماد) ، والدارمي =

٩٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ينادي مناد يوم القيامة : أين الذين أُخربوا - قصور الدنيا لقصور الآخرة ؟ أين الذين تركوا شهوات الدنيا لشهوات الآخرة ؟ قوموا ، فأول سابق إلى الجنة بهم » (١) .

فالجاء في الدنيا كمال وهمي لا حقيقي ، فمن ذلك زهد فيه أهل البصائر ، وجاء في الخبر أن الله تعالى يقول : يا عبدي أحمل ذكرك في الدنيا إلا نظراً مني لك .

وحكي أن ذا القرنين مرّ بمدينة قد ملكها سبع ملوك وبادوا ، فسأل هل بقي من نسل الملوك الذين ملكوا هذه المدينة أحد ؟ قيل : نعم ، بقي شاب . قال : فدلونني عليه ، قيل له : إنه قد لزم المقابر ، فدعاه به ، فلما حضر قال له : ما دعاك إلى لزوم المقابر ؟ قال له : أردت أن أميز عظامهم من عظام عبيدهم فوجدتها سواء . قال له الإسكندر : فهل لك أن تتبعني أحبي شرفك وشرف آبائك إن كانت لك همة ؟ قال : هيهات إن همتي لعظيمة ، قال : وما هي ؟ قال : حياة لا موت فيها ، وشباب بغير هرم ، وصحة من غير سقم ، ورفعة لا خول بعدها ، وغنى لا فقر معه ، وسرور بغير حزن . فقال له الإسكندر : هذا ما لا تجده عندي ، قال : فدعني أطلبه ممن هو عنده وتركه وانصرف ، فقال الإسكندر : ما رأيت أحكم من هذا .

وحكي عن أبي عبد الله الهلالي أنه قال : رأيت بموضع يُعرف بجو الخون عند مجمع البحرين غلاماً ليلاً عليه لحاء الشجر وقد نسجه واستتر به قد لوحته الهواجر وأثرت بوجهه الرياح والسموم ، فنقلت له : يا غلام زين تريد ؟ فقال : أريد غناء لا فقر معه ، ونعيمًا لا يؤس معه ، ومُلْكًا لا ينفد ، وحياة لا موت معها ، ودارًا لا خروج منها ، وسعادة لا شقاء معها ، وكرامة لا يُهان صاحبها ، ومرافقة قوم جعلوا الدنيا على أنفسهم سجنًا فحبسوها في مطابق الأحزان ، وعاقبوها بطول الهموم والأشجان فكان بكاؤهم فيها أطول من ضحكهم ، وغمومهم أطول من فرحهم حتى جاءوا ما كانوا عليه يطلبون ، وبلغوا إلى ما كانوا يؤملون ، ونالوا ما كانوا فيه يرغبون خوفًا من يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات ، وتخضع فيه الأصوات ، وتسكن فيه الحركات ،

(٢٧٣٣) ، وابن حبان برقم (٢٤٧٢ - موارد) ، والبيهقي في « شرح السنة » (٤٠٥٤) ، والطبراني في

« كبيره » (ج ١٩ برقم ١٨٩) ، وغيرهم من حديث كعب بن مالك مرفوعًا به .

(١) لم أجده فيما بين يدي من مراجع ، والله أعلم .

يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه
وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، يوم تكون السماء منفطرة ، والكواكب منتشرة
والبحار مسجورة ، والسرائر مشهورة ، يوماً تذل فيه الملوك ، وتخضع فيه الجبابرة ،
ويذهل الكبير ويشيب الصغير ، وتحل النوازل وتضع الحوامل ، وتضل الحلوم وتطيش
العقول ويفر الآباء ويتناكر الأبناء ، ويهم كل ذي شأن شأنه ، فلا يعرج على حميم ،
ولا يعطف على قريب ، كل مشغول بنفسه ، يوم يجمع الله الأولين والآخرين وتنصب
فيه الموازين وتنشر فيه الدواوين ، فيرى كل مكلف ما عمله من خير أو شر محضراً ،
ويصادف دقيق ذلك وجليله مسطراً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها
فيومئذ يصدعون وحيثذ يتفرون فريق في الجنة وفريق في السعير بقضاء عدل حكم
فاصل ، يوم تشهد فيه على المرء يده ورجلاه وجلده وأعضاؤه ، يوم يحتجب فيه الله
تعالى عن أعدائه ، ويتجلى فيه لأولياته ، ثم مضى يهرول حتى غاب وسعيت لالحقه
فلم أقدر .

وقال أحد الحكماء : ستة لا تفارقهم الكآبة : الحقود ، والحسود ، وحديث عهد
بغنى ، وغنى يخشى الفقر ، وطالب رتبة يقصر قدره منها ، وجليس لأهل الأدب
وليس منهم .

وقال أبو علي الدوباري : رأيت بمصر شاباً حسن الوجه ميتاً مطروحاً والناس
حوله فتقدمت إليه فقلت : أي شيء أصابه ؟ قيل لي : مر بهذا القصر فسمع جارية
تغني :

كـبـرت هـمة عين طـمـعت في أن تراك

فشهق شهقة فمات رحمه الله .

جعلنا الله وإياكم ممن ترك الجاه الوهمي وطلب الجاه الحقيقي ، وزهد فيما
يفنى ، واجتهد في اكتساب ملك دائم البقاء بمنه وفضله .

٤ - باب حب المال والرغبة فيه والحرص على جمعه

وقد عير الله تعالى أقراناً بحبه . فقال تعالى : ﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ { الفجر : ٢٠ } وقال عز وجل : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ { الليل : ١١ } ، وقال سبحانه : ﴿ إن الإنسان خُلِقَ هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ { المعارج : ١٩ - ٢١ } ، وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ { الحج : ١١ } .

وفي الخبر : أن الله عز وجل يقول : « يحزن عبدي أن أصرف عنه فتنة الدنيا ، وذلك أقرب ما يكون مني وأحب ما يكون إليّ » .

وورد في بعض الكتب المنزلة : أن الله سبحانه يقول : « يا عبدي إن رضيت بحكمي واليبتك ، وإن توكلت عليّ كفيتك ، وإن استعنت بي نجيتك ، وإن ظلمت نفسك عاقبتك بعقوبي من أجلك لا من أجلي ، جل قدري ، وعظم فضلي » .

وورد أيضاً في بعض الكتب المنزلة : أن الله تعالى يقول للعبد إذا تغيرت عن المعصية أحواله فشكى ذلك وتألم منه : « يا عبدي ، أنت أسأت ، وبالقطيعة بدأت ألا أقسمت على طاعتك وجريت في التقرب إليّ على عبادتك ، إنما يطلب بري وإحساني من ترك مخالفتي وعصيانني ، يا عبدي عدُ إلى طاعتي وتقرب إليّ بخدمتي تجد عفوي ورحمتي . وأنشدوا :

تروح لما لا يحب الإله وتغدو إليه وتشكو البلاء
كمثل النساء إذا ما أسأن وخطوبن فيه أطلن البكاء
فلو كنت داويت داء القلوب بترك الذنوب أصببت الدواء

وفي المناجاة : أن الله تعالى يقول : « يا ابن آدم أبغض ما تكون إليّ وأبعد ما تكون مني إذا كنت لاهياً ساخطاً بما قسمت لك » .

وفي المناجاة أيضاً : أن الله سبحانه يقول : « يا ابن آدم أنت بما تعلم لا تعمل ، فكيف تطلب ما لا تعلم . يا ابن آدم أنا راض عنك بصلاة يوم بيوم فارض عني برزق

يوم بيوم . مهلاً مهلاً يا ابن آدم ، فإن الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والنعم لا تدوم ، والحسود مغموم ، والباقي حي قيوم .

وفي الخبر : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : « يا موسى ما أحبني من أحب المال ولا أجمع حبي وحب المال في قلب واحد . يا موسى ، ما خافني من خاف المخلوق ، ولا توكل عليّ من خاف الجوع ويعلم أنني حي وببيدي مفاتيح الأرزاق ، وما وثق عبدي بي إلا كفيته همه . »

وفي المناجاة : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - أيضاً : « يا موسى إذا اعتصم بي عبدي وعلمت ذلك منه كفيته همه وأدخلته الجنة ، فإن توكل عبدي على غيري ووثق بغيري قطعت أسباب السماوات من فوقه ، وأسخت الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك . »

٩٣ - يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - عن الله - تعالى - أنه قال لموسى - عليه السلام - : يا موسى خمس كلمات ختمت بهن التوراة ، فإن قلت بهن نفعت علم التوراة ، وإن لم تعمل بهن لم ينفعك علم التوراة ، أولهن : يا موسى كن واثقاً برزقي المضمون لك ما لم تر خزائني نفدت . والثانية : يا موسى لا تخافن سلطان الأرض ما لم تر سلطاني زائلاً . والثالثة : لا تجسسن على عيب أحد ما لم تخل من العيوب . والرابعة : يا موسى لا تدع محاربة الشيطان ما دام روحك في جسدك . والخامسة : يا موسى لا تأمن عقابي لو تر نفسك في الجنة ^(١) .

وفي المناجاة : أن الله تعالى يقول : « يا ابن آدم كل من يحبك يحبك لنفسه وأنا أحبك لك . يا ابن آدم لو رأيت يسير أجلك لزهدت في طول أملك ، ولقصرت من مكرك وحيلك . يا ابن آدم الأشياء ثلاثة ؛ فواحد لي ، وواحد لك ، وواحد بيني وبينك ، فالذي لي فروحك ، والذي لك فرزقك ، والذي بيني وبينك فمنك الدعاء ومني الإجابة . وقال موسى - عليه السلام - يا رب كيف تميز أرزاق أهل البر من أرزاق أهل البحر ، وأرزاق أهل المغرب من أرزاق أهل المشرق ؟ قال : يا موسى ، إن الدنيا وما فيها بين يدي كحبة خردل ملقاة في فلاة من الأرض . قال موسى - عليه السلام -

(١) لم أقف على من أخرجه ، ومنتته من الإسرائيليات كما يبدو لكل ذي لب .

فكيف تعلم ما في قلوب العالمين من خير أو شر؟ قال: يا موسى القلوب كلها بيدي فأقيم منها ما أحب وأزيغ ما أكره وأنا مطلع على ضمائرهم، وإنك لتجد في التوراة ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

وفي الخبر: أن الله تعالى يقول: يا موسى صدقة اللقمة من الفقير مثل صدقة الدنيا من الغني، وإذا تنفس المسكين لطلب الشهوة لا يقدر عليها كان أفضل عندي من مائة حسنة ومن عبادة ألف سنة، إني جعلت الجنة دار الفقراء والمساكين إلا المنافقين. يا موسى انظر إلى من هو دونك في الدنيا وانظر إلى من هو فوقك في العبادة تسلم من شر الدنيا. يا موسى إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر فلو أغنيته لأفسده غناه، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى فلو أفقرته لأفسده فقره، فلا تعظم الغني لماله، ولا تهن الفقير لفقره فإني عليم خبير. وأنشدوا:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

٩٤ - وفي المناجاة: أن الله تعالى يقول: «يا بني آدم! حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أنواع البلاء بالدعاء»^(١).

٩٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من سخط رزقه وبث شكواه ولم يصبر لم ترفع له إلى الله دعوة، ولقي الله وهو عليه غضبان»^(٢).

٩٦ - وروي أن نبياً من الأنبياء شكى بعض ما ناله من المكروه إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه: تشكوني ولست بأهل ذم، ولا تشكوني هكذا، بدا شأنك في علم الغيب

(١) ضعيف جداً: وقد ورد من حديث ابن مسعود - مرفوعاً به دون ذكر: «أن الله تعالى يقول». وقد أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١٠١٩٦)، وفي «الأوسط» (١٣٤١ - مجمع البحرين)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٤/٢، ٢٣٧/٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٣٤/٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» برقم (٦٩١)، وغيرهم. وسنده ضعيف جداً، فيه موسى بن عمير، متروك الحديث.

(٢) ضعيف جداً، إن لم يكن موضوعاً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٣١ - مجمع البحرين)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٤٥/٨)، من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً به.

وفيه عثمان بن عبد الله الشامي، متروك، متهم بوضع الأباطيل على الثقات. انظر: «لسان الميزان» (١٤٣/٤)، ومجمع الزوائد (٢٤٨/١٠).

فلم تسخط قضائي عليك ، أتريد أن أغير الدنيا لأجلك ، وأبدل اللوح المحفوظ بسبيك فأقض ما تريد دون ما أريد ، ويكون ما تحب دون ما أحب ، فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لاسلبنك ثوب النبوة وأوردنك النار ولا أبالي .^(١)

٩٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة »^(٢) . وأنشدوا :

موت الفتى فيما يؤمل أسرع وأراك تجمع دائبًا لا تشبع
فلمن لمن أصبحت تجمع ما أرى البعل عرسك لا أبالك تجمع
لا تركزن إلى الهوى وانظر إلى صرف الزمان بأهله ما يصنع

٩٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه وأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالمًا إلى دار السلام »^(٣) .

٩٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أراد الله بعبده خيرًا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره عيوب نفسه »^(٤) .

١٠٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ازهد في الدنيا يحبك الله . وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس »^(٥) .

(١) منكر لا يصح : ومثله تفوح منه رائحة النكارة ، والله أعلم .

(٢) موضوع : وانظر : « تذكرة الموضوعات » للفتى (١٧٤) .

(٣) موضوع : أخرجه الدليمي في « مسنده » من حديث أبي ذر مرفوعًا بنحوه . وفيه بشير بن زاذان ، وإيه ، وشيخه عمر بن صبح كذاب . وانظر : « الفوائد المجموعة » للشوكاني (ص ٢٤٣ برقم ٧٢٣) ، وهامشه للعلامة الراحل المعلمي اليمني - رحمه الله .

(٤) ضعيف : قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٢٢٣/٤) : « رواه أبو منصور الدليمي في « مسند الفردوس » دون قوله : « ورغبة في الآخرة » ، وزاد « فقهه في الدين » ، وإسناده ضعيف » اهـ . وانظر : إتحاف السادة المتقين للشيخ الزبيدي الحسيني (٢٣٣/٩) .

(٥) صحيح : أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٢/٣ - ٢٥٣ ، ١٣٦/٧) ، وفي « أخبار أصبهان » (٢٤٤/٢ - ٢٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٤١) ، والطبراني في « كبيره » (٥٩٧٢) ، والحاكم (٣١٣/٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » برقم (٦٤٣) ، وغيرهم من حديث سهل بن سعد الساعدي . وانظر : « الصحيحة » للعلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني برقم (٩٤٤)

١٠١ - وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أي أمتك أشرف ؟ قال :
« الأغنياء » ^(١) .

١٠٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إياكم ومجالسة الموتى » قيل : ومن هم ؟
قال : « الأغنياء » ^(٢) .

١٠٣ - وقال رجل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنني لا أحب
الموت ، قال له : « ألك مال ؟ » قال : نعم . قال : « قدم مالك ، فإن قلب الرجل مع
ماله إن قدمه أحب أن يلحقه ، وإن أخره أحب أن يتأخر معه » ^(٣) .

والحكمة في ذلك أن قميص يوسف - عليه السلام - بقي معه زماناً في بيته ولم
تكن له رائحة ، فلما أنفذه مع البشير وفصلت العير انتشر ريحه حتى اتصل بيعقوب -
عليه السلام - وكذلك قلبك ومالك في خزائنك فقلبك مشتغل به ولا تجد منه فائدة ،
فإذا أنفقت المال في ذات الله رجع القلب بكليته لله تعالى وتخلص من علاقته بحب
المال فحيثما ترى العجائب واللطائف والكرامات ، والبر في الدنيا والآخرة أضعاف ذلك
مع الملك الدائم في جوار الله سبحانه . وأنشدوا :

يفنى البخيل بجمع المال مدته وللأقارب والأبناء ما يدع
كدودة الخبز ما تبنيه يهلكها وغيرها بالذي تبنيه يتتفع

١٠٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا مات العبد قالت الملائكة : ما قدم ؟ وقال
الناس : ما خلف ؟ » ^(٤) . وأنشدوا :

لا دار للمرء بعد الموت يعمرها إلا التي كان قبل الموت يبنئها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها
فاغرس ثمار التقى ما دمت مجتهداً واعلم بأنك بعد الموت جانيها

(١) لفظه منكر ، والله أعلم .

(٢) لم أهد إلى من خرجه بهذا اللفظ ، واللفظ منكر لمن له أدنى مسكة من علم ، والله أعلم . ثم ألفتُ
العراقي يقول : « غريب لم أجده بهذا اللفظ » (٣/٢٣٢ - تخريج الإحياء) ، والحمد لله .

(٣) قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣/٢٣٣) : « لم أظف عليه » اهـ .

(٤) ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » برقم (١٠٤٧٥) ، من حديث أبي هريرة .

أموالنا لذوي الميراث نجتمعها ودورنا لخراب الدهر ننبئها
 أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بساقي الموت ساقبها
 نلهو ونأمل أياماً تعد لنا سريرة المرّ تطوينا ونطويها
 فليس للناس في الدنيا وإن حرصت إلا نصيباً ورزقاً سوف يأتيها
 النفس تكلف بالدنيا وما فيها إن السلام فيها ترك ما فيها
 تالله ما قنعت نفس بما رزقت من المعيشة إلا سوف يكفيها

١٠٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الفقر أزين للمؤمنين من العذار الجيد على خد الفرس » ^(١) .

١٠٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الفقر خير من كثير العبادة » ^(٢) .

١٠٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الفقراء من أمتي يدخلون الجنة قبل أغنياءها بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة » ^(٣) .

١٠٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ويجوزون الصراط بأداء الفريضة ، واجتناب المحارم ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، ويدخلون الجنة بفضل رحمة الله ، ويتقاسمون الجنة بقدر أعمالهم وذلك يوم لا تتكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد » ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ { الأنبياء : ٤٧ } كذلك قال الله تعالى .

(١) لا يصح مرفوعاً ، والصواب أنه من قول عبد الرحمن بن زياد بن أنعم : أخرجه مرفوعاً ابن المبارك في « الزهد » برقم (٥٦٨) ، من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن سعد بن سعد الكندي مرفوعاً به . قلت : وعبد الرحمن ذا ، قال فيه ابن حبان في « المجروحين » (٥٣/٢) : « كان يروي الموضوعات عن الثقات ، ويأتي عن الأثبات بما ليس من أحاديثهم ، وكان يلدس عن محمد بن سعيد بن أبي قيس المصلوب » أهـ . قلت : وسعد ذا مختلف في صحبته .

وقال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (١٦٩/٤) : « والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، رواه ابن عدي في « الكامل » هكذا » أهـ .

(٢) لم أهد إلى من رواه ، والله أعلم .

(٣) صحيح : أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، والنسائي في « الكبرى » ، من حديث أبي هريرة ، انظر : تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (٢٧٠/٣) .

(٤) لم أهد إليه ، والله أعلم .

١٠٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خصلتان لا أرضى فعلهما ؛ بطن الغني -
ومسألة الفقير ، فإذا أغنيت فلا تكن بطن ، وإذا افتقرت فته على الدهر » (١) .

١١٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - في فقير دفن : « يحشر يوم القيامة ووجهه
كالقمر ليلة البدر ، فلولا خصلة كان كالشمس الصاحية ، كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة
الصيف لصيفه » (٢) . وأنشدوا :

كل امرئ أهمل أعماله يوشك أن ترجع أفعى له
وكل من حسن أقواله كان لدى المحضر أقوى له
وكل من قال أنجباله كان من القلة ألجى له

وفي الخبر : أن الله تعالى أوحى إلى موسى - عليه السلام - من لم يرض
بقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يقنع بعطائي ، فليخذ إلهاً سواي .

١١١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : قال الله - عز وجل : « إني لا أخرج عبدي
من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه فلا أدع له ذنباً إلا استوفيته منه في دار الدنيا إما ضيق في
رزقه ، وإما سقماً في بدنه ، وإما خوفاً في دنياه ، وإن بقيت عليه بقية شددت عليه
الموت . وإني لا أخرج عبدي من الدنيا وأنا أريد عذابه فأدع له حسنة إلا وفيتها إياها في
دار الدنيا إما سعة في رزقه ، وإما صحة في بدنه ، وإما أماناً في دنياه فإن بقيت له بقية
هونت عليه الموت » (٣) .

والحكمة في ذلك أن الله تعالى قطع حظ أوليائه من الدنيا الفانية وادخر لهم
الآخرة ويسرهم بدوام الملك والنعيم فيها وجعلها جنة للكافرين ودار نعيم لهم ورباهم
فيها بنعمه ، فكان الله تعالى يقول : عبدي هذا الكافر لم يكن يستحق عندي شيئاً
ولكنني أمتعه في الدنيا وأزينه بنعيمها حتى أجعله لك فداء من النار .

(١) لم أقف على من خرجه . والله أعلم .

(٢) هو كالسابق .

(٣) هو كالذي سبق ، والمتن منكر لمن يتامله جيداً ، والله الهادي لاقوم طريق .

١١٢ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يدفع إلى كل مؤمن يوم القيامة يهودي أو نصراني فيقال له هذا فداؤك من النار » (١) .

وقيل : إن فداء إسماعيل - عليه السلام - كان القربان الذي تقرب به هايل بن آدم - عليهما السلام - إلى الله تعالى ، فتقبله الله منه ورباه في روضة من رياض الجنة لأجل فداء إسماعيل - عليه السلام - والقربان لم يكن يستحق أن يرفع في رياض الجنة لكنه رباه فيها لأجل فداء إسماعيل - عليه السلام - حتى يفديه به ، كذلك الكفار يزنيهم الله سبحانه بنعيم الدنيا حتى يجعلهم للمؤمنين يوم القيامة فداء من النار كما جعل القربان فداء من الذبح .

١١٣ - وقال عمر - رضي الله عنه : لو قمتم حتى تكونوا أمثال الخنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار وكان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم يغن عنكم شيئاً (٢) .

(١) صحيح : أخرجه أبو نعيم في « أخبار أصبهان » (٦٢/٢) ، من حديث أبي موسى الأشعري . وأصله في « صحيح مسلم » (١٠٤/٨) من حديثه .

(٢) باطل : وقد وقع لنا هذا الحديث مرفوعاً ، فأرويه عن أبي عبد الرحمن مسعد عبد الحميد محمد السعدني الحسيني عن العلامة المحدث محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي إجازة ، أخبرني به السيد عبد المحسن بن محمد بن أمين ، عن أبيه ، عن عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ، عن محمد عابد السندي عن عبد الرزاق الزاهد ، أنبأني السيد أحمد بن محمد الأهدل ، أنبأني محمد أبو طاهر الكوراني ، عن أبيه الملاً إبراهيم الكوراني ، عن أحمد بن محمد القشاشي ، عن أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي عن أبيه ، عن عبد الوهاب الشعرائي ، عن القاشي زكرياء ، عن الحافظ ابن حجر العسقلاني ، ومحمد بن الزين المراغي ، كلاهما عن إسماعيل الجبرتي ، عن عبد الله بن عبد الغني المقدسي ، عن الرشيد العطار عن عمر بن أمير ملك الموصل ، عن أبي طاهر السلفي عن أحمد بن محمد البرداني ، عن هناد بن إبراهيم النسفي ، عن محمد بن أحمد الأسدأباضي ، عن يونس بن محمد الزاهد ، عن أبي يزيد البسطامي ، عن محمد بن فارس البلخي ، نا حاتم الأصم ، نا شقيق ، عن إبراهيم بن أدهم ، عن مالك بن دينار ، عن أبي مسلم الخولاني ، عن عمر مرفوعاً به .

قلت : وأخرجه ابن منده في « مسند إبراهيم بن أدهم » برقم (٢٣) ، ونظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق في « مجلسين من أمالي الصّاحب » برقم (٤) ، من طريق محمد بن فارس به . وسنده باطل ، قال الذهبي في « ميزانه » في ترجمة : « محمد بن فارس » : « عن حاتم الأصم ، لا يُعرف ، وقد أتى بخبر باطل مسلسل بالزهاد » .

قلت : وهذا الإسناد يعرف بالمتسلسل بالزهاد . وهو سند باطل لا يصح .

والخنايا جمع الخنية : القوس . والاثنان : الدراهم والدنانير .

وقال الجنيد - رحمه الله - : الفقراء ثلاثة ؛ فقير لا يسأل وإن أعطي لم يأخذ
فذلك في الروحانيين ، وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ فهو لاء يضع لهم موائد في القدس
فياكلون ويشربون ، وفقير سائل وإن أعطي أخذ فكفارته صدقة .

وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : من افتتح أبواب المعاش بغير مفاتيح الأقدار
فقد فتح لنفسه باب الذلة والافتقار .

١١٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا ابن آدم لا تكن عابداً حتى تكون ورعاً ،
ولا تكن مؤمناً حتى تصل الرحم ، ولا تكن مسلماً حتى تحب للناس ما تحب لنفسك ، ولا
تكن غنياً حتى تكون عفيفاً ، ولا تكن زاهداً حتى تكون متواضعاً ، ولا يحيي قلبك حتى
يقبل ضحكك فإن كثرة الضحك يميت القلب » ^(١) .

١١٥ - وذكر أنه جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له :
أوصني يا رسول الله ، فقال له : « أوصيك بتقوى الله العظيم ، وأن تأكل مالك قبل أن
يأكلك » ^(٢) . يعني بذلك أن يقدمه للأخرة فيأكل من ثوابه في الآخرة ، فإنك إن
أكلت مالك ربحت الدنيا والآخرة ، وإن أكلك المال خسرت الدنيا والآخرة .

واعلم أن العبد يدعى للحساب بكل قيراط أربع وعشرين مرة ، فالذي
بعثني بالحق بشيراً ونذيراً لرغيف يتصدق به العبد في صحته خير له من ألف دينار
يتصدق به في مرضه ، ورغيف يتصدق به في مرضه خير له من ألف دينار يتصدق
به بعد موته . وأنشدوا :

المال ينفد حله وحرامه يوماً وتبقى غداً أثمانه
ليس التبقى بمتق في دينه حتى يطيب شرابه وطعامه

(١) حسن : رويناه في « الضعفاء للعقيلي » (٣/٣٥٢) ، من طريق محمد بن إسماعيل الجعفري ، عن عبد الله
ابن سلمة ، عن عقبه بن شداد ، عن ابن مسعود مرفوعاً به .

وقال العقيلي : « لا يُعرف » ، أي : عقبه نا ، ثم قال عنه أنه : « منكر الحديث » . وليس له إلا هذا
الحديث . انظر : « لسان الميزان » لابن حجر (٤/٢٠٦) . وله شاهد من حديث أبي هريرة ذكرته في « قمع
الحرص » برقم (٩٦) ، وبه يُحسن ، والحمد لله .

(٢) لم أعتد إليه ، والمتن رائحة النكارة تفوح منه .

ويطيب ما يحوي ويكسب أهله ويطيب في خير الكلام كلامه
نطق النبي لنابه عن ربه فعلى النبي صلاته وسلامه

١١٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ،
ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع . اللهم إني أعوذ بك من شر هؤلاء
الأربع » ^(١) .

١١٧ - وفي الخبر : أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - دخل على رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فقال له : يا رسول الله ، ادعو لأمك أن يوسع عليهم فقد وسع على
كسرى وقيصر ، وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطاب
أولئك قوم لهم عجلت طياتهم في حياتهم الدنيا » ^(٢) . وهذا ينظر إلى قوله تعالى :
﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سققاً من فضة
ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع
الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ { الزخرف : ٣٣ - ٣٥ } . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا ثواباً لمحسن إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبت فيها بطون البهائم

١١٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أراد الله تعالى بقوم خيراً فقههم في
الدين ، ووفر صغيرهم كبيرهم ، ورزقهم القصد في معاشهم » ^(٣) .

١١٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أصبح حزيناً على الدنيا كان سaxonاً
على الله عز وجل ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه عز وجل ، ومن قعد

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (١٥٤٨) ، والنسائي (٢٦٣/٨) ، وابن ماجه برقم (٣٨٣٧) ، وأحمد
(٢ / ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ٤٥١) ، والحاكم (١٠٤/١) ، (٥٣٤) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة - رضي
الله عنه . .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٣٩/٦ - ٤١) ، و (١٨٨/١١ ، ٢٠٣) ، ومسلم (٩٠/١٠ - نووي) ،
والترمذي (٢٢٤/١٠ - تحفة) ، وأحمد (٣٤/١) ، والبيهقي (٣٧/٧) ، وغيرهم من حديث عمر بن
الخطاب - رضي الله عنه .

(٣) لم أتف عليه بهذا اللفظ ، والله أعلم .

أو جلس إلى غني فتضع له لدنيا يصيبها ذهب ثلثا دينه ودخل النار» (١) .

والحكمة أن الإنسان ثلاثة أقسام ؛ جسم ، ولسان ، وقلب . فإذا تواضع الإنسان لغني فإنما يتواضع له بقدمه ولسانه ، وقد أمر أن لا يصرفها إلا لله ، وبالله ، وفي الله ، فلما صرفها للمخلوق وذهب دينها وبقي دين قلبه حيث لم يتواضع به وهو الثلث .

١٢٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دخلت الهدية الباب خرجت الأمانة من الكوة » (٢) .

١٢١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن أحداً لن يموت حتى يستكمل رزقه ، فلا تستبظثوا الرزق فاتقوا الله أيها الناس واجملوا في الطلب ، خذوا ما حل ودعوا ما حرم » (٣) .

١٢٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خير الرزق ما يكفي ، وخير الذكر الخفي » (٤) .

١٢٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعلي - رضي الله عنه : « كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ورغبوا في الدنيا وأكلوا التراث أكلاً لما وأحبوا المال حباً جماً ، واتخذوا دين الله دغلاً ، ومال الله دولاً » قال : قلت : أتركهم وما اختاروا وأختار الدنيا

(١) ضعيف جداً : أخرجه الطبراني في « الصغير » (٢٥٧/١) ، والشجري في « أماليه » (٧٥/١) ، من حديث أنس - رضي الله عنه . قلت : وسنده ضعيف جداً ، فيه وهب بن راشد ، متروك الحديث .

(٢) لم أقف على سنده لأحكم عليه ، والله الموفق .

(٣) صحيح : أخرجه ابن أبي الدنيا في « القناعة » كما في « قمع الحرص » للقرطبي المفسر (ص ٥٠) عن جابر - رضي الله عنه ، وسنده ضعيف ، لكن الحديث صحيح بشواهده ، راجع « قمع الحرص » ط - دار الكتب العلمية .

(٤) ضعيف : أخرجه أحمد (١٧٢/١ ، ١٨٠ ، ١٨٧) ، وفي « الزهد » (ص ١٠) ، ووكيع في « الزهد »

(١١٨) ، وابن أبي شيبة (٣٧٥/١٠) ، وأبو إسحاق الحري في « غريب الحديث » (٨٤٥/٢) ، وابن حبان

(٢٣٢٣) ، وابن السني في « القناعة » برقم (٣٨ - ٣٩) ، وابن أبي الدنيا في « القناعة والتعفف » (٢)

/ق ٥٨ ب - مخطوطة الظاهرية) ، وآخرون عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه .

وسنده ضعيف كما في « قمع الحرص » برقم (١٨٧) ، والحمد لله وحده .

والآخرة ، وأصبر على مصيبة الدنيا وبلواها حتى ألحق بك إن شاء الله تعالى . قال :
« صدقت ، اللهم افعل ذلك به »^(١) . وأنشدوا :

روح روحك عن محل حائل فقرر در عينك في محل قرار
راقبت ربك فارتقت لظله فظلمت في الأنوار والأزهار
راعيت ربك والدنا طلقناها فدنوت للأخرى بغير شعار
ربحت تجارتك التي هيئتها بالحجر نلت الدر في الأحجار
رشداً أتيت إذا اقتنيت جواهرها تعشى جهاراً أعين النظر
رجحت موازين التقى بنوره فنجى موقى عن حريق النار
رفعت له راياته فرأى الذي يهوي من الأسرار والأنوار
رسخ اليقين بسره فكأنه بدر ولكن لا يفي بسرار

١٢٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ليس ينبغي للعاقل أن يكون راغباً إلا في
ثلاث ؛ تزود لمعاد ، أو لمعاش ، أو لذة في غير محرم »^(٢) .

١٢٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من مر عليه بجنابة : « مستريح ومستراح منه »
قالوا : يا رسول الله ، وما مستريح ومستراح منه ؟ فقال : « المؤمن يستريح من الدنيا
ومن صعبها ، ونصبها ، والفاجر يستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب »^(٣) .

١٢٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « تعس عبد الدرهم ، وتعس عبد الدينار ،
وتعس وانتكس »^(٤) .

١٢٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه
إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق ، أو حجر إلى حجر كالثعلب بأشباهه » . قالوا :

(١) منكر المتن لمن له أدنى مسكة من علم .

(٢) لم آقف على سنده الآن ، فنظرة إلى ميسرة .

(٣) صحيح أخرجه مالك (٢٤١/١) ، والبخاري (١٣٣/٨) ، ومسلم (٦٥٦) ، والنسائي (٤٨/٤) ، وأحمد

(٣٠٢/٥ - ٣٠٣) ، وغيرهم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

(٤) صحيح : أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٦ ، ٢٨٨٧) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

وانتكس : انقلب على رأسه خيبة وخساراً .

يا رسول الله ، ومتى يكون ذلك الزمان ؟ قال « في زمان لا تنال فيه المعيشة إلا بمعصية الله تعالى ، فإذا كان ذلك الزمان فقد حلت العزبة » . قالوا : يا رسول الله ، نأمر بالتزويج وغل العزبة ، قال : « إذا كان ذلك الزمان كان هلاك المرء على يدي أبويه أو زوجته » . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يعيرونه بالفقر وضيق المعيشة فتحمله نفسه على أن يرد الموارد التي يهلك فيها » ^(١) .

١٢٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعائشة - رضي الله عنها : « إن أردت اللحاق بي فانتعي من الدنيا بزد الراكب ، ولا تخلعي ثوباً حتى ترقعيه » ^(٢) .

١٢٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً » ^(٣) .

فمن زاد على قدر الكفاية هلك ، وكذلك المسافر إذا أخذ ما يزيد على زاد الطريق مات تحت فعله ولم يبلغ مقصد سفره ، والزيادة على قدر الكفاية مهلكة ، إذ المسافر لا بد له أن ينتهي الغاية . وذكر أن عيسى - عليه السلام - أخذ لبنة من طوب فجعلها تحت رأسه فجاءه جبريل - عليه السلام - فوكر الطوبة من تحت رأسه فتزعها وقال له : اترك هذه مع ما ركنت . وأنشدوا :

يا نفس دع الدنيا فلقد	غرت قوماً كانوا كثرًا
جمعوا الأموال وغرهم	أمل حتى سكنوا الحفرا
صاروا في ضيق قبورهم	فانظر عجباً وانظر عبرا
عرج بالدار فلست ترى	عينا للقوم ولا أثرا

وقال بعض الحكماء : أجمل في الطلب فإن مالك حظك . وقال بعض العلماء : إنني نظرت إلى الدنيا فوجدتها شيئين ؛ فالواحد لي والثاني لغيري ، فالذي لي لا يصل إليّ في غير وقته ، والذي لغيري فلا سبيل لي إليه وأنشدوا :

(١) لم أقف على سند ، ومثته منكر لا يصح ، والله أعلم .

(٢) ضعيف جداً : أخرجه الترمذي (١٧٨٠) ، وابن السني في « القناعة » (٦٤) ، وغيرهما بسند فيه صالح بن حسان ، وهو ذاهب الحديث ، انظر : « قمع الحرص » برقم (١٩٤) .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٢٨٣/١١) ، ومسلم (٧٣٠/٢) ، وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

يا نفس ما هي إلا صبر أيام كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفس جوزي على الدنيا مبادرة وخل عنها فإن العيش قدام

١٣٠ - وذُكر عن سويد بن غفلة أنه قال : أصابت علياً - عليه السلام - خصاصة ، فقال لفاطمة رضي الله عنها - لو أتيت النبي - صلى الله عليه السلام - فسألتيه شيئاً ؟ فقالت : فأتيته وكانت عنده أم أيمن فنقرت الباب ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لام أيمن : « إن هذا لدق فاطمة ، ولقد أتتنا في ساعة ما عودتنا أن تأتينا في مثلها » فلما دخلت قلت : يا رسول الله ، هذه الملائكة طعامها التسبيح والتهليل والتحميد ، فما طعامنا ؟ قال : « والذي بعثني بالحق ما أقتبس في آل محمد منذ ثلاثين يوماً ، ولقد أتتنا أعنز فإن شئت أمرت لك بخمس أعنز وإن شئت علمتك خمس كلمات علمنيهن جبريل - عليه السلام » قلت : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « قولني : يا أول الأولين ، ويا آخر الآخرين ويا ذا القوة المتين ، ويا أرحم المساكين ، ويا أرحم الراحمين » . قالت : فانصرفت حتى دخلت على عليّ - رضي الله عنه - فقال : ما وراءك ؟ فقلت : ذهبت من عندك إلى الدنيا ورجعت إليك بالآخرة ، فقال : خير أيامك ، خير أيامك ، خير أيامك ، حتى قالها ست مرات .^(١) وأنشدوا في ذلك لعليّ - رضي الله عنه :

أتطلب رزق الله من عند غيره وتصيح من خوف الحوادث آمناً
وترضى بصرف وإن كان كافراً ضميناً ولا ترضى بربك ضامناً

وقيل : أجمع أئمة الهدى - رحمهم الله - على أن الله تعالى قد أجرى في سابق علمه أنه من فتح له باباً إلى الدنيا أغلق عنه أبواب الآخرة ، فلا تفتح له أبداً ، ودليله قول الله سبحانه : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ { الشورى : ٢٠ } .

وقال القشيري - رحمه الله : علامة المرید الصادق ك القلة ، والعلة ، والذلة .

(١) ضعيف : أخرجه قوام السنة الاصبهاني في « الترغيب والترهيب » برقم (١٣٢٩) ، والشجري في « الامالي »

(١/٢٤٤ - ٢٤٥) ، من طريق إسماعيل بن عمرو البجلي ، نا سفيان الثوري ، عن عبدة ، عن سويد به .

قلت : وهذا إسناد ضعيف ، لضعف إسماعيل البجلي .

وقد وقع في « الامالي » : « إسماعيل بن عمر » ، وهو خطأ فليصح ، والله أعلم .

وقيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك ؟ فقال : على أربع خلال ؛ علمت أن لي رزقاً لا يصل إليه غيري ولا بد لي منه فاطمأنت لذلك نفسي ، وعلمت أن لي عملاً لا يعمله غيري فأنا مشتغل به ، وعلمت أن لي أجلاً لا بد أن يأتيني فأنا له متوقع ، وعلمت أنني عن عين ربي لا أغيب فأنا منه أستحي .

وقيل لبعض الصالحين : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت مطلوباً بستة أشياء من ستة مطالبين ، قيل له : فما الستة أشياء ومن المطالبون ؟ قال : الله تعالى يطلبني بالعمل فأنا مقبل عليه ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بالسنة فأنا مشتغل بها ، والعيال بالقوت فأنا أكتسب لهم ، والنفس بالشهوات فأنا مشتغل بحبسها ، وإبليس لعنه الله بالمعاصي فأنا أتحرز من مكائده ، وملك الموت بقبض روعي فأنا متوقع لهجومه ، فكيف يطيب مع هذا الطلب عدو أو قرار . وسأل رجل يحيى بن معاذ - رحمه الله - ما القوت ؟ فقال : ذكر الحي القوم الذي لا يموت ، فقال له الرجل : ما عن هذا سألتك إنما سألتك عن الغذاء ، فقال : الذكر ، فقال له الرجل : ما عن هذا سألتك ، إنما سألتك عن قوام الأبدان ، فقال له يحيى : ما لكم وللأبدان ، دعوها لمن تولها بداية يتولاها نهاية ، أما رأيتم الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها الأول . وأنشدوا :

أنت قوت النفس والنفس بلا قوت تموت
حب من أنت له من سائر الأقوات قوت
ليت لي بخت أناس لهم منك البخوت

وقال أحد الحكماء : السبب الذي أدرك به الفاجر حاجته ورزقه هو الذي أقعد الحازم على طلبه . وأنشدوا في هذا المعنى :

يفوت الغنى من لا ينام على السري وآخر يأتي رزقه وهو نائم
فمن ظن أن الرزق يأتي بحيلة فقد كذبتة نفسه وهو آثم
فلو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذا من جهلهن البهائم

واعلم أن الناس في الدنيا على قسمين ؛ قسم لم يقسم لهم فهم يسخطون ، وقسم قُسم لهم فهم يفتخرون ، قوم أعرضوا وقوم تعرضوا ، فلا هؤلاء شكروا ولا هؤلاء صبروا ، وكذلك هم في الدارين على أربعة أقسام :

١٣١ - كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « الناس أربعة ؛ موسع عليه في الدنيا ومقتور عليه في الآخرة ، وموسع عليه في الآخرة مقتور عليه في الدنيا ، وموسع عليه في الدنيا والآخرة ، ومقتور عليه في الدنيا والآخرة » ^(١) . وأنشدوا :

أربعة يعجب من شأنهم	فالعين في فكرتهم ساهرة
فواحد دنياه مبسوسة	ليست له من بعدها آخرة
وثاني دنياه منقوصة	وأخرها آخرة وآخرة
وثالث قد نال كليهما	قد أوتي الدنيا مع الآخرة
ورابع يسقط من بينهم	ليست له دنيا ولا آخرة

وقيل : وجد في منطقة ^(٢) برز جمهر أربع كلمات ما فوقهن شيء ، الأول : إذا كان الرزق حظاً مقسوماً فالحرص باطل ، والثانية : إذا كان الله تعالى أجل الأشياء فالعلم به أجل العلوم ، والثالثة : إذا كانت الأمور بمقادير الله تعالى ومشيتته ، فما آفاتنا ومصائبنا إلا لعلل وأسباب عرفناها أو جهلناها ، والرابعة : إذا كان الإنسان على تركيب مختلف فطلب الحالة الواحدة منه محال ، وقيل : من سلم سلم ، ومن آمن آمن ، ومن أخلص مخلص ، ومن وثق رزق ، ومن اتقى ارتقى .

وقال أحد الحكماء : إن الأمر الذي يحول بين العاقل وبين الرزق هو الذي يمنحه الجاهل ، وقال أيضاً : من لم يزل الطمع له ركاباً لم يزل الفقر له صاحباً .
وقال آخر : ليس أرفع وأنفع وأروح للبدن من الرضا بالقضاء والثقة بالقسم .
وأنشدوا :

كم من ذكي قوي في قلبه	مهذب العقل عند الرزق ينحرف
ومن ضعيف العقل مختلط	تخاله من مياه البحر يغترف
هذا دليل على أن الإله له	في الخلق سر خفي ليس ينكشف

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٤/٣٢١ - ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦) ، والطبراني في « الكبير » (ج ٤ برقم ٤١٥١ -

٤١٥٥) ، وفي « الأوسط » (١٦ - مجمع البحرين) ، وابن حبان (٣١ - موارد) ، والحاكم (٨٧/٢) ،

من حديث خريم بن فاتك - رضي الله عنه .

(٢) المنطقُ ، والمنطقُ ، والنطقُ : كلُّ ما شدَّ به وسطه . انظر : « لسان العرب » لابن منظور مادة [نطق] .

وذكر أن بعض الملوك أمر صاحبه وخازنه وصاحب بيت ماله أن يجعلوا له الذهب في أواني الفضة ، والفضة في أواني الذهب ، وملاً صواني الخشب بالامتعة والثياب ، وجعل ذلك في إيوانه ، وأمر الحظايا والجواري والبنات يتخطفن ذلك ، فعمدت كل واحدة منهن أخذ ذهباً ، فضة ، ثياباً ، متاعاً ، جواهرًا ، حُلِيًا ، وعمدت زوجته إلى ديواني تمسكها وتتعلق بها ولم تأخذ شيئاً ، فقال لها : خذي مثل ما أخذ النساء ، فقالت : أنت إذا نلتك نلتك المني ، وأنشدوا :

بحبك قلبي بين جلدي وأعظمي وبهواك قلبي في التراب تريب
وعندي من الشوق المبرح لوعة لها بين جلدي والعظام ديب
فوا أسفي من حُبِّ من لا يريدني ومن زفريات ما لهن طبيب
فما مت حتى أنحل الحب أعظمي ولم يبق مني للتراب نصيب

وقال أحد الحكماء : أفضل الزاد ما تزود ليوم المعاد .

وقال سفيان الثوري - رحمه الله - : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر ، فإذا قبل ذلك منه أحدٌ أخذ في الباطل ومنع الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء .

وقال أيضاً - رحمه الله - : جواهر البر ست خصال ؛ كتمان الفقر حتى يظن الناس أنك غني ، وكتمان الصدقة حتى يظن الناس أنك بخيل ، وكتمان المصيبة حتى يظن الناس أنك راض ، وكتمان الشدة حتى يظن الناس أنك متهم ، وكتمان أعمال البر حتى يظن الناس أنك لا تعمل عملاً ، وكتمان الأمراض حتى يظن الناس أنك لا تشكو شيئاً . جعلنا الله وإياكم ممن رضي بمواقع القضاء وشكر ربه تعالى على السراء والضراء بمنه .

٥ - باب البخل ومنع الزكاة

وهذا الباب يجمع بايين :

اعلم وفقنا الله وإياك أن البخل من المهلكات العظيمة ، قال الله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ { آل عمران : ١٨٠ } ، وقال سبحانه : ﴿ الذين يدخلون

ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴿ الحديد : ٢٤ ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ { الليل : ٨ - ١٠ } ، وقال سبحانه : ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ { الحاقة : ٣٠ - ٣٧ } ، وقال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ { الحشر : ٩ } .

١٣٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن لله عباداً اختصهم بالنعم لمنافع العباد ، فمن بخل بالمنافع نقل الله تعالى عنه تلك المنافع إلى غيره » ^(١) . وهذه إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ { التوبة : ٧٥ : ٧٧ } .

١٣٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يمقت البخيل في حياته ويحب السخي عند موته » ^(٢) .

١٣٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « السخي الجهول أحب إلى الله تعالى من العابد البخيل » ^(٣) . وأنشدوا :

(١) حديث حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الخواجج » برقم (٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٥/٦) ، (٢١٥/١٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٥٩/٩) ، وغيرهم من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما وللحديث شواهد عديدة ذكرتها في « تقريب البغية » ، والحمد لله وحده .

(٢) قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٢٥٤/٣) : « ذكره صاحب « الفردوس » ولم يخرج له ولده في « مسنده » ، ولم أجد له إسناداً » أه . قلت : ثم ألفتُ إسناده ، فقد رويناه في « البخلاء » للخطيب » (ص ٣٤) ، من طريق زيد بن أخرم ، ثنا عبد الصمد ، ثنا سالم الطائي ، ثنا سعيد بن مسروق عن رجل ، عن علي بن أبي طالب - مرفوعاً به . قلت : وسنده ضعيف لجهالة ذا الرجل .

(٣) ضعيف جداً : أخرجه الترمذي (١٩٦١) ، والعقيلي في « الضعفاء » (١١٧/٢) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٣٥) ، والخرائطي في « مساوي الأخلاق » (٣٧٢) ، وابن عسدي في « الكامل » (١٢٣٩/٣) ، والخطيب في « البخلاء » (ص ٣٦) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١٨٠/٢) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه . قلت : وسنده ضعيف جداً ، فيه سعيد بن محمد الوراق ، متروك الحديث . وانظر : « السلسلة الضعيفة » للشيخ الألباني برقم (١٥٤) .

هل الدهر إلا اليوم أو أمسٍ أو غد
يرد علينا الليلة ثم يومها
لنا أجل لا ننتهي من تمامه
فأقسمت لا أمشي إلى هتك جارة
ولا اشتري مالاً بقدر علمته
إذا كان بعض المال ربا لأهله
يُفكُّ به العاني ويؤكل طبيباً
كذلك الزمان بيننا يتردد
فذلك لا يبقى ولا الدهر ينفد
فنحن على آثاره نتـزود
مدى الدهر ما دام الحمام يغرر
إلا كل مال خالط الغدر أنكد
فإني بحمد الله مالي معبد
ويعطى إذا ظن البخيل المصرد

١٣٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته منصوبة » (١) .

١٣٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، وبهلك آخرها بالبخل والأمل » (٢) .

١٣٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع في مؤمن البخل وسوء الخلق » (٣)

١٣٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخياً ، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيلاً » (٤) .

(١) ضعيف : وانظر : « إتحاف السادة المتقين » للزيدي (٢٣١/٥) .

(٢) صحيح : أخرجه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » برقم (٢٠) ، وفي « اليقين » برقم (٣) ، والأصبهاني قوام السنة في « الترغيب والترهيب » برقم (١٦٥) ، والخطيب في « البخل » (ص ١٧ - ١٨) ، ومن قبلهم أحمد في « الزهد » (ص ١٠) ، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - مرفوعاً به .

(٣) ضعيف : أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (ص ٤٣) ، والترمذي (٢٠٢٨) ، والخطيب في « البخل » (ص ٣٥) ، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرفوعاً به .
قلت : وسنده ضعيف ، فيه صدقة بن موسى ، ضعيف الحديث .

(٤) موضوع : أخرجه الحسن بن سفيان في « مسنده » ومن طريقه الخطيب في « البخل » (ص ٢٥) ، من حديث عبد الله بن جراد به . قلت : وسنده موضوع ، والمتهم بوضعه يعلى بن الأشدق .
وعزاه صاحب « كنز العمال » (١٦٢/٧) ، و « تذكرة الموضوعات » (ص ٦٣) إلى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » والله الموفق .

١٣٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاث مهلكات ؛ شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (١) .

١٤٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من ترك شيئاً من فرائض الله تعالى لم يتقبل الله منه سائر العمل ، وأن الله تعالى فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة والصيام ، فمن منع الزكاة كالذي يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر عند الله سواء » (٢) .

١٤١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أخرج الزكاة من ماله طيبة به نفسه كما أمره بها ربه سمته الملائكة في الأرض حبيب الله وفي السماء صديق الله ، وسمته الملائكة الذين تحت العرش عتيق الله من النار ، ويقبل الله منه صلاته وصيامه ويستجيب له إذا دعاه ويقضي له حوائج الدنيا والآخرة ولا تمسه النار يوم القيامة ، وأدخله الله الجنة مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين » (٣) . ودليله قوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ { البقرة : ٢٧٧ } .

١٤٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يقبل الصدقات ولا يقبل منها إلا الطيب ويقبلها ثم يرببها لصاحبها كما يربي الرجل منكم مهره وفصيله حتى اللقمة لتصيرن مثل أحد » (٤) .

(١) حسن : أخرجه البزار (٨١ - كشف) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٤٤٧/٣) ، وابن عدي في « الكامل » (١٨٨٢/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، ٢٦٨/٦ - ٢٦٩ ، والقضاعي في « مسند الشهاب » برقم (٣٢٥ - ٣٢٧) ، والخراطي في « مساوئ الأخلاق » برقم (٣٦٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٢/١ - ١٤٣) ، والدولابي في « الكنى » (١٤٣/١) ، وغيرهم من حديث أنس - رضي الله عنه .

(٢) لم أهد إليه ، والله أعلم .

(٣) هو كالسابق ، لم أقف عليه ، والعلم عند ربي .

(٤) صحيح : أخرجه ابن خزيمة برقم (٢٤٢٦) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

وأصله في « صحيح البخاري » (١٤١٠) ، ومسلم (١٠١٤) .

وفصيلا : ولد الناقة إذا فُصِّلَ عن الرضاع من أمه .

١٤٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن في ظل صدقته حتى يقضي الله بين الناس »^(١) .

١٤٤ - وبلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يطوف بالبيت فإذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة ، وهو يقول : بحرمة هذا البيت ألا غفرت لي ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما ذنبك صفه لي » قال : هو أعظم من أن أصفه لك . قال : « ويحك ذنبك أعظم أم الأرض ؟ » قال : بل ذنبي يا رسول الله . قال : « ذنبك أعظم أم السموات ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله . قال : « ذنبك أعظم أم العرش ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله . قال : « فذنبك أعظم أم الله ؟ » قال : بل الله أعظم وأجل . قال : « ويحك صف لي ذنبك » قال : يا رسول الله ، إني رجل ذو ثروة من مال ، وأن السائل ليأتيني فكأنه استقبلني بشعلة من نار ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« إليك عني لا تحرقني بنارك ، فوالذي بعثني بالحق والكرامة لو أقيمت بين الركن والمقام ثم صليت ألف عام وبكيت حتى تجري من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ، ثم مت وأنت لثيم لأكبك الله في النار ، ويحك أما علمت أن الله تعالى قال : ﴿ ومن ييخل فإئما ييخل عن نفسه ﴾ { محمد : ٣٨ } ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ { الحشر : ٩ } ، ألا ومن أعظم جرماً ممن وهب الله له الكثير واستقرضه اليسير فييخل به عليه »^(٢) .

١٤٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « حسن الخلق لا يفارق صاحبه حتى يدخله الجنة ، والبخل لا يفارق صاحبه حتى يدخل النار »^(٣) .

(١) صحيح: أخرجه ابن المبارك في « الزهد » برقم (٦٤٥) ، وأحمد (١٤٧/٤ - ١٤٨) ، وابن خزيمة برقم (٢٤٣١) ، وابن حبان (٣٢٩٩) - إحصان ، والحاكم (٤١٦/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٨) ، وغيرهم من حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه .

وانظر : « تقريب البغية » ، و « الاحاديث المنيفة » للسيوطي برقم (٤٢ ، ٤٣) وهامشه .

(٢) باطل لا أصل له : هكذا قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٢٥٥/٣) ، وهو كما قال - رحمه الله

(٣) لم آتف على من خرّجه ، والله أعلم .

١٤٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يكون أن لا يُعرف أحب إليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته » (١) .

فما أبعد حال من يكون إليه قلة الشيء أحب إليه من كثرته من البخل . قال الله تعالى في قصة فارون: ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ { القصص : ٨٠ } .

فالزهد في الدنيا والبذل في مرضاة الله تعالى من ثمرات العلم لقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ { آل عمران : ٩٢ } ، ولقوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ { البقرة : ٢٧٤ } . وقال سبحانه : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ { الحديد : ١٨ } ، وقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا تكونوا أمثالكم ﴾ { محمد : ٣٨ } .

وقال سبحانه : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ { التوبة : ٣٤ - ٣٥ } .
والزهد أصل وحقيقة وثمره ، فأصله النور والعلم يشرق في القلب حتى ينشرح منه الصدر ويتضح فيه أن كل محبوب يبذل للمحبوب الأعظم ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن نسبة الدنيا إلى الآخرة أقل من نسبة صدقة إلى جوهرة نفيسة .

ولما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن معنى الشرح في قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ { الانعام : ١٢٥ } .

(١) قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤/٢٢٣) : « لم أجد له إسناداً ، وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن أبي طلحة مرسلأ . . ولم يُخرجه ولده في مسند الفردوس ، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم ، وروى عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسله ، فالحديث إذن مُعْضَلٌ » أهـ .
قلت : والمعطل من أقسام الحديث الضعيف .

١٤٧ — فقال - صلى الله عليه وسلم - : « النور إذا دخل القلب انشرح الصدر وانفسح » ^(١) . وهو نور المعرفة ويشمر للإسلام حال الانزواء ، ويظهر على الجوارح بالكف عن الجمع والادخار إلا قدر الضرورة من زاد الطريق وبما يتقوى به على العبادة وبأن لا يبخل بما وهبه الله تعالى من نعمة على ذوي الحاجات لا سيما من أهل الطاعات والعبادات فقد قيل : لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل معك طعامك إلا تقي ، وأن لا يستأثر بما ملكه على إخوانه في الله تعالى .

١٤٨ — وفي الخبر : أن رجلاً جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أي ذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . ثم مه ، قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . قال : ثم مه ، قال : « أن تزني بحليلة جارك » ^(٢) قال : فانزل الله تعالى تصديق ذلك هذه الآية : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ { الفرقان : ٦٨ } .

١٤٩ — وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الأعمال ستة والناس أربعة ؛ فموجبتان مثل بمثل والحسنة بعشر أمثالها والحسنة بسبعمائة ؛ فأما الموجبتان من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك بالله دخل النار ، وأما مثل بمثل فمن هم بحسنة حتى يشعرها فيعلم الله ذلك منه كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر أمثالها ، ومن أنفق نفقة في سبيل الله بسبعمائة » ^(٣) وقال الله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴾ { التغابن : ١٧ } .

(١) ضعيف : أخرجه عبد الرزاق كما في « تفسير ابن كثير » (١٧٤/٢) عن أبي جعفر معضلاً ، وسنده ضعيف لإعضاله ، وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » كما في « تفسير ابن كثير » (١٧٤/٢) عنه أيضاً ، وأخرجه ابن جرير في « تفسيره » عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود مراسلاً .
انظر : « تفسير ابن كثير » (١٧٤/٢ - ١٧٥) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٤٧٧) ، ومسلم (٨٥/١٣٧ ، ١٣٨ - ١٣٩) ، وغيرهما من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه ، وهو حديث خريم بن فاتك - رضي الله عنه .

١٥٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الصدقة على المساكين صدقة وهي على ذي القربة اثنان صدقة وصلة » (١) .

١٥١ - وفي الخبر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أقبل إلى المدينة مهاجراً خرج إليه جميع من فيها من الرجال والنساء ومع النساء الدفوف والطيران وهن يضربن ويغنين :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى الله داع
فكان أول ما تكلم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند دخوله المدينة
قال : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل
والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » (٢) .

١٥٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله تعالى يوم القيامة :
يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العزة ، فيقول :
مرض عبدي فلان فلم تعده فلو عدته لوجدتني عنده . ويقول الله عز وجل : يا ابن آدم
جمعت فلم تطعمني ، فيقول : يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العزة ؟ ، فيقول : جاع
عبدي فلان فلم تطعمه فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي . ويقول : يا ابن آدم ، عطشت

(١) صحيح : أخرجه الترمذي (٦٥٨) ، والنسائي (٩٢/٥) ، وابن خزيمة (٢٣٨٥) ، وابن حبان (٣٣٣٣) - إحصان) ، والحاكم (٤٠٧/١) ، من حديث سلمان بن عامر - رضي الله عنه .

(٢) قوله أن الرجال والنساء استقبلوه - صلى الله عليه وسلم - بهذا النشيد ، ضعيف ، فقد أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٢٣٣/٢) ، عن ابن عائشة ، وهو : عبد الله بن محمد بن حفص ، قال : لما قدم عليه السلام المدينة جعل النساء والصبيان يقلن ... وذكره .

قلت : وهذا إسناد معضل ، وقد أخرجه أيضاً الحلبي في « فوائده » ، وقد خرجته هناك ، والحمد لله .
أما قوله : « أيها الناس أفشوا السلام ... » الحديث .

فهو صحيح ، فقد أخرجه الترمذي (٢٤٨٥) ، وابن ماجه (١٣٣٥) ، وابن خزيمة (٣٢٥١) ، وأحمد (٤٥١/٥) ،
والدارمي (١٤٦٠) ، (٢٦٣٢) ، وابن نصر في « قيام الليل » (ص ١٧ - مختصره) ، وابن السني في
« عمل اليوم » (٢١٥) ، وابن سعد في « الطبقات » (٢٣٥/٤) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٧١٩) -
متخيه) ، والحاكم (١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٤٩٦) ، من حديث عبد الله بن سلام -
رضي الله عنه .

وصححه الترمذي ، والحاكم ، والذهبي ، وهو كما قالوا .

فلم تسقني ، فيقول : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العزة ؟ فيقول : عطش عبدي فلان فلم تسقه فلو سقيته لوجدت ذلك عندي « (١) .

١٥٣ - وعن أنس - رضي الله عنه - أنه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يدخر شيئاً لغد (٢) .

١٥٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » (٣) .

١٥٥ - وقال أبو ذر - رضي الله عنه : انتهيت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس في ظل الكعبة ، فلما رأيته قال : « هم الأخسرون ورب الكعبة » . فقلت : فذاك أبي وأمي يا رسول الله من هم ؟ قال : « هم الأكثرون إلا من قال هكذا وهكذا بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ، ما من صاحب إبل ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنها تنطحه بقرونها وتظؤه بأخفافها كلما نفدت عليه أخراها عادات أولائها حتى يقضى بين الناس » (٤) .

١٥٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « سبعة في ظل الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله ؛ إمام مقتصد ، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى وطاعته حتى توفي على ذلك ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ، ورجل لقي آخر فقال له : والله إني

(١) صحيح : أخرجه الإمام مسلم (٢٥٦٩ / ٤٣) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٣٦٢) ، وفي « الشامل » (٣٥٥) ، وابن حبان (٢١٣٩) ، (٢٥٥٠ / موارد) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم » (ص ٢٧٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٤٦٤) ، (١٤٧٨) ، والخطيب في « تاريخه » (٩٨ / ٧) ، والبيهقي في « شرح السنة » برقم (٣٦٩٠) ، وغيرهم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه .

(٣) ضعيف : أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » برقم (١٥) ، والحسن بن سفيان في « الأربعين » برقم (٩) ، من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما .

وسنده ضعيف ، وانظر : « الأربعين النووية وشرحها » للإمام النووي (ص ٧٥)

(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٢٣٨٨ ، ٦٢٦٨ ، ٦٤٤٤) ، ومسلم (٩٤ / ٩٩٠) ، وغيرهما من حديث أبي ذر - رضي الله عنه .

لأحبك في الله عز وجل . فقال الآخر : والله إنني لأحبك في الله عز وجل ، ورجل كان قلبه معلقاً بالمساجد حتى يرجع إليها ، ورجل إذا تصدق أخفى صدقة يمينه عن شماله ، ورجل دعت امرأة ذات جمال ومنصب فقال إنني أخاف الله رب العالمين « (١) .

وفي المناجاة : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : خصلتان لم أجعلهما إلا في المؤمن الذي أحبه الكرم وحسن الخلق ، ومنعتهما عن كل منافق ، يا موسى أتحب أن أكتب لك مثل ثواب الفقراء ، قال : نعم ، أكرم الضيف ولو كان كافراً ، وأكرم الجار ولو كان كافراً ، يا موسى ، أتحب أن أرفع عنك سكرات الموت ، قال : نعم . قال : لا ترد السائل ، وأطع الوالدين ، واحذر الغيبة والكذب . يا موسى أكرم ضيفي كما تكرم ضيفك وإلا رددت عليك حسناتك . يا موسى السخاء من الإيمان والإيمان من الجنة ، والبخل من الكفر والكفر من النار . يا موسى كل السُّم ولا تسأل البخل شيئاً ، فإن السم وأكله أهون عليك من الحاجة إلى من يعتبر وجهه ، فإن البخل شجرة في جهنم تقول : كل ببخل إلى النار يوم القيامة .

فانظر قباحة البخل حيث جعل الله تعالى أكل السم أهون من سؤال البخل .

كما قيل : إن يعقوب - عليه السلام - لما جاءه البشير ، قال له : يا هذا ، ما لي مال أرفع منه إليك ، ولكنني أدعو لك يهون الله عليك سكرات الموت ، ورزقك رزق المقيم في أهله من غير كدٍ ، ولا نكد ، ولا منة فيه لأحد ، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة . وقال الأصمعي : خطبنا أعرابي بالبادية متعجباً بعمامة ، متكئاً على قوس له عربية ، فقال في خطبته : معاشر الناس المنية خير من الدنية ، والقبر خير من الفقر ، وذهاب البصر خير من كثرة النظر ، ومن كرم الكريم ارتفاعه عن التحريم ، ومن دخل مداخل السوء يتهم ، ومن لم يحفظ لسانه يندم ، ومن قل ذل ، ومن ذل ضل ، وخير من الغناء القناعة ، وأمر من الفقر الخضوع ، فإذا كان لك مال فلا تبخل ، وإذا اشتد بك الزمان فلا تحزن ، فإن كلا يعود إلى الزوال . ثم أنشأ يقول :

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٦٠ ، ١٤٢٣ ، ٦٤٧٩ ، ٦٨٠٦) ، ومسلم برقم (١٠٣١ / ٩١) ، وغيرهما

من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

وانظر : تخريجه في « الأحاديث المنيفة » للسيوطي برقم (١) .

إذا احتاج الكريم إلى اللئيم ففي موت الكريم له حياتٌ
ومن كانت له نعم وزالت فقد قامت قيامته فجأتٌ

قال الأصمعي - رحمه الله - : فسألت عن الأعرابي من هو ؟ فقيل لي : هو
عليّ بن موسى الرضي عليه وعلى آبائه السلام .

واعلم أن مكان الصدقة في الفضل عظيم ، والزهد في جمع المال أفضل منه .
وذكر أن مجوسياً استطعم إبراهيم الخليل - عليه السلام - فرده وعابه بما كان
يعبد ، فرجع الرجل خائباً ، فجاء جبريل - عليه السلام - فقال : يا إبراهيم ، ربك
يقول لك : رددته في رغيف ومنذ ستين سنة يعبد غيري ولا أمنعه رزقه . فندم إبراهيم
صلوات الله على نبينا وعليه ، واتبع الرجل وضمن له مائة ناقة من الإبل حتى رجع
معه ، فلما رأى الجسد منه ، قال له : أخبرني بالقصة ، فأخبره بذلك ، فأسلم الرجل
وقال : نعم الرب ، يعاتب خليله لأجل عدوه ، فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم - عليه
السلام - : أنت منعه رغيف وأنا مننت عليه بالتوحيد .

قال الاسكندر : ذو المروءة يُكرم وإن كان فقيراً ، كالأسد يهاب وإن كان رابضاً
والبخيل وإن كان موسراً كالكلب وإن طوق وحلي .

وقال آخر : نعمة الجاهل كروضة على مزبلة .

وقال : البخيل ذليل وإن كان غنياً ، والجواد عزيزاً وإن كان معلاً . وأنشدوا في

ذلك :

لولا المشقة جاد الناس كلهم الجود يُعدم والإقدام قتال

وقيل : حد السخاء : أن تكون بمالك متبرعاً ، وعن مال غيرك متورعاً .

وقال عليّ في وصيته لابنه - رضي الله عنهما - اعلم يا بني أن الرزق رزقان ؛
رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أذاك . واعلم أن ما لك من دنياك إلا ما
أصلحت به مشواك ، فأنفق في خير ولا تكن خازناً لغيرك ، وإن كنت جازعاً على ما
فات من يديك فاجزع على ما لم يصل إليك ، ولن يهلك امرؤً اقتصد ، ولن يفتقر من
زهد .

١٥٧ - وقال أبو ذر - رحمه الله - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل ، ويسر إلى فقير » ^(١) .

وروى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه محمد بن علي - عليهما السلام - قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : عهدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وهو يقول : يا جابر ، قوام الدنيا بأربع باق ما بقيت الأربعة ؛ عالم مستعمل علمه ، وجاهل لا يستتكف أن يتعلم ، وغني جواد بمعرفه ، وفقير لا يبيع آخرته بدينه . فإذا منع العالم علمه استتكف الجاهل أن يتعلم منه ، وإذا بخل الغني بمعرفه باع الفقير آخرته بدينه ، فإذا فعلوا ذلك ففسوا وانتكسوا فهنالك الويل ثم الويل ، ثم قال : ما من عبد أنعم الله عليه بنعمة إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن قام فيما يجب لله عليه فيما خوله من النعم عرضها للبقاء ، ومن لم يقم في نعمه بما يجب لله عليه عرضها للزوال . وأنشد علي - رضي الله عنه :

ما أحسن الدنيا وإقبالها	إذا أطاع الله من نالها
من لم يواس الناس من فضله	عرض للإدبار إقبالها
فاحذر زوال الفضل يا جامعا	وواس من فضلك من سألها
فإن مولاك جزيل العطاء	يجزيك بالجنة أمثالها
تأهوا على الناس بأموالهم	ويؤدو بالغي أقفالها
لو شكروا النعمة زادتهم	مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم	والشكر للنعمة أبقالها

وذكر أن رجلاً من بني إسرائيل فقد الطعام أياماً وليالي ، فقالت له زوجته : معي درهم حلال ، وقد غلبنا الجوع ، فعسى تشتري لنا خبزاً أو دقيقاً ، فأخذه وخرج من منزله فلقى رجلين يختصمان ويتشامتان ، فقال لهما : ما هذا الشتم والقذف ؟ فقال له أحدهما : هذا ظلمي ، قال له : كيف ظلمك ؟ فقال : أسلفته منذ أيام درهماً فجحده لي وقال : مالك عندي شيء وحلف عليه وهو كاذب ، قال له الرجل : نخل

(١) ضعيف بهذا اللفظ : أخرجه الطيالسي برقم (٤٧٨) ، وأحمد (١٧٨/٥ ، ١٧٩) ، من طريق المسعودي ، عن أبي عمرو الشامي ، عن عبيد بن الحشاخش ، عن أبي ذر به . قلت : وفي سننه المسعودي مختلط ، والشامي متروك الحديث . وانظر : « الإرواء » برقم (٨٩٧) .

عنه وخذ درهمك ، فأعطاه الدرهم ورجع إلى بيته ، فقالت له زوجته : ما صنع الدرهم ؟ قال : أخرجه الله ، قالت : نعم ما صنعت . ثم قالت له : هذا غزل حلال امض به فبعه واشتر لنا بثمانه طعاماً ، فمضى في طريقه ، فإذا بصياد معه سمكة قد مضى لها يوم ، فقال له الرجل : هل لك في كاسد بكاسد ، قال له الصياد : وما هو ؟ قال : تأخذ هذا الغزل في هذه السمكة ، قال له : رضيت ، فدفع إليه الغزل وأعطاه السمكة فأتى بها إلى منزله وغلب عليه النوم ، فصنعتها امرأته وأيقظته للأكل ، فلما فرغ أخته بحجر أبيض وقالت : لا أعرف هذا وجدته في بطن السمكة ، والرجل جاهل بالجواهر فرحم الله أبا عبد الله بن الجوهري كان يقول : الجواهر لا يعرفه إلا جوهري ، كذلك الولي لا يعرفه إلا ولي ، قال : فحمل الرجل الجوهرة إلى رب الصنعة ، فقال له : هذه يتيمة لا أخت لها ، هي تساوي عشرة آلاف دينار ، وإن حملتها إلى فلان أعطاك فيها عشرين ألفاً ، وإن حملتها إلى فلان أعطاك فيها ثلاثين ألفاً ، فلم يزالوا يتزايدون فيها حتى بلغت الجوهرة مائة ألف ، فقال له الجوهري : إئت بمن يحمل لك المال ، فأتى بالحمال فحمل له المال ، فلما جاء إلى منزله بعث الله إليه ملكاً في صورة بعض البشر ، فقال له : أيها الإنسان أعطني من فضل الله عليك ، فقال الرجل : كنت فقيراً فاستغنيت في ساعة بعد حاجة ، وما جزاء من طلب الله تعالى ما أعطيه قليلاً لعلني أعطيه نصف مالي ، فأعطاه نصف ماله ، فلما حازه الملك قال له : أيها العبد هنيئاً لك ، لا حاجة لي في مالك ، أنا من بعض ملائكة ربي ، أرسلني إليك اختبرك ، فإن وجدتك شاكراً أعلمتك بما لك عنده ، وقد وجدتك شاكراً يقول لك ربك : جعلت لك بدرهمك مائة قيراط أجراً ، عجلت لك قيراطاً واحداً وبقي لك تسعة وتسعون قيراطاً إلى يوم القيامة ، فهنيئاً لك بما قدمت لنفسك . وأنشدوا في ذلك :

يا من يصر على الذنوب ويعكف	لا يرعوي عنها ولا يستنكف
إن كنت لا تخشى الكريم وترنجي	منه التجاوز عنك فيما تعرف
فاستحي منه فإنه لك سائل	عما عملت إذا تداني الموقف
واحسرتنا عند السؤال وحينه	إن قيل لي أنت البخيل المسرف
يا سيدي عبد جهول رافع	كفيه نحوك دائماً يستعطف
فامن عليّ برحمة تصرف بها	عني العذاب وسوء ما أتخوف

فلا تبخل بعرض الدنيا ، واشتر الكثير باليسير ، ولا تستعظم متاع الدنيا فهو قليل من قليل ، فقد ذكر أن سليمان - عليه السلام - سأل الله تعالى أن يتركه يضيف الخلق شرقاً وغرباً فأذن له في ذلك ، واستعد بما قدر عليه مما ظن أنه يقوم بأهل الأرض كلهم ، فخرجت إليه سمكة من البحر فأكلت جميع ما أعد لهم ، ثم قالت : يا سليمان كانت وضيفتي من الله تعالى كل يوم أضعاف هذا ، فأنا اليوم جائعة ، فتعجب من ذلك ، ثم قال : إن الهدهد أتاه بالغداة فقال له : يا نبي الله إني مضيفك اليوم ومن معك ، فعجب سليمان - عليه السلام - من قوله ، ثم قال : نعم ، فأناه بتمرة وقال له : ضعها في مخازنك فامتلات مخازنه من التمر ، ثم قال له : يا سليمان ، نظرت إلى غنائك بعين الكثرة انظر إلى فعلي وملكي وغنائي وقدرتي على تضيفك أنت ومن معك ، وأنا في القلة كما أنا ، فعلم سليمان عليه السلام - أن ذلك تعجيزاً من الله تعالى حيث ادعى ضيافة الخلق شرقاً وغرباً ، وأنه لا يقدر أن يُطعم الخلق كلهم إلا مَنْ ملكه لا يبلى ومخازنه لا تفتنى جل ربنا وتعالى .

وذلك أن الله تعالى خلق الخلق وبسط الرزق وجعله سبباً لحياتهم مدة بقائهم حكمة منه وتفضلاً عليهم ، فلا يقدر أحد أن يرزق نفسه ، ولا يزيد في رزقه على ما قسم له فضلاً عن غيره .

والحكمة في ذلك : ما ذكر أنه لما أذن الله تعالى لعيسى أن يخلق من الطير ما قدر له به فكان خلقه يعيش يوماً ويومين وبعض يوم ودون اليوم فيموتون ، فشكا ذلك إلى ربه فقال : يا رب خلقتك يعيشون وخلقني لا يعيشون ، فأوحى الله سبحانه إليه : يا عيسى ، خلقت خلقي وقدرت لهم رزقاً يعيشون به وخلقك ليس لهم رزق ولا يعيش مخلوق دون رزق ، وإنما أمرتك بالخلق ولم تأمرك بالرزق .

فسبحان الذي يقوم بأرزاق عباده وأوصل إلى كل حي ما يقوم به عن زاده .

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - في معنى قول الله تعالى : ﴿ وقربناه لحجياً ﴾

{ مريم : ٥٢ } : أن الله تعالى قرب موسى - عليه السلام - حتى سمع صريف القلم على اللوح المحفوظ فأخذته الرعدة بذلك وغلبته الهيبة بما سمع ، فما استطاع القيام إجلالاً لله تعالى حين رأى ضعفه وما حل به من الخوف ، بأن قال له : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ { طه : ١٧ } .

وأراد أن يؤنسه بسؤاله له ، ألا ترى إلى الرجل إذا كان له الولد وقد جزع منه كيف يخاف حتى لا يستطيع أن يجيب جواباً حتى يقول له الوالد الكلام الحسن ويؤنسه ويقول له : إيش تحب أن يفعل معك ، وذلك كله ملاطفة وأنساً من الوالد للولد حتى ينسبط الولد ويزول الخجل عنه والفرح كذلك كان ذلك السؤال من الله تعالى ملاطفة وأنساً لموسى - عليه السلام - حين قال له : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴾ { طه : ١٧ - ١٨ } .

أي منافع كثيرة ، قال الله تعالى له : يا موسى ، سألتك بسؤال واحد أجبتهني بأجوبة كثيرة ، قال : يا مولاي ، بسطتني فانبسطت ، فعند ذلك قال موسى - عليه السلام - : ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ { الاعراف : ١٤٣ } ، فمنعه جوده وكرمه أن يقول : لا حين سأله ما لا يكون في الدنيا فأجابه بكلام بين القولين ، فقال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك قبل مسألتي الرؤية وأنا أول المؤمنين ، إنه لا يراك أحدٌ إلى يوم القيامة ، ثم قال : يا رب ، هذا الكلام بيني وبينك متصلاً ، قال الله : يا موسى بيني وبينك حجاب مقدار خمسمائة عام من العام إلى العام بحر من نار طوله خمسمائة عام ، قال : يا رب ، هل يسمع الكلام الذي بيني وبينك أحدٌ غيري قال : لا يسمعه أحدٌ غيرك ، فلما ادعى الملك في العصاة بقوله : ﴿ هي عصاي ﴾ أذن الله تعالى العصا أن صارت حية أفعى على ذنبها ثعبان فتَحُّ فيها ثمانون ذراعاً ، فلما رآها كذلك ولي مدبراً لأنه ادعى الملك بين يدي الملك فانهزم أمامها وهو يقول : يا رب هي لك ، يا رب هي لك ، وإنما قال ذلك عليه السلام ليتبرأ من ادعائه الملك فيها للمالك الحقيقي بالملك ، فعند ذلك قال الله عز وجل : ﴿ فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ { طه : ١٣ - ١٤ } ، فأسند موسى ظهره لطور سيناء وبكى وجعل ذقنه على صدره ، وكان حين رآها ثعباناً خاف أن يتلعه فأدخل يده في كفه ليأخذها امتثالاً لأمر ربه حين قال له : ﴿ خذها ولا تخف ﴾ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، كان كملك يدفع عنك ضرها لو أذنت لها ؟ قال : لا يا رب ، فقال له الله تعالى : ﴿ خذها ولا تخف ﴾ إنك من الأمنين ، فلما رجع موسى إلى أهله تبرقع أربعين يوماً لأنه كان من نظر إلى وجهه مات من شدة النور ، فقالت له زوجته : دعني أنظر إليك وأموت ،

فنظرت إليه وماتت ، وإنما عرض عليه ذلك لأنه ادعى الملك في العصا بين يدي الملك
الكبير الفعال لما يريد ، المالك لكل شيء ، لا شريك له في ملكه ، ولا راد لأمره ،
سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فافعل خيراً بما كسبت يمينك ما دامت يدك طلقة على مالك ، ولا تبخل به ولا
تدع الملك فيه بين يدي المالك الكبير للذي ملكك إياه ، فإنما هو بيدك عارية وليس هو
لك ملك حقيقة ، فإنما أنت ومالك ملك الذي ملكك إياه ، قال الله سبحانه : ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ [سورة الحديد: ٧] فالذين آمنوا منكم
وأنفقوا لهم أجر كبير ، فإن بخلت به وتحققت أنه ملك لك صار لك ثعباناً في الأجل
يلدغ صميم فؤادك في قبرك ، وينفخ في وجهك إلى يوم القيامة ، كما صارت العصا
لموسى - عليه السلام - في العاجل ففر منها وخاف أن تبتلعه بعد ادعائه الملك لها ، فلولا
أنه تبرأ من ملكها ورد ملكها إلى مالكها الأصلي لأهلكته فكيف أنت يا مسكين فأحسن
من مالك لنفسك فإنك تركه لمن يحسن منه لنفسه ولا يصلك منه إلا الحساب عليه .

وقال الاسكندر : أحسن إن أحببت أن يحسن إليك . ولذلك قيل : خير الخير
ما تعدى إلى الغير ، وشر الشر ما وصل إلى النار . فاسترق قلوب الأحرار ، ولا تعتق
الممالك بكثرة الجود ، واشتر به مودة الناس العزيزة الوجود بيسير من عرض الدنيا
السريع العدم ، ولتكن راحتك بالنوال مبسوفة رجاء أن تنقبض عنك أيدي العداة ،
واتق صدمة تصل العداوة بترس الكرم ، فالكرم جنة ، والكرم صفة من صفات الله
تعالى أفمن تخلق بها استحبال على النار تعذيبه ، لأن الله تعالى لا يعذب من وصف
بصفة من صفات نفسه بالنار . وأنشدوا :

قدم لنفسك حظها من ذلك	واجعل هديت فكاكها من بالك
إن كنت تجمع للعيال فإنهم	ليسوا إذا فارقتهم بعيالك
لا تجتمع لمن إذا وارك لا	يبكي عليك ولا يرق لحالك
أفقرت نفسك عند ما أغنيتهم	بحرامك المتروك أو بحلالك
فتمتعوا فيه ونالوا صفوه	وبقيت رهتاً يا شقي بذالك
لو جئت تسألهم قراضة درهم	منعوك وانتهروك عند سؤالك
أو قيل ها هو قد أتاكم راجعاً	ما سرهم ما قيل من إقبالك

ففسوك واشتغلوا بما ورثتهم وبقيت إن لم يعف ربك هالك
فانظر لنفسك قبل أن يفضي بها نظر الشفيق وكف من أمالك
واقطع من الدنيا رجاك فطالما أوثقت عقد حبالها بحبالك
وأراك تؤمل أن تعيش وقد مضى أهل السيادة من خيار رجالك
فالموت يقطع كل ذلة معشر وأراه أقرب من بنان شمالك
فإذا سمعت وصيتي وتركتها فأرض القيامة عرضة لنكالك

١٥٨ - قال أبو الحسن - رحمه الله - خرجت من بغداد عندما ضاقت عليّ ، فأقبلت إلى القادسية ، فكانت أشد ضيقاً عليّ ، فخرجت إلى الصحراء ، فإذا بمحراب جديد ، فقعدت آنس به ، فلما اختلط الظلام إذا بشاب عليه ذؤابة شعر وهو يخطر في مشيته حتى طلع على كتيب رمل ، فضرب بيده على الكتيب فانفجر منه الماء ، فتوضأ ثم أقبل نحو محرابه وهو يقول : يا سيدي من رجاك لا يخيب ، ثم دخل محرابه فأقبل يقرأ في سورة آل عمران حتى انتهى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ { آل عمران : ١٨ } ، فجعل يتهجّد بها ويكي حتى انفجر الصبح ، ثم تربّع في محرابه وجعل يقول : يا نهار أذهبت عني ليلاً حسن لي فيه القيام ، ثم أقبل من محرابه فقال لي : يا أبا الحسن متى انتهيت إلى فناء البطالين ؟ قلت له : يا أخي ما أحسب أن يكون في الأرض أغفل مني قلباً ، يا أخي ، كيف تكون غافلاً وأراك تتهجّد بهذه الآيات من أول الليل إلى الصبح ؟ فقال : يا أبا الحسن ، أنت غافل ، ألم تسمع قول النبي - صلى الله عليه وسلم - « ما من عبد قرأ هذه الآية إلا إذا كان يوم القيامة وقعد ربنا تبارك وتعالى إلى فصل القضاء فيقول سبحانه : يا عبدي ، إن لك عندي رحمة لم أطلع عليها ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا » (١) .

١٥٩ - وفي الحديث الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال - عليه الصلاة والسلام - : « من قال عند مضجعه ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين ، خلق الله

(١) لم أعتد إليه ، والله أعلم .

تعالى سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة ، ومن لقم أخاه لقمة حلوى أصرف
الله عنه مرارة الموقف في يوم القيامة»^(١) . ثم انتحب الغلام وبكى ، فقلت : يا أخي ،
أريد أن أنال من دعائك شيئاً ، فإزداد نحيباً وبكاء ، وقال : إلهي وسيدي ، كان عملي
لك خالصاً ، فإذا أطلعت عليه أحدك من خلقك فلا خير لي في الحياة ، ثم قال : يا أبا
الحسن ، أستودعك الله عز وجل بالتقوى ، وأسكن قلبك الخوف ، وأجرى على
لسانك الحكمة ، ونور قلبك كما نور قلوب العارفين ، وكان لك في السر والعلانية رداءً
ووكيلاً ، ووقاك شح نفسك ، ثم استند نحو القبلة ثم قال : سيدي ، أنت قابض
الأرواح ، وأنت مقدر الآجال ، خلص المخلصون لك ، فإن كنت تقبلت من عملي
شيئاً فاقبضني إليك مسرعاً ، فوالله ما تم الكلام حتى انطبقت شفتاه وليس فيه نفس
يتحرك ، رحمه الله ونضر وجهه ، ونفعنا به وبدعائه بمنه . وأنشدوا في ذلك :

الأذ من التلذذ بالـ	أقـبلن في حلـل حـسان
منيب فر من أهل ومال	يسـيـح إلى مكان من مكان
ليجمل ذكره ويعيش فرداً	ويظفر في العباداة بالأمان
تلذذ التـسـلاوة أين ولى	وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	ييشـر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وماتنى	من الراحات في غرف الجنان

قال أبو الحسن : وإذا بصائح يصرخ وهو يقول : مات حبيب ، فقلت : أين
أنت يرحمك الله ؟ قال : ها أنا ذا ، فقلت : والله إنني لأسمع كلامك ولا أرى
شخصك ، فقال لي : كيف يسمع أو يصبى من كان خطاياها على ظهره ثقله ، والتفت
نحو الغلام فما رأيته في محرابه ، ولا أدري حيث صار ، فذهبت حتى جئت دمشق ،
فدخلت الجامع فإذا أنا بغلام أسود حبشي قاعد على أحد تلك البلاطات والناس بهم قر
شديد ، فداخل قلبي منه شيء لما رأيت في شدة برده ، فقلت له : سلام عليك
يرحمك الله ، قال : وعليك السلام يا علي بن محمد ، فقلت له : من أين عرفتنى ؟
فقال : يا أبا الحسن ، جمال روحي وروحك في الملكوت فعرف بيني وبينك الحي الذي
لا يموت ، قلت : يرحمك الله ، إنني أريد صحبتك ، قال : كأنك تريد تتحفني بثوبك

(١) لم أقف على من خرجه ، ومتمه منكر كما يرى القارئ اللبيب ، والله أعلم .

هذا ، ثم قال : أردد وجهك عني ، فرددت وجهي عنه ، ثم قال لي : أقبل بوجهك عليّ ، ففعلت وإذا والله عليه ثوبان جديدان نحو قباطي مصر ففتني ذلك ثم قال لي : يا أبا الحسن ، أصدقه في المعاملة يجيبك في المسألة ، ثم قال : لا يغرنك عيون الناظرين بما نظرت ، ولكن سل قلوب الصادقين بما صنعت ، من كانت حاجته إلى المخلوقين لم يطب له عيش وهو مذموم ، ومن كانت حاجته إلى الله عز وجل صدقه سرًا وعلانية ، والله ما مر بقلبي شيء قط إلا حضر بين يدي ، قال أبو الحسن : فأردت أن أختبر ذلك منه فخطر بقلبي مَنَوْنٌ ماء ورد وكافور حضرا عليه ، فتبسم ضاحكًا وكنت لم أذكر له شيئًا ، قال : والله ، إن هذه لشهوة قذرة ، ثم خطر بقلبي ذلك الوقت خاطرًا آخر ، فقال لي : كل ، فمددت يدي إلى قصعة ولم أر والله من وضعها بين أيدينا وهي تفور ، وإن رائحتها أطيب من ريح المسك ، فتبسم وقال لي : ما أشهاك بالشهوات ، قال : وكنت اشتهيت خبيصًا فإذا هو بين يدي ، فقلت له : عسى أن أكون في بعض حوائجك ، فقال : سألني هذا من هو خير منك فأبيت إلا أن أخدمه ، ثم ضرب بيده المحراب فخرقه ، ثم خرج من بين يدي ، فوالله ما عرفت من أين أخذ ، فالتفت إلى القصعة فلم أر شيئًا ، فعلمت أنني قد أدبرت إن فاتني ولم يدع لي ولم أصحبه ، فلذلك فاعلم أن ولاية الله تعالى لا يوصل إليها إلا بترك المعاصي ، وامتنال الأوامر ، وقطع علائق القلب عن المخلوقين ، كما قال الغلام : أصدقه في المعاملة يجيبك في المسألة ، فمتى صدقته في المعاملة وقطعت علائق قلبك عن غيره أجابك في كل ما تسأله ، كما ذكر أن موسى قال للخضر - عليهما السلام - بما أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال : بتركي المعاصي لأجل الله تبارك وتعالى . وأنشدوا في ذلك :

يا من تقلب في ظلمائه زمنا	يعصي النصيح ويهوي اللهو والددنا
تعاورته سهام الغي فانبعثت	عليه لما تولى يطلب الفتنا
حتى إذا صار أعمى عن هدايته	يرى القبيح من الأفعال قد حسنا
حتى استنار بنور الله فانكشفت	عنه العماية لا يصغي لها أذنا
وغلقت دونه أبواب فتنته	وآثر القرب في ديبانه فدنا
وعاد ما كان من لهو ومن طرب	لما تخوف عقي ذنبه حزنا
إذا تذكر أهل النار معتبرا	بكي فأرسل دمعا واكفأ هتنا
وهيج الخوف في أحشائه حرقا	تقصي وتبعد عن أجفانه الوسنا

ومات وجداً وإشفافاً فلو نظرت عيناك ذاك الشجي خلته غصنا
 وإن تفكر في أفضال سيده وما يمن به من رحمة سكنا
 أكرم به من فتى طابت خلائقه وفي غد يأمن الضمراة والمحنا

قال أبو الحسن - رحمه الله - : فخرجت على وجهي أسبح في الأرض حتى انتهيت إلى حلب ، فإذا بشيخ قاعد وصبي صغير السن بين يديه ثوبان جديدان ، وأن الصبي ليقول : يا عم ما حملك على معصية الله ، أما لو رأيت طول عذابه على من عصاه إذاً والله ما طاب لك عيش ، قال : ثم صاح الصبي صيحة ، فوالله لقد فارق روحه جسده في ذلك الوقت ، قال : فاجتمعنا واجتمع الفقراء إليه ، فقلت : فإنني والله لا أدركه أبداً فأصلي عليه ، وإذا بهاتف من ورائي يقول : لا يفتك الشيخ يا أبا الحسن فإنه ولي الله ، فتداركت الشيخ وهو يبكي وقد كان دخل منزله ، فاستأذنته لأدخل عليه ، فخرجت جارية حبشية فقالت : ما أغفلك عن نفسك يا عم ، والله ما كان عليه قط حاجب ولا بواب ، فدخلت على الشيخ وهو منكب على وجهه ودموعه تسيل كأنها ماء دافق ، فقال : ما حملك على أن تأتي إلى مذنباً ؟ قلت : يرحمك الله ما ذنبك ؟ فبكى واشتد بكاءؤه حتى خشيت أنه فارق الدنيا ، فقلت : سألتك بالذي قدر المقادير أخبرني عن ذنبك فإن الله عفوه كثير ، فقال : خرجت يوماً فمررت على حائط لبني فلان ، فنظرت إلى شامخ ، فحملتني نفسي على أن آخذ منه سنبلة ، ففركتها ورميتها في فمي ، ثم بكى حتى فارق الدنيا من حينه ، فأخذت في غسله فخرجت إليّ جارية وعليها مسح من الشعر ويدها اليمنى مغلولة إلى عنقها ، فقالت : يا أبا الحسن ، عسى عندك طب تداوي به جرحي ، فوالله لقد داخله الصدا ، فما أدري له دواء ، قال : فقلت : يا شابة ، أبوك هذا الشيخ ؟ قالت : هو أبي الشقي إلى نفسه ، قال : فقلت لها : ما أشبه هذه الأغلال بأغلال السعير ، قال : فجالت في البيت مرة ثم وقعت فخرجت روحها رحمة الله عليها ، قال : فخرجت الجارية الحبشية وهي تقول : سيدي ، خلص المخلصون بأعمالهم وبقي البطالون في ديوان التخلف ، فقلت : سألتك بالله ألا ما ترفقت عليّ قليلاً ، قالت : يا أبا الحسن ، ما قصد المخلوقون مخلوقاً مثلهم إلا خسرت تجارتهم ، ثم أقبلت تقول كلمات بالفارسية : يا من أثبت في الجبال دواء لكل عليل ، ودواء المحيين في نظر الجبال ، ثم وثبت فصاحت بصيحة

فارت الدنيا ، رحمة الله عليهم . قال : فأخذت في غسلهم ثم دفنتهم في قبر واحد ، ثم رجعت إلى المسجد وأنا مهموم ، فاجتمع بعض الفقراء حولي ، فكانوا يتكلمون وإذا شيخ يستند إلى عمود ، فكنا إذا تمارينا في مسألة قال : الجواب في مسألتكم كذا وكذا ، وكنا نحسبه من أبناء الدنيا ، فاجتمعنا وجلسنا بين يديه وقلنا : يا عم ، نحن أضيافك اليوم ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يا بني أخشى أن تحول عليكم القصة ، قلنا : رضينا يا عم ، فمشى بين أيدينا إلى بعض الشعاب إذا بخدر من شعر ، فصاح : يا بنية أخرجي من الخدر يدخلوا عمومتك ، فدخل ودخلنا ، فترع ثيابه التي عليه وبقي في مسح من شعر ، ثم صاح : يا بنية كم لك عن الطعام ؟ قالت : عشرين يوماً ما طعمت طعاماً ، قال أبو الحسن : فلزمتنا فرضهم ، فقال الفقراء : ثمشي إلى السوق فنشتري طعاماً يقوت الرجل وابنته ، وبقيت أنا فنامت عيني من شدة الفكرة ، فما استنبهت إلا لكلام الفقراء ، فإذا الشيخ وابنته ممدودان إلى القبلة ميتان والخدر ليس في مكانه فحيل بيننا وبينهم فلم أرهما ، فهذا والله أشد ما مر بي في دهري كله .

وأشدوا :

أنت غداً المنيّة أن تنالك	أنطمع أن تخلد لا أبالك
يشتت بعد جمعهم عيالك	فكن متوقعاً لهجوم موت
وارض من المعاش بما رضى لك	ألا فاخرج إلى الدنيا خميصاً
ولست مروداً إلا فعالك	فلست مخلقاً في الناس شيئاً

فحتى متى هذه الغفلة ، وحتى متى لا تستعد للثقل ، فاشتري بالنعمة النعم ، واغتنم الصحة قبل السقم ، وابذل حقير الخطير ، ولا تبخل على من وهبك الكثير ، واستقرضك اليسير ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . وأنشدوا في ذلك :

عليه فمن بعد الحياة فات	عليك بفعل الخير ما دمت قادراً
كذلك والله العظيم مات	ومن بعد جمع الشمل من بعد فرقة
فقالوا تاهب فالجماعة ماتوا	فإن غبت عنهم برهة ثم جئتهم

جعلنا الله وإياكم ممن وفي شح نفسه ، وأعين على بذر يسير من عموم فضله بمنه

وكرمه .

٦ - باب الحسد

اعلم وفقك الله أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلب ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . قال الله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدَمَ بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ { المائدة : ٢٧ } ، وقال عز وجل : ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ { الأعراف : ١١ - ١٢ } .

١٦٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة » ^(١) .

١٦١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة لا ينجو منهم أحد ؛ الظن والطيرة ، والحسد . وسأحدثكم بالمخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ » ^(٢) .

١٦٢ - ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلي - عليه السلام - « يا علي ، أنهاك عن أربع خصال عظام كبار ؛ أولها الحسد ، والثاني الكبر ، والحرص ، والغضب . حد إبليس ، وتكبر إبليس ، وحرص آدم ، وغضب آدم » ^(٣) .

وفي بعض الكتب المنزلة أن الله سبحانه يقول : « الحاسد عدو الغني ، ساخط القضاء ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين يدي » . وذلك أن الحاسد يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ، فلا يزال قط عن الغم والمحنة إذ لا يزال أكثر الناس في نعمة ، فهو ينفع بذلك المحسود ما يضره ، إذ ينقل إليه حسناته ، فإنه مظلوم من الحاسد ، لا سيما إذا تكلم فيه ، فيكون قد أضاف إليه نعيم الآخرة وحصل لنفسه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

(١) ضعيف : أخرجه الترمذي (٢٥١٠) ، وأحمد (١٦٧/١) ، والبيهقي (٢٣٢/١٠) ، وغيرهم من حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه . قلت : وسنده ضعيف ، فيه مولى لآل الزبير ، مجهول .

(٢) ضعيف : أخرجه أبو الشيخ في « التوبخ والتنبيه » برقم (١٥٢) ، عن حارثة بن النعمان - رضي الله عنه - وسنده ضعيف لضعف إسماعيل بن قيس . وراجع هامشه .

(٣) لم أجد من خرجه فيما بين يدي من مراجع مخطوطة أو مطبوعة ، والله أعلم ، والمتن منكر .

قال أبو حامد - رحمه الله - : الحاسد مثل من رمى عدوه بحجر فلم يصبه وعاد الحجر إلى عينه فأعماه ، فلما نظر إليه المحسود وقد فقت عيناه شمت به وزادته شماتة عدوه إبليس به لأنه فاتته السعنة وفاته الرضا بالقضاء ، إذ لا تزول النعمة عن المحسود بحسد الحاسد ، فلو رضي الحاسد بالقضاء وتحقق المنعم عليه إن كان في النار فما نفع هذه النعمة وما قدرها فإنها قليل من قليل كما قال الله تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ { النساء : ٧٧ } ، وهي زائلة عن صاحبها عن قليل وإن كان في الجنة ، فأى نسبة لهذه النعمة إلى نعيم الجنان ، فالغم لا يفارق الحاسد في الدنيا ، ويجد حسناته في ديوان غيره يوم القيامة .

وقال أحد الحكماء : ستة لا تفارقهم الكآبة ؛ الحقد ، والحسود ، وحديث عهد بغنى ، وغنى يخشى الفقر ، وطالب رتبة يقصر قدره عنها ، وجليس لأهل الأدب وليس منهم . وقال آخر : الحسود يرى زوال نعمتك نعمة عليه .

وقال آخر : الحسود إنما خلق ليغتاز .

وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً قط . وقيل : أول من حسد إبليس ، وحرص آدم ، وغضب آدم . فإبليس لعنه الله حسد آدم - عليه السلام - ، وقابيل حسد هابيل ، وطالوت حسد داود - عليه السلام - وحسد مشركو العرب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وحسد الرافضة أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - وأول معصية وشر ظهر على وجه الأرض الحسد ، والله تعالى ختم القرآن بآية الحسد ، وذكر جميع أنواع الشر في سورة الفلق ، وختمها بقوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ .

وقيل : لما خلق الله تعالى آدم - عليه السلام - قال إبليس للملائكة : إن فضل ما تصنعون ؟ قالوا : نطيع ، قال : فإن فضلكم عليه ، قالوا : نشكر الله تعالى ، قال : أما أنا فلا أطيع ، فكان كالثور الأسود فيه نقطة بيضاء ، فلا يسقط عنهم اسم السواد بها ، وآدم - عليه السلام - كالثور الأبيض فيه نقطة سوداء فلا يسقط عنهم البياض بها . فمن الحسد خالفت نفس إبليس لعنه الله ، وما آلفت ، وأمرت بالطاعة فاستكبرت ولا رجعت ولا استغفرت ، فطرد عن الباب ، وأبعد عن الجناب ، وحقت عليه كلمة العذاب فذبلت زهرته من غصن أصل الوصال وانقصفت ، واجتنت ثمرات طاعته في أوان العصيان ، ووضعت على خوان ، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً .

وقال وهب بن منبه - رضي الله عنه - مر سليمان بن داود - عليهما السلام على وادي النمل ، فسمع واحدة منهن تقول للنمل : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ [النمل : ١٨] ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وكانت رئيستهم ، فوقف عليها سليمان - عليه السلام - متعجباً منها ، ولأنه رأى النمل على كبر الشعاب لها خراطيم وأنياب ، وإذا بكبير النمل قد خرج في عظم الجواميس ، فلما نظر إليه هاله ما رأى ، فأراها الخاتم فخضعت ، فسألها هذه كلها نمل ؟ فقالت : إن النمل كثير ، إنها ثلاثة أصناف ، صنف في الجبال ، وصنف في القرار ، وصنف في المدن . فقال : هل انقطعت عساكرهم ؟ فقالت : لو وقفت إلى يوم القيامة ما انقطعت عساكرهم يا نبي الله . فسألها عما قالت : وقال لها : لم أدخلت جيشك مساكنهم ؟ فقالت : لئلا ينظروا إليك وإلى جيشك وإلى ما ملكت بعين الشهرة والتعظيم فينسوا ملك الله تعالى فتفسد قلوبهم ويذهب جلال الله من قلوبهم ، قال : فتعجب سليمان - عليه السلام - من قولها ثم قال لها : فلم قمت أنت على باب الحجر ولم تدخلني معهم ؟ قالت : لأنني راع وعلى الراعي أن يحفظ رعيته ، والله تعالى يسأل كل راع عن رعيته ، فتعجب سليمان - عليه السلام - من قولها ، فقالت له : إنني أريد أن أسألك عن مسائل إن أذنت لنا في الكلام ، فقال : سليني عما بدا لك ، قالت له : لم سألت الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدك ؟ قال لها : هكذا سألت الله - عز وجل - قالت له : يا سليمان إني لأشتم من مسألتك رائحة الحسد - قيل إنما سأل سليمان - عليه السلام - ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده لعلمه بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يرد ملك الدنيا ولا رفعتها ولا اختارها فما يضرك لو كان لأحد من بعدك ، ومع هذا فأني شيء أعطاك ؟ قال : أعطاني خاتماً يدور فيه الملك من طاعة الإنس والجن والشياطين والريح التي تسير لي غدوها شهر ورواحها شهر . قالت : فهلا سألت الله - عز وجل - مطية من مطايا العارفين به - جل وعز - ، والعاملين له والمشتاقين إليه تذهب بك في طرفة عين نحو العرش وعز جلاله ، وتجول بك في ملكوته وجبروته فتشاهد عجائب غيبه وتطلع على خزائن سره ومكنون علمه ، وكان أحوط لك مما سألت من ملكك الذي غايته زواله في دار متنهاها فناؤها ، قال : فبهت سليمان - عليه السلام - من قولها حتى كاد أن ينخلع من ملكه ، ثم قالت : يا سليمان ومالك من حشمك ؟ قال : الاستئناس بهم والاستعانة بهم في نوازل الأمور ، قالت : وما كفاك الاستعانة

والأنس بمن لا يحول ولا يزول ولا يزال حياً قيوماً حتى أنست بغيره واستعنت بسواه ،
ثم قالت : ومالك أيضاً في طاعة الجن والشياطين ؟ قال : يخرجون لي من البحر الدر
والجوهر . فقالت : سبحان الله لأجل رينة الدنيا أحببت أن يخدمك ويطيعك من عصي
الله وأبغضه ، وأنتك تقدّر أنك في شيء وأن هذا مُلكاً عظيماً ، وما الملك إلا ملك من
لا يزال ملكه أبد الأبد . ثم قالت : مني عليك السلام يا سليمان ، ثم دخلت جحرها
وتركته متحيراً من قولها ، فعند ذلك قال : ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي
أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك
الصالحين ﴾ { النمل : ١٩ } ، وانتبه سليمان - عليه السلام - وتفرد للعبادة وشمر حتى
أتاه اليقين ، صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع النبيين والمرسلين وسلم تسليمًا .

وأنشدوا في ذلك :

يا مـخـلي ومـطـلق نـح قـليلاً	فإلى النوح قد وجدت السبيلاً
كم أنادي ولا أراك مجيباً	لو سمعت النداء أطلت العويلاً
يا كـثـير البـكى أظنك بمن	صيرته الذنوب مثلي ذليلاً
إخوتي كيف لا يطول بكائي	وبجهلي عصيت رباً جليلاً
قم فنادي إذا الخلائق ناموا	يا مقيل العثار كن لي مقبلاً

فاستعد بالله يا غافل من شر كل حاسد ، وإياك أن تكون ممن يتعوذ بالله من شر
حسدك ، وأشفق على نفسك وحسناتك ، فإن الحسد نار لا تبقي من الحسنات شيئاً ولا
تذر ، والحسود يعود في المعاد فقيراً حقيراً محتقراً ، والحسد كمد يسقم القلوب في
العاجل ، وسيف يقطع عنق الحاسد في الآجل ، والحسد حجاب يحجب القلب أن
يشرق فيه أنوار الحقائق ، وقاطع يقطعه من محبة الخالق ، وأصل بينه وبين عداوة
الخلائق . وأنشد المؤلف - رضي الله عنه - :

إن الحسود يغمه الرزق الذي	يعطيه من وهب الجزيل ومن حرم
من شاء من عباده فكأنه	لم يرض قسمة ربه لما قسم
هذا اعتراض للإله وحكمه	سحقاً لمعترض له فيما حكم

واعلم أن لكل خلق رزقاً لا بد له منه ، حكمة من بارئه ، فما وصل منه إليك فليس فيه من رزق غيرك ، وما وصل منه إلى غيرك فليس فيه أيضاً من رزق شيء ، بل الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويفعل في ملكه ما يشاء ، فتحقق وسلم للمالك ، واستعن بالله على دفع خاطر الحسد متى ما خطر بقلبك ، عصمنا الله جميعاً من شر الحسد منا وفينا بفضلته ومنه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم تسليماً .

٧- باب الكبر

اعلم أصلحك الله أن الكبر سبب ذلة الأبد والخزي في الدنيا والآخرة . في الدنيا بمنافرة الناس له بتكبره عليهم ، وفي الآخرة بسخط الله عليه . قال الله تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ { غافر : ٣٥ } ، وقال تعالى : ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ { الزمر : ٧٢ } ، وقال عز وجل : ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ { غافر : ٧٥-٧٦ } .

١٦٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال الله تعالى : ﴿ الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قصمته ﴾ ^(١) .

وفي الخبر : أن الله تعالى يقول في الإنجيل : « أنا المتعالي العزيز ، المنفرد ، المنعمد ، المحمود ، والتكبر ، المحتجب ، مالك الملوك ، وسيد السادات ، وجبار الجبابرة ، ولي الدنيا والآخرة ، المحيي المميت ، الرافع النافع الضار ، المبدئ ، المرهوب ، الحق ، المنيع ، إله الآلهة ، المتباعد عن عصاه ، المتجبر ، المتعظم ، الشامخ ، المقيم ، رب الأولين والآخرين ، الأول الذي لا بدء له ، والآخر الذي لا ثاني له ، المفرج ، الطالب ، الغالب ، ذو العرش المجيد ، هو الله الرحمن الرحيم » .

(١) صحيح : أخرجه الحاكم (٦١/١) ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » . ووافقته الذهبي ، وهو كما قال - رحمهما الله .

وله طرق أخرى عند : أبي داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) ، وأحمد (٢٤٨/٢) ، (٣٧٦) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع » بقرن (١٩٥) ، والقضاعي (١٤٦٣ - ١٤٦٥) ، وأخرجه مسلم (٢٦٢٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة - رضي الله عنهما .

١٦٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن ناساً من أمتي يخرجون من قبورهم على صورة الذر فيطؤونهم الخلائق بأقدامهم » . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « المتكبرون » ^(١) .

١٦٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يريح رائحة الجنة من في قلبه مثال حبة من خردل من كبر » ^(٢) .

١٦٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لبلال - رضي الله عنه - : « يا بلال ، إن في جهنم واد يقال له هبهب ، حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فلإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه » ^(٣) .

١٦٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم إني أعوذ بك من نفحة الكبر » ^(٤) .

١٦٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من تعظم في نفسه ، واختال في مشيته ، لقي الله تعالى وهو عليه غضبان » ^(٥) .

١٦٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أحب أن يتمثل الناس له قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ^(٦) .

(١) حسن : أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) ، والبخاري في « الادب المفرد » (٢٤٢) ، وأحمد (١٧٩/٢) ،

وابن المبارك في « الزهد » (ص٥٢) ، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (١٤٧ - ١٤٨) ، وأبو داود (٤٠٩١) ، والترمذي (١٩٩٨ - ١٩٩٩) ، وابن ماجه

(٥٩) ، (٤١٧٣) ، وأحمد (٤١٢/١) ، وغيرهم من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه .

(٣) ضعيف : أخرجه الدارمي (٣٣١/٢) ، والحاكم (٥٩٧/٤) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع » برقم (٢٢٥) ،

وأبو نعيم في « الحلية » (٣٥٦/٢) ، من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - .

وفي سنده أزهري بن سنان ، ضعيف الحديث .

(٤) قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣٣٨/٣) : « لم أره بهذا اللفظ » .

وانظر : « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي (٣٤٧/٨) .

(٥) صحيح : أخرجه أحمد (١١٨/٢) ، والبخاري في « الادب المفرد » (٥٤٩) ، والحاكم (٦٠/١) ،

والخراطبي في « مساوي الأخلاق » برقم (٥٧٦ - ٥٧٧) ، وغيرهم ، من حديث ابن عمر - رضي الله

عنهما - .

(٦) صحيح : أخرجه البخاري في « الادب المفرد » (٩٧٧) ، وأبو داود (٥٢٠٧) ، والترمذي (٢٩٠٣ - ٢٩٠٤) =

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - لما أخذ موسى - عليه السلام - الألواح ، نظر فيها وقال : إلهي أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحداً قبلي ، فأوحى الله تعالى إليه : أتدري لم فعلت ذلك ؟ قال : لا . قال : نظرت إلى قلوب عبادي فلم أجد قلباً أشد تواضعاً من قلبك ، فلذلك اصطفتك على الناس برسالتني ، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

وقيل : لما فُتحت الشام على عهد عمر - رضي الله عنه - وبأد منها ملك كسرى ، تحصن من أهلها أهل إيليا وقيل : قيسارية ، سألوا أن يكون أمير المؤمنين هو الذي يعقد لهم الصلح بنفسه ويكتب لهم الأمان ، فخاطبه أمراؤه بذلك ، فجمع الصحابة واستشارهم في الأمر ، فقال عثمان - رضي الله عنه - : أرى أن لا تسير إليهم ، فإنهم إذا بأسوا من سيرك إليهم ذلوا وانقادوا وأعطوا الجزية صاغرون ، وكان عليّ - رضي الله عنه - في القوم ساكتاً ، فقال له عمر - رضي الله عنه - : ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : قد قال أخي عثمان ما فيه الكفاية . فقال له عمر - رضي الله عنه - لا بد أن تقول ، أشد عليّ ، قال عليّ : أما إذ لا بد من القول ، فإنني أرى أن تعجل بالسير إليهم ، فإن لم تسر إليهم أخاف أن يغلّقوا الأبواب ويحصنوا على أنفسهم ويطول حصارهم فيلحق المسلمون من الجهد والهول مثل الذي يلحقهم ، ثم يرموا المسلمين بالحجارة والنشاب فيقتلون منهم من شاء الله ، فتود عند ذلك أن تفتدي دم رجل مسلم بمسيرك إلى معفر التراب ، فقال له عمر - رضي الله عنه - : أجاد عثمان في مكيدة العدو ، وأحسن علي في النظر إلى المسلمين ، ثم أمر الناس بالخروج وخرج إلى معسكره من حينه ، فنهض إليهم ، فلما نزل بهم أوتي بيرذون وقيل له : اركب هذا فهو أهيب لك على الأعداء فركبه ، فلما عملج به نزل من عليه ، وقال : خذوا هذا عني فإنه شيطان كاد والله أن يغير عليّ عقلي فأعجبنتني نفسي ، فنزل وأخذ مقود بعيره على كتفه وهو يقوده والندى والطين يضرب في ذيلوله ، وكان قد أوتي بشياب بيض وكان لبسها حين ركب البرزون ، فقالوا له : ابق على نفسك الشياب حين نزل من على البرزون ، فنزع الشياب وقال : دعوني فوالله لا فارقت الهيئة التي فارقت عليها صاحبي ،

= وأحمد (٩١/٤ ، ٩٣ ، ١٠٠) ، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٤٠/٢) ، والدولابي في « الكنى »

(٩٥/١) ، وغيرهم من حديث معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - مرفوعاً به .

وانظر : « السلسلة الصحيحة » للشيخ الألباني « برقم (٣٥٧) .

فقليل له : إنك قد وصلت ديار قوم يختاروا أن يروك على هذه الحالة فأعطنا الزمام ، فطرح يده في وجه من قال له ذلك وقال : إنّا قوم أعزنا الله تعالى بالإسلام ولم يُعزنا بغيره ، فلا تعتزوا بغير ما أعزكم الله عز وجل فتذلوا .

١٧٠ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا ينظر الله تعالى إلى من جرّ ثوبه خيلاء » ^(١) .

١٧١ - وعن الحسن - رحمه الله - قال : أتيتُ عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فوجدته بين الصفا والمروة وهو يبكي ، فقلت له : يرحمك الله يا أبا عبد الرحمن ، ما الذي يبكيك ؟ فقال : أبكاني والله حديث سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذا الموضع ، وهو يقول : « إن الله تعالى حرم الجنة على من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر ، وحرم ريح الجنان على من كان مفارق الجماعة » ^(٢) .

١٧٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - في فضيلة التواضع : « ما زاد عبد بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله تعالى إلا رفعه الله تعالى » ^(٣) .

١٧٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة » ^(٤) .

(١) صحيح : أخرجه البخاري - (٢٥٢/١٠) ، ومسلم (١٦٥٢/٣) ، والترمذي (٢٢٣/٤) ، وابن ماجه (١١٨٢/٢) ، والنسائي في « الكبرى » كما في « تحفة الأشراف » للزمري (٤٩/٩) ، ومالك (٩١٤/٢) ، وغيرهم من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - .

(٢) إسناده ضعيف : فيه الحسن البصري ، لم يسمع من ابن عمر - رضي الله عنهما - كما في « المراسيل » لابن أبي حاتم (ص ٣٨) إلا حديثاً واحداً . لكن المتن أوله صحيح ، فقد أخرجه أحمد (١٦٤١) ، وابن أبي شيبة (٨٩/٩) ، وهناد في « الزهد » برقم (٨٣١) ، من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - . والمفارق للجماعة أيضاً كذلك ، والله أعلم .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٣٨٦/٢) ، ومسلم (٢٥٨٨) ، والترمذي (٢٠٩٨) ، والدارمي (١٦٨٣) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٦٣) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٥٩) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً به .

وأوله : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو . . . الحديث » .

(٤) ضعيف : أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢/٣٣٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤٦١٥ - ٤٦١٦) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » برقم (٧٦) ، والبيهقي (١٨٢/٤) ، والقضاعي في « مستند الشهاب » (٦١٥) ، وغيرهم ، من حديث ركب المصري .

وأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي ، وألزم قلبه خوفاً ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات لأجلي .

١٧٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا تواضع العبد رفعه الله تعالى إلى السماء السابعة »^(١) .

ومن فضله : ما ذكر أن الله تعالى أتخف آدم - عليه السلام - بخاتم ، فقال الإبهام : أنا أحق به لكوني منفردة ، وقالت السبابة : أنا أحق به لكوني مسبحة ، وقالت الوسطى : أنا أحق به لأنني أطولكم ، وقالت البنصر : أنا أحق به لأنني طرف ، فيست الخنصر وانكسرت وذلت ، فاتخفها الله تعالى به لانكسارها وخصها به ، ورفعها به لتواضعها وحيث لم تر نفسها مستحقة به .

ومن شرفه أيضاً ورفعته : ما حكى أن سليمان - عليه السلام - صنع نيروزاً ، فاجتمع إليه الإنس والجن والطيور والوحوش والهوام ، كل حمل على قدر طاقته ، وإذا بنملة تحمل في فيها نبقة لم تطق أن تحمل غيرها ، فلم يعبا بها سليمان - عليه السلام - فانكسرت وذلت ، وأنشأت تقول :

على العبد حق هو لا بد فاعله وإن عظم الوالي وجلت فضائله
ألم ترنا نهدي إلى الله حقه وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يهدي للجليل بقدره لقصر ماء البحر عنه مناحله
ولكننا نهدي إلى من نحبه وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله

فلما فرغت من إنشادها نزل عليه جبريل - عليه السلام - وقال له : ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : أقبل هديتها فقد أبكت أهل السموات والأرض ، فقبل منها - صلى الله عليه وعلى نبينا وعليه .

= وسنده ضعيف لجهالة ركب ذا ، ولم تصح صحبته ، ونصيح ضعيف .

وانظر : الإصابة (٤٩٨/٢) ، و« فيض القدري » (٢٧٨/٤) ، و« مجمع الزوائد » (٢٢٩/١٠) .

(١) ضعيف : قال العراقي (٣٤١/٣) : « أخرجه البيهقي في « الشعب » نحوه ، وفيه : زمعة بن صالح ، ضعفه الجمهور » أهـ .

١٧٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا برفعمكم الله » (١) .

١٧٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون هياه لأهله يرفع بها الكبير عن نفسه » (٢) .

وذكر أن رجلاً استأذن عمر - رضي الله عنه - في أن يعظ الناس بعد الصبح ، فقال له عمر : إني لأخشى أن يتفتخ حتى يبلغ الثريا .

وقال الحسن - رضي الله عنه - لبعض من يتبختر في مشيته : هذه مشية من بطنه خرو . وقيل : كيف يتكبر ابن آدم وقد جرى في مجرى البول مرتين ، فكيف يليق الكبير به وهو يغسل القذرة بيده كل يوم مرتين ، وهو حامل لها على الدوام . وأنشدوا :

عجبت من معجب بصورته إذ كان بالأمس مـذرة
وفي غد بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تبهه وفخرفته ما بين جنبيه يحمل العذرة

وذكر أنه سب رجل بعض الصالحين وقال له : يا كلب ، فلم يجبه ، فقيل له : ما بالك صبرت على سبه ؟ فقال : إذا أوتي بي يوم القيامة وحوسبت وأدخلت الجنة فلا يضر لي قوله لي يا كلب ، وإن أمر بي إلى النار فالكلب حيثئذ خير مني .

ومما يدل على عاقبة الكبر والحسد : ما ذكر عن إبليس لعنه الله ، أنه عبد الله تعالى أربعين ألف سنة وأربعين ألف سنة كان من خزان الجنة ، وأربعين ألف سنة كان يعلم الملائكة كيفية العبادات ، وكان صاحب جند الملائكة ، وكان صاحب السماء الرابعة ، ولم يكن في السموات السبع وأهويتها السبع موضع شبر إلا وسجد فيه إبليس لعنه الله سجدة .

(١) ضعيف : أخرجه الأصبهاني قوام السنة في « الترغيب والترهيب » برقم (٦٢٤) ، بسند ضعيف عن أنس - رضي الله عنه - . وضعفه الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (١٨٢/٣) .

(٢) لا أصل له : قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣٤١/٣) : « غريب » أهـ .

قلت : ومعنى قوله ذا ، أنه لا أصل له ، وهو أيضاً اصطلاح خاص بالزيلي في « نصب الراية » ، والله الموفق لما فيه الخير والرشاد .

وفي الخبر : أن الله تعالى خلق إبليس تحت الأرض السابعة ، فتعبد فيها خمسمائة عام ، وهكذا كان يتعبد في كل أرض خمسمائة عام ، ويرفعه الله من أرض إلى أرض ، ومن سماء إلى سماء حتى انتهى إلى خزانة الجنة ، فجعله الله خازن الجنة فأشعرته نفسه كبراً ، فخلق الله تعالى آدم - عليه السلام - لفضيحتة ، ثم أمر إبليس أن يسجد له سجدة وذلك لما علم الله ما في نفسه من الكبر ، وقال له : اسجد لهذا سجدة فهي حقيقة عبوديتك وإيمانك حتى أتمم لك عبادتك وأعمالك ، وإن لم تسجدها ضربت بها وجهك وأحبطت بها عملك ، فلم يسجد ، فرد الله تعالى أعماله كلها ، وغضب عليه ولعنه ، وجعل النار مصيره . فهذا إبليس لعنه الله وطرده وغضب عليه بمعضية واحدة إلى يوم القيام ، وجعله مثلاً للأولين والآخرين ، لئلا يغتر طائع من أهل المملكة بطاعته أو يغتر عابد بعبادته ، فيرتفع على الأغيار ، ويتطاول إلى معالم الاستكبار ، ويمائل حاله حال من قال ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار ﴾ { ص : ٧٦ } ، فيحول المتكبر بينه وبين بلوغ أوبه ، ويسلك به في مسالك تبعه ، ولا يجتني من غرس عمله إلا ثمار نصبه ، ويقتطف من غياض رياض جده ، وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً .

فنعوذ بالله من الكبر ومن شؤم الكبر أيضاً ، إنه يحمل صاحبه على جحد الحق وازدراء الخلق ، وأن يتعاضم في نفسه ، فمن أين تليق العظمة به وهو عبد ذليل قائم بغيره ، مقصر ضعيف ، عاجز ناقص ، واهن خسيس ، حقير فقير ، جاهل ساخط به لا يمكنه من أمر نفسه شيئاً ، فضلاً عن أمر غيره . وإنما الرفعة بالتواضع ، والآنفة من الحق واستحقار الخلق يغلقان باب السعادة .

قال جعفر الصادق - رحمه الله - : إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث ؛ خبأ رضاه في طاعته فلا تحقروا شيئاً منها فلعل رضا الله تعالى فيه ، وخبأ سخطه في معاصيه فلا تحقروا شيئاً منها صغيرة كانت أم كبيرة فلعل سخط الله تعالى فيه . وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا أحداً منهم فلعله ولي الله تعالى .

١٧٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يفي عملكم بجهلكم » (١) .

(١) منكر : وانظر : « إتحاف السادة المتقين » للشريف الزبيدي الحسيني (٢٧/٨) .

ومن الخبث الباطن من الكبر في العلماء والعباد : ما روي عن رجل من بني إسرائيل يقال له : خليع بني إسرائيل لكثرة فساده ، فجلس يوماً إلى عابد بني إسرائيل ، فقال الخليع في نفسه : لعل الله يرحمني بتزكيتيه ، وقال العابد - أيضاً - في نفسه : كيف يجلس معي هذا الفاسق ، ثم قال له : قم عني ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه : مرهما يستأنفان العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد .

فحقيقة الكبر : أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال ، فيحصل من ذلك نفحة الكبر ، ونتيجة الكبر منازعة الله تعالى في خصوص صفاته ، فإن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا به ، فمن أين تليق العظمة بعبد ذليل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

قيل لأحد الحكماء : إن فلاناً يتواعدك ، قال : من زعم أنه يضرني فلينفع نفسه فكيف تتكبر يا مسكين وأنت مخلوق من عدم ، ولا شيء أقل من العدم ، ثم أوجدك مولاك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، فخلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ثم من مضغة ليس لها سمع ولا بصر ولا حياة ، ثم أنعم عليك بعد ذلك بهذه النعم في الظاهر والباطن ، ثم أنت في غاية كمالك غاية في التقصان ، تصح وتالم ، وتفرح وتخزن ، وتجد وتفقد ، وتذكر وتنسى ، فلا الذي تحبه من ذلك وفيه مصلحتك تقدر أن تستجلبه لنفسك بقدرتك ، ولا الذي تكرهه من ذلك لا تدفعه عنك بقدرتك ، ثم أنت معرض للآفات في حياتك ، وللحساب والعقاب . فاعلم أنك عبد مملوك ، لا تقدر على نفسك بشيء . قال لقمان - رحمه الله لابنه : الشريف إذا تزهّد تواضع ، والوضيع إذا تزهّد تكبر . وقال لابنه أيضاً : يا بني لا تسرع إلى أرفع موضع في المجلس فالموضع الذي ترفع إليه خير من الموضع الذي تحط منه .

وذكر أن أبا العباس السفاح أرسل عسكر إلى الشام وقدم عليه عامر بن إسماعيل فأتى إلى مروان وقتله ، ثم وقف على باب سرادقه فخرج إليه خادماً مروان ودفع إليه مفاتيح المخازن ، ثم دخل فتزل على فرش مروان والشمع تزهّر ، ثم دعا بعشاء مروان الذي كان هيباً له فأكل ، ودعى بعبدة ابنته فجلست بين يديه فقالت : يا عامر ، إن دهرًا أنزل أمير المؤمنين عن فرشه وأجلسك عليها حتى تأملت وجهي وقد كانت تنقطع دون هودجي الأبصار ، ثم أكلت طعاماً أعد له لدهر لا ينبغي لك أن تأمنه ولا تغتر به ،

فقال لها عامر : نغصت عليّ عشائي ، قومي عني ، فبلغ الخبر أبا العباس فكتب إليه :
 أما بعد فإنه بلغ أمير المؤمنين ما كان منك ومن عبدة في الليلة التي قتل فيها مروان ،
 ولولا أن أمير المؤمنين يفتتح أمر بما يجب من العفو لكان أولى الأمر به تأديك ، أما
 كان لك في معرفتك وسنك ما يحجزك عن الاستضاءة بمصباح مروان ، والقدوم على
 عشائه ، ومسامرة حُرْمه حتى وعظتك صبية لم تبلغ أو بلغت على مكارم الاخلاق
 وترك الاغترار بانقلاب الدول والايام ، أو ما علمت أنا إنما نقمنا على أذاينا من بني
 مروان ، وأن هذا وما كان مثله ، ومن عاب شيئاً فهو بالذم أولى ، وبالعقوبة أجدر
 وأحرى . وحكي أن رجلاً سب حكيمًا فقال الحكيم : لست أدخل في حرب الغالب
 فيها شر من المغلوب . وأنشدوا :

يا من تعالى جده فتكبرا
 ومن حكمه ماض على الخلق نافذ
 لك الحمد لا معطي لما أنت مانع
 وأمرك بين الكاف والنون كائن
 إذا قلت كن كان الذي أنت قائل
 قضاءً ومقضي وحكمك نافذ
 سبقت ولم تسبق وكنت ولم يكن
 ودبرت أمر الخلق من قبل خلقهم
 علوت على السبع السماوات قاهرا
 تُقر لك الأرباب أنك ربها
 لبست رداء الكبرياء ولم يكن
 وأنت الذي سميت نفسك قاهرا
 وأنت رفعت السبع في ذر والعلوى
 وسخرت فيها الشمس والبدر زينة
 وأنت وضعت الأرض ثم بسطتها
 وأرسيت فيها شامخات رواسيا
 جعلت له عقلاً وسمعاً وناظرا
 وزوجته زوجاً من إحدى ضلوعه
 وجل جلالاً قدره أن يُقدرا
 بما خط في أم الكتاب وسُطرا
 ولا مانع ما أنت تعطي مؤفرا
 بأسرع من طرف العيون وأيسرا
 ولم يك منك القول فيه مُكررا
 وعلمك في السبع الطباق وفي الشرا
 سواك وتبقي حين يذهب ذا الورا
 فكان الذي دبرت أمراً مُدبرا
 فأنت ترى ما قد خلقت ولا تُرا
 ولو أنكرت ذاقت عقاب من أنكرا
 لغيرك يا ذا العرش أن يتكبرا
 وأنت إله الخلق حقاً بلا امترا
 وأمسكتها كي لا تخمر من الذرا
 لها ونجوماً طالعات وغورا
 وأجريت أنهاراً عليها وأبحرا
 خلقت من المسنون خلقاً مصورا
 وسويته شخصاً سميعاً ومبصرا
 ونشرت نسلأ مبهماً فتشيرا

لك المنة العظمى علينا هديتنا وأرشدتنا ديناً حنيفاً مطهراً
وأورثتنا بعد الجهالة حكمة ونورا منيراً للقلوب منورا
فسبحانك اللهم ذا المجد والعلو مبارك ربي ما أجل وأكبرا
فكم نعمة ألبستنا جليلة سترت بها ذا عورة فتستترا
وكم كربة كشفتها وعظيمة دفعت عن العبد الذي يعبد الورا
أسأنا وأذنبنا كثيراً ولم تزل رحيماً بنا منا أحق وأبصرا
فلو لم يكن منا مسيء ومذنب لجئت بقوم يذنبون فتغفرا
فياربنا هب توبة لجميعنا وحط خطايانا فعمفوك أكبرا

جعلنا الله وإياكم من المتواضعين لعظمته بمنه وفضله ، وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليماً .

٨ - باب العُجب

اعلم أن العجب مذموم ، كيف كان بالنفس ، أو بالفعل ، أو بالقول .

قال الله عز وجل : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ { النجم : ٣٢ }
وقال عز وجل : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ { الكهف : ١٠٣ - ١٠٤ } . وقال الله تعالى :
﴿ ويوم نحين إذ أعجبتمكم كثيرتمكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ { التوبة : ٢٥ } .

١٧٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ،
وإعجاب المرء بنفسه » ^(١) .

١٧٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد ،
وهو العجب » ^(٢) .

(١) حسن : أخرجه البزار (٨١ - كشف) ، والعقيلي (٢٤٣ / ٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣ / ٢) ،

والقضاعى في « مسند الشهاب » (٣٢٥ - ٣٢٧) ، وغيرهم من حديث أنس - رضي الله عنه .

(٢) ضعيف جداً : أخرجه البزار (٣٦٣٣ - كشف) ، وابن حبان في « المجروحين » (٣٣٦ / ١) ، والبيهقي في

« الشعب » برقم (٧٢٥٥) ، من حديث أنس - رضي الله عنه .

وفي سننه سلام بن أبي الصهباء ، منكر الحديث .

١٨٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من استطاع أن يملك نفسه من أربعة لم يصبه مكروه أبدًا : اللجاجة ، والعجلة ، والعجب ، والتواني » (١) .

١٨١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خصلتان لا أرضى فعلهما : تيه الغني ، ومذلة الفقير » (٢) . فإن اغتيت فلا تكن بطرا ، وإن افتقرت فته على الدهر .

وقيل لعائشة - رضي الله عنها - : متى يكون الرجل مسيئًا ؟ فقالت : إذا ظن أنه محسن .

وقيل : كتب حكيم إلى حكيم : أن ادع لي ، فكتب إليه : بل أنت ادع لي ، فإنك في إياك نستعين ، وأنا في إياك نعبد . ولذلك قيل : ما بلاء الخلق إلا الدعاوي . وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - « الهلاك في اثنتين : القنوط ، والعجب » . وإنما جمع بينهما لأن القانط لا يطلب السعادة لقنوطه ، والمعجب لا يطلبها لظنه أنه قد ظفر بها .

وذكر أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال يومًا : سلوني عما دون العرش إلى الثرى ، فما أحد أعلم مني بذلك ، قال : فبعث الله إليه ملكًا في صورة بعض البشر ، فقال له : يا ابن عباس ، النملة مع صغرها ، أين روحها في مقدمها أم في مؤخرها ؟ فلم يدر جوابًا ، فدخل منزله وأغلق بابه ، وآلى على نفسه ألا يدعي علمًا أبدًا .

وذكر أن يوسف - عليه السلام - لما ألقوه إخوته في الجب فنظر إلى أسفله فرأى وجهه في الماء ، فأعجبه حسنه ، فخطر بقلبه أني لو كنت مملوكًا لكنت عزيزًا أو بلغت ثمنًا عظيمًا ، فبعث الله إليه السيارة وسلط عليه إخوته حتى باعوه بثمن بخس ، وأراه أن الثمن الغالي بجمال الباطن لا بجمال الظاهر .

وذكر أن داود - عليه السلام - خرج إلى ساحل البحر ليتعبد فيه ، فأقام سنة ثم قال : يا رب قد انحنى ظهري ، وذهبت قوتي ، وكَلَّتْ عيناي ، ونفدت الدموع ، ولا أدري إلى ما يصير أمري ، فأوحى الله تعالى إلى ضفدع أن أجيب عبيدي ، فقالت :

(١) لم أهد إلى من رواه ، والله أعلم .

(٢) هو كالسابق .

يا نبي الله أتمن على ربك بعبادة سنة ، والذي بعثك بالحق نبياً إنني لعلی ظهري برذیة منذ ثلاثین أسبحة وأحمده ، وإن فرائصي لترعد من مخافته . فبکی داود - علیه السلام - عند ذلك بكاءً شديداً ، وعلم أن ذلك توبيخاً له .

وحكي أن داود - علیه السلام - قال : لأسبحن الله تعالی الليلة تسيحاً ما سبحة به أحد من خلقه ، فنادته ضفدع من ساقية في داره : يا داود ، أتفخر على الله بتسيحك وإن لي سبعين سنة ما جف لي لسان من ذكر الله سبحانه ، وإن لي لعشر ليال ما طعمت خضراء ولا شربت ماء اشتغالاً بكلمتين . قال : وما هما ؟ قالت : هما يا مسيحاً بكل لسان ، وذكوراً بكل مكان . فقال في نفسه : وما عسى أن أقول أبلغ من هذا ، فعلم أن ذلك تعجيزاً له - علیه السلام - . وذكر أن الريح كانت تسير بسليمان - علیه السلام - ، فنظر إلى قميصه نظرة وكان عليه قميص جديد فوضعت الريح ، فقال لها : لم فعلت ولم أمرك ؟ فقالت : إنما أطيعك إذا أطعت الله تعالی .

ويروى أن الله أوحى إلى يعقوب - علیه السلام - أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا . قال : لقولك لإخوته وأخاف أن يأكله الذئب ، فخفت عليه الذئب ولم ترجني له ، ونظرت إلى غفلة إخوته عنه ولم تنظر إلى حفظي له .

فانظر : كيف لم يتجاوز لأنبيائه عن صغار الذنوب ، فكيف يتجاوز عن غيرهم . وانظر كيف يطلب منهم المراقبة في كل حال ولا يسامحهم في الغفلة عنها ، فكيف يسامح غيرهم في مجاهرتهم بالمعاصي .

وذكر أن رجلاً نظر إلى بشر بن منصور الحافي - رضي الله عنه - وهو يطول الصلاة ويحسن العبادة ، فلما فرغ من صلاته قال : لا يفرنك ما رأيت مني فإن إبليس عبد الله تعالی آلاف السنين ثم صار إلى ما صار إليه .

فمن سعادة المرء أن يقر على نفسه بالعجز والتقصير ، ولا يرى لها استحقاقاً لقليل ولا كثير ، وتيقنها على التفریط فيما أمره به العليم الخبير . كما ذكر عن أبي صالح الهجري ، قال : تفكرت ذات ليلة في أشياء من أمر ربي عز وجل مقت نفسي فدمعت عيني وسهرت ساعة من الليل فتروضأت وصليت ، ثم أغفيت موضعي فإذا أنا بجارية حسناء ، عليها ثياب خضر ومعها شيء يشبه القرص أبيض ، فقالت : ذق هذا ، فذقته فإذا هو شهد ، فجعلت تلقمني ، فقلت : ما ذقت مثل هذا ،

فقالت : هذا لمقتك نفسك ، فإن ردت زدناك ، فقلت : فسري ما قلت ، فقالت :
مقت نفسك عبادة ، وفكرتك حسنة ، ودمعتك ثمرة ، وصلاتك جنة ، ثم قالت :
اعمل لكريم لا يضييق بالكثير ، وقل يا متسع اتسع علينا بفضلك فإن ما عندنا ينفد وما
عندك باق ، ونحن إلى الفناء وأنت الحي القيوم ، ثم قالت : اضطجع فاضطجعت .

وقيل من المهلكات أربع : أنا ، ونحن ، ولي ، وعندي . فأول من قال أنا
فهلك إبليس لعنه الله ، في قوله : ﴿ أنا خير منه ﴾ { الأعراف : ١٢ } ، وممن قال
نحن فهلك قوم بلقيس في قولهم : ﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ { النمل :
٣٣ } فأذلهم الله تعالى وأبادهم على يدي سليمان - عليه السلام - ، وفرعون لعنه الله ،
قال : ﴿ اليس لي ملك مصر ﴾ { الزخرف : ٥١ } ، فأخذ الله تعالى أخذ عزيز مقتدر
لما ادعى الملك بين يدي المالك . وقارون قال عندي في قوله : ﴿ إنما أوتيته على علم
عندي ﴾ { القصص : ٧٨ } ، فأخذ الله بذلك حيث رأى ما أوتي أنه ما أوتيته إلا وقد
استوجب ذلك واستحقه ، فهو له أهلاً .

١٨٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « النادم ينتظر الرحمة ، والمعجب
ينتظر المقت » ^(١) .

وذكر أن إبراهيم - عليه السلام - لما مدحه الله تعالى بقوله - عز وجل - : ﴿ إن
إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ { هود : ٧٥ } ، مدحه بحلمه فكاد يعجب بمدحه له ، فعلم
الله تعالى ذلك منه فرفعه إلى السماء ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم
ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ { الأنعام : ٧٥ } فلما رأى عبداً على
فاحشة قال : يا رب أهلكه ، فأهلكه الله تعالى إلى أن بلغ ثلاثة ، فقال الله - عز
وجل - : يا إبراهيم ، لو مكثت ها هنا ساعة أخرى لاهلكت العباد كلهم بدعوتك يا
إبراهيم ، إنني أرى كل يوم ألف ألف عاص على المعصية ولا أهلكهم . وقيل : إن الله
تعالى قال له : أكف دعوتك عن عبادي فإن عبدي بين ثلاث : إما أن أخرج منه ذرية
طيبة ، أو يتوب فأغفر له ، أو النار من ورائه .

(١) ضعيف جداً : أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير » (١٠/١٩٩) ، من حديث ابن عباس - رضي الله
عنهما - مرفوعاً به . وفي سننه مطرف بن مازن ، متروك الحديث .

قال الله تعالى : وليكون من الموقنين أن الله تعالى فوق العرش أحلم منه على الأرض ، فلما أراها الله تعالى لعلمه على العباد رده إلى الأرض ليريه أن من المخلوقين من هو أحلم منه ، فقال : يا إبراهيم : اذبح ولدك ، فقال لابنه : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر وإن كان تصلح نفسي ودمي لربي جل جلاله فعجل واذبح فإنه لا كل أذن تصلح لاستماع كلامه ، ولا كل عين تصلح لرؤيته ، ولا كل لسان يصلح لذكره ، ولا كل مال يصلح لبذله ، ولا كل قدم تصلح للمشي إلى طاعته ، ولا كل قلب يصلح لوده ، ولا كل نفس تصلح لخدمته ، افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، قال : يا نبي الله حتى أشدد يديك ، قال له إبراهيم - عليه السلام - يا بني أخاف أنك ربما لا تصبر على القتل وحنة السكين وتضطرب ، قال : لا تشمت بي العدو ، أتراني لا أرضى بحكم ربي ، فضع أنت السكين على الأرض وأجر أنا حلقي عليه جراً وأقطع أوداجي بنفسي رضا لربي ، فعلم إبراهيم - عليه السلام - أن ابنه أحلم منه في الأرض ، وربه أحلم منه فوق عرشه .

فحقيقة العجب : هي استعظام النفس خصالها ، وأنها أهل لكل فضيلة ومستحقة لكل نعمة مع الأمن من زوالها وقلة الشكر لمن وهبها إياه ، ويبعث ذلك على استحقار الناس بأن يرى نفسه خيراً من أحد من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولعله يصيب من العمل مثلما يصيبه ، ولعله يكون أروع منه عن ما حرم الله تعالى ، وأزكى منه عملاً .

١٨٣ - وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره »^(١) .

ذكر أنه حضر بعض النحويين في مجلس ابن سمعون الواعظ وكان من الزهاد ، فكان النحوي أخذ على الشيخ لحنًا في كلامه ، فانقطع عنه ، فكتب إليه ابن سمعون :

مالي أراك من الإعجاب رضيت أن توقف دون الباب

(١) حسن : أخرجه الترمذي (٣٨٥٤) ، من حديث أنس - رضي الله عنه - مرفوعًا بنحوه . وحسنه والأشعث : متفرق الشعر ، والأغبر : الذي علا الغبار ثيابه وجسمه . ولأبره : لأجاب قسمه ودعاه .

أما سمعت رسالة بعض العارفين إلى بعض المتأدبين كتب إلى من اعتمد على ضبط أقواله وَلَحَنَ في أفعاله من أجل أنك خفضت ورفعت وجزمت ونصبت ، تهت وانقطعت ، ألا رفعت إلى الله جميع الحاجات ، ألا خفضت صوتك عن المنكرات ، ألا جزمت نفسك عن الشهوات ، ألا نصبت بين عينيك ميزان الممات ، أما علمت أنه لا يقال غداً للعبد لِمَ لم تكن معرباً ، وإنما يقال له لم كنت مذنباً ، يا هذا ليس المرغوب الفصاحة في المقال ، وإنما الفصاحة في الأفعال ولو كانت محمودة في الأقوال دون الأفعال لكان هارون أولى بالرسالة من موسى - عليه السلام - ، قال الله تعالى حكاية عن موسى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ { القصص : ٣٤ } فجعلت الرسالة لموسى نصيحة أفعاله والله أعلم حيث يجعل رسالاته . وأنشدوا :

مُجَاوِزٌ فِي الْفِعَالِ ذُو زَلَّلٍ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَوْلُهُ وَزَنَّهُ
قَالَ وَقَدْ كَتَبْتَ لِفِظْتِهِ نِيهَاً وَعَجَبًا أَخْطَأْتَ يَا لِحَنَهُ
فَقُلْتَ لِفِظِي الَّذِي يَقُومُ غَدًا وَلَا يَرَى فِي كِتَابِهِ حَسَنَةً

١٨٤ — وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنني في زمرة المساكين » (١) .

وكان سليمان - عليه السلام - يقصد المساكين فيجلس معهم ويقول : مسكين
جلس إلى جانب مسكين .

(١) صحيح ؛ روي من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - مرفوعاً به :

أخرجه الترمذي برقم (٢٣٥٢) ، ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣/١٤١ - ١٤٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٧/١٢) ، وغيرهم من طريق الحارث بن النعمان الليثي ، عن أنس به .
وقال ابن الجوزي : « الحارث بن النعمان ، منكر الحديث » .

وتعقبه السيوطي في « اللآلئ المصنوعة » (٢/٣٢٥) فقال : « هذا لا يقتضي الوضع » أهـ .
قلت : والحارث ذا ، قال فيه البخاري : « منكر الحديث » ، وقال النسائي : « ليس بثقة » ، وقال العقيلي :
« أحاديثه مناكير » ، وضعفه أبو زرعة ، والأزدي ، وابن الجوزي ، وغيرهم .
أما ابن حبان فوثقه !!! . والحديث ضعفه ابن الجوزي في « التلخيص الحبير » (٣/١٠٩) .
أي : ضعف هذا الإسناد .

ولكن الحديث صحيح بشواهده .

١٨٥ — وقال - صلى الله عليه وسلم - : « حبيب إليّ من الدنيا ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » (١) .

وكان أصحابه حوله ، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - وأنا يا رسول الله حبيب إليّ من الدنيا ثلاث : نفقة مالي عليك ، وجلوسي بين يديك ، والنظر إليك صلى الله عليك . فقال عمر - رضي الله عنه - وأنا يا رسول الله حبيب إليّ من الدنيا ثلاث : قول الحق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وقال عثمان - رضي الله عنه - : وأنا يا رسول الله حبيب إليّ من الدنيا ثلاث : إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام . وقال علي - رضي الله عنه - وأنا يا رسول الله حبيب إليّ من الدنيا ثلاث : قرى الضيف ، والصوم في الصيف ، والضرب بين يديك بالسيف صلى الله عليك . فتزل جبريل - عليه السلام - عند ذلك فقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : وأنا يا رسول الله حبيب إليّ من دنياكم ثلاث : حب المساكين ، وأداء الرسالة إلى المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، ثم عرج جبريل إلى السماء ورجع في أسرع من طرفة عين ، فقال : يا محمد ، العليّ الأعلى يقرئك السلام ويقول لك : وأنا أحب من دنياكم ثلاث : قلب شاكر ، ولسان ذاك ، وجسم على البلاء في طاعتي صابر .

فكيف يزكو عمل مع احتقار من أحب الله تعالى ، وجبريل - عليه السلام - ونبينا - صلى الله عليه وسلم - وعلى جميع النبيين - عليهم السلام - ، وهم المساكين ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وذكر أن موسى - عليه السلام - قال : يا رب أين أطلبك ؟ فقال تعالى : عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

وقال بعض الحكماء : من أنزل نفسه منزلة العاقل أنزله الناس منزلة الجاهل .

جعلنا الله وإياكم ممن عرف قدر نفسه ، واشتغل بعبادة ربه بمنه وفضله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

(١) صحيح : أخرجه النسائي في « سننه » (٣٩٣٩) ، وفي « عشرة النساء » برقم (١ - ٢) ، وأحمد (٣/١٢٨) ، ١٩٩ ، ٢٨٥ ، وأبو يعلى (٣٤٨٢) ، (٣٥٣٠) ، والبيهقي (٧٨/٧) ، والحاكم (٢/١٦٠) ، وغيرهم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - .

٩ - باب الفخر بالأباء والأحساب

وأما الافتخار بالأباء والأحساب فنقص في حق المفتخر بهم ، قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] .

١٨٦ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : « إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة : يا أيها الناس إني جعلت لكم نسباً فقلت إن أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان أكرم من فلان ، فاليوم أضع أنسابكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ » ^(١) .

١٨٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهل الله له به طريقاً إلى الخير ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ^(٢) .

١٨٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الناس بنو آدم ، وآدم من تراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » ^(٣) .

فإن كان آباء المفتخر من أهل الورع والدين فكيف يفتخر بهم وقد كانوا أذلاء في أنفسهم صاغرين ، وإن كانوا فجاراً فينبغي أن يفتخر بمن لم يقدر أن يبلغ منزلته من الزهد والعلم والكرم . وأنشدوا في ذلك :

لئن فخرت بأبائٍ لهم شرفٌ لقد صدقتَ ولكن بش ما ولدوا

١٨٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله - عز وجل - من الجعلان التي تدفن بأنفهن التبن » ^(٤) .

(١) لم أجده فيما بين يدي من مراجع ، والله أعلم .

(٢) صحيح : أخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم » برقم (٤٤ - بتحقيقي) ، والقضاعي ف « مسند

الشهاب » برقم (٣٩٢ - ٣٩٤) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه . وأنظر : « جامع بيان العلم »

(٣) صحيح : أخرجه الترمذي (٣٩٥٦) ، وأحمد (٣٦١/٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٨٨/٦) .

(٤) صحيح : أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وغيرهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه . وصححه

ابن تيمية - رحمه الله - في « الاقتضاء » (ص ٣٥ ، ٦٩) .

١٩٠ - وسأل رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، من أبي ؟ فقال : « أبوك فلان » ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ [المائدة: ١٠١] ^(١)

١٩١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله أذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى ، الناس بنو آدم ، وآدم من تراب » ^(٢) .

وحكي أن الحسين - عليه السلام - تزوج أم إسحاق ابنة طليحة بن عبد الله ، وكان قد خلف عليها بعد أخيه الحسين - رضي الله عنها ، فولدت له فاطمة وكانت عند الحسن بن الحسن ، ثم خلف عليها عبد الله بن عمرو بن عثمان ، فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم أن يخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم وأمها زينب بنت علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - وأمها فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على يزيد بن معاوية ، وأن يجعل صداقها حكم أبيها بالغاً ما بلغ بعد قضاء دينه ، وبعد أن يعطيه عشرة آلاف دينار ، ويصدقها أربعمائة ، ويكرمها بعشرة آلاف دينار أخرى ، فيكون ذلك صلحاً بين هذين الحين بني هاشم وبني أمية ، فركب مروان إلى عبد الله بن جعفر فأخبره بكتاب معاوية إليه ، فقال له عبد الله : إن أمرها ليس إليّ وإنما أمرها إلى خالها الحسين بن عليّ - رضي الله عنهما ، ولم أكن لأسبقه بأمرها وهو غائب ولست أولى بها منه فإنه الخال والخال والد - وكان الحسين - رضي الله عنه - يبيت ضيعة كانت له فإذا قدم ما فعل فقد رضيته ، فلما كان بعد خمس قدم الحسين - رضي الله عنه - فأخبره عبد الله وعرفه بما كان من الحديث ، وقال : أنت خالها والوالدها وليس معك أمر ، فأشهد عليه الحسين بذلك جماعة ثم خرج فدخل على أم كلثوم فقال لها : أي بنية قد ولاني أبوك أمرك ، وإني لا ألك نصيحة في حسن النظر إن شاء الله فأمرك بيدك ، قالت : نعم يا خالي بأبي أنت وأمي ، فقال الحسين - رضي الله عنه - :

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) ، والترمذي (٣٠٥٦) ، والنسائي في « التفسري » برقم (١٧٤) ، وغيرهم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه . والآية من سورة المائدة {١٠١} .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٣٦١/٢) ، والترمذي (٣٩٥٥) ، وأبو داود (٥١١٦) ، والبيهقي في « السنن » (٢٣٢/١٠) ، وفي « الأدب » (٤٦١) ، وأبو الشيخ في « جزء فيه أحاديثه » برقم (١١) - رواية ابن مردويه وابن منده في « التوحيد » (٢٦١/١ - ٢٦٢) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه . والحديث المتقدم برقم (١٩٠) ، هو جزء منه . والحمد لله وحده .

استخيري الله ، اللهم إني لم أرد إلا الخير فقيض الله لهذه الجارية رضاك من بني هاشم ، ثم خرج فمر بدار محمد بن جعفر بن أبي طالب فإذا هو بالقاسم بن محمد ، وهو شاب فجرى إليه فقبل يده ، فقال : يا ابن أخي أترضى أن أزوجك من شئت ؟ فقال : والله يا عم ما لي مال فأعطي منه المهر ، فقال له الحسين : لكنني أعطي المهر عنك ، فقال : اصنع يا عم ما شئت ، قال : فإذا كان غداً فامض معي إلى مجلس بني هاشم وبني أمية ، فلما كان من الغد اجتمعت بنو هاشم وبنو أمية وأشرف الناس في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأقبل مروان بن الحكم حتى جلس إلى الحسين بن علي - رضي الله عنهما - ، فتكلم مروان فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ أن آتي عبد الله بن جعفر فأخطب إليه ابنته أم كلثوم على يزيد بن أمية ، وقد عرفتم فضله ، والعجب ليزيد كيف يستمهر وهو كفؤ من لا كفؤ له ، وبوجهه يستسقى الغمام ، والذي يغبطنا به أكثر مما يغبطه بنا ، وقد جعل ذلك إليك أبوك ، وقد أمرني أمير المؤمنين أن أجعل مهرها حكم أبيها بالغاً ما بلغ بعد قضاء دينه مع ما في ذلك من الصلاح بين هذين الحسين من بني هاشم وبني أمية ، ليس عند الحسين خللاً إن شاء الله ، ثم سكت ، فتكلم الحسين بن علي - رضي الله عنهما - فحمد الله وأثنى عليه وصلى على جده محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله ، ثم قال : إن الله تعالى لا ينفع عنده إلا الحق ولا يقبل من خلقه إلا التقوى ، وأن الله تعالى قد رفع بالإسلام الخسيسية وذم النقيصة ، وأذهب الملامة فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر مائم ، ألا وإن القرابة التي أمر الله بصلتها والمحافظة عليها وعظم حقها وجعل في كتابه عز وجل الأجر فيها قرابتنا أهل البيت الذين أوجب الله تعالى حقها على كل مسلم ، ثم قال : يا مروان ، قد قلت فسمعت ، أما قولك في المهر حكم أبيها بالغاً ما بلغ فلعمري لو أردنا ذلك ما رغبتنا عن سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا عدونا بناته ونساءه اثني عشر أوقية من الفضة تكون أربعمائة وثمانون درهماً ، وأما قولك قضاء دينه ، فمتى كان النساء يقضين عنا ديوننا ، وأما قولك واصلح بين هذين الحسين فإنما قوم لنا صلحكم في الدنيا ، ولعمري لقد أغنانا النسب فكيف الحسب ، وأما قولك العجب ليزيد كيف يستمهر فقد استمهر من هو خير من يزيد ومن أبي يزيد ومن جد يزيد ، وأما قولك كفؤ من لا كفؤ له فمن كان له كفؤ قبل اليوم فهو كفؤه اليوم ولم تزده إمارته في الكفوة شيئاً ، وأما قولك إن الذي يغبطنا به

أكثر مما يغبطه بنا وإنما يغبطنا به أهل الجهل ويغبطه بنا أهل الفضل ، ألا وإني قد زوجت هذه الجارية من هو أقرب إلينا نسباً وأوجب حقاً والطف سبباً وهو هذا الغلام القاسم بن محمد بن جعفر أخي أبيها ، واشهدوا جميعاً أنني قد أنحللتها ضيعتي البقية وأن غلتها ثمانون ألف دينار ، ولم أكن أعدل بهذه الجارية إلى غير كفؤها ولا أجعل في عرضنا مغمزاً لأحد من قريش أقول قولتي هذا وأستغفر الله لي ولكم . فتغير وجه مروان وأطال السكوت ، ثم قال : أغدرآ يا بني هاشم تأبون إلا العداوة ، فقال الحسين - رضي الله عنه - رويدآ أنتم أغدر وآلأم ، ثم قال : ناشدتكم الله أيها الملأ ، ثم أنت يا مسرور بن مخزومة ، ألستم تعلمون أن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - خطب عائشة بنت عثمان حتى إذا كنا بمثل هذا المشهد وقد جعل الأمر إليك فقلت : قد بدا لي أن أزوجه من عبد الله بن الزبير ، هل كان ذلك كذلك ؟ قال : اللهم نعم . قال الحسين بن علي - رضي الله عنهما - : فأبي مبتدأ الغدر ، ثم نهضوا وأقبل مروان على عبد الله بن جعفر فقال له : والله ما هذا جزاء أيادي أمير المؤمنين عندك ، فقال : قد أخبرتك حين لقيتني أني لا أقطع أمراً دونه .

١٠ - باب الرياء

اعلم أن الرياء محبط لجميع الأعمال وهو الشرك الأصغر .

قال الله تعالى : ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ { الكهف : ١١٠ } ، أراد به الإخلاص . وقال عز وجل : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين يراءون ويمنعون الماعون ﴾ { الماعون : ٤ - ٧ } ، وقال سبحانه : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾ { الإنسان : ٩ } .

١٩٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قيل : وما هو ؟ قال : « الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جاء العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون لهم فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء » (١) .

(١) حسن : أخرجه أحمد (٤٢٨/٥) ، والبيهقي في « الشهب » برقم (٤٨٣١) ، من حديث محمود بن لبيد - رضي الله عنه .

١٩٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يقال للقارئ والعالم والمنفق إذا قال فعلت كذا يقال له كنت أردت أن يقال فلان عالم أو شجاع أوجواد فيذهب به إلى النار » (١) .

١٩٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يقول : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً فأشرك فيه غيري فنصفي له ، فإني لا أقبل إلا ما كان لي خالصاً » (٢) .

١٩٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « استعيذوا بالله - عز وجل - من جب الحزن » قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « واد في جهنم أعد للقراء المرأين » (٣) .

١٩٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله تعالى : من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا بريء منه ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » (٤) .

١٩٧ - وروي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن المرأني يوم القيامة يُدعى بأربعة أسماء : يا كافر ، يا فاجر ، يا غادر ، يا خاسر ، ضل سعيك ، وبطل أجرك ، فلا خلاق لك ، التمس الأجر ممن كنت تعمل له يا مخادع » (٥) .

وروي أنه ينادى يوم القيامة : « أين الذين كانوا يعبدون الناس ، قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإني لا أقبل عملاً خالطه شيء ، فالفرح بمدح الناس له بالعبادة حرام ، فإن ذلك كأجر يأخذه على العبادة » .

(١) صحيح : وهو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) ، والنسائي (٢٣/٦) ، وابن حبان (٢٥٠٢ - موارد) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٦٨/٩) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) صحيح : أخرجه بنحوه ابن ماجه (٤٢٠٢) ، وأحمد (٣٠١/٢) ، وابن حبان (٣٩٥ - موارد) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٢١٣) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٣) ضعيف : أخرجه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه . وفي سننه محمد بن الفضل بن عطية ، مُجمع على ضعفه . والجب : البئر .

(٤) صحيح : وانظر الهامش (١٩٥) .

(٥) ضعيف : قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣/٢٩٤) :

« أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليعصبي ، عن صحابي لم يسم ، وإسناده ضعيف » . وانظر :

« إتحاف السادة المتقين » (٨/٢٦٤) .

١٩٨ - وروي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الجنة تكلمت وقالت : أنا حرام على بخيل ومرائي » (١) .

١٩٩ - وروي في الخبر : « أن الشهيد يؤمر به إلى النار يوم القيامة فيقول : يا رب استشهدت في سبيلك ، فيقول : أردت أن يقال إنه شجاع فقد قيل وذلك أجرك » وكذلك يقال للعالم ، والحاج ، والغازي ، والمصلي (٢) .

٢٠٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لأبي ذر : « جدد السفينة فإن البحر عميق ، وكثر الزاد فإن الطريق بعيد ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » (٣) .

٢٠١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنكم اليوم على دين ، وإنني مكاثركم الأمم ، فلا تمسوا القهقري بعدي » (٤) .

٢٠٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده عن الصلاة ، وينشط إذا كان في الناس ، ويحب الثناء في جميع أموره » (٥) .

وقال عيسى - عليه السلام - إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته وليمسح شفتيه لكي لا يرى أنه صائم ، فإذا أعطى يمينه فليخف عن شماله ، فإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

وقال قتادة : إذا رأت العبد يقول الله تعالى للفقراء يوم القيامة : ألم يكن يرخص عليكم في السراء ولم تكونوا تبدأوا بالسلام ، أولم تكونوا تقضى لكم الحوائج لا أجر لكم فقد استوفيتم أجوركم . وقال الفضيل - رحمه الله - الرياء ترك العمل خوفاً من الرياء ، وأما العمل لأجل الناس فهو شرك . وأنشدوا :

(١) لم أهد إلى من خرجه ، والله أعلم .

(٢) انظر هامش (١٩٤) .

(٣) لم أقف على من رواه ، والله أعلم .

(٤) ضعيف : أخرجه أحمد (٣/٣٥٤) ، وأبو يعلى (٢١٣٣م) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٤٣٧) - مجمع

البحرين) من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما .

قلت : وسنده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد .

(٥) لم أهد إلى من أخرجه ، والله أعلم عند ربي .

يا أخي يا أخي كم تخشون اثنان في القلب لا يكون
 في كل يوم أراك رهناً أمنت أن تغلق الرهون
 إن لم تشارك في مولاك إذا لقرت بك العيون

وقال أحد الحكماء : من استحيا من الناس ولم يستح من نفسه فلا قدر لنفسه عنده ولا قيمة . وقيل لأحد الحكماء : ما المروءة ؟ فقال : ألا تستعمل شيئاً في السر تستحي منه في العلانية .

وذكر عن الحسن - رضي الله عنه أنه قال : كان رجل يقول : والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها ، فكان أول داخل المسجد وآخر خارج منه ، لا يراه أحد إلا قائماً يصلي ، وصائماً لا يفطر ، وجالساً إلى حلق الذكر ، فلبث كذلك سبعة أشهر ، فكان لا يمر بقوم إلا قالوا : فعل الله بهذا المرآئي وصنع ، فأقبل على نفسه باللوم وقال : أراني في غير شيء لأجعلن عملي كله لله ، فلم يزد على عمله الذي كان يعمل قبل ذلك إلا أنه تغير بنيته إلى الخير ، فكان بعد ذلك يمر بالناس فيقولون : رحم الله فلاناً ، الآن قد أقبل على الله . ثم قرأ الحسن : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ { مريم : ٩٦ } ، قال : يحبهم ويحبهم إلى العبادة .

٢٠٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أسر سريرة ألبسه الله رداءها ، إن كان خيراً فخير ، أو كان شراً فشرّاً » ^(١) . وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ { محمد : ٢٩ } .

وأما ترك الطاعة خوفاً من الرياء فلا وجه له . قال القائل :

مواظظ الواعظظ لن تُقبلا **ح**ل يعبها قلبه أولاً
 يا قـوم من أظلم واعظظ خالف ما قد قاله في الملا
 أظهر للعالم إحسانه وخالف الرحمن لما خلا

(١) موضوع : أخرجه الطبراني في « الكبير » (ج ٢ برقم ١٧٠٢) ، وعنه الشجري في « أماليه » (٢٢٣/٢) ، من طريق حامد بن آدم المروزي ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن محمد بن عبيد الله العرزمي ، عن سلمة بن كهيل ، عن جندب بن سفيان - رضي الله عنه - مرفوعاً به . وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢٢٥/١٠) : « فيه حامد بن آدم ، وهو كذاب » . قلت : ومحمد العرزمي ، متروك الحديث .

وذكر أن إبراهيم الخواص كان إذا أراد سفرًا لا يشاور أحدًا ، وكان يأخذ ركوته
 ويخرج ، فخرج ذات يوم وكان له تلميذ يقال له : حامد الأسود ، فأخذ ركوته وخرج
 خلفه ، فقال له : يا حامد ، إلى أين تريد ؟ قال : يا أستاذ خرجت بخروجك ، فقال
 له إبراهيم : فإني أريد مكة - حرسها الله - قال حامد : وأنا معك - إن شاء الله - قال :
 فسارا إلى أن خرجنا جميعًا من القادسية ، فنظر إبراهيم إلى شخص يلوح في البرية ،
 فقال إبراهيم لحامد : ادع بهذا الشخص إلينا يكن ثالثنا ، فإن كان جائعًا أطعمناه ، وإن
 كان عاطشًا سقينا ، فدعاه حامد ، فلم يزل يسير معهم ثلاثة أيام لا يريانه يصلي ليلاً
 ولا نهارًا ، فقال له إبراهيم : لم لا تصلي يا غلام ؟ فقال الغلام : ليس علي صلاة
 عليكم تجب . قال الشيخ : ولم ؟ قال : لأنني نصراني واسمي عبد المسيح . فقال
 إبراهيم : هذا عجب ، وإيش يعمل في طريق مكة ، فقال : هو نصراني وذهب في
 النصرانية إلى التوكل ، وأردت أن أجرب نفسي هل تطاوعني إن انفردت عن الناس أم
 لا ، فخرجت على أني ألتزم بما لمعبودي علي من التوكل عليه والإخلاص وأدع ما لي
 عليه حتى يتولاني هو فيه كيفما شاء ، فادعت نفسي أنها قد أحكمت هذا كله وأنا في
 بغداد والعمران ، فخرجت إلى هذه الفلاة التي ليس فيها مرجو غير المعبود ، أثير
 ساكني وأجرب نفسي ، هل أنا صادق فيما أدعيه أو كاذب . فعجب إبراهيم من كلامه ،
 وقال : يا حامد ، دعه معنا إلى أن بلغوا بطن مر ، قال إبراهيم : يا غلام إن الذي
 أردت أن تستكشف من أمر نفسك قد بان لك ، هذا الحرم وقد حرم عليك الدخول إليه
 وتلا عليه : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ [التوبة : ٢٨] ، فقال
 الغلام : سيروا في ودائع الله وعدل عن الطريق ، واستقام إبراهيم وحامد على
 طريقهما ، قال حامد : فنحن تعود بمنى فإذا عبد المسيح قد أقبل في ثوبي بياض ،
 فانكب على رأس إبراهيم قبله ، فقال إبراهيم : ما وراءك يا عبد المسيح ؟ قال :
 هيهات يا أستاذ أنا اليوم عبد من المسيح عبده ، فاعلم أنني غيرت زبي ولباسي ودخلت
 إلى مكة - حرسها الله - منكشفًا فلما وقعت نفسي على هذا البيت بطل كل دين غير
 دين الإسلام ، فأسلمت وها أنا ذا قد جئتك ، فقال إبراهيم : نعم يا حبيبي ،
 إخلاصك وصدقك في النصرانية أداك إلى الحنيفية ، قال : فبقي معي إلى أن مات -
 رحمه الله - . وأنشدوا :

تواري بالجدار عن المعاصي وعين الله خالقها تراه
وفكر في العباد فخاف منهم ولم يخش الإله ولا اتقاه

قال أبو عامر - واعظ أهل الحجاز - خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فبينما أنا أسير في ليلة ذات رياح عاصفة وريعود وبروق هائلة وقد هممت أن آوي إلى جبل أستكن فيه وأنام إلى الصباح ، إذ سمعت صوتاً حزيناً يخرج من قلب قريح وهو يقول : يا دليل الحائرين في طرق الفلوات ، ومؤنس كل متوجه إليك في الخلوات ، حيثما توجهت فإليك قصدي ، وأينما سلكت فأنت أمامي ، أنت أنسي إذا استأنس البطالون بغيرك ، وأنت فخري إذا افتخر الجاهلون بسواك ، قال أبو عامر : فأسرعت نحوه ، فإذا برجل عليه أطمار ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ، وآسنني بطيب الكلام ، وقال : أيدنا الله وإياك بمعونته وأعاننا وإياك على طاعته ، ولا قطع بنا عن خدمته من أين أقبل هذا الرجل في سواد هذا الليل وإلى أين تريد ؟ قلت : رجل ضال عن الطريق وقد سمعت كلاماً أثار بقلبي أحزانه ، فأهاج به أشجاناه ، فلا عليك أن تعيده لأستشفى به من دائي ، وأصلح ما فسد من دوائي ، فصاح صيحة ظننت أن صدره قد انقطع وقلبه قد انخلع ، ثم قال : ويحك ، إذا كان الطيب ينفع دواؤه وبه داءٌ قد نغل جرحه ودام قرحه وهو لا ينفع نفسه فكيف يرجى نفعه ويؤمن نصحه ، ثم أخذ في البكاء والشهيق حتى خفت على نفسه التلف ، فقلت له : فكم ذا البكاء الذي لا فرح معه ؟ وكم ذا القنوط الذي لا رجي معه ؟ قال : إني أكره الاشتغال بالأماني ، ثم سار فاتبعته حتى أشرفنا على واد لا يستطيع لسعته وعمق غدره ، فجعل يشرف على شفيره ويكي ، فلما طال ذلك عليّ قلت : رحمك الله ، إننا على غير الجادة فاشتد بكأؤه وصياحه وقال : ويحك ، وأين الجادة وكيف لي ولك بأصحاب اليمين ، إن أصحاب اليمين في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إننا أنشأناهن إنشأءً فجعلناهن أبقاراً عربياً أتراباً لأصحاب اليمين ، ثم ضرب بيده على يدي وتخطى ، فإذا نحن بجانب الوادي من الضفة الأخرى ، ثم سار واتبعته لا أسمع إلا بكاءه وصياحه حتى قلت : هذا الفجر قد طلع ، فمال إلى ناحية من الأرض فإذا بعين تجري عذباً زلالاً ، ثم قال : دونك يا عبد الله فتوضأ وتوضأت معه ، واضطجع على

شقه الأيمن واضطجعت إلى جانبه يسيراً ، ثم أذن وأقام الصلاة فصليت معه ، فلما سلم قال : يا عبد الله ذنت مفارقتك إليّ فعليك السلام ، قلت : بالذي أباحك الربوع في رياض الإقبال ألا ما جدت عليّ بالمسامحة ومننت عليّ بالمعالجة ، ثم أومأت إلى مزود لاحله ، قال : أوجائع ؟ قلت : نعم . قال : أشغلتك عن التفكير في الملكوت بالأكل ، لو أنك ذقت طعم اليقين وعرفت ما أعد الله تعالى لأوليائه المتقين لان خشوعك وجرت دموعك ، ولاشئت عن المطاعم جوعك ، ثم ضرب بيده الأرض فإذا بقرص كأنما أخرجت من نارها ، فقال : دونك يا بطل واعلم أن الله عبادة صدقوه المحبة فقبلهم ، وتقربوا إليه بالأعمال الزكية فقربهم ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ، قال أبو عامر : فما أكلت ألد من تلك القرص ، ولقد عصمتي أياماً وظهرت بركتها في نفسي ، قلت : رحمك الله إننا على غير الجادة وقد فاتتني الرفقة ، فقال : غمض عينيك ، ففعلت ، فلم أفتحها إلا وأنا أسمع رُغاء الإبل ، ثم فقدته فلم أراه ، فقدمت مكة وحججت وجاورت سنة ، ثم انصرفت إلى مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فبينما أنا خارج من مسجده - صلى الله عليه وسلم - إذ لقيني علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - فسلم عليّ وتبسم في وجهي ، وقال : يا أبا عامر أتذكر رفيقك صاحب القرص ليلتك فذكر والله ما لم أنسه ، فقبلت يده وأقبلت أبكي ، فقلت له : سألتك بالله وبحق جدك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنت كنت هو ؟ قال : نعم ، فلا تذكر ما كان إلى أن أموت ، فإذا مت فدونك ، قال أبو عامر : فما حدثت بذلك حتى قبضه الله تعالى إليه رحمة الله عليه .

وأنشدوا في المعنى :

وذو حرق راحاته زفراته	إذا ما سطت في قلبه خطرته
له في دجى الإظلام خلوة مخلص	تذكره فيها لظى وهناته
فيدفعه ذكر الوعيد إلى الأسي	وتهمل من لوعاته عبراته
إذا ما تلى التنزيل وانكشفت له	عجائبه زادت له عزماته
وإن لحظت عين اليقين حاله	سقت جوفه من مائها عبراته
بتفسي ولي أنسه بمليكه	وفي ذكره إصباحه وبياته

فإياك أن تترك من العمل الذي نويت أن تعمله شيئاً لأجل الناس ، ولا تزيد فيه لأجل الناس ، وعد نفسك كراعي غنم أو إبل ، تفعل أمامهم ما تريد ولا تبالي بهم ، واقصد في أعمالك كلها وجه الله تعالى ، واحمل نفسك في جميع أمورك على أوسط الأمور وهو الصراط المستقيم وفيه النجاة .

٢٠٤ - ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « خير الأمور أوسطها » (١) .

فاحمل نفسك عليها في مأكلك ، ومشربك ، ولباسك ، ومشيك ، وكلامك ، ومناظرتك ، وعودك بين إخوانك ولا تلبس الأمتار لتمتاز بها عن الغافلين من الفجار ، وليشار إليك بالأصابع ، وتورى السكينة في مشيك وأنت تقصد ما يشقك ، فتكون ملكاً في ظاهره شيطاناً في باطنك ، صديقاً في علانيتك لصاً في سريرتك ، شاة في ظاهره ذئباً في باطنك ، إن وَعَظْتَ عَنَت ، وإن وَعَظْتَ أَنْتِ تَطَاطَى رَأْسَكَ مع الجلاس ، وتعرج عنقك إلى من يكلمك من الناس ، تبهرج بالفتاح وأنت في السر تقطع النياط وتتلغ الأرواح ، فتسلك في الظاهر خير المسالك ، وفي الباطن لا يصطلي بنارك ، لا يأمنك على ذرة جارك ، فانت كما قال القائل :

لا يغررنك تعويج العنق ولباس الصوف والشوب الخلق
وخشوع المرء في ظاهره وهو في الخلوة تنين حنق
يلع الفيل مصراً فإذا بلع الذرة في الجهر اختنق

فاجعل جميع من يراك كأنهم موتى لا يضررك ولا ينفعوك ، ولا تفرق في جميع عباداتك بين وجودهم وعدمهم ، وعلمهم بها وغفلتهم عنها ، واقنع في ذلك بعلم الله تعالى وحده ، واطلب الأجر منه فإنه لا يقبل إلا الإخلاص ، وقدر أيضاً أن ذمهم لا يضررك إذا كنت محموداً عند الله تعالى ، فلا تتعرض لمقت الله وذمه خوفاً من ذم الخلق ، وقدر أن الناس لو علموا ما في باطنك من الرياء لمقتوك ، ويأبى الله إلا أن يكشف سررك حتى يعلم نفاقك فيمقتك الناس بعد أن يمقتك الله عز وجل .

(١) ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٠/١) عن مطرف بن عبد الله معضلاً . والمعضل من أقسام الحديث الضعيف . وأخرجه في « السنن الكبرى » (٢٧٣/٣) عن عمرو بن الحارث بلاغاً ، والبلاغات أيضاً من أقسام الحديث الضعيف .

أرى الناس لن يغنوا عن الله ذي العلى فعول عليه في الأمور وسلم
وعدهم موتى ولا تعبان بهم وكبر عليهم أربعمائة وسلم

فلا تطلب رضا الناس بسخط الله تعالى فيسخط الله عليك ويسخط عليك الناس

كما قيل :

٢٠٥ - إن معاوية - رحمه الله - كتب إلى عائشة - رضي الله عنها - أن أوصيني وأقلمي ،
فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، أما بعد إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - يقول : « من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ،
ومن طلب رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وكفاه مؤنة الناس » (١) .

جعلنا الله وإياكم ممن أخلص لله ، ولم يرد لعمله في السر والعلانية إلا الله ،
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

١١ - باب الغضب

اعلم وفقنا الله وإياك أن الغضب سبب مفارقة العقل ، ويعمي عن الحق ،
ويحمل على الظلم والجور ، والبغي والفساد ، والكذب والبهتان ، والبطش وإتلاف
النفوس ، لا سيما من ذي القدرة ، وهو ضد الحلم الذي موضعه في الدين عظيم ،
وهو أصل لجميع الفضائل ، والغضب شعلة من نار ، ومن غلب عليه فقد نزع إلى
عرق الشيطان لأنه مخلوق من نار فكسر حدته من المهمات .

قال الله تعالى : ﴿ والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾
{ آل عمران : ١٣٤ } .

٢٠٦ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ليس الشديد بالصرعة إنما
الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (٢) .

(١) صحيح : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٨٨/٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » برقم (٤٩٩) من
حديث عائشة - رضي الله عنها .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) ، وابن حبان (٧١٥ - إحصان) ، وغيرهم من
حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

- ٢٠٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « ما غضب أحد قط إلا أشفى على جهنم »^(١) .
- ٢٠٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل »^(٢) .
- ٢٠٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لرجل سأله أي شيء أشد ؟ قال : « غضب الله تعالى » . قال الرجل : ما يعينني من غضب الله ؟ قال : « لا تغضب »^(٣) .
- ٢١٠ - وقال رجل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مرني بعمل وأقلل ؟ فقال : « لا تغضب » . فأعاد عليه القول مراراً وهو يقول : « لا تغضب »^(٤) .
- ٢١١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الشيطان خلق من النار ، وإنما يطفى النار الماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »^(٥) .
- ٢١٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كظم غيظاً لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله تعالى قلبه يوم القيامة أمناً وإيماناً »^(٦) .

-
- (١) ضعيف : قال العراقي في « تخريج الإحياء » (١٦٥/٣) : « أخرجه البزار ، وابن عدي ، من حديث ابن عباس « للنار باب لا يدخله إلا من شفى غيظه بمصية الله » ، وإسناده ضعيف » أ هـ قلت : هو في « مسند البزار » برقم (٢٠٥٥ ، ٣٠٥٥ - كشف) ، وفيه : إسماعيل بن شيبه الطائفي ، ضعيف » . وأيضاً : ابن جريج مدلس وقد عنعنه . وانظر : مجمع الزوائد للهيتمي (٧١/٨) .
- (٢) ضعيف : أخرجه الطبراني في « الكبير » (ج ١٩ برقم ١٠٠٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » برقم (٨٢٩٤) . وفي سننه مخيس بن تميم ، مجهول .
- انظر : « مجمع الزوائد » (٢١٤/١٠) . وضعفه العراقي في « تخريج الإحياء » (١٦٥/٣) .
- (٣) صحيح : أخرجه أحمد (١٧٥/٢) ، وابن حبان (٢٥٣/١) ، من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه .
- (٤) صحيح : أخرجه أحمد (٤٨٤/٣) ، وابن حبان (٤٧٩/٧) ، والطبراني في « كبيره » برقم (٢٠٩٣) - (٢١٠٧) ، والخراطي في « مساوي الأخلاق » برقم (٣٢٣) ، من حديث جارية بن قدامة - رضي الله عنه
- (٥) ضعيف : أخرجه أحمد (٢٢٦/٤) ، والبخاري في « تاريخه الكبير » (٨/١/٤) ، وأبو داود برقم (٤٧٨٤) ، وغيرهم من حديث عطية السعدي - رضي الله عنه - .
- (٦) ضعيف جداً : أخرجه الخراطي في « مساوي الأخلاق » برقم (٣٣٨) ، من حديث عبد الجليل الفلسطيني عن عمه مرفوعاً . وفيه داود بن قيس متهم ، وعبد الجليل ، قال البخاري : لا يتابع عليه . انظر : « الميزان » (٥٣٥/٢) .

٢١٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله تعالى قلبه أمناً وإيماناً »^(١) . قال الله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ { الشورى : ٣٧ }
 ٢١٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض »^(٢) .

٢١٥ - وإذا غضب أحد فليقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن سكن وإلا فليجلس إن كان قائماً ، أو يضطجع إن كان قاعداً . كذلك ورد في الخبر^(٣) .
 وإذا غضبت المرأة وجعلت عليه فليضرب بكفه بين كتفيها ويقول : اخرج أيها الرجس الخبيث من جسد طيب فيخرج بإذن الله .

٢١٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً عند الله تعالى من جرعة غيظ كظمها »^(٤) .

٢١٧ - وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من اتقى الله تعالى كل لسانه ولم يشف غيظه »^(٥) .

وحكي أن غلاماً لجعفر بن محمد الصادق - رحمه الله - سكب على يده الماء فسقط الإناء من يده في الطست ، فطار الماء على ثوبه ، فنظر إليه نظرة منكرة ، فقال العبد : يا مولاي : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال : قد كظمت غيظي . قال الغلام :

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - .

وقال المنذري في « الترغيب والترهيب » (٤٤٣/٣) : « ورواه محتج بهم في الصحيح » أهـ .

(٢) حسن : أخرجه أحمد (١٩/٣ ، ٦١) ، والترمذي (٢٢٨٦) ، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه .

(٣) انظر : صحيح البخاري (٦٠٤٨) ، ومسلم (٢٦١٠) وسنن أبي داود (٤٧٨٢) ، وصحيح ابن حبان (٥٦٥٩) .

(٤) سبق تخريجه برقم (٢١٣) .

(٥) ضعيف : قال الحافظ العراقي في « تخريج الإحياء » (١٤٩/٣) : « أخرجه أبو منصور الديلمي في « مسند

الفردوس » من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف » أهـ .

﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوت عنك قال الغلام : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾
{ آل عمران : ١٣٤ } قال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ولك من مالي ألف دينار

وذكر أن إنساناً أذنب ذنباً موجباً للعقوبة ، فأوتي به إلى هارون الرشيد ، فأمر بقتله ، فقال له الرجل : سألتك بالله العظيم ألا ما تركتني لوجه الله فتركه ، فأذنب ثانياً أعظم من الأول فأوتي به فأمر بقتله ، فقال له : سألتك بقرابتك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا أقلت عثرتي ، فقال : دعوه لشفيعه . ثم إن الرجل أذنب أعظم من الإثنين ، فأوتي به فقال هارون : يا حرس اضرب عنقه ، فعصب ليقتل فقال : يا أمير المؤمنين حضرتي بيتين أحب أن أسمعك إياهما ، فإن عفوت فكرم منك وإن انتقم فبجرمي ، قال : فأشدني ، فقال : نعم ، ثم أنشد :

شفيعي إقرارى بأني مذنب فعد بي إلى حال الرضا ودع السخطا
فكن واهبي جرمي وذنبي تكرماً فمثلك من يعضو ومثلي من يخطى

فقال هارون : لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقربوا إليها بالذنوب ، خلوا سبيله فتركوه ، فقال الرجل : هذا قولك في العفو فكيف قول الخالق سبحانه ، قال الله تعالى : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ { التغابن : ١٤ } وقال سبحانه : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ { الشورى : ٤٠ } وقال عز وجل : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ { الشورى : ٤٣ } وقال أحد الحكماء : إن من أكد أسباب الحلم رحمة للجهال . وقال أيضاً :
الغضب يصدئ العقل حتى لا يرى صاحبه حسناً فيفعله ، ولا قبيحاً فيجتنبه .

وقال الأصمعي - رحمه الله - : قلت لولاية المهديمة - وكانت من أعقل الناس في زمانها - إنني أريد الحج فأوصني ، قالت : لا يغلبن غضبك حلمك ، ولا هواك عقلك ، ووقّ دينك بدنياك ، وعرضك بمالك ، وتفضل تخدم ، واحلم تقدم ، واستعن على أمورك بجار نصيح ، نشيط أمين ، واستشر مجرباً كبيراً ، وأديباً صغيراً ، فإنهما يتكافئان ، واجمعهما إن أمكنتك ، قلت : فمن أصحاب ؟ قالت : صديقاً مسلماً ، أو عدواً متكرماً . قلت : وكيف لي بصحبة العدو ؟ قالت : إن العدو الكريم أنفع صحبة من الصديق اللئيم ، إن الكريم أدنى جميل منك إليه يشنيه ، واللئيم لا ينفعه كثير ما توليه .

وقال أحد الحكماء : من لم يملك عقله لم يملك غضبه .

وقال آخر : ثلاثة لا يعرفن إلا في ثلاثة مواضع : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك إلا عند حاجتك إليه .

وقال لقمان - رحمه الله - لابنه : كذب من قال البشر بالشر يدفع ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ولنظر هلي تطفئ إحداهما الأخرى ، وإنما يُطفأ الشر بالخير كما تُطفأ النار بالماء .

عصمنا الله وإياكم من ذلك بمنه وفضله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

١٢ - باب الظلم

اعلم وفقك الله أن الظلم من المهلكات في الدين ، وقد أعظم الله - عز وجل - أمره ونسب أكبر الكبائر إليه ، فقال : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ { لقمان : ١٣ } ووعد الظالمين على الظلم أشد العذاب في قوله سبحانه : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ { الحشر : ١٧ } ، وقال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ { إبراهيم : ٤٢ } ، وقال عز وجل : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ { الشورى : ٣٩ } ، وقال تعالى : ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ { الشورى : ٤٥ } ، وقال سبحانه : ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ { الزمر : ٢٤ } ، وقال تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ { النمل : ٥٢ } ، وقال سبحانه : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة

وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴿ الزمر : ٤٧ ﴾ .

٢١٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يملئ للظالم - أي يتركه - فإذا أخذه لم يفلته »^(١) . ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ { هود : ١٠٢ } .

الا وإن السماء لتبكي من رجل أصح الله جسمه وأرحب جوفه وأعطاه من الدنيا نصيباً فكان للناس ظلماً . وأنشدوا :

يا من يبیت علی اللذات معتكفاً	هل أنت عن طاعة اللذات مزدجر
وعامر لمحل سوف تشهده	يوماً تكون فيه الشمس والقمر
لا تحقرن يسير الخير تفعله	فرب نفع بشيء وهو محتقر
وجانب الظلم لا تسلك طريقته	ولا يكن لك في أصحابه أثر
فكل نفس ستجزى بالذي عملت	وليس للخلق من أعمالهم وزر

٢١٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يحشر الله تعالى الناس - وأوماً بيده إلى الشام - عراة ، غرلاً ، بهماً فيناديهم بكلام يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، أنا الملك الديان ، لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول الله الواحد القهار : لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة » . قلنا : يا رسول الله ، كيف وأئماً نأتي حفاة عراة ؟ قال : « الحسنات والسيئات »^(٢) .

٢٢٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا كان يوم القيامة يجيء الطالب والمطلوب حتى يقفا بين يدي الله تعالى فيقول المظلوم : يا رب خذ لي بحقي من هذا ، فيقول الله

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) ، والترمذي (٣١١٠) ، من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٩٧٠) ، وأحمد (٤٩٥/٣) ، والحاكم (٤٣٧/٢ - ٤٣٨) ، والخرائطي في « مسأوى الأخلاق » (٦٣٤) ، من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنهما - مرفوعاً به .

تعالى له : أعطه حقه ، فيقول : يا رب قد ذهبت الدنيا فلا حمراء ولا بيضاء ، فيقول الله - جل ثناؤه - : ولو قدرت على ماله أكنت تعطيه إياه ؟ فيقول : نعم يا رب . فيقول الله تعالى : انطلقوا معه فأروه مال صاحبه ، فيدخل به إلى شفير جهنم ، فيمثل له المال ، ثم يقال له : انطلق فأحمله فرده على صاحبه ، فيدخل جهنم فيحمله فيرتفع حتى يظن أنه قد خرج فتزل قدماه فيهوي في جهنم فتلك حاله حتى يقضي الله تعالى بين العباد ، ثم يدخل في مشيئة الله تعالى « (١) .

٢٢١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنني أسمع القواصف - أو العواصف - من الرعد فأخشى أن تكون الحجارة التي أعدت للظالمين » (٢)

٢٢٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أحسن يتظر الثواب ومن أساء فلا ينكر العقوبة ، ومن اعتز بغير حق أذله الله تعالى بحق ، ومن ظلم ليستغني أفقره الله » (٣) .

٢٢٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « علامات الظالم يقهر من دونه بالغلبة ، ومن فوقه بالمعصية ، ويضاهي الظلمة » (٤) .

٢٢٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من مشى إلى ظالم وهو يعلم أنه ظالم ليعينه فقد خرج من الإسلام » (٥) .

(١) لم أقف على من خرجه ، والله أعلم .

(٢) لم أقف عليه ، والذي وقفت عليه ، ما رويناه في « صحيح مسلم » (٨٩٩) ، و « مسند أحمد » (٦٦/٦) وغيرهما ، من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت :

« كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كان يوم الريح والغيم ، عُرف ذلك في وجهه ، وأقبل وأدبر فإذا مطرت سُرُّ به ، وذهب عنه ذلك » ، قالت عائشة : فسألته ، فقال : « إنني خشيت أن يكون عذاباً سلطَ على أمي » اللفظ لمسلم .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) لم أهد إلى من رواه ، والله أعلم .

(٥) ضعيف جداً : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢٧/١) ، (٦١٩) من حديث أوس بن شرحبيل .

وفي سننه إسحاق بن إبراهيم بن زريق ، ضعيف جداً ، وابنه عمرو ، لم أعرفه ، وكذا عياش بن مؤنس وشيخه أبو الحسن عمران بن مخمر ، لم أهد إليهما .

٢٢٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يبعثكم يوم القيامة ثم ينادي : وعزتي وجلالي لأقتصن للمظلوم من الظالم ولو لظمة كف على كف ، أو ضربة يد على يد ، ولأقتصن للجماة من القرناء ، ولأسألن العود لم خدش العود ، ولأسألن الحجر لم نكت صاحبه ، وبذلك أرسلت رسلي وأنزلت كتبي وقلت : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ { الانبياء : ٤٧ } » (١) .

٢٢٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « عن جبريل - عليه السلام - عن الله - عز وجل - أنه قال : يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٢) .

٢٢٧ - وفي الخبر : إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أنا ظالم إن جاوزني اليوم ظلم ظالم (٣) .

٢٢٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله تعالى في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر على مسلم ستره الله يوم القيامة » (٤) .

٢٢٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : يا رسول الله ، المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم . قال : « بل المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاته وصومه وحجه وحسناته فيكون قد ظلم هذا ، وشم هذا ، وضرب هذا ،

(١) لم آف عليه ، والعلم عند ربي .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٥) ، وابن ماجه (٤٢٥٧) ، والخرائطي في « مساوي الأخلاق » (٦٣٧) ، و أحمد (١٥٤/٥) ، والأصبهاني قوام السنة في « الترغيب والترهيب » (٢١٠٤) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٢٦٣/١) ، من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - مرفوعاً به .

(٣) لم آف عليه .

(٤) صحيح : أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ، والترمذي (٢٩٤٥) ، وابن ماجه (٢٢٥) ، والخطيب في « التاريخ » (١١٤/١٢) ، والبغوي في « شرح السنة » (٢٧٢/١ - ٢٧٣) ، والشجري في « أماليه » (٢/٢١٥) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

وأكل عرض هذا ، فيقتص منه ، ويبقى طالبون كثير وتنفد حسناته ، فيؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه ويصار به إلى النار « (١) .

٢٣٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الظلم ظلمات يوم القيامة » (٢) .

٢٣١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (٣) .

٢٣٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أحب لقاء ظالم فقد أحب أن يعصي الله تعالى » (٤) .

وسئل الأحنف - رحمه الله - فقيل له : من أجهل الناس ؟ قال : الذي باع آخرته بدنياه . وقال عمر - رضي الله عنه - : أنا أنبتكم بأجهل من هذا ، قالوا : بلى ، قال : الذي يبيع آخرته بدنياه غيره .

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : من أعان ظالمًا على مظلمة أو لقنه حجة يدحض بها حق امرئ مسلم فقد باء بغضب من الله وعليه وزرها .

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٥٨١) ، والترمذي (٢٤١٨) ، وأحمد (٣٠٣/٢) ، (٣٣٤ ، ٣٧٢) ، والخرائطي في « مساوي الأخلاق » (٤٠) ، والبيهقي (٩٣/٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٣/٤) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٢٤٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٩) ، والترمذي (٢٠٣٠) .

(٣) صحيح : ورد عن جماعة من الصحابة منهم :

١ - عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - مرفوعًا به :

أخرجه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) ، والترمذي (١٠٦٦) ، (٢٣٠٩) ، والنسائي (١٠/٤) ، وأحمد (٣١٦/٥) ، (٣٢١) ، والطيالسي (٥٧٤) ، والدارمي (٢٢٠/٢) ، وابن حبان (٣٠٠٩) - إحصان) ، والخطيب (٢٧٢/٦) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٥٠٠) .

٢ - عائشة - رضي الله عنها - مرفوعًا به :

أخرجه البخاري (٦٥٠٧ - معلقًا) ، ووصله مسلم (٢٦٨٤) ، والترمذي (١٠٦٧) ، والنسائي (١٠/٤) ، وابن ماجه (٤٢٦٤) ، وغيرهم .

٣ - أبو هريرة - رضي الله عنه - مرفوعًا به :

أخرجه مالك (٢٤٠/١) ، والبخاري (٧٥٠٤) ، ومسلم (٢٦٨٥) ، والنسائي (٩/٤) ، (١٠) ، وأحمد (٣٤٦/٢) ، (٤١٨) ، وابن حبان (٣٠٠٨) ، وغيرهم .

(٤) لم أعتد إليه ، والله أعلم .

وسئل أبو القاسم الحكيم - رحمه الله - هل من ذنب يتزع الإيمان من العبد ؟
قال : نعم ، ثلاثة أشياء : أولها ترك الشكر على الإسلام ، والثاني ترك الخوف على
ذهاب الإسلام ، والثالث الظلم على أهل الإسلام . وأنشدوا :

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم
لا شك دعوة مظلوم يحل بها دار الهوان ودار الذل والنقم

وقال سفيان الثوري - رحمه الله - : لان تلقى الله بسبعين ذنباً بينك وبينه أهون
عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين الناس .

وفي الخبر : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : قل للظلمة لا يذكروني
فإن ذكرني عليهم وبال . قال موسى : يا رب ومن الظلمة ؟ قال : الذين يظلمون
الناس في أموالهم . يا موسى بنفسى حلفت أن أبواب السماوات مغلقة دون من أكل
الحرام ، وإنني لأمر ملائكتي يبادرون في حوائجهم إذا غضبت عليهم . قال موسى :
يا رب ، كيف تعطيه وهو مجرم ؟ قال تعالى : أبغض دعوته فأسرع في حوائجهم كي
لا يدعوني .

أقصر عن الظلم فيما أنت تفعله وأخشى بوائقه في الموقف الشرس
لا تأمن الموت في طرف وفي نفس إذا تسربلت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منها ومترس
ركوبك النعش ينسيك الركوب إلى ما كنت تركب من بغل ومن فرس
ترجوا النجاة ولم تسلك طريقها إن السفينة لا تجري على يبس
وذكر أن داود - عليه السلام - رأى سجلاً يهوي بين السماء والأرض ، فقال :
يا رب ما هذا ؟ قال : هذه لعنتي أدخلها بيت كل ظالم .

وفي المناجاة : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : يا موسى أتعب أن
أخلصك وأنجيك من أهوال القيامة ؟ قال : نعم . قال : تخلص من مظالم الناس .

وقال زيد بن سخبيرة : إن في جهنم مواضع كساحل البحر فيها حيات كالبيخاتي
وعقارب كالبعال الدهم ، فلما استغاث أهل جهنم أن يخفف عنهم قيل لهم : اخرجوا
إلى ساحل البحر ، فيخرجون فتأخذ الحيات شفاهم ووجوههم ، فتكشط وجوههم ،

فيستغيثون منها فراراً إلى النار ، فيسلط عليهم الجرب فيحك أحدهم جلده حتى يبدو مثل العظم ، فيقال له : يا فلان ، هل يؤذيك ذلك بما كنت تؤذي المسلمين في الدنيا وتسارع إلى ظلم العباد ، وهو معنى قوله عز وجل : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ { النحل : ٨٨ } . وأنشدوا :

كأنني بنفسي في القيامة واقف وقد فاض دمعي حين أعطى كتابيا
 فيا سواتنا من موقف بفضيحة محبرة تحصى عليّ الدواجيا
 لعلمي بأعمالي وسوء مناقبي وأن كتابي سوف يبدي المساويا
 بذكرني ظلمي وما قد عملته وقد كنت عنه غافل القلب ساهيا

وكتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من مظالم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك . واعلم أن الله سبحانه أخذ للمظلومين من الظالمين ، والسلام .

وقال أحد الحكماء : لا تكره سخط من يرضيه الباطل .

وذكر أنه وجد لكسرى عند موته منطقة ، فأوتي بها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فوجد فيها مكتوباً أربع كلمات ، وهي : الظلم لا يدوم وإن دام دمر ، الفقر الموت الآخر ، الأعمى ، ميت وإن لم يقبر ، من لم يخلف ولداً ذكراً لم يُذكر .

وحكي أن رجلين تحاكما عند قاضي فلسطين ، فتكلم أصغرهما سناً ، فقال له القاضي : لو تركت هذا يتكلم فهو أقدم منك سناً ، فقال الفتى للقاضي : يرحمك الله ، الحق أقدم منك ومنه ومني ، قال له القاضي : والله لأظنك عراقي ، قال الفتى : والله إني لعراقي في الحق ، قال له القاضي : اسكت فهو خير لك ، فقال الفتى : إن سكت من يعلم ما في نفسي فيتكلم عني ، قال القاضي : هممت والله أن أمر بخروجك من مسجدي هذا ، فقال الفتى : الحمد لله رب العالمين ، بُعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو الناس إلى المسجد وأنت تخرجهم منه ، قال له القاضي : فيسألك حقاً ؟ قال : نعم ، قال : فما منعك أن تقضيه إياه ؟ قال : حاكمته إلى من هو أعدل منك ففضى لي عليه ، قال له القاضي : إلى من حاكمته ؟ قال : إلى قول

الله - عز وجل - ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ { البقرة : ٢٨٠ } ، قال :
فخلى سبيله ولم يحكم عليه .

وحكي أن عبد الملك بن مروان خطب يوماً بالكوفة ، فقام إليه رجل من
آل سرحان فقال : مهلاً مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإنكم تأمرون ولا تأمرون ، وتتهون ولا
تتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، فنقدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بالاستكم ،
فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحننا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ، وإن قلتم خذوا
الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا العظة عن سمعتموها فعلام قلدناكم أزمة أمورنا ،
وحكمناكم في دماننا وأموالنا ، أوما تعلمون أن فينا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات
وأحكم بوجوه العظاات ، فإن كانت الإمامة تستحق بذلك فخذوا سبيلها ، وأطلقوا
عقالها يبتدوها أهلها الذين قتلتموهم في البلاد ، وشردتموهم بكل واد ، أما والله لئن
بقيت في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستفاء المدة ووجود المحنة فإن لكل قائم منكم يوماً لا
يعدوه ، وكتاباً بعده يتلوه ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وسيعلم الذين
ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وحكي أن رجلاً من العرب دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : يا هذا
إنك مدبر مريبوب قال : أجل فما تشاء قال : احتجبت عنا بهذه الجدر ووليت خطابنا
أصهب كالفرعون طعطانيا أطوها ، كان وجهه جهوة قرد ، قد كتم وضره فهو نير شر ،
وكان فاه صرمومة عير قد فاسهما إن تكلم زجر ، وإن سكت بر ، وإن نظر كشر فلا
القول مسموع ، ولا الظلم مرفوع ، ولا الجور مردوع ، ولنا ولك مقام حيث يقصر
الخصام وتسعف الأقدام ، وينعش المكظوم ويستتصف المظلوم ، وإن ملكك حامل ،
وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليه عادل فاكبان عبد الملك وتضاءلت أقطاره
وترادفت عبراته في صدره ثم قال : لله أبوك ، ولا فض فوق ما الذي أعالك ، وأي
ظلم جاءك ، فقال : عاملك بالسعادة ليله لهو ونهاره لغو ، ونظره يستمزمز للنواقط
ويستجد للغالط . فأمر له عبد الملك بما له وأمر بصرف العامل ، فقبل صرف العامل ،
ولم يقبل المال .

وحكي عن الكلبي ، عن رجل من بني أمية ، قال : حضرت معاوية - رضي الله
عنه - وقد أذن للناس إذناً عاماً ، فدخلت امرأة فارسلت لثامها عن وجه كأنه قمر وكأثما

أشرب ماء الدر، ومعها جاريتان لها ، فخطبت خطبة بهت لها كل من حضر، ثم قالت : وكان من قدر الله تعالى أن قربت زياداً واتخذته أخاً ، وجعلت له في آل بني سفيان نسباً ، ثم وليته على رقاب العباد فيسفك الدماء بغير حلها ولا حقها ، ويتتهك المحارم بغير مراقبة فيها أو يرتكب من المعاصي أعظمها ، لا يرجع الله وقاراً ، ولا يظن أن له معاداً ، وغداً يعرض عمله في صحيفتك وتوقف على ما اجترم بين يدي ربك ، فلا الماضين من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - اتبعت ، ولا سيبلهم سلكت ، حملت عبد ثقيف على رقاب أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فسفك دماءهم ، فماذا تقول لربك يا معاوية غداً وقد مضى من عمرك أكثره ، وذهب خيره وبقي أيسره ، إني امرأة من بني ذكوان وثب زياد المدعي إلى أبي سفيان على وراثتي من أبي وأمي فغصبها ظلماً ، وحال بيني وبين ضيعتي وممسكة رمقي ، وقتل من نازعه فيها ، فإن أنصفت وعدلت وإلا وكلتك وزياداً إلى الله ، وأن أظل ظلامي عندك وعنده ، فالمتصف منكما العدل الحكم . قال : فبهت معاوية ينظر إليها متعجباً ، ثم قال : ما لزياد ، لعن الله زياداً ألا يزال يبعث على مثالبه من يثيرها وعلى مساوئه من ينشرها ، ثم قال لكاتبه : اكتب إلى زياد يرد ضيعتها والخروج من حقل .

وحكي عن علم الشعبي أنه قال : استأذنت سودة بنت عمارة بن الأشك على معاوية - رضي الله عنه - فأذن لها ، فلما دخلت عليه قال لها : بقيت يا بنت الأشك ، ألسن القائلة يوم صفين تشددين أخاك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام جيوشه قرمما بأبيض صارم وسنان

قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، وما مثلي من رغب عن الحق واعتذر بالكذب ،

قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت : حب عليّ واتباع الحق ، قال لها : والله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئاً ، فقالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين عدم إعادة ما مضى وتذكر ما خلى ، قال لها : هيهات ، ما مثل مقامك يُنسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من أخيك . قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، لم يك أخي ذميم ولا حقير المكان ، كان والله كما قالت الخنساء في أخيها صخر :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وأنا أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت به ، قال : قد فعلت ، فما حاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سندًا ولأمورهم واليًا ، والله سائلك عن
أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، فلا تزال تقدم علينا من يقر بعزك ويبطش بسطانك
فيحصدنا حصد السبل ويدوسنا دياس العفر ، ويسومنا الحسف ، هذا ابن أرطاة قدم
علينا فقتل رجالي وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فقال لها : أبقومك
تهديني ، والله لهمت أن أحملك على قتب أشرس فأردك إليه لينفذ فيك حكمه ،
فلما سمعت قوله أطرقت وبكت وأنشأت تقول :

صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغني به بدلا فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال لها معاوية : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .
قال لها معاوية : وما علمك به ؟ قالت : أتيته في رجل قد ولاه علينا لم يكن بيننا وبينه
إلا ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائمًا يصلي ، فلما نظر إليّ أوجز في صلاته وأقبل
عليّ وقال برأفة ورحمة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته فبكى ثم قال : اللهم اشهد
عليّ وعليهم أنني لم آمرهم بظلم خلقتك ولا بترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة
جلد فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءكم بيعة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان
ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن
كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ، إذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا
حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام . فأخذته منه ، فوالله ما حزمه بحزام ولا
ختمه بخاتم ، فنهضت إليه فعزلته . فقال معاوية : اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها ،
فقالت : يا أمير المؤمنين إليّ خاصة أم لسقومي عامة ؟ قال لها : ومن أنت وقومك ،
قالت : هي والله إذا الفحشاء واللوم إن كان عدلاً شاملاً وإلا أنا كسائر قومي ، فقال
لها معاوية : علمكم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - الجرأة على السلطان اكتبوا لها
بحاجتها .

وحكي أنه كان بمصر رجل يقال له حرب سرقني ، قد امتحنه الله تعالى بإيذاء

المؤمنين وظلمهم ، وكان إذا سمع برجل صالح أو عابد يأخذ معه الحصى ويمضي إليه فيرمي كعبيه بالحصى فيدميه ويؤذيه إلى يوم من الأيام سمع بأبي الحسن الدينوري - رحمه الله - أنه دخل مصر وأنه يتعبد بها في مسجد كذا ، فأخذ أصحابه وجمع حصيًا وأتى إلى المسجد ، فوجد أبا الحسن قائمًا يصلي وهو يقرأ فلما سمع قراءته وقف قليلاً ولم يعجل برمي الحصى عليه ، فشرح الله صدره لقراءته وأسبل دموعه على خديه ، فكلما ازداد الشيخ في القراءة زاد الرجل في البكاء ، فهو يبكي وهو قائم من العشاء إلى أن طلع الفجر الأول فخرج الشيخ يجدد وضوءاً فاتبعه حرب سرقني وقال له : يا ولي الله أعطني ذلك الفم أقبله لأنني سمعته يقرأ كتاب الله - عز وجل - ، فأعطاه الشيخ فمه فقبله ، وكان الشيخ كبيراً ، فلما قبله قال : يا ولي الله ، أترى الله يقبلني على ما كان مني ؟ قال له الشيخ : ماذا كان منك ؟ قال له : أردت أن أتوب على يديك ، قال له : ومم تتوب ؟ قال له : أنا رجل قد ابتلاني الله - عز وجل - بأذى المؤمنين وظلمهم ، فلما سمعت بك أتيت لأرجم كعبك بهذا الحصى ، فانشرح صدري لقراءتك ، فتاب الرجل على يديه ولبس مرقعة واشتهر أمره ، وكان كلما مر بموضع عصى الله تعالى فيه فيصلني فيه مائة ركعة ، إلى يوم تفكر أنه كان في صغره دخل حماماً عند رجل وهرب له بحقه ، ولم يدر أين الحمام ولا هل صاحب الحمام حي أم لا ، فبقي متحيراً لذلك مشغول البال به ، فنام تلك الليلة فرأى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال له : « إذا استيقظت فامض إلى صاحب الحمام الفلاني فإن صاحبه عايش وأعطه حقه وحق الله » فلما أصبح مضى الرجل إلى صاحب الحمام وأعطاه حقه وحاله وتاب وصحت توبته إلى أن مات رحمه الله . فاعلم يا أخي أن بالعدل يقهر العدو ، وبالعلم يكثر الأنصار ، وبالرفق تستخدم القلوب ، فليس شيء أقرب إلى تغيير النعم من الإقامة على الظلم ، واعلم أن الظلم ضد العدل ، وبالعدل قامت السموات والأرض ، وبه أنس المستوحش وقرب المتباعد ، وعمرت الأرض ، وتألقت النفوس ، وقهر العدو ، فلا تمتد اليد بأحسن من النوال ، ولا تنقبض عن أقبح من الظلم ، فإياك أن تمتد يدك لتناول أنجاس الظلم فيعز عليك وجود التطهير . واعلم أن مظالم العباد سيف يقطع يمين الظالم عن تناول الكتاب في المثاب إلا من ردها وتاب ، والمظالم سد لحصون الإيمان في الدنيا ، فإن الظالم نفى للمظلوم ما بقي وأفنى من دينه ما يبقى دُعي مكاوى يكوى بها الظالم نفسه ، فإياك والظلم أو تكون عوناً للظالم ، فالعون على كل

خبيث شريك ، فلا تصحب الظالم ولا تواكله ولا تشاربه ولا تجالسه ولا تبتمس في وجهه ، ولا تنل منه شيئاً ، ولا تعده إذا مرض ، ولا تسلم عليه إذا وصل ، ولا تشيعه إذا سافر ، واجتنبه ما استطعت اجتناب الحيات والافاعي القتالة . قال الله تعالى لنبية - صلى الله عليه وسلم - ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً . وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ { الجاثية : ١٨ - ٢٠ } .

وقال تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ { الزخرف : ٤٢ - ٤٤ } .

واعلم أن المتابعة بالافعال أغلب من المتابعة بالاقوال ، والمرء على دين خليله ، والشيطان يزين له ما فيه هلاكه ، والنفس أمارة بالسوء كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن بين خمس شدائد ، مؤمن يحسده ، ومناق ييغضه ، وكافر يقاتله ، وشيطان يضلّه ، ونفس تنازعه » ^(١) .

فاسمع خطيب الوعظ الشديد ، وسماع الحاضر الحاذر ، وانظر كيف أصبح ستر الفنى لمن اقتنى القصور والداكر ساتر ، وكيف هو من أبواب الحمام عن مناهل الحياة لأسوأ المصادر صادر ، إلى محل لا يجد فيه غادر عاذر ، ولا يسمع فيه لتكبر بكثرة الجنود والعساكر شاكر ، فالظالم فيه إلى أذل المصائر صائر ، فتأهب يا مغرور ففلك الجماع على نقطة روحك دائر ، وتنعم بتغريد التسبيح قبل أن يفتح القفص ويطلق هذا الطائر ، ولا تغتر بالمهلة فسائر عمرك سائر ، واحذر أن تجور على نفسك فإن عرصات القيامة كل جائرها حائر ، وتحقق بالعبودية فمن تمسك بالباطل قطع منه الدوائر .

فلذلك فاعلم أن كل عاصي فهو ظالم لا محالة ، وظلمه ينقسم على وجهين ؛ إما الوجه الواحد فلأنه ترك ما أمره الله به من الطاعات ، وأقبل على ما نهاه عنه من المعاصي لأن معنى الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وإيقاعه على غير أهله ، قال الله سبحانه : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً ﴾ { الفرقان : ٨ } .

(١) ضعيف : أخرجه أبو بكر بن لال في « مكارم الاخلاق » من حديث انس ، بسند ضعيف . قاله العراقي في تخريجه لاحاديث « الإحياء » (٦٥/٣) .

فسماهم ظالمين لما أوقعوا عليه الكذب ونسبوا إليه ما لا يليق به - صلى الله عليه وسلم - والوجه الآخر: أنه ظالم لنفسه غاش لها ، لأنه يمنعها بمعصيته الثواب ، ويوجب لها السخط والعذاب ، جعلنا الله وإياكم ممن ماتت عيوبه بموته ، وعمر معالم تقواه يوم فوته بمنه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

١٣ - باب الربا

اعلم أن الربا من المهلكات ، وهو أخفى من ديب النمل على الصفا في ليلة مظلمة ، وأن أدنى الربا كالذي يزني مع أمه والزنية مع الام أعظم وزرًا من سبعين زنية مع غيرها . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَحِقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَيُرِيهِ الصَّدَقَاتُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢٧٥ - ٢٧٦] ، وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تَبتمْ فَلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ [البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩] . جعل الربا في الأول مؤذناً بمحاربة الله تعالى ، وفي آخره متعرضاً للنار .

٢٣٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « درهم من ربا أشد عند الله تعالى من ستة وثلاثين زنية في الإسلام » ^(١) .

وقال سمرة بن جندب - رحمه الله - : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى الصبح أقبل علينا بوجهه وقال : « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » قلنا : لا ، فإن رأى أحد رؤيا قصها ، فيقول : « ما شاء الله » فسألنا يوماً : « هل رأى أحدكم منكم رؤيا ؟ » قلنا : لا . قال : « لكنني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذنا بيدي وأخرجاني

(١) صحيح بدون قوله : « في الإسلام » : أخرجه أحمد (٢٢٥/٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٠٣٠) - مجمع البحرين) . من حديث عبد الله بن حنظلة ، دون قوله : « في الإسلام » .

أما بلفظنا هذا أخرجه الطبراني في « الكبير » كما في « الترغيب والترهيب » للمندري (٦١٨/٢) ، من طريق عطاء الخراساني ، عن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - مرفوعاً به .
وسنده ضعيف لانقطاعه بين عطاء ، وابن سلام ، فالحديث صحيح دون قوله : « في الإسلام » .

إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل نائم بيده كlob من حديد يدخله في شذقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشذقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شذقه ، فيعود فيصنع به مثله ، فقلت : ما هذا ؟ قال : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو بصخرة يشدخ بها رأسه ، فإذا ضربه يشد هذا الحجر ، فانطلق ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه فقلت من هذا ؟ قال : انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته النار وفيه رجال ونساء عراة فإذا فرت ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت رجعوا فيه فقلت : ما هذا ؟ قالوا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى شاطئ النهر رجل قائم بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل الذي في فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان فقلت : ما هذا ؟ قالوا : انطلق . فانطلقنا على الطريق حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا في الشجرة وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها فيها رجال وشيوخ وشباب وصبيان ثم أخرجاني منها فصعدا في الشجرة فدخلنا بي داراً هي أحسن وأجمل فيها شيوخ وشباب قلت : طوفتmani الليلة فأخرجتmani فما رأيته ؟ قال : نعم . أما الذي رأيت يشق شذقه بالكلاب فكذاب يحدث بالكذب فيحمل عنه حتى يبلغ الافاق فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة ، والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فقام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار كذلك يفعل به إلى يوم القيامة ، والذين رأيتهم في الثقب فالزناة ، والذي رأيتهم في النهر فأكلوا الربا ، والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم - عليه السلام - والصبيان حوله أولاد الناس ، والذي يوقد النار مالك خازن النار ، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء ، وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل . فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا فوقتي مثل السحاب قالوا : ذلك منزلك . قلت : دعوني أدخل منزلي . قالوا : إنه بقي لك عمر لم تستكمله فلو أكملته دخلت منزلك .^(١)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً .

(١) أخرجه بنحو البخاري (١٣٨٦ ، ٢٧٩١ ، ٧٠٤٧) .

وقال موسى - عليه السلام - إلهي ما جزاء من أكل الربا ولم يتب منه ؟ قال :
يا موسى أطعمه يوم القيامة من شجرة الزقوم . وقال موسى - عليه السلام - أيضاً :
يا رب ! ما على من أكل الربا ؟ قال : يا موسى . أخلده في النار . وأنشدوا في المعنى :
أيا ذا الذي قلبه مبيت بأكل الربا إزدجر وانتبه
فكم نائم نام في غبطة أتته المنية في نوبته
وكم من مقيم على لذة دهته الحوادث في لذته
وكل جديد على ظهرها سيأتي الزمان على جدته
أعاذنا الله وإياكم من الخوض فيه والسلوك في طريقته بمنه وفضله وصلى الله
على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم .

١٤ - باب أكل الحرام

اعلم أن الله تعالى لم يرض لأنبيائه المعصية والحرام والظلم . قال الله تعالى :
﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ [المؤمنون : ٥١]
ثم قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من
الأرض ﴾ [البقرة : ٢٦٧] ثم أجملها فقال : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً
طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [البقرة : ١٦٨]

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن لله تعالى ملكاً على بيت المقدس
ينادي كل يوم من أكل حراماً لم يقبل الله تعالى منه صرف ولا عدل » ^(١) .
ف قيل : الصرف : النافلة ، والعدل : الفريضة .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من علم أن في بيته من الحرام ولو قيمة
شعيرة لم يقبل الله منه صرف ولا عدل حتى يخرج الحرام من بيته فإن مات على ذلك فأنا
منه بريء » ^(٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أخرجوا الأمانة من بيوتكم وردوها على أربابها فإن
لم تفعلوا فلن تنفعكم الأعمال شيئاً ولا ينفع قول لا إله إلا الله مع الحرام في البيت » ^(٣) .

(١) قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٨٩/٢) : « لم آف على أصل » .

(٢) لم آف عليه فيما بين يدي من مراجع مطبوعة أو مخطوطة . (٣) لم أهد إلى من خرجه .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أكل طيباً وعمل بالسنة وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من اكتسب درهما من حلال فأنفقه في حلال غفر الله له كل ذنب إلا الدماء والأموال » (٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة على كل مسلم » (٣) . أي بعد فريضة الإيمان .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أكل لقمة من حرام لم يتقبل الله منه صلاة أربعين يوماً ولم تستجب له دعوة أربعين صباحاً وكل لحم أنبته السحت فالنار أولى به » (٤) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو أن رجلاً اشترى ثوباً بعشرة دراهم وكان فيه درهم حرام لم يقبل الله فيه عمل حتى يؤديها إلى أهلها أو يرد عن نفسه » (٥) .
وفي خبر آخر : « ما دام عليه منه شيء » .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كسب مالاً حراماً لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقاً ولا حجاً ولا عمرة وكانت له بعده أوزاراً أو ما بقي عند موته كان زاده في النار » (٦) .

(١) ضعيف : أخرجه الترمذي (٢٥٢٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٦) ، والحاكم (١٠٤/٤) ، من

حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - .

وراجع : « فيض القدير » للمناوي (٨٦/٦) .

(٢) لم أهدت إلى من رواه ، والله أعلم .

(٣) ضعيف جداً : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩٩٩٣) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٣٣٩/٢) ،

والقضاعي (١٢١) ، من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - مرفوعاً به .

وفي سننه عباد بن كثير الثقفي ، متروك الحديث .

(٤) موضوع : أورده الشوكاني في « الفوائد المجموعة » (ص١٤٦ رقم ٤٢٦) ، وقال : « قال ابن تيمية :

موضوع . قال ابن طاهر : وهو كما قال » أهـ .

(٥) لم أهدت إلى من رواه .

(٦) لم أجده .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو أن صاحب المال الحرام استشهد في سبيل

الله سبعين مرة لم تكن الشهادة له توبة ، وتوبة الحرام الرد » (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه

وأجرى ينابيع من قلبه على لسانه ويهديه الله في الدنيا والآخرة » (٢) .

وفي المناجات أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - يا موسى إن أردت أن

تدعني فصن بطنك من الحرام وقل : يا ذا المن القديم والفضل العظيم ويا ذا الرحمة
الواسعة .

وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : « لو صليتم حتى تكونوا مثل

الحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يتقبل ذلك منكم إلا بورع واحد » (٣) .

(١) لم أهد إلى من خرجه .

(٢) حديث منكر : قاله الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٨٩/٢) .

(٣) ورد هذا مرفوعاً من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، أخبرنا به المحدث العلامة محمد ياسين

ابن محمد عيسى الفاداني - رحمه الله - إجازة ، قال : أخبرني به عبد المحسن بن محمد أمين رضوان ،

عن أبيه ، عن عبد الغني بن أبي سعيد الدهولي ، عن محمد عابد السندي ، عن عبد الرزاق الزاهد

صاحب القطيع ، أنبأني السيد أحمد بن محمد الأهدل ، أنبأني محمد أبو طاهر الكوراني ، عن أبيه ،

عن أحمد بن محمد القشاشي ، عن أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي ، عن أبيه ، عن

عبد الوهاب الشعراني ، عن القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، عن الحافظ ابن حجر العسقلاني ،

وأبي الفتح محمد بن الزين المراغي ، كلاهما عن قطب وقته إسماعيل الجبرتي ، عن أبي محمد عبد الله

ابن الحسن المقدسي ، عن الرشيد العطار ، عن عمر بن أمير الموصل ، عن أبي طاهر السلفي ، عن

أبي علي أحمد بن محمد البرداني ، عن هناد بن إبراهيم النسفي ، عن محمد بن أحمد بن عبد الله

الاسدأبادي ، عن يونس بن محمد بن بندار الزاهد ، عن أبي يزيد البسطامي ، ثنا محمد بن فارس

البلخي ، نا حاتم الأصم ، نا شقيق بن إبراهيم ، عن إبراهيم بن آدم ، عن مالك بن دينار ، عن

أبي مسلم الخولاني ، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - : « لو صليتم حتى تكونوا كالأوتار ، وكان الاثنان أحب إليكم من الواحد ، ثم تلبفوا الاستقامة » .

أخرجه ابن منده في « مسند إبراهيم بن آدم ش (٢٣) ، ونظام الملك في « جزء فيه مجلسان من أمالي

الصاحب » برقم (٤) ، ولحم الدين عمر بن محمد النسفي في « أخبار سمرقند » (ق١٤٧/٢ - ١/١٤٨ -

كما في هامش الأمالي » ، من طريق محمد بن فارس به .

وفي سنده : محمد بن فارس ، قال الذهبي : « لا يُعرف ، وقد أتى بخبر باطل ، مسلسل بالزهاد » .

انظر : الميزان (٣/٤) ، و « اللسان » (٣٣٨/٥) ، وتنزيه الشريعة (٣١١/٢) .

وقال بعض أهل العلم : إن للدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب فالحرام داء
لا دواء له إلا القرب إلى الرحمن . وأنشدوا في مثل ذلك :

أشبهه من يدوم على الحرام كبيض فاسد تحت الحمام
عناؤه في غير شغل وآخره يقوم بلا تمام
إذا كان المقام على حرام فلا معنى لتطويل المقام

وقال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله - الطاعة مخزونة في خزائن الله
تعالى ومفتاحها الدعاء وأسنانها الحلال وإذا لم تكن للمفتاح أسنان فلا يفتح الباب
وإذا لم يفتح باب الخزانة كيف يوصل إلى ما فيها من الطاعة فأصف لقمتهك
وأطب طعمتهك حتى يتبين لك مبيض صالح العمل من مسود خيط الأمل من فجر
الأجل ثم أتم صيام الجوارح من حرام طعام الآثام إلى ليل القيام فتفطر على فوائد
موائد كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية ، ومن لم يجتنب الحرام مع
الطعام أفطر بعد طول الصيام على مرارة حرارة ثمرة شجرة الزقوم الذي هي طعام
الآثيم كالمهل تغلي في البطن كغلي الحميم ويسمع نداءه خذوه فاعتلوه إلى سواء
الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . فيا له من طعام ما أعظم ضرره
وأبين لمن نظر أثره يفت الفؤاد ويقطع الأكباد ويمزق الأجساد ويورث الإنكاد في
المعاد .

قال سفيان بن عيينة - رحمه الله - كنت أقرأ الآية فيفتح لي بها سبعون فلما
أكلت من مال هؤلاء يعني الأمراء كنت أقرأ الآية فلا يفتح لي فيها باب واحد
فالحرام من القوت نار تذيب شحمة الذكر وتذهب حلاوة الذكر وتحرق يافع نبات
أخلاص الثياب وحرام الطعام روح جسد المعاصي وحلاله روح جسد الطاعات ومن
الحرام يتولد عمى البصيرة وظلام السريرة وفساد السيرة وهو حجاب العقل عن
معقولات الحقائق وستر يستر عنه صفاء الدقائق وواصل بينه وبين مهاجرة الخلائق
فلا قاطع بينه وبين مواصلة الخالق ، واعلم أنه لا يتمتع أحد من الحرام إلا من هو

= وحاتم الأصم ذكره ابن أبي حاتم في « الجرح » (٢٦٠ / ٣) ، والبغدادى في « تاريخ بغداد » (٢٤١ / ٨) ،
ولم يذكروا فيه جرحًا ولا تعديلاً . وكذا شقيق ذكره ابن أبي حاتم في « الجرح » ولم يذكر فيه قولاً .

شفق على نفسه ودمه ، وإنما دينك لحمك ودمك فاكسب حلالاً وأنفقه في قصد وأجلس مع من كسبه من حلال فإن الورع ملاك الدين وقوام العباد واستكمال أمر الآخرة فاجتنب الحرام وأهله ولا تجالسهم ولا تأكل طعام من كسبه حرام ولا تصحب من كسبه حرام ولا تدلن أحداً على الحرام فيأخذه ولا تعنه عليه فتكون شريكه فالعون على كل خبيث شريكاً له ، واعلم أنه إنما يتقبل الأعمال مع أكل الحلال والتعلق به في الأحوال .

ويتعلق بذلك كتمان الفاقة والحسرات وإخفاء الأئين والزفريات والركون إلى الخلوة والتلذذ بالأفكار والتحاف السكينة وتوشح الوقار والقيام على النفس بالسياسة والالتزام لها بدوام الحراسة والتأييد بالله تعالى في كل حالة . جعلنا الله وإياكم ممن ثبت على الإسلام وأعين على استعمال الحلال لا الحرام .

١٥ - باب أكل أموال اليتامى

فاتق الله يا أخي في أكل مال اليتيم فإنه سم مهلك .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ [النساء : ١٠] قال الله تالي : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ [الإسراء : ٣٤ - ٣٥] .

وقال - صلى الله عليه وسلم - لعبد الرحمن بن سمرة : « يا عبد الرحمن لا تتأمرن على اثنين ولا تتولين مال يتيم » ^(١) .

وقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قلت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال : « من كتب أربعين حديثاً بعثه الله - عز وجل - فقيهاً عالمًا وهو من العلماء في درجاتهم في جوار محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن حفظها من أمتي دخل الجنة »

(١) لم آتف عليه بهذا الطول ، والشطر الأول صحيح ، وأخرجه البخاري (٧١٤٦) ، ومسلم (١٦٥٢) ، بلفظ : « يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الإمارة ... » الحديث .

فقلت يا رسول الله : أي حديث فقال : « يا عبد الله أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين والقدر خيره وشره من الله - عز وجل - ، يا عبد الله وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة بوضوء سابع وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت إن كان لك مال وتصلي سبع عشرة ركعة في كل يوم وليلة ولا تشرك بالله شيئاً ولا تأكل مال اليتيم ظلماً ولا تأكل الربوا ولا تشرب الخمر ولا تنزني ولا تحلف بالله كذباً ولا تنق والديك وصلاة الوتر من ستي فلا تتركها في كل ليلة ولا تشهد شهادة الزور لقريب ولا لبعيد ولا تعمل بالهوى ولا تغترب أخاك ولا تقع فيه من قدامه ولا من خلفه ولا تقذف المحصنة ولا تقبل لأخيك المسلم يا مراس ولا تلعب ولا تله مع اللاهين ولا تقبل للفقير يا فقير تريد بذلك عيبه ولا تقبل للطويل يا طويل تريد بذلك عيبه ولا تسخر بأحد من الناس ولا تمش بالنميمة فيما بين الاثنين وتشكر الله - عز وجل - على كل نعمائه التي أنعم بها عليك وعند البلاء والمصيبة إذا نزلت ولا تصر ليلة على ذنب نصيبه حتى تتوب ولا تقنظ من رحمة الله - عز وجل - وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وإن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ولا تطلب إسقاط الخالق برضى المخلوقين ولكن أرشد الآدميين إلى ما فيه محبة الله تعالى ورضاه ولا تمن عليه ولا تضطره إليه وانظر في أمر الدنيا إلى من هو دونك وانظر في أمر دينك إلى من هو فوقك ولا تكذب ولا تخالط الكذابين ودع الباطل وأهله ولا تكن في شيء مما هم فيه وإذا سمعت حقاً فلا تغضب منه إذا سمعته وأدب أهلك وولدك وعلمهم ما ينفعهم عند الله تعالى ويقربهم منه وأحسن إلى جيرانك ولا تقطع قرابتك وذوي رحمتك وصلهم ولا تلعن أحداً من المسلمين ولا من خلق الله - عز وجل - وأكثر من التسييح والتحميد والتكبير والتهليل ولا تدع قراءة القرآن على حال ولا تدع خطاك إلى الجمعة والعيدين الفطر والأضحى وانظر كل ما لم ترض أن يقال لك ويصنع بك فلا ترضه لأخيك ولا تصنعه »^(١) .

جعلنا الله وإياكم ممن عمل بوصيته واتبع سنته في سره وعلانيته وصلى الله على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) هذا الحديث موضوع ورد عن جمع من الصحابة .

١٦ - باب الخيانة في الوزن والكيل

فاجتنب يا أخي ذلك ما استطعت فإن الله تعالى أمرك بالعدل فيهما في قوله تعالى : ﴿ أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ { هود : ٨٥ } . وقال عز وجل : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ { المطففين : ١ - ٥ } .

وقال عز وجل : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾ { الإسراء : ٣٥ } .

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أيذهب الحلال يا رسول الله ؟ قال : « نعم » قيل : والحرام ؟ قال : « هو وأهله » ^(١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ، من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » ^(٢) .

فاجهد نفسك في العدل فيهما ما استطعت إن احتجت إليهما ولا تمسك قليلاً في وقت غنائك وتعطي كثيراً في وقت فافتك وفترك فإن الله تعالى يحاسب على النقيير والقطمير ويمهل ولا يهمل ، واعلم أن البركة لا تكون مع الخيانة وإن قليلاً من الحرام يتلف كثيراً من الحلال وإنك إذا خنت في درهم خانك إبليس في سبعين درهماً .

نعوذ بالله تعالى من ذلك . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

(١) لم أجده فيما بين يدي من مراجع مطبوعة أو مخطوطة .

(٢) حسن : أخرجه أبو يعلى (٤٠٩٨) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - .

وفيه يزيد الرقاشي ، ضعيف الحديث ، لكن له شاهد يحسنه ، أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً بلفظ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

١٧ - باب في السرقة

اعلم أن السرقة والخيانة أمران مهلكان ضاران بالدين ، واعلم أن السارق من سرق ما لم يؤتمن عليه ، والخائن من سرق ما ائتمن عليه . قال الله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ { المائدة : ٣٨ } وقال عز وجل : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ { الأنفال : ٥٨ } .

وفي المناجات : أن الله - عز وجل - قال لموسى - عليه السلام - ستة في ناري وغضبي فأولهم من طال عمره وساءت خلقه ، وغني سارق ، وعالم فاسق ، ومن أتاني على غير توبة ، ومن لقيني بدم مؤمن متعمداً ، ومن منع حقي وأكله . فإياك والسرقة فإنها شر في الدنيا والآخرة ومذلة له ولاهله .

وذكر أن رجلاً من الحكماء مر برجل قد سرق فقطعت يده فقال أخذ ما ليس له فأخذ منه ما له . وقال آخر : ضيع ما استودع غير أمين . وقال آخر : من استودع غير الأمين لم يلم إلا نفسه .

وقال آخر : احذر الأمين ولا تأمن الخائن فإن القلوب بيد غيرك .

وذكر أن عبد الملك بن مروان أتى برجل قد سرق فأمر بقطعه فلما رأى الحديد والحبال أنشأ يقول :

يدي يا أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقى نكالا يشينها
فلا خير في الدنيا وطيب معاشها إذا ما شمال فارقتها يمينها

فقال له عبد الملك : هذا حد من حدود الله تعالى ولا بد من إنفاذه فقالت له أم الفتى : يا أمير المؤمنين هو بني يريثني ويسعى إلي ويكسب علي فهبه لي . فقال لها : بش الكاسب ابنك ولا سبيل إلى تعطيل حد من حدود الله تعالى . قالت : يا أمير المؤمنين إن لك ذنوباً كثيرة فاجعل ابني من ذنوبك واستغفره عند الله يغفره لك فاستحسن كلامها وأمر بإطلاقه .

أعازنا الله وإياكم من ذلك وقنعنا بما قسم لنا ورضانا به بمنه وفضله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

١٨ - باب الغل والغدر والغش والمكر والخديعة والبغي

وهو يشتمل على ستة أبواب :

اعلم وفقك الله أن الغدر من أقبح ما يتحلى به الرجل أو يعامل به أحدًا من خلق الله تعالى في سر أو جهر وهو شيء يبقى في عقبه فقد رضي لنفسه من الخساسة ما لم يرضه الكلب فإن الكلب على خساسته في الوحش إذا أحسنت إليه مرة لم يغدرك وهو محبط للأعمال الصالحة وأقبح شيء عاقبة في العاجل والآجل ومنه يتفرع الغل والغش والمكر والخديعة والبغي . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وقال عز وجل : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتَلَكَ بِيُوتِهِمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥١] .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » ^(١)

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من غش مؤمنًا فقد برئ من المؤمنين » ^(٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من غشنا فليس منا » ^(٣) .

وحكي أن أعرابية أوصت ابنها وأراد سفرًا فقالت : أي بني إنك تجاور الغرباء وترحل عن الأصدقاء والأقرباء فخالط الناس بالطلاقة والبشر وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعامل به الناس واتق الله في السر والجمهور واستودعك الله وعليك السلام .

وحكي عن سلم - مولى هشام بن عبد الملك بن مروان - وكان أسيرًا عنده أنه قال : دخلت يومًا على عبدة ابنة عمرو بن سعيد بن العاص وكانت تحت أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فوجدتها تبكي فسألتها عن حالها فلم تخبرني فألححت عليها

(١) صحيح : أخرجه مالك (٩٠٧/٢) ، والبخاري (٦٢٣٧) ، ومسلم (٢٥٦٠) ، وأبو داود (٤٩١١) ، والترمذي (١٩٣٢) ، من حديث أبي أيوب - رضي الله عنه .

(٢) ضعيف : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥/٧) عن سفيان الثوري بلاغًا ، والبلاغات من أقسام الحديث الضعيف .

(٣) حسن : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠٢٣٤) ، و « الصغير » (٢٦١/١) ، وابن حبان (١١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤ / ١٨٨ - ١٨٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢٥٣ - ٢٥٤) ، من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - مرفوعًا به . وانظر : « السلسلة الصحيحة » (٤٨/٣) .

فقلت : أخبرك على أن تقضي لي حاجة وعندي لك بها أفضل المكافأة فقلت لها : ما شيء أفضل موقعاً عندي من رضاك وسرورك بقضاء كل حاجة وجدت إليها سبيلاً قالت : يا سلم أعلمك أنني كنت مع أمير المؤمنين خالين للسرور وهو يلاعبني والأعبه إذ هويت بيدي لأخلع درعي فلما تأمل صدري انصرف بوجهه عني وتأخر مدعوراً مني فظننت أنه رأى مني شيئاً قبيحاً فانصرفت نفسه عني فهمت بقتل نفسي لو حل لي .

فتعرف لي يا سلم ما الذي رأى مني وما الذي غيره لي وصرفه عني ، ولك عندي عشرة آلاف درهم فتمعن سلم وتحين طلاقة من وجه هشام فقال له : يا أمير المؤمنين عبدة في الموت قال : فيم ويحك . قال من البكاء والحزن . قال : لم ذلك فاقصص عليه سلم ما حدثته . قال هشام : سبحان الله والله ما كان الأمر على ما خافت وظنت وما على الأرض شيء يعدلها عندي ولكني أسر إليك يا سلم أمراً لا تخبرها به إلا أن تستحشك عنه وذلك أنني دنوت منها وقد امتلأت سروراً بقربها فلما تجردت تأملت الخال الذي في نحرها فذكرت الحديث الذي نرويه أن ذات الخال مما تذبح كما تذبح السخلة فخفت أن تكون هي ذات الخال لأنني لم أر شيئاً أحسن منها بذلك الخال ففر كل شيء مني وغشي علي رحمة ورقة عليها أن يكون الحديث فيها .

قال : فأتى سلم إلى عبدة فاقصص عليها الخبر فاكثبت ساعة ثم قالت : لا دافع لمحتوم وقضاء الله وقدره . وقد كان أبوها عمرو بن سعيد بن العاص اتخذ لأمها أم موسى درعاً من لؤلؤ ثمنه شيء عظيم فوجدت أم موسى الدرع لابنتها عبدة فكان عندها فلما قام عليهم أبو العباس السفاح بعث إلى الشام عبد الله بن علي فقتل بني أمية بالشام وقتل هشاماً وأمسك عن النساء ، وعن ذكرهم . فقيل له : إن عند عبدة درع لؤلؤ ثمنه شيء عظيم فطلبها لأخذ الدرع فلما حضرت بين يديه ورأى جمالها وهيأتها وسمع كلامها رأى أمراً بارعاً فسألها عن الدرع فجحدته فيقال إنه راودها عن نفسها فأبت عليه وامتنعت منه ، وورد كتاب أبي العباس السفاح يأمر بحملها إليه فكره أن يسألها أبو العباس فتحبره بما كان منه إليها فأنفذها في جماعة من أهل خراسان وقدم إليهم في أمرها بالذي فعله فسلكوا بها بعض البرية فبينما هم في بعض المنازل إذ خرجت عبدة لتقضي حاجتها فاتبعها بالماء وصيفة لها فاتبعها رجل منهم فلما دنا منها زجرته وقالت : وراء لا أم لك . فلم ينش

فصاحت به : وراءك ويلك فلست واصلاً إلى ما تريد ولو قتلنتي . فقال لها : لم أرد والله ما توهمت وإنما أمرنا بقتلك فقالت : ذاك والله أهون علي عما خفت فعمدت إلى حريرة طويلة فعصبت بها نفسها من يديها إلى كعبيها ثم اضطجعت على خدها فذبحها كما تذبح السخلة وهي تتمثل وتقول :

إذا ما الدهر جر على أناس حوادثه أناخ بأخربنا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
فكان الحديث فيها كذا وماتت رحمة الله عليها .

وحكي أيضاً أن جذيمة الملك بن مالك بن تميم التنوخي وهو جذيمة الوضاح والأبرش وهو أول من ملك قضاة وذلك أن الزباء بنت عمرو بن طريف أحد العماليق ملكت الجزيرة والشام وكان يضايقها في ملكها وكانت مداينها على الفرات وكانت بكرًا فخطبها جذيمة الأبرش فكتبت إليه إنني فاعلة ومثلك رغب فيه فإذا شئت فاشخص إلي فسر بذلك وجمع أصحابه واستشارهم في الأمر فكلهم أشار عليه بالنهوض إليها وخالفهم قصير بن سعد اللخمي ، وقال له : لا تفعل واكتب إليها فإن كانت صادقة أت إليك وإلا لم تقع في جبالها فعصاه وأطاعهم وسار حتى انتهى إلى موضع يقال له : الأنبار في آخر عمله فجمعهم بها واستشارهم مرة ثانية فأشاروا عليه بالوصول إليها لما علموا من هواه في ذلك فقال له قصير : انصرف ودونك في وجهك فأبى وخالفه فقال قصر حين رآه لج لا يطاع لقصير أمر فصيرها مثلاً وظعن جذيمة حتى إذا عاين مدينتها ونظر إلى الجيوش والكتائب من دونها هاله ذلك فقال : أي قصير ما الرأي ؟ فقال له قصير : تركت الرأي بالأنبار فصيرها مثلاً فقال له جذيمة : أشر علي فقال له : إن لقيتك الكتائب فحيوك بتحية الملوك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة وإن هم فرقوا عليك جيشك وجندك ودخلوا بينك وبينهم فاركب العصا فإنها لا تدرك ولا تلحق يعني فرسًا كانت له تجنب معه فلما استقبله القوم أحاطوا به وفرقوا عليه جنده فنسي ولم يركب العصا فعمد إليها قصير فركبها وتخلل الجنود والكتائب وانطلق يخرج من بينهم كالبرق فالتفت جذيمة فإذا بالعصا عليها قصير حتى توارت به فقال جذيمة : ما ضل من تجري به

العصا فأدخل جذيمة على الزباء وقد كشفت عن عورتها وانطقت بشعر عانتها وقد
ضفرته ضفيرتين فقالت : أي جذيمة أمتاع عروس ترانى متاع امرأة لكما غير ذات
حفر قالت : والله ما ذاك من عدم مواس ولا قلة مواس ولكنه شيمة أناس فأمرت
له فأجلس على قطع فقطعت رواهشه - والرواهش عصب الكف - واستنزفته حتى
إذا ضعفت قواه ضربت يده فقطرت قطرة من دمه على الرخام فقالت : أي جذيمة
لا نضيعن من دمك شيئاً فإنه شفاء من الخبل فقال جذيمة : لا وعزتك دم أضعاه
أهله . فلم تزل تستنشف دمه حتى مات فجمعته وجعلته في ربعة وجاء قصير حتى
ورد الحيرة فقال لعمر بن عبد الحق التنوخي : اطلب بثأر ابن عمك وإلا سبتك
العرب فإنه حُمِلَ بذلك فخرج قصير إلى عمر بن عدي بن أخت جذيمة الملك فقال
له : إن صرفت الأمر إليك وجمعت الجنود عليك تطلب بثأر خالك قال : نعم
فجمع عليه من الجنود بشراً كثيراً فنسأبه التنوخي القتال فلما خافوا القنا تابعه
التنوخي فقال قصير لعمر بن عدي : ما تصنع في الزبا ؟ فقال عمرو : وكيف
لي بها وهي أمتع من عقاب الجو ، فقال قصير : إنني محتال لقتلها فأعني وخلاك
دم . فقال عمرو : دونك والرأي فقال قصير : أشير عليك أن تجدع أنفي وأذني
فقال عمرو : لا أفعل ذلك . فقال : لا بد من هذا فإن بذل نفسي في حق
صاحبي قليل فجدع أنفه وأذنيه . فقيل لأمر ما جدع أنفه قصير فصير مثلاً ثم
انطلق حتى دخل على الزباء . قالت : من أنت ؟ قال : أنا قصير وقد بلغك
مزلتي عند جذيمة فلا ورب البشر ما كان على ظهر الأرض أنصح مني لجذيمة ولا
أغش لك مني حتى جدع عمرو بن عدي أنفي وأذني فعرفت أنني لم أكن مع أحد
هو أثقل عليه مني معك فقالت : أي قصير نرفع منزلتك ونحن إليك ونصرفك في
بضاعتنا وأعطته مالاً وقالت : ارحل للتجارة فلما خرج من عندها أتى عمرو بن
عدي فقال : أعطني ما أحببت من بيت مال الحيرة ففعل واشترى تجارة والطاقاً
وذخائر نفيسة وانصرف إليها فلما رأت ما جاء به فرحت وزادته مالاً فقال لها
قصير : أنني أريد نصحك وأقيمك مقام جذيمة ولكنه ما من ملك ولا ملكة إلا
وهم يتخذون في مداينهم نفاقاً تكون لهم عدة والنفق السرب . قالت له : أما فقد

صنعت في بيتي سرب تحت سريري حتى خرج من تحت الفرات إلى سرير أختي بموضع كذا وإنما أراد التكشف على سرها وأن يعلم باطن أمرها على وجه النصيحة ثم خرج عنها وظعن حتى أتى عمراً فركب في ألفي دارع على ألف بعير في صناديق ويقال في الجوالقات وتقدم قصير إلى حصنها فسبق العير وقال : اصعدي على حائط مدينتك فانظري إلى ما خصك الله تعالى به من الكرامة وتقدمي إلى بوابك لا يعرضن لشيء من أعكامنا فإنني جئت بما يسرك وكانت قد أمته فصعدت كما أمرها فلما نظرت إلى ثقل مشي الجمال قالت :

مال للجمال مشيها وثيدا أجنديا يحملن أم حديدا
أم صرفانا بارداً شديدا أم الرجال جثما قعودا

ودخلت الإبل المدينة حتى إذا كان آخرها جملاً عيل صبر البواب وطال عليه فظعن بمنسحة كانت بيده في الصندوق فصادف خاصرة رجل فصرت فقال البواب حين سمعه : أي شر في الجوالقات فلما دخلوا في المدينة فتحوا رؤوس الجوالقات وثار الرجال بأهل المدينة ضرباً بأسياهم فلما رأَت الزباء الغلبة هربت إلى نفقها فوجدت قصيراً قد سبقها إليه ووقف عنده مصلاً سيفه فانصرفت راجعة عنه واستقبلها عمرو بن عدي واعترضها بسيفه فلما رأته فضت خاتمها ، وقالت : بيدي لا بيدك يا عمرو فماتت من حينها وسبوا الذراري والأموال وأخربوا المدينة وقد ذكرتها العرب في شعرها .

ويقال : إن الزباء كانت من العماليق وإنه كان من أمرها متى صعب عليها فتح حصن صفرت شعر ناصيتها وشدت به باب الحصن ثم تقاعست به حتى تفتحه حتى فعلت ذلك بمارد وهو حصن دومة الجندل ، وبالأبلق وهو حصن تيماء فقالت : تمرد مارد وعز والأبلق فضربت العرب بهما المثل إلى هنا .

فإياك والخديعة والغدر فإنه من أقبح شيء ، ومن أكثر من شيء عرف به وحمل عليه .

الا ترى إلى قول يعقوب - عليه السلام - لبنيه عند قولهم : ﴿ يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنما له لحاظون ﴾ [يوسف : ٦٣] كيف قال لهم ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل ﴾ [يوسف : ٦٤] وإنما قال لهم ذلك لأنهم كانوا قد خدعوا أباهم وغدروا أخاهم فعرفهم بفعلهم ولم يطمئن إليهم بعد الخديعة والغدر كما اطمأن أولاً وبقي عليهم توبيخ فعلهم إلى آخر الأبد . كذلك يبقى الغدر والخديعة في عقب الغادر أبداً فتجنبها ما استطعت أعاذنا الله وإياكم من الغدر أو استحسانه أو المشاركة فيه بمنه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

١٩ - باب القتل

اعلم أن القتل من الكبائر العظيمة الإثم ، وأن كل من شارك فيه بأمر أو شهادة أو رضي بذلك الفعل أو تمناه لأحد أو سره من بلغه فهو شريك في دمه وإن لم يحضر قتله ، وإن كان في بلد آخر وهو مطرد في جميع الطاعات والمعاصي فمن شارك في واحد منهما أو رضيه فهو شريك يشاب بثواب الفاعل أو يعاقب بعقابه وهو محسوب في عديده ومنسوب إليه ولذلك قيل إن إبراهيم - عليه السلام - لما نظر إلى النمرود لعنه الله في دعايته الربوبية وغلبه بالحجة قال النمرود حين لم يجد جواباً : اقتلوه أو أحرقوه فرضي قومه بقوله فأخبر الله تعالى عن قومه بقوله : اقتلوه أو حرقوه ، ولم يقع منهم القول لكن وقع منهم الرضى وكذلك خاطب الله سبحانه اليهود والذين كانوا في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله تعالى : ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٩١] ولم يقتلوا أحد من الأنبياء وإنما قتل أجدادهم من قبل فلما رضوا بفعل أسلافهم فكأنهم فعلوا ذلك بأيديهم فاستحقوا هذا الخطاب ، وكذلك أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم قالوا : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] وإنما وقع القول من عبد الله بن أبي سلول لقصة جرت بين عبد له وعبد لعمر - رضي الله عنه - فلما رضي المنافقون من أصحابه بقوله أخبر الله تعالى عنهم بالقول فالراضي بالقول من الحكيم والفعل كالفاعل له . فاتق الله يا أخي واحذر هذه الوجوه كلها واذكر ما أعد الله تعالى للقاتل عمداً في قوله عز وجل : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ [النساء : ٩٣] .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أربعة من الكبائر : الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور » ^(١) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا ذلك حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها » ^(٢) .

وفي المناجات : أن الله تعالى أوحى إلى موسى - عليه السلام - يا موسى ستة في ناري وغضبي فأولهم من طال عمره وساء عمله ، وغني سارق ، وعالم فاسق ، ومن أتاني على غير توبة ، ومن لقيني بدم مؤمن متعمداً ، ومن منع حقي وأكله .

ومما أوصى به أرسطاطاليس الإسكندر وهو ذو القرنين أن من أكد ما أوصيك به وطالما أوصيتك به وبامثاله يصح أمرك ويدوم ملكك وهو التعفف عن الدماء فإنها عقوبة انفرد بها الخالق البارئ المقتدر العالم بسرائر المخلوقات ، وإنما تقدم في ذلك على شبهة لست تعلم باطنها فتحفظ من هذا جهدك .

يا اسكندر إنه صح عن هرمس الأكبر أن المخلوق إذا قتل مخلوقاً مثله ضجت الملائكة في السموات إلى بارئهم ينادون تشبه عبدك فلان بك فإن كان قتل لقصاص قال لهم الله تعالى : قتل فقتل ، وإن قتل لبغي الدنيا قال الله - جل جلاله وتقدست أسماؤه - : وعزتي وجلالي وقدرتي إن هدرت دم عبدي . فلا تزال الملائكة تدعوا عليه عند كل تسبيح حتى يؤخذ بدمه ، وإن مات حتف أنفه فذلك الذي غضب الله عليه وهو من الخالدين في عقابه وعذابه إن جازاه أو يعفو عنه بحكم الكرم وسعادة الأزل .

فاحذر وحذر نفسك وراقب ربك في كل حين فإنه معك وهو أقرب إلى نفسك من نفسك ، واعلم أن من الساعات تتولد الآفات فلا تلم القضاء فيما جنيت .
واعلم أن الله تعالى يقول يوم القيامة : أنا ظالم إن جاوزني اليوم ظلم ظالم .
واعلم أن الله تعالى يمهل ولا يمهمل .

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٦٧٥) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٣٩٩) ، ١٤٥٧ ، ٦٩٢٤ ، ٧٢٨٤ ، ومسلم (٢١) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

ومن ذلك ما ذكر في خبر أنيقش الشاعر ، وذلك أن ملك زمانه كتب إليه أن يأتيه بما عنده من شعره وحكمته فجمع ماله وشعره وحكمه وارتحل إليه ولم يصحب أحداً في طريقه لأنه كان من زهاد زمانه فبينما هو في بضع البراري إذ وقع عليه قوم من اللصوص فرغبوا فيما عنده وهموا بقتله فناشدهم الله تعالى أن لا يفعلوا وأن يأخذوا جميع ما عنده ويخلوا سبيله فلم يفعلوا فلما هموا بقتله التفت يمينا وشمالا يلتمس معينا أو ناصرا فلم ير أحداً فمر طرفه إلى السماء فرأى كراكي تطير في الهواء فصاح لما أعيته الحيلة بهم يا أيها الكراكي الطائر قد أعجزني معين يعينني وناصر ينصرني فكونوا الطالبين بدمي والأخذين بثأري فضحك اللصوص ، وقال بعضهم لبعض : هذا أنقص الناس عقلاً ومن لا عقل له لا جناح في قتله ثم قتلوه بموضعه واقتسموا ماله وأثوابه ورجعوا إلى مكمنهم فلما اتصل خبر قتله من قوم اجتازوا به فعرفوه من غير أن يعرفوا من قتله فبحثوا على من قتله فلم يقع له على خبر .

وحضر عيد اليونانيين واجتمع أهل مدينة أنيقش الشاعر لقراءة الشعر والمذاكرة بالعلوم ، وحضر الناس من كل فج للنظر والاستماع وكانت كتب الحكمة تدرس في مثل ذلك اليوم بين يدي الملك فحضر في ذلك الجمع قتلة أنيقش الشاعر واختلطوا في الجمع فبينما هم كذلك في بعض الأساطير إذ مرت بهم كراكي تتناعر وتصبح فرفع اللصوص أعينهم إلى الهواء ينظرون إلى الكراكي تطير وتصبح فضحكوا منهم ، وقال بعضهم لبعض : هذه الطالبون بدم أنيقش الجاهل . فسمع كلامهم من كان بالقرب منهم من أهل دينه فقبضوا عليهم وأخبروا السلطان بخبرهم فأخذهم فقررهم فأقروا بقتله فطولبوا بما له وقتلوا بقتله .

فكانت الكراكي المطالبة بدمه ولو كانوا يعلمون أن الطالب لهم بالمرصاد وأنه لما لم يكن له في ذلك اليوم ناصر ولا مغيث استغاث بالكراكي .

وقال لهم : كونوا أنتم الطالبون بدمي وفي ضميره ونيته رب الكراكي وخالقه وخالقها الطالب بالظلمات الناصر لمن بغي دمه فقيض الله تعالى الاجتماع في العيد وأرسل الكراكي التي سألتها المطالبة بدمه وميز القاتلين حتى ضحكوا من الكراكي .

ولم يهمل الله عز وجل أمره في العاجل ولا أغلق عنه باب جانبه وكان الله تعالى خيراً ناصر وأقدر طالب فسبحانه كيف يهين الأسباب وهو بالمرصاد سبحانه وتعالى علواً كبيراً . عصمنا الله وإياكم من المشاركة فيه بقول أو فعل بمنه .

ومن ذلك ما ذكر الهمداني قال : سمر معاوية ليلة وعنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وعتبة بن أبي سفيان وغيرهم من جلسائه فتذاكروا صفين فقال لهم معاوية - رضي الله عنه - أيكم يحفظ كلام الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية وكانت امرأة نصرت علياً - عليه السلام - فقال القوم : كلنا يا أمير المؤمنين نحفظه . قال : فما تشيرون عليّ فيها ؟ قالوا : نشير بقتلها . قال : بش الرأي رأيتم أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أنني قتلت امرأة بعدما ظفرت وملكت فدعا بكاتبه فقال : اكتب إلى والي الكوفة أن أهد إليّ الزرقاء ابنة عدي مع ثقة من عشيرتها وعدة من فرسان قومها ومهد لها وطاء ليتأ فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وأقرأها إياه فقالت : السمع والطاعة فحملها في هودج قد حشي بخز وبطن بعصب اليمن وأحسن إليها وإلى من صحبها فلما قدمت على معاوية قال لها : مرحباً وأهلاً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة ، وكيف رأيت مسيرك إلينا ؟ قالت : خير مسير كأني ربية بيت أو طفلاً في مهد . قال لها : فهل تعلمين لم بعثت واءك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : ألسنت راقبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفين توقدين نار الحرب وتحضين على القتال ؟ قالت : بلى . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تذكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر . قال : صدقت . فهل تحفظين كلامك ؟ قالت : لا والله ما أحفظه . قال : لكنني أحفظه والله لله أبوك لقد سمعتك تقولين : أيها الناس إنكم لفي فتنة عمياء قد غشيتكم جلايب الظلم وحارت بكم قصر المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء لا تسمع لقائلها ولا تنقاد لسائقها إن المصباح لا يضيئ في الشمس والكواكب لا تنير مع القمر والبغل لا يسير مع الفرس والرق لا يوازن الحجر ولا يقطع الحديد إلا الحديد إلا من استرشدنا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالته

فأصابها فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكان قد التأم شعب الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فلا يعجلن أحد ولي ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير في الأمور عواقب فهذا يوم له ما بعده . ثم قال معاوية : والله يا زرقاء لقد تركت علياً سفكه في ذلك اليوم . قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتكم فمثلك بشر بخير وسر جليسه . قال لها : أوقد أسرك ذلك ؟ قالت : نعم . لقد سرنى قولك فأنى لي بتصديقه ؟ فقال : أوفاكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له في حياته . اذكري حاجتك . فقالت : يا أمير المؤمنين إني أليت ألا أسأل أحداً شيئاً ومثلك أعطى من غير مسألة وحاد من غير كلفة . قال : صدقت فوصلها واقتطعها ضيعة بالكوفة استغلت منها ستة آلاف درهم .

أعاذنا الله وإياكم من المشاركة فيه بقول أو فعل أو رضى بمنه وفضله .

٢٠ - باب السعي في مضرة الخلق والعبث بهم وقطع السبل

يجمع ثلاثة أبواب فإياك يا أخي والسعي في مضرة خلق من خلق الله تعالى فإن ذلك ضار بالدين وعاقبته وخيمة فلا تسعى في ذلك بيد ولا برجل ولا بقول ولا نية فإنك مسئول ومحاسب وشاهدوك من نفسك .

قال الله - عز وجل - : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ [المائدة : ٣٣]

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه » (٢) .

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١٠) ، ومسلم (٤٠) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) ، وأبو داود (٤٨٩٣) ، والترمذي (١٤٢٦) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى بقية جسده بالحمى والسهر » (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من حمل علينا السلاح فليس منا » (٢) .

وتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » {آل عمران : ١٠٢}

ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لهلك أهلها فكيف بمن تكون طعامه .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « استقيموا ولن تحصوا وخير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » (٣) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يقولوا أو يفعلوا فارحم الصغير ووقر الكبير » (٤) . واعلم أنه قد ورد في الخبر أنه من لم يرحم لم يرحم وشارك المسلمين ما استطعت .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من رجل طلب لأخيه المسلم حاجة فقضاها له وفرح بها قلبه إلا قال الله تعالى لبعض ملائكته بشر عبيدي هذا بالجنة ثم يجعل لكل عضو من أعضائه سبعين لساناً يحمدون الله تعالى ويمجدونه ثم يقدسونه بتلك الألسنة

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) ، وأحمد (٢٧٠/٤ ، ٢٧٤) ، والطبراني (٢٠٤٨) - (٢٠٤٩) ، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٥٠) ، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٦٢/٢ ، ٧٤) ، والفضاعي في « مسند الشهاب » (١٣٦٦ - ١٣٦٨) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (١٠١ ، ١٠٢) ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٣) صحيح : أخرجه ابن ماجه (٢٧٧) ، والدارمي (١٣٣/١) ، وأحمد (٢٧٦/٥ - ٢٧٧ ، ٢٨٣) ، وابنه في « زوائد الزهد » (ص ٢١٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٠) ، والطبراني (٩٩٦) ، وابن أبي شيبة (٦/١) ، والطبراني في « كبيره » (٩٨/٢) ، والصغير (١١/١) ، وابن نصر المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٢٠٤/١ ، ٢٠٥) ، والعدني في « الإيمان » (٢٢ ، ٢٣) ، وأبو عبيدة في « الطهور » (١٩) ، والحاكم (١٣٠/١) ، والبيهقي (٨٢/١ ، ٤٥٧) ، والخطيب في « تاريخه » (٢٩٣/١) ، وابن النار في « ذيل تاريخ بغداد » (٢٥٧/١٧) ، والبيهقي في « شرح السنة » (٣٢٧/١) .

(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ، ٥٢٦٩ ، ٦٦٦٤) ، ومسلم (١٢٧) ، وأبو داود (٢١٩٤) ، والنسائي (١١٩٣) ، والنسائي (١٥٦/٦ ، ١٥٦ - ١٥٧ ، ١٥٧) ، وابن ماجه (٢٠٤٠ ، ٢٠٤٤) ، وأحمد (٣٩٣/٢ ، ٤٢٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٩١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٣/٥) .

من كلها ويكتب له ذلك في ملكوت السماوات فإذا رأى قلبه ذلك من أعضائه فرح فرحاً شديداً لما يرجو من ثواب الله تعالى ثم يرسل إليه سبعين ألف ملك فيأمرهم أن يقيموا الصفوف ثم يرسل الملائكة فيتقدم بهم فيصلي ثلاثة أيام بلياليها فإذا فرغوا من الصلاة اجتهدوا في الدعاء في خير الدنيا والآخرة وصلاتهم المقبولة ودعاؤهم المستجاب لذلك العبد الذي كان في حاجة أخيه المسلم ففضاها له ففرح بها قلبه .

قال الله سبحانه : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ { غافر : ٩ }

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من فرج عن مؤمن كربة فرج الله تعالى عنه كربة ومن ستر على مؤمن ستر الله تعالى عورته ولا يزال الله تعالى في عونه ما دام في عون أخيه » (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - ما من عبد يأتي بحسنة واحدة خالصة إلا أدخلته جنتي . فقال داود : يا رب وما تلك الحسنة ؟ فقال : من فرج عن مؤمن كربة فإن المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة أما علمت يا داود أنه من قضى لمؤمن حاجة قضى الله له سبعين حاجة . يا داود من فرج عن قلب مؤمن كربة أدخلته بذلك الجنة بغير حساب » .

وهذه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ { الاعراف : ١٩٩ }

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ » { البينة : ٧ }

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ، والترمذي (١٤٤٦ - ١٤٤٧ ، ٤٠١٥) ، وأحمد (٤٠٧/٢) ، وابن ماجه (٢٢٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٤٦) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أصبح المؤمن بعث الله تعالى إليه ملكاً معه رقعة مختومة فيشدها على عضده الأيمن والحفظة يدخلون عليه إلى المساء فإذا كان عند المساء أوحى الله سبحانه إلى الحفظة أن فكوا خاتم الرقعة وانظروا ما تجدون فيها فيفكون الخاتم فإذا في الرقعة « بسم الله الرحمن الرحيم أنا الله القابض الباسط أقبض اليسير وأعطي الجزيل فالجزيل هي الجنة ، أنا الله الغفور الرحيم ، أغفر بالحسنة الواحدة ألف ذنب وأكتب له ألف حسنة وأرفع له ألف درجة في الجنة عبادي لا تحقرون من أعمال البر شيئاً فإن القليل هو الكثير عندي والكثير عندكم هو القليل عندي » (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » (٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - لعليّ - رضوان الله عليه - : « إن أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطعك وأعط من حرمك وأهف عن ظلمك » (٣) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من سره أن يتزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن يأتي الناس بما يحب أن يؤتى إليه » (٤) .

وقال - صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » (٥)

(١) لم أهد إلى من رواه .

(٢) ضعيف جداً : أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الخوائج » (٢٤) ، والبزار (١٩٤٩) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٨٧) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » برقم (١٣٠٦) ، من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه الله وفي سنده : سويف بن عطية ، متروك الحديث . وله شاهد من حديث ابن مسعود ، أخرجه الطبراني في « كبيره » (١٠٠٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٢/٢) ، (٢٣٧/٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٣٤/٦) ، وفي سنده : موسى بن عمير ، متروك الحديث .

(٣) لم أهد إليه .

(٤) ضعيف : أخرجه الطبراني في « الأوسط » من حديث ابن عمرو - رضي الله عنهما - ، كما في « مجمع الزوائد » (١٨٦/٨) ، وفي سنده ليث بن أبي سليم ، ضعيف الحديث لا اختلاطه .

(٥) صحيح : أخرجه أحمد (٢٣٢٩) ، والترمذي (١٩٨٦) ، والبزار (١٩٥٥ - ١٩٥٦ / كشف) ، والطبراني في « الكبير » (١١٠٨٣ ، ١٢٢٧٦) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٠٣) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أندرون على من حرمت النار » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « على الهين اللين السهل القريب » ^(١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الخالقة » ^(٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أقال مسلماً عثرته أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة » ^(٣) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أصنع المعروف إلى من هو أهله فإن تصب أهله فأنت من أهله » ^(٤) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فمن تبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته » ^(٥) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « قيامك مع أخيك ساعة خير من اعتكاف سنة » ^(٦) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا خير في مسلم لا منفعة للمسلمين منه » ^(٧)

(١) حسن : أخرجه أحمد (٤١٥/١) ، والترمذي (٢٤٨٨) ، وابن حبان (٤٦٩ - ٤٧٠) .

(٢) ضعيف جداً : أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٨٣) ، من حديث أبي هريرة .

وفيه : جوير ، ضعيف جداً ، وأحمد بن عبد الجبار العطاردي ، ضعيف .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٤٤٤/٦) ، وأبو داود (٤٩١٩) ، والترمذي (٢٥٠٩) ، وابن حبان (٥٠٧٠) .

وقوله : « ذات البين » : البُعد والفراق بسبب الخصومة . والخالقة : المعصية الملاحقة للأجر والحسنات .

(٤) ضعيف : أخرجه الخطيب في « رواة مالك » ، والدارقطني في « غرائب مالك » من طريق عبد الرحمن بن

بشير الأزدي ، عن أبيه ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، كما في « فتح الوهاب » (١٩/٢) .

وقال الخطيب : « لا يصح عن مالك رحمه الله » ، وقال الدارقطني : « إسناده ضعيف ، ورجاله مجهولون »

(٥) حسن : أخرجه أحمد (٤٢٠/٤) ، وأبو داود (٤٨٨٠) ، من حديث أبي برة الأسلمي - رضي الله عنه -

وأخرجه أبو يعلى في « مسنده » (١٦٧٥) ، (٧٤٢٣) ، من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - .

(٦) أنظر : « كنز العمال » للهندي (١٦٤٧٧) .

(٧) لم أهد إليه .

وذلك اقتداء بفعل الله تعالى إذ هو المحسن إلينا المتفضل علينا بسيد نعيم الدنيا وسيد نعيم الآخرة وهما العافية والإسلام وبأن أخرجنا إلى أن أظهرنا في خير أمة أخرجت للناس أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم أعظم الخلق يدًا على عباد الله وأكثرهم منفعة لهم محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث عرفنا الخالق المعبود ودعانا إلى شهادة التوحيد المؤدية إلى عظيم لذة النظر والنعيم والخلود المنقذة من النار ذات الوقود التي ليس للهيبها خمود ثم عزرنائيل ملك الموت - عليه السلام - الذي هو سبب الانفصال من الحال والأحوال والانفصال بالوصال بعد إعادة الأوصال حيث التتعم بالنظر إلى جمال الجلال في جوار ذي العظمة والكمال القائم البقاء بلا تغير ولا زوال . واعلم أن عليك حقوقًا كثيرة واجبة سوى الفريضة فلا تكن مسلمًا بغير منفعة فإن المسلم بغير منفعة مثله كمثل الدقلاء ورقه خضر ونواره حمر يزين بنفسه وليس لأحد فيه منفعة فيعجب من رآه وإن أكله قتله .

وكتب حكيم إلى حكيم : إنني أسألك عن ثلاثة أشياء إن أجبتني عليها تلمذت لك فكتب إليه : سل وبالله التوفيق . فكتب إليه : أي الناس أولى بالرحمة ؟ ومتى تضيع أمور الناس ؟ وبما تتلقى النعمة من الله - عز وجل - ؟ فأجابه : أولى الناس بالرحمة ثلاثة ؛ البر يكون في سلطان الفاجر فهو الدهر حزين بما يرى ويسمع ، والعاقل في تدبير الجاهل فهو الدهر متعب مغموم ، والكريم محتاج إلى اللثيم فهو الدهر له خاضع ذليل . وتضيع أمور الناس إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفعه . وتتلقى نعم الله عز وجل - بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معاصيه . فقبل ذلك الحكيم فتملذ له حتى مات .

أعاذنا الله وإياكم من البغي على خلق الله وأن يجعلنا إخوانًا في ذاته بمنه وفضله

٢١ - باب شهادة الزور

اعلم أن شهادة الزور فساد عظيم في الدين وشهادة الزور تسفك الدماء وتنتهك الاستار وتقطع الحقوق وتستحق الأموال غير مستحقها . قال الله - عز وجل - ﴿ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ { الفرقان : ٧٢ }

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَاهِدَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ { المعارج : ٣٣ }

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قالوا :
نعم يا رسول الله . قال : « الإشرار بالله وعقوق الوالدين - وكان متكفًا ففعد - وقال :
ألا وقول الزور » (١) .

وأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - يا موسى لا تشهد بما لا يعيه
سمعك ويحفظ عقلك وتعتقد عليه قلبك فإني أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم
القيامة ثم أسألهم عنها سؤالاً عنيقاً .

وحكي أنه كان في زمان داود - عليه السلام - امرأة من أهل الجمال البارح فعز
لها طلب حق فأتت في حقها إلى القاضي فشكت بأمرها إليه فلما أبصر جمالها راودها
عن نفسها فأبت عليه فلم يأخذ لها بحق فمضت إلى صاحب الأحكام فشكت إليه فلما
أبصر جمالها راودها عن نفسها فأبت عليه فلم يأخذ لها بحق فرفعت أمرها إلى أحد
الشهود العدول لعله يتكلم في أمرها وأن يحسن على حقها عونها فلما عاين ما هي عليه
من الجمال راودها عن نفسها فأبت عليه فلم يلتفت إليها فرفعت أمرها إلى صاحب
المدينة وشكت إليه ما نالها من الظلم فقال لها أيضاً : إن أجبتيني إلى ما أريد منك فإني
أخذ لك بحقك وراودها عن نفسها كما فعل بها الكل فأبت عليه وقد بقي كل واحد
منهم مشغول البال معلق القلب بها لما كانوا عاينوا من جمالها وحسن خلقتها وكانت
المرأة صالحة فلما رأت ما حل بها من جميعهم بكت وتركت أمرها إلى الله تعالى
وسكتت عن طلب حقها ولم تجب واحداً منهم فكيف الله إليهم أن اجتمعوا في موضع
واحد فتذاكروا ما هم فيه من خصام الناس واندراسهم عليهم ومشافهتهم بهم فقال
واحد منهم : لقد أتتني منذ أيام جارية في طلب حق لها فما أبصرت عيني قط أجمل
منها فدعاني ذلك أن سألتها في الزواج فأبت وسألت عن حالها ومن هي فأعلمت أنها
فلانة بنت فلان وإنها خلوة من زوج وإنها غير صالحة ، فقال الثاني منهم : وأنا أيضاً
كذلك جاءني في طلب حق لها فلما أبصرت جمالها سألتها في الزواج فامتنعت وأعلمت
أنها غير صالحة . فقال الثالث والرابع كذلك فقالوا : فما ترون في أمرها قالوا : نرفع
أمرها إلى داود - عليه السلام - ونشهد عليها بالزنا فإذا قتلها استراحنا نفوسنا من
التعلق بها فقال بعضهم لبعض : إن شهدنا أنها زنت مع رجل قتلا جميعاً وهذه مصيبة

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٥٩٧٦) ، ومسلم (٨٧) ، والترمذي (١٩٠١) ، من حديث أبي بكره - رضي الله عنه .

عظيمة وإنما الغرض زوالها وحدها لكي تستريح نفوسنا فاجتمع رأيهم على أن يقطعوا فيها الشهادة أنها امرأة فاسقة وأنها تفسق مع كلب لها اتخذته لنفسها فرفعوا أمرها إلى داود - عليه السلام - وقالوا : جئناك يا خليفة الله في أمر لا بد من إعلامك به وذلك أن في هذه القرية امرأة فاسقة قد ربت كلباً ذكراً وعلمته فهي تحمله على نفسها ويقع منها موقع الرجل من المرأة وشهدوا عليها بذلك فأمر داود بوجعها فرجعت رحمة الله عليها فاستراحت نفوسهم منها فلما كان بعد ذلك بأيام اجتمع الصبيان لسليمان - عليه السلام - على عاداتهم يلعبون بين يديه وهو صغير فقال : أنا أميركم وجعل منهم قاضياً وحاكماً وفقياً وقال لهم : احكموا بين الناس يومكم وترفعوا إليّ ما وصلكم من أمور الناس كانوا يصورون المسائل ويتجون الأحكام على قدر أذهانهم ويرفعونها إليه ، وكان داود - عليه السلام - قد سعد في موضع مشرف وكان يتطلع إليهم وإلى ما يصنع سليمان - عليه السلام - وإلى ما يصنع الأطفال ، وكان قد أمر بقية الصبيان أن يتحاكموا عنده فثبته واحد من الصبيان بامرأة من النساء وكان من أهل الجمال البارع وجاء يطلب في حقه ثانياً عند الحاكم فراودها عن نفسها فأبت عليه ثم لم تزل تقصدهم واحد بعد واحد وكل واحد يراودها عن نفسها فلما أتت على جميعهم اجتمعوا في أمرها ودبروا كيف يقتلونهم فآلهمهم الله تعالى أن ينسبوا إليها أنها تفسق بكلب لما قد أعدته لنفسها فلما وصلوا في أمرها إلى سليمان - عليه السلام - وعرفوه أنها تفسق بكلب عندها وقطعوا الشهادة بذلك عليها فكر سليمان - عليه السلام - كيف يفصل في أمرها فأمرهم أن يتفرقوا حتى يصير كل واحد منهم بمكان منتزح عن الآخر ثم استدعى واحداً من الأربعة شهود فقال له : كيف كان لون الكلب ؟ قال : أسود ، فأمره بالرجوع إلى موضعه ثم استدعى الثاني فقال له : كيف كان لون الكلب ؟ قال : أحمر . فأمره بالرجوع إلى موضعه . ثم استدعى الثالث فسأله عن لونه فقال : أبيض ، فأصرفه ثم سأل الرابع فقال : أبلق فعلم أنهم شهدوا بالزور فأمر بحدهم فحدهم الصبيان باللعب فلما سمع داود - عليه السلام - تذكر أمر الجارية وقال : فهلا فعلت أنا مثل هذا قبل قتلها ووجعها ثم بعث وراء كل واحد منهم فسأله على حدة فاختلفوا في قولهم في الكلب كاختلاف الصبيان عند سليمان - عليه السلام - ولم يتفق منهم واحد مع صاحبه على لون واحد فعلم أن شهادتهم باطلة فأمر بهم فقتلوا الأربعة وأخذ الله تعالى لها بحقها في العاجل .

عصمنا الله وإياكم من ذلك بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

٢٢ - باب البهتان والمباهنة

اعلم وفقنا الله وإياك أن البهتان موضعه عظيم في الإثم . قال الله - عز وجل - ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ {النور : ٤} . وقال تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين وبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ {النور : ١٦ - ١٨}

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الشد بالقد أهون من النظر إلى الضد »^(١) .

وقال بعض الحكماء : من بهتك بالزور فكأثما أخذش وجهك .

واعلم أن البهتان عقوبته عظيمة وهو مما يزيد في السيئات وينقص من الحسنات فينبغي أن يتوب صاحبه في ثلاثة مواضع ؛ الأول : أن يأتي من بهته فيقول إني بهتك فاغفر لي فإن شاء غفر له ثم يأتي القوم الذين بهته عندهم فيقول إني كذبت على فلان وقلت ما لم أعلم فيكذب نفسه عندهم ثم يتضرع إلى الله فيسأله المغفرة فإن شاء غفر له وإن شاء عذبه ويبقى أمره في مشيئة الله تعالى .

أعاذنا الله وإياكم من كل أمر يكرهه الله - عز وجل - بمنه وفضله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

٢٣ - باب الكذب

اعلم أن الكذب من الكبائر . قال الله تعالى : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ {النحل : ١٠٥} وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ

(١) لم أعتد إلى من رواه .

وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿ الانعام : ٢٨ ﴾

ولما علم الكفار قباحة الكذب وسوء عاقبته نسبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه حين أنزل عليه القرآن الحكيم وكذبوه فيما جاء به من الله - عز وجل - في ادعائه النبوة وفيما نزل عليه من القرآن فأخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [النحل : ١٠١] وإنما أرادوا بذلك إبطال ما جاء به عن الله - عز وجل - لقول الحكماء : إذا كذب السفير بطل به التدبير . وقال عز من قائل : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾ [النحل ك ١١٦] فقد أوجب للكذابين العذاب ونفى عنهم الفلاح ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ [الزمر : ٣]

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « للمنافق ثلاث علامات إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » ^(١) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كل خصلة يطبع الله عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » ^(٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » ^(٣) . وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ويل للذي يحدث ويكذب ليضحك الناس ويل له ويل له » ^(٤) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) ضعيف : أخرجه أحمد (٢٥٢/٥) ، وسنده ضعيف . انظر : «مجمع الزوائد» للهيتمي (٩٢/١) .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) ، وأبو داود (٤٩٨٩) ، والترمذي (١٩٧١) ،

وابن ماجه (٤٦) ، والطيالسي (٢٤٧) ، وأحمد (٣٨٤/١) ، (٤٣٢) ، من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه .

(٤) حسن : أخرجه أبو داود (٤٩٩٠) ، والترمذي (٢٣١٥) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٣١) ، وأحمد

(٥/٥ ، ٦ ، ٧) ، والدارمي (٢٧٠٥) ، والحاكم (٤٦/١) ، من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن

جده . ويهز بن حكيم ، حسن الحديث .

وفي الخبر: أن رجلاً جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله إني لا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها ولا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه وليس لله تعالى في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: «معي إن حفظت قلبك من اثنتين؛ الغل والحسد، ولسانك من اثنتين؛ الغيبة والكذب، وعينيك من اثنتين؛ النظر إلى ما حرم الله وأن تؤذي بهما مسلماً. دخلت معي الجنة على راحتى هاتين»^(١).

وقيل يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيزني المؤمن أيسرق المؤمن؟ قال: «قد يكون ذلك» قيل له: أنيكذب؟ قال: «لا. إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون» [النحل: ١٠٥]^(٢).

واعلم أن الكذب حرام في الجذ والهزل، وحديث النفس إلا للضرورة كما تباح الميتة حتى قالت امرأة لولدها الصغير تعالى حتى أعطيك. فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «وماذا كنت تعطيه لو جاءك؟» قالت: تمرة. فقال لها: «إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة»^(٣).

وقال مجاهد - رحمه الله - إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول ابتاع لك كذا وكذا فإن لم تفعل كتب عليك كذبة، والكذب يحدث في القلب صورة معوجة حتى تكذب الرؤيا وإنما أرخص في الكذب إذا كان الصدق يفضي بصاحبه إلى محذور أشد من الكذب، وإنما أبيحت الميتة لأن تركها يؤدي إلى محذور أشد من أكلها وهو فوات الروح. قالت أم كلثوم - رضي الله عنها - «ما أرخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح بين

(١) لم أجده عند أحد من أصحاب الكتب المطبوعة، والله أعلم.

(٢) موضوع: أخرجه الخرائطي في «مسائل الأخلاق» برقم (١٣٢). وفي سننه يعلى بن الأشدق، هو المتهم بوضعه، انظر: التاريخ الكبير (٣٨٤/٢/٤)، والجرح والتعديل (٢٣٠/٢/٤)، والمجروحين (١٤١/١٤٢)، وميزان الاعتدال (٤٥٧/٤)، ولسان الميزان (٣١٢/٦).

(٣) حسن: أخرجه أبو داود (٤٩٩١)، وأحمد (٤٤٧/٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٥٢)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٣٣)، وفي «مسائل الأخلاق» (١٣٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/١٩٨، ١٩٩)، وفي «شعب الإيمان» (٤٨٢٢).

الناس ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته « (١) . فينبغي لمن اضطر إليه أن يعدل إلى المعارض ما أمكن حتى لا يعود نفسه الكذب .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن في المعارض لمنذوحة عن الكذب » (٢) .

وحكي عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه كان خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين هاجر معه فيلقاه العرب وهم يعرفونه ولا يعرفون النبي - صلى الله عليه وسلم - فيقولون : من هذا يا أبا بكر ؟ فيقول : هذا يهديني السبيل فيظنون أنه يهدي هداية الطريق وهو يريد سبيل الخير فيصدق في قوله .

وقد ذكر عن أبراهيم بن أدهم - رضي الله عنه - أنه كان إذا طلب في الدار يقول لخادمة قولي له : اطلبي في المسجد . وكان الشعبي - رحمه الله - يخط دائرة ويقول للخادم ضع الإصبع وقولي : ليس هو هنا . وكان بعضهم يعتذر عند الأمير ويقول : مذ فارقتك ما رفعت جنبي من كذا إلا ما شاء الله تعالى . وكان بعضهم إذا أنكرا ما قال يقول : إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء فيوهم النفي بحرف ما وهو يريد غيره . ومن المعارض أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - « لا تدخل الجنة عجوز ، ويحملك على ولد البعير ، وفي عيني زوجك بياض » . فهذه الكلمات أوهمت خلاف ما أراد فيباح ذلك مع النساء والصبيان لتطيب نفوسهم بالمزاح وكذلك من يمتنع من أكل الطعام فلا ينبغي له أن يكذب ويقول : ألا أشتهي إذا كان يشتهي بل يعدل إلى المعارض قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لامرأة قالت كذلك : « لا تجمعني كذباً وجوعاً فإن كان صائماً فليقل إنني صائم » (٣) .

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٦٠٥) ، وأبو داود (٤٩٢١) ، والخراطي في « مساويء الأخلاق » (١٨٤) .

(٢) ضعيف جداً مرفوعاً ، حسن موقوفاً : أخرجه مرفوعاً : أبو الشيخ في « الأمثال » (٢٣٠) ، وابن عدي في

« الكامل » (٦٦/٤) ، وابن الأعرابي في « معجمه » (٩٩٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » برقم (١٠١١)

من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - مرفوعاً به ، وفي سنده : داود بن الزبرقان ، متروك .

أما الموقوف : فقد أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٥٧) ، وابن أبي شيبة (٧٢٣/٨) ، والطبراني في

« كبيره » (ج ١٨ رقم ٢٠١) ، والخراطي في « مساويء الأخلاق » (١٧١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى »

(١٩٩/١٠) ، بسند حسن . وقوله : « المعارض » ، قال ابن الأثير في « النهاية » (٢١٢/٣) : « يعني :

سعة وفسحة ، فأراد أن في المعارض ما يستغني به الرجل عن الاضطرار إلى الكذب » .

(٣) صحيح : أخرجه ابن ماجه (٣٢٩٨) ، وأحمد (٤٣٨/٦) ، وأبو داود (٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩) ، والحميدي (٣٦٧)

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دعى أحدكم إلى طعام وهو صائم فليقل
إني صائم » (١) .

وقال لقمان - رحمه الله - لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه أحلى من لحم
العصفور وإن تعودته لم تصبر .

وقال أحد الحكماء : إن من أجدر الأشياء أن يدرك به طلاب العلم بغيتهم
اجتهاد القائل في أن لا يقول إلا صدقاً ، واجتهاد السامع ألا يقبل إلا حقاً . وقال
الآخر : اجتنب صحبة الكذاب فإنه يقرب عليك البعيد ولا يحصل في يدك منه
شيء كمثّل السراب يلمع ولا ينفع . فإن اضطرت إلى صحبته فلا تصدقه ولا
تعلمه أنك تكذبه فينتقل عن ودك ولا ينتقل عن طبعه . قال الراجز :

لا يصلح المولع بالتكذيب حتى يصلح الثعلب للذئب

واعلم أن ما أوتي العبد في الدنيا خيراً من لسان صادق فنتيجة الصدق التقى
ونتيجة التقى الورع والعدل ونتيجة العدل الألفة ونتيجة الألفة الكرم والكرم يفتح
المؤانسة والمحبة وذهاب العداوة والضغائن وعمارة الدنيا وذلك موافق للشريعة ،
ونتيجة الكذب ضد ذلك كله .

وحكى العتبي قال : سمعت أبي يحدث عن ناس من أهل الشام أن أخوين
كان أحدهما يغيب ويخلفه الآخر فغوته امرأة الغائب فراودته عن نفسه فامتنع منها
فلما قدم أخوه سألها عن حالها فقالت : ما حال امرأة تراود في كل يوم فقال :
أخي وابن أمي وإني لا أفضحه ولكن لله تعالى علي عهد ألا أكلمه أبداً ثم حج
وحج أخوه في قافلة واحدة وحجت المرأة مع زوجها فلما كان بوادي الدوم هلك
الأخ المكذوب عليه فدفنوه ومضوا حتى قضوا حجتهم ورجعوا فمروا بذلك
الوادي ليلاً فسمعوا هاتفاً يقول :

تمر بوادي الدوم ليلاً ولا ترى عليك لأهل الدوم أن يتكلما
وبالدوم ثاولو ثويت مكانه فمر بوادي الدوم حياً وسلمما

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١١٥٠) ، وأبو داود (٢٤٦١) ، وابن ماجه (١٧٥٠) .

فظنت المرأة النداء من السماء فقالت لزوجها : هذا مقام العائذ بك كان من أخيك وكان مني كيت وكيت . فقال : والله لو حل قتلك لوجدتني مسرعاً إلى ذلك ففارقها وضرب خيمة على قبر أخيه وأنشأ يقول :

هجرتك أيام الحياة وأبتغي كلامك لما سرت رميمًا وأعظما
ذكرت ذنوبًا منك كنت احترمتها أنا منك فيها كنت أسوأ وأظلما

فلم يزل مقيمًا على قبر أخيه حتى مات ودفن إلى جانب أخيه - رحمة الله عليهما - والقبران معروفان . وحكي أيضًا أن رجلا من الأنصار يعرف بعمرو بن الصلت من أهل المدينة صادق رجلاً من أهل العراق يعرف محمد بن الحكم الثقفي وكان على غاية من العلم والأدب والفضل فكان العراقي يقيم عند المدني حولاً ثم يرحلان فيقيماني عند العراقي حولاً حتى اشتهر أمر المدني بالعراق وأمر العراقي بالمدينة فشق ذلك على امرأة المدني لما تلقاه من طول غيبة زوجها فبعثت إلى أخ لها فشكت إليها ما ابتليت به من طول غيبة زوجها عنها وسألته أن يصاحب العراقي ويلاطفه ويتحجب إليه وجعلت تبعث إلى أخيها بالطرف فيدفعها إلى العراقي فلما طال ذلك وغمرته بإحسانها قال له العراقي : يا أخي هل من حاجة ؟ قال : إي والله يا أخي من أعظم الحوائج وقد كتمتها حتى خشيت التلف على نفسي وأنا عاشق لامرأة من أهل المدينة وأنا أحب أن تقول لي فيها أبياتاً حسنة مع كلام لطيف تعطفها به عليّ وتعرفها أن طول مقامي في المدينة من أجلها فلعل الله أن ينفعني بذلك ، وكان هذا مكرماً من امرأة المدني فقال له العراقي : والله لقد سألتني عظيماً من الأمر ولكني مجيبك إليه على ما أخافه من الإثم ثم قال في ذلك :

إلى الله أشكو لا إلى غيره الذي صبرت على كتمانته واحتماله
أعالج من كسب تضمنه الصدر فلما خشيت الموت أظهرت سرها
زماناً فلما طال بي ذهب الصبر وسميتها في الشعر إذ غلب الأمر
إليها رسولاً والرسول خبر وأرسلت سرّاً في الخلاء تلتطفاً
ويتشدد هو شعري وقل له شعر ليعلما حالي وطول جفايتي
وفي القلب والأحشاء من حبها جمر أقمتم بها حولين والعقل واله

ثم كتب مع هذه الأبيات كلاماً لطيفاً رقيقاً يخبرها فيه بما ابتلي من حبها وأن طول مقامه بالمدينة من أجلها ثم دفع الكتاب إلى أخي امرأة المدني فانطلق به إلى أخته فدفعه إليها فلما دخل عليها زوجها بكت في وجهه وأظهرت له حزناً فقال لها : ما يبكيك فأبت أن تخبره وعدت بذلك أيام وهي في حال هم وتفجع فلما رأى المدني حال امرأته حلف لها بالأيمان المغلظة أنه يتزوج عليها إن لم تخبره بحالها فقالت : والله إن أخبرتك بحالي إنها لبلية ولئن كتمتها لهي أعظم ، ثم ألقت إليه الكتاب ، وقالت : أتعرف من كتب هذا ؟ فلما نظر إلى الخط عرفه وقرأ الكتاب فلم يدخله شك أنه خط العراقي وشعره فعلم ذلك عليه وأسر إلى امرأته أنه قاتله . فقالت : لست أرى ذلك بأنك إن فعلت ذلك فضحتي وفضحت نفسك ولكن أظهر له الجفوة فإنه سيرحل عنك ففعل ذلك وذكر للعراقي الكتاب والشعر فعلم أن ذلك من مكر امرأة المدني وخاض الناس في تغيير ما كان بينهما من الملاطفة فأقام العراقي أياماً ثم ارتحل وأنشأ يقول :

مكرت بي خليله المرء عمرو	إذ رأنتني أخلصت ودي عمرا
إن مكر النساء يا عمرو قد أظهر	عذري وما أرى لك عذرا
وأتاني أخو خليله عمرو	في خلاء تلطفاً منه سـرا
فشكى ما به من الوجد خدعا	هزواً بي وقال قل لي شمرا
واكتسبت في الكتاب طول مقامي	والذي بي وكان ذلك مـكرا

ثم كتب هذه الأبيات وبعث بها إلى المدني فلما رآها دخل على امرأته فقال لها : إنني أعطي الله تعالى عهداً لئن كتمتني شيئاً مما أسئلك عنه إنني أذبك حية فعلمت ما أراد فقالت : أعطني أماناً وأنا أصدقك فأعطاه الأمان من القتل فأخبرته بالذي كان من مكرها بالعراقي ، فطلقها وخرج في طلب صاحبه فجعل كلما مر بمنهل يسأل عليه فيقال : إنه مر بمنزله أيام ، وأصاب العراقي في سفره علة فلما انتهى إلى ماء لبني أسد مات فدفن هنالك - رحمه الله - وأقبل المدني حتى نزل بذلك المكان فسأل عنه فأخبر أنه مات ، وجاء على قبره فضرب عليه خيمة ولم يزل يرثيه ويبكيه حتى مات - رحمه الله - فدفن إلى جانبه فهما يعرفان

إلى اليوم بقبري الأخوين . أعاذنا الله وإياكم من الكذب ومخالطة أهله بمنة
وفضله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

٢٤ - باب النميمة

اعلم وفقنا الله وإياك أن النميمة تفسد الدين والدنيا ، وتغير القلوب، وتولد
البغضاء، وسفك الدماء، والشتات، وتلف النفوس . قال تعالى: ﴿ ولا تطع كل حلاف
مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ﴾ { القلم: ١٠ - ١٣ }
٣٠٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « شر عباد الله المشاء بالنميمة ،
المفرق بين الأحباب » ^(١) .

٣٠١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من مشى بين اثنين بنميمة سلط الله عليه في
قبره ناراً محرقة إلى يوم القيامة تنهش لحمه حتى يدخل النار » ^(٢) .

٣٠٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا بدخل الجنة قتات » ^(٣) .

٣٠٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من ألقى بين اثنين عداوة فليتبوأ مقعده من
النار ، ومن أصلح بينهما فقد وجبت له على الله الجنة » ^(٤) .

وقال بعض الحكماء : النميمة تهدي إلى القلوب البغضاء ومن واجهك فقد
شتمك ، ومن نقل إليك نقل عنك . فالنميمة تفتح البغضاء والبغضاء تفتح الحقد
والحقد يفتح المحاربة والمحاربة تنقض السنة وتفني العمارة ، وذلك يؤول إلى فساد الأمر
كله . وقال أحد الحكماء أيضاً : من تجرأ لك تجرأ عليك . وقال آخر : الساعي كاذب
لمن سعى له وخاين لمن سعى به . وقيل في ذلك : من جعل المنام عيناً هلك فبلغك
الشر كباغيه لك . وقال آخر : من قال في الناس قالوا فيه .

(١) انظر : « الدر المشور » (٣/ ٣١٠) .

(٢) لم أهد إلى من رواه .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) ، وأبو داود (٤٨٧١) ، والترمذي (٢٠٢٦) .

والقتات : المنام .

(٤) لم أقف عليه فيما بين يدي من كتب .

وقال الأصمعي : شهدت أعرابية توصي ابناً لها فقالت : أي بني ، أمنحك وصيتي وبالله توفيقك ، إياك والنمائم فإنها روح الضغائن وتفرق بين المحيين وإياك والتعرض للعيوب فتصير لك غرضاً ، وخلق أن لا يلبث الغرض على كثرة السهام ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، ومثل لنفسك مثلاً من غيرك فما استحسنته من الناس فاعمل به وما استقبحته منهم فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه ثم أمسكت فقلت : بالله يا أعرابية ألا زدنيه . قالت : يا أعرابي أعجبك كلام العرب ؟ فقلت : أي والله زدنيه . قالت : وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعامل به الناس فأجمع بين السن والحلم والتواضع والحياء واستودعتك الله والسلام .

أعاذنا الله وإياكم من الكذب والنميمة ومن جميع ما يحيط أعمالنا بمنه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم .

٢٥ - باب الغيبة

اعلم أصلحك الله أن الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام وقد عظم الله تعالى أمر الغيبة فقال تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ { الحجرات : ١٢ } وقال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ { الهمزة : ١ } قال : معناه الطاعن في الناس الذي يأكل لحوم الناس .

٣٠٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - « مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم فقليل هؤلاء الذين يغتابون الناس » ^(١) .

٣٠٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد » ^(٢) .

وروى ابن المبارك - رحمه الله - بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ : يا معاذ حدثني حديثاً سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فبكى حتى ظننت أنه لا يسكت ثم قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

(١) حسن : أخرجه أحمد (٢٢٤/٣) ، وأبو داود (٤٨٧٨) .

(٢) قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (١٤٨/٣) : « لم أجد له أصلاً » .

« يا معاذ إني أحدثك بحديث إن زنت حفظته نفعتك وإن ضيعته انقطعت حجبتك عند الله تعالى يوم القيامة . يا معاذ ! إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين يصبح إلى أن يمسي له نور كتور الشمس حتى إذا بلغت به السماء الدنيا ذكرته فكثرت فيقول الملك الموكل بها للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من يقتاب الناس يجاوزني إلى غيري . قال : ثم يأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول له الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بهذا العمل عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم . قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يتتهج نوراً من صيام أو صدقة وصلاة قد يعجب الحفظة فيجاوزون به رلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبير أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالستهم ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرّي له دوي من تسبيح وصلاة وحج وعمرة فيجاوزونه إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك : بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً دخل العجب فيه ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزون به إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه من أحسن واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة كان يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري . قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة فيجاوزون إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا هذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، وقال : وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة ونفقة واجتهاد وورع له

دوي كدوي النحل وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزونه إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه أفلوا به على قلبه إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به ربي إنما أراد بعمله غير الله أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرًا عند العلماء ومبنيًا في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله فهو رياء ، ولا يقبل الله تعالى عمل المرائي ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله وتشيعه الملائكة حتى يقطعون الحجب كلها إلى الله - عز وجل - فيقفون بين يديه يشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله فيقول الله - تبارك وتعالى - : أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على قلبه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي . فتقول الملائكة كلهم : عليه لعنتك ولعنتنا ولعنة أهل السموات السبع ومن فيهن . قال معاذ : قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ . قال : « اقتدي وإن كان في عمرك نقص يا معاذ . حافظ على لسانك من الوقعة في إخوانك من حملة القرآن ، واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ، ولا تترك نفسك بدمهم ، ولا ترفع نفسك عليهم ، ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ، ولا تناجي رجلاً وعندك آخر ، ولا تتعظم على الناس ، ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار . قال الله سبحانه : ﴿ والناشطات نشطا ﴾ . هل تدري ما هن يا معاذ ؟ » قلت : ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله : قال : « كلاب النار تنشط اللحم والعظم » . قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟ قال : « يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه » . قال فما رأيت أحداً أكثر تلاوة للقرآن من معاذ لهذا الحديث . فتأمل أيها الرقيب في علم هذه الخصال واحذرهما .

٣٠٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « للفاجر ثلاث علامات ؛ يملق من شاهده ويغتاب من غاب عنه ويشمت بالمصيبة » (١) .

(١) لم أجد من أخرجه ، والمتن منكر .

٣٠٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » (١) .

فالغيبة بالقلب حرام كما أنها باللسان حرام إلا أن يضطر إلى معرفته بحيث لا يمكنه التجامل فحد الغيبة ما بينه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه أو سمعه وإن كنت صادقاً سواء ذكرت نقصاً في نفسه أو عقله أو ثوبه أو في فعله أو قوله أو نسبه أو داره أو دابته أو أمته أو عبده أو ابنه أو شيء مما يتعلق به حتى قوله أنه واسع الكم أو طويل الذيل .

٣٠٨ - وقد ذكر رجل عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقيل : ما أعجزه ؟ فقال : « اغتبتموه » (٢) .

٣٠٩ - وأشارت عائشة - رضي الله عنها - إلى امرأة أنها قصيرة . فقال لها - صلى الله عليه وسلم - : « اغتبتيها » فقالت : يا رسول الله أليس هي قصيرة ؟ قال : « إنك ذكرت أبيض شيء فيها » (٣) .

فالغيبة لا تقتصر على اللسان بل كل ما يفهم منه غرضاً يكرهه المذكور لو بلغه أو سمعه باليد أو بالرجل أو بالإشارة أو بالحركة أو بالتعريض أو بالمحاكاة فهي غيبة .

وأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات وهو مصر عليها فهو أول من يدخل النار .

(١) ضعيف : أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٧٥٤) ، موقوفاً على ابن عباس - رضي الله عنهما - ، وسنده ضعيف لانقطاعه بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس - رضي الله عنهما - ، وضعفه الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث « الإحياء » (١٥١/٣) .

(٢) ضعيف : قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (١٤٤/٣) : « أخرجه الطبراني بسندٍ ضعيف » ، وهو عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه .

(٣) لم أجده بهذا اللفظ ، والذي وقفت عليه ، ما رويناه في « مسند أحمد » (١٨٩/٦) ، و « سنن أبي داود » (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٣) ، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « حسبك من صفة كذا وكذا - قال بعض الرواة : تعني قصيرة - فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » ، قالت : وحكى له إنساناً ، فقال : « ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا » أه . وهو حديث صحيح .

وأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - : أحب أن أنصرك على عدوك ؟
قال : نعم . قال : فرد الغيبة عن المسلم .

وقال سليمان - عليه السلام - : يا رب أي الأعمال أحب إليك ؟ فقال تعالى :
عشرًا يا سليمان أحدهم لا تذكر عبدًا من عبادي إلا بخير ولا تغتب أحدًا ، ولا تحسد
أحدًا ، فقال : يا رب احبس عني السبعة فقد كفتني هذه . وقال عمر - رضي الله عنه
- أحبكم إلينا قبل أن نلقاكم أحسنكم إثمًا فإذا لقيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقًا فإذا
اختبرناكم فأحبكم إليه أصدقكم قولًا وأكثركم أمانة . وقال عطاء - رحمه الله - عذاب
القبر ثلاثة أثلاث ؛ فثلث من البول ، وثلث من الغيبة ، وثلث من النميمية .

وقال بعض الصالحين : إياكم والغيبة فإنها آدم كلاب الناس .

وعن بعض السلف أنه قال : إذا كان يوم القيامة اجتمع القوم الذين كانوا
يتجالسون في الدنيا على غير طاعة الله تعالى ويتعاونون على المعاصي فيبحثون على
الركب فيعض بعضهم بعضًا وينهش بعضهم بعضًا كالكلاب وهم الذين خرجوا من
الدنيا على غير توبة . عصمنا الله وإياكم من ذلك وأنشدوا :

جزاء المسيء إذا ما اعترف زوال الذنوب على ما اقتترف
وعدد الذنوب على نائب وقد وجب الصفح عنها سرف

وقال بعض أهل العلم أن الغيبة تنقض الوضوء وتفطر الصائم . وكان بعض
الفقهاء يعيد الوضوء من الغيبة . وقال رجل لأحد الحكماء : بلغني أنك اغتبتني فقال له
الحكيم : ما بلغ من قدرك عندي أن أدع لك خلة من ثلاث . قال الرجل : وما
الثلاث ؟ قال الحكيم : إما علم أعمل فكري فيه ، وإما لذة أعقل بها نفسي ، وإما
إقبال على عمل صالح . وقيل الغيبة مثل من نصب منجنيقًا فهو يرمي به حسناته يمينًا
وشمالًا وشرقًا وغربًا .

وقال المؤلف - عفا الله عنه - كان لي عم فتوفي - رحمه الله - بمدينة فاس سنة
خمس وخمسين وخمسمائة فرأيته بعد ذلك في النوم وهو داخل عليّ في داري فقامت
إليه فتلقته بقرب الباب وسلمت عليه فدخل ودخلت خلفه فلما توسطت البيت
قعد وأسند ظهره إلى الجدار فقعدت بين يديه فرأته شاحب اللون متغيرًا فقلت له :

يا عماء ! ماذا لقيت من ربك ؟ فقال : ما يلقي من الكريم غير أنه يا بني سمح يلقي كل شيء إلا الغيبة فإنني حتى الآن محبوبس فيها ما سمح لي بعد فانا أوصيك يا بني إياك والغيبة فما رأيت في هذه الدار شيئاً أشد طلباً من الغيبة وتركني وانصرف رحمه الله .

وقال الحسن - رحمه الله - ثلاثة لا غيبة فيهم ؛ صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والإمام الجائر - فهؤلاء يجمعهم مجاهرون لا يكره الذكر فيهم .
أعاذنا الله وإياكم من الغيبة والتحدث بها والاستماع إليها ومجالسة أهلها بمنه وفضله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢٦ - باب : الكلام فيما لا يعني

فإياك يا أخي والكلام فيما لا يعني فإنه من اشتغل بغير المهم أضر بالمهم .

واعلم أن عمرك أنفاس معدودة وكل نفس من أنفاسك جوهره لا قيمة لها فالتكلم بالفضول كمن أخذ جوهره نفيسة ورمى بها في مزبلة فهو ظالم لأن معنى الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، قال القائل : نفائس أنفاس أضعت وإنها لمثمنه لو لم يكن ثم حرمان ، قال الله تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ { النساء : ١٤ } معناه : ترك الكلام فيما لا يعني والاقتصار على المهم ففيه النجاة ، وقال الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ { الأحزاب : ٧١ }

١١٠ - وسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ما يدخل الناس الجنة ؟ قال : « تقوى الله وحسن الخلق » وقيل له - صلى الله عليه وسلم - فما يدخلهم النار ؟ قال : « الأجوفان : الفم والفرج » ^(١) .

والتقوى واجتناب كل أمر يخاف منه ضررا في دينك .

قال الله سبحانه : ﴿ إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاءا حسابا ﴾ { النبأ : ٣١ - ٣٦ }

(١) حسن : أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) ، والبخاري في « الادب المفرد » (٢٨٩ ، ٢٩٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) ، وأحمد (٣٩٢/٢) ، والحاكم (٣٢٤/٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » رقم (٤) ، وابن حبان (٤٧٦) .

٣١١- وقال - صلى الله عليه وسلم : « من وقى شر فكيه وذبيذبه ولقلقه وقبقيه فهو موفي » ^(١) . والقبب : البطن ، والذذبذب : الفرج ، واللقلق : اللسان .

٣١٢- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من سره أن يسلم فليلزم الصمت » ^(٢) .

٣١٣- وقال معاذ - رضي الله عنه - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله أنزأخذ بما نتكلم ؟ قال : « تكلمك أمك يا معاذ بن جبل فهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ^(٣) .

٣١٤- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله تعالى اللسان على حدته » ^(٤) .

وقيل لعيسى - عليه السلام - : دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لا تنطقوا أبداً . قالوا : لا بد لنا من ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلا بخير .

٣١٥- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اخزن لسانك إلا من خير فإن بذلك تغلب الشيطان » ^(٥) .

(١) ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٤٠٩) بسندٍ ضعيف . وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع الصغير » (٥٨٩١) .

(٢) ضعيف جداً : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٩٣٧) . وفي سننه عثمان بن عبد الرحمن الواقسي ، متروك الحديث .

(٣) صحيح : أخرجه ابن أبي شيبه في « الإيمان » (٢) ، وابن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » رقم (١٩٧) ، والهيثم بن كليب الشاشي في « مسنده » (١٣٦٦) ، وهناد في « الزهد » (١٠٩٠) ، والطبراني في « كبيره » (ج ٢٠ رقم ٢٩١ - ٢٩٤) ، والحاكم (٧٦/٢ ، ٤١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧٦/٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٠/٩) .

(٤) ضعيف مرفوعاً ، صحيح موقوفاً : أخرجه البيهقي (٤٩٤٧ - في الشعب) ، مرفوعاً بسندٍ ضعيف ، والصواب وقفه على أبي بكر من قوله ، كما عند مالك (٢ / ٩٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (١٣) .

(٥) ضعيف : أخرجه أبو يعلى (٢٨٣/٢) ، والطبراني في « الصغير » (٩٤٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٩٢/٧ - ٣٩٣) ، من حديث أبي سعيد الخدري . وفي سننه ليث بن أبي سليم ، ضعيف ، ومجاهد تكلموا في سماعه من أبي سعيد الخدري . راجع : أحكام المراسيل « للعلائي » (ص ٣٣٧) .

٣١٦- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى عند لسان كل ناطق فليتق الله ، امرؤ علم ما يقول » (١) .

٣١٧- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يستكمل أحدكم - أو قال - امرؤ حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه » (٢) .

قال امرؤ القيس : إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ، فليس على شيء سواء بخزان

٣١٨- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٣) .

٣١٩- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن خطايا ابن آدم في لسانه » (٤) .

٣٢٠- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لسان العامل من وراء قلبه فإذا أراد الكلام يرجع إلى قلبه فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بما عرض له » (٥) .

٣٢١- وروي أن رجلاً تكلم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كم دون لسانك من حجاب » فقال الرجل : شفتاي وأسناني ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « فإن الله يكره الإنفاق في الكلام فنضر الله وجه امرءاً أوجز في كلامه واقتصر على حاجته » (٦) .

(١) ضعيف : أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٣٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٤/٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٢٩/٩) ، وهو مرسل ضعيف .

(٢) ضعيف : أخرجه الطبراني في « الصغير » (٧٢/٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٩٣) ، من حديث أنس ، بسند ضعيف .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (١٥٨٥ ، ٦٠١٨ ، ٦١٣٦ ، ٦١٣٨ ، ٦٤٧٥) ، ومسلم (٤٧) ، وأبو داود (٥١٣٢) ، وابن ماجه (٣٩٧١) ، وأحمد (٢٦٧/٢ ، ٢٦٩ ، ٤٣٣ ، ٤٦٣) ، من حديث أبي هريرة .

(٤) حسن : أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » برقم (٤٩٣٣) ، من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - ، وحسنه المنذري في « الترغيب والترهيب » (٥١٥/٣) .

(٥) قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (١١١/٣) : « لم أجده مرفوعاً » .

(٦) ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٧٣٠) ، بسندٍ ضعيفٍ لأنه مرسل .

٣٢٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت خلقه وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة » (١) .
فانظر كيف قلب الناس المعنى فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان .

٣٢٣ - وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » (٢) .

٣٢٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في الجنة » (٣) .

٣٢٥ - وقال أنس - رضي الله عنه - استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فجاءت أمه فمحت التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئاً لك الجنة فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « وما يدريك لعل ابنك كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يعنيه » (٤) .

٣٢٦ - وفي حديث آخر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد كعباً فسأل عنه فقالوا : هو مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال : « أبشر يا كعب » فقالت له أمه : هنيئاً لك الجنة يا كعب . فقال - صلى الله عليه وسلم - « من هذه المتألية على الله » قال : هي أمي يا رسول الله . فقال : « وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه » (٥) .

(١) ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٤٣)، والطبراني في « الكبير » ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٢٢٩/١٠) : « رواه الطبراني من طريق نصيح العنسي عن ركب ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » أهـ .
(٢) صحيح : أخرجه مالك (٢/٩٨٥) ، والترمذي (٢٣١٩) ، وابن ماجه (٣٩٦٩) ، والحاكم (٤٥/١) ، وابن حبان (٢٨٧) .

(٣) صحيح : أخرجه مالك (٢/٩٨٥) والبخاري (٦٤٧٨) والحاكم (٤/٥٩٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٨٣٢)

(٤) حسن : أخرجه الترمذي (٢٣١٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (١٠٩) ، وأبو يعلى (٤٠١٧) .

(٥) ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (١١٠) ، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٣/١٥٤) ،

بسندٍ ضعيف ، انظر : « مجمع الزوائد » للهيتمي (٣٠٣/١٠) .

وقال عيسى - عليه السلام - العبادة عشرة أجزاء ؛ تسعة أعشار العبادة في الصمت إن مريم عليها السلام لما نذرت ألا تتكلم حبست لسانها لأجل الله تعالى فأطلق الله سبحانه لسان صبي أبكم لا يعرف الخطاب وأنطقه لأجلها لمن حفظ لسانه لأجل الله تعالى في الدنيا أطلق الله عز وجل لسانه بالشهادة عند الموت والرحيل إلى المولى .

٣٢٧- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به » (١) .

فلذلك كان الصديق - رضي الله عنه يضع في فيه حجراً يمنع به نفسه من الكلام

٣٢٨- وسأل معاذ - رضي الله عنه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الأعمال أفضل ؟ « فأخرج لسانه ووضع عليه يده » (٢) .

وقال علي - رضي الله عنه - في وصيته لابنه الحسن - عليهما السلام : يا بني دع القول فيما تعرف والنظر فيما لم تكلف وامسك في طريق إذا خفت ضلاله فإن الكف عند حيز الضلالة خير من الأهوال وامسك عليك لسانك فإن تلاف المرء في منطقه وما فرط من صمته أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقتك وأنشد في ذلك :

احفظ لسانك إن اللسان سريع إلى السوء قتله
وإن اللسان دليل القواد يدل الرجال على عقله

وذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطب الناس فقال : إن ربكم تبارك وتعالى يقول: يا ابن آدم لم تحرض الناس على الخير وتدع ذلك من نفسك . يا ابن آدم لم تذكرني الناس وتساني . يا ابن آدم لم تدعني وتفرمني إن كنت كما تقول فأحبس لسانك واذكر خطيئتك واقعد في بيتك .

(١) ضعيف : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧٤/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٧٢) ، من حديث ابن عمر ، وفي سنده عمر بن راشد ضعيف .

(٢) ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٢) ، بسند ضعيف ، وقد ضعفه العراقي في « تخریج أحاديث الإحياء » (١١٠/٣) .

وفي الخبر أنه جاء في بعض صحف إبراهيم - عليه السلام - وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه وينصب كلامه من عمله قل كلامه إلا من ذكر الله تعالى . وحكي عن مالك بن دينار - رضي الله عنه - أنه قال : إذا رأيت قساوة قلبك ووهناً في بدنك أو حرماناً في رزقك فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعينك . وقال أحد الحكماء : العاقل من عقل لسانه إلا من ذكر الله تعالى ، والأحمق من جهل قدر نفسه . وقال آخر : الصمت مع فقد الخطأ في حينه أفضل من المنطق المصيب في غير أوانه . وقال آخر : أوثق الأمور ترك الخوض في الفضول وقلة السقط بالكلام ولزوم الصواب في الأقوال والأفعال .

وفي الخبر أن الحسين - رحمه الله - قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان يكتبان عملك فاعمل ما شئت وأقلل أو أكثر .

وقيل : إن المتكلم يملئ على ربه كتاباً فيملئ ما شاء فإن كل ما يلفظ به الإنسان أحصاه الله ونسوه . ويروى أن سليمان - عليه السلام - بعث بعض عفاريتة لبعض حوائجه وبعث نفرًا ينظرون ما يصنع ويخبرونه بذلك فأخبروه أنه مر على السوق فرفع طرفه إلى السماء ثم نظر إلى الناس فسأله سليمان - عليه السلام - حين رجع عن فعله ؟ فقال : عجبت من الملائكة ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون . وقال إبراهيم بن أدهم - رضي الله عنه - يهلك الناس في خلتين فضول المال وفضول الكلام .

وسئل بعض الحكماء : أي شيء أصعب على الإنسان ؟ فقال : أن يعرف عيب نفسه ، وأن يمسك عما لا ينبغي له أن يتكلم فيه . وقيل للقمان الحكيم - رحمه الله - : ما حكمتك ؟ فقال : لا أسأل عما لقيت ولا أتكلم فيما لا يعني .

ودخل لقمان - رحمه الله - على داود - عليه السلام - وهو يرد الدرع ولم يك لقمان يره قبل فجعل يعجب مما رأى فأراد أن يسأله فمنعته حكمته فأمسك ولم يناله ، وقيل أنه تردد إليه سنة كاملة يريد أن يعلم ذلك وتمنعه الحكمة أن يسأله فلما فرغ داود - عليه السلام - من الدرع قام فلبسه ثم قال : نعم الدرع للحرب . فقال لقمان : الصمت زين وقليل فاعله . أي حصل له العلم من غير سؤال .

وقال لقمان لابنه : يا بني إن من يرحم يُرحم ، ومن صمت يسلم ، ومن يفعل الخير يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم .
وأنشدوا في مثل ذلك :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يقتلنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لسانه الأقران
وقيل : إن جميع الأعضاء تكفر كل يوم إلى اللسان فتقول له : ناشدناك
الله تعالى أن تستقيم فإنك إن استقيمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا .

وقال بعض الحكماء : مقتل الرجل بين فكيه .
وقال آخر : عقل المرء مخبوءٌ تحت لسانه .
وقال آخر : احبس لسانك قبل أن يطول حبسك أو يتلف نفسك فلا شيء
لولي بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب .
وقال : الكلام سهام مفرقة في فمي الشفاه إما صائبة ، وأما خاطئة فإذا
أراها فإن أصابت الغرض فذاك وإن أخطأت رجعت إليك ، وعاد ويلها عليك ،
وقال لسان المرء كاتب قلبه إذا أملى عليه شيئاً أتى به .

وقال سفيان الثوري - رحمه الله - لأصحابه يوماً : أخبروني لو كان معكم
من يرفع حديثكم إلى السلطان أكنتم تتكلمون بشيء ؟ قالوا : لا . قال : فإن
معكم من يرفع حديثكم وهم الحفظة . وهذه إشارة إلى قوله تعالى (إن عليكم
لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون).

وقال بعض الحكماء : ترك بعض الحكماء ترك فضول الكلام يثمر النطق
بالحكمة وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية وترك فضول الطعام يثمر حلاوة
لذة العبادة وترك الضحك يثمر جلالة الهيبة وترك الرغبة والحرص يثمران الجنة كما
أنهما أخرج آدم عليه السلام - من الجنة وترك التجسس يثمر صلاح العيوب وترك
التوهم في الله تعالى ينفي الشك والتغالي .

وقال الأصمعي - رحمه الله - : مررت ببجبانة في بعض أحياء العرب فإذا أنا
بصبية جالسة بين قبرين تنظر من وصوص برقع يحار الناظر في وصفها ويعجز

البليغ عن نعتها فوقفت عليها فإذا هي تقول اللهم إنك خلقت أبوي قبل أن تخلقني ثم خلقتني منهما بعد أن خلقتهما فلك الحمد حمداً شمع فارتفع ولاح فسطح حمداً لا يغني لبدًا ولا يحصي عددًا اللهم أعقبني بعدهما صبراً وإيماناً ومغفرة ورضواناً ، قال فبقيت والله متعجباً لما سمعت من قولها وفصاحتها متحيراً لما رأيت من جمالها فدعا والله ذلك إلى أن سألتها فقلت : بالله يا إنسانة من أنت ؟ فقالت : والله يا هذا ما أنا لك بمحرم فتستحل خطابي لكن ممن الرجل ؟ قلت : من تميم ، قالت : يا بني تميم أخزى الله حيكم وميتكم ومن كان منكم مستقراً في أرحام النساء ومستودعاً في أصلاب الرجال فوالله ما أطعتم قول الله عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ ولا نهاكم قول الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

قال الأصمعي : فمضيت والله مستحياً من كلامها وتوييخها مع صغر سنها ولم أدر ما أرد عليها فسألت عنها فأخبرت يتيمة في حجر عمتها فرجعت إلى البصرة فحدثت بذلك الهيثم بن خالد وكان من أشرف قومها فأعجبه ما سمع من فصاحتها وجمالها فسألني الخروج معه إلى عمتها ليخطبها على نفسه فخرجنا إليه وكنا عليه وذكرنا له القصة فقال : هي ابنة أخي والله ما لنا معها أمر في نفوسنا فكيف في نفسها ، ولكني أستأمرها لكم ثم دخل وخرج وقال : صاحببتكم وراء الستر فكلموها . قال الأصمعي : فقلت لها : السلام عليك يا بنية هذا ابن عمك وشريكك في النسب يخطبك لنفسه وهو يئذ لك الجزيل من العطاء هذا ألف دينار مبارك لك فيها مع ما يتبعها من إصلاح شأنك . فقالت : اللهم عن العصاة منك بالسلام وادخر لهم الخيرات في دار المقام نعم الله بكما وحيًا وجوهكما سمعت كلامك يا عماء أسبغ الله نعمك بإيذاع الشكر حتى تستوجب المزيد ، والله ما قلت إلا خيراً ولا أردت إلا سداداً لكن أردت أن تزوجني عراقياً حضرياً إن تكلمت زجرني فإن مددت يدي كتمني كلا إن ربي لواسع كريم لا تزوجت إلا رجلاً كامل ثلاث خلال العقل واللسان والجمال لأنه إذا كان عاقلاً داراني ، وإذا كان لسنا أرضاني ، وإذا كان جميلاً ألهاني انصرفاً حفظكما الله . فقمنا بغير حاجة مستحين وزاد إعجابي بها أضعافاً .

وحكي أن أبا العباس عبد الله بن محمد السفاح كان قد تزوج أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي ف وقعت من قلبه موقعاً لطيفاً وأحبها حباً شديداً فحلف لها أن لا يتزوج عليها امرأة ولا يتخذ معها سرية فوفى لها بذلك ، قال : فدخل عليه خالد بن صفوان يوماً وكان من أخواله فلما خلا به قال له : يا أمير المؤمنين إني فكرت في أمرك وسعة ملكك وإنك قد ملكت امرأة واقتصرت عليها فإن مرضت مرضت وإن حاضت حضت وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجوارى ومعرفة اختلاف حالها تهفو لأجناس التمتع بما تشتهي منهن ، إن منهن يا أمير المؤمنين الفضة البيضاء والعتيقة الأدمى والذهبية السمراء والبربرية الفخر أو الولدات المذنبات اللواتي يفتن بمحاورتهن ويحلفن بحلاوتهن ، وأين أنت يا أمير المؤمنين عن بنات الأحرار والنظر إليهن فيما عندهن من الحياء والخفر والدلال والتعطر وأطيب خالد بلسانه فلما فرغ من كلامه استعاد أبو العباس وحس موقع كلامه منه وتشوق إلى ما جمع من الوصف ثم قال له : انصرف فبقي أبو العباس مفكراً مما قال له ، فدخلت عليه أم سلمة فأنكرت ما رأت من مكرمة وقلة بشره ثم قالت : يا أمير المؤمنين هل حدث أمر تكرهه وأتاك خبر ارتعت له ؟ قال : لا والحمد لله ، وكانت من أبر الناس به وأشدهم طلباً لموافقته فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد . فقالت : ما قلت لابن الزانية ، فقال ابنه أينصحني وتشتميه ثم خرجت فأرسلت إلى مواليتها ، وقالت : إن رأيتم خالداً بالباب فاضربوه ونكلوا به وراح خالد مسروراً بحسن موقع حديثه من أبي العباس ولم يشك في الصلة فبينما هو بالباب إذ أقبل الغلمان يسألون عنه . قال : فحفظت الصلة ، فقلت : ها أنا ذا فسبق بعضهم فرأيت في يده خشبة وأيقنت بالشر وركض برذوني فضرب كفله وكاد أن يكسره وأقبل الباكون في طلبي ففهم واستخفيت في منزلي أياماً وعلمت أنني أتيت من قبل أم سلمة وطلبني أمير المؤمنين بعد أيام فلم أشعر إلا بقوم قد هجموا عليّ فقالوا : أجب . فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون لم أردم شيخ أضيع من دمي فكربت إلى دار أمير المؤمنين فوجدته خالياً فرجع إليّ عقلي ورأيت في المجلس بيتاً عليه ستور رقاق فقال لي : يا خالد ! أمير المؤمنين يحب أن تعيد عليه ما وصفت له في آخر مجلس دخلت إليه من وصف النساء ، وسمعت حركة خلف الستر فعلمت أنه أمر مصنوع .

قلت : نعم حدثتك يا أمير المؤمنين إن الحرب اسم الضرة من الضر، وأن أحدًا لم يك عنده امرأتان إلا كان في ضرٍّ وتنغيص . قال : لم يكن هذا حديثك . قلت : وحدثك أن ثلاثة من النساء كالأثافي تغلي عليها القدر أبدًا . قال : برئت من قرابتي من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن كنت سمعت هذا منك ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين وأخبرتكم إن الأربع شر مجموع لمن كن عنده يشيبه ويهرمه ويمرضه ويسقمه . قال : لا والله ما سمعت هذا منك . قلت : وأخبرتكم أن أباكار الإمام رجال . قال خالد : فسمعت ضحكًا من وراء الستر فقلت : نعم يا أمير المؤمنين وأعلمتكم أن بني مخزوم ربحانة قريش وإن عندك رباحنة الرياحين وأنت تطع بعينك إلى غيرها من النساء والإماء . قال أبو العباس : أتكذبني ؟ قلت : أفقتلني فضحك أبو العباس وقيل لي من وراء الستر : صدقت والله يا عمي بهذا حديثه ولكنه غير حديثك ونطق على لسانك يا عماء فقال أبو العباس : قاتلك الله يا خالد . قال : فانسلت وتركتهما يروضان أمرهما فوجهت إليّ أم سلمة عشرة آلاف درهم وثيابًا فاخرة ، وطيبًا نفيسًا وكان أبو العباس بعد إذ رأيته تبسم .

وذكر أن أخوين كان للواحد ابن وللآخر بنت فمات أبو الصبي فكلفتة أمه حتى شب ثم قالت له أمه يوماً يا بني لو صرت إلى عمك فخطبت إليه ابنته كان أجمل بك فسار حتى قدم على عمه فأقبل عليه عمه وأكرمه والطف بمنزله وأقام عنده إلى أن دخلت القابلة ولم يذكر له شيئًا مما جاء فيه فخرج عمه وهو معه من الدار إلى شجرة مظلة تحتها ماء جار فقعد وقعد الفتى وهو يحدثه وإذ بالغنم قد روحت فنظر الفتى إلى كبش ثمين في الغنم فأعجبه ما رأى من حسن منعه فقال : يا عم إنني جئتكم في حاجة قال : يا ابن أخي قضيت كل حاجة جئت فيها . قال الفتى : أريد أن تعطيني هذا الكبش . قال : هو لك فأمر به فربط في أصل الشجرة ثم قال له الفتى : يا عم إن إليك حاجة . قال : يا ابن أخي أولم أقضي حاجتك؟ قال : يا عم ما هذه الحاجة التي جئت فيها !! قال له : اذكر حاجتك . فقال : يا عم أريد أن تزوجني ابتك . قال : لا والله لا أفعل لأنك بدأت بالكثير وتركت

ما جئت فيه فلو زوجتها كان الكل لك ولكن فضلت الكثير فلا أفعل وأنشأ :

ومن ذا يا ابن عمي حين يندو تقضى من حوائجه اثنان
فانظر عاقبة الكلام فيما لا يعني كيف يقطع من المقصود في الدنيا فما ظنك
بذلك في الآخرة ففضول الكلام مذموم وهو الزيادة على ما يعينك من المباح على
قدر الحاجة فمن بلغ إلى مقصوده بكلمة واحدة ثم زاد عليها أخرى كانت فضولاً
أي فضلت عن الحاجة . واعلم أن الحيات سمها في أنيابها والأدمي سمه في لسانه
فما من شيء أعجب من الكلام منه ما هو درياق نافع ومنه ما هو سم قاتل فعليك
درياقه النافع وهو ذكر الله تعالى واحذر سمه القاتل وهو التحدث فيما لا يعني .
وأنشدوا :

الصمت نفع والكلام مضره فلرب نوع في الكلام شفاء
فإذا أردت من الكلام شفاءه لسقام قلبك فالقرآن دواء
وقال ذو النون المصري - رحمه الله - أقمت على باب رجل من الصالحين
أربعين يوماً وهو يخرج لكل صلاة فلا أقدر أن أكلمه لأنه كالواله فمسكته يوماً
وقلت له : يا عبد الله إن لي ببابك أربعين يوماً طمعاً في أن أكلمك فقال لي : إن
لساني سبع وأنا أخاف إن أرسلته أكلني .

٣٢٩ - ولذلك أعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر اللسان فقال : « من
تكفل لي ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » ^(١) .

فاللسان أخص بالقلب من جميع للجوارح لأنه المعبر عنه فمن تكلم في شيء
من الفضول وهو غني عنه أسود بذلك وجه قلبه وأظلم حتى يتمنى الظلام به إلى
إماته قلبه ، فكل متكلم على حافظيه يملي فمن شاء فليله ومن شاء فليكثر فتحفظ
من ذلك جهدك واعلم أن حد ما لا يعني من الكلام هو الذي لو ترك لم يفث
بتركه ثواباً ولا استوجب بذلك عقاباً ، فليتذكر العبد عند ذكر ما لا يعنيه أنه لو

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٤٧٤ ، ٦٨٠٧) ، والترمذي (٢٥٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (٥٩٦٠) ،
وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٢/٣) ، من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه .

ذكر الله تعالى بدلاً عن تلك الكلمة لكانت له كنز من كنوز الجنة .

٣٣٠ - كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبي هريرة - رضي الله عنه - :
« يا أبا هريرة هل أدلك على كنز من كنوز الجنة » . فقال : ما أعظم فقري إلى ذلك
يا رسول الله . قال : « قل لا حول ولا قوة إلا بالله ولا منجنا من الله إلا بالله ولا مفر من
الله إلا إلى الله ، وهل تدري بعد ذلك ما حق العباد على الله تعالى ؟ » قال : الله ورسوله
أعلم . قال : « حقهم عليه ألا يعذب من فعل ذلك منهم »^(١) .
جعلنا الله وإياكم ممن اشتغل بما يعنيه وترك ما لا يعنيه .

٢٧ - باب التجسس

اعلم أن التجسس من عيوب الناس وطلب مساويهم بيدي العورات ويكشف
المخفيات ، وقد نهى الله تعالى عن ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾
فاتق الله تعالى وليردنك عيب نفسك عن عيوب الناس ولا تكن كمثل الذباب الذي لا
يقرح على المواضع السليمة من الجسد ولا يترك عليها ويقع على الفروح فينكيها .

وحكي أن قومًا سألوا إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - فقالوا له : ما لنا ندعوا الله
تعالى ولا يستجيب لنا وقد وعدنا الاستجابة ؟ فقال تعالى ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ { غافر
: ٦٠ } فقال إبراهيم من أجل خمسة دعوتم الله فلم يستجب لكم ؛ وذلك أنكم عرفتم
الله فلم تؤدوا إليه حقه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وقلتم : نحب الرسول -
صلى الله عليه وسلم - وضيعتم سنته ، ولعنتم إبليس - لعنه الله - وأطعتموه ، ونظرتم
عيوب الناس وتركتم عيوبكم ، فمن أجل ذلك دعوتم الله تعالى فلم يستجب لكم ،
وقد قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ { البقرة : ٤٠ } .

فمن بحث على مساوي الناس وتبع عوراتهم واشتغل بغيره وترك عيبه سلط الله
عليه من يبحث على مساويه ويشيرها ويتبع عورته ويبيدها وينشرها فالعاقل السعيد من

(١) حسن : أخرجه الترمذي (٣٦٠/١) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٣٥٨/١٣) ، والبيزار (٣٠٨٩ -
كشف) ، والحاكم (٥١٧/١) ، من حديث أبي هريرة . وله شاهد من حديث أبي موسى ، عند البخاري
(٦٣٨٤) ، ومسلم (٢٧٠٤) ، وأبي داود (١٥٢٦) ، والترمذي (٣٤٦١) ، والنسائي في « عمل اليوم
والليلة » (٣٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٢٤) .

نظر في عيوب نفسه وشغله ذلك عن غيره وعن كل شيء سوى الله تعالى .

كما حكى أن القراء اجتمعوا إلى إبراهيم بن أدهم - رضي الله عنه - فقيل له : إن القراء اجتمعوا إليك ليسمعوا ما تحدثهم به من أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنه مشغول عنهم بأربعة أشياء . قيل له : وما هم ؟ قال : لولا ذلك لاني نظرت في يوم الميثاق حيث قال تعالى : هؤلاء للجنة ولها أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي فلا أدري في أي الفريقين كنت حينئذ ، والثانية عند خلقي في الرحم حيث قال الملك الموكل بالأرحام : يا رب أشقي أم سعيد ؟ فلا أدري بما خرج الجواب في ذلك الوقت ، والثالث : عند قبض روحي حيث يقول الملك الموكل بقبض الأرواح : يا رب أمع الأبرار أم مع الفجار ؟ فلا أدري كيف يخرج بالجواب في ذلك الوقت ، والرابعة عند قوله تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ { يس : ٥٩ } فلا أدري في أي الفريقين أكون ؟ فانظر اشتغاله بنفسه عن غيره وطلبه مايعنيه واشتغاله بعواقب الأمور .

٣٣١ - وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - عن الله تبارك وتعالى - أنه قال : يا موسى خمس كلمات ختمت بهن التوراة فإن عملت بهن نفعتك علم التوراة وإن لم تعمل بهن لم ينفعك علم التوراة : أولهن : يا موسى كن واثقاً برزقي في المضمون لك ما لم تر خزائني فقدت ، والثانية : يا موسى لا تخافن سلطان الأرض ما لم تر سلطاني زائلاً ، الثالثة : يا موسى لا تجسسن على عيب أحد ما لم تخل من العيوب ، الرابعة : يا موسى لا تدعن محاربة الشيطان ما دام روحك في جسدك ، الخامسة : يا موسى لا تأمنن عقابي لو ترى نفسك في الجنة ^(١) . جعلنا الله وإياكم ممن أبصر عيب نفسه فرده ذلك عن عيوب الناس بمنه وفضله .

٢٨ - باب فضيحة من يستتر بمعصية

فإياك يا أخي أن تفضح من يستتر بمعصية واعلم أن الله تعالى قد ستر عليه فأخشى عليك إن أنت فضحته أن يفضحك الله في الدنيا والآخرة ، وإن أنت سترت عليه ستر الله عليك العورات ويرد عنك من يريد فضيحتك ولا تُعير أخاك بما فيه فإني أخشى عليك أن يبتليك الله بما فيه ولا تستر على الفاجر الظاهر فجوره ولا على الخائن على من لا يستتر بمعصية .

(١) لم أقف على من رواه .

٣٣٢ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فسترها عليه إلا دخل الجنة » (١) .

٣٣٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أقال مسلماً عشرته أقال الله عشرته يوم القيامة » (٢) . أعاذنا الله وإياكم من ذلك بمنه .

٢٩ - باب المن بالإنفاق والجود

وإياك يا أخي أن تمن بإفضالك وجودك أو مشاركتك أو بشيء مما توليه من صدقة أو سعي في حاجة أو كلام طيب أو هدية أو إطعام طعام أو بشيء تبذله إلى أحد فإن المن به يبطل الثواب عليه فلا تظن أنك أنت المحسن إلى الذي يأخذ الصدقة منك بل هو المحسن بالحقيقة إليك لأنه سبب طهارتك من ذنوبك ولا إلى سبب أخذه لبقيت آثامك عليك ولولا الحجام الذي يخرج عنك الدم الرديء الذي تخاف الضرر منه لبقيت دمك فيك ولم تقدر على إخراجه عنك حتى ربما غلب عليك فقتلك ، وكذلك الغلغل هو الذي يخرج الأوساخ من ثيابك فاعتبر ذلك بعقلك واعلم أن الذي يأخذ الصدقة منك والصلة هو المتفضل عليك بأخذها منك .

واعلم أن كل معروف صدقة وكل ما وقى الإنسان عرض كُتِبَ له صدقة ، وبه ورد الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أذى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ { البقرة : ٢٦٢ }

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأذى كَالَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ترَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ { البقرة : ٢٦٤ }

(١) صحيح : أخرجه الحميدي (٣٨٤) ، وأحمد (٤/١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (ج١٧ رقم ٧٩٥) . من حديث عقبة بن عامر .
(٢) سبق تخريجه .

وبلغنا أن الله أوحى إلى بعض الأنبياء : إنما مثل الصدقة كرجل قتل قتيلاً وأراد أهل القتل أن يقتلوه به فقال الرجل : أنا أفدي نفسي فلم يزل يعطي شيئاً من بعد شيء حتى أنقذ نفسه من القتل كذلك الصدقة تنقذ صاحبها من النار فالمن بها يفسد أجرها ويحبط ثواب ذلك ، والصدقة ليست تخص بالمال وحده بل كان ما توليه المؤمنين من المنافع صدقة فلا تفسد أجرك بالمن واتركه في صحيفتك فإن النعم بالمن تكفر أعاذنا الله وإياكم من المن يبسير تفضل منه علينا بمنه وفضله .

٣٠ - باب الزنا

اعلم أن الزنا من الكبائر وهو مشؤوم في الدنيا والآخرة ، ووبال على صاحبه ، وقد نهى الله تعالى عنه في غير موضع من كتابه العزيز قال الله - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ { الإسراء : ٣٢ } وقال سبحانه : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ { النور : ٢ - ٣ } وقال - عز وجل - : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم غير ملومين ﴾ { المؤمنون : ٥ } ، وقال - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه - : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ { النور : ٣٣ }

وقال تعالى : ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ { النساء : ١٣ - ١٤ }

٣٣٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ^(١) .

أراد بذلك أن الزنا مبعث عن الله تعالى موجب للمقت من الله عز وجل .

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) ، وأبو داود (٤٦٨٩) ، والترمذي (٢٦٢٥) ، والنسائي (٣٩٣٦) ، وابن ماجه (٦٤/٨ ، ٦٥) .

٣٣٥- وفي الخبر أن شاباً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له : يا رسول الله أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس فيه . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « أدن مني » فدنا منه فقال له : « أتحبه لأملك ؟ » قال : لا . جعلني الله فداك . قال : « كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم » ، ثم قال : « أتحبه لابتتك » قال : لا . قال : « كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » حتى ذكر الأخت والحالة والعمة ويقول كذلك الناس لا يحبونه ثم وضع يده على صدره وقال : « اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه » ^(١) . فلم يك بعد ذلك شيء أبغض إليه من الزنا .

٣٣٦- وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال أي ذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو الذي خلقك » . قال له : مه . قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قال : ثم مه . قال : « أن تأتي حليلة جارك » ^(٢) . فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ { الفرقان : ٦٨ - ٧٠ }

٣٣٧- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لما خلقت المرأة قال لها إبليس - لعنه الله - : أنت نصف جندي وأنت موضع سري وأنت سهمي الذي أرمي به وما أخطئ » . فتحفظ رحمك الله من سهم الشيطان الذي يرمي به ولا يخطئ .

وانظر في حيله تتخلص بها من إذاية جنده وفتكهم بك .

٣٣٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الزنا أكبر الكبائر والزاني عليه اللعنة من الله ومن الملائكة إلى يوم القيامة فإن تاب تاب الله عليه » ^(٣) .

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٢٥٦/٥ - ٢٥٧) ، والطبراني في « الكبير » (٧٦٧٩) ، من حديث أبي أمامة .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٤٧٧) ، ومسلم (٨٦) ، والترمذي (٣١٨٢) ، والنسائي (٨٩/٧ ، ٩٠) .

والند : الثيل والنظير .

(٣) لم أجد من أخرجه .

٣٣٩- وفي الخبر الصحيح أن رجلاً قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
إني عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا الوطء ، فأقضي عليَّ بحكم الله تعالى .
فقال - صلى الله عليه وسلم - : « أو ما صليت معنا صلاة الغداة » قال : بلى يا
رسول الله . فقال - عليه السلام - : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى
للذاكرين ﴾ (١) .

٣٤٠- فهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغير إذ جعل الصلاة كفارة
بمقتضى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا
الكبائر » (٢) .

٣٤١- وسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن علامات المؤمن وعلامات
المنافق فقال : « علامة المؤمن أن يجعل الله شهوته في الصلاة والصيام ، وعلامة المنافق
أن يجعل الله تعالى شهوته في بطنه وفرجه » (٣) .

٣٤٢- وسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما يدخل الناس الجنة ؟ قال :
« تقوى الله وحسن الخلق » قيل له : فما يدخل الناس النار ؟ قال : « الأجوفان الفم
والفرج » (٤) .

٣٤٣- وقال رجل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : علمني عملاً يدخلني
الجنة فقال : « اعمل بعمل الأبرار ولا تبتسم في وجه الفجار » (٥) .
وليست المعاصي من عمل الأبرار بل تترك المباح خوفاً من المحظور .

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٥٢٦ ، ٤٦٨٧) ، ومسلم (٢٧٦٣) ، والترمذي (٣١١٤) ، والنسائي في
« التفسير » (٢٦٧) ، وابن ماجه (١٣٩٨ ، ٤٢٥٤) ، والبيهقي (١٥٣٨) ، والطيالسي (٢٨٥) ،
وابن حبان (١٧٢٥ - إحصان) ، والواحدي في « أسباب النزول » (ص١٨٤) ، والآية من سورة هود رقم
(١١٤) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٣٣) ، والترمذي (٢١٤) ، وأحمد (٣٥٩/٢) ، وابن حبان (١٧٣٠)

(٣) لم آف على من رواه .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) لم أهد إلى من خرجه .

٣٤٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الزنا يورث الفاقة ويذهب بهاء الوجه ويخلد صاحبه في النار » (١) .

٣٤٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لأبي ذر - رضي الله عنه - : « يا أبا ذر ما لقي العبد الله تعالى بذنب بعد الشرك بالله أعظم من أن يضع بضعة في رحم حرام ، وأن الزاني يسيل من فرجه يوم القيامة صديداً لو وقعت منه قطرة على وجه الأرض لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم نتناً » (٢) .

٣٤٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا معشر المسلمين إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ؛ ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة : فأما اللواتي في الدنيا ؛ فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر ، وأما اللواتي في الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود في النار » (٣) ، وقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ لبس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾ وأنشدوا :

يا من عصى الله في الشباب	وقد أدركه الشيب راقب الله
صحفك بالسيئات قد نشرت	بأي وجه تراك تقراها
أعدد جواباً إذا سئلت هذا	وقرب النار منك مولاهما
يا معشر المذنبين كم رجل	توله النار حين يصصلاها
وكم يمشي على الخدود بها	وجوههم للعذاب تغشاها
يا حسن الوجه فاستعد لها	هذا هو الوصف كيف رؤياها

٣٤٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما من أحد أغير من الله تعالى إن رأى عبده أو أمته تزني ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » (٤) .

(١) باطل : أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٦٦) ، وقال أبو حاتم الرازي : « هذا حديث باطل ، لا اعرفه » انظر : العلل لابنه (١/٤١٠ - ٤١١) . وانظر : الضعيفة رقم (١٤٠) .

(٢) لم أجد من رواه ، والمتن منكر موضوع .

(٣) موضوع : أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/٤٩٣) . وانظر : « السلسلة الضعيفة » برقم (١٤٢) .

(٤) صحيح : أخرجه مالك (١/١٨٦) ، والبخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) ، وأبو عوانة (٢/٣٧٣ - ٣٧٤) ، وأبو داود (١١٩١) مختصراً ، والنسائي (٣/١٣٢ - ١٣٣) ، وابن خزيمة (٢/٣٢٤) ، وابن الجارود في « المتقى » (٢٥٠) ، والبيهقي (٣/٣٣٨) .

ألا وإن في النار لتوابيت من نار فيها أقوام محبوسون في تلك التوابيت فإذا سألوا الراحة فتحت التوابيت فإذا فتحت بلغ شررها أهل جهنم فيستغيثوا بصوت واحد ويقولون اللهم العن أصحاب التوابيت وهم الذين يفتضون فروج النساء حراماً .

وذكر عن علي[ؑ] - رضي الله عنه - فقال كلاماً في آخره أن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح متتة ينادي بها كل بر وفاجر حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ وأملت أن تمسك بأنفاس الناس كلهم ناداهم مناد يسمعهم الصوت فيقول : هل تدررون ما هذه الريح التي أذتكم ؟ فيقولون : لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منا كل مبلغ . فيقال : ألا إنها ريح فروج الزناة .

٣٤٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - « إن الله تعالى لما خلق الجنة قال لها : تكلمي . قالت : سعد من دخلني . فقال الجبار - جل جلاله - وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس ؛ لا يسكنك مدمن الخمر ، ولا مصراً إلى الزنا ، ولا قتاتاً وهو النمام ، ولا ديوناً ولا شرطياً ، ولا مخنتاً ، ولا قاطع رحم ، ولا الذي يقول علي عهد إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » (١) .

فليس المصير على الزنا هو الدائم عليه ولا المدمن الخمر هو الملازم لشربه ولكنه إذا وجد الخمر مشرعاً ولم يمنعها خوف الله سبحانه ومن تهيأ له الزنا ولم يتب من ذلك ولم ينه النفس عن الهوى فإن الجحيم هي المأوى .

وكان ابن عباس - رضي الله عنه يقول لغلمانه : إن أردتم النكاح أنكحتكم فإن العبد إذا زنا خرج الإيمان من قلبه فلا يبقى للقلب إيمان . وقال لقمان - رحمه الله - لابنه : يا بني إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة ومن بعد تلقأثاماً . وأنشدوا :

يا من خلا بمعاصي الله في الظلم في اللوح يكتب فعل السوء بالقلم
بما خلوت وعين الله ناظرة وأنت بالإثم منه غير مكتتم
فهل أمنت من المولى عواقبه يا من عصى الله بعد الشيب والهزم

(١) لم أجده بتمامه ، قاله العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣/١٥٥) .

و ذكر أن شاباً من المتعبدين خرج من متعبده يوماً فلقيته امرأة ذات حسن وجمال فقالت له : يا ولي الله أنظر لي هذه الرقعة فظن الفتى خيراً ولم يبخل بثواب . ثم قالت له : فهلا وقفت وراء الباب ليلاً ترى تتكلم مع امرأة من خلف الباب فظن خيراً ثم قالت له : يا ولي الله : إقرأ لي هذه البطاقة لعل الله تعالى ينفعني بعبادتك فلما دخل الدار قالت له : ردوا الباب وأمرت العبيد والخدم أن يحيطوا به ودعته إلى نفسها فلما رأى أن لا محيص ولا سبيل له إلى النجاة منها قال لها : ادع لي بماء أتوضأ به فإذا ارتكبت معصية كان معها طاعة فقالت : لئن لم تجد فيه لأقتلنك فدخل يجدد الوضوء فرأى طاقة في أعلى الدار فتحيل حتى صعد إليها فنظر فإذا المكان بعيد فقال لنفسه : اختاري هذه الجنة وتلك النار فقالت له نفسه : الجنة أريد . فغمض عينيه وقال : اللهم إني قد بذلتها في مرضاتك ورمى بنفسه من أعلى الدار فأمر الله تعالى الملائكة أن يتلقوه ولم ينله شيء ، وقام سائلاً فمضى فقالت جنود إبليس له كيف تخلص هذا منك ؟ فأرسل إبليس دمعة فقال : ليس سبيلي على من خالف هواه وبذل نفسه في طاعة مولاه .

وذكر أن البحري ابن أبي صفوة كان من أجل فتیان العرب جمالاً وفصاحة ونجدة وكان بنو المهلب يحسدونه لفضله فبعث إليه أم ولد المهلب تراوده عن نفسه فأبى عليها فبعث به إلى المهلب بن أبي صفوة حتى جفا البحري وأعرض عنه فكتب إليه :

جفوت امرءاً لم ينب عما تحبه	وكان إلى ما تشتهيهِ يسارع
كأن أخو ذنب وما كنت مذنباً	ولكن دهنتي التاريات السوابع
بغين أموراً لست بمن أئاؤها	ولو جعلت في ساعداتي المجامع
لأصفو بعرس الجار إن كان غائباً	وتلك الذي يصطك منه المسامع
وما أنا ممن يصطفيه فريدة	ولو أنها بدر من الأفق طالع
وإني لتنهاني خلائق أربع	عن الفحش فيها للكريم روادع
حياة وإسلام وشيب وعفة	وما المرء إلا ما حبته الطبائع
وقد كنت في عصر الشباب مجانباً	صباى فكيف الآن والشيب طالع

وقال : وكشف له عن قصته حتى اتضحت عنده فعاد إلى وده وزاد في تكرمته

وتقريبه .

وقال وهب بن منبه - رضي الله عنه - كان في بني إسرائيل صديق يقال له يوحنا يلبس المسوح ويصوم متواصلاً سبعة أيام وكان لونه كلون الياقوت في صفاء الدر يسطح من بين عينيه نور وكان يعمل القفاف والسلال فيبيعها في سوق بين المقدس فمر ذات يوم بباب من الملوك فنظرت إليه جارية من جواربها فبقيت شاخصة فيه لما رأت من جماله ثم دخلت فقالت يا سيدتي : مرّ بي شاب عجب من العجب قالت : ما هو ؟ قالت : شاب عليه نور كأنه جوهر منظوم . قالت : ويحك أدخله حتى نشترى منه فجعل كلما دخل مقصورة أغلق الباب من خلفه حتى بلغ المجلس فإذا فيه جارية على سرير منضد بالجواهر عليها قميص كأنه ماء مسكوب فبقيت شاخصة تنظر إليه فقال لها : يا أمة الله إما أن تشتري وإما أن أذهب فقالت : ما اسمك ؟ قال يوحنا . قالت : يا يوحنا أما في جمالك وحسنك ما يغنيك عن هذا العمل ؟ قال : ويحك إما أن تشتري وإما أن أخرج . قالت : إنما جئت بك لأحكمك في نفسي . قال : ويحك إني قد قرأت كتاب الله الإنجيل ولا ينبغي لمن قرأ كتاب الله أن يعصيه . قالت : تم فأخذت بيده وأدخلته بيتاً فإذا هو مملوء سدر الدرهم ثم أدخلته بيتاً آخر فإذا هو مملوء بصناديق جوهر ثم قالت له : هذا كله لك على أن أحكمك في نفسي فقال : صف لي ماء حتى أغتسل وكان لها جوسق طوله ثمانون ذراعاً في الهواء فقلت ولم تقم أحدًا من خدمها حتى صببت ماء في إناء بيدها ثم صعد به إلى الجوسق وعمدت إلى منديل فطيبته بالمسك والعنبر رجاء أن يتنشف فيه وجعلته عنده وتوارت عنه ليغتسل وأقامت تنظره فأطال الإقامة فلما أبطأ عليها أمره جاءت إليه فقالت يا يوحنا ما كان منك فقال : إما أن تفرجني عني أو ألقى بنفسي من هذا الجوسق ولا أدخل النار فقالت له : أما إن تطيعني لما دعوتك إليه أو تلقي نفسك كما زعمت فالقى نفسه من الجوسق فأمر الله تعالى الهواء أن أحبس عبدي فمسكه الهواء وبقي قائماً بقدره الله سبحانه ثم أمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقال : أدرك عبدي يوحنا قبل أن يهلك فتناوله جبريل - عليه السلام - من الهواء وأقامه على الأرض وانطلق إلى أهله سالماً بإذن الله تعالى .

وحكى ابن عباس عن كتب الأحبار - رضي الله عنهما - أنه قال : كان في بني إسرائيل صديق منفرد للعبادة فأقام في صومعته دهرًا طويلاً وكان يأتيه ملك في كل يوم وليلة مرتين غدوة وعشية فيقول له الملك : ألك حاجة ؟ فيقول العابد : الله أعلم بحاجتي ، وأنبئ الله له في الحجر فوق صومعته كرمة تحمل له كل يوم بالعنب وكان إذا

عطش مد يده فنتبع منه الماء فلما كان بعد مدة مرت به امرأة لها حسن وجمال عند المغرب فنادته يا عابد . فقال لها : لييك فقالت له : يراك ربك . قال : هو الله الواحد القهار العزيز الجبار الحي القيوم العالم بما في الصدور وياعث من في القبور . قالت له : البلد مني بعيد . قال لها : فما تحمين ؟ قالت له : تبيتني عندك الليلة فإني أخاف على نفسي . قال لها : أصعدي فلما صارت في صومعته رمت ثيابها ونامت عريانة تجلو نفسها عليه فغطى بصره وقال : ويلك استري نفسك فقالت له : لا يضرك أن تتمتع بي الليلة . فقال لنفسه : ما تقولين ؟ فقالت : إني والله أتمتع بها . قال لها : ويحك تريدن سراييل القطران ومقطعات النيران وتذهبين بعبادة طول هذه المدة وليس كل من زنا عفا عنه وإن الزاني ليكب على وجهه في النار وهي نار لا تطفأ وعذابها لا يغني وأخاف أن يغضب الله عليك ولا يرضى عنك أبداً بعدها ، فراودته نفسه على ذلك فقال لها : أعرض عليك ناراً صغيرة فإن صبرت عليها أمتعتك بهذا الجارية هذه الليلة . قال : فملاً الراج دهناً وغلظ الفتيلة والمرأة تسمع وتبصر ثم ألقى يده إلى الفتيلة وهي تتقد فصاح بالفتيلة ملك من ملائكة الله تعالى : أحرقي فأكلت إبهامه ثم أكلت أصابعه ثم أكلت يده فصاحت الجارية صيحة فارقت الدنيا فسترها بثوبها فلما أصبح صرخ إبليس في المدينة أيها الناس العابد قد زنا بفلانة ابنة فلان وقتلها فركب الملك في جنده وأهل مملكته فلما انتهى إلى الصومعة صاح به فأجابه فقال : أين فلانة ابنة فلان ؟ قال : عندي . قال : قل لها تنزل . قال : إنها قد ماتت . قال له : فما رضيت بالزنا حتى قتلت النفس التي حرم الله تعالى فهدم الصومعة وجعل في عنق العابد سلسلة يجره بها وحملت المرأة وجيء بالعابد إلى موقف العذاب وكانت سنة القوم أنهم ينشرون الزاني بالمنشار ويد العابد ملفوفة في كفه وهو لا يعلمهم بقضيته فوضع المنشار على رأسه وقيل لأصحابه جروا فجروا فلما بلغ المنشار إلى دماغه تأوه فأوحى الله إلى جبريل - عليه السلام - أن قل له لا ينطق بشئٍ فهذا أنا أنظر إليه ، وقد أبكى حملة عرشي وسكان سماواتي فوعزتي وجلالي لئن تأوه الثانية لأهدمن السماوات والأرض فما تكلم ولا تأوه حتى مات رحمه الله فلما مات رد الله تعالى على المرأة الروح وقالت : مظلوم والله ما زنى وما أنا إلا بخاتمي ثم قصت عليهم القصة فأخرجوا يده فإذا هي محروقة كما قالت فقالوا : لو علمنا ما نشر وجز العابد نصفين وعادت المرأة كما كانت فحفروا لهما قبراً واحداً فوجدوا فيه مسكاً وكافوراً ثم أتوا بهما ليصلوا عليهما فناداهم مناد من السماء

اصبروا حتى يصلوا عليهما ملائكة السماء فصلت عليهما الملائكة ثم صلى الناس عليهما وقبرا فأنت الله على قبرهما الياسمين ووجد عليهما طومار فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من الله - عز وجل - إلى عبدي ووليي . إني نصبت المنبر تحت عرشي وجمعت ملائكتي وخطب جبريل - عليه السلام - وأشهدت الملائكة إني زوجتك خمسين ألف عروس من الفردوس وهكذا أفعال بأهل الطاعة وأهل المراقبة .

وأنشدوا :

يا من رأى وحشتي فأنسني	بالقرب من قرربة فأمنعني
أبعدني ما جنيت منه فقد	عاد بإحسانه فقربني
وعدت أيضاً فعاد منعطفاً	كذلك من كنت منه عودني
هربت من مسكني إلى سكني	حقاً ومن موطن إلى موطن
وكنت في غفلة فأيقظني	وكنت في رقدة فنبهني
وكنت أخشى مافات من زللي	فجئت مستأمناً فأمني
وأحزني ما لقيت من حزني	حزناً على ما تركت من حزني

وقال الحسن - رحمه الله - كان شاب على عهد عمر - رضي الله عنه - ملازم المسجد والعبادة فهويته جارية وأنته في خلوة فكلمته فحدثته نفسه بذلك فشقه شهقة غشي عليه فجاء عم له فحملة إلى بيته فلما أفاق قال : يا عم أنطلق إلى أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - فأقرئه مني السلام وقل له ما جزاء من خاف مقام ربه فانطلق عمه فأخبر عمر - رضي الله عنه - وقد شقه الفتى شهقة فمات رحمه الله فجاء عمر - رضي الله عنه - حتى وقف عليه وقال : لك جتان . وأنشدوا :

إلهي ذا العلابرد فؤادي	بنور بحبلي صد الفؤاد
بحق العلابدين عليك إلا	مننت على عبيدك بالسداد
بنور معارفي وحياة قلبي	أنال به الوصال إلى التناد

فإياك يا أخي والزنا واستحي ممن هو معك وهو قريب من كل موجود وهو إلى العبيد أقرب من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد ، واتق الله واعلم أنه من غلب عقله هواه افضح فما بال الكرامة من نالها إلا بغلبة الهوى .

كما روي أنه كان في بني إسرائيل رجل تزوج امرأة من بلد أخرى وأرسل ثقة إليها ليسوقها له فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم بالله قال : فنبأه الله تعالى بتركه هواه وكان نبياً في بني إسرائيل ، وأنشدوا :

نوق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطان

قيل لبعض الصوفية : رأينا شخصاً يدخل منزلك بغير إذن فتغير لذلك فقال له : إنه ليس بذلك بأس لأنه محبوب أي خصي قد فقد آلة الشهوة فلذلك يدخل بغير إذن فقال : الحمد لله الذي وعظني بخصي بعد ستين سنة .

فمن أراد أن تفتح له الأبواب ويدخل على الله بغير حجاب فليعتد بأفعال السادة الاحباب في ترك الشهوات السريعة الذهاب فهي السموم المهلكة في الدنيا الموجبة في الآخرة بالتويخ وشدة الحساب ولهزل الإنتقام والعذاب عصمنا الله وإياكم من الزنا بالفرج والعين ومن غلبة الهوى بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليماً .

٣١ - باب اللياطة

اعلم وفقك الله أن اللياطة موضعها كبير في الإثم وضار بالدين ومبعد عن الله عز وجل وموجب للعقوبة والسخط والغضب والحجاب فاعتبر مذمة الله تعالى لقوم لوط في كتابه العزيز وما حل بهم من العقوبة والخسف . قال عز وجل ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ {العنكبوت: ٢٩} وقال سبحانه حكاية عن لوط - عليه السلام - ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ { الشعراء: ١٦٥} وقال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ {العنكبوت: ٣١} ، وقال سبحانه : ﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ {العنكبوت: ٣٤} وقال عز من قائل ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لئرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ {الذاريات: ٣٢} وقال جل ثناؤه ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ﴾

{ هود : ٨٢ - ٨٣ } « ولوطاً آتينا حكماً وعلماً ولجينا من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين » { الانبياء : ٧٤ } وقال عز وجل : « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين » { هود : ٨٢ }

٣٤٩- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من نظر إلى غلام أو إلى ما لا يحل له بشهوة أحبط الله عمله أربعين سنة ولعنته ملائكة السبع سموات وملائكة الأرض السبع وشد الله عليه في أربعة مواضع ؛ عند قبض روحه ، وفي قبره ، وعند الصراط ، وعند الحساب . وإذا قضى الرجل من الرجل شهوة صلب يوم القيامة في مصلب رفيع يعرفه أهل الموقف بذلك العمل ثم يكون مصيره إلى النار ، والنساء مع النساء كذلك يفعل الله بهن » (١) .

٣٥٠- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن في جهنم لكل حسب من ذكر أو أنثى في معصية الله تعالى تنوراً يغلي فيه فتدخل النار من منخره وتخرج من دبره وتدخل من دماغه وتخرج من منخره وتحرق بدنه في كل يوم سبعين مرة » (٢) .

٣٥١- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لتأتين أمتي ما أتى قوم لوط والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي فالرجل بالرجل ، والنساء بالنساء ، وذلك عند اقتراب الساعة » (٣) .

٣٥٢- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط فإذا تكافئ الرجال بالرجال والنساء بالنساء فليرتقبوا العذاب ألا وإن الله تعالى خلقاً لا يعبو بهم لهم أرحام في أصلابهم فإذا عرف ذلك منهم دعوا الرجال إلى أنفسهم » (٤) .

(١) لم أقف على من أخرجه ، والمتن منكر باطل .

(٢) لم أعتد لمن رواه ، والمتن منكر .

(٣) المتن منكر موضوع ، ولم أعتد لمن أخرجه .

(٤) لم أقف عليه بشمامه ، وما وجدته : « إن أخوف ما أخاف على أمتي بعدي عمل قوم لوط » . أخرجه الترمذي (١٤٨٢) ، وابن ماجه (٢٥٦٣) ، وأحمد (٣/٣٨٢) ، والحاكم (٤/٣٥٧) ، من حديث جابر ، وسنده حسن .

٣٥٣- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من عمل قوم لوط بعث يوم القيامة منكربن الخلقة وإذا فشي ذلك في هذه الأمة أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء » (١) ، وذلك معنى قوله عز وجل : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

٣٥٤- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنما أرسل الله تعالى العذاب على قوم لوط لعشر خصال وذلك إنهم كانوا يأتون الرجال ويلعبون بالحمام ويرمون بالجهاليق والحدق وضرب الدفوف وشرب الخمر وقص اللحية وطول الشارب والتصفيق ولبسا الحمرة وتزويد عليهم أمتي بخلة وهي إتيان النساء بعضهم بعضاً ويقال إن العرش ليهتز ويغضب الرب لثلاثة أعمال لقتل نفس بغير حق وإتيان الذكر الذكر وإتيان المرأة المرأة » (٢) .

٣٥٥- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أخوف ما أخاف على أمتي بعد أفعال قوم تتكافئ النساء بالنساء فإذا تكافئ النساء بالنساء فليترقبوا العذاب ، ولا تقوم الساعة حتى يخسف بطوائف من أمتي وتقذف طوائف من أمتي بالحجار من السماء ويمنع بطوائف من أمتي » قيل : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا شربوا الخمر ولبسوا الحرير ، وركبوا النمر ، وتكافئ الرجال بالرجال والنساء بالنساء » (٣) .

وذكر أن سليمان - عليه السلام - دعى عفريتاً من الجن فقال له : أخبرني عن إبليس أين هو ؟ فقال : يا نبي الله أمر فيه بشيء . قال : لا . قال : فانطلق معي حتى أريكه . قال : فركب سليمان - عليه السلام - الريح والعفريت أمامه حتى أتى به إلى اللحية الخضراء فإذا هو إبليس جالس على سريره فلما نظر إلى سليمان - عليه السلام - قام قائماً ، وقال : يا نبي الله أمرت في شيء ؟ قال : لا . ولكنني جئتك في حاجة . قال : وما هي ؟ قال : أخبرني أي شيء أحب إليك من الذنوب أن يأتيه ابن آدم ؟ قال : لولا حق وجب لك علي ما أخبرتك . ليس شيء يأتي ابن آدم أحب إلي من إتيان الرجال بعضهم بعضاً .

(١) لم أمتد إلى من رواه .

(٢) لم أتف عليه .

(٣) سبق تخريجه .

وقال مكحول - رحمه الله - أول من عمل قوم لوط إبليس لعنه الله هو الذي علمهم ذلك العمل أمكنهم من نفسه فنكحوه فتعلموا منه ذلك العمل لما علم من سوء عاقبته . وأنشدوا في ذلك :

قد سودت وجهي المعاصي وأثقلت ظهري الذنوب
أورثني ذكرها سقاماً فليس لي في الوري طبيبٌ
يا شوم نفسي غداة عرضي إذا أحاطت بي الكروبُ
وداعياً قد دعان بأسهمي أين مفري وما أجيبُ
هذا كتاب الذنوب فاقرأ فعندها تظهر العيوبُ

وقال علي - عليه السلام - عقوبة من عمل قوم لوط في شبابه أنه إذا كبر دعا الرجال إلى نفسه ، وقد لعن الله المترجلين من النساء ، والمتخشين من الرجال .

وقال : أخرجوهم من قريبتكم . وقال عثمان : خمس مصائب في ارتكاب المعصية أعظم من المعصية : أولها : خذلان الله تعالى لعبده حيث عصاه ، ولو عصمه ما عصاه . والثانية : أن يسلبه حلة أوليائه ويكسبه لباس أعدائه . والثالثة : أن يغلق منه باب رحمته ، ويفتح عليه باب عقوبته . والرابعة : نظره إليه وهو يعصيه . والخامسة : وقوفه بين يديه يعرض عليه ما قدم وأخر .

وقال موسى - عليه السلام - يا رب ما جزاء من ارتكب معصية ولم يتب منها يوم القيامة ؟ قال : يا موسى يفزع أهل الجمع من أصواتهم ، ويتأذون من نتن ريحهم . قال : إلهي فإن كان مُصِراً ؟ قال : أعطيه كتابه بشماله أو من وراء ظهره ثم يساق إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ { البقرة : ٨١ - ٨٢ } .

وقيل : إنما أهلك الله تعالى قوم لوط وهم أربع مدائن .

وقيل : سبع بنين وثلاثين رجلاً . ما بلغوا الأربعين ، هم الذين كانوا يعملون بالمعاصي . فأهلك الله تعالى أهل المدائن أجمعين بسببهم ، لأنهم كانوا لا ينهونهم عن المعاصي . فشملهم العذاب لذلك ، وأنشدوا لأبي بكر - رضي الله عنه - :

ساء ما يحكمُ الذين أرادوا جنة الخلد بارتكاب المعاصي
وأرادوا الخلاص من عاجل الهـم وقد ضيعوا سبيل الخلاص
من مقام ترى به الناس سكرى إذ يوافونه لأخذ القصاص

وقيل : عبر مجنون ببغداد في بعض الشوارع . فرأى داراً قد احترقت ، والناس
يصرخون ويسرعون بالماء ليطفئوا به النار . فوقف يضحك منهم فضربوه وطرده .
وقالوا : يا ويلك . الناس مشاغل بالبكاء والحزن على ما حل بهم من حريق النار وأنت
تضحك فمضى غير بعيد ، وأنشأ يقول :

أقلوا المعاصي ولا تحرقوا في عاجل الدنيا ولا الآخرة
فقد تروا نيرانه هذه وأكلها للأنفس الفاجرة
فإن تتوبوا تأمنوا مكره والويل يأتي الأنفس الماكرة
فهذه النار إذا تنطفئ فكيف تطفئ ناره الزائرة

واعلم أنه إذا أتى العبد المعصية ولم يتب منها فتح الله له باب معصية أعظم منها،
فمن تعرض للحجاب غلق دونه الباب . وأبعد من الجناب ، وحرّم قلبه لزيد الخطاب .
ومنع عن طريق الصواب . ومحي اسمه من ديوان الأحباب . وقسي قلبه فصار محيراً
إن هم بالتوبة منع منها وإن عرج إلى الإنابة طرد عنها ، وأنشدوا في ذلك :

ويح من كان شغله بالمعاصي كيف لا يرعوي لخوف القصاص
أيها الغافل الكثير التمادي بالملاهي وعمره في انتقاص
فارتقب فجأة المنون وبادر بالذي يقتضي جميع الخلاص
إن للموت سطوة بالبرايا ليس تبقّهم ولا في الصياص
كيف تلتذ يا أخي بالمعاصي ونذير المنون بين النواص

وذكر أنه كان رجل تاجر كثير المال على عهد عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه -
فدخل يوماً سوق النخاسين فرأى غلاماً صغير السن من أجمل خلق الله تعالى وجهاً
وأنقاهم لحناً وأحسنهم هيئة وأعذبهم لفظاً فأعجبه ما رأى من حسن الغلام . فلم يزل
يتزايد فيه إلى أن اشتره بألف دينار فأخذ الغلام وزينه وكساه بأحسن الثياب وأرفعها ،

ولم يزل يحسن إليه مدة سنة ويطعمه أرفع الأطعمة وأغلاها . فمات الرجل - رحمه الله - وخلف مالا عظيماً ومتاعاً وعقاراً ولم يخلف وارثاً إلا السلطان فأخذ جميع ذلك عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وأمر ببيع ما ترك على أن يرجع إلى بيت المسلمين فيبيع جميع ذلك بحضرتة فسوق الغلام فبلغ ثمنه ألف دينار على بعض التجار فأمضى له عمر - رضي الله عنه - البيع . فقال له الغلام : يا أمير المؤمنين : لا أسير معه حتى يشترط لي على نفسه أن يصنع لي ما كان يصنع بي مولاي ولا يعدو بي عن ذلك . فإن اشترط لي على نفسه هذا الشرط سرت معه وإلا فلا . قال له عمر - رضي الله عنه - : فأخبرني بالذي كان يصنع بك مولاك . قال يا أمير المؤمنين : كان قد أعجب بي وأحبنى حباً شديداً وكان يكسيني من الثياب أفخرها ويطعمني من الأطعمة أطيها ويحكمني فيما شئت وكان يفرش مرقدي بيده ، ويغطيني ثم يقعد على رأسي وينظر إلي ويكي فكان جذاذاً به في السنة التي أقمت عنده ولم يصلني قط بمكروه فكان إذا اشتد شوقه إلي زاد في البكاء ويقول : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ [التارعات : ٤٠] فلم يزل ذلك دأبه حتى مات فإن اشترط ما ذكرت له سرت معه فلما سمع عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - كلامه بكى بكاءً شديداً وترحم على الرجل وقال للغلام : أنت حر لوجه الله تعالى ودفع له من مال مولاه ألف دينار وقال له : خذ هذه تعيش بها وفقك الله وجزى مولاك عن نفسه خيراً .

وذكر أن أصول ما يعبد الله تعالى في الظاهر والباطن أحد عشر شيئاً :

أولها : التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله ثم اجتناب المحارم كلها . ثم أخذ القوت من حله . ثم أداء الفرائض . ثم صدق اللسان . ثم رد المظالم . ثم العمل بالسنة في السر والعلانية . ثم إخلاص العمل لله تعالى . فمن صدق بالقرآن خرج إلى العمل به ونجا من الخلود في النار ، ومن اجتنب المحارم خرج إلى التوبة ، ومن أخذ القوت من حله دخل في الورع ، ومن أدى الفرائض صح إسلامه ، ومن صدق لسانه سلم من التبعات ، ومن رد المظالم نجا من القصاص ، ومن عمل بالسنة زكت أعماله ، ومن أخلص لله تعالى عمله قبل منه وغفر ذنبه ، وإنما يتقبل الله تعالى من المتقين .

وذكر أن رجلاً من الصالحين كان له صديق وكانت له إنابة إلى حب الصبيان وكان يعذله على ذلك حتى مات فرأى الرجل الصالح في النوم كأنه أتى إلى قبره فوجد

على قبره أربعة رجال اثنان منهم قيام واثنان يحفران القبر . قال : فوفقت أنظر إليهم وإلى ما يصنعون فحفروا عليه وأخرجوه على شفير القبر وطرحوه وأتوا بنعش فوضعه عليه . ثم رفعوه على عواتقهم ونهضوا به فتبعتهم لأنظر أين يسيروا به . فإذا هم يطوفون به وينادون عليه هذا جزء من عمل بعمل قوم لوط حتى داروا به جميع المقابر وأنا في أثرهم فلما فرغوا من الطواف به قال بعضهم لبعض : سيروا به إلى مقابر اليهود فساروا به وأنا أنظر إليهم فدفنوه بينهم وقالوا : هنا يصلح أن يكون مثل هذا مجاوراً لهؤلاء ولم يردوه إلى قبره فانتبه الرجل فزعاً مرعوباً .

٣٥٦ - ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يقيم عامل عمل قوم لوط في قبره أكثر من ثلاث ويهوي به إلى قوم لوط » .

فانظر يا أخي كيف عاقبة من عصى الله مثل هذا . جعلنا الله وإياكم ممن كشف عن قلبه ظلمة الحجاب ، فأثر على هواه مواقف يوم الحساب . ورفض زهرة الدنيا واستغفر ربه وخرّ راکعاً وأنا ب .

٣٢ - باب النظر بشهوة إلى ما لا يحل النظر إليه

والحب في غير الله تعالى

وهذا الباب يجمع باين اعلم وفقنا الله وإياك أن ذلك أيضاً من الخباثات وقد نهى الله تعالى عنها في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنتهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ { طه : ١٣١ } .

وقال عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾ { النور : ٣٠ } فالنظر بالعيون زناء العيون وهو القادح في القلب جمرة الحب فمن غض طرفه أراح قلبه .

٣٥٧ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من لم يغض بصره عن المحارم كحل يوم القيامة بميل من نار جهنم » .

٣٥٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « النظر إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره أذاقه الله تعالى عبادة يجد حلاوتها في قلبه » (١) .

٣٥٩ - وروي أن رجلاً استأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - في منزله . ثم رآه داخلاً فقال له : « ما كذا عينك إنما الاستئذان من النظر » (٢) .

٣٦٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إياك أن تتبع النظرة النظر . فإن الأولى لك ، والثانية عليك » (٣) .

وفي المناجات : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : حرمت على النار ثلاثة أعين : عين سهرت في سبيلي ، وعين غضت عن محارمي ، وعين دمعت من خشيتي ولكل شيء جزء غير الدمعة فلا جزء لها غير المغفرة والرحمة . وأنشدوا :

وكنت متى أرسلت طرفك زائراً له لبك يوماً أتعبتكم المناظرُ
ورأيت الذي لأكله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وقال بعض الحكماء : ترك فضول الكلام يثمر النطق بالحكمة ، وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية ، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة ، وترك الضحك يثمر جلاله الهيبة ، وترك التجسس يثمر صلاح العيوب ، وترك الرغبة والحرص يثمران الجنة كما أنهما أخرجا آدم عليه السلام منها ، وترك التوهم في الله تعالى ينفي الشك والنفاق . وعن بعض الصالحين - رحمه الله تعالى - أنه قال : نظرت إلى شخص نظرة شهوة . فرأيت في منامي قائلاً يقول : إن الله تعالى يقول : الدنيا داري ، والخلائق فيها عبيدي وإمائي . فمن نظر إلى واحدٍ منهم بغير حقٍ فقد خانني . فانتبهت وأكيت أن لا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا على حد الأمانة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣١٤/٤) من طريق حذيفة .

وعزه الحافظ الهيثمي إلى الطبراني وقال : وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف . من طريق عبد الله بن مسعود . أنظر : « مجمع الزوائد » (٦٦/٨) .

(٢) أخرجه البخاري : الاستئذان (٢٦/١١) ح (٦٢٤١) ، ومسلم : الآداب (٣/١٦٩٨) ح (٢١٥٦/٤٠) ولفظهما « إنما الاستئذان (الإذن) من أجل البصر » والترمذي : الاستئذان (٥/٦٤) ح (٢٧٠٩) .

(٣) أخرجه أبو داود : النكاح (٢/٢٥٢) ح (٢١٤٩) . والترمذي : الآداب (٥/١٠١) ح (٢٧٧٧) وقال : هذا حديث حسن غريب . ولفظهما : « يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » .

وذكر عن أبي يعقوب النهرجوري - رحمه الله - قال : رأيت في الطواف إنساناً
بفرد عين وهو يقول : أعوذ بك منك فقلت : ما هذا الدعاء . فقال لي : إني مجاور
منذ خمسين سنة . فرأيت يوماً شخصاً فاستحسنته . فنظرت إليه فإذا لظمة وقعت على
عيني فسالت على خدي . فقلت : آه . فقيل : لي لحظة بلظمة ، ولو زدت لزدناك .
فأنا أتعوذ به منه ، والنكته في ذلك أن المحبة شيء عزيز ، ومن عزتها أن الالتفات إلى
غير المحبوب ولو بخطرة واحدة غير محمود . فمتى التفت أدبت في الحال .

ألا ترى أن سليمان - عليه السلام - التفت إلى ملكه خطرة . فأجلس الجبار على
كرسيه شيطاناً فسلبه الخاتم . كأنه يقول : يا سليمان ملت عنا بخطرة ملنا عنك بمكحلة
وإن عدت عدنا إليك . وكذلك يعقوب - عليه السلام - كان في الصلاة ، ويوسف -
عليه السلام - بين يديه نائماً ، وهو يغطُّ فأعجبه غطيته . فالتفت إليه خطرة ففرق بينه
وبينه سبعين سنة . فلما ندم على ذلك ، واستغفر واستقام جمع بينهما .

فهما وجدت أحوالك وأوقاتك وساعاتك مضيقة عليك . فاعلم أن التأديب
قصد بك . وأنت موصول ، لأنه من أدب في الحال . فهو في غاية الكمال .

فليحذر السقوط والحبوط عند ذلك . ألا ترى الوالد الشفيق لا يغفل عن زلة
ولده طرفة عين ، ويتغافل عن زلل الناس ، لأن غيره مفصول عنه فلا بد من الاحتمال
وولده موصول به . فلا بد من الأدب في الحال . فاعلم أن اللحظ بارٌّ إن أطلقته من
غير قيد الجفن صاد قلبك بمخالب الشغف والقاء على قاذورات العشق فيقع في شرك
الهلاك . فيعسر خلاصه منها ، واعلم أيضاً أن النظرة بمنزلة النهشة في بعض الجسد
يسري سمُّه في جميعه ، والنظر سهم تصله فواقه نصل الغرض . ثم يرجع إلى صدر
راميه . فيقتله نصله . فكم نظرة كانت مضرة . فلا تجرد سيف لحظات من جفنتك في
جلبة الشهوة . فإن جراحه في هذه الحالة لا تتعداك . والنظر أيضاً معول الشيطان يحفر
به راسخات جبال الأديان ، وينقب به أسوار حصون القلوب . فيشغلها بالغموم والفكر
عن ذكر علام الغيوب . والنظر أيضاً نبال نصالها وبال إلا نظرة أورثت فكرة أو نظرة
أثارت عبرة والناطق بمنزلة الزند ، والنظر بمنزلة الحجر والمنظور بمنزلة القادح والمائل إلى
النظر بمنزلة الشرر والقلب بمنزلة الحريق والفكر بمنزلة الكبريت والشهوة بمنزلة الفتيل ،
والشغف بمنزلة الحطب ، والهوى بمنزلة النافع ، والجسد بمنزلة الملقى في النار . فمتى

اتصلت هذه الأشياء بعضها ببعض أذابت الجسد ، وأحرقت الكبد ، وأورثت النكد ،
وأعدمت الحس ، وأماتت النفس ، وأتلفت الخاطر ، وأعمت القلب والخاطر . فلا
يرى صاحب هذا المقام أحداً من الأنام إلا الذي أورثه الذهول والسقام .

كما قيل : إن زليخا لما سُجِن من أجلها يوسف - عليه السلام - طلبت إلى العزيز
أن يبني لها جوسقاً تشرف منه على جوانب مصر والنيل ، وإنما أرادت بذلك أن تنظر
إلى يوسف - عليه السلام - في السجن ، وكان السجن تحت قصرها . فلما كمل
الجوسق كانت تقيم فيه الأيام المتوالية ، والجمع المتوالية ، والشهور المتوالية في البكاء
والحزن ، وتمتع بالنظر إليه ونسيت العزيز ومن سواه . فكانت إذا خرجت إلى القصر
تمرّ على من فيه من أهلها وجواربها فلا تسلم عليهم ولا تكلمهم ، فعاتبوا على ذلك .
فقال : لا تعتبوني على سكرتي . فإذا رأيتموني عزوني . فإن قلبي عند مسجونني ،
فلو شق لأهل المحبة عن القلوب ما وجدوا فيها غير ذكر المحبوب .

فقد أورثها النظر عدم الحسّ ، وطول الهم والسهر . فغمض الطرف عن النظر
فالطرف جواد إن أطلقت عنانه سرح بك في ميدان الشهوات من شقاق جوهر بصرك
عن أكد ، والنظر لولا تستولي عليه صداة الفستة ، ويذهب رونقه جوب الاستحسان .
فرب نظرة أورثت حسرة ، ورب محنة أورثت منحة . فالنظر داء سهل قبل أن يستحكم ،
وهو غرض الطرف . فإذا استحكم عسر دواؤه إلا من رحم الله .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « النظره سهم مسموم من سهام إبليس

لعنه الله » . وأنشدوا في المعنى :

أبدأ إلى جنس الصور	غض اللّحالي عن النظر
مذك لنيران الذكر	فاللحظ جمر محرق
سقم المبرح والسهر	أضحى يذيب الجسم بالـ
لك في الوجود ومن غبر	وانظر إلى من قـ
أمر الحقيقة والعبير	وانظر بعين الفكر في
لنم المنية بالكدر	كم صفو عيش بدلت
إلا النعيم المنتظر	فلكل نعيمي آخر

عصمنا الله وإياكم من النظر بشهوة ، والميل إلى المحبة في غير الله تعالى بمنه
وفضله .

٣٣ - باب الإصغاء إلى ما لا يحل سماعه

اعلم وفقك الله أن سماع ما لا يحل سماعه ضار بالدين ، ومهدم للحسنات ،
ومشغل عن المهم ، وهو ذكر الله تعالى الذي هو محقق للسيئات ، وبه ترفع لك عند الله
الدرجات . فلا تصغ بأذن خلقك لتسمع به كلام الله سبحانه . فتعرف قدره وتعمل
به ، ولتسمع به أيضاً أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتعرف فضله
وحكمته ، وتستن بستته ، ولتسمع به الأذان فتجب المؤذن . فتتال فضل إجابته ،
ولتسمع به أيضاً تكبيرة الإحرام فتقتدي به . فتتال فضل قدوته ، ولتسمع به مقالة
الناصح لك . فتعمل بمقالته . فلا تستعمله في سماع الملاهي والبهتان والكذب والغيبة .
فسماع ذلك لا يحصل لك منه خير . بل تجتني من ثمرات غرسك في الآخرة هواناً
وذلاً وضيقاً . فإن المستمع شريك القاتل فيما يقوله من خير وشر . فصن سمعك عن
استماع اللغو . فهو الداء الدقيق . صن سمعك عما لا ينفعك سماعه . فإن كل ما لا
ينفع يذل ويهين ، إياك والإصغاء إلى ما لا يعني فتبيع جواهر عمرك بفساد أمرك .

فضول السماع مفسدة للدين ، مضیعة للعمر ، متلفة للعمر ، مورثة للتباغض .

فضول السماع كفضول الغذاء لا يتولد منها إلا داء . فالإنصات لأسرار الأغيار
كالتعريض للملاقات الأسود في القفار . السمع وعاء إن وعيت فيه خيراً وجدته ، أو شراً
أصبت . فانظر ماذا وعيت . السمع رجاجة وفضول الكلام أحجار صائبة . فمتى
حبستها من الحجارة نفعت ، وما أصابتها الحجارة انصدعت . السمع غرض وفضول
الكلام نبال ، والمنصت لها كالمستهدف لرشق السهام ، وحصول فضول الكلام في
السمع كإصابة السهم للغرض يمزق قرطاسه ، وإن أفرح كلامه . كن بالحقائق عن سماع
الغناء في لجاء . فضول الكلام في الإسماع مثل شرب الخمر يشتهي مذاقاً ، ويفسد
أخلاقاً ، أصلح ما كانت فعلاً ، أفسد ما كانت عقلاً ، أجيل ما كانت نفساً ، أقبل ما
كانت حساً . بقدر تمتعك بلذتها تجني ثمار غايتها كن لسماع ما ينفعك أشغل لسمعك من
سماع ما يضرك ، لا تضيع عزيزاً لست قادراً على رده في شيء ما غيره أنفع منه ، لا
تضيع جواهر أوقات عزيزة في اكتساب رذائل كلمات حقيرة .

حصول الكلمة الطيبة في السمع كفلق الصبح في الجوِّ ، كلما دام في الأفقِ
استفاض نوره ، وحصول الكلمة الخبيثة في السمع كالغسق في الجوِّ كلما دام في الأفقِ
إدلهمَّ ظلامه ، التعرض لسماع الفضول كعرض صفاء شفاف جوهر المرآة للهواء إن لم
يصبه جرباً أبداً غطى رونقه الصداء . وأنشدوا :

صن السمع عما لا يفيد سماعه ولا تشغلن في حفظه قوة الحفظ
فما هي إلا كالحزانة لن تجد بها غير ما اسود عنها العمر في لَفْظِ
وكن واعياً فيها الفضائل كلها من الصدق والعلم المحقق والوعظِ

جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بمنه وفضله ، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله .

٣٤ - باب شرب الخمر

اعلم وفقك الله أن الخمر هي الباعثة على كل كبيرة وصغيرة من الآثام ، وهي
مفسدة للعقل ، ومجلبة للقرين السوء ، ومذهبة للحياء . وقد ذكر أن شارب الخمر
يخرج الإيمان من قلبه عند شربه ، وأنه يقيم سكراناً أربعين يوماً .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام
رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم
العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم
متهون ﴾ {المائدة: ٩٠ - ٩١} فسماه رجساً وشبهه بلحم الخنزير إذ سماه تعالى رجساً .

فقال سبحانه ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون
ميتة أو دماً مسفوحةً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ {الانعام: ١٤٥}

وشبهه بلحم الخنزير ، ولحم الخنزير حرام ، وشبهه أيضاً بالأوثان في الأسمية ،
حيث سماها رجساً وحرماً . فقال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول
الزور ﴾ {الحج : ٣٠} فهي حرام كتحريم عبادة الأوثان وأكل لحم الخنزير .

روي في الخبر : أن الذنوب والخطايا جعلت كلها في بيت واحد ، وجعل
مفتاحها شرب الخمر . يعني أن العبد إذا شرب الخمر فتح على نفسه أبواب الخطايا .

٣٦١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من شرب الخمر وحصلت في بطنه لم يقبل الله منه صلاته سبعا . فإن هي أذهبت عقله لم يقبل الله منه صلاته أربعين يوماً ، وإن مات مات كافراً ، وإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل : يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : « صديد أهل النار في النار » (١) .

وأنشدوا في مثل ذلك :

قطعت صبءاتي في سكرتي	وطال التماذي على غرّتي
وأعطيت للنفس أمالها	وأطلقت في فحوصها مَهْرَتِي
وعاشرت للنفس أمالها	وما كان شوقي سوى رُفقتي
فلما بدا الشيب في عارضتي	رددت على ما مضى فكرتي
وناديت في الليل يا خالقي	بقلب ذليل أقل عثرتي
ويسرّ عليّ طريق الهدى	وكن لي معيّنًا على توبتي

٣٦٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة لا يجدون ريح الجنة ، وإن ريحها ليوجد على مسيرة خمسمائة عام . البخيل المتان ، ومدمن الخمر ، وعاق لوالديه » (٢) .

٣٦٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما أسكر منه الفرق الحسوة منه حرام ، والفرق خمسة عشر رطلاً » (٣) .

(١) أخرجه النسائي : الأشربة (٢٨٢/٨) باب ذكر الأثام المتولدة عن شرب الخمر ، من ترك الصلوات - حتى قوله - فإذا ذهبت عقله عن شيء من الفرائض . لم تقبل له صلاة أربعين يوماً . وأيضاً النسائي : الأشربة (٢٨٣/٨) باب توبة شارب الخمر . حتى قوله : « حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة » ولم يذكر في الحديثين « قيل يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار في النار » .

(٢) عند الطبراني في الصغير بلفظ : « يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها . . . » انظر الترغيب والترهيب (٢/٣٥٧) ، وعند النسائي والدارمي وأحمد بلفظ : « لا يدخل الجنة متان ، ولا عاق ، ولا مدمن خمر » أخرجه النسائي : الأشربة (٢٨٤/٨) باب الرواية في المدمنين في الخمر . والدارمي : الأشربة (٢/١٥٣) ح ٢٠٩٤) وأحمد : المسند (٢/٢٧٣) ح ٦٩٠٦) .

(٣) عند أبو داود والترمذي وأحمد بلفظ : « ما أسكر منه الفرق فعل الكف منه حرام » أخرجه أبو داود : الأشربة (٣/٣٢٧ - ٣٢٨) ح ٣٦٨٧) ، والترمذي : الأشربة (٤/٢٩٣) ح ١٨٦٦) ، وقال : هذا حديث حسن . وأحمد : المسند (٦/٨٠) ح ٢٤٤٧٧) .

بلفظ : « ما أسكر الفرق فالحسوة منه حرام » رواه ابن عدي (٣/٩٩٤) .

٣٦٤ - وروت حفصة عن أبيها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إذا أخذ العبد المؤمن الخمر بيده نازعه الإيمان من قلبه أشدك الله أن لا تجمع بيني وبينه . فإني لا أجمع معه ، إذا دخل خرجت أنا » (١) .
 وأنشدوا في المعنى :

زعم المدامة شاربوها أنها تنفي الهموم وتطرد الغما
 كذبوا سرت بعقولهم فتوهموا أن السرور لهم بها ثمماً
 سلبتهم أديانهم وعقولهم أرأيت فاقدين مغمماً

٣٦٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى خلق الفردوس بيده ، وحرمها على كل كافر ، وعلى كل مدمن خمر سكير » .

٣٦٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يخرج شارب الخمر يوم القيامة من قبره أنتن من الجيفة ، والكوز معلق في عنقه ، والقدح بيده ، ويملاً ما بين جلده ولحمه حيطان وعقارب ، ويلبس نعلين من نار يغلي فيها دماغه ، ويكون عليه قبره حفرة من حفر النار ، ويصير في النار مع فرعون وهامان » (٢) .

٣٦٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - فيما روى عنه ابن عمر - رضي الله عنه - :
 « من شرب الخمر لم يقبل الله تعالى صلاته أربعين ليلة . فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله صلاته أربعين يوماً ، فإن عاد الرابعة لم يقبل الله تعالى له توبة ، وكان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخبال » قيل : يا أبا عبد الرحمن : وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار (٣) .

(١) من حديث أبي هريرة بلفظ : « إذا تناول العبد كأس الخمر في يده ناداه الإيمان ناشدتك الله لا تدخله علي فإني لا أستقر أنا وهو في موضع فإن شربه نفر منه الإيمان نفرة لم يعد إليه » عزاه الكنايني في « تنزيه الشريعة » للحاكم وقال : وفيه محمد بن أيوب بن سويد الرملي . أنظر : « تنزيه الشريعة » (٢٢٢/٢ ح ٢٤) .

(٢) كنز العمال للمتقي (١٣٢٥٣) .

(٣) أخرجه الترمذي : الأشربة (٤/ ٢٩٠ ح ١٨٦٢) وقال : هذا حديث حسن . أنظر : الترغيب والترهيب (٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ح ٤٨) .

٣٦٨ - ويروى في حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - : « وأقسم ربي بعزته لا يشرب الخمرَ عبدٌ في الدنيا إلا أسقيته من حميم جهنم معذباً أو مغفوراً له ، ولا يدعُها عبدٌ من عبيدي تخوفاً عنها إلا أسقيته إياها من حظيرة القدس » (١) .

وقال موسى - عليه السلام - : يا رب ما على من شرب المسكر ؟ قال : نخلده في النار ملعوناً ، ويموت سكراناً ، ويبعث سكراناً ، ويدخل النار سكراناً .

وقال علي - رضي الله عنه - : أربعة إذا أفرط الرجل فيهن استهوته وأهلكته : النساء ، والقمار ، والصيد ، والخمر ، وثلاثة يجب على العبد مداراتهم : الملك المسلط ، والمريض المدنف ، والمرأة .

٣٦٩ - وروى أن عثمان - رضي الله عنه قام خطيباً فقال : أيها الناس اتقوا الخمر فإنها من الخبائث ، وإن رجلاً ممن كان قبلكم من العباد كان يختلف إلى المسجد فمرّ ذات يوم بباب امرأة ذات جمال . فجذبت به المرأة ، وأمرت خادمها أن يلفق الباب ، وعندها صبي وباطنة من خمر . فقالت له : اختر ما تريد من هذه الثلاثة الأشياء . إما أن تقع عليّ ، وإما أن تقتل هذا الصبي ، وإما أن تشرب الخمر . وإن لم تفعل صحت صبيحة وقلت : دخل عليّ في بيتي . فما تكون حجتك بين الناس . فانقطعت حجته وفكر فيما يفعل . فقال : أما الفاحشة لا سبيل إليها ، وأما قتل النفس فلا سبيل إليه . فأمرها فناولته كأساً فشربه . ثم ناولته آخر فشربه . فما برح حتى سكر فواقع المرأة ، وقتل الصبي . فقال عثمان - رضي الله عنه - اجتنبوا فهي أم الكبائر ، وإنه لا يجتمع الإيمان والخمر في قلب رجل إلا يوشك أن يذهب أحدهما (٢) .

بمعنى أن شارب الخمر إذا سكر تجري على لسانه كلمة الكفر . فيخرج من الدنيا وهو كافر فيبقى في النار مخلداً ، لأن أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند موته سبب ذنوبه التي عملها في حياته ولم يتب منها فيبقى في حسرة وندامة .
وأنشدوا :

(١) أخرجه أحمد : المسند (٥/٣٠٤ ح ٢٢٢٨١) انظر : الترغيب والترهيب (٣/٢٦١ - ٢٦٢ ح ٣٨) .

(٢) أخرجه النسائي : الأشربة (٨/٢٨٢) باب ذكر الأثام المتولدة عن شرب الخمر . والبيهقي في الكبرى

(٨/٥٠٠ ح ١٧٣٣٩) . وابن حبان في الموارد (ح ١٣٧٥) انظر : الترغيب والترهيب (٣/٢٥٨ ح ٢٩) .

يا من يبسيت على اللذات معتكفاً
وغافلاً عن محلٍ سوف تشهده
لا تحقرن يسير الخير تفعله
وجانب الشرك لا تسلك طريقته
فكل نفس ستجزى بالذي عملت
تأتي الجلود وأيدينا وأرجلنا
هل أنت عن طلب اللذات مُزْدَجِرٌ
يوماً تكور فيه الشمس والقمرُ
فرب نفع بشيء وهو محتقرُ
ولا يكن لك في أصحابه أثر
وليس للخلق من ديانهم وزرُ
فيشهدان معاً والسمع والبصر

وروي عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال : يؤتى بشارب الخمر يوم القيامة مسوداً وجهه من رقة عيناه لسانه على صدره يسيل لعاباً فيقذره كل من رآه فلا تسلموا عليهم ولا تعودوهم إذا مرضوا .

٣٧٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كل ما أسكر كثيره فالشرية منه حرام » (١) .

وعن مسروق - رحمه الله - أنه قال : شارب الخمر كعابد وثن وكعابد اللات والعزى . وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : إذا مات شارب الخمر فادفنه واحبسوني وفتشوا قبره فإن لم تجدوه مصروقاً عن القبلة وإلا فاقتلوني . وقال كعب الأحبار - رضي الله عنه - : لأن أشرب قدحاً من نارٍ أحبُّ إليّ من أن أشرب قدحاً من خمر .
وقيل لأبي بكر الصديق - رضي الله عنها - : لمَ لم تشرب الخمر في الجاهلية ولا في الإسلام ؟ فقال : ما رأيت شيئاً قط انتقل من مكانه فعاد إليه . فما أختار أن يزول شيء من عقلي فلا يعود إليّ أبداً ، وأنشدوا :

لهوك هذا هل له إنقضاء
ويحك يا مغرور حتى متى
فتب إليه إنه قابل
ونافس المحسن في فعله
إذا دنى الجبار من خلقه
وهل تخاف الله فيما مضاً
يراك عن طاعته معرضاً
لتوبة العصاة وسله الرضاً
من قبل أن تدعى لفصل القضا
وحاسب المخلص والمريضاً

(١) أخرجه أبو داود : الأشربة (٣/٣٢٦ ح ٣٦٨١) ، والترمذي : الأشربة (٤/٢٩٢ ح ١٨٦٥) وقال : هذا

حديث حسن غريب . والنسائي : الأشربة (٨/٢٦٨) باب تحريم كل شراب أسكر كثيره .

وابن ماجة : الأشربة (٢/١١٢٤ ح ٣٣٩٢ - ٣٣٩٤) ولفظهم : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

ومما يحدث الخمر من النقصان ما جرى لجذيمة الأبرش بن تميم التنوخي الملك وذاك أنه كان كثير الخلوة والإدمان للخمر فقال يوماً لندمائه : ذكر لي عن غلام من عدي أن له أدباً وظرفاً فأريد أن أبعث إليه فناوليته كأسياً والقيام على ندمائي قالوا : الرأي ما يراه الملك فبعث إليه فلما قدم عليه قال له : ما اسمك ؟ قال له : عدي بن نصير فولاه مجلسه وكان من أظرف الناس فعشقتة رقاش أخت الملك فقالت له يوماً : هل لك أن تتزوجني ؟ فقال لها : ومن لي بك ؟ قالت له : إذا سقيت القوم فأمزج لهم واسق الملك صرغاً دون ممزوج فإذا رأيت الخمر قد أخذت منه فاخطبني منه فإنه يزوجك إياي وأشهد عليه القوم إذا هو فعل ففعل الملك ذلك . فلما سكر الملك خطب إليه أخته رقاش فزوجها إياه فانصرف إليها ليعلمها بتزويجها إياه . فقالت له : عرس بأهلك الآن . ففعل فلما أصبح غداً إلى الملك متضرجاً بالخلوق وعليه أفخر الثياب . فقال له جذيمة : ما هذه الآثار يا عدي ؟ قال : آثار العرس . قال : أيّ عرس ؟ قال : عرس رقاش . فصاح جذيمة صيحة خراً مغشياً عليه . فلماً رأى ذلك عدي من الملك رفع حواسره وفرّ بنفسه خوفاً من القتل . فلماً أفاق الملك أسرع في طلبه . فلم يجده ويقال : إنه وجده وقتله ثم أتى أخته وهو قد امتلاً حنقاً وغيظاً وعظم عليه الأمر وهم بقتلها وأنشأ يقول :

حَدَّثِينِي وَأَنْتِ لَا تَكْذِبِينِي أَبْحُرُّ زَيْنَتَ أُمِّ بَهْرُجِيْنِي
أُمُّ بَعْبِدِ فَأَنْتِ أَهْلُ لَعْبِدِ أُمُّ بَدُونِ فَأَنْتِ أَهْلُ لَدُونِ

فلما سمعت رقاش ما أنشدها أخوها أنشأت تقول :

أَنْتِ زَوْجَتِي وَمَا كُنْتُ أَدْرِي وَأَتَانِي النَّسَاءَ لِلتَّزْيِينِ
ذَاكَ مِنْ شَرِيكِ الْمَدَامَةِ صَرْغًا وَتَمَادِ بِكَ فِي الصَّبَابِ وَالْمُجُونِ

ومن مكاييد الملوك أنهم إذا جاءهم رسول من ملك آخر عرضوا عليه الخمر فإن مال إليه وشرب منه علموا أن أسرار الملك الذي أرسله عندهم مفتوحة وعوراته مكشوفة وأنه في أيديهم باستطلاعهم على أخباره فإن لم يشرب الخمر عرضوا عليه المال وأرغبوه فيه فإن قبله علموا أن أسرارهم أيضاً مفتوحة بميل النفس إلى الصلة والهدية فإن من وجد الإحسان قيلاً تقيداً .

٣٧١ - ويدل على ذلك قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم لا تجعل الفاجر عليّ يدًا فيجبه قلبي » (١) .

فياك ومجالسة شارب الخمر ومواكلتهم فقد ورد في الخبر : من أطمع شارب الخمر لقمة سلط الله تعالى على جسده حية وعقرباً ومن قضاه حاجة فكأنما أعان على هدم الإسلام ، ومن أقرضه درهماً فكأنما أعان على قتل مؤمن ، ومن جالسه وهو تائب منه حشر يوم القيامة أعمى ، ومن استحل شرب الخمر فأناب برئ منه في الدنيا والآخرة .
وقيل : من زوج كريمته من شارب الخمر فكأنما ساقها إلى الزنا وهو لا يشعر ويكون إثمها بعنق من زوجها إياه . وأنشدوا :

يا لاهي القلب كم ذا اللهو واللعب لله درك أين العـقل والأدبُ
تلهو بدار غرور لا بقاء لها والموت في كل يوم منك مُقْتَرَبُ

عصمنا الله وإياكم من شربه ومخالطة أهله بمنه وكرمه .

٣٥ - باب الأيمان الكاذبة

اعلم وفقلك الله أن الأيمان الكاذبة ضارة بالدين وبها تقطع الحقوق ، وقد أمر الله تعالى بحفظ اليمين بقوله تعالى : ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما ييلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ { النحل : ٩١ - ٩٢ } وقال تعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدمٌ بعد ثبوتها وتذقوا السوءَ بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾ { النحل : ٩٤ } وقال سبحانه : ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون اتخذوا أيمانهم جنةً فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ { المجادلة : ١٤ - ١٧ } وقال تعالى :

(١) عزاه الحافظ السيوطي في « الدر المنثور » إلى الدلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم لا تجعل الفاجر عندي يدًا ولا نعمة فيوذه قلبي ... » . انظر : الدر المنثور (١٨٧/٦) .

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ { آل عمران: ٧٧ }
 ٣٧٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الحلف حنث أو مندمة »^(١) .

٣٧٣ - وقيل : مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برجل من أصحابه وهو يضرب عبداً له ، والعبد يقول : أسألك بوجه الله ألا تركتني ، وهو يزيد في ضربه . فسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صياح العبد فانطلق إليه . فلما رآه السيد أمسك . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سألك بالله تعالى فلم تعفه . فلما رأيتني أمسكت يدك » فقال له : يا رسول الله إنه حرٌّ لوجه الله تعالى . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « لو لم تفعل للفتحت النار وجهك »^(٢) . فإياك والمعارضة لمقتة بكثرة الأيمان فإن الله تعالى يقول ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ { البقرة ٢٢٤ } وقال موسى - عليه السلام - يا رب ما لمن يحلف بك كاذباً ؟ قال : أجعل لسانه بين جمرتين أحقاباً قال : يا رب فما على من اقتطع مال مسلم بيمين فاجرة ؟ قال : أقطع حقه من الجنة .

٣٧٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله عز وجل أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه قد مزقت الأرض ، وعنقه مثني تحت العرش . فيرجع رأسه فيقول : إلهي ما أعظمك . فيرد : ما عرف ذلك من حلف بي كاذباً »^(٣) .

أسأل الله تعالى أن لا يجعلنا وإياكم ممن تعرض لمقتة باليمين به حائثاً بمنه وكرمه .

(١) أخرجه ابن ماجه : الكفارات (١/ ٦٨٠ ح ٢١٠٣) ، والحاكم في المستدرک (٤/ ٣٠٣) .

(٢) عزاه الحافظ السيوطي في « الدر المنثور » إلى عبد الرزاق عن الحسن قال : بينما رجل يضرب غلاماً له وهو يقول : أعوذ بالله وهو يضرب إذ بصر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أعوذ برسول الله فألقى ما كان في يده وخلقى عن العبد فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أما والله لله أحق أن يعاذ من استعاذ به مني فقال الرجل : يا رسول الله فهو لوجه الله . قال : « والذي نفسي بيده لو لم تفعل لدافع وجهك سفع النار » . انظر : « الدر المنثور » (٢/ ١٦١) .

وعند مسلم نحوه : الأيمان (٣/ ١٢٨١ ح ١٦٥٩/٣٦) من طريق « أبي مسعود » .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/ ٢٩٧) وعزاه الحافظ السيوطي في « الدر المنثور » أيضاً إلى الطبراني .

ولفظه : « أن الله أذن لي أن أحدث عن ملك . . . »

انظر : الدر المنثور (٢/ ٤٦) ، وانظر : الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٦٢٣ ح ١٤) .

٣٦- باب خدمة السلطان

فإياك يا أخي وصحبة السلطان . فإن معه مثل فتنة الدجال ، وصحبتهم تدعو إلى طلب الجاه والحسد على طلب الدنيا ، والبغي على عباد الله والوقوع فيهم والظلم لهم وأكل الحرام ، وتزيين الباطل للملك ، وطلب رضاه فيما يسخط الله عز وجل .

٣٧٥- وقد جاء في الخبر : من أعان ظالماً سلط عليه ^(١) .

٣٧٦- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سيكون بعدي أمراء فمن أطاعهم وصدقهم على كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه ، ولا يرد على الحوض ، ومن لم يطعمهم ولم يصدقهم على كذبهم ، ولا أعانهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، ويرد على الحوض » ^(٢) .

٣٧٧- وروى عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لياتين على الناس زمان يكون فيه على شبه أسد وذئب وكلب وثعلب وخنزير وشاة . فأما الأسد فملوك الدنيا يغيرون سنتها ، ويدعون حدودها ، ويحرمون حلالها ، ويحلون حرامها لا يطمع أحدٌ في فريسته ، وأما الذئب فالتاجر الفاجر يذم إذا اشترى ويمدح إذا باع ، وأما الكلب فالرجل الكذاب ، وأما الثعلب فالرجل القارئ الذي يأكل بدينه ، وأما الخنزير فالرجل المتشبه بالنساء لا يكف نفسه عن شيء ، وأما الشاة فالرجل المؤمن يجز صوفها ، ويحلب لبنها ، ويأكل لحمها . فكيف بشاة بين أسد وذئب وكلب وثعلب وخنزير » .

(١) قال الحافظ العجلوني : قال في « اللالئ » ذكره صاحب الفردوس بسنده من حديث ابن مسعود ، وقال في « المقاصد » رواه ابن عساكر في تاريخه عن ابن مسعود رفعه ، وفيه ابن زكريا العدوي متهم بالوضع ، وأورده الديلمي بلا سند عن ابن مسعود ، وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ فقال : وفي الحديث . . وذكره لكنه لم يعزه لصاحب ولا مخرج . وبالجمل فمعناه صحيح انظر : « كشف الخفاء » (٢/٢٩٧) .

(٢) أخرجه الترمذي : الفتن (٤/٥٢٥ ح ٢٢٥٩) وقال : هذا حديث صحيح غريب . والنسائي : البيعة (٧/١٤٣) باب ذكر الوعيد لمن أعان أميراً على الظلم ، باب من لم يعن أميراً على الظلم .
وأحمد : المسند (٤/٢٩٨ ح ١٨١٥) . والطبراني في الكبير (١٨/١٣٤ ح ٢٩٤) .

٣٧٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أبعد الناس إلى الله من يراعي البشر ولا يراقب الله يجالس الأمراء فإذا قال الأمير شيئاً . قال : صدقت أيها الأمير . »

٣٧٩ - وقال رجل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : علمني عملاً يدخلني الجنة . فقال : « اعمل بعمل الأبرار ، ولا تبتسم في وجوه الفجار » .

٣٨٠ - وفي الخبر : « خير الأمراء الذين يأتون العلماء ، وشر العلماء الذين يأتون الأمراء فالعلماء أمناء الله تعالى على عبادته ما لم يخالطوا السلاطين . فإذا خالطوهم فقد خانوا الرسل . فاعتزلوهم واحذروهم »^(١) .

وقال أبو ذر - رضي الله عنه لسلمة : يا سلمة لا تغشى أبواب السلاطين . فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه . فحب القارئ الناسك للأمراء نفاق ، وحبه للأغنياء رياء ، ومن كثر سواد قوم فهو منهم .

ولذلك قيل : إن الرجل ليدخل على السلطان الجائر ومعه دينه ، ويخرج ولا دين له ، وتصديق ذلك من كتاب الله قوله عز وجل : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ { هود : ١١٣ } .

وحكي عن هشام بن عبد الملك بن عبد الله أنه قدم حاجاً إلى مكة حرسها الله . فلما دخلها قال : اتوني برجل من الصحابة . فقيل : يا أمير المؤمنين قد تفتنوا . قال : فمن من التابعين . فأتي بطاووس اليماني - رضي الله عنه - فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بقول أمير المؤمنين ، ولكن قال : السلام عليك يا هشام ولم يكنه ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف الحال عليك يا هشام . فغضب هشام غضباً شديداً حتى هم بقتله . ثم قال له : أنت في حرم الله وحرم رسوله ، فلم يمكننا أن نصل إليه بسوء . ثم قال له : يا طاووس ما حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تقبل عليّ ، ولا قبلت يدي ، ولم تسلم عليّ بما يسلم به عليّ المسلمون من إمارة المؤمنين ، ولم تكنني ، وجلست بإزائي بغير إذني ، وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ فقال طاووس : أما ما قلت من خلع نعلي بإزاء بساطك فإني أخلعتها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب

(١) إتحاف (٦/١٢٥) .

عليّ . وأما قولك : لِمَ لَمْ تقبل يدي ؟ فإنني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا يد امرأته من شهوة ، أو ولده من رحمة . وأما قولك : لِمَ لَمْ تسلم عليّ بأمر المؤمنين ؟ فليس كل الناس راضين بإمارتك . فخشيت أن أكذب . وأما قولك : لِمَ لَمْ تكنني ؟ فإن الله - عز وجل - سمى أوليائه بأسمائهم حيث قال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى أعداءه حيث قال : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ ، وأما قولك : جلست بإزاءي ولم تشاورني ؟ فإنني سمعت أمير المؤمنين عليّاً - رضي الله عنه - يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار . فانظر إلى رجلٍ جالسٍ وحوله قوم قيام . فكرهت أن أفق عليك ، وأجعلك من أهل النار . فقال له هشام عند ذلك : يا طاووس عظمي . قال : سمعت أمير المؤمنين عليّاً - عليه السلام - يقول : إن في جهنم لحيات كالقلال ، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته . ثم قام وغرب عنه .

وحكي عن مروان الحمار وهو آخر ملوك بني أمية وقتل بأرض مصر في كورة إبي صبر . قال : لما زال ملكنا هربت فيما بقي من أصحابي إلى أرض النوبة . فسمع ملك النوبة بخبري . فجاءني وقعد على الأرض ، ولم يقعد على فراشي . فقلت له : ألا تقعد على ثيابنا . قال : لا . قلت : ولم ؟ قال : لأنني ملك ، وحق كل ملك أن يتواضع لأمر الله تعالى إذا رفعه الله . ثم قال لي : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ، ولم تطؤون الزرع بدوابكم ، والفساد محرم عليكم ، ولم تستعملون الذهب والفضة ، وتلبسون الحرير والديباج ، وهو محرمٌ عليكم . فقلت : زال عنا ملكنا . فقال : أنصار نصرنا بقوم من الأعاجم دخلوا ديننا ولنا عبيد وأتباع فعلوا ذلك على كرهٍ منا . فاطرق ملياً يقلب كفه وينكت في الأرض . ثم قال : ليس كما ذكرت . بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم ، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العزّ بذنوبكم والله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها ، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم بيلدي فيصيبني معكم ، وإنما الضيافة ثلاث . فتزودوا ما أحببتهم ، وارتحلوا عن بلدي فتزودنا وارتحلنا .

والحكمة في قول الحبشي أن الله تعالى يملي للظالم كما قال تعالى ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ { مريم : ٧٥ } فإذا أخذه لم يفلته . فلا يغترّ ظالمٌ أو عاصٍ بطول المهلة والحلم عليه في حياته فيجني ثمرة ما غرسه في حياته وبعد مماته ،

ويخرج مدارة غصص حسرة فوت محبوباته ، وعظيم كرب آلام مجاهرته بالمعاصي والظلم وكثرة سيئاته .

٣٨١ - واعتبر في ذلك قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قال : « قال لي جبريل عليه السلام : إنني وقفت بين يدي الله تعالى حين قال فرعون : وما رب العالمين ؟ فنشرت جناحي للعذاب غضباً لله - عز وجل - فقال تعالى : مه يا جبريل . فلإنما يستعجل بالعذاب من يخاف الفوت » .

وسئل بزرجمهر ما بال ملك آل ساسان صار إلى ما صار إليه بعد ما كان فيه من قوة السلطان وشدة الأركان ؟ فقال : لأنهم قلدوا كبار الأعمال صغار الرجال .
ولذلك قالت الحكماء : موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة . وقيل : زوال الدول بارتفاع السفلى .

وقال سفيان الثوري - رضي الله عنه - دخلت على أبي جعفر المنصوري فقال لي : ارفع إلينا حاجتك . فقلت له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً . قال : فطأ رأسه . ثم رفع وقال : ارفع إلينا حاجتك . فقلت له : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعاً . فاتق الله وواصل إليهم حقوقهم . قال : فطأ رأسه ثم رفع وقال : ارفع إلينا حاجتك . فقلت : حج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال لخزانه : كم أنفقتم . فقالوا : أنفقنا بضعة عشر درهماً ، وأرني في أفعالك ونفقاتك أموراً لا تطيقها الجبال . فبهذا كانوا يفتخرون على السلاطين إذا كرهوا ، ويغرون بأنفسهم في الانتقام لله - عز وجل - .

ودخل مالك بن دينار - رضي الله عنه - على أمير البصرة . فقال : أيها الأمير قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : من أحق من السلطان ، ومن أجهل ممن عصاني ، ومن أعز ممن اعتر بي . أيها الراعي السوء؟ دفعت إليك غنماً سمناً صحاحاً . فأكلت اللحم ، ولبست الصوف ، وتركها عظماً تقعقع .

فقال له والي البصرة : أتدري ما الذي جراك علينا ، وجنينا عنك ؟ قال : لا . قال : قلة طمعك فيما في أيدينا ، والاستمساك عنا . وأنشدوا :

لَجَوَّبُ الْبِلَادَ مَعَ الْمَتْرِبَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَرْتَبَةِ
فَإِنَّ الْوِلَاةَ لَهُمْ قَفْوَةٌ وَمَعْتَبَةٌ يَا لَهَا مِنْ مَعْتَبَةٍ
فَمَا مِنْهُمْ مَنْ يَرُدُّ الضَّيْعَ وَلَا مَنْ يَشْتَدُّ مَا رَبَّتَهُ
فَكَمْ نَاعَمَ سِرَّهُ حُلْمُهُ وَأَدْرَكَهُ الرَّوْعُ لَمَّا انْتَبَهَ

وقيل : لما استعمل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ابن عامر أتاه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبطأ عنه أبو ذر - رضي الله عنه - ، وكان له صديقاً فعاتبه ابن عامر على تخلفه عنه . فقال أبو ذر : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عنه » .

وقيل : لما قدم أمير المؤمنين المنصور إلى مكة حرسها الله . فكان يخرج إلى الطواف آخر الليل يطوف ويصلي ، ولا يعلم به . فإذا طلع الفجر رجع إلى منزله . فيجيء المؤذنون فيسلمون عليه . ثم تقام الصلاة فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة . فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند المنتزم وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله . ثم خرج وجلس ناحية من المسجد . فأرسل إليه . فلما جاءه الرسول قال له : أجب أمير المؤمنين . فصلى ركعتين واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول فسلم على المنصور . فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي وأمراضني وأقلقني قولك . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أمنتني على نفسي أنباتك بالأمور من أصولها ، وإلا اقتصررت على نفسي فلي فيها شغل شاغل . فقال : يا هذا أوعلى ناصح خوف أنت آمن على نفسك . فقال له : أما الذي داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، وأظهر البغي في الأرض فأنت . قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع والبيضاء والصفراء علي يدي ، والحلو والحامض في قبضتي . قال : وهل دخل أحدًا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين . اعلم أن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وحجة من السلاح . ثم سجت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة

إن نسيت لم يذكروك ، وإن أحببت أمراً لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال
 والكرع والصماح والسلاح وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفرٌ
 سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا
 الفقير إليك ، وما من أحدٍ إلا وله في هذا المال حق . فلما رآك هؤلاء نفر الذين
 استخلصتهم لنفسك وأترتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا عنك لجبي الأموال
 من غير حقّها . فقالوا : هذا قد خان الله ورسوله . فما لنا لا نخونه ، وقد سُخِرَ لنا .
 فاثمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس إلا ما أرادوه ، ولا يخرج لك عامل
 فيخالف لهم أمراً إلا ذمّوه عندك حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك
 عنك وعنهم أعظمهم الناس وهايوهم . فكان أول من صانعهم عمّالك بالهدايا والأموال
 ليتقوا بها على ظلم العباد . ثم فعل ذلك ذو القوة ، والسورة من رعيتك لينالوا ظلم
 من دونهم من الرعية . فامتلات بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وهؤلاء القوم شركاؤك
 في سلطانك ، وأنت غافل . فإن جاء مستظلم حيل بينه وبين الدخول إليك ، وإن أراد
 رفع قضية إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وقد جعلت للناس رجلاً ينظر في
 أمورهم ومظالمهم . فإن جاء المظلوم لرفع ظلامته ، وكان قد تقدم من العامل إحساناً
 إلى صاحب المظالم لم يبلغ المظلوم ما يريد . فلا يزال المظلوم يلوذ ويشكو ويتظلم
 ويستغيث فلا يقبل منه . فإذا ركبت وخرجت وصرخ بين يديك ضُرب بين يديك ضرباً
 شديداً ورد . فيكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير . فما بقاء الإسلام
 وأهله على هذا ، وقد كانت بنو أمية والعرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته
 إليهم فينصف . ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فيلقي
 ظلامته لبعض خدمهم فلا يتأخرون أن يبلغها فينصف من وقته ، وقد كنت يا أمير
 المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك قد ذهب سمعه فجعل يبكي فقال له وزراؤه :
 ولم تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : أما إنني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي
 ولكنني أبكي للمظلوم يصرخ ببابي ولا أسمع صوته . ثم قال : أما إن كان ذهب سمعي
 فإن بصري لم يذهب فأذنتوا في الناس ألا يلبس ثوباً أحمرًا إلا مظلوم ، وكان يركب
 الفيل طرفي النهار لكي يرى مظلوماً فينصفه . فهذا يا أمير المؤمنين صفة مشرك بالله قد
 غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شحّ نفسه في ملكه وأنت مؤمن بالله وابن عمّ نبي الله
 لا تغلبك رأفتك للمسلمين على شحّ نفسك واعلم أنك يا أمير المؤمنين لا تجمع المال إلا

لأحد ثلاثة . فإن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبراً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال وما من مال إلا ودونه نفس شحيحة تحويه . فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست أنت الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء ، وإن قلت : أجمع المال لاشد سلطاني فقد أراك الله تعالى عبراً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكرام شيئاً وما ضرك ما كنت فيه من قلة الحدة وكثرة الضعف حين أراد الله بك ما أراد ، وإن قلت : أجمع المال لغاية هي أحسن من الغاية التي أنت فيها فوالله ما فوق الغاية التي أنت فيها منزلة إلا المنزلة التي لا تدرك إلا بالعمل . يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رغبتك بأشد من القتل . قال : لا تكن بالذي تعصيه أنت يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وانطوت عليه جوارحك فما تقول يا أمير المؤمنين إذا صرت إلى الملك الحق المبين مالك يوم الدين ، ودعائك إلى الحساب هل يغني عنك عنده شيئاً مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟ فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى نحب وارتفع صوته بالبكاء . ثم قال : يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً مذكوراً . ثم قال له : كيف احتيالي فيما خوّلت ، ولم أر من الناس إلا خائناً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين . قال : من منهم ؟ قال : العلماء . قال : قد فروا مني . فقال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب ، واهتك الحجاب ، وانتصر للمظلوم من الظالم ، وخذ الشيء من وجه حلّ واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن لك من هرب منك يعود إليك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك .

٣٨٢ - فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً » (١) .

فأعظم بعمل يوازي يوم منه عبادة ستين سنة .

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/٣٣٧ ح ١١٩٣٢) بلفظ : « يوم من إمام ... » وعزاه الحافظ الهيثمي - أيضاً - إلى الطبراني في الأوسط . انظر : « مجمع الزوائد » (٥/٢٠٠) ، والبيهقي في « الكبرى » (٨/٢٨٠ - ٢٨١ ح ١٦٦٤٩) . انظر : « نصب الراية » (٤/٦٧) .

٣٨٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أول من يدخل الجنة ثلاث - وذكر فيهم - الإمام المقسط » .

٣٨٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاث لا ترد دعوتهم - وذكر فيهم - الإمام العادل » ^(١) .

٣٨٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أقرب الناس مني منزلاً يوم القيامة إمام عادل » ^(٢) .

فالإمام والخلافة من أعظم العبادات يا أمير المؤمنين ، ولكن هروب المتقين منها واحتراسهم في تركها لما فيها من الخطر وميلان الناس لحبّ الجاه والاستيلاء ونفاذ الأمور ، وذلك من أعظم هلاك الأمور ، ويوشك أن يتبع هواه ، ويكون يوماً منه شرّ من ستين سنة ، ولهذا الخطر العظيم كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : من يأخذها بما فيها .

٣٨٦ - وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ما من والي عشرة أيام إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولتان إلى عنقه لا يفكهما إلا عدله » ^(٣) .

٣٨٧ - وقال أيضاً - صلى الله عليه وسلم - : « أطلقه الحق أو أوبقه » ^(٤) .
والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) أخرجه الترمذي : الدعوات (٥/٥٧٨ ح ٣٥٩٨) وقال : هذا حديث حسن .

وابن ماجه : الصيام (١/٥٥٧ ح ١٧٥٢) .

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم { وأقربهم } منه

مجلساً : إمام عادل » أخرجه الترمذي : الأحكام (٣/٦٠٨ ح ١٣٢٩) وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأحمد : المسند (٣/٢٨ ح ١١١٨) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١١٨) بلفظ : « ما من والي عشرة إلا يأتي يوم القيامة مغلولة يده إلى

عنقه ، أطلقه عدله أو أوبقه جوراً » .

(٤) أخرجه أحمد : المسند (٢/٥٦٩ ح ٩٥٨٦) ، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٦٤ ح ٢٠٢١٥)

ولفظهما : « لا يفكه إلا العدل أو يوبقه الجور » .

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك : اعلم أيها الملك أن العدل ميزان الله في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي وللحق من المبطل ، وليس موضوع في الميزان بين الرعية فقط . بل بين السلطان والرعية ، وأيضاً فمن أزال ميزان الله الذي وضعه بين عباده من القيام بالقسط فقد تعرّض لسخط الله سبحانه . واعلم أن الملك بمنزلة الجسد ؛ فأرأسه أنت ، وقلبه وزيرك ، ويداه أعوانك ، ورجلاه رعيتك ، وروحه عدلك . فما بقاء جسد بلا روح .

وقيل : إذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح له ما بعد منه .

وقال علي - رضي الله عنه - : إمام عادل خير من مطر وإبل ، وأسد حطوم خير من سلطان ظلم ، وسلطان ظلم خير من فتنة ندوم . وقيل : لا سلطان إلا بجند ، ولا جند إلا بمال ، ولا مال إلا بجباية ، ولا جباية إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل . فالعدل أساس الأساسات . وقيل : استأذن الهرمزان على عمر - رضي الله عنه - . فقيل له : هو في المسجد . فأتى المسجد فوجده مستلقياً متوسداً كرمًا من الحصباء ودرته بين يديه ، ولم يجد عليه لا حاجباً ولا بواباً . فقال له : عدلت فمنت .

وقيل : وقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها ، وفي إشاعة العدل قوة القلب وطيب النفس ولزوم اليقين وأمان من العدو .

وقال أحد الحكماء : خير الولاية من عدل في رعيته بنفسه ، واستعمل أمره في استصلاحهم . يكون ذلك صلاح بدنه وملكه ، ولم يبلغ فيهم بالعنف منزلة تحملهم على الندامة في أمره والبغض له ، والتشؤم بولايته ، ولا يهمل أيضاً أمرهم إهمالاً يدعوهم إلى الاستخفاف بأمره ، ولذلك فاعلم أن أولى الأمور بالسلطان وأدومها لمحبتة وملكه أن يكون إيقاعه بعد وعيده ، ووعيده بعد وعده ، إلا فيما يخاف منه الضرر بعد فوته ، أو يؤدي إلى الاستخفاف بأمره .

وقال أيضاً : أحق الناس بدوام السلطان والولاية أبسطهم يدًا بالعدل في الرعية وأخفهم عليها مؤنة ، وكما أن البيان يجلي عن الشبهة كذلك المشورة مذهبة للعمى والحيرة . فمن حسنت منهم نيته استقامت فيهم طريقته ، واستحق من الجميع محبته .

وقال أيضاً : من اقتصر على العدل في مطلبه كان حقيقاً أن لا يحرم النصر على عدوه . وقال آخر : من ولي أمراً من أمور الناس . فإنه يجب عليه أن يكون ذاكرًا ثلاثة أشياء ؛ أولها : أن يده واحدة مطلقة على قوم كثير ، والثاني : أن الذين يده مطلقة عليهم أحرار للعبد ، والثالث : أن سلطانه إنما يلبث مدة .

وقال أبو عبيدة بن مسعود : الإمام العادل أسكت الأصوات عن الله تعالى ، وإن الإمام الجائر لتكثر منه الشكاة إلى الله تعالى . وقال بعض الحكماء : أمير بلا عدل كغم بلا وطر ، وعلم بلا ورع كأرض بلا نبات ، ورجل بلا توبة كشجرة بلا ثمرة ، وغني بلا سخاء كقفل بلا مفتاح ، وفقير بلا صبر كسراج بلا دهن ، وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح . وقال كسرى : اتفقت ملوك العجم على أربع خصال ؛ على أن الطعام لا يؤكل إلا على شهوة ، والمرأة لا تنظر إلا إلى زوجها ، والمملك لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل .

وقيل : إنما سلب سليمان ملكه لأن الخصمان قعدا بين يديه وكان أحدهما يختص به ، فقال في نفسه : وددت أن يكون الحق لخاصتي فأحكم له . فسلبه الله ملكه ، وأجلس على كرسية شيطانا . وقال حكيم : لا يزال السلطان محتملاً حتى يتخطى إلى أركان العمارة ومباني الشريعة . فحيثئذ يريح الله تعالى منه .

وقال الشافعي : أظلم الناس لنفسه اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوي الفضل .

وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه . ما الذي سلبك ما كنت فيه ؟ فقال : رفع عمل اليوم إلى غد ، والتماس عمارة بتضييع عدد . وقيل : إذا قرب السلطان ما ينبغي أن يباعد ، ويبعد من ينبغي أن يقرب . فقد حان أوان الغدر .

وحكى أبو عمران الخولاني - رحمه الله - قال : لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء ووجوه الناس من جميع الأقطار وهنّوه بما صار إليه وفيه . ففتح بيوت الأموال وأقبل يعطيهم الجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ويظهر الزهد والتشّف ، وكان مؤاخياً لسفيان الثوري - رضي الله عنه - قديماً . فهجره سفيان وتخلف عنه . فلم يزره ولم يعبأ به . فاشتاق هارون إلى زيارة سفيان ليخلو معه ويجدد العهد به . فلم يزره سفيان ولم يعبأ به ، ولا بما صار إليه . فاشتد ذلك على هارون .

فكتب إليه كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ووليه أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى أخيه سفيان . أما بعد : فيا أخي : فقد علمت أن الله تعالى واخا بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أنني واخيتك مواخاة لم أصرم منها حبك ، ولم أقطع منه ودك ، وأني منظو لك على أفضل الإرادة والمحبة ، ولولا هذه القلادة التي قلدني الله - عز وجل - لايتتك ولو حبواً لما أجد لك في قلبي من المودة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه وفيه ، وفتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما قوت به عيني وفرحت به نفسي ، وقد تأملتكم فلم تأت ، وقد كتبت إليك كتاباً . فإذا ورد عليك كتابي فالعجل وأنت تعلم يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمنين . فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده . فإذا هم كلهم يعرفون سفيان وخشونته فهابوه . فقال : عليّ برجل من الباب . فأدخل عليه عبّاد الطالعاتي وكان من كبار حاشيته . فقال : يا عباد خذ هذا الكتاب وانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور . فإذا أرشدت إليها فاسأل عن سفيان الثوري . فإذا رأيته فألق إليه الكتاب وع بسمعك وقلبك ما يكون منه ، واحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به قال : فأخذ عبّاد الكتاب وانطلق حتى وصل به إلى الكوفة . فسأل عن القبيلة فأرشد إليها . ثم سأل عن سفيان الثوري فقيل له : هو في المسجد . قال عباد : فأقبلت إلى المسجد . فلما رأيته قام قائماً ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من كل طارق يطرق إلا طارفاً يطرق بخير . قال عباد : فوقعت كلماته في قلبي فجرحته . فربطت فرسي . فلما رأيته نزلت باب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة . فإذا بجلساته فعود كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون . فسلمت فما رفع أحد منهم رأسه إليّ وقد نكسوا رؤوسهم . فردوا عليّ برؤوس الأصابع فبقيت واقفاً ما منهم أحدٌ يعرض عليّ الجلوس ، وقد علتني من هيبتهم الرعدة ، وبدا لي ذل المعصية . فقلت في نفسي : إن المصلي هو سفيان . فمشيت بالكتاب إليه فآلقته أمامه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حيّة عرضت له في محرابه . فركع وسجد وسلم ، وأدخل يده في كمّه ولفها في عبائه وجعل يقلبه ويده ملفوفة . ثم رمى به إلى من كان خلفه . ثم قال : يأخذه أحدكم فيقرأه . فلإني أستغفر الله من أن أمسّ شيئاً مسّه ظالم بيده . قال عباد : فمدّ بعضهم يده إليه وحلّه كأنه خائف من فم حيّة تنهشه . فقرأه

وأقبل سفیان يتبسم تبسم المتعجب . فلما فرغ من قراءته قال : اقبلوه واكتبوا في ظهره . فقيل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة . فلو كتبت إليه في قرطاسٍ نقيٍّ . فقال : اقبلوه واكتبوا في ظهره إلى الظالم . فإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلي به ، وإن كان اكتسبه من حلال فسوف يصلي به ، ولا يبقى شيء مسّه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا . فقيل له : ما يكتب . فقال : اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفیان إلى العبد المسرور بالأمل هارون الذي سلب حلاوة الإيمان . أما بعد : فإني قد كتبتك إليك إنني قد صرمت جبلك ، وقطعت ودك ، وقلبت موضعك ، وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك بما هجمت على بيت مال المسلمين ، وأنفقته في غير حقّه ، وبذرته في غير أهله . ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عني حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك لما أتيتك قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وشددوا عليك الشهادة غداً بين يدي الله تعالى بما هجمت على بيت مال المسلمين وأنفقته في غير حقّ هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ؟ أم هل رضي بذلك حملة القرآن ، وأهل العلم ، والأراذل ، والأيتام ؟ أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد يا هارون مثرك ، واعدد للمسألة جواباً ، وللبلاء جلباباً ، واعلم بأنك مسئول تقف بين يدي الحاكم العدل الذي لا يجوز فأحسن الله لك العزاء في نفسك إذ قد سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيد القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً . يا هارون قعدت على السرير ، ولبست الوثير ، وأسلبت سترًا دون بابك ، وتشبهت في المحبة برب العالمين . ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويضربون من شربها ، ويزنون ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق . أفلا كانت هذه الأحكام عليك قبل أن تحكم بها عليهم . فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكها إلا عدلك وإنصافك والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار . فكأنني بك يا هارون قد أخذت ، ووردت الميثاق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء ، وظلمة على ظلمة . فاحتفظ بالوصية ، واتعظ بالموعظة التي قد وعظتك بها ، وقد نصحتك وما بقيت لك في النصح غاية . فاتق الله في رعيتك ، واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأحسن الخلافة

عليهم . واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك ، وهو صائر عنك إلى غيرك ، وهكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد ، فمنهم من تزود زاداً لنفسه ، ومنهم من خسر الدنيا ، وأني لأحسبك يا هارون ممن خسر الدنيا والآخرة واتق الله في نفسك ، وإياك أن تكتب إليّ كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عليه والسلام .

قال عباد : فالقى الكتاب إليّ منشوراً يُطَوَّر ، ولم يختم . فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة في قلبي . فنادتُ يا أهل الكوفة . فأجابوني . فقلت : من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله . فأقبلوا إليّ بالدنانير والدرّاهم . فقلت : لا حاجة لي بالمال ، ولكن جبة صوف وعباءة . فأتيت بذلك فتزعت ما كان عليّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح حتى أتيت باب أمير المؤمنين حافياً . فهزأ بي من كان على باب الخليفة . ثم استؤذن إلى فدخلت . فلما رأني على تلك الحالة قام وقعد . ثم قام قائماً وجعل يلطم وجهه ، ورأسه ، ويدعو بالويل والثبور . وقال : انتفع الرسول وخاب المرسل ، ما لي وللدنيا ، وللدنيا ولي ، وللملك والملك يزول عني سريعاً . فألقيت إليه الكتاب منشوراً كما دفع إليّ . فأقبل يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ، وهو يبكي ويشهق . فقال له بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان . فلو وجّهت إليه فألقيته في الحديد وضيقت عليه السجن وتجعله عبرة لغيره . فقال هارون : أتركونا يا عبيد الدنيا فالمغرور من أغررتموه ، والشقي من أهلكتموه . إن سفيان أمة وحده . ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنبه يقرؤه إثر كل صلاة حتى مات رحمه الله - وهو يقول : انتفع الرسول وخاب المرسل ما لي وللدنيا ، ما لي وللملك ، والملك يزول عني سريعاً .

ومما كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر : اعلم يا إسكندر أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلق الأجسام ، وتمح الآثار ، وتميت الذكر إلا ما رشح في قلوب الناس محبة يتوارثها الأعقاب . فاجتهد أن تظفر بالذكر الذي لا يموت بأن تودع قلوب الناس محبة يتوارثها الأعقاب ، يبقى بها ذكر مناقبك ، وشرف مساعيك ، ولا ينبغي للمدبر أن يتخذ الرعية مالا وفتية . بل يتخذهم أهلاً وإخواناً ، ولا ترغب في الكرمة التي تنالها من العامة كرها ، ولكن اربغ في المنزلة التي تستحقها بحسن الاثر ، وصواب التدبير والسلام .

وقال الاسكندر : لا تتلبس بالسلطان لا سيما في وقت اضطراب الأمور عليه ، فإن البحر لا يكاد يسلم راكبه في وقت سكونه ، فكيف لا يهلك مع كثرة رياحه واضطراب أمواجه ؟ . وقيل لأحد الحكماء : ما لفلان يكثر صحبة السلطان ؟ قال : لأن همته كبرت في الآثام .

أعاذنا الله وإياكم من مخالطة الظلمة ومشاركتهم في أمرٍ من الأمور بمنه .

٣٧- باب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو يجمع بايين ، اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمات الدين ، وتركه موجب للعقوبة ، ومؤذن بالهلاك . قال الله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران : ١٠٤] فقد أوجب الله - عز وجل - للأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الفلاح ، وقال سبحانه في ذمهم ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ [المائدة : ٧٩١] فذمهم بذلك ، وقال - عز وجل - : ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ [آل عمران : ١١٤] فأنى عليهم بذلك ، وشهد عليهم بالصلاح .

٣٨٨- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن يغير عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » ^(١) .

٣٨٩- وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُدِّبَ أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً أعمالهم أعمال الأنبياء » قلت : يا رسول الله كيف ذلك ؟ قال : « لم يكونوا يغضبون الله ، ولا يأمرن بمعروف ، ولا ينهون عن المنكر » ^(٢) .

٣٩٠- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل الفاسق في القوم كمثل قوم ركبوا سفينة فاقسموها . فصار لكل إنسان نصيب فأخذ رجلٌ منهم فأسأ فجعل ينقر في

(١) أخرجه أبو داود : الملاحم (٤/ ١٢٠ ح ٤٣٣٨) بلفظ : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرن على

أن يغيروا . » انظر : الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣٠) ولفظه رواه الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٦/٧)

(٢) الزبيدي في « الإتحاف » (١١/٧) ، والعراقي في « المغني عن حمل الاسفار » (٣٠٦/٢) .

موضعه . فقال له أصحابه : أي شيء تصنع ؟ تريد أن تفرق وتفرقنا ؟ قال : مكاني أفعل فيه ما أريد فإن أخذوا عليه نجا ونجوا ، وإن تركوه غرق وغرقوا » .

٣٩١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يجيء في آخر الزمان أقوام تكون وجوههم وجوه الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين أمثال الذئاب الضواري ليس في قلوبهم من الرحمة شيء سفاكون الدماء لا يدعون عن قبيح ، إن تابعتهم واروك ، وإن تواريت عنهم اغتابوك وإن حدثوك كذبوك وإن ائمتهم خانوك ، صبيهم عارس ، وشاييهم شاطر ، وشيخهم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، الاعتزاز بهم ذل وطلب ما في أيديهم فقر ، الحلیم الذي فيهم غاوي والأمر بالمعروف فيهم متهم ، والمؤمن فيهم مستضعف ، والفاسق فيهم مشرف . والسنة فيهم بدعة ، والبدعة فيهم سنة . فعند ذلك يسلط الله عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم » .

٣٩٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حلیم فيما يأمر به حلیم فيما ينهى عنه فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه » .

٣٩٣ - وقال أنس - رضي الله عنه - : قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه ؟ قال : « بلى مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهاؤا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله » ^(١) .

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : يريد الشيطان أن يظفر منا بهذه الخصلة وهي أن لا يأمر بالمعروف حتى نأتي به كله يعني أن هذا يؤدي إلى حسم باب الحسنة فمن ذا الذي يعصم من المعاصي ولكن ينبغي أن يكون المحتسب قد بدأ بنفسه فهدبها وترك ما ينهى عنه .

وفي وصية عليّ لابنه : يا بني أمر بالمعروف تكون من أهله وأنكر المنكر وبأين من فعله بجهدك فكل من شاهد منكراً ولم يغيّره وسكت عليه فهو شريك

(١) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني في الصغير والأوسط من طريق عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب عن أبيه وهما ضعيفان . أنظر : « مجمع الزوائد » (٧/ ٢٨٠) .

فالمستمع شريك القائل ويدعو إلى ذلك ويحمل عليه كثرة مخالطة الناس والإسترسال معهم فمن خالط الناس كثرت معاصيه وإن كان تقياً إلا أن يترك المداهنة ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يقدر على ذلك لأن أغلب الناس على ما نهى عنه الشرع . وربما اتصل الأمر إلى الإيذاء .

وقيل : كان في بني إسرائيل قوم يعملون بالمعاصي وكان فيهم أحبار ورهبان وعباد يطيعون الله وكانوا يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ولا يمنعم ذلك أن يواكلوهم ويشاربوهم ويركبوا دوابهم فلما جاءتهم اللعنة ضربهم الله جميعاً بما أكلوا معهم وشربوا معهم فأول ما ينبغي أن تأمر وتنهى نفسك قبل أن تنفذ إلى غيرك وتأمر وتنهى برفق ولا تعنف ولتحاسب نفسك في كل حال ومقام .

وقيل : كان في صحف إبراهيم - عليه السلام - : وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب .

وحكي أن أبا الحسن النوري - رحمه الله - كان على الدجلة ببغداد إذ مرّ به مركب مملوء دنانا وهي أواني الخمر مكتوب عليها لُطْف فقال لأصحابه : ما أعرف اسم شيء لطف على شيء من التجارة . فقال الملاح وهو رئيس المركب : ما معنى لطف ؟ قال له الملاح : هذه جرار خمر للمعتصم يثمُّ بها مجلسه . فقال : يا مولاي : فتنة وأنا في الدار . ثم قال لأصحابه : أعطوني المدراً فابتدا بكسر الجرار . فقال الملاح : هذا رجل فضول أيفتات على أمير المؤمنين ويكسر دنانه أما علم أن سيفه يسبق كلامه فكسر الدنان جميعاً غير دنان واحد وكانت الدنان ما به غير واحد . قال : فبلغ المعتصم ذلك فبعث وراءه رجاله وكان جاء مع النوري جماعة من المسلمين فقالوا : نموت معه نحمل إلى المعتصم فأدخل عليه وهو على كرسي حديد كأنه جبار عنيد، وقد امتلاً غيظاً وحنقاً فناداه بأعلى صوته من أنت ؟ قال : أنا محتسب . قال : من أقامك في الحسبة ؟ قال : الذي أقامك في المملكة فنكس المعتصم رأسه ثم رفع رأسه فقال له : ما حملك على كسرها ؟ قال : أشفتك عليك أن تعصي الله تعالى . قال له : فلم كسرتها غير جرة واحدة ؟

قال له : طلعت بنية قرية لله تعالى فلو أن أهل الأرض كلها يطلبني ما نكرت فلما لم يبق إلا دن واحد أعجبتني نفسي وقالت : تجرات على المعتصم فخفت على نفسي إن كسرتها افتضحت إذ كان ذلك لله تعالى وهذا للنفس . فقال المعتصم : اخرج فقد أطلقنا يداك على الحسبة . فقال : لا والله لا عدت بعد ما كنت بالأمس أنكر عن الله واليوم أنكر عن المعتصم . فقال له : فهل من حاجة ؟ قال : نعم . قال : وما هي ؟ قال : لا أراك بعدها أبداً .

وقيل : لما فشت الزنادقة ببغداد في زمان المأمون أمير المؤمنين قتل جماعة من الناس من المتهمين بالزندقة فلم تنقطع الزندقة من بغداد . فقال له وزراؤه : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن ترفع القتل عن الناس فقد فزع بهم وقد انقطع المسافرون عن الحضرة ونقصت الجبايات وضعف الخراج فرأى أمير المؤمنين أن يرفع القتل عن الناس وأن يأمر بطلب شيخ الزنادقة وقتله فإذا قطع الأصل يبست الفروع فقبل ذلك ورفع القتل وأمر بطلب شيخ الزنادقة جميع من يلوذ به من أهل مملكته وطلبوه فلم يعلموا من هو وكان في المدينة رجل عالم زاهد عابد يستسقى به الغمام ويسمى سالماً وكان الناس يحبونه حباً شديداً لما كان يبدو عليه من العبادة والزهد وكان يحلق في مسجده وكان يمر على مسجده غدوة ورواحه أحد وزراء الملك يعرف بابن سماعة وكان أثيراً عنده فتأخر به المجلس يوماً عند أمير المؤمنين حتى زالت الشمس فمر في طريقه بمسجد سالم فوجد سالماً في منارته وهو يؤذن للظهر وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله . فلما سمع ذلك ابن سماعة قال في نفسه : مثل سالم يقول في أذانه مثل هذا كأنه يستفهم والله ما أراه إلا شيخ الزنادقة . ثم شك في أمره لما يعرف من مكانته وزهادته . وقال : أظنها رثة في لسانه فنهض وهو مشغول البال بما سمع منه فتارة يقول : هو شيخ الزنادقة وتارة يغلب عليه حسن الظن به لما هو عليه من الدين والفضل والورع فقال في نفسه : لا بد من إزالة الشك بأن أسمع كلامه فإن كانت تلك رثة في لسانه فهو ما ظننت وإلا فهو شيخ الزنادقة فانصرف الوزير إلى منزله وبات على حالته من شغل باله . فلما أصبح لبس غير ثيابه التي يحضر بها مجلس

أمير المؤمنين وبكر إلى مجلس سالم وكان يحلق فيه بعد الصبح فدخل الوزير في
 غمار الناس وحضر مجلسه وسمع وعظه وكلامه فلم يسمع له رثة ولا لكنة .
 فقال : هذا شيخ الزنادقة بلا شك فخرج إلى منزله من المسجد ولبس ثيابه التي
 يحضر بها المجلس فنهض وقد ارتفع النهار وكان ممن لا يتخلف عن المجلس فلما
 دخل سأله المأمون عن سبب تأخره فقال : إني قد بحثت على شيخ الزنادقة حتى
 وجدته . قال له : فمن هو ؟ قال : سالم . قال : فغضب المأمون غضباً شديداً
 وقال : يا ابن سماعة مثل سالم العابد الزاهد ترميه بمثل هذا البهتان العظيم ثم أمر
 بإحضار القاضي والفقهاء وجميع أهل مملكته ثم قال : عليّ بسالم وكان سالم ممن
 لا يحضر مجالس القضاة ولا الأمراء فوصل الإذن سالماً . وقيل له : أجب أمير
 المؤمنين فجاء سالم يريد القصر فاتبعه خلق عظيم فلما دخل على المأمون ترحزح
 ووسّع له في مجلسه وأجلسه فيما بينه وبين القاضي وجلس ابن سماعة أمامهم
 فسلم المأمون على سالم وسأله عن حاله ثم اشتغل عنه قليلاً حتى اطمأن في
 المجلس . ثم عطف عليه وقال : يا سالم وزيرى هذا يزعم أنك شيخ الزنادقة .
 فقال سالم : يا أمير المؤمنين لي عليه أن يبين ما ادعى أو يحكم لي عليه فحكم
 عليه القاضي والفقهاء بالقتل لما علموا من فضل سالم ودينه وصلاحه وأبعدوا
 ذلك عنه فأمر أمير المؤمنين بضرب عنق ابن سماعة . فلما رأى أنه لا محيص له
 من القتل قال : يا أمير المؤمنين هل من تأخير ساعة ؟ قال : لا إلا أن يريد سالم .
 فقال سالم : أؤخره ثلاث ساعات فخرج ابن سماعة على وجهه حائراً لا يدري
 أين يذهب فمرّ يدور في شوارع بغداد يلتمس ناصراً أو معيئاً . فقال : إلهي إنك
 تعلم أنني لم أطلب ذلك لا لرفعة الدنيا ولا رياء للناس وإنما طلبت ذلك مخلصاً
 لك وغضباً فيك . فإن كنت تعلم ذلك مني فخلصني مما نزل بي . فما رجع إليه
 ذهنه إلا وهو قائم على باب السجن . قال : إلى هنا أرسلني ربي والله ما أظن إلا
 أن فيه حاجتي . فدخل السجن فلما نظر إليه السجانون والأعوان قاموا إليه إعظاماً
 له وظنوا أن البلاء جاءهم لوصول الوزير إليهم واقتحامه عليهم وهم لا يعلمون ما
 نزل به فلم يلتفت إليهم ودخل السجن فلما توسطه رأى في بعض زواياه شاباً

جميل الوجه حسن الهيئة نظيف الملبس كأنه من أبناء الملوك على مرتبة حسنة وأمامه آلة الخمر وهو يترنم فقصد إليه فقام الشاب ورحب به . وأنزله إلى جانبه وكان قد أخذت منه الخمر فعرض على الوزير الخمر فاعتذر له عنها . ثم حدثه قليلاً . ثم قال له : بحقي عليك أخبرني على ما سجت ها هنا ولم يسجن مثلك فإني أراك حسن المنظر طيب المخبر فقال الفتى : يا سيدي سجت لأني زنديق . قال الوزير : الله أكبر أظن الفرج عند هذا . ثم قال له الوزير : إن كنت كذلك فمن شيخكم . قال : سالم . قال : فما دليلك على ذلك ؟ قال : دليلي يدفع إليه ديك أبيض أفرق ليذبحه فإنه لا يذبحه أبداً . قال : فقلت له : فهل أجلى من هذا ؟ قال : نعم يعمد إلى فص خاتمه فيلقى فيه منقوش أنا زنديق . قال : فقلت له : فهل أجلى من هذا ؟ قال الفتى : يا سيدي كلفتني مشقة ثم عمد إلى ذراعه فأخرج منه حرراً ففتقه ثم أخرج منه رقعة فيها صورة شيخ الزناديق مصورة فقال : لو كلف سالم أن يبصق على هذه الصورة لم يفعل أبداً ولو قتل . فاستلبها من يده وخرج مسرعاً إلى أمير المؤمنين . فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين قد لطف الله تعالى ويسر وفتح بدلالات قولي . قال له المأمون : فما دليلك ؟ قال : يدفع إلى سالم ديك أبيض أفرق ليذبحه . فإن الزنادقة لا يذبحونه . فضحك سالم وقال : ما ذبحت عصفوراً قط فلم يفقد ممن كان في المجلس من قال : وأنا ما ذبحت حيواناً قط . فقال له المأمون : ليس لك في هذا دليل فهل غير هذا ؟ قال : نعم . انظر إلى فص خاتمه فإنك تجد فيه أنا زنديق منقوشاً فمدّ يده المأمون فاستلب خاتمه من أصبعه فقرأ ما فيه فوجد فيه : أنا زنديق فقال : ما هذا يا سالم ؟ قال : عندي وكيل اسمه عبد الرحمن ويكنى أبا زيد فهذه أمانة بيني وبينه وهي أبا زيد ثق قال : فشهد له من حشر أن له وكيلاً اسمه عبد الرحمن . فقال المأمون : وهذا يا ابن سماعة ليس لك فيه دليل ما بقيت إلا واحدة . ثم أخرج الصورة وبصق عليها وقال : أمير المؤمنين أبصق عليها فهي صورة شيخ الزنادقة ، وأمر سالماً أن يبصق عليها . فبصق المأمون عليها وأمر سالماً أن يبصق عليها فلما رأى سالم صورة شيخه تغير لونه وأخذها وبكى وأخذها من يد المأمون وجعل

يقبلها ويمسح بها وجهه فعلم المأمون أنه شيخ الزنادقة فأمر به فضربت عنقه وهو ييكي على الصورة ويقبلها . فلما مات انقطعت الزندقة من بغداد .
فانظر كيف كان الله تعالى بالمرصاد حيث علم أنه لم يرد بذلك إلا وجهه ،
فإياك أن تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطعت . فإن ذلك سبب
هلاك التارك له إذا قدر عليه ، عصمنا الله وإياك من ترك إنكار المنكر ولو بالقلب
إذا لم يمكن القول بمنه وفضله .

٣٨ - باب الحمية لغير الله عز وجل

فإياك يا أخي والحمية لغير الله تعالى ، فإن الله تعالى غير أقواماً بذلك . فقال
تعالى : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ { الفتح : ٢٦ }
٣٩٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنما الطاعة في المعروف » ^(١) .
٣٩٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » ^(٢)
٣٩٦ - وأما الحديث : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ^(٣) .

فمعناه إن كان على الحق فأعنه عليه ، وإن كان على الباطل فرده ، وبين له عاقبة
الباطل . فتكون له عوناً على ذلك .

٣٩٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من مسلم ينصر مسلماً في موضع يتتهك
فيه عرضه ، وتستحل فيه حرمة إلا نصره الله تعالى في موضع تجب فيه نصرته ، وما من
أحد خذل مسلماً في موضع يتتهك فيه من عرضه ، وتستحل حرمة إلا خذله الله تعالى
في موضع تجب فيه نصرته » ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري : الأحكام (١٣/١٣٠ ح ٧١٤٥) ، ومسلم : الإمامة (٣/١٤٦٩ ح ٤٠/١٨٤٠) .

(٢) أخرجه أبو داود : الأدب (٤/٣٣٤ ح ٥١٢٠) وقال أبو داود : أيوب بن سويد ضعيف .

(٣) أخرجه البخاري : الإكراه (١٢/٣٣٨ ح ٦٩٥٢) ولفظه عنده من طريق أنس - رضي الله عنه - .

ومسلم : البر والصلة (٤/١٩٩٨ ح ٦٢/٢٥٨٤) وعند مسلم بلفظ : « ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً »

من حديث جابر - رضي الله عنه - .

(٤) أخرجه أبو داود : الأدب (٤/٢٧٢ ح ٤٨٨٤) ، وأحمد : المسند (٤/٣٩ ح ١٦٣٧٤) بلفظ : « ما من

امرى . . . » وساق الحديث .

وقال لقمان - رحمه الله - : طلاقة الوجه بالسرور والغبطة ، وإظهار حسن المعاشرة وبذل التحية وخفة الروح في المعاملة ، وترك العصبية داعية للمحبة في البرية .
 أعاذنا الله وإياكم من الحمية لغير الله تعالى بمنه وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

٣٩ - باب كراهية النصيحة

فإياك أن تكره النصيحة ممن يؤديها إليك ولتقبل ذلك بوجه طلق وسمع مصغ وشكر جزيل وتعلم صدق ناصحك وتنصف من نفسك فإن المرء لا يرى عيب نفسه ولعله كتمك من عيوبك ومساوئك أكثر مما أبداه فاجعل لنفسك مثلاً من الناس فما استحسنته منهم فاعمل له وما استقبحت فاجتنبه .

٣٩٨ - وذلك معنى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة أخيه المؤمن ، يرى فيه المحاسن فيعمل بها والقبايح فيجتنبها ولا يراها لنفسه لغلبة الهوى »^(١)

وروي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (قال)^(٢) : لا تزايدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت ابنة ذي القصة يعني يزيد بن الحصين الحارثي فمن زاد ألقىت الزيادة في بيت مال المسلمين . فقامت إليه امرأة من بين النساء امرأة فطساء فقالت : ما ذاك يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : ﴿ وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنَاخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ٢٠] فقال عمر رضي الله عنه : امرأة أصابت ورجل أخطأ . فتأمل رجوعهم إلى الحق وإعطائهم النصف من أنفسهم وتركهم الألفة خوف الوقوع في المعصية بكراهية الحق فتأسوا به رحمكم الله .

وحكي أنه لما خرج الناس إلى حرب القادسية في خلافة عمر - رضي الله عنه - جمعت الخنساء بنت عمر بن الشريف بنيتها وكانوا أربعة رجال فقالت : أي بنيّ والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا غيرت نسبكم ، ولا غيرت حسبكم فإذا كان بالغداة إن شاء الله

(١) أخرجه أبو داود : الادب (٤/٢٨١ ح ٤٩١٨) بلفظ : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن : يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » أنظر : « كشف الخفاء » للعجلوني (٢/٣٨٨ ح ٢٦٨٧) .

(٢) ساقطة من الاصل .

فاغدوا لقتال عدوكم مستبصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها وضربت بأوراقها فتيّموا وطيسها وجالدوا خميسها تظفروا بالنون والخلد في دار النعيم . فخرج بنوها من عندها قائلون لقولها عارفون لنصحها . فلما كان بالغداة أخذوا مراكزهم فقاتلوا قتالا شديداً وأبلوا بلاء حسناً حتى استشهدوا عن آخرهم - رحمة الله عليهم - وكانت عطاياهم ثمانية آلاف درهم فلم يزل عمر - رضي الله عنه - يجريها عليها مدة خلافته ولم يقطعها . فانظر قبولهم للنصيحة كيف ورثهم الجنة والحياة الدائمة في جوار الله تعالى . جعلنا الله وإياكم ممن تذكروا وأبصروا ووعظ فاعتظ بمنه وفضله .

٤٠ - باب تزكية النفس في القول والفعل

فإياك يا أخي أن تنظر إلى نفسك في شيء من قولك وفعلك بعين الرضا . فقد ورد في الخبر أن رضا العبد عن نفسه مقرون بسخط الله عليه . فإنك ميسر لما خلقت له من الخير أو الشر ، وأنه لا يقدر أحد على صلاح نفسه إلا بتوفيق الله - عز وجل - فهو الذي يهدي ويضل بيده الخير وهو على كل شيء قدير . قال الله - عز وجل - : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً . ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ﴾ { النور : ٢١ } . فاحمد الله تعالى إن كنت كذلك حيث منّ عليك بالصواب في القول والصلاح في العمل ، وسلك بك الطريق المستقيم ، وشرح صدرك إلى قبول المعرفة ، ولتبرأ له من الحول والقوة . فإن التوفيق كله في النظر إلى النفس بعين الذل والافتقار .

٣٩٩ - قالت عائشة - رضي الله عنها - : قلت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قال : « إذا ظن أنه محسن » .

وقيل لبعض الحكماء : متى أثرت فيك الحكمة ؟ قال : لما بدأت أحقر نفسي .

وقيل لبعض الحكماء : أي شيء قلته من فضيلة العلم أنت به أكثر سروراً ؟ فقال : علمي بأنني لست بعالم . وذكر أن الشيطان - لعنه الله - يقول : إنه من زعم بعقله نحى مني فجهله وقع في حبالي . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ { الحجرات : ١٣ }

عصمنا الله وإياكم من تزكية النفس والنظر إليها بعين الرضا بمنه وفضله .

٤١ - باب حب المدح وخوف الذم

اعلم وفقك الله أن حب المدح والثناء مهلك للدين وكذلك خوف الذم وأكثر ما أهلك الخلق حب المدح وخوف الذم .

قال الله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

٤٠٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله - عز وجل - ليغضب إذا مدح الفاسق » ^(١) .

٤٠١ - وفي الخبر أن رجلاً أتى على رجل خيراً عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال : « لو أن صاحبك حاضر فرضي الذي قلت دخل النار » ^(٢) .

٤٠٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما مدح مرة ثانية : « صه ويحك فقد قطعت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة » ^(٣) .

٤٠٣ - ومدح رجل أيضاً عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً . فقال : « ويحك قطعت عنق صاحبك إن كان لا بد من كون أحدكم مادحاً أخاه فليقل : أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك » ^(٤) .

٤٠٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه » ^(٥) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣١١/٤) بلفظ : « إذا قال الرجل للمناق يا سيد ، فقد أغضب ربه » انظر : الترغيب والترهيب للمنذري (٥٧٩/٣) .

(٢) أخرجه الزبيدي في « الإتحاف » (٢٥٦/٨) ولفظه : « لو كان صاحبك حاضرًا فرضي ... » .

(٣) أصله عند البخاري ومسلم بلفظ : « أهلكتم ، أو قطعتم ، ظهر الرجل »

أخرجه البخاري : الأدب (٤٩١/١٠ ح ٦٠٦٠) ، ومسلم : الزهد (٢٢٩٧/٤ ح ٦٧/٣٠٠١) .

(٤) أخرجه البخاري : الأدب (٤٩١/١٠ ح ٦٠٦١) ومسلم : الزهد (٢٢٩٦/٤ ح ٦٥/٣٠٠٠) .

(٥) أورده الزبيدي في « الإتحاف » (٥٧٢/٧) .

٤٠٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « احتوا في وجوه المداحين التراب » ^(١) .

وقال علي - عليه السلام - لما أثنى عليه : اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون . وقال بعضهم لما أثنى عليه : اللهم إن عبدك هو قد تقرب إليّ بمدحي وأنا أشهدك على مقته .

وقال أحد الحكماء : من مدحك فيما ليس فيك فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك

وفي الخبر : أن ابن عباس دخل على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين طعن فقال له : أبشر يا أمير المؤمنين فإنك أسلمت حين كفر الناس وقاتلت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو عنك راضٍ ، ولم يختلف عليك في إمارتك اثنان . فقال له : أعد عليّ ما قلت فأعاد عليه . فقال : المغرور من أغررتموه والله لو أن لي ما على الأرض من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلاع .

٤٠٦ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح عليه السلام فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً » ^(٢) .

فلا تلتمسوا وفقكم الله الشاء والتعظيم بأسباب الدين فما أخلق ذلك أن يمحوا أعمالكم فما رأيتم التزكية والمدحة فلا تعجبوا بذلك فإنه ضارّ بالدين وإذا سبق السرور إلى القلب فلا تصروا على ذلك وردّوا السرور إلى القلب بالعلم لضرر التزكية واستعيذوا من شرهما فما يؤمنكم أن تكونوا من الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذابٌ أليم . ففي الخبر : « إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس فيه خيراً ولا خير فيه » .

٤٠٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « كم من عدوٍ لله في المساجد وكم من حبيب لله في الكنائس .

وذلك راجع إلى السابقة وكل ميسر لما خلق له .

(١) أخرجه مسلم : الزهد (٤/٢٢٩٧ ح ٦٩/٣٠٠٢) ، وأبو داود : الأدب (٤/٢٥٥ ح ٤٨٠٤) .

ولفظه : « إذا رأيتم المداحين ، فاحتوا في وجوههم التراب » .

(٢) أخرجه البخاري : أحاديث الأنبياء (١/٥٥١ ح ٣٤٤٥) ، والدارمي : الرقائق (٢/٤١٢ - ٤١٣ ح ٢٧٨٤) ،

وأحمد : المسند (١/٣٠ ح ١٥٥) .

جعلنا الله وإياكم ممن سريرته أحسن من علانيته بمنه وفضله . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

٤٢ - باب سوء الخلق

اعلم وفقنا الله وإياكم أن سوء الخلق يؤدي بصاحبه إلى المهالك .

قال الله تعالى : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، والسوء الخلق لا يكون محسناً أبداً . بل يكون مسيئاً في جميع أحواله .
وقال سبحانه : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ إذا نابا ذلك طباعه .

٤٠٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « حسن الخلق لا يفارق صاحبه حتى يدخله النار » .

٤٠٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن » ^(١) .

٤١٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ^(٢) .

٤١١ - وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم : ما الدين ؟ قال : « الخلق الحسن »

٤١٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أحسن الخلق خلق الله تعالى » ^(٣) .

وفي المناجات : أن الله تعالى أوحى إلى موسى - عليه السلام - يا موسى خصلتان لم أجعلهما إلا في المؤمن الذي أحبه : الكرم وحسن الخلق ، ومنعتهما عن كل منافق .

(١) أخرجه أبو داود : الأدب (٤/٢٥٣ - ٢٥٤ ح ٤٧٩٩) ، والترمذي : البر والصلة (٤/٣٦٢ ح ٢٠٠٢ -

٢٠٠٣) ، وأحمد : المسند (٦/٤٧٤ - ٤٧٥ ح ٢٧٦٢١)

بلفظ : « ليس شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق » .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ : حسن الخلق (٢/٩٠٤ ح ٨) بلفظ : « بعثت لأتمم حسن الاخلاق »

وقال ابن عبد البر : هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره . والبيهقي في الكبرى (١٠/٣٢٣ ح ٢٠٧٨٢) ولفظه عنده .

(٣) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : حسن الخلق

خلق الله الأعظم « عزاه الحافظ المنذري في الترغيب إلى الطبراني في الكبير والأوسط . أنظر : الترغيب

(٣/٤٠٦ ح ١٧) وقال الحافظ الهيثمي : وفي عمرو بن الحصين وهو متروك . أنظر : مجمع الزوائد (٨/٢٣)

وقيل : مثل السيء الخلق كالفأخورة المكسورة لا ترفع ولا ترد طينًا .

وقال يحيى بن معاذ - رضي الله عنه - : سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات .

وقيل : علامة أهل السعادة والجنة الوجوه الحسان ، والأخلاق الحسان والقلوب الراحمة ، والألسنة اللطيفة ، والتقوى ، والحياء من الخلقِ والخالق ، وعلامة أهل النار الأوجه القبيحة وسوء الخلق ، والقلوب القاسية ، والألسن الجافية ، والمعاصي ، وقلة الحياء من الخلقِ والخالق .

وقال أحد الحكماء : اعلم أن سعة الأخلاق يطيب العيش ، ويدوم السرور ، وبالتأني تسهل المطالب ، وبلين الكلمة تدوم المودة في الصدور ، وبخفض الجناح تتم الأمور ، وبالإنصاف يجب التواصل ، وبالتواضع تكثر المحبة .

فالسوء الخلق مخاطر بنفسه ، وحسن الخلق رفيق الحلم ، والحلم وزيره .

وذكر أن حكيمًا قال له تلميذه : أوصني وأراد سفرًا : فقال له الحكيم : أسيء الظن بمن تعرف ، وكن على حذر ممن لا تعرف ، وإياك والوحدة ، وكن كأحد أتباعك ، وإياك والضجر ، وسوء الخلق ، وإذا نزلت منزلاً فلا تمس بليلٍ ، ولا تذق عشباً لا تعرفها ، ولا تغتم مخاطر الطرق ، وعليك بجانبها وإن بعدت .

وقال أحد الحكماء : من حسن خلقه غفرت ذنوبه ، وأقيلت عثرته ، ومن ساء خلقه عوقب في حياته ، ولم يصفح عن زلته . وقال لقمان - رضي الله عنه : حسن النية من العبادة ، وحسن الجلسة من الرئاسة ، وحسن الاستماع من العلم ، وحسن الخلق من الكرم ، وحسن الجوار من الحلم ، وسوء الخلق من اللؤم . وقال آخر : لا مال أوفر من عقل ، ولا فقر أشد من جهل ، ولا قرين خير من حسن الخلق ، ولا ظهر أوثق من مشاورة ، ولا فائدة خير من توفيق ، ولا ميراث خير من أدب . وقال آخر : حسن الخلق للنفس ، وحسن الوجه للجسد . فمن قبحت صورته ساء خلقه .

ومن حسن الخلق ما ذكر أن معاوية - رضي الله عنه - جالس أبا الجهم بن حذيفة العدوي على المائدة ليتغذى معه . فقال له معاوية : يا أبا الجهم أئنا أسن أم أنت ؟ قال : يا أمير المؤمنين أما والله لكأني أنظر إلى أمك ، وإلى الانقلاب في عينيها ،

وعظم عجزيتها ، وقد جئت لأخطبها قبل أيك ، وقبل زوجها الفاكه بن المغيرة . ثم تزوجها أبوك ، فأتت بك وبأخوتك . قال معاوية : أما إنها كانت تستكرم الأرواح ، وتقل الخراج ، إياك وهذا السلطان يا أبا الجهم ، فإنه يغضب غضبة الصبي ، ويشب عليك وثبة الأسد ، هذه مائة ألف فاستعن بها ، والحق بأهلك . فقبل بين عينيه وقال : آيت إلا حلمًا وكرمًا . وأنشدوا :

نُقَلِّبُهُ لِنَخْبِرُ حَالَتِيهِ فَنَخْبِرُ مِنْهُمْ كَرَمًا وَكَيْنَا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى أَبِينَا

فهذه نتيجة حسن الخلق والحلم ، وإنما معنى حسن الخلق القصد إلى أوسط الأمور ، وهو تزكية النفس عن الميل إلى أحد الجانبين ، وحملها على الوسط إذ فيه النجاة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ {الإسراء : ٢٩} ، ولقوله - سبحانه - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ {الفرقان : ٦٧} ، ولقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ {الإسراء : ١١٠}

٤١٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي أوتي بجميع الكلام : « خير الأمور أوسطها »^(١) . فكلما طرفي قصر الأمور ذميم ، وليست التزكية بترك بعض الأمور المذمومة دون الكل حتى يتركى من جميعها . فإن بعضها يتربص البعض ولا ينجو إلا من أتى الله بلقب سليم ، والسلامة المطلقة لاتنال برفع بعض الأمور دون الكل ، وإنما تنال بالصحة المطلقة ، ولا يطلق الحسن لمن حسن بعض أعضائه دون بعض ما لم يحسن جميعها ، وما اجتمع ذلك لأحد إلا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأثنى الله تعالى عليه بذلك . فقال سبحانه : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مَطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ ﴾ {التكوير : ٢٠} ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ {القلم : ٤} ومعنى الخلق والخلق عبارتان ، فالمراد بالخلق الصورة الظاهرة ، وبالخلق الصورة الباطنة ، فالإنسان مركب من جسد يدرك بالبصر ، ومن روح ونفس يدرك البصيرة ، ولكل واحد منهما صورة وهيئة إمامًا حسنة وإمامًا قبيحة ، فالنفس المدركة

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/٣٨٧ ح ٦١٠٢) .

بالبصيرة اعظم قدرا ، وذلك لان المحسوس أدرك بالمحسوس ، والجوهر أدرك بالجوهر ، إذ لا يدرك الحسن إلا المحسوس ، ولذلك أضاف الله سبحانه الروح إلى نفسه . بقوله تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ { الحجر : ٢٩ } ، ووصفه عز وجل بأمر رباني بقوله سبحانه : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ { الإسراء : ٨٥ } وعني بالروح والنفس هنا معنى واحدك ، وهو الجوهر العارف ربّه وخالقه المكلف المدرك من الإنسان بإلهام الله تعالى ، وأضاف الدين إلى الطين بقوله سبحانه : ﴿ إني خالق بشرًا من طين ﴾ { ص : ٧١ } فكما لم يحصل الكمال في الخلق والخلق وهما الصورة الظاهرة والباطنة إلا للنبى - صلى الله عليه وسلم - ، فليست النجاة موقوفة على الكمال المتناهي لا على أن يكون الميل إلى الحسن أكثر مما إلى القبيح ، لأن القبح المطلق في الصورة الظاهرة ممقوت ، والحسن المطلق فيها معشوق ، وما بينهما درجات ، فالقريب من الحسن المطلق في الصورة الباطنة أسعد في الآخرة من القريب من القبح المطلق ، وبينهما درجات لا أعدمنا الله وإياكم حسن الخلق بمنه وفضله .

٤٣ - باب سوء العشرة مع الصاحب

فإياك أن تسيء العشرة مع أحدٍ من خلق الله تعالى ، فرأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التحجب إلى الناس كافة لا سيما من اضطرت إلى صحبتته ولو ساعة من نهار قال الله تعالى لنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ { آل عمران : ١٥٩ } وإنما أمره بذلك تطيبًا لقلوبهم لا للافتقار منه إلى رأي غيره ، فإنه مؤيد من الحضرة القدسية لا ينطق عن الهوى . وقال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ { القلم : ١٠ } وقال سبحانه : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ { الكهف : ٢٨ }

٤١٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما اصطحب اثنان إلا وكان أحبهما إلى الله سبحانه أرفقهما بصاحبه » ^(١) .

٤١٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مثل الأخوين كاليدنين تغسل إحداهما الأخرى » ^(٢) .

(٢) إنجاف (٦/٢٠٤) .

(١) إنجاف (٦/٢٠٧) .

٤١٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما صاحب أحدٌ أحدًا ولو ساعة من نهار إلا سُئل عن صحبته . فأقل درجات الصحبة كف الأذى » .

٤١٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(١) . وفوق ذلك أن يحسن إليهم وينفعهم .

٤١٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » ^(٢) . وأعلى من ذلك أن يكف عنهم وينفعهم ويحتمل الأذى منهم .

٤١٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعليّ - عليه السلام - : « إن أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعف عمّن ظلمك » .

٤٢٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من سرّه أن يتزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن يأتي الناس بما يحب أن يؤتى إليه » ^(٣) .

فليوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان ، وأن يجعل الناس ثلاثة أصناف ؛ صنف أسن ، وصنف يقارنه في السن ، وصنف دونه في السن ، فليوقر من فوّه توقير الآباء ، ويكرم من قارنه كرامة الإخوة ، ويرحم من دونه كرحمته لبنيه .

فاجعل الناس ثلاثة أصناف ، صنف كالغذاء لا يستغنى عنه ، وصنف كاللدواء يحتاج إليه وقتاً دون وقت ، وصنف كالداء لا يحتاج إليه أبداً .

قال أحد الحكماء : إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضاً . وقال آخر : إنما سُمّي الصديق صديقاً بصدقه لك ، وسمي العدو عدواً بعدوه عليك .

(١) أخرجه البخاري : الإيمان (١/٦٩ ح ١٠) ، ومسلم : الإيمان (١/٦٥ ح ٤١/٦٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٨٦ ح ٣٣-١٠) وعزاه الحافظ الهيثمي - أيضاً - إلى الأوسط ، وقال : وفيه عمير وهو أبو هارون القرشي متروك . أنظر : مجمع الزوائد (٨/١٩٤) .

(٣) عزاه الحافظ الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن عمرو ، وقال : وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات . أنظر : مجمع الزوائد (٨/١٨٩) ، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٢٢) .

وبلفظ : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . » . أخرجه مسلم : الإمارة (٣/١٤٧٢ ح ٤٦/١٨٤٤) .

٤٢١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يقيم الرجل من مجلسه فيجلس فيه » (١)

٤٢٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خيركم أئنيكم مناكباً في المجالس » (٢)

٤٢٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من بدا جفا » (٣)

٤٢٤ - وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » (٤)

٤٢٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « إجلال الله تعالى إجلال ذي الشية المسلم » (٥)

٤٢٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يقول إن الشيب نور من نوري ، وأنا أستحي أن أعذب نوري بناري » (٦)

فينبغي لمن شاب في الإسلام أن يوقر ما وفر الله تعالى ، ويرفعه عن أن يجمع بينه وبين المعاصي ، ويعرف قدر ما شرفه الله سبحانه به من نوره ، ويعلم أنه النذير بالرحيل إليه ، ويتزود التقوى من دار البوار ، ويرغب في تحرير شيبته من النار العزيز الجبار .

كما قيل : إن شيخاً دخل الحرم وطاف بالبيت ثم تعلق بأستار الكعبة ، وأمسك شيبته ، وأرسل دمعته ، وقال : اللهم إنك تعلم أن العبد إذا شاب في رقنا لم نأكل له ثمناً ، وقد شبت في رقبك ، فأعتقني بفضلك من النار . وأنشدوا في المعنى نشيد بليغ :

ستور بيتك ظل الأمن منك وقد علقتهاطمعا في العفو يا بار
وما أظنك لما أن علقته بها خوفاً من النار تدينني من النار
قد جئت قصداً لبيت أنت قلت لنا حجوا إليه وقد أوصيت بالجار

(١) أخرجه البخاري : الاستئذان (٦٤/١١) ح ٦٤٦٩ ، ومسلم : السلام (٤/١٧١٤) ح ٢٧/٢١٧٧ .

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٥٦٦) .

(٣) أخرجه أحمد : المسند (٢/٤٩٢) ح ٨٨٥٨ ، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٧٣) ح ٢٥٥٠٢ ، والطبراني في

الكبير (١١/٥٦) ح ٣٠٠١١) أنظر مجمع الزوائد (٥/٢٤٩) .

(٤) أخرجه الترمذي : البر والصلة (٤/٣٢١) ح ١٩١٩ ، وقال : حديث غريب . وأحمد : المسند (١/٣٣٨

ح ٢٣٣٣) ، والطبراني في الكبير (١١/٧٢) ح ٨٣٠١١) أنظر : مجمع الزوائد (٨/١٧) .

(٥) أخرجه أبو داود : الأدب (٤/٢٦٣) ح ٤٨٤٣ ، والبيهقي في الكبرى (٨/٢٨٢ - ٢٨٣) ح ١٦٦٥٨ .

(٦) عزاه الحافظ المعجلوني إلى الديلمي في مسنده ، وأبو الشيخ وأخرون عن أنس رفعه يقول الله عز وجل :

الشيب نوري ، و النار خلقي ، وأنا أستحي أن أعذب نوري بناري » أنظر : كشف الحفاء (٢/٣٣٤) ح ٧٠٢٥

فخالط الناس بالطلاقة والبشر.

٤٢٧ - فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أتدرون على من حرمت النار ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « على اللين السهل القريب »^(١) .

فلحكمة أن تخالط كل صنف بأخلاقهم . قال داود - عليه السلام - : يا رب كيف لي أن يحبني الناس ، ويسلم فيما بيني وبينك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : خالط أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالط أهل الآخرة بأخلاق الآخرة .

قال الحريري :

لَبِستُ لكل زَمَانٍ لَبُوسًا وَقابلتُ صَرَفِيهَ نُعْمِي وَبُوسًا
وعاشرت كل جليس بما يلائمه لأروقَ الجليسا
فـعند الرواة أدير الكلام وبين السقاة أدير الكؤسا
فطورًا بوعظٍ يسيلُ الدموعَ وطورًا بلهوٍ يسيلُ النفوسا

٤٢٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الناس كشجرة ذات حناء يوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوكٍ إن ناقدتهم ناقدوك ، وإن هربت منهم طلبوك ، وإن تركتهم لم يتركوك » قيل : يا رسول الله فكيف المخرج ؟ قال : « أقرضهم من عرضك ليوم فافتك » .

٤٢٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي اصنع ما شئت »^(٢) .

وذكر أنه كان أحد العلماء يُدرس في مجلسه إذ دخل عليه فتى مدلّ بحفظه فتخطى رقاب الناس . فقال له الفقيه : يا بُني تعلم الأدب ، فإنّ النفس تتأذى من الجفاء كما يتأذى البدن من المرض .

(١) أخرجه الترمذي : صفة القيامة (٤/٦٥٤ ح ٢٤٨٨) وقال : هذا حديث غريب ، وأحمد : المسند (١/٥٣٨/١)

ح ٢٩٣٧) ، والطبراني في الكبير (١٠/٢٣١ ح ١٠٥٦٢) بلفظ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ؟ ... »

انظر : الترغيب للمنزدي (٢/٥٦٢ ح ٣) .

(٢) أخرجه البخاري : أحاديث الأنبياء (٦/٥٩٥ ح ٣٤٨٤) ، وأبو داود : الأدب (٤/٢٥٣ ح ٤٧٩٧) .

وابن ماجه : الزهد (٢/١٤٠٠ ح ٤١٨٣) .

وقال أحد الحكماء : إذا أردت أن يدوم حب أخيك لك فأحسن أدبه .

وقال لقمان - رحمه الله - : كما يحول العدو بالصلة صديقاً ، كذلك يحول الصديق بالجفوة عدواً . وقال أيضاً : السؤال نصف العلم ، ومداراة الناس نصف العقل ، والقصد في المعيشة نصف المؤنة .

٤٣٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا قبض الله له عند سنه من يكرمه » (١) .

٤٣١ - وفي الخبر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مشى مع بعض أصحابه فمرّ بأجمةٍ فدخل فيها فقطع مسواكين الواحد معوجاً ، والآخر مستقيم ، فلما خرج دفع المقوم إلى صاحبه ، وأمسك المعوج لنفسه . فقال الرجل : أنت أحق به يا رسول الله . فقال : « ما من أحدٍ يصحب أحداً ولو ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أو أضاعه ؟ » .

٤٣٢ - وذكر في الخبر : صحبة يوم صحابة ، وصحبة شهر قرابة ، وصحبة عام نسب ثابت وصل الله من وصله ، وقطع من قطعه .

وقال لقمان - رحمه الله - : أوضع الأخلاق خمسة أشياء ؛ اختيار الصديق ، وإضاعة السن ، والثقة بكل أحد ، وكثرة الكلام فيما لا يعني ، وطلب الفضل من اللئام . وقال : ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواضع ؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا تعرف صديقك إلا عند حاجتك إليه .

وقال آخر : إذا حدثك أخوك فاسمع منه .

جعلنا الله وإياكم ممن وفي من صحبة من صحبه بمنه وفضله .

٤٤ - باب سوء العشرة مع الزوجة

وأما حق الزوجة فواجب على كل حر يعاشرها بالتّي هي أحسن فإن الله تعالى جعل لها عليك حقاً كما جعل لك عليها حقاً .

(١) أخرجه الترمذي : البر والصلة (٤/٣٧٢ ح ٢٠٢٢) وقال : هذا حديث غريب .

انظر : كشف الخفاء للمجلوني (٢/٢٣٣ ح ٢١٧٨) .

قال الله تعالى ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال تعالى ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [النساء: ١٩] وقال سبحانه : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ [البقرة: ٢٢٩]
 وقال عز وجل : ﴿ فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، وقال عز من قائل :
 ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال عز وجل : ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ [الطلاق : ٦] .

٤٣٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » ^(١)

٤٣٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا وقع حبّ العبد المؤمن في قلوب المؤمنين فاعلموا أنه من أهل الجنة ، ومن أحب قوماً فهو منهم ، ومن طلب شيئاً يجده ، وحسنوا أخلاقكم ، وأكرموا جيرانكم ، وألطفوا بنسائكم ، وادخلوا الجنة بغير حساب » .

٤٣٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » ^(٢) .

وكان - صلى الله عليه وسلم - أفكه الناس مع نسائه والأخبار فيه كثيرة .

وقال عليّ لابنه الحسن - عليهما السلام - في وصيته : يا بني لا تكلفن المرأة ما جاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست قهرمانة فإن ذلك أودم لجمالها وأرخصى لبالها وأغضض بصرها بسترها واكنفها بكنفك .

وفي المناجات : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : يا موسى أتحب أن تجد في قبرك روضة من رياض الجنة؟ قال : نعم قال : تؤثر عيالك على نفسك وتوسع عليهم من فضل ما عندك . وقال موسى - عليه السلام - يا رب ما على من ضرّ امرأته لتخلع له ؟ قال : إعطها عمله وأحمله أوزارها إلى النار ثم بعد ذلك أنا خصمه . فإذاية الزوجة وضررها حرام عليك كما أن ضررك عليها حرام ومقت لها في الدنيا والآخرة .

٤٣٦ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تؤذي المرأة زوجها في الدنيا إلا قالت : لها امرأته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك ويوشك أن

(١) أخرجه الترمذي : المناقب (٥/٧٠٩ ح ٣٨٩٥) وقال : حديث حسن غريب صحيح . وابن ماجه : النكاح (١٩٧٧/٦٣٦) .

(٢) أخرجه أبو داود : اللقطة (٢/١٣٦ ح ١٦٩٢) ، وأحمد : المسند (٢/٢١٨ ح ٦٥٠٢) .

يتنقل من قريب إلينا» (١) .

وحكي أن أبا الأسود الدؤلي كان قد تزوج ابنة عمه أم عوف وكان لها محباً
فأسنت عنده فأنشدوا في ذلك :

أبي القلب إلا أم عوف وحبيها عجوزاً ومن يحسب عجوزاً يفند
كحقّ اليماني قد تقادم عهده ورفعته ما شئت في العين واليد

فأقام معها مدة ثم ضجر منها واشترى عليها جارية حولاً فغارت بها أم عوف فلما
أكثر ذكر الحول عاتبها به فأنشأ يقول في المعنى :

يعيب لها عندي ولا عيب عندها سوى أن بالعينين بعض التأخر
فإن بك بالعينين سوء فإنها مهففة إلا على رداح المؤزر

فلم يزل الأمر بينهما حتى طلق أم عوف ، وكان له منها ولد فأراد أخذه منها
فرفعته إلى زياد فقال له زياد : يا أبا الأسود ما سبب طلاقك فقال : أيها الأمير إنها
الدائمة السخب ، كثيرة الشعث ، مهينة للأهل ، عاصية للبعل إن سمعت خيراً دفتته ،
وإن سمعت شراً أفشته ، فقالت : والله لولا الأمير ومن حضر لرددت عليه جواباً أفحم
به جوابه وأردع به سهامه وإن كان لا يجهل بالمرأة الصالحة أن تشتم بعلاً أو تظهر لأحد
جهلاً . فقال لها زياد : أجيبه فإني أنصفك منه . فقالت : والله ما علمته أيها الأمير
إلا غضوباً قطوباً جهولاً ، إن قال فشرّ قائل ، وإن سكت فذو دغلٍ داخل ، ليث حيث
يأمن ثعلب حيث يخاف ، جشع ليلة يصفأ ، إذا افتخر امرؤ بأبائه انقمع لما يعرف من
قصر شأنه ، جاره ضائع ، وضييفه جائع ، لا يدرك ثأراً ، ولا يوقد ناراً ، أكرم الناس
عليه من أعانه ، وأهونهم عليه من أكرمه . فقطع زياد كلامها وقال : مهلاً أيتها الحرّة
أجملي ذكراً . فقال أبو الأسود : إنه ابني حملته قبل أن تحمله ، ووضعتة قبل أن
تضعه . قالت أم عوف : أيها الأمير حمله خفّاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة
ووضعتة كرهاً ، ولقد كان بطني وعاوّه ، وحجري فناؤه ، وثديي سقاؤه . فقال زياد :
صدقت أنت أحقّ بالولد منه .

(١) أخرجه الترمذي : الرضاع (٣/٤٦٧ ح ١١٧٤) وقال : هذا حديث حسن غريب .

وابن ماجه : النكاح (١/٦٤٩ ح ٢٠١٤) ، وأحمد : المسند (٥/٢٨٧ ح ٢٢١٦٢) .

٤٣٧ - وهو معنى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » (١) .

نعوذ بالله من ضررهنّ ومن سوء العشرة معهنّ بمتّه وكرمه .

٤٥ - باب إذابة الجار وكثرة الجور على المملوك

وقلة الرحمة على العباد

وهذا الباب يجمع ثلاثة أبواب ، فإياكم وإذابة الجار . قال الله تعالى : ﴿ والجار

الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء: ٣٦]

٤٣٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « أول خصمان يوم القيامة جاران » (٢)

٤٣٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا رميت كلب جارك فقد أذيتته » .

٤٤٠ - وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن فلانًا يصوم النهار ،

ويؤذي الجيران . فقال : « في النار » (٣) .

٤٤١ - وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

« ما زال جبريل يوصي بالجار حتى ظننت أنه ليورثته » (٤) .

٤٤٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

جاره » (٥) .

(١) أخرجه البخاري : البيوع (٤/٣٤٢ ح ٢٠٥٣) ، ومسلم : الرضاع (٢/١٠٨٠ ح ١٤٥٧/٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد : المسند (٤/١٨٧ ح ١٧٣٨٢) ، والطبراني في الكبير (١٧/٣٠٣ ح ٨٣٦) من حديث عقبة

ابن عامر ، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع : وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير أبي عشانة

وهو ثقة . أنظر : مجمع الزوائد (٨/١٧٣) ، وأيضاً حسن إسناد أحمد . أنظر : مجمع الزوائد (١٠/٣٥٢)

(٣) عند أحمد من حديث أبي هريرة بلفظ : قال رجل : يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها

وصيامها وصدققتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال : « هي في النار » .

وأحمد : في المسند (٢/٥٧٩ ح ٩٦٨٨) .

(٤) أخرجه البخاري : الأدب (١٠/٤٥٥ ح ٦٠١٤) ، ومسلم : البر والصلة (٤/٢٠٢٥ ح ١٤٠/٢٦٢٤) .

(٥) أخرجه البخاري : الأدب (١٠/٤٦٠ ح ٦٠١٩) ومسلم : الإيمان (١/٦٨ ح ٤٧/٧٤) .

٤٤٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كَمُ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ : يَا رَبِّ هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي ، وَمَنْعَنِي مَعْرُوفُهُ » (١) .

٤٤٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ آذَى جَارَهُ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ حَارَبَنِي » (٢) .

٤٤٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَأْتِقِهِ » (٣) .

٤٤٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَأْمَنَ جَارَهُ بِوَأْتِقِهِ » . قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « غَشَهُ وَظَلَمَهُ » (٤) .
وأما المملوك فيجب الرفق به .

٤٤٧ - قال أبو هريرة - رضي الله عنه : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الْمَمْلُوكُ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَا يَكْلَفُ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يَطِيقُ » (٥) .

وعن خالد بن معدان يرفعه يقول : « إِنْ أَلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - رَفِيقٌ يَحِبُّ الرَّفْقَ ، وَيَعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يَعِينُ عَلَى الْعَنْفِ ، وَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدُّوَابَّ الْعِجْمَ فَالْتَنَزَلُوهَا مَنَازِلَهَا ، فَإِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ جَذْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِتَقِيكُمْ » .

٤٤٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إِنْ أَلَّهِ تَعَالَى لِيُعَذِّبَ فِي الْآخِرَةِ مَنْ يَعَذِّبُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا » (٦) .

(١) عزاء الحافظ للمنذري في الترغيب إلى الأصبهاني . انظر : الترغيب (٣/٣٥٩ ح ٢٧) . وعزاء الحافظ

السيوطي في الدر المنثور إلى البخاري في الأدب عن ابن عمر فذكره انظر : الدر المنثور للسيوطي (٢/١٥٨)

(٢) عزاء الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب إلى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب « التوسيح » انظر : الترغيب والترهيب (٣/٣٥٤ ح ١٣) وعزاه أيضاً الحافظ العجلوني إلى أبو نعيم انظر : كشف الخفاء (٢/٢٨٥ ح ٢٣٤٢)

(٣) أخرجه مسلم : الإيمان (١/٦٨١ ح ٦٣/٤٦) ، وأحمد : المسند (٢/٤٩٤ ح ٨٨٧٧) .

(٤) أخرجه أحمد : المسند (١/٥٠٤ ح ٣٦٧١) . انظر : الترغيب والترهيب (٣/٣٥٤ ح ١٢) .

(٥) أخرجه مسلم : الإيمان (٣/١٢٨٤ ح ٤١/١٦٦٢) ، ومالك في الموطأ : الاستئذان (٢/٩٨٠ ح ٤٠) ، وأحمد : المسند (٢/٣٣١ ح ٧٣٨٢) .

(٦) أخرجه مسلم : البر والصلة (٤/٢٠١٨ ح ١١٨/٢٦١٣) ، وأبو داود : الإمارة (٣/١٦٦ ح ٤٥٠) ، وأحمد : المسند (٣/٥٦٩ ح ١٥٨٥٢) .

٤٤٩ - وجاء في الخبر : في الرجل الذي سقى الكلب حين رآه عطشاناً فشكر الله له ذلك فغفر له . قالوا : يا رسول الله أو إن لنا في البهائم لأجرًا ؟ فقال : « في كل ذي كبد رطبة أجر »^(١) .

٤٥٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اتقوا الله فيما ملكت أيماكم وأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فإن الله تعالى ملككم إياهم ، ولو شاء للملكهم إياكم » .

٤٥١ - وسئل - صلى الله عليه وسلم - كم يعفى عن المملوك في اليوم واللييلة ؟ قال : « سبعين مرة »^(٢) .

٤٥٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خاب عبد وخسر لم يجعل في قلبه رحمة للبشر »^(٣) .

٤٥٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا رحيم للعامة »^(٤) .

٤٥٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من لم يرحم لا يرحمه الله »^(٥) .

وقال لقمان - رحمه الله لابنه : يا بني إن من يرحم يُرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يفعل الخير يغنم ، ومن يقل الشرّ يآثم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

-
- (١) أخرجه البخاري : المظالم (٥/١٣٥ - ١٣٦ ح ٢٤٦٦) ومسلم : السلام (٤/١٧٦١ ح ٢٢٤٤/١٥٣) .
- (٢) أخرجه أبو داود : الأدب (٤/٣٤٣ ح ٥١٦٤) ، و الترمذي : البر والصلة (٤/٣٣٦ ح ١٩٤٩) وقال : حديث حسن غريب . وأحمد : المسند (٢/١٥١ ح ٥٩٠٤) .
- (٣) عزاه الحافظ العجلوني إلى الحسن بن سفيان والدولابي والديلمي والحاكم عن عمرو بن حبيب مرسلأ . انظر : كشف الخفاء (١/٤٤٦ ح ١١٩) .
- (٤) عزاه الحافظ الهيثمي إلى البزار ، وقال : وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان وهو ضعيف متروك . وقال صدقة بن خالد حدثني أبو مهدي سعيد بن سنان مؤذن أهل حمص ، وكان ثقة مرضياً ، ولا يصح إسناد هذه الحكاية من حديث ابن عمر . انظر : مجمع الزوائد (٨/١٥٨) .
- (٥) أخرجه البخاري : الأدب (١٠/٤٥٢ ح ٦٠١٣) بلفظ : « من لا يرحم لا يرحم » أيضاً - في التوحيد (١٣/٣٧٠ ح ٧٣٧٦) بلفظ « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » ومسلم : الفضائل (٤/١٨٠٩ ح ٢٣١٩/٦٦) .

وفي الخبر : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : يا موسى أتحب أن أكتب لك مثل ثواب الفقراء ؟ قال : نعم . قال : أكرم الضيف ولو كان كافراً ، وأكرم الجار ولو كان كافراً . يا موسى أتحب أن أدفع عنك سكرات الموت ؟ قال : نعم . قال : لا ترد السائل ، وأطع الوالدين ، واحذر الغيبة والكذب . وقال تعالى : يا موسى أكرم ضيفي كما تكرم ضيفك ، وإلا رددت عليك حسناتك .

نعوذ بالله من إذاية الجار والمملوك ومن قساوة القلب وقلة الرحمة .

٤٦ - باب ترك صلة الرحم

اعلم أن قطع الرحم من الكبائر ، وقاطعه مخالف أمر الله تعالى ، فإن الله سبحانه أمر بصلة الرحم . قال الله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا ﴾ {الأنفال : ٧٥} ، وقال عز وجل : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ {النساء : ١} يعني اتقوا الله أن تقطعوها ، وقال عز وجل : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ {الرعد : ٢١} . وقال عز وجل : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى ﴾ {الحشر : ٧} . وقال عز وجل : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذي القربى واليتامى والمساكين ﴾ {النساء : ٣٦} ، وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى ﴾ {البقرة : ١٧٧}

٤٥٥ - وفي الخبر : « أن الله - عز وجل - يقول : أنا الرحمن وهي الرحم اشتقت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » ^(١) .

٤٥٦ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « صلة الرحم تزيد في العمر » ^(٢)

(١) أخرجه أبو داود : الزكاة (١٣٦/٢) ح (١٦٩٤) . والترمذي : البر والصلة (٤/٣١٥ ح ١٩٠٧) وقال : هذا حديث صحيح . وأحمد : المسند (١/٢٤٧ ح ١٦٩١) .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٤٤ - ٢٤٥ ح ٣٤٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري . والطبراني في الكبير (٨/٢٦١ ح ٨٠١٤) من حديث أبي أمامة .

وقال الحافظ الهيثمي : إسناده الطبراني حسن . أنظر : مجمع الزوائد (٣/١١٨) .

٤٥٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « توجد رائحة الجنة على خمسمائة عام ولا يجدر ريحها عاق ولا قاطع رحم » ^(١) .

٤٥٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة النبي وقطبة الرحم » ^(٢) .

٤٥٩ - وعن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول : اللهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني » ^(٣) .

٤٦٠ - وعن سلمان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا اختلف القول ، وحرن العمل ، واتلفت الألسن ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

٤٦١ - وفي الخبر : « إن الرحم لها شجنة معلقة بالعرش تقول : يا رب صل من وصلني ، واقطع من قطعني » ^(٤) . وأنشدوا في مثل ذلك :

دعني أصلِ رحمي إن كنت قاطعها لا بد للرحم الدنيا من الصلة
لولا العشائر ما رجيت عارفة ولا لحقت على الأيام مزيرة
فاحفظ عشيرتك الأذنين إن لهم حقاً مـرـن بين الزوج والمرّة

وقيل : لما قذف يونس - عليه السلام - في بطن الحوت قال : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فسمعه قارون يقول كلمة التوحيد . فقال له : من

(١) عن أبي هريرة بلفظ : « يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ولا يجدر ريحها منان بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر » . عزاه الحافظ الهيثمي في المجمع (١٥١/٨) إلى الطبراني في الصغير . وقال : وفيه الربيع بن بدر وهو متروك .

(٢) أخرجه ابن ماجه : الزهد (١٤٠٨/٢ ح ٤٢١٢) في الزوائد : إسناده ضعيف . فيه صالح بن موسى ، وهو ضعيف . انظر : الترغيب والترهيب للمنلري (٣/٣٤٣ ح ٣١) .

(٣) أخرجه مسلم : البر والصلة (٤/١٩٨١ ح ٢٥٥٥/١٧) ولفظه : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعته الله » .

(٤) أخرجه البخاري : الأدب (١٠/٤٣٠ ح ٥٩٨٨) من حديث أبي هريرة بلفظ : « إن الرحم شجنة من الرحمن . فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

أنت ؟ فأوحى الله إليه كلمه . فقال له : أنا يونس بن متى . فقال له قارون : وما كان ذنبك ؟ قال : ذهبت مغاضباً لقومي فسجنت في بطن الحوت . فقال له قارون : لم لم تتب وترجع وتسال التوبة ؟ فقال له يونس : لم لم تتب أنت وترجع ؟ قال له قارون : إن توبتي كانت لموسى فما رحمني ، ولو كانت لربي لرحمني وعفى عني . ثم قال له : ما صنع موسى ؟ قال : مات . قال : وأخوه هارون ؟ قال : مات . قال : وأخته فاطمة ؟ قال : ماتت . فبكى قارون عند ذلك . وقال : وانقطاع ظهراه ، وافقد قرابته ، واعدماه . قال : فأمر الله تعالى الملائكة الموكلين بعذابه يعذبانه يوماً ويريحانه يوماً لشفاقته على رحمه .

وروي عن العباس - رضي الله عنه - قال : كنت مواخياً لأبي جهل مصافياً له ، فلما مات وأخبر الله تعالى عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني والله أمره ، فسألت الله حولاً أن يريني إياه في المنام . { فرأيتُه } يلتهب لظى . فسألته عن حاله . فقال : صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ، ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الليالي ، فلما يدفع عني العذاب . قلت : وكيف ذلك ؟ فقال لي : ولد في تلك الليلة محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءتني أمية فبشرتني بولادة آمنة ، وفرحت بمولده ، واعتقت وليدة لي فرحاً مني ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين بذلك .

وقيل : إن ملكاً من ملوك الأرض بقي من عمره ثلاث سنين ، فوصل رحمه فجعله الله تعالى له ثلاثين سنة بفضلته .

وقال أحد الحكماء : من حق القرابة أن تمنحه معروفك ، وتكف عنه أذاك .

وقال آخر : من حق القرابة أن تصله إذا قطعك ، وتعطيه إذا حرمك .

جعلنا الله وإياكم ممن وصل رحمه ، ولا يجعلنا ممن قطعه بمنه وكرمه .

٤٧ - باب عقوق الوالدين

اعلم أن عقوق الوالدين من الكبائر . قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ { الإسراء : ٢٣ - ٢٤ }

وقال - عز وجل : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ [لقمان : ١٤] ، وقال
- عز وجل : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ [العنكبوت : ٨] .

وفي الخبر : من لقيني وهو طائع لي عاق لوالديه كتبته عاصياً ، ومن لقيني وهو
عاصٍ لي طائع لوالديه كتبته طائعاً . والحكمة في ذلك ما قيل : إن سبب محنة يوسف
- عليه السلام - أن قال أبوه : يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ،
فأنساه الشيطان تلك الوصية حتى أفشى سرّه إلى إخوته ، وما رآه من الرؤيا فحسدوه
حتى وقع فيها بسبب عقوق أبيه حين عقه ، وترك نهيّه أن يقص على إخوته فلم يعمل
بوصيته .

٤٦٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما برّ أباه من سدّ إليه طرفه » ^(١) .

٤٦٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « جاء ملك الموت لقبض روح
رجل فجاء برّه بوالديه فرده عنه » .

٤٦٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ،
أو قتله نبي ، أو قتل أحد والديه ، والمصورون ، وعالم لم يتفح بعلمه » ^(٢) .

٤٦٥ - وفي الخبر : أن أنس بن مالك قال : ارتقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
درجة فقال : « آمين » ثم ارتقى الثانية فقال : « آمين » ثم ارتقى الثالثة فقال : آمين
ثم استوى فجلس فقال له أصحابه : على ما أمنت ؟ فقال : « أتاني جبريل - عليه
السلام - فقال : رغم أنف امرئٍ ذكرتَ عنده فلم يصلِ عليك ، فقلت : آمين . فقال :
رغم أنف امرئٍ أدرك أبويه فلم يدخل الجنة . فقلت : آمين . فقال : رغم أنف امرئٍ أدرك
رمضان فلم يغفر له . فقلت : آمين » .

(١) عزاه الحافظ الهيثمي إلى الطبراني في الاوسط من حديث عائشة - رضي الله عنها - .

وقال : وفيه صالح بن موسى وهو متروك . أنظر : مجمع الزوائد (٨/ ١٥٠) .

ويلفظ : « ما بر أباه من شد إليه الطرف » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٩٧ ح ٧٨٩١) .

(٢) عزاه الحافظ السيوطي في « الدر المشور » إلى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - : فذكره . أنظر : الدر المشور (٤/ ١٧٤) .

٤٦٦ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ ، ورغم أنف رجل دخل رمضان ثم انسلخ عنه قبل أن يُغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة » ^(١) . قال عبد الرحمن : وأظنه قال : « أو أحدهما » .

٤٦٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « بر الوالدة على الولد ضعفان » .

٤٦٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ^(٢) .

٤٦٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة لا يدخلون الجنة المحتكر والقواد والعاق لوالديه » .

٤٧٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأبائكم ثم بالأقرب فالأقرب » ^(٣) .

٤٧١ - وجاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن لي ذنبًا عظيمًا . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « ألك والدة ؟ » . قال : لا . قال : « ألك خالة ؟ » قال : نعم . قال : « فبرها » ^(٤) .

ومما أوحى الله تعالى إلى نبيه عزير - عليه السلام - : إياك أن تحلف بي كاذبًا فإن من حلف بي كاذبًا لا أركيه ، ولا أمدحه ولا أثني عليه وإن تعقّ والديك فإن من عقّ والديه غضبت عليه وإذا غضبت عليه لعنته وإذا لعنته يصل ذلك إلى رابع أهل بيته ، فعامل أبويك بما عاملهم الأنبياء - عليهم السلام - قبلك .

(١) أخرجه الترمذي : الدعوات (٥٥٠/٥ ح ٣٥٤٥) وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأحمد : المسند (٢/٣٤٠ ح ٧٤٦٩) .

(٢) عن أنس رضي الله عنه رفعه « فذكره » عزاه الحافظ العجلوني إلى الخطيب في جامعه ، والقضاعي في مسنده ، وقال : وفيه منصور بن المهاجر وأبو النصر الأبار لا يعرفان ، وذكره الخطيب أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعفه . انظر : كشف الخفاء للعجلوني (١/٤٠١ ح ١٠٧٨) .

(٣) أخرجه ابن ماجه : الأدب (٢/١٢٠٧ ح ٣٦٦١) وفي الزوائد : في إسناده إسماعيل ، وروايته عن الحجازيين ضعيفة ، كما هنا . وأحمد : المسند (٤/١٦٣ ح ١٧١٩٢) .

(٤) أخرجه أحمد : المسند (٢/٢٠ ح ٤٦٢٣) انظر : الدر المشور (٤/١٧٣) .

قال الله - تعالى - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - أنه دعا أباه الكافر باسم الأبوة ، ولم يدعه باسمه في قوله تعالى : ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾ فتأدب معه ، ويوسف - عليه السلام - قال : يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبًا ، ولم يدعه باسمه اقتداء في ذلك بجده إبراهيم - عليه السلام - فمن دعى أباه باسمه يصير عاقبًا ، فكيف من جفاه ، وقد أمرك الله تعالى أن تعامل أباك بمعاملتك مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال الله سبحانه : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ {النور: ٦٣} ، وقال سبحانه : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ﴾ {الحجرات: ٢} وهو أبو الدين ، فعلمك المعاملة مع أبي النسب كما علمك المعاملة مع أبي الدين وحق الوالدة على الوالد ضعفان ، والله تعالى أعطى خليله أبوين كافرين فكان يبجلهما ، وأنت أعطاك أبوين مؤمنين ، وتدخّل معهما الجنة كما قال تعالى : ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ الآية {الرعد: ٢٣} . فمن الواجب عليك أن تسمع كلامهما وتقوم لقيامهما ، وتمثّل ولا ترفع صوتك فوق صوتهما ، وتحرص على طلب مرضاتهما ، وتخفّض لهما الجناح ، ولا تمنّ عليهما بالبرّ لهما ولا بالقيام بأمرهما ، ولا تنظر إليهما شزراً ، ولا تقطب وجهك في وجوههما ولا تسافر إلا بإذنهما . جعلنا الله وإياكم ممن قام ببر والديه بمنه وكرمه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله .

٤٨ - باب خُلفِ الوَعْدِ ونَقْضِ العَهْدِ

وهو يجمع بايين . اعلم أنّ خلف الوعد ونقض العهد ضاران بالدين وعلامتان للنفاق بدليل قول الله عز وجل - : ﴿ فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ {التوبة: ٧٧} فأوجب لهم النفاق إلى يوم يلقونه بخلفهم الوعد ، وأضاف خلف الوعد للكذب ، والكذب إثم عظيم ، وضرره للدين كبير جسيم ، فخلف الوعد ونقض العهد نتيجة الكذب ، والكذب ضدّ الصدق ، وهو فساد الأمر كلّهُ ، وفساد الدّين والدنيا والآخرة ، والصدق صلاح الأمر كله ، وصلاح الدّين . فقال - عز من قائل - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ {التوبة: ١١٩} والصدق هو الحق ، وبالحق قامت السماوات والأرض ، وبه نزلت الكتب ، وبه بعث الرسل عليهم السلام ، والكذب وخلف الوعد ونقض العهد ضد ذلك كله فاجتنبوه ، فإنّ ذلك موجب للمقت . وأنشدوا في المعنى :

حَسَنٌ قَوْلِكَ لَا قَبِيلَ نَعَمٍ وَقَبِيحٌ قَوْلٌ لَا بَعْدَ نَعَمٍ
 إِنْ لَا بَعْدَ نَعَمٍ فَاحْشَىةٌ فَبَلَا أِبْدَأَ إِذَا خَفَتِ التَّدَمُّ
 لَا تَقْوَلْنَ إِذَا لَمْ تُرَدِّ إِنْ تُتِمَّ الْوَعْدُ فِي شَيْءٍ نَعَمٍ
 فَإِذَا قُلْتَ نَعَمَ فَاصْبِرِي لَهَا لِتَمَامِ الْوَعْدِ إِنْ الْخُلْفَ ذُمَّ

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢- ٣] ، وقال عز وجل : ﴿ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] . وقال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠] وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] ، وقال عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد: ٢٠] . فأتى عليهم بذلك . وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٧] فذمهم بذلك .

واعلم أن المرء يقيد بلسانه كما تقيد الدابة بيديها ، فإذا لم يتقيد بلسانه فهو شارذ عن الدين مثل الوحش وهو منافق فإن المنافق لا يتقيد لأنه يضمّر خلاف ما يبدي .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى . من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

وقال بعض الحكماء : من لزم الوفاء لزمه الرضا . ومن قل وفاؤه كثر أعداؤه . فبالوفاء يدوم الإخاء وبالصدق يتم الفضل والوفاء من شيم الأحرار . وقال لقمان - رحمه الله - : لا تحدث من تخاف تكذيبه ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعد بما لا تجد إنجازه ، ولا تضمّر ما لا تتق بالقدرة عليه ، ولا تقدم على أمر تخاف العجز عنه .

ومن ذلك ما حكى أن أمير المؤمنين العلوي حاصر بعض الملوك في حضرة مملكته مدة طويلة حتى همّ بأخذها ، وكان في المدينة جارية ذات كمال وجمال بارع وكانت من أفصح الناس لساناً وأعذبهم نعمة وكان ملك المدينة قد غضب على أبيها فقتله وأخذ ماله ، وكانت الجارية لحقتها حاجة فقالت يوماً لامها : كلمي أهل المدينة أن يحرروا لنا

الضيعة الفلانية وندفع عنهم العلويّ فكلمت أهل المدينة . فقالوا : نعم . ونقاسمها في أموالنا فأخذت العجوز عليهم العهود والمواثيق فأرخت الجارية البرقع عن وجهها وخرجت إلى محلّة العلوي فسألت عنه . فأرشدت إليه فدخلت عليه فوجده جالساً بين أصحابه فقالت : أيكم أمير المؤمنين ؟ قال لها : أنا ذا . قالت : يا أمير المؤمنين أنت القاتل :

نحن قوم تذيبنا الأعرن النجد — بل على أننا نذيب الحديد
قال : نعم . قالت : وأنت القاتل :

تقتل الأسد ثم تقتلنا البيد — ض المصونان أوجهاً وخدوداً
قال : نعم . قالت : وأنت القاتل :

وترانا لدى الكريهة أحراراً وفي السلم للحسان عبيداً
قال : اللهم نعم . فرفعت البرقع عن وجهها وقالت : ما ترى أحسن أم قبيح ؟
قال : بل والله حسن . قالت : فما حقّ المولى على العبد ؟ قال : السمع والطاعة .
قالت : فانصرف راشداً . فأمر بقلع مضاربه من حينه وانصرف . فقال له أهل مملكته :
يا أمير المؤمنين بذلت الأموال وأفنيت الرجال ونالنا من الجهد قريب مما نالهم والمدينة
وأهلها في أيدينا ونرحل عنهم ونتركهم قال لهم : لا بد من ذلك ، وما أنا براجع في
قولي ولو كان فيه بذل نفسي فرجع إلى مدينته وخطبها وتزوجها وأنشد في ذلك :

عهدُ الحبيبِ متممٌ — إن غاب عني أو حضر
إن زار حلّ بناظري — أو زال مثل ليلٍ فكري

جعلنا الله وإياكم ممن وفي بعهده ولم ينقض ما شرط على نفسه بمنه وكرمه .
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

٤٩ — باب التطاول في البنيان

اعلم وفقنا الله وإياك أن التطاول في البنيان سرف وطغيان ، فلتأسر بأهل العقل
والتهى وتعلم أنهم قنعوا من الدنيا بما طفّ وتزودوا منها ما خف ، وأخذوا بعض
الواجب وتركوا ما زاد عليه فاقتد بهم يحبك الله وتلقاه خفيف الظهر .

٤٧٢ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كل بناءٍ وبِالِ علي صاحبه يوم القيامة إلا ما كنَّ من حرٍّ وبردٍ » (١) .

وفي الأثر من رفع بناءه فوق ستّة أذرع ناداه مناد إلى أين يا فاسق الفاسقين

٤٧٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث بيت يكتنه من الحرِّ والبرد ، وثوب يواريه ، وحلب من الماءِ والحبزِ وسائر ذلك لاحق له فيه » .

وقال الحسن - رحمه الله - مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يجعل لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه .

٤٧٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أراد الله بعبد شرّاً أهلك ماله في الماء والطين » (٢) . وأنشدوا في ذلك :

يا عامراً دار الخراب	ومخرباً دار العمارة
أوليس يا مسكين تله	سك الدار أولى بالعمارة
أتبيع ما يبقى بما	يفنى وتغن في التجارة
قدّم لنفسك في حيا	تك إنما هي مُستعمارة
إن الذين ورثتهم	لك في وفاتهم إشارة
أتراهم ماتوا لتب	قى أنت أخطأت العبارة

٤٧٥ - وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : مر علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن نصلح خصاً فقال : « ما هذا ؟ » قلنا : خص لنا نصلحه . فقال : « الأمر أعجل من ذلك » (٣) .

(١) أخرجه أبو داود : الأدب (٤/٣٦١ - ٣٦٢ ح ٥٢٣٧) ولم يذكر « من حرٍّ وبردٍ » وقوله : « إلا ما كنَّ » يعني ما لا بد منه . انظر : الترغيب والترهيب للمنذري (٣/١٩ - ٢٠ ح ٣) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/١٨٥ ح ١٧٥٥) والطبراني في الصغير (٢/١٢٨) وقال الحافظ الهيثمي فيالمجمع (٤/٧٢) : إسناده الكبير صحيح خلا شيخ الطبراني لم أجد من ضعفه . قال شيخنا محب الله : وفي سننه أبو الزبير وهو مدلس وعنمن . وإسناده الصغير ضعيف .

(٣) أخرجه ابن ماجة : الزهد (٢/١٣٩٣ ح ٤١٦٠) وبنفس إسناده ابن ماجة عند أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو ، وزيو داود : الأدب (٤/٣٦١ ح ٥٢٣٦) ، والترمذي : الزهد (٤/٥٦٨ ح ٢٣٣٥) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٤٧٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة » (١) . والعبد يؤجر في نفقته كلها إلا البناء وإنه من منع حق الله تعالى من ماله ابتلاه الله بالبناء .

وروي أن عيسى - عليه السلام - أصابه الحرّ وهو صائم في يوم شديد الحر فقال له أصحابه : يا روح الله لو أمرتنا فبنينا لك بيتًا يكتك من الحرّ والبرد . فقال : لا حاجة لي فيه فألحوا عليه ، فأذن لهم فبنوا بيتًا عريضًا ، فلما دخله ونظر إليه . قال : سبحان الله أعاذني الله من هذا أنا أردت بيتًا إذا دخلت فيه أصاب رأسي سقفه ، وإذا اضطجعت أصاب جنبي حائطه لا حاجة لي بهذا ، فلم يسكن ظلّ بيت حتى رفع صلى الله عليه وسلم . وذكر أن بعض الخواريين قال لعيسى - عليه السلام - قد أضربنا الحر في أيام الحرّ ، والبرد في أيام البرد ، فلعلّ تبني لنا بيتًا نأوي إليه قال لهم : بسم الله فأتى إلى واد جرّار فقال لهم : ابنوا على هذا بيتًا . قالوا : ما يثبت . قال لهم : كذلك الدنيا ما تثبت ، اجعلوها قطرة ، فاعبروها ولا تعمروها .

وقيل : إن نوحًا - عليه السلام - اتخذ بيتًا من خوصٍ . فقيل له : لو بنينا لك بيتًا . فقال : هذا كثير لمن يموت . وأنشدوا في المعنى :

بالله ربك كم بيت مررت به قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقابُ فلاة في سقائفه فصار من بعد ذا للويل والحرب

وقال الحسن - رضي الله عنه - : دخلنا على صفوان وهو في بيت من قصب ، وقد مال عليه فقلنا له : لو أصلحت هذا البيت . فقال : كم من رجل مات وهو كذا . وقال الفضل بن عباس - رضي الله عنه - : إنني لا أعجب ممن يبني دارًا أو يشتريها . ثم يتركها لمن يسكنها ، إنما أعجب لمن ينظر إليها بعد موت صاحبها ولم يعتبر بها ، وسوف يأتي على الناس زمان يعرفون فيه الطين ، ويضعون الدين ، ويستعملون البراذين ، ويصلون إلى قبلتكم ، ويموتون على غير دينكم . وأنشدوا في مثل ذلك :

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٣٩١ - ٣٩٢ ح ١٠٧١١) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٤٦) من طريق المسيب ، وقال أبو نعيم : غريب من حديث الثوري . والطبراني في الكبير (١٠/١٥١ ح ١٠٢٨٧) . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٤/٧٣) : وفيه المسيب بن واضح وثقه النسائي وضعفه جماعة .

زَيْتُ بَيْتِكَ جَاهِدًا وَشَحْتَهُ وَلَعْلَ غَيْرِكَ صَاحِبَ الْبَيْتِ
وَالْأَمْرُ مَرَّتَيْنِ بِسُوفٍ وَلِبَيْتِي وَهَلَاكُهُ فِي السُّوفِ وَاللَّيْتِ
لِلَّهِ دَرَفَتِي تَدْبِيرُ أَمْرَهُ فَغَدَا وَرَاحَ مَبَادِرِ الْفَوْتِ

وروى سعيد بن عثمان الخياط عن أبيه عن شريح أنه اشترى داراً، وكتب كتاباً،
وأشهد شهوداً، فمرّ بعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وفي يده الكتاب . فقال :
ما هذا يا شريح في يدك ؟ فقال : داراً اشتريتها يا أمير المؤمنين . فقال : اشتريتها
يا شريح وملكك . قال : نعم . قال : انظر يا شريح إياك أن تكون اشتريت من غير
مالك ، وتورث مالاً من غير حلّ ، وسوف يأتيك يا شريح من لا ينظر إلى مكانتك
فيزعجك من مكانك ، فتكون قد خسرت الدارين الدنيا والآخرة ، يا شريح أوقفني
على كتابك فدفعه إليه ، فلما وقف عليه . قال : يا شريح لو أنك قبل شرائك جئتني
لكتبت لك كتاباً أزهّد فيه المشتري المغرور والبائع . قال : فقلت يا أمير المؤمنين ما كنت
تكتب ؟ قال : كنت أكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عبد ذليل من مَيّت ،
قد أزعج للرحيل اشترى منه داراً من دور الآفات من الجانب الفاني وهو الدار المعروفة
بمسكن الهالكين ، ومجمع الغافلين ، تجمع هذه الدار حلود أربعة ، الحد الأول انتهى
إلى الآفات ، والحد الثاني ينتهي إلى أعظم المصيبات ، والحد الثالث ينتهي إلى كثرة
الغفلات ، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي والهوى المردي ، وإليه يشرع باب
هذه الدار ، اشتراها هذا المغرور بالأمل من هذا المزعوج بالأجل ، فما أدرك مشتري
هذه الدار فعل مَبْلِي الأجسام ، وقاصم الجيابرة مثل كسرى وقيصر وتبع وحمير ، وما
أوضح الحقّ لذي عينين أنّ الرحيل أحد اليومين ، يا شريح لو وقفت أو عرفت كم من
رجل خاصم هذه الدار ، وأخرج كتبه وصحّح فعله ، وبعد الاجتهاد ما صح له المقام
فيها ليقوي زهدك في شرائها والسلام . وأنشدوا :

تب يا ابن آدم لا يسخر بك الأمل يفسد عليك الذي أمّلته الأجلُ
أراك ترفع في البنيان مجتهداً قد بنى قبلك الشبان والأولُ
فما بشيء مضوا من كل ما جمعوا بل خلفوا الأهل والبنيان وارتحلوا
كانهم رُفِقَ حَطُّوا لراحتهم رحالهم عندما قدمتهم كَلُّ
فقال قائلهم للقوم ليس لكم فيها مقام فراحوا بعد ما نزلوا

وأنت منها إلى الأجداد تتقلُّ
 واعمل لنفسك قبل الموت يا رجلُ
 خير التزود تقوى الله والعملُ
 والموت من شأنه التحريض والعجلُ
 غدرًا ومكرًا وفي إدراكها الوهلُ
 من الوقوع وإن طالت بها السبلُ
 والصبر أحسن للأنام لو عَقَلُوا
 وأقبح الطيش فيه السخط والزَلُّ
 والكأس يشربه إذ مسَّه كَلُّ
 من صحة وبراء السقم والعللُ
 إن الطيب يداوي الجسم يا رجلُ
 جسَّ العروق ومنه يضحك الأجلُ
 وقال في السر ما في أمره حيلُ
 حتى أناخ به الجمال والجملُ
 وقد أتوا التقاضي روحك الرسلُ
 فقل هيهات ما في أمرنا مهلُ
 وقربوا نعشه من بعد ما غسلوا
 إلى القبور كما من قبله حملوا
 خفف بعفوك عنه عندما سألوا
 تحت التراب ولا باب ولا قفلُ
 وليس فيه ثماريق ولا كللُ
 وخلفوه فريداً فيه معتقلُ
 حتى يقوم إليه خائف وجلُ
 وإن أتى طائعا كان أمره سهلُ
 كان الجحيم لهم بعد الشرى تزلُ

فكم وكم تهلك الدنيا وزيتها
 والله ربك ذو الإحسان راقبه
 وخذ من الزاد ما وصاك خالقنا
 فإن أيامنا تنسل في مهل
 لا نطمئن إلى الدنيا فإن لها
 واصبر فإن مطايا الصبر سالمة
 بالصبر قيل ينال الظفر صاحبه
 ما أحسن الصبر لولا أنه كرة
 كم غافل ملته بالغنايات سلا
 فحال من جسمه ما كان يعرفه
 حتى إذا طالت الأمراض قيل له
 فأقبلوا بطيب فيه معرفة
 فقال نحتال فيما فيه راحتته
 فبات يرقب ما قال الطبيب له
 فقال ارحل فإن الوفد قد نهضوا
 فقال مهلاً عليّ أعمل لأخرتي
 فخلصوا روحه من سجن جثته
 علوه فوق رقاب الحاملين له
 صلوا عليه وقالوا في دعائهم
 فقربوه إلى بيت بلا فرش
 فيه التراب له فرش وتغطية
 حثوا عليه تراباً ثم انصرفوا
 إلى القيامة لا تنفك عطلته
 فإن أتى ظالماً كان أمره عسرُ
 فالويل يومئذٍ للظالمين إذا

جعلنا الله وإياكم ممن أخرج دنياه الفانية فبنى بها آخرته الدائمة الباقية بمنه وكرمه

٥٠ - باب قلة الصبر على المكاره والشكوى بها

وهذا الباب يجمع باين . اعلم أن قلة الصبر لا يدفع من القدر الواصل إليك شيئاً ، ولكنه مانع من الثواب ، ومحبط للأعمال ، ومؤذن بالعقاب ، وقد نذب الله تعالى إلى الصبر ، وأثنى على الصابرين . قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ {الزمر: ١٠} وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِمْ ﴾ {الرعد: ٢٢} وقال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ {آل عمران: ٢٠} وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ {البقرة: ١٥٣} وقال عز وجل: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ {النحل: ١٢٦} وقال عز وجل: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ {الطور: ٤٨} وقال تعالى: ﴿ وَلَنبَلِّغُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلِّغُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ {محمد: ٣١} .

٤٧٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه إليه » ^(١) .

٤٧٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أحبَّ الله قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ^(٢) .

وأنشده المؤلف - رضي الله عنه - :

إذا أصبت فصبراً عنده ورضى	واشكر وسيلة مهديه وفاعله
فكل أمر أتى لا يبد منصرف	يكفر السوء من أفعال قائله
وإن سخطت فقد أحرمت عافية	وفاتك الحظ من تميم نائله

٤٧٩ - وقيل : إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ادع الله أن يعافيني . قال : « إن شئت دعوت الله ، وإن شئت صبرت فهو خير لك » .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٥/٧) ح ٩٧٨٦ بنحوه .

(٢) أخرجه الترمذي : الزهد (٦٠١/٤) ح ٢٣٩٦ وقال : حديث حسن غريب .

وابن ماجه : الفتن (١٣٣٨/٢) ح ٤٠٣١ .

٤٨٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كتم حمى يوم أو ليلة أخرجه الله من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وأعطاه ثواب أربعين شهيداً » (١) .

٤٨١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كتم حمى ثلاث ساعات فتصبر فيها شاكرًا لله تعالى حامدًا له باهي الله تعالى به الملائكة يقول : يا ملائكتي انظروا إلى عبدي وصبره على بلائي اكتبوا إلى عبدي براءة من النار ، فيكتب له بسم الله الرحمن الله هذا من الله العزيز الحكيم براءة من النار إلى فلان بن فلانة أتني قد أمتك من ناري ، وأوجبت لك جنتي ، فادخلها بسلام » .

٤٨٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المرض سوط الله في الأرض يؤدب به عباده » (٢) .

٤٨٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مرض يوم يكفر ذنوب ثلاثين سنة » (٣) .

٤٨٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما مرض المؤمن مرضاً إلا محا الله عنه به خطيئة ، ورفع له به درجة » (٤) .

وعن ابن سيرين قال : قال أبو الدرداء : ليلة أمرضها إلى الصباح أحب إليّ من حمر النعم .

٤٨٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض عمماً سواه إلا حطّ الله عنه خطاياها كما تحط الشجرة ورقها » (٥) .

(١) عن الحسن رضي الله عنه رفعه ، قال : إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياها كلها بحمى ليلة « عزاه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب إلى ابن أبي الدنيا . أنظر : (٤/٢٩٩ ح ٧٨) .

(٢) أورده المتقي الهندي في كثر العمال (٦٦٧٠) .

(٣) أورده الكتاني في تنزيه الشريعة (٢/٣٥٢ ح ١) كتاب المرض والطب .

(٤) روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ما ضرب على مؤمن عرق قط إلا حط الله به عنه خطيئة ، وكتب له حسنة ، ورفع له درجة » أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٣٤٧) ، وعزاه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط وقال : وإسناده حسن . أنظر : مجمع الزوائد (٢/٣٠٧) .

(٥) أخرجه أحمد : المسند (١/٤٩٦ ح ٣٦١٧) وابن حبان (٧٠١ موارد الظمان) .

٤٨٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المريض ضيف الله ما دام مريضاً ، يرفع الله له كل يوم وليلة عمل سبعين نبياً ، فإن عافاه الله من مرضه فهو كيوم ولدته أمه ، وإن قضى الله تعالى عليه الموت أدخله الله الجنة بغير حساب » .

وذلك إذا كان المريض صابراً محتسباً راضياً بما قضى الله تعالى عليه .

٤٨٧ - وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما بال العليل إذا جثَّ الليل زادت أوجاعه ، وكثر أرقه ، ودام فلقه ، فإذا أصبح خفت أوجاعه ، وسكن عنه بعض ما يجده ؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن جبريل - عليه السلام - هبط على أخي موسى - عليه السلام - فوجده على شاطئ البحر ، وعليه جبة صوف إلى ركبتيه ، وأكمامها إلى مرفقيه ، وهو يفليها ، فرقّ عليه جبريل عليه السلام ثم عرج جبريل فوقف موقفه من الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه : يا جبريل أنا أعلم بما اختلج في صدرك من أمر كليمي موسى ، وقد شفعتك فيه ، فاهبط إلى الجنة فاستخرج منها قميصاً فقمصه به ، فهبط إلى رضوان خازن الجنة ، فأخبره بما أمر به ، فطاف جبريل عليه السلام جنة عدن ، وجنة الخلد ، وجنة المأوى إلى أن طاف الجنات كلها فلم يجد قميصاً أحسن ولا أجمل من قميص العافية ، واستخرجه وألبسه موسى - عليه السلام - فلم يكن أحد يستطيع أن يرى وجهه ، فعند ذلك تبرقع موسى - عليه السلام - فلما أراد الله قبض موسى - عليه السلام - هبط ملك الموت وجبريل - عليهما السلام - ، فانتزع جبريل القميص ، وانتزع ملك الموت الروح ، ثم عرج جبريل بالقميص ليرده إلى الجنة . فقال له رضوان : إن الله تبارك وتعالى عهد إليّ أن لا يخرج منها شيء فيرد إليها إلى يوم القيامة . وقال جبريل - عليه السلام - : إن الله شفّعني في كليمة موسى ، وما على الأرض من يستحق هذا القميص ، فتشاجرا فأوحى الله تعالى إلى جبريل - عليه السلام - : صدق رضوان . لا يخرج منها شيء فيرد إليها إلى يوم القيامة ، وصدقت يا جبريل ما على وجه الأرض من يستحقه ألبسه عين الشمس ، فمن أجل ذلك إذا طلعت الشمس طلع عليها قميص العافية فتخف أوجاع العليل ، فإذا غابت غاب معها قميص العافية فلذلك تزيد أوجاعه » .

فيجب للعبد إذا نابه نائبة أن يقصد ربه في أول الواقعة ، ولا يلجأ في ذلك إلى مخلوق فيضاعف عليه النوائب ، كما ذكر أن نوحاً - عليه السلام - لما استقبله الغرق دعا ابنه ليركب معه فلم يجبه ، فلما يئس منه دعى ربه فأوحى الله تعالى إليه : لو دعوتنا ابتداءً لأجبنك انتهاءً ، لكن رجعت إلى أشكالك في دعائك فزدناك في أشغالك .

وكذلك يعقوب - عليه السلام - كان قد أوصى أولاده بحفظ يوسف - عليه السلام - ابتداءً حتى قالوا له : وإنا له لحافظون ، فلما أصيب بفرقة رجع كي طلبه إلى أولاده فقال : يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، فلما يئس من الأولاد رجع إلى ربه . فقيل له : لو استغثت أولاً كفينك آخرًا ، لكن رجعت إلى أشكالك فزدناك في أشغالك . وكذلك زكريا - عليه السلام - استعصم بالشجرة فأورثه ذلك الهلاك والتلف ، وقيل : لما وصل المنشار إلى دماغه قال : آه . فقال له الله تعالى : لم تقول آه ؟ كنت لي من حيث كنت لك ، كنت لي أولاً مخلصاً ، فلما صرنا اثنين اصبر أنت الآن حتى نرجع اثنين ، أما علمت أن من أسمائي الغيور كما أن من أسمائي الصبور ؟ لئن قلت آه الثانية لأطبقن السماوات على الأرض ، وذلك لما اشتغل بحب الولد وجعل له نصيباً من قلبه .

٤٨٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الصبر نصف الإيمان » ^(١) .

٤٨٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أقل ما أوتيتم اليقين ، وعزيمة الصبر ، فمن أعطى حظه منها لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار » ^(٢) .

٤٩٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشك إلى عواده أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودماً خيرًا من دمه ، فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فإلى رحمتي » ^(٣) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/١٠٤ ح ٨٥٤٤) ، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (١/٦٢) : ورجاله رجال الصحيح . وانظر : الترغيب والترهيب للمنذري (٤/٢٧٧ ح ٥) .

(٢) قال الحافظ المعجلوني : ذكره في الإحياء ، قال العراقي لم أقف له على أصل ، وروى ابن عبد البر من حديث معاذ : ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين . انظر كشف الخفاء (١/٣٠٥ ح ٨٠٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/٥٢٥ ح ٦٥٤٨) ولم يذكر « فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فإلى رحمتي » وزاد « ثم يستأنف العمل » والحاكم في المستدرک (١/٣٤٩) . انظر : الترغيب والترهيب للمنذري =

٤٩١ - وفي الخبر أن الله تعالى يقول : إذا وجهت إلى عبدٍ من عبيدي مصيبة في ماله أو ولده أو بدنه . ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا ، أو أنشر له ديوانًا .

واعلم أن الله - عز وجل - خصَّ أوليائه بمعنى من الرضا أفردهم به عن الخلق ، فلا يزيدهم البلاء إلا حُسن ظن بالله ، ومعرفة له ، ورضا بقضائه ، ولا يزيدهم الفقر إلا حبًّا له ، واستغناءً به ، واشتغالاً بذكره . وقد رُوِيَ أن الله سبحانه نظر إلى وليِّ له ساجد، فبعث إليه ملكًا . فقال له : إن الله - عز وجل - يقول لك : سل ربك ما شئت ، فإنك لو سألته أن يغفر لأهل الأرض لغفر لهم . فقال : وعزته ما عبدته إلا به ، وما أردت شيئًا دونه ، ولو حبسني في النار بعد أن صحت لي ولايته ما ضعفت عن الصبر . فقال الله تعالى للملائكة : هل فيكم من يقول مثل قول عبيدي هذا ؟ فقالت الملائكة : سبحانه لا طاقة لنا بعذابك . فقال الله تعالى : وعزتي إنه لصادق ، ولن يطيق الصبر إلا بي وبمعرفتي ، فهذا وليُّ الله سبحانه في بني إسرائيل ، وإن في هذه الأمة لمن هو أفضل منه وأكثر علمًا ومعرفةً و يقينًا .

٤٩٢ - وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصيام والصلاة ، وأهل الصدقة ، وأهل الحج فيؤتون بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ويصبُّ عليهم الأجر بغير حساب » (١) .

٤٩٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أن موسى - عليه السلام - مر ذات يوم برجل يعبد الله في كهف جبل وهو يقول : الحمد لله الذي فضّلني على كثير من خلقه فنظر إليه فإذا هو مقعد ليس له يدان ولا رجلان فقال له : يا عبد الله وما الذي فضلك الله به على كثير من عباده ؟ فقال الرجل : فضّلني بالإسلام ولم يجعلني يهوديًا ولا نصرانيًا

(٤/٢٩٢ ح ٥٤) . وعند مالك في الموطأ : العين (٢/٩٤٠ ح ٥) بلفظ : « إذا مرض العبد بعث الله تعالى

إليه ملكين . فقال : انظروا ماذا يقول لعواده . . . » وساق الحديث .

(١) عزاه الحافظ السيوطي في « الدر المنثور » إلى ابن مردويه أنظر : الدر المنثور (٥/٣٢٣) .

فالحمد لله على ذلك كثيراً . فرجع موسى - عليه السلام - يديه إلى السماء فقال : اللهم اغنه بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك . فأوحى الله تعالى إليه : أن يا موسى كثير تريد أن أعطيه أم قليل ؟ فقال : يا رب القليل منك كثير . ثم انطلق موسى - عليه السلام - متوجهاً فأوحى الله تعالى إليه : أن يا موسى إني قد أغنيته عن الدنيا فرجع موسى - عليه السلام - فإذا بالسباع قد أكلته . فقال : يا إلهي سألتك أن تغنيه عن الدنيا فسألت عليه السباع . فقال له الله تعالى : يا موسى هكذا أفعل بأوليائي سألتني الكثير والكثير مني الجنة ونعيمها ولو سألتني القليل لأعطيته الدنيا وما فيها فإن متاع الدنيا قليل .

وأنشدوا :

لي حبيب إلى الوصال دعاني رقّ لما رأى النحول كساني
أبصر القلب خالياً من سواه فسقاني من الذي قد سقاني
ونهانني عن الخلاف فقلت يا حبيبي وأين سرّ المعاني
لا أبالي إذا رضيت إلهي أتى أمر من الأمور دهاني

٤٩٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الصبر كنز من كنوز الجنة » ^(١) .

٤٩٥ - وسئل - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان ؟ فقال : « هو الصبر » ^(٢) .

وقيل : كان أول ما وجد موسى - عليه السلام - في التوراة مكتوباً : بسم الله الرحمن الرحيم شهدت لنفسي أن لا إله إلا أنا لا شريك لي في ملكي محمد عبدي ورسولي من لم يؤمن بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليخرج من تحت سمائي وليعبد رباً سواي .

وفي المناجات : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : يا موسى أتحب أن يدعو لك كل ما طلعت عليه الشمس والقمر ؟ قال : نعم . قال : اصبر على جفاء خلقي كما صبرت أنا على من يأكل رزقي ويعبد غيري ويسترزقوني فأرزقهم .

(١) قال الحافظ العجلوني : رواه في الإحياء ، قال العراقي في تخريجه : لم أجده . أنظر : كشف الخفاء (٢٧/٢) ح (١٥٨٩) .

(٢) أخرجه أحمد : المسند (٤/٤٧٠ - ٤٧١) ح (١٩٤٥٤) . من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه بلفظ : قلت إيمان ؟ قال : « الصبر والسماحة » .

وقال موسى - عليه السلام - : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . قال الله سبحانه : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ { السجدة : ٢١ }

٤٩٦ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر إجتياه وإن رضي اصطفاه » .

٤٩٧ - وفي بعض الأخبار أن عائشة - رضي الله عنها - لما تحولت إلى بيت أبيها في قصة الإفك كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدخل عندهم ويقول : كيف تيكم ؟ ولولا ذلك لماتت كمدًا فلما اشتد الأمر بها كشفت رأسها ووضعت على الرماد وهي تقول : حزني ليس بأقل من حزن يعقوب ، ومفارقة النبي - صلى الله عليه وسلم - أشد من مفارقة يوسف فمالي لا أجزع فشاور النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في أمرها وأمرهم بالدعاء لها فأنزل الله تعالى براءتها فاستأذنت فاطمة - رضي الله عنها - النبي - صلى الله عليه وسلم - في أن تبشرها فأذن لها فأتتها ثم دخل عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبشرها وقبل رأسها فقالت له : هذا بحمد الله لا بجهدك ^(١) .

٤٩٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من إجلال الله تعالى ومعرفة حقه ، أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » .

٤٩٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « الإيمان نصفان ؛ نصف صبر ونصف شكر » ^(٢)

٥٠٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » ^(٣) .

وذكر أن جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - قالوا : بلينا بفتنة السراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وروي أن نبيًا من أنبياء بني إسرائيل شكى بعض ما ناله من المكروه إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه كم تشتكي ولست بأهل ذم ولا شكوى ؟ هكذا بدؤُ شأنك في علم الغيب ، فلم تسخط قضائي عليك ؟ أتريد أن

(١) أخرجه البخاري : الشهادات (٥/٣١٩ ح ٢٦٦١) . ومسلم : التوبة (٤/٢١٢٩ ح ٥٦/٢٧٧٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في : شعب الإيمان (٧/١٢٣ ح ٩٧١٥) . أنظر : الدر المنثور للسيوطي (١/٦٦) .

(٣) قال الحافظ العجلوني : رواه العسكري والقضاعي عن ابن عمر رفعه .. فذكره . وقال إنه مرسل ،

وأخرجه القضاعي عن ابن عباس رفعه .. فذكره . أنظر : كشف الخفاء (١/٢٣٩ ح ٦٢٧) .

أغَيَّرَ الدنيا لأجلك ، وأبدل اللوح المحفوظ من سبيك ؟ فأقض ما تريد دون ما أريد ،
ويكون ما تحبّ دون ما أحبّ ، فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى
لاسلبناك ثوب النبوة ، وأوردك النار ولا أبالي .

وقيل : إن الله تعالى أوحى إلى أيوب - عليه السلام - : إني أريد أن ابتليكَ .
فقال : يا رب أين يكون قلبي في البلوى ؟ قال : معي . قال : رضيت . ثم قال :
وأنعم عليك بعد البلاء . قال : فأين يكون قلبي في النعمة ؟ قال : مع الأهل والولد
والمال . فقال عند ذلك : مسني الضراء إذا لم يكن قلبي معك .

وحكي أن إسماعيل - عليه السلام - حين قال لأبيه : افعل ما تؤمر أنه استسلم
وصبر على قضاء ربه ، ومن عادة الصبيان الجزع عند الألم ، ومن طبع الحديد القطع ،
فلما صبر إسماعيل وغيَّرَ عاداته لأجل الله غيَّرَ الله طبع الحديد لأجله حتى لم يقطع .

فكذلك حالتك أنت يا مؤمن كأنَّ الله تعالى يقول : يا مؤمن كان من عاداتك قلة
احتمال البلية ، والجزع عند النوائب ، فإن صبرت وغيَّرت طبعك لأجلي ، واستسلمت
لقضائي في الدنيا ، فإن الطبع للنار الحرق ، وأنا أغَيَّرَ طبعي لأجلك حتى لا تحرقك
عند الورود في العقبي . فتقول لك : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهيبي .

وكذلك بنيامين : لما تعرف إلى يوسف - عليه السلام - وتحقق معرفته صبر ولم
ييال بأن نودي عليه بالسرقة ، ورضي في معرفته ، والقرب منه بالبلاء ، فكان ثمرة ذلك
أن آواه إلى نفسه ، ورفع محله ، فكان الله تعالى يشير لك : عبدي لا تبالي ببلائي ،
فإن الجنة منتهى رضائي . وقيل : إن كسرى حبس بزرجمهر في السجن سنين عدة ،
فلم يستخبر عن حاله أحدًا فذكر صبره لكسرى فوجه ، فلما جاء سأله عن صبره .
فقال : إني استعملت لنفسي جوارشًا ستًا أكل كل يوم خلطًا منها . قال له كسرى : وما
هي : قال : الأولى الثقة بالله ، والثاني : الصبر خير ما استعمله الممتحن ، والثالث :
إن لم أصبر لأي شيء أعمل ، والرابع : قد يقع شرٌّ ما أنا فيه ، والخامس : من ساعة
إلى ساعة فرج ، والسادس : الرضا بمقادير الله رأس مال حسن .

وقال أحد الحكماء : الصبر يفني كل شيء . وقال آخر : إن أفضل الأدوات عند
المصائب : الصبر ، لأن الهارب مما هو كائن إنما يتقلب في يدي الظالم . وأنشدوا :

إلى الماء يسعى من يفتن بأكله فقل أين يسعى من يفتن بماء

فقد عرفت بهذا أنك لا تستغنى عن الصبر في جميع أوقاتك ، وبه يظهر أنه شطر الإيمان ، وشطره الآخر فيما يتعلق بالأعمال وهو الشكر ، فلذلك فاعلم أن الله تعالى خلق الدنيا دار البلاء كي لا ينجو من البلاء نبي ، ولا صديق حتى إنه امتحن البيت العتيق بأنجاس الجاهلية ، وعبادة الأصنام فيها حتى لا يطمع أحد في الخلاص من البلاء ، وهذه نكتة فمن وجد محنة وبلية من جهة يجد من تلك الجهة نعمة ، ومن وجد نعمة يجد من جهتها محنة . ألا ترى أن يوسف - عليه السلام - أصابه ما أصابه من المحن من قبل رؤياه فحسده الإخوة ، فكان هلاكه في رؤياه . ثم أورثته الرؤيا العزّ والملك حين عبر رؤيا الملك ، وكذلك كان سبب عمى أبيه يعقوب قميصاً حيث قال : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ {يوسف : ١٨} فلم يزل ينظر إليه حتى عمى . ثم كان سبب رجوع بصره قميصاً أيضاً لقوله : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ {يوسف : ٩٣} فلما أتى بالقميص ووضع عليه عاد بصره . وضده وذلك أن فرعون وجد الملكة بالماء في قوله : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ {الزخرف : ٥١} فكان الماء سبب مكله . ثم كان الماء بعد ذلك سبب هلاكه ، وذلك قوله تعالى ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ {الإسراء : ١٠٣} فسبحان من يخرج الضد من الضد ، يخرج من النعمة محنة ومن المحنة نعمة ، ومن الكفر إيماناً كإيمان السحرة وأصحاب الكهف ، ومن الإيمان ككفر بلعام ، ومن الطاعة معصية كمعصية إبليس جعلنا الله وإياكم ممن شكر على النعماء ، ورضي بمواقع القضاء بمنه ويمنه .

٥١ - باب قلة الشكر على النعم

اعلم أن ترك الشكر على يسير النعم وكثيرها كفر للنعم وموجب لزوالها . فقال الله تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ {النساء : ١٤٧} وقال - عز وجل - : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ {إبراهيم : ٧} ، وقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ {سبأ : ١٣}

٥٠١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يتادي مناد يوم القيامة ليقم الحامدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » قيل : ومن الحامدون ؟ قال : « الذين يشكرون الله على كل حال » .

٥٠٢ — وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة لسانًا ذاكرًا ، وقلبًا شاكركا ، وبدنًا صابركا ، وزوجة مؤمنة صابرة » (١) .

وقال أحد الحكماء : لله تعالى في السراء نعمة الفضل وفي الضراء نعمة التطهير والثواب . وقال بعض الصالحين : الناس ألف رجل فالتسعائة طلبوا الجنة والتسعون هربوا من النار ، والعشرة طلبوا الله سبحانه . فقال لهم : ماذا تريدون أليست الجنة وراءكم ؟ قالوا : إياك نريد . فقال لهم : إني أصب عليكم العذاب صبًا . قالوا : رضينا بذلك . قال : فأنتم عبيدي وصفوتي حقًا .

وقال بعض الحكماء : اشتغلت بشكر أربعة أشياء ؛ أولهن : أن الله تعالى خلق ألف صنف من الخلق ، ورأيت بني آدم منهم أكرم الخلق عليه فشكرته أن جعلني من بني آدم . والثاني : أنه فضل الرجال على النساء فجعلني من الرجال ، ولم يجعلني من النساء . والثالث : أنه جعل الإسلام أفضل الأديان وأحبها إليه فجعلني مسلمًا . والرابع : حيث جعل أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل الأمم فجعلني منهم .

وقال معاوية - رضي الله عنه - : العافية للمرء في أربعة أشياء : بيت يواريه ، ورزق يكفيه ، وزوجة ترضيه ، ونحن لا نعرفه فنؤذيه . فيجب الشكر على كل واحد منهم ، وأن يعرف قدر ما أنعم الله عليه . وقال بكر بن عبد الله : من كان مسلمًا ، وبدنه في عافية فقد اجتمع له سيد نعيم الدنيا ، وسيد نعيم الآخرة ، لأن سيد نعيم الدنيا العافية ، وسيد نعيم الآخرة الإسلام .

وقال بعض العلماء : سمعت بعض العارفين يقول : إن بعض الأنبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات . فقال الله تعالى : إذ لم يشكرني قط على ما أعطيته ، ولو شكرني على ذلك مرة واحدة لما سلبت نعمتي ، ولكن جزا بذلك قضائي ، وتمت إرادتي ، ومشيئتي .

وقال الأصمعي - رحمه الله - : مررت ببعض أحياء العرب فرأيت امرأة من أحسن الناس وجهًا تحت أقبح الناس وجهًا . فقلت لها : يا هذه كيف رضيت مع

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/١٣٤ ح ١١٢٧٥) ، وعزاه الحافظ الهيثمي للأوسط ، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٤/٢٧٦) : ورجال الأوسط رجال الصحيح . وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : رواه الطبراني بإسناد جيد . أنظر : الترغيب والترهيب (٢/٣٩٨ ح ١٦) .

جمالك أن تكوني مع هذه الصورة القبيحة . فقالت لي : لبس ما قلت لعله قد أحسن فيما بينه وبين ربه . فجعلني ثوابه ، وأنا أسأت فعوقبت به . أفلا أرضى بما رضى الله لي . فتعجبت من يقينها ورضاها بما قسم لها .

وقال أحد الحكماء : استحق اسم اللوم والخيانة من جمع إلى قلة شكر النعمة قلة الجواد بها ، والمكافأة عليها . وقال آخر : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكر لك . فإنه لا بقاء للنعمة إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت .

وقال آخر : لا تستقلن شيئاً من زيادة الله تعالى لك . فتستفز بقيتها منك . جعلنا الله وإياكم من الشاكرين لنعمائه ، الذاكرين لآلائه بمنه وكرمه .

٥٢- باب ترك الرضا بالقضاء

اعلم أن ترك الرضا بالقضاء سببٌ لذهاب الإيمان ومجلبة الكفر . فإن معنى الرضا بالقضاء ظهور العبودية من الربوبية . فإذا رضي العبد بالقضاء فقد أثبت الربوبية والعبودية ، وإذا قضى الرب ولم يرضى العبد فما هنالك عبودية .

٥٠٣- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اعبد الله بالرضا . فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ^(١) .

٥٠٤- وفي الخبر : أن الله تعالى يقول : خلقت الخير وخلقته أهلاً له ، وخلق الشر وخلقته له أهلاً . فطوبى لمن خلقته للخير ، ويسرت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر ، وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال : لم وكيف ^(٢) .

٥٠٥- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أهلكت أمة إلا بالشرك بالله ، وما أهلكت أمة حتى يكون بدأ شركها التكذيب بالقدر » .

(١) أورده الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٣٣٨/٧) ، (١٩/٩) .

(٢) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه » أخرجه ابن ماجه : المقدمة (٨٦/١ - ٨٧ ح ٢٣٧) .

٥٠٦ - ورُوي أن يهوديًا جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد إنني أصلي الصلاة . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سبق في قضاء الله أن تصليها » . قال اليهودي : فإني أقعد . قال : « سبق في قضاء الله أن تقعد » . قال اليهودي : فإني أقوم إلى هذه الشجرة فأقطعها . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « سبق في قضاء الله أن تقوم إليها فتقطعها » فنزل جبريل عليه السلام فقال : لَقَنْتُ حَجَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ كَمَا لَقَّنَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَجَّتَهُ عَلَى قَوْمِهِ .

وفي قوله عز وجل : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِبِخِزْيِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - ما لأوليائني يريدون وأريد ، ولا يكون إلا ما أريد . فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد .

٥٠٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لطائفة : « ما أنتم ؟ » فقالوا : مؤمنين . قال : « وما علامة إيمانكم ؟ » قالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر على الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال : « مؤمنون ورب الكعبة » ^(١) .

وقال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - : ما بقي لي فرح إلا في موضع قدر الله تعالى به . وحكي أنه ضاع لبعض الصوفية ولدٌ صغير . فغاب عنه ثلاثة أيام . فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك . فقال : اعتراضه عليه فيما قضى أشدّ عليّ من ذهاب ولدي .

وقال بعض الحكماء : استخيروا ولا تتخيروا . فكم من أمرئٍ تخير ما كان هلاكه فيه . فَمَنْ ذَلِكَ مَا قِيلَ : أن تارح والد إبراهيم - عليه السلام - قال حين حملت أمه به : أشتهي أن يكون ما بطنك ذكرًا فأذبحه تحت رجل النمر ، وذكيّ أبلغ بذلك رضاه . فجازاه الله تعالى بأن يذبحه في القيامة تحت رجل ولده إبراهيم - عليه السلام - .

وكذلك تمنى كل واحد من أهل مصر أن يكون يوسف - عليه السلام - عبدًا له . فعاقبهم الله تعالى بأن جعلهم كلهم عبيدًا له . فالله تعالى يعاقب على الضمير والنية ، ولا يعاقب على النسيان .

(١) عزاه الحافظ الهيثمي في المجموع (٥٩/١) إلى الطبراني في الاوسط من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

وذكر أن امرأة فتح الموصلية عثرت يوماً فانقطع ظفرها فضحكت . فقيل لها :
أما تجدين الوجع . فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه .

فهذا يدل أنه من أيقن أن ثواب البلاء أعظم مما يقاسيه من الألم لم يبعد أن
يرضى به . وقال أحد الحكماء : المقادير تريك ما لم يخطر ببالك . وقال آخر : الحذر
لا يدفع واقع القدر .

وحكي أن رجلاً من الراضين بالقضاء كان يقول في كل ما يصيبه من المصائب :
الخيرة فيما قدره الله تعالى ، وكان من سكان البادية ، ولم يكن معه إلا حماراً يرفع
رحله عليه ، وكلب يحرسهم ، وديك يوقظه من نومه أوقات الصلوات . فجاء ثعلب
فأخذ الديك فحزن أهله . فقال : هذا خير . ثم أصيب الكلب فمات فحزن أهله .
فقال : هذا خير . ثم جاء السبع فأكل الحمار فحزن أهله . فقال : هذا خير . فتعجب
أهله من صبره . فلما كان في بعض الليالي مرت بهم رحلة من الخيل تريد الغارة .
فسمعوا في بيوت قبيلة نباح الكلاب ، ونهاق الحمير ، وصراخ الديكة . فعدلوا إليهم
وغاروا عليهم . فقتلوا الرجال ، وسبوا الأموال ، واسترقوا الحمير والأولاد ، وكان
الرجل ينزل عن قبيلته لينفرد للعبادة بمعزل . فلما أصبح لم ير من قبيلته أحداً فقال
لأهله : قد رأيتم أن الخيرة فيما قدر الله تعالى . فلو لم يهلكهم الله - عز وجل -
لهلكتم وهلكنا .

وروي أن أحد الأنبياء كان يتعبد في جبل . فكان بالقرب منه عين جارية على
قرب الطريق فاجتاز بالعين فارس فشرب منها وركب جواده وسار . فنسي عند العين
صرّة فيها جملة دنانير . فجاء آخر من بعده . فأخذ الصرّة وذهب بها . ثم جاء فقير
على ظهره حزمة من حطب . فنزل وشرب من العين ، واستلقى ليستريح . فرجع
الفارس في طلب الصرّة فلم يجدها فطلبها من الفقير . فقال : ما رأيت شيئاً ففتشه فلم
يجدها عنده فعذبه حتى قتله . فقال ذلك النبي - عليه السلام - : ما هذا يا رب أخذ
الصرّة ظالم آخر ، وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله . فأوحى الله إليه :
اشتغل بعبادتك . فليس معرفة أسرار الملك من شأنك . إن هذا الفقير كان قتل أبا
الفارس فمكثته من القصاص ، وإن أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من مال أخذ
الصرّة فرددته إليه من تركته .

فمن أيقن وتحقق هذه الأسرار تعجب من أفعال الله تعالى ، وتعجب من جهل نفسه ، ولم يقل : لِمَ وكيف ، ويرضى بما دبر الله - عز وجل - في ملكوته ، ويعتقد أن الله تعالى تحت أعجوبة لطيفة . بل لطائف كثيرة ، وذلك يخرج عن قلبه الاعتراض بِلِمَ وكيف حتى لا يتعجب بما يجرى على العالم .

واعلم أنّ آيات الله تعالى حكمته في خلقه ، وقد ألقيت إلى الخلق على السنة الأنبياء صلوات الله عليهم كما فصلت في جملة الشريعة من أولها إلى آخرها ، وما من حدٍّ من حدود الشرع إلا وفيه سرٌّ وخاصية وحكمة يعرفها من يعرفها ، وينكرها من ينكرها . فالإخلاص ينقذ من هذه المشكلات .

٥٠٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قال الله تعالى : الإخلاص سرٌّ من سرّي استودعته قلب من أحببت من عبادي » (١) .

فينبغي لمن عقل عن الله سبحانه أن يجعل نفسه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه ظهراً لبطن ، وكالكورة بين يدي الصبيان حين يلعبون بها . فإذا ضربها أحدهم ومرّت تقول : إلى هذا أرسلتُ ، ثم إذا رُدّت تقول : إلى هنا أرسلت لأنها لا تعرف حقيقة ما يراد بها ، وكذلك يكون المؤمن المخلص أينما وجهه توجهه بقبول أو رضى ما دام تصرفه في الطاعة . فارضَ بقضاء الله وقدره ، و سلم تسلم .

واعلم أنه لا يصيبك إلا ما فيه خيرك وخيرتك ، فإن مدبر الملك والملكوت أعلم بمصالحك منك .

٥٠٩ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى عنه بها خطيئة » (٢) .

ومع ذلك فينبغي أن لا تظن أنّ معنى الرضا بالقضاء ترك الدعاء ، ولا ترك السهم الذي أرسل إليك حتى يصيبك مع قدرتك على دفعه بالترس . بل يعيدك

(١) أورده الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (١٠/٤٣ - ٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري : المرض (١٠/١١٦ ح ٥٦٤٨) بلفظ : « ما من مسلم يصيبه أدى - شكوة فما » .

ومسلم : البر والصلة (٤/١٩٩١ - ١٩٩٢ ح ٢٥٧٢/٤٧) بلفظ : « ما يصيب » .

والترمذي : الجناز (٣/٢٨٨ ح ٩٦٥) ، وأحمد : المسند (٦/٤٨ ح ٢٤٢١١) .

الله تعالى بالدعاء ليستخرج به قلبك صفاء الذكر ، وخشوع القلب ورقته لتستعد به لقبول اللطاف ، والأنوار ، وإنما معناه ترك الاعتراض على الله تعالى إظهاراً وإضماراً في جميع ما جرت به مقاديره مع بذل المجهود في التوصل إلى حجاب الله من عباده . جعلنا الله وإياكم من الراضين بقضائه ، ولا جعلنا من المعترضين بلم وكيف .

٥٣ - باب المزاح والضحك وقلة الخوف

وهو يجمع ثلاثة أبواب . اعلم وفقنا الله وإياك أن الضحك يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه ، ويورث الضغائن ويسقط المهابة والوقار ، وقد عير الله أقواماً بالضحك . قال الله - تعالى - : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ [النجم : ٦٠] أي لاهون معرضون .

وقال عز وجل : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليكثروا كثيراً ﴾ [التوبة : ٨٢]

٥١٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ^(١) .

٥١١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحكُ بها جلسائه يهوي بها أبعد من الثريا » ^(٢) .

٥١٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خالطوا الناس بالأبدان ، وزابلوهم بالقلوب » ^(٣) .

والضحك يصدر عن الأمان . قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ، ولا أجمع له آمين . فإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة ، وإذا خافني في الدنيا أمته يوم القيامة ، والضحك ضد الخوف .

(١) أخرجه البخاري : التفسير (٨/ ١٣٠ ح ٤٦٢١) ، ومسلم : الفضائل (٤/ ١٨٣٢ ح ١٣٤/٢٣٥٩) .

(٢) أخرجه أحمد : المسند (٢/ ٥٣١ ح ٩٢٤٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٦٤) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٣٥٣ ح ٩٧٥٦) ، ووكيع في الزهد (٣/ ٨٥٣ ح ٥٣١) ولفظهما : خالطوا

الناس وزابلوهم .

واعلم أن القلب إذا لم يكن فيه همّ وحزن يخرب كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن ، والحكمة في ذلك أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم - عليه السلام - :
يا خليلي إذا قمت تصلي فاغسل وجهك ويديك ورجليك بالماء . فقال : يا ربّ إذا
غسلت وجهي ويدي ورجلي بالماء فقلبي بأي شيء أغسله . فقال له : بالهم والغم لي
ولاجلي . ولذلك فاعلم أن الله تعالى قد جمع للخائفين الهدى والرحمة والعلم
والرضوان ، وناهيك به فضلاً . قال الله سبحانه : ﴿ ولما سكنت عن موسى الغضب
أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ {الأعراف : ١٥٤}
وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ {فاطر : ٢٨} وقال عز وجل : ﴿ رضي
الله عنهم ورضوا عنه . ذلك لمن خشي ربه ﴾ {البينة : ٨} .

٥١٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « رأس الحكمة مخافة الله عز وجل » ^(١) .

واعلم أن حقيقة الخوف تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ،
وقد يكون الخوف أيضاً من الله تعالى فمعرفة جلاله وعظمته وصفاته التي توجب الخوف
لا محالة ، وهذا الخوف أكمل وأتم، لأن من عرف الله - عز وجل - خافه بالضرورة .

٥١٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أخوفكم لله تعالى » .

وقد أوحى الله سبحانه إلى داود - عليه السلام - : يا داود خفني كما تخاف
السبع الضاري .

واعلم أن السبع لا يخافه إلا من يعرفه . فمن علم من صفات السبع أنه يهلكه
ولا يبالي فإن ذلك يبعثه على الخوف منه لا محالة . واعلم أن أشد الخلق لله تعالى
خوقاً الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء وأهل البصيرة . وأعظم الخلق أمناً الغافلون
والأغنياء الذين لا يمتد نظرهم إلى السابقة ولا إلى الخاتمة ولا إلى معرفة الله سبحانه .

٥١٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « جاءني جبريل - عليه السلام - وهو يرعد
فرقاً من النار » .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٧٠ ح ٧٤٣ - ٧٤٤) ، و البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٤١ - ٢٤٢)

باب ما روي في خطبته - صلى الله عليه وسلم - بتبوك .

انظر : الدر المشور للسيوطي (٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥) ، وكشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥٠٧ ح ١٣٥٠) .

٥١٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما آتاني جبريل قط إلا وهو يرعد ، وما آتاني جبريل إلا وهو قاطب أو كالقاطب . فكلتمه في ذلك . فقال : يا محمد إن أمر الله جد فجد ما تبسمت مذ خلقت النار » .

وقيل : لما ظهر على إبليس - لعنه الله - ما ظهر من الكبير وطرد لذلك وأبعد ولعن ، طفق جبريل وميكائيل - عليهما السلام - يكيان . فأوحى الله تعالى إليهما : ما لكما تبكيان ؟ فقالا : يا ربنا ما نأمن مكرك . فقال تعالى : هكذا كوننا لا تأمنا مكري . فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . وقيل : لما خلق الله تعالى النار طارت أفئدة الملائكة عن أماكنها . فلما خلق الله تعالى بني آدم عادت أفئدتهم .

ويذكر أن أريز قلب إبراهيم - عليه السلام - كان يسمع في الصلاة من مسيرة ميل . وذكر أن داود - عليه السلام - بقي أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه . وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لطائر : ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق . فإنك تقع على الشجر وتأكل من الثمر ، وليس عليك حساب ولا عذاب ، والله لوددت أني : كنت شجرة إلى جانب الطريق مرّ عليّ بعير فأخذني فأدخلني فاهُ فأكلني ثم ازدردني . ثم أخرجني بعرًا ، ولم أك بشراً .

وقال أبو ذرٍّ - رحمه الله - : وددت أني شجرة تعضد .

وقالت عائشة - رضي الله عنها - : وددت لو أني كنت نسيًا منسيًا .

وذكر أن عمر - رضي الله عنه اجتاز بقبر يحفر . فنظر فيه . وقال : يا قبر والله إنك لغال بالثمانية جنات . واعلم أن الخوف يسوق العبد إلى السعادة الأبدية ، ولا ينبغي أن يُفِرطَ فيه حتى يورثه القنوط . فذلك مدموم فينبغي للعبد أن يغلب الخوف ما دام مقارفاً للذنوب ، وأما المطيع المتجرد فينبغي أن يعتدل خوفه ورجاؤه .

كما قال عمر - رضي الله عنه - : لو نادى منادٍ من السماء ليدخلن الجنة جميع الخلق إلا رجل واحد لحفت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى منادٍ ليدخلن جميع الخلق النار إلا رجل واحد لرجوت أن أكون ذلك الرجل . فمن طالع بقلبه بساط الهيبة لهاش ، ومن طالع بساط الرحمة والرافة عاش .

وأنشدوا في مثل ذلك :

الوصل يضحكني والوصل بيكيني والوصف يقتلني والوصل يحييني
 أما بكائي فمن خوفي قطيعته وأن ضحكى متى بالوصل يدنيني
 والوصل من سيدي يحيي الفؤاد به والقـتـل إن غلقت أبوابه دُونِي

فهكذا ينبغي أن يكون خوف الرجل ورجاؤه ككفتي الميزان لا يميل إلى أحدهما دون الآخر ، والنجاة ما بينهما . فإن مال إلى كفة الخوف حصل في القنوط ، والقنوط مهلك لأنه يأس من رحمة الله تعالى ، وإن مال إلى كفة الرجاء حصل الأمل والأمن والكسل ، لأن الرجاء يدعو إلى الأمن والفتور في العمل . فإذا دام الإنسان سليماً في جسمه ينبغي له أن يغلب الخوف يسيراً . فإذا وقع في المرض وتناهى به العمر فينبغي له أن يغلب الرجاء ليحسن ظنه بالله ربه لقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيراً فخير ، وإن ظن شراً فشر . فيكون قد لقي الله وهو حسن الظن بالله .

وأما المزاح فهو يمت القلب ، ويسقط المهابة ، ويجري السفهاء على الخليم .

وقال أحد الحكماء : المزاح يفني الهية كما يفني النار الخطب .

وقال آخر : المزاح يمرض القلب وينبت النفاق فيه ، وقد تبلغ كلمة المزاح

بصاحبها إلى حد يكون فيه هلاكه وتلاف نفسه كما قال القائل :

أَيُّ حَادِّ بَلِّغِ الْمَزَاحُ وَأَيُّ حَادِّ بَلِّغِ الْمَزَاحُ
 وَنَاصِحٍ وَلَوْ حَظَى النَّاصِحِ وَنَاصِحٍ مِنْ أَعْظَمِ
 وَمَنْهَجِ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٍ وَمَنْهَجِ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٍ
 مُهَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحِ مُهَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحِ
 إِلَّا أَمْرِي مَبِيزَانِهِ رَاجِحِ إِلَّا أَمْرِي مَبِيزَانِهِ رَاجِحِ
 سَيِّقْ إِلَيْهِ الْمُتَجَرِّعَ الرَّابِحِ سَيِّقْ إِلَيْهِ الْمُتَجَرِّعَ الرَّابِحِ

وإنما أبيض منه السير مع قول الحق تطيباً لقلوب النساء والأطفال .

٥١٨ - مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تدخل الجنة عجوز » (١) .

أي لا تبقى عجوز في الجنة .

(١) عزاه الحافظ الهيثمي في المجمع إلى الطبراني في الاوسط من حديث عائشة رضي الله عنها . وقال : وفيه مسعدة بن اليسع وهو ضعيف . أنظر : مجمع الزوائد (١٠/٤٢٢) .

٥١٩ - ومثل قوله - صلى الله عليه وسلم - لصهيب - رضي الله عنه - وهو يأكل التمر وكان رمدًا بإحدى عينيه . فقال له : « أتأكل التمر وأنت رمد » فقال صهيب : إنما أكل التمر بالشق الآخر . فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كلامه ^(١) .

فهذا النوع من المفاكهة لا بأس به بشرط ألا يتخذ عادة . فربما مرنت عليه الطباع ، وتعدى ذلك إلى أكثر منه فيقع في محذور الكذب ، وهو حرام في المزاح وغيره ، وفي السر والجهر . وأنشدوا في المعنى :

لا تـمـرض بـمـزح لا مـرئى طـبـق ما رامه قلبه أجراه في الشفّة
فـرب قـافية بالمزح قاتلة مشومة لم يرد إنماؤها نمت
ردّ السّلا مستقيماً بعد قطعك كرد قافية من بعد ما مضت
إني إذا قلت قولاً مات قائله ومن يقال له والبيت لم يمّت

جعلنا الله وإياكم ممن عمّر قلبه بالخوف من الله ، ولم يرد بجميع أعماله إلا الله بمنه وفضله .

٥٤ - باب الطمع وكثرة الأكل وقلة إكرام الخبز وقلة شكر النعم

وهذا الباب يجمع باين . اعلم وفقك الله أن الطمع فقر ملازم ، وهو ضارّ بالدين ، والقناعة هي الغنى ، وأصل من أصول الدين .

٥٢٠ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « القناعة مال لا ينفذ » ^(٢) .

وقال بعض الحكماء : من لم يزل الطمع له ركاباً لم يزل الفقر له صاحباً .

وقال آخر : الطمع الفقر الحاضر ، واليأس الغنى الظاهر .

وقال كعب الأحبار - رضي الله عنه - فنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الحسد فظهرت مروءته ، تعب قليلاً فاستراح كثيراً .

(١) أخرجه ابن ماجه : الطب (٢/١١٣٩ ح ٣٤٤٣) في الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . والحاكم في المستدرک (٣/٣٩٩) .

(٢) عزاه الحافظ العجلوني إلى الطبراني والعسكري عن جابر ، وكذا عن القضاعي عن أنس - رضي الله عنهما انظر : كشف الخفاء (٢/١٣٣ ح ١٩٠٠) ، وانظر : المقاصد الحسنة للسخاوي (ح ٧٧٩) .

وقيل : ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . وقال آخر : عزّ العاقل غناه عن الناس . وقال أحد الحكماء : الغنى وطن، والفقر غربة ، والطمع رق ، واليأس راحة وقال آخر : من قنع شبع ، ومن طمع ضرع . وأنشدوا في ذلك :

أهون شيء أنت في عين مَنْ أَحوجك الدهر لما في يديه
فإن قنعت ولم ترجه كُنْتَ وإن هنتَ عزيزاً عليه

وحكى أبو الحسن بن أبي بكر المازني - رحمهما الله - أنه قال : سمعت بنائاً يقول : دخلت مكة حرسها الله فأقمت فيها سبعة أيام لم يفتح لي شيء . فبينما أنا قاعد تحت الركن إذ جاءني خادم بجفنة . فقال : خذ . فقلت : من أين هذا ؟ فقال : صوفي لا يسأل عن شيء من أين هو . فقلت : صدقت . ففتحها فإذا فيها خُشْخُلَانٌ ففرغتها في خرقتي وأكلت منه ما قدرت ورفعت الباقي . فرأيت تلك الليلة في المنام قائلاً يقول : من أكل فوق شبعه أعمى الله تعالى عين قلبه . فانتبهت وقلت : يا سيدي ها أنا ذا أكله بعد سبعة أيام .

اعلم أن الحرام من الوقت نار تذيب شحمة الفكر ، وتحرق نبات إخلاص النيات ، والحرام من الطعام سم الأجسام ، مسقم الأفهام ، يربي الجسد ، ويمحق الطاعة . حرام الطعام روح جسد المعاصي ، وحلاله روح جسد الطاعة . إياك والحرام فإنه يتولد منه عمى البصيرة ، وظلام السريرة ، وفساد السيرة . احذر حرام الطعام فهو حجاب العقل عن معقولات الحقائق ، وستر يستر عنه صفاء الدقائق ، وقاطع بينه وبين مواصلة الخالق . بالحرام من القوت لو تنبعث منه عواصف الأهواء ، وتنبسط في جوّ سحائب الإغواء ، ويسكب أمطار وسواس الشيطان ويرعرع أغصان العصيان ، ويقصفه قضبان الإيمان .

وأنشدوا :

اجعل غـذاك على الدوام واحذر على مـرأة سـ
يا صاح من حلّ الطعام ورك أن تُدنس بالحرام
واحجب صفاء ضياء ذهـبـك أن يكدر بالظلام
تسلم سلمت من المعـذا ب الصعب في يوم السلام

وكذلك فاعلم أن شرّ الطعام من أمهات الخبائث ، لأن المعدة ينبوع الشهوات من جاه ، ومنكح ، ومشرب ، ومأكل وغير ذلك .

أعظم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ما من عمل أحب إلى الله تعالى من جوعٍ وعطشٍ » .

٥٢١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الفكر نصف العبادة ، وقلة الطعام هي العبادة » ^(١) .

٥٢٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكيراً ، وأبغضكم إلى الله تعالى كل أكلٍ نؤم شرّوب » ^(٢) .

٥٢٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الشبع مفتاح الدنيا ، والجوع مفتاح الآخرة » وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله - عز وجل - .

٥٢٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد فثلث للطعام ، وثلث للماء ، وثلث للنفس » ^(٣) .

٥٢٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . فضيقوا مجاربه بالجوع والعطش » ^(٤) .

(١) بلفظ : « قلة العيال أحد اليسارين ، وكثرته أحد الفقيرين » أورده الحافظ العجلوني وعزاه للقضاعي عن الخليفة عليّ - عليه السلام - ، وللديلمي عن عبد الله بن عمرو بن هلال المزني بسنتين ضعيفين ثم قال : واللفظ بتمامه في الإحياء ، وقال ابن الغرس وأوله : التدبير نصف المعيشة والتودد نصف العقل ، والههم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » انظر : كشف الخفاء (٢/١٣٠) ح ١٨٨٨

(٢) ذكره الزبيدي في « إنحاف السادة المتقين » (٣٨٧/٧) .

(٣) أخرجه الترمذي : الزهد (٤/٥٩٠ ح ٢٣٨٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وابن ماجه : الألعمة (٢/١١١١ ح ٣٣٤٩) . وأحمد : المسند (٤/١٦٢ ح ١٧١٩) .

(٤) أخرجه البخاري : الأحكام (١٣/١٦٩ ح ٧١٧١) ومسلم : السلام (٤/١٧١٢ ح ٢٤/٢١٧٥) ولم يذكره :

« وضيقوا مجاربه بالجوع والعطش » قال الحافظ العجلوني : ذكره في الإحياء وقال العراقي : مستفق عليه

دون : « فضيقوا مجاربه بالجوع » . انظر : كشف الخفاء (١/٢٥٦ ح ٦٧١) .

٥٢٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعائشة - رضي الله عنها - : « أدبني قرع باب الجنة » قالت : وكيف أدبني ذلك ؟ قال : « بالجوع والظما » (١) .

٥٢٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كلوا واشربوا في أنصاف البطون . فإنه جزء من النبوة » .

٥٢٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « قساوة القلب من أربعة أشياء ؛ بطن ممتلئ ، وقرين سوء ، ونسيان الذنوب ، وطول الأمل ، ومن طال أمله عاقبه الله بأربعة أشياء ؛ الكسل عن الطاعة ، وكثرة الهموم في الدنيا ، والحرص على جمع المال ، ويقسو قلبه » .
وأنشدوا :

القوت أيسر ياسر أبدا لأرباب القناعة
والرزق مضمون فثق لا تخش في الدنيا ضياعة
واعلم بأنك مبيت فأكثر من الأعمال طاعة
واجعل تجارتك الرجاء والزهد والتقوى بضاعة
واصبر إذا نسيت النعيم م على الشقاء فالعمر ساعة
واعلم أن في الجوع فوائد كثيرة ، وترجع أصولها إلى سبع .

منها : صفاء القلب ، ونفاذ البصيرة . فإن الشبع يعمي القلب ، ويورث البلادة .
واعلم أن مفتاح السعادة المعرفة ، ولا تنال المعرفة إلا بصفاء القلب ، ولذلك كان الجوع قرع باب الجنة .

٥٢٩ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أجاج بطنه عظمت فكرته ، وفطن قلبه » (٢)

والثانية : رقة القلب حتى يدرك لذة المناجات ، ويتأثر بالذكر والعبادة .

قال الجنيد - رحمه الله - : يجعل أحدكم بينه وبين الله مخللة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجات لله تعالى .

(١) ذكره الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٧/٣٩٠ ، ٤٠١) .

(٢) ذكره الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٧/٢٩٤) .

والثالثة : ذلّ النفس ، وروال البطر والطغيان منها ، ولا تكسر النفس بشيء كالجوع ، والشبع داع إلى الغفلة عن الله تعالى وهو باب الجحيم والشقاوة ، والجوع إغلاق لهذا الباب ، وفي إغلاق باب الشقاوة فتح باب السعادة .

٥٣٠ - ولذلك لما عرضت الدنيا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا بل أجوع يوماً وأشبع يوماً . فإذا جعت صبرت ، وإذا شبعت شكرت » (١) .

فلذلك الشبعان في غفلة عن ألم الجوع .

الرابعة : كسر شهوات المعاصي ، والقهر للنفس بالإمارة بالسوء .

٥٣١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن بين خمس شدائد ؛ مؤمن يحسده ، ومناقق يبغضه ، وكافر يقاتله ، ونفس تنازعه ، وشيطان يضلّه » (٢) .

الخامس : أن البلاء من أبواب الجنة ، لأنه مشاهدة طعم العذاب ، وبه يعظم الخوف من عذاب الآخرة ، ولا يقدر الإنسان أن يعذب نفسه بشيء كالجوع فإنه لا يحتاج إلى تكلف . قال عليّ - عليه السلام - : ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بالمعصية . قالت عائشة - رضي الله عنها - : أول بدعة حدثت بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشبع . إن القوم إذا أشبعوا بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا . وكذلك شهوة الفرج لا تخفى غايتها ، والجوع يكفي شرها ، ومن شبع لم يملك فرجه ، وإن منعه التقوى فلا يملك عينه ، والعين تزني كما أن الفرج يزني ، وجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع .

السادس : خفة البدن للتهجد والعبادة ، وروال النوم المانع من العبادة . فإن رأس السعادة العمر ، والنوم ينقص العمر . إذ يمنع من العبادة ، وأصله كثرة الأكل .

قال أبو سليمان الدّراني - رحمه الله - : من شبع دخل عليه ست خصال منها : فقد حلاوة العبادة ، وتعدّر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق ، لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل عن العبادة ، وزيادة الشهوات ، وإن سائر المؤمنين

(١) أخرجه الترمذي : الزهد (٤/٥٧٥ ح ٢٣٤٧) وقال : هذا حديث حسن . وأحمد : المسند (٥/٣٠٠ ح ٢٢٢٥٢) .

(٢) ذكره الزبيدي في « إتحاف السادة » (٧/٣٥١) .

يدورون حول المساجد وهو يدور حول المزابل ، وخفة المؤنة ، وإمكان القناعة . فإن من يخلص من شر بطنه لم يفتقر إلى مالٍ كثير . فسقط عنه أكثر هموم الدنيا فمهما أراد أن يستقرض لقضاء شهوة البطن استقرض من نفسه . وكذلك كان إبراهيم - رضي الله عنه - إذا قيل له عن شيء إنه غالٍ . قال: أرخصوه بالترك، وفيهم أسوة لمن أفلح

وأنشدوا في مثل ذلك :

رب رجـال لهم حلوم	ترفـعـهم أنفس كـرام
أنفـرت في لذة وصـاموا	ونمت في خلوة وقـام
شـتان ما بينهم وبينك	خبت عن القصد واستقام
فاز المخفون فاستراحوا	ومـهدوا إذ أتوا أو نام
وخلف المتقون عنهم	حقائب وقـرها آثام
أه لنفسي وآه منهاها	تلـهـو وفي إثرها الحـمام

عليك بالصوم فإنه صيقل الخاطر ، ومروق الأسرار من شوائب الأكدار .

الصوم قيد لجميع الخواطر من الترح في ميدان القبائح . الصوم جنة للقلب من جحيم الشهوات ، وجنة له بثواب القربات . الصوم مفتاح باب السعادة وعماد مجلس العبادة ، الصوم بساط الكشف ومهاده ، وأسرُّ الورع ، وعمادة الصوم شعار المؤمنين ، وكهف الزاهدين ، وحبیب الطائعين، وغذاء العارفين . الصوم منهاج الإيمان ومحجته ، وركن الإسلام وفريضة ، ودليل التوفيق وآيته ، وعنوان القبول وعلامته ، وبداية المزيد وغايته ، وتمرين الزاهد ومجاهدته ، ومسرة العارف وفرحته .

المعدة كالعود كلما خلا جوفه صفا صوته . المعدة كالمشكاة بقدر ما يكون فيها من الأنوار يقل فيها ضياء الأنوار . واعلم أن القوت على هذا الترتيب أفضل ما كان من كسب صاحبه . قال سليمان - عليه السلام - يا رب هل على الأرض أشكر لك مني ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا سليمان عبد يكسب بيديه ويعبدني أشكر لي منك . فقال سليمان - عليه السلام - : اللهم اجعل كسبي بيدي . فتزل جبريل - عليه السلام - فعلمه صناعة الخوص . فكان يعمل القفاف ويعيش منها .

وقال عمر - رضي الله عنه - : من عمل حمدناه ، ومن لم يعمل آثمناه .

وقال أبو حامد الغزالي - رضي الله عنه - إن كنت معيلاً متحرراً . فالقيام بحق العيال بكسب الحلال أفضل من العبادات البدنية ، ولكن في جميع ذلك ينبغي أن لا يخلو عن ذكر الله تعالى . بل ينبغي له أن يكون كالمستهزئ بمعشوقه المشغوف به ، وهو قد دفع إلى شغل من الأشغال لضرورة وقته . فهو يعمل بيديه حاضر بجسده غائب قلبه عن عمله حاضر بقلبه مع معشوقه .

حكى عن أبي الحسن الحرّاني - رحمه الله - : أنه كان يعمل بالمسحاة دائماً وكان يقول : اللهم إنك أعطيتنا اليد واللسان والقلب . فاليد للعمل ، واللسان للخلق ، والقلب للحق . فإذا خلا القلب من الشهوات عمر بالفكر في الله تعالى .

قال سريّ السقطي - رحمه الله - : عمارة القلب ثلاث ؛ الوقوف بباب الله ، والاعتصام بحبل الله ، ودوام ذكر الله - عز وجل - .

فصل

وأما قلة إكرام الخبز ، وقلة شكر النعم . اعلم أن قلة إكرام الخبز هو كفر بنعمة المنعم . فاجتهد في إكرامه ما استطعت ، والتقط ما يسقط منه عند سقوطه ، ولا تتركه إلى آخر طعامك ، فإن عظمته فقد عظمت ما عظم الله تعالى . فإن الله تعالى سخر له السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن . فالمعدن سبب النبات ، والنبات سبب بقاء الحيوان مدة حياتهم . واعلم أن القرص ما يصير قرصاً يتناوله ثلاثمائة وستون مخلوقاً أولهم ميكائيل - عليه السلام - ، وآخرهم الفرّان ، والحكمة في ذلك أن الله تعالى أفر بعض الأشياء إلى بعض حكمة منه حتى لا يقيم شيء من الأشياء إلا بغيره فجعل بعض الأشياء سبباً لبعض ، وجعل ظهور الأشياء سبباً لظهور غيرها . كما جعل آدم - عليه السلام - سبباً لثلاثة أشياء . منها ما بطن في نفس إبليس لعنه الله من الكبر الذي أبلس من أجله ولعن وطرد ، وسبباً أيضاً لظهور المعصية في غير جنس الإنس المحفوفين بالشهوات لثلاثاً يتوهم مخلوق أنه ينجو من المعصية إلا بتوفيق الله وعصمته ، وسبباً لزوال الالتباس عن المؤمنين في ظهور حمل دون فحل ، وولد دون والد ، وهو عيسى عليه السلام - فضرب لهم به مثلاً في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ {آل عمران : ٥٩} .

وجعل معصيته - عليه السلام - سبباً لقبول التوبة عمّن عصاه ومحوباً عنه لما فعل به . قال سبحانه : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباها ربه فتاب عليه وهدى ﴾ . وجعل إبليس سبباً لخروج آدم - عليه السلام - من الجنة ، وكذلك أيضاً جعل خروج آدم - عليه السلام - من الجنة لثلاثة أسباب حكيمية ؛ أحدها : أن الله تعالى خلقه ليكون خليفة في الأرض يعمرها هو وبنوه لا ليقيم في الجنة ، وبذلك أخبرته الملائكة قبل خلقه - عليه السلام - بقوله - عز وجل : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : ٣٠] والثانية : لكون الكفار في ظهره . إذ ليست الجنة محل الكافرين .

والثالثة : أن الله تعالى خلق محلين جنةً وناراً ، وخلق الإنس والجن ، وقدر عليهم الموت حتماً ، وأن لا يدخل أحدٌ أحدَ المنزلتين إلا بعد الموت ، فلو بقي في الجنة لم يذق أحدٌ طعم الموت ، لأنه لا موت فيها ، وكان أيضاً نزوله إلى الأرض سبباً لظهور من شاء أن يظهره من جنس الأرض مؤمنهم وكافرهم .

وجعل ظهور بعض الأنبياء سبباً لظهور بعض . ثم جعلهم كلهم سبباً لظهور نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - . ثم جعل ظهور نبينا - عليه السلام - سبباً لكسر الأصنام ، وذل عبدة الأوثان ، وجعله أيضاً سبباً لإشراق الأنوار في قلب من خلقه من أمته للجنة ، وعصمه من النار . ثم جعل أذى المشركين له سبباً لخروجه من مكة حرسها الله ، وخروجه من مكة سبباً لأن يسكن المدينة في حياته ، ويقبر بها بعد وفاته . ثم جعل موته سبباً لقرب الساعة ، وقرب الساعة سبباً لوصول كل ميسر لما خلق له من النعيم والجحيم ، وكذلك لما أراد أن يتزع ملك مصر من أيدي جبابرتها ، ويمسكها يوسف - عليه السلام - فحسده الأخوة فجعل حسدهم سبباً أن جعلوه في الجب . ثم جعل سير القافلة إلى ذلك المكان سبباً لإخراجه من الجب . ثم جعل إخراجه من الجب سبباً لوصوله إلى مصر ، ووقوعه في دار امرأة العزيز . ثم جعل محبة امرأة العزيز سبباً لسجنه . ثم جعل السجن سبباً لتعبير رؤيا الملك . ثم جعل التعبير سبباً لخروجه من السجن ، وكلامه مع الملك . ثم جعل كلامه مع الملك سبباً لتمليكه أرض مصر . فسبحان من إذا قضى أمراً قدم له أسباباً ، وإذا أراد بعبد خيراً قدم له أسباباً ، وإذا أراد بعبد شراً قدم له أسباباً ، وسبحان من لم يخلق الخلق عبثاً لغير حكمة ولا باطلاً لغير حق . فإذا أكلت طعاماً فواس منه من حضر .

٥٣٢ - فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أكل طعاماً وذو عين ينظر إليه فلم يطعمه ابتلاه الله تعالى بداءٍ يسمى النفس » .

فإذا دعاك أخوك إلى طعام فأجبه تسره ، ولا تجب ظالماً ولا فاجراً ولا آكلأرباً ولا عشاراً ، ولا من يدع الاغنياء ويدع الفقراء ، وإذا قرب إليك طعام فلا يكن بدأ الأكل منك حتى يبدأ من هو أكبر منك في السن . فإذا بدأت فسم وكل مما يليك . فإذا فرغت فلا تمسح يدك حتى تلعقها . فقد ورد في الخبر : أن الله وملائكته يصلون على الذين يلعقون أصابعهم من الطعام . وافتح طعامك بالملح ، واختمه بالملح . فإن فيه شفاء من سبعين داء ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفعله ، ولا تنتج حتى ترفع المائدة ، فإنه من السنة . فإذا غسلت فادع بالبركة ، واستأذن بالخروج فأكل وحمد خبير من أكل وسمت ، وقل : جزاك الله خيراً ، وبارك لك في رزقك ، ويسر عليك فعل الخيرات ، ولا تأكل وحدك . ففي الخبر : أن الله وملائكته يصلون على أهل البيت إذا أكلوا في جماعة . ولا تأكل في ظلمة . فإن الشيطان يأكل في الظلمة ، ولا تأكل بأصبع واحد ، ولا بأصبعين وكل بثلاثة .

٥٣٣ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الأكل بأصبع واحد أكل الشيطان ، والأكل بأصبعين أكل الجبابرة ، والأكل بثلاثة أصابع أكلي ، وأكل الأنبياء من قبلي » (١) . ولا تضيع من الطعام شيئاً . وإنما وضع لتأكله لا تضيعه وكل ما سقط وبادر به . فقد ورد في الخبر : أنه من أكل ما سقط يصرف الله عنه الجنون ، والجذام ، والبرص ، وعن ولده وولد ولده إلى أربع أهل بيته .

٥٣٤ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لقط الفتات أمان من الفقر » .
وذكر أن أحد الملوك وجّه أحد ورائه رسلاً إلى ملك من ملوك الروم فأنزله وأكرمه . فلما كملت ضيافته ثلاثة أيام أمر بدخوله عليه . فدخل وقعد معه وحدثه فيما جاء من الحوائج إلى أن حان وقت الغداة فأوتي بغداة الملك . فقعد هو ووزراؤه على المائدة أقبل الوزير يلتقط اللباب من السفرة . فرآه الملك يلتقط اللباب فظن أنه لم يشبع فأمر بردّ الطعام إليه . فأرد الطعام ووضع بين يديه . وقال له الترجمان : يقول لك

(١) ذكره الزبيدي في « إتحاف السادة » (٥/٢٧٢) .

الملك : كل إن كنت لم تشبع . فقال الوزير : لا حاجة لي فيه ، وإنما لقطت اللباب
لقول نبينا - صلى الله عليه وسلم - :

٥٣٥ - « لقط اللباب أمان من الفقر » .

فأخبر الترجمان الملك بذلك . فأعجبه ذلك ، وأمر للوزير بألف دينار . فقال
الوزير : الحمد لله الذي صدق نبياً من أنبيائه على يدي عدو من أعدائه .

وهكذا يكون حال من امتثل الشرع . فشكر ذلك هو شكر للمنع ، وتمام الشكر
الحمد والشكر عليها وعلى كل حال ، وينبغي له أن يقول إذا فرغ من طعامه ما كان
يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

٥٣٦ - « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين » ^(١) .

قال موسى - عليه السلام - : يا رب بما أغلب الشيطان وأبعده عني ؟ قال :
بدوام شكري . وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - : أتحب أن لا أحاسبك غداً
بما أنعمت عليك في دار الدنيا ؟ قال : نعم . قال : قل كل يوم عشر مرات : الحمد لله
بعد كل أحد ، والحمد لله يبقى ربنا ويفنى كل أحد ، والحمد لله على كل حال .
جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الحامدين على كل حال بمنه وفضله .

٥٥ - باب الاشتغال بالنساء والأولاد

عن الطاعات وإهمال الأوقات

وهذا الباب يجمع باين . اعلم وفقنا الله وإياك أن الله قد حذر من ذلك في
كتابه العزيز فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم
فاحذروهم ﴾ [التغابن: ١٤] وقال تبارك وتعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من
النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث
ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران: ١٤] فمعلوم بالفطرة أن الشهوات حجاب عن الله
سبحانه ومشغلة عن الطاعات وسبب لتضييع العبادات .

(١) أخرجه أبو داود : الأطعمة (٣/ ٣٦٥ ح ٣٨٥٠) ، والترمذي : الدعوات (٥/ ٥٠٨ ح ٣٤٥٧) وابن ماجه :
الأطعمة (٢/ ١٠٩٢ ح ٣٢٨٣) .

وقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ [المنافقون : ٩] ، وقال عز وجل : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء اضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ [سبأ : ٣٧] ، وقال عز وجل : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ [الأنفال : ٢٨] ، وقال سبحانه : ﴿ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : ٥٥]

٥٣٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ » ^(١) .

ومن محبة الولد ما روي أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار بكى فقال له جبريل : مم بكأوك ؟ قال : بكيت لأن الله تعالى خاطب النار بقوله تعالى : ﴿ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الانبيا : ٦٩] فحفظ الله تعالى ذلك عليه إلى يوم الذبح فلما اشتد عليه الأمر لفطر محبة الولد جاء جبريل عليه السلام فقال له : ربك يقول لك : كنت تغار يوم قلت للنار : كوني برداً وسلاماً أفلا أغار عليك وفي قلبك محبة الولد .

وكذلك لما وضع السكين على حلق ولده قيل له : خلّ عنه فإن مرادنا منك قطع علائق القلب من حب الولد لا قطع الحلق . وكذلك قيل : إن الله تعالى قال في قصة زكريا - عليه السلام - كان لي مخلصاً موحداً فدعاني بالولد فرزقته إياه وجعلت هلاكه في أمنيته إذ صار لي شريكاً في قلبه فلما صرنا اثنين قلت له حين وصل المنشار إلى رأسه : اصبر أنت الآن حتى نرجع اثنين أما علمت أنّ من أسمائي الغيور كما أنّ من أسمائي الصبور . فاعلم أن الاستهارة بالنساء حلم النكراء وكثرة الخلوة معهن مفسدة للعقل وممانعة عن طلب الحكمة والعبادة وجميع الفضائل .

٥٣٨ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : « ما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من النساء » ^(٢) .

(١) أخرجه ابن ماجه : الادب (١٢٠٩/٢ ح ٣٦٦٦) ، في الزوائد : إسناده صحيح . ورجاله ثقات .

وأحمد : المسند (٢١٣/٤ ح ١٧٥٧٦) .

(٢) أخرجه البخاري : النكاح (٤١/٩ ح ٥٠٩٦) . ومسلم : الذكر والدعاء (٢٠٩٧/٤ ح ٢٧٤٠/٩٧) .

ومن فتنة الرجال من النساء ما ذكر في الأخبار : أن آدم - عليه السلام - لما خلق الله له حواء منه دنت إليه فلما نظر إليها استحسناها واضطربت أعضاؤه شوقاً إليها فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : حواء . قال لها : ما معنى حواء ؟ قالت : احتوي على قلبك وأنسيك ذكر ريك . قال لها : غيري هذا الاسم . قالت : فأنا امرأة . قال لها : وما معنى امرأة ؟ قالت : أذيقك طعم المرارة . قال لها : غيري أيضاً هذا الاسم الآخر . قالت له : نحن النساء : قال لها : ما معنى ذلك ؟ قالت : ننسي من أحبنا ذكر الله تعالى . فأهوى بيده عند ذلك فلطمها فقامت لتذهب عنه . فلم يتمالك أن قال لها : اقربي مني يا محتتي ومحنة الخلق .

وقيل : إن إبليس لعنه الله لما طرده الله تعالى ولعنه ، وأنزله إلى الأرض . قال : يا رب إنك أنزلتني إلى الأرض وجعلتني لعيناً رجيماً . فاجعل لي بيتاً : قال : الحمام . قال : اجعل لي مجلساً . قال : الأسواق ، ومجامع الطرق . قال : اجعل لي طعاماً . قال : ما لم يذكر اسم الله عليه . قال : اجعل لي شراباً . قال : كل مسكر . قال : اجعل لي مؤذناً . قال : المزامير . قال : اجعل لي قرآناً . قال : الشعر . قال : اجعل لي كتاباً . قال : الوشم . قال : اجعل لي حديثاً . قال : الكذب . قال : اجعل لي مصائد . قال : النساء .

٥٣٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « لولا المرأة لدخل الرجل الجنة »^(١) .

٥٤٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين سأله سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - عن رجل اختلع امرأة من رجل ثم تزوجها فقال : « المؤمن لا يفعل هذا وأنا بريء ممن فعل هذا في الدنيا والآخرة » .

وقال بعض الحكماء : من أراد أن يتقوى على طلب الحكمة فليكيف عن تمليك النساء على نفسه . وسئل بعض الحكماء عن النساء فقال : هن فخ منصوب فليس يقع فيه إلا من اغتر به .

(١) عزاه الحافظ العجلوني إلى الديلمي عن أنس ، وقال : وفيه متروك . انظر كشف الخفاء (٢/٢١٥ ح ٢٩/٢) و انظر : تنزيه الشريعة للكناني (٢/٢٠٤ ح ٢٢) .

وقال أحد الحكماء لتلميذ له رآه ينظر امرأة فقال له : لِمَ نظرت إليها ؟ قال :
 أتأمل حسن الصنعة فيها . فقال له الحكيم : اقلب ظاهر باطنها يتبين لك قبحها . ثم
 قال : إياك يا بني والنساء فإنهنّ مثل شجرة الدَّقْلِي لها رونق وزهر فإذا أكل منها المرء
 اسقمته وقتلته .

وقال إبراهيم بن أدهم - رضي الله عنه - : رأيت امرأة في الطواف ما رأيت
 أحسن منها جمالاً ووقاراً . واهتداءً في ركوعها وسجودها وطوافها ورأيتها تمشي الهويناء
 الخبب إلا سبع وصلت مقام إبراهيم - عليه السلام - فلم أصبر أن قلت لها : إني فيك
 لراغب وإني إليك لمطالب هل لك أن تتزوجيني ؟ قالت : ما حملك على ذلك ؟
 قلت : ما رأيته من أدبك وحسنك وجمالك وحسن طوافك وركوعك فأحببت أن
 أتزوجك لتعينيني على العبادة . قالت : يا إبراهيم أنت صادق في دعوى المحبة كما
 تزعم ؟ قلت : بلى . قالت : إن أختي أكثر مني جمالاً وزهداً وورعاً وما أنظرت نهاراً
 قط . قلت : وأين هي ؟ قالت : في مقام إبراهيم انظر إليها فالتفت فلم أجد أحداً
 ورجعت أطلبها فإذا هي على بُعد منّي فقالت لي : يا كذاب لو كنت صادقاً في محبتك
 ما التفت إلى غير محبوبك فالصادق لا يشغله عن سكن قلبه أحد . وأنشدت :

قالت نظرت إلى غيبري فقلت لها مقال مقتسم بالله مجتهدا
 ما أضمر القلب شيئاً تجزعين له ولا مددت إليه الطرف مُعتمدا
 عيني كرهت فما عندي مخالفة فهناك عيني حتى لا أرى أحدا

وحكي أن الحجاج قدم على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة فوجده قد أصيب
 بابن له وهو في المقابر فصار إليه وسلم عليه ثم عدل إلى قبر عبد الملك فصلى عنده
 ركعتين فركب الوليد ومشى الحجاج بين يديه فقال له الوليد : أركب يا أبا محمد . قال
 له الحجاج : دعني أستكثر من الجهاد بين يديك يا أمير المؤمنين فإن ابن الزبير وابن
 الأشعث طال ما شغلاني عنك فعزّ عليّ فركب ودخل الوليد إلى القصر وتفضل في
 غلالة ثم أذن للحجاج فدخل عليه وهو في درع متكب قوساً عربية فبينما الحجاج يكلمه
 إذ جاءت جارية فسارت الوليد في أذنه وانصرفت ثم عادت وسارت وانصرفت فقال
 الوليد للحجاج : أتدري ما قالت هذه الجارية يا أبا محمد ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين .
 قال : بعثتها أم البنين ابنة عمي عبد العزيز بن مروان فقالت : ما مجالستك هذا

الاعرابي المستسلم في سلاحه وأنت في غلالة فأرسلت إليها إنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك فقالت : والله لأن يخلو بك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج ، وقد قتل الخلق . فقال له الحجاج : يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكحة النساء بزخرف الكلام فإنّ المرأة ريحانة وليست قهرمانة لا تطلعهن على سرّك ولا تطمعن في غير أنفسهنّ ولا تشغلن بأكثر من أنفسهن وإياك ومشاورتهن فإن رأيهنّ إلى غير صواب وعزمهنّ إلى وهن أكفف عليهنّ من أبصار بحجبتك إياهنّ ولا تكن لهن بدووم ولا لمجالستهن بلزوم فإن مجالستهن صغار ولوم ولا تطل الخلوة معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك وأوفق لرأيك . ثم نهض الحجاج ودخل الوليد على ابنة عمه أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج . فقالت له : يا أمير المؤمنين أحبّ أن تأمره غداً بالتسليم عليّ فقال : نعم . فلما غدا الحجاج على الوليد أمره بالتسليم على أم البنين فاستعفاه له فلم يعفه فنهض إليها فحجبتة طويلاً ثم لم تأذن له بالدخول عليها ثم أذنت له بالدخول فتركته قائماً ولم تأذن له بالجلوس ثم قالت له : يا ابن أمّ الحجاج أنت الممتز على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله تعالى علم أنّك أهون خلقه عليه لما ابتلاك برمي الكعبة الحرام وقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد في هجرة الإسلام وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم . وقد كنت المولى غير المستعلي حتى غرثت فلولا أن أمير المؤمنين عبد الملك نادى في أهل الشام وأمدك بهم ويفرسان أهل اليمن وأنت في أضيق من القرن فقوتك رماحهم ونجّاك كفاحهم ولولا ذلك لكنت ضيق الجنان رهن قتلٍ أو أسرٍ ومع هذا فإن نساء أمير المؤمنين نفضن الفطر من غرائهن فبعنه وصدّته في أعطية أوليائه حتى أتاك الله الظفر بعدوك فسكن من هلعك وربط من جاشك وما كان ذلك لولا إقبال الدوّة ونصرة الخلافة فلله حمد ذلك وشكره لا لك .

وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من ترك لذته والاستمتاع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت عنه أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك و إن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فغير قابل لقولك ولا مُصغٍ لمشورتك لمكانه خلافة الله وقوابته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم رحم الله حطان حيث يقول حين نظر إلى سنان غزاة الحروية بين كتفيك :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة كدخاء تنفرُ من صفيير الصافرِ
هلا برزت إلى غزالة في الوغا بل كان قلبك في جناحي طائرِ
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت منابر كأمس الدابرِ

ثم قالت لجواربها : أخرجته عني . فأخرج ومضى مسرعاً إلى الوليد فقال له الوليد : ماذا كنت فيه يا أبا محمد ؟ قال : والله ما سكنت أم البنين حتى كان بطن الارض أحبّ إليّ من ظهرها . فضحك ثم قال : إنها ابنة عبد العزيز .

أعادنا الله وإياكم من الاشتغال بالنساء وبما يعدنا منه ويحجبنا عنه بمنه وفضله .

٥٦ - باب صحبة الجاهل

اعلم وفقلك الله أن صحبة الجاهل تردي في العاجل والآجل .

قال الله عز وجل : ﴿ وقبضنا لهم قرناء فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ [فصلت : ٢٥] فإن صحبته وإن كنت عالماً لم ينفعك علمك ، وجرك إلى طبعه إذ الطبع يسرق من الطبع ، والمتابعة بالأفعال أكثر من المتابعة بالأقوال ، ويعينه عليك إبليس والشهوات والنفس الامارة بالسوء .

ولذلك سمّاه عليّ - رضوان الله عليه - حُمقاً بقوله لابنه الحسن - عليهما السلام - : يا بني اعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الأحمق شؤم ، ومن خير حظّ قرين خبير ، وقطيعة العاقل تعدّ صلة الجاهل ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه .

وأنشد في ذلك لنفسه - رضي الله عنه - :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حليماً حين وإخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
والشياء على الشيء علامات وأشباه
وللقب على القلب دليل حين يلقاه

فالجاهل هو الاحمق بالحقيقة لقلّة معرفته بالادوية النافعة للسموم القاتلة ، وقلة
 تحرزه من السهام النافذة ، فهو صريع الشهوات وقتيل ، وصحبة الاحمق إلى العداوة
 والقطيعة يرجع آخرها وهو بحمقه سيء الخلق لا يميز الغث من السمين في أحواله ،
 ولا يملك نفسه عند الغضب والشهوة وهو في أكثر أحواله كثير الرغبة في الدنيا والحرص
 عليها ، وقد جمع ذلك علقمة القطاري في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة فقال له :
 يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإذا صحبته زانك ،
 وإذا بعدت بك مؤنة أعانك ، وإذا مددت يدك بخير مداها ، وإذا رأى منك حسنة عدّها
 وإذا رأى منك سيئة سرها . يا بني اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولت أمراً
 أمرك ، وإن تنازعتما ترك . قال علي - رضي الله عنه - :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
 ومن إذا ريب زمان صدّك شتت فيك شمله ليجمعك

وقال الاسكندر - رضي الله عنه - : إن محادثتك لمن لا يعقل بمنزلة من يضع
 الموائد لاهل القبور . ومحادثتك من لا يعقل بمنزلة سحن يبلّ شجرة يابسة لا تبتلّ ،
 ونقل الصخر من الجبال أيسر من محادثتك من لا يعقل .

واعلم أنّ العدو العاقل خير من الصديق الاحمق . ولا خير في صحبة الجاهل
 فإنها ضرر كلّها لأنه إذا أراد أن ينفعك ضرّك وهو لا يعلم ومثال ذلك ما ذكر عن رجل
 صياد للنحل كان يطلب العسل في الغيران والشعاري فيطول مكثه في الجبال فأنس به
 دُبّ فجعل كل واحد منهما يأنس بصاحبه فأقاما على ذلك دهرًا فلما كان يوماً نام الرجل
 في القائلة فاجتمع على وجهه مرة بعد مرة فكلما أطار منهم عنه عاد إليه فلم يزل كذلك
 يطردهم ويعودون حتى حنق فلما أعياه أمرهم قال : في نفسه هذا الذباب يؤذي صاحبي
 ولا أقدر على طردهم عنه فوالله لاقتلته كله . فتركه حتى استجمع على وجه الرجل
 فقام وأخذ صخرة كبيرة فوازن بها وجه الرجل ليقتل بها ما تجمع على وجهه من الذباب
 وقال : أصبه عليه فيموت بأجمعه وأريحه منه ثم صبّ الصخرة على وجهه فطار الذباب
 جميعه يمينًا وشمالاً ووقعت الصخرة على وجهه فخرج دماغه على أنفه وأذنيه فمات
 الرجل ولم يصب الذباب شيئًا فكذلك الجاهل إذا أراد أن نفعك ضرّك بجعله وهو يظنّ
 أنه قد نفعك .

٥٤١ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الوحدة خير من المجلس السوء
والجلس الصالح خير من الوحدة» (١) .

٥٤٢ - وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه - : سمعت رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : « المجلس الصالح كمثل العطار إن لم يصبك من عطره أصابك من ريحه ،
ومثل المجلس السوء كمثل الحدّاد إن لم يصبك بشره أصابك دخانه » (٢) .

وقال أحد الحكماء : من لم يعرف الخير من الشر فألحقه بالبهائم .

وقال أيضاً : لا تخاطب الجهال فإنهم لا يستحيون من دناءة ولا يراقبون محرماً .

وقال آخر : معادة العاقل خير من مصادقة الأحمق . وقال آخر : الجاهل عدو
لنفسه فكيف يكون صديقاً لغيره . وقال آخر : ضيغ من استودع الأحمق .

وقال آخر : معادة الحليم أقل ضرراً عليك من مودة الجاهل .

وقال آخر : ما داويت الأحمق بمثل إعراضك عنه .

جعلنا الله وإياكم ممن شرفه قرينه ، وواصل في الله من يزيه ، وباعد من يشغله

عن الله ويشينه بمنه وفضله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً .

٥٧ - باب المراءِ والجِدالِ

وهو يجمع باين . اعلم وفقنا الله وإياك أن المراءِ والجِدالِ يورثا العداوة
والضغائن ، ويبعث على كشف العورات والحمية ، وطلب الغلبة محققاً كان أو مبطلاً ،
وذلك كله ضارّ بالدين ، وفرار من الحق ، ومجلة للغضب والحقد وسوء الخلق .

قال الله عز وجل : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين

ظلموا منهم ﴾ {العنكبوت: ٤٦} وقال تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ ولا

تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ {النساء: ١٠٧} .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/٣٤٣) ، والسخاوي : المقاصد الحسنة (ح ١٢٦١) وعزاه الحافظ العجلوني -

أيضاً - إلى الديلمي وأبو الشيخ والعسكري . انظر : كشف الخفاء (٢/٤٤٥ ح ٢٨٩٣) .

(٢) أخرجه أحمد : المسند (٤/٤٩٩ ح ١٩٦٨٢) .

وقال سبحانه : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ [البقرة : ٢٠٤] وقال عز من قائل : ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ [الملك : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا رن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الانعام : ٢٥] وقال عز وجل : ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ [الانفال : ٦]

٥٤٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من ترك المراء والجدال وهو محقٌ بُني له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في أعلى الجنة » (١)

٥٤٤ - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : « لا يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وهو محق » (٢) .

٥٤٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المراء في القرآن كفر » (٣) .

٥٤٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تُمارِ أخاك ولا تمازحه » (٤) .

وقال أحد الحكماء : المراء والجدال سببان لكشف الغطاء وقطع الإخاء .

وقال لقمان - رحمه الله - : المراء مفتاح اللجاج ، واللجاج مفتاح الإثم ، وحدُّ المراء هو الاعتراض على كلام الغير لإظهار خلل فيه ، وسببه زيادة الترفع بإظهار الفضل عصمنا الله وإياكم من المراء والجدال بمنه وكرمه . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(١) أخرجه الترمذي : البر والصلة (٤/٣٥٨ ح ١٩٩٣) وقال : حديث حسن . وابن ماجه : المقدمة (١/١٩) - ٢٠ ح ٥١) . ولفظهما : « من ترك الكذب وهو باطل بني له في ريش الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها » .

(٢) ذكره الزبيدي في « إتحاق السادة » (٧/٤٧٠) .

(٣) أخرجه أبو داود : السنة (٤/١٩٩ ح ٤٦٠٣) ، وأحمد : المسند (٢/٤٠١ ح ٨٠٠٩) .

(٤) أخرجه الترمذي : البر والصلة (٤/٣٥٩ ح ١٩٩٥) ، وقال : هنا حديث حسن غريب .

وأيرو نعيم في الخلية (٣/٣٤٤) .

٥٨ - باب فضل العلم ومقت من يطلبه للدنيا

اعلم وفقنا الله وإياك أن طلب العلم للدنيا يوجب المقت من الله تعالى والبعد منه ، ويوجب إبطال العمل ، والحجة عليه أبلغ والعقاب إليه أسرع ، والمعرفة والقرب وثمرة هذا الحجاب والقرب . واعلم أن العلم كثير والعمر قصير ، فاطلب منه ما وصلك قليله لكثيره ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى ، ومعرفة جلاله وعظمته وصفاته وأسمائه ، والتوسل إلى الارتقاء إليه ، فلو كشفت سرًا من هذا الضرب لأضاء لك ما بين يديك مسيرة ألف سنة مثلاً ، فأدرت من عامك أملك ، ثم كلما استزدت الله زادك من العلم إنما ترى منه إذا استوقدته ما حولك وما قرب منك كضوء السراج .

وأنشدوا في المعنى :

ما بال نفسك صدت عن نفائسها	وسرّ قلبك مغلوب عن الحكم
منك اعتراك الذي أعراك من حلال	من التقى فشربت الروح بالألم
مهلاً على النفس إن النفس جوهرة	جاءت من العلوكي ندنو إلى العلم
معالم الحق قد دانت لذي نظر	ومنهج الحق أضحي غير مكتتم
من خصه الله بالتقوى وكحلّه	فالعلم يتاح ما قد كان منه عم

فاطلب وأبشر وأعظم بذلك قدرًا ورفعة لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - :

٥٤٧ - « لمداد جرت به أقلام العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء » .

٥٤٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « نومة على علم خير من صلاة على جهل »^(١) .

فيدل على أن عبادة الجاهل بالظاهر دون الباطن ، وعبادة العالم إذا وفقه الله تعالى بالظاهر والباطن .

٥٤٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « يسير الفقه خير من كثير العبادة »^(٢) .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٨٥/٤) . انظر : كشف الخفاء للمجلوني (٤٣٨/٢) ح (٢٨٦٧) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥/١ - ١٣٦ ح ٢٨٦) ، وقال الحافظ الهيثمي في المجموع (١/١٢٥) : وفيه

خارجة بن مصعب وهو ضعيف جدًا . وانظر : الدرر المشور للسيوطي (١/٣٥٠) .

٥٥٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يستغفر للعالم أربعة أشياء : الملائكة في السماء ، والحيتان في الماء ، والطير في الهواء ، والهوام في الأرض » (١) .

٥٥١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو أن رجلاً أتاه الله علمًا فأخذ عليه طمعًا فاشترى به ثمنًا قليلاً فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار على رؤوس الخلائق فيعذب حتى يفرغ الله تعالى من الحساب » (٢) .

٥٥٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم . فإن عملاً يغير علم يفسد منه أكثر مما يصلح » .

٥٥٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » (٣) .

٥٥٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من تعلم علمًا ولم يزداد هدى لم يزداد من الله إلا بعدًا » .

٥٥٥ - وفي الخبر أنه قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الناس أشد ؟ فقال : « اللهم عفوًا . إسألوني عن الخير ولا تسألوني عن الشر . شر الناس شرار العلماء » (٤) .

(١) عن أبي الدرداء بلفظ : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ... وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، ... » أخرجه أبو داود : العلم (٣/٣١٦ ح ٣٦٤١) . والترمذي : العلم (٥/٤٨ ح ٢٦٨٢) وابن ماجه : المقدمة (١/٨١ ح ٢٢٣) .

(٢) عزاه الحافظ الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ... ورجل أتاه الله علمًا فيخل به عن عباد الله وأخذ عليه طمعًا واشترى به ثمنًا فذلك يلجم يوم القيام بلجام من نار » وقال : وفيه عبد الله بن خراش ضعفه البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم وابن عدي ، ووثقه ابن حبان . أنظر : مجمع الزوائد (١/١٢٩) .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (١/١٨٢ - ١٨٣) . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (١/١٩٠) : وفيه عثمان البري . قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني .

(٤) أخرجه الدارمي : المقدمة (١/١١٦ ح ٣٧٠) وقال : سنده واه ، فإن الأحوص ومن دونه إلى الدارمي كلهم ضعفاء ، ثم هو على ذلك مرسل ، لأن الحكيم - وهو ابن عمير - تابعي روى عن عمر وغيره .

٥٥٦ - وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع . اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع » (١) .

٥٥٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من طلب علماً مما يتنقى به وجه الله تعالى فابتغى عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يعني ربحها » (٢) .

٥٥٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي أو قتل أحد والديه والمصورون وعالم لم يتنفع بعلمه » .

٥٥٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من يوم يطلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان متجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلاق لا يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، ويقول الآخر : وباليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا بما عملوا » (٣) .

٥٦٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « العلماء ورثة الأنبياء » (٤) .

فمن كان راهداً في الدنيا راغباً في الآخرة مؤثراً لمحبة الله تعالى على هوى نفسه باذلاً نفسه ، وما ملك لربه لا يضر به ولا يبخل به عليه فهو من ورثة الأنبياء .

ومن كان على غير هذه الصفة من العلماء ولم يكن عالماً بالله ، ولا حصل في عزيز ورثة الأنبياء وكان كقاطع طريق إذ جعل علمه سلاحاً لجمع حطام الدنيا .

وأنشدوا :

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٥٢ - ٥٣ ح ١١٠٢٠) . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (١٠/١٤٦) : وفيه يونس بن خباب وهو ضعيف .

(٢) أخرجه أبو داود : العلم (٣/٣٢١ ح ٣٦٦٤) . وابن ماجه : المقدمة (١/٩٢ - ٩٣ ح ٢٥٢) . وأحمد : المسند (٢/٤٥٠ ح ٨٤٧٨) .

(٣) ذكره الزبيدي في « الإتحاف » (٨/٦١٢) .

(٤) تقدم تخريجه .

فوت الإله هي الخسارة كلها
 فإن العليم بربه ففؤاده
 فتحت له آي الوجود فأبصرت
 فطعامه نمر المعارف يجتنى
 فاضت على النفس النفيسة ديمة
 فالنفس تشرب وهي تسقي غيرها
 فتبردت من حرّ ما قد جاوزت
 وعدت كمثل الشمس يسطع نورها
 فهي الرئيسة تحتها أعوانها

والقرب منه أجل ما يتعرف
 علم له في كل علم موقوف
 عين الفؤاد سريرة لا تكشف
 منها الذي يهوى الفؤاد ويقطف
 من منبع العين الذي لا ينزف
 من فضل ما شربت فكل ترشف
 وعلت على شرف الحقائق تشرف
 وجنودها شهب فليست تكسف
 وبها المعارف والحقائق تعرف

وقال الجنيد - رحمه الله - : العلم صاحب صاحبه ما عمل به فإذا تركه صار عليه نقمة ووبالاً .

وقال معاذ - رضي الله عنه - : تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عليه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قريبة لأن العلم منار سبيل أهل الجنة وهو المؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء والزين عند الإخلاء ، والسلاح على الأعداء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة ، تقتص آثارهم ، وتمثل أقوالهم ، وترغب الملائكة في خلّتهم وباجنحتها تمنحهم ، يصلي عليهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوام الأرض وسباع البر والأنعام لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصباح الإبصار من الظلمة ، وقوة في الأبدان من الضعف ، وبه يبلغ العبد منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، والتفكر فيه يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، يعلمه الله تعالى السعداء ويحرمه الأشقياء . وأنشدوا :

سلام على صحب ابيضت عليهم
 سبوا مالهم إلا العلوم ركائب
 سموا للمعالي حالة بعد حالة
 سعوا في طلاب السعد حتى تبؤوا

سحائب علم السر حتى تقدسوا
 فبالعلم في جنح الظلام تأنسوا
 فردوا بإيراد العلوم وألبسوا
 محلة أنوار العلوم فأقبسوا

سقوا من شراب العلم كأساً لذيذاً فليس لهم إلا الحقائق مؤنسٌ
سراويلهم مصقولة بعلومهم وكل فؤاد ما أسر سيلتبسٌ
سجايهم محفوظة عن دخيلة ومن يوف سوء النفس فهو مقدسٌ
سحائب رحم الله فاضت عليهم ومن يقتبس من نوره سوف يقبسٌ
سنيح لهم من طار فما مؤتلا وكان له في اللوح رسم مؤسسٌ

فأعرفوا قدر العلم وفضل من تعلمه ليصلح به نفسه فلا تسبوا ولا تكرهوا من
أحبه الله ورسوله وجميع المخلوقات وفضله على جميع الخلق سوى الأنبياء .

٥٦١ - كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فضل العالم على العابد
كفضل القمر على سائر الكواكب » (١) .

وقال أحد الحكماء : العالم طيب الدين ، والمال داء الدين . فإذا رأيت الطبيب
يجر الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره . وقال آخر : أولى الأشياء بالرفعة والتكرمة
والقبول علم استجمع فيه حظ الدنيا والآخرة . وقال آخر : الأدب والعلم صورة العقل
فحسن عقلك كيف شئت . وقال آخر : الجاهل صغير وإن كان كبيراً ، والعالم كبير
وإن كان صغيراً . وقال آخر : من خانة الكلام أجاره الصمت .

وقال آخر : أدب المرء قرين عقله وشفيع له إلى الناس . وقال أيضاً : ما مات
من أحياء علماء ولا افتقر من ملك فهماً . وقال أيضاً : العلماء غرباء لكثرة الجهال فيهم .

وقال أيضاً : الفقر من الإخوان الجهل في اللسان . وقال أيضاً : ينبغي أن يكون
أشد الناس تواضعاً أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً .

وقال آخر : العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه
لم يكن عالماً . وقال أيضاً : كما لا ينبت المطر الشديد الصخر كذلك لا يتفجع البليد
بكثرة التعليم . وقال آخر : الصمت أول العلم ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل .

وقال آخر : إن أحسن العلماء أدباً من لم يفقه إلا بعد التهذيب ، وأحكم الغافلين
قولاً من لم يطلقه إلا بعد التروية . وما أحد أحوج إلى الإناء من العالم . وقيل :
آخر درجة الأنبياء في الجنة أول درجة العلماء ليس بينه وبينها سترة ، والجاهل على

(١) تقدم تخريجه . انظر الحديث السابق .

عبادته واجتهاده ينظر إلى العالم وبينه وبينه مائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض ، فأعظم بذلك فضلاً . وقيل : كتب وهب بن منبه إلى مكحول - رحمه الله عليهما - أما بعد فإنه بلغني أنك أصبت بما ظهر لك من علم الإسلام محبة عند الناس فابتغ بما بطن من علم الإسلام محبة عند الله وزلفى واعلم أنه أحد المترئين ستمنعك الأخرى فإن فعلت ذلك فقد ظلمت نفسك ، وسعيت في هدم دينك وإهلاك نفسك ، وبيع آخرتك بدنياك فلو حكم عليك أعدى عدو لك ما بلغ منك من الضرر أكثر مما بلغته من نسك وإنما لك من علمك ما عملت به وعليك ما ضيعت منه والسلام .

فطلب العلم للمباهاة والمنافسة والتقدم على الاقران واستمالة وجوه الناس حرام قطعاً فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة وويل للعالم حيث لم يعمل بما علمه ألف مرة لأن حجة الله تعالى عليه أظهر . واعلم أن الله سبحانه أجل الأشياء فالعلم به أجل العلوم ، والعلم لا يهدم محله الموت أصلاً وبه تنال الرفعة والكرامة في الدنيا والآخرة فخير العلم ما زهدك في الدنيا ورغبك في الآخرة ، فإياك أن تطلب العلم لتباهي به العلماء وتماري به السفهاء وتاكل به الأغنياء وتستخدم به الفقراء فتفخر بنفسك حيث تُريها أنك تزيدها رفعة وسعادة وترقياً وأنت ترمي بها سفلأ إلى أسفل السافلين . فإن طلبته لتعرف به نفسك وريك وتعرف بها كيف تتحذر من مكائد الشيطان وشهوات نفسك وتعرفها قدرها من العبودية وافتقارها إلى بارئها فقد تجرت وريحت ريحاً لا نفاذ له ولا انقطاع . وأنشدوا في مثل ذلك :

علم ابن آدم يعليه لعالمه	والعلم ألمج ما يبغني وينتجع
عود فؤادك كسب العلم فهو سنا	إن حل في النفس لم يبقي بها طمع
عل الإله يعمل النفس من ظماء	فتدرك العلم في الدنيا وتطلع
على الحقائق حتى لا تكدرها	من الخيال ولا الأوهام متبع
عمى الجهالة أرجى من عمى زمير	توهموا العلم ما حازوا وما جمع
علاهم الكبر فاغثروا بعلمهم	وكل من علم الرحمان متضع
عنك المخايل لا تصغي لباطلها	فالعالم المحض من يقتاده الورع
عرفان ربك نور تستضيء به	على الصراط وحبل ليس ينقطع
عراه موثوقة ترقى بها صعداً	وكل مستمسك بالعلم مرتفع
عز لطالبه حرز لكاسبه	بالعلم في كلتي الدارين يتسفع

جعلنا الله وإياكم ممن تعلمه خالصاً وعمل به وجهل تعلمه خالصاً لوجهه بمنه
وفضله . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليمًا .

٥٩ - باب ترك حضور مجالس العلماء

اعلم وفقنا الله وإياكم أنه ما من شيء أغيظ للشيطان من مجالس العلماء والذكر
وإن له تمزناً عظيماً عند ذلك فأهم أموره تفريقهم بأن يرسل إليهم من أنجاد جنده من
يشغلهم عن الذكر بأن يوقع بينهم المراء والجدال .

٥٦٢ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الشيطان يقصد أهل الذكر يقرأ
عليهم النسيمة حتى يفرق بينهم » .

فاحذر الشيطان ، واستعد بالله منه واستعن بالله عليه .

قال يحيى بن معاذ - رحمه الله - : الشيطان فارغ وأنت مشغول ، والشيطان
يراك وأنت لا تراه ، وأنت تنساه وهو لا ينسأك ، ومن نفسك للشيطان عون عليك .
وغائلتها أشد عليك من غائلة الشيطان فاحذرهما . قال القائل :

توق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطان

فالسعادة كلها في حضور مجالس العلماء واستماع الذكر والاعتناء بهم في جميع
أفعالهم لأن العلم أشرف شيء . وقد ندب الله تعالى في كتابه العزيز إلى تعلم العلم
لشرفه ورفعته ، ولم يأمر نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - أن يسئل الزيادة من
شيء إلا من العلم فقال سبحانه ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾ [طه : ١١٤] وكذلك قرن تعالى
بين اللوح المحفوظ وبين صدور العلماء . فقال تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح
محفوظ ﴾ [البروج : ٢٢] وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾
[العنكبوت : ٤٩] وقال سبحانه ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾
[العنكبوت : ٤٣] ، والعلماء هم العارفون بالله تعالى والخائفون له كما قال سبحانه
: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز
الحكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] وناهيك بذلك فضلاً وشرقاً أن جمعهم مع نفسه وملائكته في
كلمة واحدة . وكذلك في قوله سبحانه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : ٢٨]

فقد مدحهم بخشيتهم له وخوفهم منه ، وإنما تصدر الخشية والخوف من المعرفة قال الله عز وجل : ﴿ قد كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

فالعارفون هم المقصودون المشار إليهم بهذه الرفعة . وأنشدوا في ذلك :

شميرٍ بعزم النهي عن ساعدك إلى	دار السعادة حيث السعد مفروش
شفاء نفسك بالعلم النفيس بأن	سقطت أنت بنور العلم منقوش
شرايه بنشر الأموات من حدث	لله قلب بنور العلم مرشوش
شرفت بالعلم إنما بعث حاكمه	بالعقل لوح بنور الحق منقوش
شممت زهره دنيا لا بقاء لها	وحسنها الزاهر الوضاح مغشوش
شحطت عن منزل سام خصصت به	وفيه بيتك بالأنوار مفروش
شم الجبال ستهوى وهي عائدة	كأنها العهن منكوث ومنقوش
شهب السماء ستهوي والإله غدا	يقول المرسل هذا الخلق لي حوش
شاب القذال فبادر للمتاب فكم	تصبوا رأسك منه اليوم مبروش

٥٦٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « العلماء ورثة الأنبياء » (١) .

٥٦٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » (٢) .

فدل على أنه لا يورث عن الأنبياء دينار ولا درهم وإنما يورث عنهم العلم الذي هو أفضل شيء وبه يعلم الفرق بين الصانع والمصنوع ، وبه يعرف الفرق بين الحلال والحرام ، والفرق بين العبودية والربوبية ، وبه يتوصل إلى كل فضيلة في الدنيا والآخرة والعلماء هم الذين لهم رتبة الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام من قبل من له الشفاعة من غيرهم .

٥٦٥ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ويل لمن تعلم ولا يعمل وويل لمن لا يعلم ولا يتعلم مرتين ولو شاء الله لعلمه » (٣) .

(١) تقيم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري : فضائل الصحابة (٧/٩٧ ح ٣٧١٢) . ومسلم : الجهاد (٣/١٣٧٩ ح ١٧٥٨/٥١) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/١١١) وقال : غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا من هذا الوجه ،

وقيس هو ابن الربيع ، وأبو أحمد هو الزبيدي . أنظر : كشف الخفاء للعجلوني (٢/٤٥٣ ح ٢٩٢٢) .

٥٦٦ - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً يفتهه في الدين »^(١)

٥٦٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن أنفق الفضل من مال اكتسبه من غير معصية ، وطوبى لمن خالط أهل الفقه والحكمة ، وطوبى لمن جانب أهل النار والمعصية ، وطوبى لمن وسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة »^(٢) .

٥٦٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيه » قيل : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر »^(٣) .

٥٦٩ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن لله ملائكة فضلاء يتفنون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر جلسوا معهم حتى يملئوا ما بين السماء الدنيا فلا يزالون جلوساً معهم حتى يتفرقوا فإذا تفرقوا عرجوا إلى السماء فيستلهم الله تعالى وهو أعلم فيقول : من أين جئتم ؟ فيقولون : أتيناك من عبادك في الأرض يحمدونك ويهللونك ويكبرونك ويسبحونك ويسألونك قال : وما يسألوني ؟ قالوا : يسألونك جتك . فيقول : وهل رأوا جتي ؟ فيقولون : لا أي رب . فيقول : كيف لو رأوا جتي ؟ قالوا : ويستجيرونك . قال : ومم يستجيرونني ؟ قال : فيقولون من نارك . قال : فيقول : وهل رأوا ناري ؟ قال : فيقولون : لا أي رب . فيقول : فكيف لو رأوا ناري . قال : قالوا : ويستغفرونك . فيقول : قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم ما استجاروا فيقولون : فيهم فلان عبدك الخطاء إنما مرر ففعد . فيقول : وله قد غفرت . هم القوم الذي لا يشقى بهم جليسه »^(٤) .

(١) أخرجه البخاري : الخمس (٦/ ٢٥٠ ح ٣١١٦) . ومسلم : الإمارة (٣/ ١٥٢٤ ح ١٧٥ / ١٠٣٧) بلفظ :

« من يرد الله به خيراً يفتهه في الدين » .

(٢) عزاه الحافظ العجلوني إلى الدلمي عن أنس مرفوعاً وأيضاً البزار بإسناد حسن . انظر : كشف الخفاء

(٢/ ٥٩ - ٦٠ ح ١٦٧٣) . وانظر : المقاصد الحسنة للسخاوي (ح ٦٦٣) .

(٣) أخرجه الترمذي : الدعوات (٥/ ٥٣٢ ح ٣٥١٠) ، وقال : هذا حديث حسن غريب . وأحمد : المسند

(٣/ ١٨٥ ح ١٢٥٣١) .

(٤) أخرجه مسلم : الذكر (٤/ ٢٠٦٩ ح ٢٦٨٩) . وأحمد : المسند (٢/ ٥٠٦ ح ٨٩٩٥) .

وقال الله تعالى لموسى - عليه السلام - : يا موسى ألحبت أن يستغفر لك ملائكة السماء والطيور والحجر والشجر وقطر المطر والأمواج والحيتان ؟ قال : نعم . قال : فعليك بطلب العلم ومجالسة العلماء فإن رحمتي لا تفارقهم . يا موسى اطلب العلم ولو من عند أهل الكفر . فإني جعلت الخير كله في العلم كما جعلت الشر كله في الجهل .

وقال لقمان - رحمه الله - لابنه : يا بني جالس أهل الخير والذكر فإنهم إن نزلت عليهم رحمة أو رزق شاركتهم فيه ولا تجالس قوماً لا يذكرون الله فإنك إن نزلت عليهم سخطة أو عذاب شاركتهم فيه . والحكمة في ذلك أن الخليل عليه السلام لما قرب من النار نالت النار النداء من الله - عز وجل - بغير واسطة لبركة قربه منها وذلك قوله تعالى : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ {الأنبياء: ٦٩}

وكذلك العبد إذا قرب من أولياء الله تعالى فمن بركة مجاورتهم ينال الثناء العظيم في الدنيا والخير في العقبى وأولياء الله هم الذين يتجالسون في الله ويتزاورون في الله وهم المجالسون في الله .

٥٧٠ - قال الله عز وجل : « أنا جليس من ذكرني فالرحمة تشملهم في كل فمن جالسهم كان شريكهم في الرحمة » (١) .

فمن كان الله جليسه فالرحمة قريب منه انظر كيف يكون محله عند الله تعالى وما يجد من الكرامة والرفعة واللذة والنور في الدنيا والآخرة .

٥٧١ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « زيارتكم المريض كفارة واختلافكم إلى مجالس العلماء كفارة ، وخروجكم إلى المساجد كفارة وزيارتكم إلى إخوانكم في الله كفارة ، وإحسانكم إلى أهليكم كفارة ، والنظر إلى المصحف عبادة ، والنظر إلى وجه العالم كفارة ، والجلوس في المساجد عبادة ، وطلب العلم عبادة ، والصلاة على موتى المسلمين كفارة ، وغسل موتاهم كفارة ، وحفر قبورهم كفارة » .

(١) قال الحافظ العجلوني : رواه الديلمي بلا سند عن عائشة مرفوعاً ، وعند البيهقي في الشعب عن أبي بن كعب ، ونحوه عند أبي الشيخ في الثواب عن كعب ، والبيهقي - أيضاً - في موضع آخر ، وأبو الشيخ محمد بن نصر الحارثي . واللفظ عندهم : « أنا جليس من ذكرني » انظر : كشف الخفاء (١/٢٣٢ ح ٦١١) وانظر : المقاصد الحسنة للسخاوي (ح ١٨٦) .

فإياك أن تمل من الخير وأهله ولا تتباعد عنهم فإنهم خير لك من سواهم . ومل
الجهال واهجرهم وتباعد عنهم فإنهم لا ينجو من جاورهم إلا من عصم الله وإن أردت
لحوقاً بالصلحين فعليك بالإقتداء بهم ولا تعبرن فإن الله تعالى لا ينزل مع الصالحين إلا
الصلحين ، فأعرف قدر العلماء والعلم ولا تهمل أمرهم ولا تشتغل عن العلم بما يفارقك
قبل الموت فكل شيء يفارقك بالموت إلا العلم والعمل فإن الموت لا يهدم محل العلم
والعمل أصلاً فاجتهد في طلبه لتبلغ به المنزلة العليا في الدنيا والآخرة ، ولا تطلبه
ليعرف به مآئك ويشار إليك ويوسع إليك في المجالس وأن تتوصل به إلى السلطان
ومال الأقارب ومال اليتيم فيكون عليك حيثنذ حجة ووبالاً يوم القيامة ويقال لك :
استوفيت حظك في الدنيا موفوراً فتخسر هنالك خسراً ميبئاً وإنما لك من علمك وما
عملت به وعليك ما ضيعت منه فقليل العلم مع الورع خير من كثير العبادة مع الجهل .

كما قال علي - عليه السلام - قيمة كل امرئ ما يحسن ألا ترى إلى يوسف - عليه
السلام - كيف لم يتفعه جمال صورته الظاهرة وكان قيمة ذلك إذ كان عبداً مملوكاً
محكوماً عليه ثم غضب عليه ثم سجن مدة فوصل بجماله إلى السجن والذل والهلاك
فلما ظهر جمال صورته الباطنة بالعلم والحكمة . قال له الملك : حين مثل بين يديه إنك
اليوم لدينا مكين أمين فقال له عند ذلك : (أجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليهم)
ولم يقل إني حسن جميل لعلمه بأن السؤدد والرفعة في الدنيا والآخرة لا تنال إلا
بجمال الباطن بالعلم بالله والله وفي الله فلما ظهر عليه جمال الباطن وصل به إلى الرفعة
والسؤدد والملك وثمره ذلك التواضع والله غالب على أمره . وقيل عند الامتحان يعز
المراء أو يهان . وقيل : الرجل بلا علم كالشجرة العاقر التي لا تلد .

واعلم أن العلم أربعة أنواع : علم له أصل وفرع ، و علم له أصل بلا فرع ،
وعلم له فرع بلا أصل ، وعلم لا أصل ولا فرع . فالعلم الذي له أصل وفرع فعلم
الشريعة ، والذي له أصل بلا فرع فعلم النجوم ، والذي له فرع وليس له أصل فعلم
الطب ، والذي ليس له أصل ولا فرع فعلم الجدل والكلام .

وقال بعض الحكماء : من يجرب يزداد علماً ومن يؤمن يزداد يقيناً ومن يستيقن
يعمل جاهداً ومن يحرص على العمل يزداد قوة ، ومن يكسل يزداد فترة ، ومن يتردد
يزداد شكاً .

وحكي عن مسروق بن محمد - رحمه الله - وكان من العارفين بالله والخائفين منه أنه سمع رجلاً من خثعم يقرأ : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ [مريم : ٨٦] فاضطرب لذلك اضطراباً شديداً ثم قال : أعد علي فإني أراني من المجرمين ولست من المتقين فأعادها عليه فشقق مسروق شهقة لحق منها بالآخرة رحمه الله وأرضاه . وأنشدوا في المعنى :

سميت نفسك بالكلام عليماً ولقد أراك على القبيح مقيماً
ولقد أراك من الغواية مكثراً ولقد أراك من الرشاد عديماً

فانظر أين وصلهم العلم بعبودهم والخوف منه فما أبهجهم وأشد فرحهم وسرورهم عند لقاء معبودهم وهو جل وعلا إكرام من أن يخيف في الآخرة من ذاب جسده وتقطع خياطه خوفاً وحياءً منه بل يتم أمنه ويمن عليه بالفوز الأكبر وهو النظر إلى وجهه الكريم في دار المقام والنعيم لا أحرمتنا الله وإياكم النظر إلى وجهه في دار الفوز والرحمة . وأنشدوا في مثل ذلك :

بوجهك لا تعذبني فإني أفر إليك مما كان مني
يظن الناس بي خبيراً وإني لشمر الناس إن لم تعف عني

جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب .

٦٠ - باب ترك قراءة القرآن والغفلة عنه

فإياك أن تترك قراءة القرآن على كل حال فهو أفضل شفيح وأجل قيل ، وهو للذين آمنوا هدى وشفاء . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى : ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : ٤٢]

وهو غير مخلوق قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والإفراق بالإنتقال إلى القلوب والأوراق فمن تركه رغبة عنه فقد ضل وخسر واستهان بحقه .

قال الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم
القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها
وكذلك اليوم تنسى ﴾ {طه : ١٢٤} وقال عز من قائل : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه
فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً
وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ {الكهف : ٥٧} وقال تعالى : ﴿ ومن يعرض
عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً ﴾ {الجن : ١٧} وقال عز من قائل : ﴿ إذ أخذ الله ميثاق
الذين أتوا الكتاب لتبينته للناس ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً
فبئس ما يشترون ﴾ {آل عمران : ١٨٧} وقال تعالى : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها
هزواً أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما
اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾ {الجاثية : ١٠} وقال سبحانه : ﴿ إن الذين
يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور
ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ {الرعد : ٢٢}

٥٧٢ - وعن ابن عمر قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال
أفضل عند الله ؟ قال : « قراءة القرآن في الصلاة ثم قراءة القرآن في غير الصلاة فإن
الصلاة أفضل الأعمال عند الله وأحبها إليه » .

٥٧٣ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ القرآن وعمل بما فيه شفعه
الله يوم القيامة في سبعين من أهل بيته كلهم ممن استوجبوا النار » ^(١) .

٥٧٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة ريحها
طيب طعمها طيب ، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمريرة طعمها طيب ولا ريح لها ،
والمنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها عَفْصٌ ، والمنافق الذي لا يقرأ
القرآن كالحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » ^(٢) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢/٢٠ ح ١٣٦) بنحوه ولكنه أطول منه . وقال الحافظ الهيثمي : وفيه سويد بن
عبد العزيز وهو متروك وأثنى عليه هشيم خيراً ، وبقية رجاله ثقات . أنظر : مجمع الزوائد (١٦٣/٧) .
(٢) أخرجه البخاري : فضائل القرآن (٧١٨/٨ ح ٥٠٥٩) ، ومسلم : المسافرين (٥٤٩/١ ح ٧٩٧/٢٤٣) .

٥٧٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالخرب من البيوت » (١) .

٥٧٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن لله تعالى غضبًا يقال له الدخان يبعثه تعالى من سمائه إلى أرضه ليصيب به من يشاء من عباده فيسمع قراءة القرآن في المكاتب بسم الله الرحمن الرحيم فينصرف فيرده الله تعالى إلى موضعه » .

ومن فضل بسم الله الرحمن الرحيم ما ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبيائه إنه من لقيني وفي صحيفته بسم الله الرحمن الرحيم سبع مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت على عدد الرمل .

٥٧٧ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - سأل النبي - صلى الله عليه وسلم : عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال : « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها » (٢) .

٥٧٨ - وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت جبال الدنيا حتى كنا نسمع لها دويًا فقالوا : سحر محمد الجبال فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من مؤمن موقن يقرأها إلا سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع قال وسكنت الرياح عند نزولها وماجت البحار ورمت بأمواجها وأصغت البهائم بأذانها ورجمت الشياطين من السماء » (٣) .

٥٧٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خمسة أشياء غريبة في الدنيا : القرآن في جوف من لا يعرف حقه ، ومن كان القرآن في جوفه ولم يعرف حقه حشره الله يوم القيامة أعمى ، ومصحف في بيت مسلم لا يشتغل به يضعه الله تعالى على جسده

(١) أخرجه الترمذي : فضائل القرآن (١٧٧/٥ ح ٢٩١٣) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والدارمي : فضائل القرآن (٥٢١/٢ ح ٣٣٠٦) ، وأحمد : المسند (٢٩٣/١ ح ١٩٥٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٧/٢ ح ٢٣٢٧) والحاكم : في المستدرک (٥٥٢/١) أنظر : الدر المنثور للسيوطي (٨/١) .

(٣) عزاه الحافظ السيوطي إلى أبي نعيم والدلمي عن عائشة - رضي الله عنها قالت : فذكرته . أنظر : الدر المنثور (١٠/١) .

بكل آية سبعين كبة من نار ، ومسجد بين ظهرائي قوم لا يصلون فيه وهم مسلمون فإنهم يحاسبون على الصراط حفاة عراة جياعاً عطاشاً ، ورجل صالح بين ظهرائي قوم لا يعرفون حقه ، فإن كنت تعرف حقه فلا تترك قراءته فإنه مسؤول عنه في تركه وعن سوء أدبك مع رفيقك فكيف مع كلام ربك المفضل عليك بهدأيته لك وتعليمه إياك ، وإياك أن تأتي معصية وأنت تعرفه وتحمله في جوفك .

فقد قيل : إن حامل القرآن إذا عصى انتزع عنه القرآن ، وقال له : يا عدو نفسه لهذا حملتني ؟ وإن كنت لا تحفظه ولك مصحف فلا تترك القراءة فيه فيكون غريباً في منزلك ، وإذا قرأته فتدبر معانيه ، ويظهر عليك قراءته الهيبة والخشوع ، لثلاث تكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : ٢٤]

واعلم أن الله تعالى سمي القرآن بخمسة عشر اسماً من أسمائه فهو تعالى عزيز ، وسماه العزيز ، وهو الحكيم وسماه الحكيم ، وهو العظيم وسماه عظيماً ، وهو المجيد وسماه مجيداً ، وهو الكريم وسماه كريماً ، وهو العلي وسماه علياً ، وهو المهيم وسماه مهيمناً ، وهو الحق وسماه حقاً ، وهو النور وسماه نوراً ، وهو الهادي وسماه هادياً ، وهو المبشر وسماه مبشراً ، وهو الشافي وسماه شافياً ، وقال لنفسه : تبارك وسماه مباركاً ، وهو سبحانه ليس كمثل شيء ، وقال فيه : ﴿ اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : ٨٨] وهو أحسن الخالقين وسماه أحسن الحديث ، فقد سماه بأسماء نفسه التي هي صفات ذاته ، وخصه بهذا الشرف العظيم الذي لم يخص به كتاباً قبله ، ولذلك كان أحسن القصص ، وهذه الأسماء كلها في القرآن ، ولكل كلمة من القرآن ظاهر وباطن ، وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، والحد الحلال والحرام ، والمطلع الوعد والوعيد ، فمن لطفه تعالى بخلقه إيصال معنى كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه بأن درج لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر ، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله تعالى ، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ، ولتلاشى ما بينهما من عظيم سلطانه ، وسبحات أنواره .

واعلم أن أصول ما يعبد به الله - عز وجل - في الظاهر والباطن أحد عشر

سبباً :

أولهن : التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله . ثم اجتناب المحارم ، ثم أخذ القوت من حلّه ، ثم أداء الفرائض ، ثم صدق اللسان ، ثم رد المظالم ، ثم العمل بالسنة في السر والعلانية ، ثم إخلاص النية لله تعالى ، فمن صدق بالقرآن خرج إلى العمل به ونجى من الخلود في النار ، ومن اجتنب المحارم خرج إلى التوبة ، ومن أخذ القوت من حلّه دخل في الورع ، ومن أدى الفرائض صح إسلامه ، ومن صدق لسانه سلم من التبعات ، ومن رد المظالم نجا من القصاص ، ومن عمل بالسنة زكت أعماله ، ومن أخلص عمله لله تعالى قبل منه ، وغفرت ذنوبه ، وإنما يتقبل الله من المتقين .

جعلنا الله وإياكم ممن حفظه وحافظ عليه ، وعماءه ولم يتركه وراء ظهره بمنه وفضله .

٦١ - باب ترك الذكر

اعلم أن ترك الذكر إهمال للأوقات ، وغفلة عن المهم ، وإعراض عن الله تعالى وقد نهاك الله - عز وجل - عن ذلك لقوله سبحانه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الزخرف: ٣٦] ثم نذكرك إلى ذكره بقوله تعالى : ﴿ واذكر ربك كثيراً . وسبح بالعشي والإبكار ﴾ [آل عمران: ٤١] وقال سبحانه ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ [الإنسان: ٢٦] وقال جل ثناؤه : ﴿ واذكروا الله كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ [الأحزاب: ٨٢] . وقال - عز وجل - : ﴿ والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ﴾ [آل عمران: ١٩]

٥٨٠ - وقال جل ثناؤه لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - : « اذكرني على عدد الرطب واليابس ، والحلو والحامض » .

٥٨١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله تعالى : يا ابن آدم اذكرني بعد الصبح ساعة ، وبعد العصر ساعة أكفيك ما بينهما » (١) .

(١) عزاه الحافظ السيوطي إلى الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكره . انظر : الدر المنثور (٥/٢٠٥) .

٥٨٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ، ومن إعطاء المال سحاً » (١) .

٥٨٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ فقال : « ذكر الله عز وجل » (٢) .

٥٨٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياها ولو كانت مثل زبد البحر » (٣) .

٥٨٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من قال حين يصبح وحين يمسي : سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بمثل ما أتى به إلا من قال مثل ما قال أو زاد عليه » (٤) .

٥٨٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما صيد نون في البحر ، ولا طائر في البر إلا بتركه التسبيح » (٥) .

٥٨٧ - والحكمة في إلهام الطير التسبيح ما ورد في الخبر أن ابن سلام - رضي الله عنه - سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - في بعض مسأله التي جاء فيها . فقال له : أخبرني عن طير بيننا وبين سماء الدنيا ، ليس له في السماء ملجأ ، ولا في الأرض سكنى . قال له : « تلك حيات بيض أعرافها كأعراف الخيل ، ذوائبها كذوائب النساء ، أجنحتها

(١) أنظر : تنزيه الشريعة « لابن عراق الكناني » (٢/٣٢٧ ح ٢٨) .

(٢) أخرجه الترمذي : الدعاء (٥/٤٥٩ ح ٣٣٧٧) ، وابن ماجه : الادب (٢/١٢٤٥ ح ٣٧٩٠) ، وأحمد : المسند (٥/٢٣٢ ح ٢١٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري : الدعوات (١١/٢١٠ ح ٦٤٠٥) ومسلم : الذكر والدعاء (٤/٢٠٧١ ح ٢٨/٢٦٩١) .

(٤) أخرجه مسلم : الذكر والدعاء (٤/٢٠٧١ ح ٢٩/٢٦٩٢) والترمذي : الدعوات (٥/٥١٣ ح ٣٤٦٩) .

(٥) عزاه الحافظ السيوطي إلى أبي نعيم في الحلية عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما صيد من طير في السماء ولا سمك في الماء حتى يدع ما افترض الله عليه من التسبيح » أنظر : الدر المنثور (٤/١٨٤) .

كأجنحة الطير ، تبيض أذناها ، وتفرخ على متونها وتخرج في الهوى إلى يوم القيامة ، لها ضجيج بالتسييح ، فإذا سمعتها طير الأرض سبحت ، وإذا غفل عن التسييح من غفل منها سلبت ريشها وأجنحتها وأعرافها ، ورمت بها الريح في البلدان لا تعدوها ، فمن أصابها واستعمل أكلها فقه تسييح الطير ، ولغة الجن والشياطين » .

٥٨٨ - وذكر أن رجلاً جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إني رجل كثرت ذنوبي ، وقلت قوتي ، فما حيلتي ؟ قال : « عليك بصلاة الليل يغفر الله لك الذنوب كلها » . قال : لا أستطيع ذلك . قال : « عليك بزيارة الإخوان في الله يغفر الله لك الذنوب » . قال : لا أستطيع ذلك . قال : « عليك بقراءة القرآن يغفر الله الذنوب » . قال : لا أستطيع على ذلك . قال : « عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم يغفر الله لك الذنوب ، ويدخلك الجنة بغير حساب » . ثم قال : « لا يرفع عمل العبد المؤمن إلى الله تعالى إذا لم يكن فيه استغفار ، والاستغفار في العمل كالعينين في الرأس » .

٥٨٩ - وعن حريث راعي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : أخبرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يخ بخ بخمس ما أثقلهن في الميزان » قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والولد الصالح يتوفى فيحسبه والده » ^(١) .

٥٩٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « قال الله تعالى : من شغله ذكري عن مستلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » ^(٢) .

وقال الله تعالى لموسى - عليه السلام - : يا موسى أتحب أن أكتب لك مثل ثواب المصلين بالليل وأنت نائم ؟ قال : نعم . قال : تصبح وتمسي ولسانك رطب من ذكري ، ولا تغفل عن ذكري ساعة واحدة .

(١) أخرجه أحمد : المسند (٣/٥٤١ ح ١٥٦٦٨) .

(٢) أخرجه الترمذي : فضائل القرآن (٥/١٨٤ ح ٢٩٢٦) . وقال : هذا حديث حسن غريب . انظر : الترغيب والترهيب للمتبري (٢/٣٤٥ ح ٦) .

وخطب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : إن ربكم عز وجل يقول :
يا ابن آدم لم تحرض الناس على الخير وتدع ذلك من نفسك ، يا ابن آدم لم تذكر في
الناس وتنساني ، يا ابن آدم لم تدعني وتفترمني إن كنت كما تقول فاحبس لسانك ،
واذكر خطيئتك ، واقعد في بيتك . وقال سهل بن عبد الله : يقول الله تعالى : عبدي
ما أنصفتني نذكرك وتنساني ، وندعوك إليّ وتنهض إلى غيري ، ونعصمك من البلايا
وأنت مدمن على الخطايا ، يا ابن آدم فما تقول لربك غداً .

وقال لقمان لابنه : يا بني أوصيك بتقوى الله ، فإنه لك حظ ، وله عليك حق ،
ولا تخل فمك من ذكر الله ، فإن فضل ذكر الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى
على خلقه ، فاعلم أنك بترك ذكره عاص لأمره ، معرض عنه ، وإن أنت عرضت عنه
لم تجد موثقاً سواه ، فلا غنى لك عنه ، فاعلم أنك بترك ذكره عاصٍ لأمره ، فهو
عوض لك عن كل شيء ، فكل من سواه ذاهبٌ عنك ، وهو باقٍ معك .
وأنشدوا في المعنى :

لكل شيء إذا فارقتَه عوض وليس لله إذا فارقت من عوض

وأنت إن ذكرتَه في نفسك فهو ذاكرك في خلاء ، وإن أنت ذكرتَه في ملاء فهو
ذاكرك في ملاء خير منه وهو جليسك ، كما قال تعالى : « أنا جليس من ذكرني » أن
تستعمل مع فضيلة الذكر فضيلة التفهم ، بأن يحضر قلبك مع كل ذكر من قراءة أو
تهليل أو تضرع ، وكذلك ينبغي لمن يخاطب ربه في صلاة أو غيرها أن يباشر المعنى
بقلبه كما يباشر اللفظ بلسانه ، ويحرك قلبه بفهم الذكر كما يحرك لسانه بتفصيل اللفظ
وإلا كان المغبون المجانب من أكثر الحظ وأوفر الفضل ، فإذا قال : لا إله إلا الله فيؤد
المعنى بقلبه ناف ضنين بقوله عن كل ما قاله الملحدون في الربوبية من شريك أو ندٍ أو
صاحبة أو ولد ، وإذا قال : سبحان الله فليؤد بقلبه تنزيه الله تعالى وتبرئته عن كل ما
قاله الملحدون ، وكفر به الكافرون كما قال تعالى : ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ وإذا
قال : الحمد لله فليعتقد بقلبه أن الحمد لله خالصاً وحده ، وأن النعم كلها مبتدأة منه
ليس للمخلوق فيها سبب ، لأنه أنعم على المخلوق بخلقه بدءاً قبل أن يكون شيئاً . ثم
أنعم برزقه وإطلاق جوارحه وخلقته . ثم هداه لدينه الذي هو مؤدٍ إلى جنته . ثم وعده
تمام النعمة به والتيسير ، وأسبغ النعم في ظاهره وباطنه مما يعلم المخلوق ومما لا يعلم .

وأنشدوا :

حروف اسمك ظلّ الأمن منك لمن
يكرّر الذكر لا ينسأه يا بَارِ
إني أعوذ به من كل قاطعة
ثم الحجاب غداً أو نفحة النار
وقد تحصنت بالاسم العظيم لما
أخاف من شدة التوبيخ والعار
واجعل لي الذكر قوتاً والصلاة على
محمد عدتي ف محو أوزار
وفي الحياة وعند الموت أذكره
متبّثاً عند أورادي وأذكار
صلى الإله عليه ما نهى غُصْنُ
وما جرت سفن أو ما سرا سار

جعلنا الله وإياكم من الذاكرين له على الدوام بمنه وبمنه ، وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد وعلى آله .

٦٢ - باب ترك الدعاء

اعلم وفقك الله أن ترك الدعاء إعراض عن المدعو ، وقنوط من الرحمة ، وقد
نهى الله سبحانه عن اليأس والقنوط . قال الله تعالى : ﴿ ولا تيسوا من روح الله إنه لا
يشس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : ٨٧] وقال عز وجل : ﴿ لا تقنطوا من
رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : ٥٣] .

٥٩١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ إن العبد لا يخطئه من الدعاء
أحد ثلاث ، إما ذنب يغفر ، وإما خير يعجل ، وإما خير يدخر » ^(١) .

٥٩٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن العبد ليدعوا ربه وهو معرض عنه . ثم
يدعوه وهو معرض عنه . ثم يدعوه وهو معرض عنه ، فإذا دعى الرابعة قال تعالى :
يا ملائكتي كم يدعوني عبدي وأنا عنه معرض أشهدكم أنني قد غفرت لهم » .

٥٩٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دعى العبد فبسط يده جعل الله تعالى
فيهما نوراً ، فإذا فرغ من دعائه فمسح بهما وجهه عاد النور إلى وجهه » .

(١) روي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من مسلم يدعو
بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : » فذكره . أخرجه أحمد :
المسند (٣/٢٢ ح ١١١٣٩) .

٥٩٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يرفع عمل العبد إلى الله تعالى إذا لم يكن فيه استغفار » .

وقال سفيان بن عيينة - رضي الله عنه - : لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه من فعل القبيح ، فإن الله تعالى قد أجاب شر الخلق وهو إبليس - لعنه الله - في قوله : ﴿ رب أنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنتظرين إلى يوم الموقت المعلوم ﴾ [الأعراف: ١٤] فأجابه حين دعاه . وقال ابن عطاء - رحمه الله - : للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات ، فإن وافق أركانه قوي ، وإن وافق أجنحته طار في الهواء ، وإن وافق أسبابه نجح ، وإن وافق أوقاته فاز ، فأركانه حضور القلب والرقعة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب وقطعه من الأسباب كلها ، وأجنحته الصدق ، وأسبابه الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأوقاته الأسحار ، وبالله التوفيق .

وقيل : دعاء السرّ يفضل دعاء الجهر بسبعين ضعفًا ، فأحضروا مع ذلك القلوب . ففي الخبر أن الله تعالى لا يستجيب لمن دعا عن ظهر قلب غافل ، والاستغفار في العمل كالعينين في الرأس . واعلم أن ترك ذلك إنما هو من الشيطان ، فإذا حكم على القلب بوسوسته نسّاه الذكر والاستغفار .

قال الله سبحانه لنبيه - صلى الله عليه وسلم : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى : ﴿ قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ [الفرقان: ٧٧]

وقال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - سألت رجل ربه تعالى أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم . فرأى في النوم جسد رجل يشبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعدٍ على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل عن الذكر وسوس .

عصمنا الله وإياكم من الوسواس الخناس واستجاب لنا بالرحمة إذا دعونا بمنه وكرمه ، وصلى الله على محمد نبيه وعبداه .

٦٣ - باب القدح في الأئمة والعلماء وسب الموتى واللعنة

وهو يشتمل على أربعة أبواب . اعلم وفقنا الله وإياك أن هذه كلها خبائث في نفسها ما نعة للثواب موجبة للعقاب ، واعلم أن القدح في العلماء والأئمة ضدّ لأمر الله تعالى قد قرن ذكر العلماء في كتابه العزيز نسقاً مع نفسه وملائكته ومدحهم بالخشية والخوف منه ، فمن سبهم وقدح فيهم فقد حط من رفع الله تعالى قدره ، وذلك جراءة عظيمة والعقاب على ذلك عظيم وهو أيضاً مبغض لمن أحبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

٥٩٥ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من زار عالماً فكأنما زارني ، ومن أحب عالماً فكأنما أحبني ، ومن جالس عالماً فكأنما جالسنى » ^(١) .

وأما سب الأئمة فقد قال الله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ [النساء: ٥٩] فمن سبهم فليس بطائع لهم بل هو راد أمر الله وغير قابل لقوله .

٥٩٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الإمام فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله تعالى ، ومن عصى الإمام فقد عصاني » ^(٢) .

وأما سب الموتى فقد قال في ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

٥٩٧ - « من سب ميتاً أو اغتابه فكأنما شتم مائة ألف نبي وكأنما اغتاب ألف ملك ، وأحبط الله تعالى عمله سنة ووضع الله تعالى في ^(٣) يديه سبعين كيةً بالنار » .

٥٩٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا شتم منكم الحي الميت فكأنما قتل ستين نبياً وكأنما قتل أمه وأباه ، وكتب الله تعالى بكل نجم في السماء خطيئة وضيق الله تعالى عليه في قبره ولعنه الله والملائكة ولا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه في النار وإن تاب تاب الله عليه » .

وأما اللعنة أيضاً فقد قال في ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

(١) أنظر : تنزيه الشريعة لابن عراف الكنتاني (١/ ٢٧٢ ح ٥٧) وقال الحافظ المعجلوني : قال في الدليل في إسناده حفص الكلاب . أنظر : كشف الخفاء (٢/ ٣٣٠ ح ٢٤٩٤) . * زيادة ليست في الاصل .
(٢) أخرجه البخاري : الجهاد (٦/ ١٣٥ ح ٢٩٥٧) . ومسلم : الإمامة (٣/ ١٤٦٦ ح ٣٢/ ١٨٣٥) .

٦٠٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما لعن شيء شيئاً إلا باء أحدهما باللعنة فكيف يلعن أحد أحداً وهو لا يدري لعله عند الله تعالى سعيداً واللاعن شقي فالكلب والخنزير خير منه وإن كان الملعون سعيداً لم تضره لعنة اللاعن » .
 أعاذنا الله وإياكم من إتيان كل خبيثة تبعدنا منه وجعل أعمالنا في طاعته تقربنا إليه
 بمته ويمنه .

٦٤ - باب موالات أهل الكفر والجحد

وهو يجمع باين . فإياك يا أخي وموالات من يبغضه الله تعالى فإن ضرر ذلك عائد عليك في الدنيا والآخرة وقد نهاك الله سبحانه عن موالاتهم وحذر منهم . قال الله سبحانه : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [المائدة: ٥١] قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ [المتحنة: ١] وقال عز وجل ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ [الكهف: ١٠٢] وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ [المتحنة: ١٣] وقال عز وجل ﴿ ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون ﴾ [هود: ١٣]

(١) عن عبد الله بن مسعود بلفظ : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ... » أخرجه الترمذي : البر والصلة

(٤/ ٣٥٠ - ١٩٧٧) وقال : هنا حديث حسن غريب . وأحمد : المسند (١/ ٥٢٥ ح ٣٨٣٨) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين تريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ {النساء: ١٤٤} وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ {المائدة: ٥٧} وقال تعالى : ﴿ لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ {المائدة: ٨١} وقال عز من قائل : ﴿ لا تعبدوا قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ {المجادلة: ٢٢} وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ {التوبة: ٢٣}

٦٠١ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا برئ من كل مسلم يقيم بين ظهري المشركين » فقالوا : يا رسول الله : ولم ؟ قال : « لا تراءى ناراهما » (١) .

٦٠٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » (٢) .

٦٠٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن حول العرش منابر عليها قوم لباسهم من نور ووجوههم من نور ، وليسوا بأنبياء ولا شهداء يقبضهم النبيون والشهداء » . فقالوا : يا رسول الله صفهم لنا . فقال : « المتحابون في الله والمتجالسون في الله ، والمتزاورون في الله سبحانه » (٣) .

فإياك أن تجاور العجم فإني أخاف عليك أن تشرك بالله فإذا جالست قوماً فإن سمعت منهم منكراً فأنكره إن استطعت وإلا فقم عنهم كما يقوم الطائر إذا قذف بالحجر ولا تسترسل معهم في كلامهم فتكون من جملتهم .

(١) أخرجه أبو داود : الجهاد (٤٦/٣) ح ٢٦٤٥ ، والترمذي : السير (٤/١٥٥ ح ١٦٠٤) والنسائي : القسامة (٨/٣٢) باب القود بغير حديثه .

(٢) أخرجه مسلم : البر والصلة (٤/١٩٨٨ ح ٣٧/٢٥٦٦) والدارمي : الرقاق (٢/٤٠٣ ح ٢٧٥٧) .
وأحمد : المسند (٢/٣١٧ ح ٧٢٥٠) .

(٣) ذكره الزبيدي في الإنحاف (٦/١٧٤) .

قال الله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزئ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ {النساء : ١٤٠} وقال جل وعز ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ {الأنعام : ٦٨}

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت الراحة وأما انقطاعك إليّ فقد تعزرت لي فهل واليت في ولياً وهل عادت في عدواً .

وأوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه السلام - لو أنك عبدتني عبادة أهل السموات والأرض وأحببت في الله لي وأبغضت في الله لي ما أغنى عنك ذلك عندي شيئاً فمن أحببت في الله لم يمكنه إلا أن حبيت عباده المرضيين عنده وكذلك لا محالة يبغض من يبغضه ويخالف أمره ويظهر ذلك في مجانبته ومقاطعته لهم فلا توالي إلا من هو عبد مثلك مقررٌ لمعبوده بالوحدانية لا يلحد في أسماءه فإن الله تعالى جعل المؤمنين عبيداً له وهو مولاهم ، والكافرين لم يحملهم من حملة عبيده المختصين بخدمته الذين خلقهم لرحمته والنظر إليه قال الله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ {محمد : ١١} وكيف نوالي من أمرك الله تعالى بضرب رقابهم في قوله تعالى : ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ {محمد : ٤}

فأنت ترى أن سفك دمه حلال وهو أيضاً يرى ذلك منك حلال فكيف ترجو مودة من يحب قتلك وتحب قتله وأنشدوا في المعنى :

كل العداوة قد ترجى مودتها إلا عداوة من عداك في الدين
فإياك أن تصحب ولا توالي إلا صالحاً متقياً مستعفاً على دينه يكسب من الحلال
فإنه يزهدك في الدنيا الفانية القصيرة العمر الحقيرة الخطر ويرغبك في الآخرة الدائمة
البقاء المستمرة النعماء في جوار الله تعالى الواسع العطاء الكثير التحن والآلاء ، المقدس
الأسماء .

وقال أحد الحكماء : جماع ما في الدنيا من مكاسب المسرات اعتقاد أهل الدين
والمروات . جعلنا الله وإياكم من المتحابين فيه المتجانين لأعدائه بمنه وكرمه .

٦٥ - باب فضل الجهاد ومقت الفرار من الزحف

اعلم وفقك الله أن الجهاد فرض وهو أعظم ما يتقرب إلى الله به بعد الصلاة وفرض الإسلام ومنزلته كبيرة وخطر عظيم . قال الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [آل عمران: ١٧٠] فهم أحياء في حال عدمهم من هذه الدار وقد اختصهم الله تعالى بأن جعلهم أحياء يرزقون وغيرهم أموات لا يرزقون شرفهم الله جل وعز بأن جعل أرواحهم في حواصل طير تطير في الدنيا بهم وأرواح غيرهم ممن ليسوا بشهداء وهم من السعداء في أنقاب الصور إلى يوم يبعثون فاعزز بذلك فضلاً وشرقاً . قال الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة: ١١١] وقال عز وجل ﴿ والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ [محمد: ٤] وقال جل ثناؤه ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾ [الأنفال: ٧٢] ، وقال عز وجل : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ الآية

٦٠٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ألا أخبركم بخير الناس منزلة عند الله تعالى رجل أخذ بعنان فرسه فجاهد في سبيل الله » ^(١) .

٦٠٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من أحد يدخل الجنة فيريد أن يخرج منها إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل ثم يرجع ثم يقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » ^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي : فضائل الجهاد (٤/١٨٢ ح ١٦٥٢) ، وقال : هذا حديث حسن غريب . والنسائي : الزكاة (٥/٦٢) باب من يسأل بالله عز وجل ولا يعطى به . ومالك في الموطأ : الجهاد (٢/٤٤٥ ح ٤) .
(٢) أخرجه البخاري : الجهاد (٦/٣٩٦ ح ٢٨١٧) ، ومسلم : الإمامة (٣/١٤٩٨ ح ١٠٩/١٨٧٧) .

وما أغبرت قدم عبد في سبيل الله فتمسه النار .

٦٠٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يجتمع كافر وقاتله في النار » ^(١) .

وقد شرط الله تعالى في حقيقة الصدق في الحب القتال في سبيله ألا تراه تعالى يقول ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [الصف: ٤]

قال الحسن - رحمه الله - : من كثرت سيئاته وقلت حسناته فليغز في سبيل الله إلا وإن الذنوب لتحبس صاحبها عن الغزو كما يحبس الغريم غريمه وما يؤذن للعبد في الخروج في سبيل الله حتى يفتح له سبعين باباً من الرحمة والمغفرة والله أكرم وأفضل من أن يردده ويبقى عليه شيء من ذنوبه ولم يغفرها له ويعطي له مع ذلك ثلاث خصال: أولها : عند خروجه من منزله تجعل خطاياها جسراً على باب بيته فإذا جاور باب بيته خرج من ذنوبه حتى يكون كهيئة يوم ولد ، والثانية : إذا طلعت الشمس عند خروجه لا تغرب إلا بخطياه ، والثالثة : إن مات في وجهته تلك مات شهيداً وإن مرض يوماً أو بعض يوم أو ساعة غفرت ذنوبه وكتب له من الأجر عدل مائة ألف رقبة قيمة كل رقبة منها ألف دينار .

٦٠٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « فوق كل ذي برٌّ برٌّ حتى يهرق الرجل دمه في سبيل الله ، وفوق كل فجورٍ فجورٌ حتى يعق الرجل والديه » .

٦٠٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « زملوهم بدمائهم فإنه ليس كلمٍ كلمٍ في سبيل الله فقد إلا يأتي يوم القيامة بدم لونه لون الدم وريحه ريح المسك فمن غزا غزوة في سبيل الله فقد أدى إلى الله جميع طاعته وأدى الحق الذي لا تقصير دونه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » قالوا : يا رسول الله من يدع الجهاد بعد ما سمع هذا منك ؟ قال : « من لعنهم الله وغضب عليهم وأعد لهم عذاباً عظيماً وليكونن في آخر الزمان قوم يقولون : لا جهاد . فمن لقي الله تعالى وهو يقول ذلك عذبه الله عذاباً لا يعذبه أحدًا من العالمين ولا يزال الجهاد حلواً خضراً ما قطر القطر من السماء وسيأتي زمان على الناس يقول فيه قراؤهم : ليس هذا زمان جهاد . فمن أدرك ذلك الزمان فنعم زمان الجهاد »

(١) أخرجه مسلم : الإمامة (٣/١٥٠٥ ح ١٣/١٨٩١) وأبو داود : الجهاد (٧/٣ ح ٢٤٩٥) .

وأحمد : المسند (٢/٤٨٨ ح ٨٨٣٧) .

قالوا : يا رسول الله ويقول ذلك أحد ؟ قال : « نعم من عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين للجهاد في ذلك الزمان ما للمجاهد اليوم من الأجر » (١) .

فقد أعظم الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أمر الجهاد وفضله وامتزته في الدنيا والآخرة إما لمن يقتل وآب سالماً بالفتح والغنمية والثواب الجزيل المدخر وما عند الله خير للأبرار . ومن حانت منيته الحقه الله تعالى بالشهداء وأدرك من النعيم ما يتمنى من أجله أن يرد إلى الدنيا فيقتل ويقتل ولكن هذا الفضل العظيم إنما جعله الله تعالى لمن خرج مقاتلاً في سبيله على أن كلمة الله هي العليا ومات مقبلاً بوجهه غير منحرف ولا مول . وأما من فر من الزحف ومات مولياً عن الجماعة فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ وكذلك فيمن خرج متكاريًا أو فاجرًا أو بديلاً أو أجيراً أو مكتسباً ٦٠٩ - ففي الخبر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الغزاة إذا خرجوا بعث الله تعالى ملائكة يكتبون الناس على منازلهم فلان تاجر وفلان أجير وفلان مكار وفلان غاز » .

وإنما حصل اسم الغازي من هؤلاء إلى واحد فاتق الله إن خرجت ولا تخرج إلا غازياً وإلا فاقعد ولا يغرنك قليل من الدنيا فإنها فانية فيفوتك من الآخرة كثير باق . عصمنا الله وإياكم ممن يوجب المقت منه بمنه وفضله .

٦٦ - باب فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - وفضل الصلاة عليه

وحرمان من لم يصلي عليه إذا سمع ذكره

اعلم وفقنا الله وإياك أن الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - من مهمات الدين ، ومن أعظم الفرائض عليك وأوجبها للزلفى والثواب والرفعة في الدنيا والآخرة وقد ندبك الله تعالى إلى الصلاة عليه في كتابه العزيز بقوله عز وجل :

(١) حتى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « وريحه ريح المسك » أخرجه النسائي : الجهاد (٦/٢٤) باب من كلم في سبيل الله عز وجل .

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ [الاحزاب: ٥٦] .

فأمرك بالصلاة عليه وبصلاته عليه من غير احتياج إلى صلاتك كرامة لك وتطهيراً ، وإظهاراً لعبوديتك في امتثال الأمر وشكراً منك لما جعلك من أمته وسبباً تستحق به الشفاعة منه وأمره أيضاً بالصلاة عليك في قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [التوبة: ٣-١] أي ادع لهم بالرحمة فإن معنى الصلاة الرحمة . وقد قيل : إن معنى قول المؤذن حي على الصلاة معناه : هلموا إلى الرحمة . فأمر الله تعالى بذلك نبيه - صلى الله عليه وسلم - شكراً لما جعلته نبيك ورسولك ، وكذلك أمرك بغسل الأربعة في الوضوء من غير احتياج الأعضاء إلى غسل ولا لإزالة نجاسة لتطهير عبوديتك في امتثال أمره ، وقيل إن سبب الوضوء للأعضاء التي افترض الله غسلها آدم وحواء - عليهما السلام - وذلك لما نهاهما الله تعالى عن أكل الشجرة فأكلا منها فأما غسل الوجه فمن أجل إشخاصهما إلى الشجرة ، وأما غسل اليدين فمن أجل بسطهما إليها ، وأما مسح الرأس فمن ما مست رؤسهما منها ، وأما غسل الرجلين فمن أجل مشيهما إليها . فالطهارة منك والمغفرة من الله تعالى ، والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - منك والشفاعة منه . واعلم أن الله تعالى منع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ما لم تقترن بشهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو قولك : محمد رسول الله ، وألزم الله سبحانه الخلق تصديقه - صلى الله عليه وسلم - في جميع ما أخبر عنه في الدنيا والآخرة والزمهم اتباعه والافتداء به . قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر: ٧]

٦١٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا صلاة بغير وضوء ولا إيمان لمن لم يؤمن بي » ^(١) .

فالشقي من لم يؤمن به أو شك فيه ، والمحروم البخيل من سمع الصلاة عليه ولم يصل عليه - صلى الله عليه وسلم - .

(١) أخرجه ابن ماجه: الطهارة (١/١٤٠ ح ٤٠٠) قال في الزوائد : ضعيف ، لاتفاقهم على ضعف عبد المهيمن وانظر : تلخيص الخبير (١/٨٤ - ٨٥ ح ١) .

٦١١ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل عليّ » (١) .

٦١٢ - وقال عليه السلام : « من نسي الصلاة علي نسي طريق الجنة » (٢) .

٦١٣ - وعنه عليه السلام : « من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي عليّ » .

٦١٤ - وقال عليه السلام : « أما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي - صلى الله عليه وسلم كانت عليهم من الله ترة إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » (٣) .

٦١٥ - وعنه عليه السلام : « ما جلس قوم مجلساً ثم تفرقوا على غير صلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا خرجوا عن أنتن من ريح الجيفة » (٤) .

٦١٦ - وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه على النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب » (٥) .

(١) أخرجه الترمذي : الدعوات (٥٥١/٥ ح ٣٥٤٦) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وأحمد : المسند (٢٥٩/١ ح ١٧٤١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه : الإقامة (١/٢٩٤ ح ٩٠٨) في الزوائد : ضعيف ، لضعف جبارة . والطبراني في الكبير

(١٢/١٨٠ ح ١٢٨١٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢١٥ ح ١٥٧٣ - ١٥٧٤)

انظر : الدر المشور للسيوطي (٥/٢١٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٤٩٦) . ، والترة هي النقص .

(٤) أخرجه الترمذي : الدعاء (٥/٤٦١ ح ٣٣٨٠) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ : « ما جلس قوم

مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم »

وقال : هذا حديث حسن صحيح . انظر الدر المشور للسيوطي (٥/٢١٨) . وعند البيهقي في شعب الإيمان

(٢/٢١٤ ح ١٥٧٠) عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما اجتمع قوم ثم تفرقوا

من غير ذكر الله وصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا قاموا عن أنتن من جيفة » .

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢١٥ ح ١٥٧١) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - وعزاه الحافظ

السيوطي - أيضاً - إلى النسائي وابن أبي عاصم ، وأبو بكر في الغيلانيات ، والبخوي في الجعديات ،

والضياء . انظر : الدر المشور (٥/٢١٨) . وعند أحمد : المسند (٢/٦٠٩ ح ٩٩٧٨) بلفظ : « ما تعد قوم

مقعداً . . . عن أبي هريرة - رضي الله عنه - .

واعلم أن في الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر كرامات :

إحداهن : صلاة الملك الجبار ، الثانية : شفاعة النبي المختار ، الثالثة : الاقتداء
بالملائكة الأبرار ، والرابعة : مخالفة المنافقين والكفار ، الخامسة : محو الخطايا
والأوزار ، السادسة : عون على قضاء الحوائج والأوطار ، السابعة : تنوير الظواهر
والأسرار ، الثامنة : النجاة من دار البوار ، التاسعة : دخول دار القرار ، العاشرة :
سلام الرحيم الغفار . فاما صلاة الملك الجبار فقولهُ عز وجل : ﴿ كهيعص ﴾ معنى
الكاف : كفاية الحبيب إلى الحبيب ، قال الله تعالى ﴿ فسيفيكفهم الله وهو السميع
العليم ﴾ [البقرة: ١٣٧] والهاء هداية الحبيب إلى الحبيب قال الله سبحانه ﴿ ويهديك
صراطاً مستقيماً ﴾ [الفتح: ٢] والياء : تأييد الحبيب إلى الحبيب قال الله عز وجل ﴿ هو
الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ [آل عمران: ١٣] والعين : عصمة الحبيب إلى الحبيب قال
عز من قائل : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧] والصاد : صلة من الحبيب
إلى الحبيب قال الله تبارك وتعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ [الأحزاب: ٥٦]
فمن صلى عليه صلى الله عليه وسلم فهو مقتد بالله وملائكته ، وأما مخالفة المنافقين
والكفار فهي أنهم لا يصلون عليه ولا يمدحونه ويسبونه ويذمونه ، وفي هذا دليل قوله
تعالى : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ والمراد بالناس هنا محمد - صلى الله عليه وسلم -
ونظيره قول الله - عز وجل : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ يعني
بالناس محمداً - صلى الله عليه وسلم - لما كان محمد - صلى الله عليه وسلم - سيد
جميع الناس سماه باسم جميع الناس ، وهذا أبلغ في الكرامة من تسمية إبراهيم - عليه
السلام - أمة لأن الأمة على الخصوص ، والناس اسم على العموم . فمن صلى على
النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد خالف المنافقين والكفار ، ووافق أمر الملك الجبار
حيث قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦]
وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان
عند الله وجيهاً ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وأما محو الخطايا والأوزار :

٦١٧ - فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من صلى عليّ صلاة
واحدة أمر الله تعالى حافظيه ألا يكتب عليه ذنباً ثلاثة أيام » .

٦١٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من صلى عليّ في كتاب لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب » (١) .

٦١٩ - وروي عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من صلى عليّ يوم الجمعة مائة مرة غفرت له خطيئة ثمانين سنة » .

ويحكى عن أبي الحجاج أنه قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المنام فقلت : يا رسول الله حدثني أبو المقاتل عنك أن من صلى عليك يوم الجمعة مائة مرة غفرت له ذنوب مائة سنة ؟ قال : صدق أبو المقاتل . فكان أبو الحجاج يقول أنا أحدثكم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أحدثكم عن أبي المقاتل لأن الشيطان لا يقدر أن يمثل عليه - صلى الله عليه وسلم - .

وأما قضاء الحوائج والأوطار :

٦٢٠ - فقد روي أن رجلاً سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة عليّ » فقال الرجل : اجعل ثلث عبادتي الصلاة عليك فقال - صلى الله عليه وسلم - : « من جعل جميع عبادته الصلاة عليّ قضى الله تعالى له حوائج الدنيا والآخرة » (٢) .

وأما تنوير الظواهر والأسرار :

فما ذكر أبو عمر المطرز قال : أخبرني رجل من الصوفية قال : رأيت الرجل الملقب بمسطح بعد وفاته وكان ماجتاً في حياته فقلت ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . قلت : بأي شيء ؟ قال : استمليت على بعض المحدثين حديثاً مسنداً فصلى الشيخ على النبي - صلى الله عليه وسلم - وصليت أنا عليه ورفعت صوتي ، وصلى أهل المسجد عليه ، فغفر لنا كلنا في ذلك اليوم .

(١) عزاه الحافظ الهيثمي في المجمع (١/١٤١ - ١٤٢) إلى الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وقال : وفيه بشر بن عبيد الدارسي كذبه الأزدي وغيره . أنظر : الترغيب والترهيب للمنذري (١/١١٠ - ١١١ ح ٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/٣٥٧٤ ح ٣٥٧٤) من حديث محمد بن يحيى بنحيان عن أبيه عن جده . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (١٠/١٦٣) : وإسناده حسن . أنظر : الترغيب والترهيب (٢/٥٠١ ح ٢١) .

وقد حكى أيضاً عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : خرجت إلى بيت الله الحرام فصاحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا صلى على النبي - صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك ؟ فقال : إني خرجت إلى مكة مع أبي فلما انصرفنا نزلنا في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آتٍ في منامي فقال لي : قم فقد مات والله أبوك وسود الله وجهه فتحيرت من ذلك ، وتفكرت في أمره فغلبنني النوم فرأيت كأن عند رأسه إبل وعند رجله أربعة من السودان ومعهم مقامع من حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه طيب الرائحة عليه ثوبان أخضران فقال لهم : تنحوا عنه فرفع الثوب عن وجهه ومسح على وجهه ثم أتاني فقال : قم فقد بيض الله وجه أبيك . فقلت : من أنت ؟ قال : أنا محمد . قلت : فما السبب في مسيرك إليه ؟ فقال : إنه كان يكثر الصلاة عليّ . قال : فقممت فكشفت عن وجهه فلماذا هو قد ابيض فأصلحت شأنه ودفنته فما تركت الصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فقد أورثته الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بياض الوجه فأحرى أن يورث المصلي عليه تنوير القلب في حال حياته .

وكيف لا تحدث الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - في قلب المصلي نوراً وقد سماه الله نوراً مبيّناً وسراجاً منيراً ، ووصف أصحابه وأتباعه بنور القلب حيث قال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للرسل فهو على نور من ربه ﴾ {الزمر: ٢٢} وقال سبحانه : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ {الإسراء: ٧٢} ووصف أعدائه بظلمة القلب حيث قال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ {النور: ٤٠} وأما النجاة من دارالبوار فأصله قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ {الاحزاب: ٦٩}

٦٢١ - وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أنه قال من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً ، ومن صلى عليّ عشراً لم يكن في دار البوار »^(١) .

(١) أخرجه مسلم : الصلاة (٣٠٦/١ ح ٤٠٨/٧٠) ، وأبو داود : الصلاة (٨٩/٢ ح ١٥٣٠) ، والترمذي : الصلاة (٣٥٥/٢ ح ٤٨٥) عن أبي هريرة ، ولم يذكروا : « ومن صلى الله عليه عشراً لم يكن في دار البوار »

٦٢٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من صلى عليّ في المدينة سمعته سماعاً ، ومن صلى عليّ في غير المدينة بلغته بلاعاً » .

٦٢٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » .

٦٢٤ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « للمصلي عليّ نور على الصراط ، ومن كان على الصراط من أهل النور لم يكن من أهل النار » .

٦٢٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من نسي الصلاة عليّ فقد أخطأ طريق الجنة » ^(١) وإنما أراد بالنسيان الترك وإذا كان التارك يخطئ طريق الجنة كان المصلي عليه سالكاً إلى الجنة .

٦٢٦ - وفي رواية عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « جاءني جبريل عليه السلام فقال : لا يصلي عليك أحدٌ إلا وصلى عليه سبعون ألف ملك ، ومن صلت عليه الملائكة كان من أهل الجنة » .

٦٢٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من صلى عليّ ألف مرة لم يميت حتى يبشر بالجنة » ^(٢) .

وأما سلام الرحيم الغفار فقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [يس: ٥٨]

٦٢٨ - وروى عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يقول الله تعالى : من صلى عليك يا محمد صليت عليه ، ومن سلم عليك يا محمد سلمت عليه » ^(٣) .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فذكره » وقال : رواه أبو حفص بن شاهين . انظر : الترغيب (٢/٥٠١ - ٥٠٢ ح ٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد : المسند (١/٢٤٣ ح ١٦٦٧) والبيهقي في الكبرى (٢/٥١٨ ح ٣٩٣٦)

انظر : الترغيب والترهيب للمنذري (٢/٤٩٥ ح ٤) .

فسجدت لله شكراً فالعبد مجد بالصلاة على النبي المختار سلام الملك الجبار .

وأنشدوا في ذلك :

تقنطني ذنوبي بعد حين ويؤمنني من النار رجاء
ولكنني أدعُ الله ربي لعلي لا يخيب لي دعاء
وكيف يخيب عبد بين رب وبين شفاعة الأنبياء

٦٢٩ - وفي الخبر أنه لما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم سورة { النجم } وانتهى إلى قوله ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ قال المسلمون : لقد أشكل علينا أمر هذه الآية فأوحى إلى فعلاً قال فأوحى إلى عبده كذا وكذا حتى يعلم الوحي الذي أوحى إليه ما هو وخافوا أن يسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فأتوا عائشة - رضي الله عنها - وقالوا لها : يا أم المؤمنين نحن نتوسل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تسأله عن تفسير قوله عز وجل : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ليخبرنا بالذي أوحى إليه ؟ قالت لهم : نعم إن شاء الله . قالت عائشة فإنها كانت ليلتي من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضمني وإياه الفراش قلت : فديتك بأبي وأمي يا رسول الله إن المسلمين توسلوا لي إليك عن قول الله سبحانه : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ فقد اشتغلت أسرارهم ويحبون أن يعلمونه فقال لها : « ذلك شيء لم يعلمه جبريل ولا ميكائيل ولا إسرافيل ولا القلم ولا اللوح المحفوظ تريدان أن تعلمينه أنت والمسلمون؟ » قالت عائشة : فأدركني أمر عظيم وخجلت فلما أصبح وتوضأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولبس رداء وآراد الخروج إلى المسجد قلت في نفسي : يا عائشة ما يكون جوابك للمسلمين إذا قالوا : ماذا قال لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الذي سألتك عنه ؟ فإن قلت لهم إنه لم يخبرني بشيء سقطت درجتي في أعينهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس يمكنني أن أكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقمت حتى دنوت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطرحت يدي في طرف رداؤه وقلت له : فديتك بأبي وأمي يا رسول الله لا أزال متعلقة بردائك حتى تفارق روحي جسدي أو تخبرني بالوحي الذي أوحى إليك ربك . قال : فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ملياً فنزل عليه جبريل الأمين - عليه السلام - وقال له :

ربك يقرئك السلام ويقول لك : أخبر عائشة بالذي أسرته إليك فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة إنما كان أمراً أسره إليّ ربي فيما بني وبينه حين راجعته في أمتي وقلت له : يا رب اجعل حسابهم إليّ فقال : يا محمد إن كانوا أمتك ولا تريد أن يطلع عليهم أحد غيرك فكذلك هم عبيدي أريد أن لا أطلعك على عيوبهم . يا محمد إذا كنت أنت الشفيع وأنا الرحيم فأني ذنب يبقى بيني وبينك » .

٦٣٠ - ويروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « حدثني جبريل عليه السلام فقال : يا محمد لما خلقتني الله تعالى وتركتني تحت العرش ثمانية عشر ألف عام ولم يخاطبني ثم قال : يا جبريل من أنا ؟ فقلت : أنت الواحد القهار الملك الجبار المعبود في الليل والنهار . ثم تركني بعد ذلك عشرة آلاف سنة ولم يخاطبني ثم قال : يا جبريل من أنا : فقلت يا رب أنت خالقي ورازقي ومحيني ومميتي وباعثي ووارثي . قال : صدقت يا جبريل . أنا خالق الخلق وأنا ضامن الرزق وأنا باعث من في القبور في يوم النشور فقلت : يا رب هل خلقت خلقاً قبلي ؟ قال : نعم يا جبريل . انظر أمامك فنظرت فرأيت نوراً أخذ من بصري حسنه وجماله وكماله عن يمينه وعن شماله ومن قدامه نور ومن ورائه نور فقلت : يا رب ما هذا النور الذي أخذ بصري حسنه وجماله وكماله ؟ فقال : هذا النور الذي خلقتك لأجله وهو النور الذي خلقت العرش لأجله والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار والسموات والأرض والملائكة وجميع الأشياء من العرش إلى الثرى وهو صفبي ومحبي وخيرتي من خلقي أبو القاسم محمد - صلى الله عليه وسلم - . قلت : يا رب وما هذا النور الذي عن يمينه وما هذا النور الذي عن شماله وما هذا النور الذي من قدامه وما هذا النور الذي من ورائه ؟ فقال : أما النور الذي عن يمينه فأبو بكر الصديق ، والنور الذي عن يساره فعمر بن الخطاب ، والنور الذي أمامه فعثمان بن عفان ، والنور الذي من ورائه فعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين . وأنشدوا في ذلك :

ثلاثة ما نكرت فضلمهم يكرمهم ربهم إذا نشروا
ولبي من مؤمن له شرف ينكر تفضيلهم إذا ذكروا
عاشوا بلافارقة حياتهم واجتمعوا في الممات إذ قبروا

والحكمة في كون نور محمد - صلى الله عليه وسلم - موجوداً قبل خلق جبريل - عليه السلام ما روي أن أول ما خلق الله تعالى نور محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل ذلك النور يتردد ويسجد بين يدي الله سبحانه فقسمه الله تعالى على أربعة أجزاء : فخلق من الجزء الأول : العرش ، والثاني : القلم ، والثالث : اللوح ، وكتب حتى أتى على آخر ما أمره الله سبحانه وأقبل الجزء الرابع : يتردد ويسجد لله - عز وجل - فقسمه الله على أربعة أجزاء : فخلق من الجزء الأول الواحد : العقل ، الثاني : المعرفة ، الثالث : النهار ونور الشمس ونور القمر ، ونور الإبصار ، الرابع : لكنه حول العرش وقيل تحت ساق العرش حتى خلق آدم عليه السلام فأودع ذلك النور فيه وهو النور الذي رآه جبريل - عليه السلام - فنور السجود ، ونور العرش ، ونور العلم ، ونور اللوح ونور المعرفة ، ونور النهار ، ونور الشمس ، ونور القمر ، ونور الإبصار من نور محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقيل : إن آدم - عليه السلام - سمع من ظهره نبشاً كنبش الطير فقال : يا رب ما هذا ؟ فقال : إنه تسبيح نور محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رب أرني نوره فأراه الله نوره فأمن به وصلى عليه بأصبعه السبابة فمن ذلك الوقت وقعت الإشارة بالسبابة عند كلمة الشهادة .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام - ظهر في ظهره نور نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فكانت الملائكة يقفون خلفه ينظرون إلى ذلك النور فقال آدم - عليه السلام - : يا رب ما لهؤلاء ينظرون إليّ من خلفي ؟ قال : ينظرون إلى نور خاتم الأنبياء الذي أخرجه من ظهرك . قال : يا رب اجعل ذلك أمامي حتى أرى الملائكة تستقبلني ولا تستدبرني فجعل الله تعالى ذلك النور في جبهته فكانت الملائكة تقف من أمامه صفاً فينظرون إلى ذلك النور . ثم قال آدم - عليه السلام - : يا رب اجعل هذا النور في جسدي حيث أراه معهم فجعل الله تعالى ذلك النور في سببته فلما نظر رأى ذلك النور في طرفها قال : لا إله إلا الله استحساناً لما رأى فصارت في قول لا إله إلا الله رفع السبابة ، ولذلك سمّت المسبحة ثم إن آدم - عليه السلام - قال لربه - عز وجل - يا رب هل بقي من هذا النور في ظهري شيء ؟ قال : نعم نور أصحابه . قال : يا رب اجعله في بقية أصابعي فجعل نور أبي بكر - رضي الله

عنه في الوسطى وجعل نور عمر - رضي الله عنه - في البصر ، وجعل نور عثمان - رضي الله عنه - في الخصر ، وجعل نور علي - رضي الله عنه - في الإبهام . فكان ينظر إلى تلك الأنوار ويتعجب منها فلم تزل تلك الأنوار تتلألأ في أصابع آدم - عليه السلام - حتى أهبطه الله تعالى من الجنة ومارس أعمال الدنيا فنزلت من أصابعه الأنوار

وقيل : لما خلق الله تعالى حواء من آدم اضطرب حين رآها للشهوة التي ركبت فيه فقال : يا رب ما هذه ؟ قال : حواء . قال : يا رب زوجنيها . قال : يا ادم حتى تمهرها . قال : يا رب وما مهرها ؟ قال : مهرها أن تصلي على محمد عشر مرات . قال : فإن فعلت تزوجنيها ؟ قال : نعم . فصلى آدم - عليه السلام - على محمد - صلى الله عليه وسلم - عشر مرات فكان صداق حواء .

وقيل : إن الله تعالى لما خلق آدم - عليه السلام - فتح عينيه فنظر إلى العرش فوجد اسم محمد - صلى الله عليه وسلم - مكتوباً على سرادق العرش فقال : يا رب هل خلقت أحداً قبلي ؟ قال : نعم . صاحب هذا الاسم . قال : يا رب هل أحد أكرم عليك مني ؟ قال : نعم صاحب هذا الاسم . وهو نبي من ولدك أكرم علي منك ولولا هو ما خلقت السموات والأرض والجنة والنار .

وقيل : لما أكل آدم - عليه السلام - من الشجرة تناثر عليه لباسه وبدت عورته فقال الله تعالى للملائكة : ادفعوا عني عبدي . فقال : يا رب خلقتني بيدك ونفخت في من روحي وسجدت لي ملائكتك وأسكنتني جنتك فلا تسلبني ما أعطيتني بمعصيتي . فقال الله تعالى للملائكة : ادفعوا عني عبدي . فقال آدم - عليه السلام - يا رب إنك وعدتني أن تخلق من ذريتي أنبياء منهم فلان وفلان حتى سمي كل واحد منهم باسمه وأقسم به فلم يسعفه فلما وصل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وأقسم عليه به قال الله تبارك وتعالى : يا ملائكتي أن إرتقوا بعبدي فقد أقسم عليّ بأحب عبادي إليّ . ثم قال : يا آدم اهبط إلى الأرض فلذلك خلقتك . وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ {البقرة : ٣٧}

وفي المناجات : أن موسى - عليه السلام - قال : يا رب أخبرني عن أول مخلوق خلقتة ؟ قال : يا موسى قبضت قبضة من النور فقلت له كن حبيبي محمداً وهو أقل مخلوق وآخرهم نبياً بالرسالة ، وأول من بيعث ، وأول من يشفع في أمته ، وأول من

عبدني . روحه قبل العرش والكرسي بماتي ألف عام . فقال موسى - عليه السلام -
يا رب حبه إلى قلبي حتى أتقرب إليك بحبه . قال : قد فعلت .

وأنشد المؤلف رضي الله عنه - :

كيف العزاء وكيف الصبر عن جدُّ فيه الحياء وفيه الخلق والخلقُ
فالفكر متصل والدمع منهمل والوجد مشتعل والقلب يحترق
شوقاً إلى روضه تحير النفوس بها ويذهب الهم والأحزان والقلق
بها الحبيب ومحبوب خالقه وسابق للذين قبله سبقوا
هو السبيل إلى وجودهم وهم سبيله فهم من نوره خلقوا
عز لزياره فخر لقاصده نور لتابعه شمس ولا غسقُ
صلوا عليه لتحفظوا عند بارئكم فداؤه النفس والأعضاء والحدقُ
صلى الإله عليه ما سرت نجبُ وما جرت سحب وما بدا فلقُ

وفي المناجات : أن موسى - عليه السلام - قال : يا رب من عبدك قبل بني آدم ؟
قال : الملائكة (قال اثني عشر سبط) قال موسى : وكم السبط الواحد ؟ قال : مثل
الجن والإنس والبهائم والطير اثني عشر ألف مرة . قال موسى - عليه السلام - : لك
الحمد يا رب علمني ما يقربني منك . قال : يا موسى إن أردت أن أكون أقرب من
كلامك إلى لسانك ومن ريقك إلى فيك ومن سواد عينيك إلى بياضها فأكثر من الصلاة
على محمد - صلى الله عليه وسلم - فلما سمع موسى عليه السلام ذلك رمى بالتوراة
غضباً ثم قال : يا رب فمن محمد حتى أتقرب إليك بحبه والصلاة عليه ؟ قال : يا
موسى لولا محمد - صلى الله عليه وسلم - ما خلقت السموات والأرض ولا جنة ولا
ناراً ولا أمطرت السموات بقطرة ولا أنبت في الأرض حبة ولو لم تقر بفضل محمد -
صلى الله عليه وسلم - لأحرقتك بناري ولو كنت إبراهيم خليلي . قال موسى - عليه
السلام - قد أقررت وشهدت بفضل محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : يا رب
أينا أحب إليك أنا أم محمد ؟ قال : يا موسى أنت كليمي ومحمد حبيبي ، والحبيب
أحب إليّ من الكلّيم . فقال موسى - عليه السلام - : يا رب أقلني فيما نطقت به .
قال الله تعالى : إني إذا قلت قولاً لا أرجع فيه .

وقد تكلم الناس أيضاً في الفرق بين الخليل والحبيب ؟

فقيل : الخليل يكون فعله برضى الله كفعل إبراهيم عليه السلام ، والحبيب يكون فعل الله برضاه . ألا ترى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أراد تحويل القبلة فقال الله له : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ وقال له : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وقيل : الخليل لا يحب الاستعجال إلى لقاء خليله كما قيل : إن ملك الموت لما جاء إلى قبض روح إبراهيم - عليه السلام - قال له : هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله . فخرج إلى السماء ثم نزل فقال له : إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك : هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله . والحبيب يحب الاستعجال إلى لقاء حبيبه . كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في دعائه :

٦٣١ - « اللهم إني أسألك النظر إلى جلال وجهك والشوق إلى لقائك » (١) .

والخليل وصل بالواسطة لقوله تعالى : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ ، والحبيب يصل به إليه كما قال الله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ ، والخليل يكون في مغفرته في حال الطمع كما قال إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ ، والحبيب في مغفرته في حد اليقين من غير سؤال قال الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ، والخليل قال في المحبة : ﴿ قل حسبي الله ﴾ والحبيب قال الله له : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ والخليل قال له : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ والحبيب قال له : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ ، والخليل قال : ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ ، والحبيب قال له : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ والخليل قال له : ﴿ واجعل لي لساناً صدق في الآخرين ﴾ وقال الحبيب : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ والخليل قال : ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ والحبيب قال له : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/٣١٩ ح ٨٢٥) عن أم الدرداء أن فضالة بن عبيد كان يقول : اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ويرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وعزاه الحافظ الهيثمي أيضاً إلى الطبراني في الاوسط ، وقال : ورجالها ثقات . أنظر : مجمع الزوائد - (١٠/١٨٠) .

وأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - : أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ، ومن خطرة قلبك إلى قلبك ، ومن روحك إلى نفسك ؟ قال : نعم . قال : أكثر من الصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم . وقيل : مكتوب في الزبور : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسولي من العرب يقهر العجم ويفتح مشارق الأرض ومغاريها وهو خير الأنبياء وسيدهم وأفضل الخلق وأكرمهم عليّ فطوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه وطوبى لمن هاجر معه وطوبى لمن اقتدى به .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه السلام - يا عيسى آمن بمحمد وامر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ويصدقوه فلولا محمد ما خلقت الجنة والنار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن . وقيل : إن الله تعالى خلق نور محمد - صلى الله عليه وسلم ثم أمر النور فطاف حول عرشه قبل أن يخلق آدم - عليه السلام - بخمسمائة عام ثم خلق آدم عليه السلام بعد ذلك .

وقال كعب الأحبار : لقد مضى اثني عشر نبياً كانوا في الأمم الأولى ويودون أن لو كانوا من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم ، وأن موسى كان يدعو ربه أن يجعله من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

٦٣٢ - وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله إبراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، وعيسى روح الله وكلمته فما أعطيت يا رسول الله ؟ قال : « كلُّ نَحْتٍ لواءي يوم القيامة ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأول من تفتح له أبواب الجنة »^(١) .

٦٣٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « بعث داود عليه السلام وهو راعي غنم ، وبعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم ، وبعثت أنا وأنا راعي غنم لأهلي بجياد »^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي : المتأقب (٥/٥٨٧ ح ٣٦١٦) وقال : هذا حديث غريب ، والدارمي : المقدمة (١/٣٩ ح ٤٧) .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/١٣٤) وعزاه أيضاً إلى أبو داود الطيالسي ، والبغوي ، وابن منده ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن بشر بن حرب البصري مرسلأ . وانظر : فتح الباري : الإجارة (٤/٥١٦) باب رعي الغنم على قراريط .

٦٣٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لقد صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين فإنه لم يكن معي غيره » (١) .

٦٣٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أعطيت خمساً ولا فخر بعثت إلى كل أحمر وأسود وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد غيري ونصرت بالرعب فهو يمشي أمامي مسيرة شهر وأوتيت الشفاعة فأخباتها لأمتي إلى يوم القيامة فهي تنال من لا يشرك بالله شيئاً » (٢) .

٦٣٦ - وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه - : جاء يهودي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد أنت أكرم عند الله أم آدم ؟ فقال : « أنا أكرم ورب الكعبة أكرم من آدم ، وآدم أبي ولا فخر » فقال اليهودي : كذبت ورب المقدس . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا يهودي إن الله أعطاني خمساً لم يعطهن آدم عليه السلام وادم أبي ولكني أعطيت ما لم يعط وأنا أفضل منه ولا فخر ولا عجب » فقال اليهودي وما هذه الخمس قال : « الأولى : أن آدم لما عصى أخرجه الله من جواره طريداً عطشاً ولو عصى أحد من أمتي لم يمنعه الله تعالى من المساجد . الثانية : طار عنه الحلبي والحلل ولا تسلب أمتي . الثالثة : فرق بينه وبين امرأته ولم يفرق بين أمتي . الرابعة : أظهر الله تعالى خطيئته بقوله سبحانه : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ وستر على أمتي . الخامسة : أنه لم يقبل الله تعالى توبته حتى بنى البيت العتيق وطاف حوله وإن من أمتي لمن ذنوبه أكثر من زبد البحر وقطر المطر وورق الأشجار فإذا ندم عليها واستغفر غفر الله له » فقال اليهودي : صدقت يا محمد أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

والحكمة في أن فضح آدم - عليه السلام - بذلة واحدة وستر على أولاده من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يفضحهم لأن آدم عليه السلام - قال له ربه : ﴿ لا تقربا هذه الشجرة ﴾ وليس عليك من الأوامر شيء لا الصلاة ولا الصيام ولا الزكاة ولا

(١) ذكره الكناشي في تنزيه الشريعة (١/٣٧٦ ح ٩٨) وعزاه إلى ابن الجوزي من حديث أبي أيوب الأنصاري وفيه محمد بن عبد الله بن أبي رافع الهاشمي مولاهم ، وليس بشيء منكر الحديث ، وعزاه لابن عدي في الكامل للضعفاء من حديث أنس وفيه عباد بن عبد الصمد .

(٢) أخرجه البخاري : التيمم (١/٥١٩ ح ٣٣٥) . ومسلم : المساجد (١/٣٧٠ - ٣٧١ ح ٥٢١) واللفظ له .

الحج ولا القيام فنقض العهد ونسي ولكل منها ، وأمر أولاده بأوامر كثيرة فإذا جفا المعاصي بقول الله تعالى : له عندي إن صرف جافياً فقد كنت بامتثال أوامري وافيّاً فقد عفوت لحرية وفائك عن قبح جفائك . وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن شيطاني كان كافراً فسألت الله فيه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » .

٦٣٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى فضّلني على آدم - عليه السلام - بخصلتين وكان شيطاني كافراً فأعاني الله تعالى عليه فأسلم وكان أزواجي عوناً لي على الطاعة وكان شيطانه كافراً وكانت زوجته عوناً له على المعصية » .

٦٣٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لانس رحمه الله - : « يا أنس إن نصف الجنة لي ولا تزر اشارك في النصف الثاني » .

٦٣٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كنت نبياً وأنا بين الماء والطين » ^(١) .

٦٤٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً » ^(٢) .

والحكمة في ذلك ما ذكر عن كعب الأحبار - رضي الله عنه - أنه قال : لما أراد الله تعالى أن يخلق سيد ولد آدم محمد - صلى الله عليه وسلم - أمر جبريل - عليه السلام - أن يأتيه بالطينة البيضاء التي هي قلب الأرض ونور الأرض وبهاء الأرض فهبط جبريل - عليه السلام - في كيبكة من ملائكة الفردوس وملائكة الصفح الأعلى حتى قبض قبضة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من موضع قره وهي يومئذ بيضاء نقية فعجنت بماء النسيم وزعزعت حتى جعلت كالدرة البيضاء ثم سمعت في كل نهر من أنهار الجنة وطيف بها في السموات والأرض والبحار قال : فعرفت الملائكة محمد - صلى الله عليه وسلم - وفضله وشرفه وطهارته ورفعته قبل أن يعرف - عليه السلام - وفضله .

(١) قال الحافظ المعجلوني : لم يوجد بهذا اللفظ ، لكن قال العلقمي في شرح الجامع الصغير حديث صحيح .
أنظر : كشف الخفاء (٢/١٧٣ ح ١٧-٢٠) وقال الكتاني في تنزيه الشريعة بعد ذكره : قال ابن تيمية موضوع .
أنظر : تنزيه الشريعة (١/٣٤١ ح ٣٢) .

(٢) عزاه الحافظ السيوطي من طريق قتادة عن الحسن عن أبي هريرة - رضي الله عنه - إلى الحسن بن سفيان وابن أبي حاتم، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر . وعن قتادة - رضي الله عنه - أخرجه ابن جرير .. أنظر الدر المنثور (٥/١٨٤) ، وانظر : كشف الخفاء للمعجلوني (٢/١٦٩ ح ٢٠٠٧) .

وقال سهل بن عبد الله : لما أراد الجليل - جل جلاله - خلق محمد - صلى الله عليه وسلم - في بطن أمته في شهر رجب ليلة جمعة أمر في تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح أبواب الفردوس وينادي مناد في السماوات والأرضين ألا إن النور المخزون المكنون الذي يكون منه النبي الهادي في هذه الليلة يستقر في بطن أمته الذي فيه يتم خلقه ويخرج إلى الناس بشيراً ونذيراً وولده في ربيع الأول لإثني عشرة ليلة خلت منه ليلة الإثنين في تلك الليلة نبئ وتوفي - صلى الله عليه وسلم - .

وعن رافعة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : قولني رافعا ذنبه

يهمهم .

وقيل : إن الحكمة في أن الله تبارك وتعالى أمر بحمده والثناء عليه من غير احتياجه إلى حمدهم وثنائهم ، وأمرهم أيضاً بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - من غير احتياجه إلى ذلك ، وأمر بالاستغفار للصحابة - رضي الله عنهم - من غير احتياجه إلى ذلك لتأخذ نصيباً وتقضى حوائجنا فقال : عبدني امدحني واحمدني أغفر لك به ، وصلي على نبيي كي يشفع لك يوم القيامة واستغفر لأصحابه ليسقوك يوم القيامة من الحوض إن شاء الله - فمرة أمر الأمة بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ومرة أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصلاة على الأمة ليعلم العالمون فضل هذه الأمة على سائر الأمم . وفضل المصطفى على سائر الأنبياء .

ومن كرامته - صلى الله عليه وسلم - : أن الله اختصه بإحدى وعشرين خصلة لم يعطها أحداً قبله فمئها سبع في ولادته ، وسبع في صفاته ، وسبع في خلقه . فأما السبعة التي في ولادته : أنه أولها لما وضعت أمه طردت الشياطين من السماء ، وذلك أنهم كانوا يصعدون إلى السماء فيستمعون ما تقول الملائكة كما قال سبحانه ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ فلما ولد النبي - صلى الله عليه وسلم - منعوا من ذلك فاجتمعت الشياطين عند إبليس لعنه الله فقالوا له : حدث أمرٌ لا ندري ما هو قال : ما لكم ؟ قالوا : منعنا من السماء فأمرهم أن يدوروا مشارق الأرض ومغاريها يختبروا ما جرى فيها فداروا المشرق والمغرب إلى أن بلغوا مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - فوجدوا الملائكة صافات حوله من تخوم الأرض السبع إلى السموات السبع . وروي أن أمه آمنة قالت : أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر وأنا نائمة فوكزني برجله فقال لي :

يا آمنة إنك قد حملت بخير العالمين طرا وسيد المرسلين فلماذا ولدته فسميه محمداً فإن اسمه في التوراة حامد وفي الإنجيل أحمد واكتمي شأنك ما استطعت . فلما أخذني ما يأخذ النساء من الطلق لم يعلم أحد من قومي لا ذكر ولا أنثى وإني لوحيدة في منزلي إذ سمعت جلبة عظيمة وأمرًا شديدًا فهالني ذلك ورأيت كأن جناح طير أبيض قد مسح فؤادي فذهب عني الرعب وكل وجع أجده ثم التفت فإذا بشرية بيضاء ظننتها لبنًا وكنت عاطشة فناولنيها فشربتها فأضاء منها نور عليّ وإذا أنا بديباج أبيض قد مد ما بين السماء والأرض وإذا قائل يقول اخفوه عن أعين الناس ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة يرشح منها عرق كأنه الجمان أطيب ريحًا من المسك الإذفر ثم رأيت قطعة من الطير قد أقبلت من حيث لا أشعر حتى غطت حجرتي مناقيرها من الزمرد الأخضر وأجنحتها من الياقوت وكشف الله عن بصري في تلك الساعة فرأيت مشارق الأرض ومغاريها ورأيت ثلاث علامات مضروبات علم في المشرق وعلم في المغرب وعلم على ظهر الكعبة وأخذ في المخاض واشتد الأمر فلما ولدت محمداً وخرج من بطني نظرت إليه فهو ساجد رافع يده إلى السماء كالمتضرع ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى غشيت غيبته فغيبته عني برهة وإذا قائل يقول : طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاريها وادخلوه البحار كلها ليعرفه جميع الخلائق باسمه وصفته ويعرفون بركته وأنه يذهب به الشرك ثم أتيت فإذا به مدرج في ثوبٍ صوفٍ أشد بياضًا من اللبن وتحته حريرة خضراء وهو قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض وإذا قائل يقول : قبض محمد مفتاح النبوة ومفتاح النصر ثم أقبلت سحابة أعظم من الأولى ولها نور فسمعت فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال حتى غشيت غيب عني الهول من المرة الأولى ، وسمعت قائلاً يقول : طوفوا بمحمد جميع الأرضين وعلى مواليد النبيين واعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش والهوام واعطوه خلق آدم ومعرفة شت وشجاعة نوح وعلم إبراهيم ولسان إسماعيل ورضا إسحاق وفصاحة صالح وحكمة لوط وبشرى يعقوب وجمال يوسف وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع وصوت داود وحب دانيال ووقار إلياس وعصمة يحيى ورغد عيسى واغمسوه في جميع أخلاق النبيين ثم انجلت عنه فنظرت إليه فإذا هو قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيًا شديدًا ينبع منها ماء معين وإذا بالقائل يقول : بنح بنح قد قبض محمد على الدنيا كلها لم يبق خلق

من خلقها لإدخال في قبضته بإذن الله تعالى فيينا أنا أتعجب من ذلك إذ أنا بثلاثة نفر ظننت أن الشمس تطلع من خلال وجوههم في يد أحدهم لإبريق من فضة يخرج منه ريح كريخ المسك وفي يد الثاني طست من زمردة خضراً لها أربعة نواحي على كل ناحية من نواحيها لؤلؤة بيضاء وإذا قائل يقول هذه الدنيا بشرقها وغربها وبحرها وبرها فاقبض يا حبيب الله على أي ناحية شئت منها قالت : فنظرت وإذا هو قابض على وسطها فسمعت قائلاً يقول : قبض على الكعبة ورب الكعبة أما إن الله تعالى جعلها لك قبلة ومنسكاً مباركاً ورأيت في يد الثالث حريرة بيضاء قد طويت طياً شديداً فنشرها ثم أخرج منها خاتماً تحار أبصار الناظرين دونه فأخذه صاحب الطست فغسله بماء الإبريق سبع مرات ثم ختم به بين كتفيه ختماً واحداً ولَفَّهُ في الحريرة واستدار عليه بخيط من المسك ثم حمله فأدخله بين أجنحته ساعة وقرأ في أذنه كلاماً كثيراً لم أفهمه وقبل بين عينيه وقال له : أبشر يا محمد فما بقي لنبي علم إلا وقد أعطيته وأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً معك مفاتيح النصر وقد أعطيت الأمن من الخوف والرعب ولا يسمع أحد بذكرك إلا وحل قلبه وهو لم يراك يا حبيب الله قالت ثم رأيت رجلاً قد أقبل نحوه حتى وضع فاه على فيه فجعل يزقه كما تزق الحمامة فرخا فكانت أنظر إلى ابني يشير بأصبعه فزقه ساعة وقال : أبشر يا حبيبي فما بقي حلم ولا علم إلا وقد أعطيته ثم حمله وغيبه عني ساعة فخرج قلبي وذهب عقلي ثم قلت : ويح قريش ماتت كلها أنا في ليلتي وولادتي أرى ما أرى ويصنع بي ما يصنع فلا يقربني أحد من قومي إن هذا لهو العجب فيينا أنا كذلك إذا به قد رده إلي وهو كالقمر ليلة البدر وريحه يسطع كالمسك فقال : خذيه إليك وقد طيف به المشرق والمغرب وعلى مواليد النبيين أجمعين والساعة كانت عند أبيه آدم - عليه السلام - فضمه إليه وقبل بين عينيه وقال له : أبشر يا حبيبي فأنت سيد ولدي في الأولين والآخرين فناولنيه ومضى وهو يقول : يا عز الدنيا وشرف الآخرة لقد استمسكت بالعروة الوثقى فمن قال مقالتك وشهد شهادتك يحشر يوم القيامة تحت لوائك وفي زمرك ثم مضى عني فلم أره بعدها .

الثانية : في رواية أخرى : أن عمته قالت : كنت قابلة أم النبي - صلى الله عليه وسلم - فرأيت له ست علامات لم أرهن لمولود قبله أولهن : أنه خرج من بطن أمه سقط على الأرض ساجداً ليعلم الخلائق أن السجدة لم تجعل من العبد إلا بالاختيار بل بأمر من العزيز الجبار .

الثالثة : أنه لما رفع رأسه بكى وقال في بكائه بلسان قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله ، وهذا الثناء أجل وأكمل من ثناء عيسى عليه السلام لأن عيسى عليه السلام أثنى على الله تعالى بقوله : إني عبد الله ولم يسجد ، والنبى - صلى الله عليه وسلم أثنى وسجد ، وعيسى عليه السلام تكلم لأجل تنزيه الوالدة ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - تكلم لأجل تنزيه الرب سبحانه .

الرابعة : ما قالت عمته رأيت البيت منورا من ضوءه حتى غلب على السراج .

الخامسة : ما قالت أردت أن أغسله فهتف بي هاتف لا تتبعني نفسك فقد أخرجناه مغسولا . والسادسة : قالت أردت أن أعرف ذكرا هو أو أنثى فوجدته مختونا وقد ستر عورته بيده عن رؤية الأعداء فكذلك يستر ذنوب أمته عن سائر الأمم . السابعة : قالت وجدت خاتم النبوة على ظهره مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وأما السبعة الصفاتية فهو ما وجد في الأخبار أن الله تعالى خصه بسبع خصال صفاتية لم يشاركه فيها غيره :

الأولى : منها ما جعل لبصره من النفاذ حتى كان يرى وراءه كما يرى أمامه .

٦٤١ - وقال أنس بن مالك : أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً علينا فقال : « أقيموا صفوفكم فإني أرى خلفي كما أرى أمامي » (١) .

والحكمة في ذلك أن العالمين ظنوا أن الحريق بالنار فأظهر الله تعالى النار ولا حرق فيها وهي نار إبراهيم - عليه السلام - ، وظنوا أن الغرق موضع إناء فأظهر الله تعالى الماء ولا غرق فيه وهو بحر موسى - عليه السلام - ، وظنوا أن القطع بالحديد فأظهر الله سبحانه الحديد ولا قطع فيه وهو سكين إسماعيل - عليه السلام - ، وظنوا أن محل البصر في العينين فأظهر الله تعالى بصراً ولا عينين هنالك وذلك بصر النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث كان ينظر من خلفه وظنوا أن النجاة بالطاعة فأظهر الله سبحانه الطاعة ولا نجاة فيها كطاعة بلعام بن باعورا ، وإبليس لعنه الله ، وظنوا أن محل الهلاك

(١) أخرجه البخاري : الأذان (٢/٢٤٢ ح ٧١٨) بلفظ : أقيموا الصفوف فإني أراكم خلف ظهري .

ومسلم : الصلاة (١/٣٢٤ ح ٤٣٤/١٢٥) بلفظ : « اتقوا لأصفوف . فإني أراكم خلف ظهري » .
وعندهما من حديث أنس - رضي الله عنه - . وعند النسائي : الإمامة (٢/٧١) باب كم مرة يقول استوتوا بلفظ : « استوتوا .. فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي » .

من المعصية فأظهر الله تعالى معصية ولا هلاك فيها وهي سحر السحرة بين يدي فرعون لعنه الله ليغلبوا أمره على أمر موسى - عليه السلام - ليعلم العالمون أن الحريق الأمر لا بالنار وأن الغرق بجابر الأرض والسماء لا بالماء وأن الرؤية فيما يريه الله تعالى بالبر وأن القطع بالأمر لا بالحديد وأن النجاة بساعة الأزل لا بخلوص العمل والفوز بالوجود لا بالسجود . الثانية : هي أنه لم يقع منه الظل على الأرض من غلبة نور الشمس والحكمة فيه أنه كما لم يستول عليه سلطان الشمس فكذلك حال أمته يوم القيامة على ما روي أن الشمس تندنو من الخلائق مقدار ميل فتحرق الكافر بحرارتها ويغلب نور المؤمن حرارتها حتى لا يكون منها حارق . الثالثة : ما روي أن الأرض كانت تبتلع ما كان يخرج منه من حاجة الإنسان حتى لا يعاين أحد ذلك . كذلك يسلط الله عز وجل رحمته يوم القيام على ذنوب أمته فتخسها حتى لا يرى الأعداء ذنوبهم فيكشفون على عوراتهم وينظرون إليهم بعين الاستحقار . الرابعة : أنه كان صلى الله عليه وسلم - يفرق كل من يقوم بحذائه ولو كان في غاية الطول هيكلًا وشخصًا كذلك ذنوب أمته في جنب شفاعته .

الخامسة : أنه صلى الله عليه وسلم - لم يكن يتشاءب ، لأن الثاؤب من الشيطان

٦٤٢ - وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى أعانني على شيطاني فأسلم » (١) .

والحكمة في ذلك أن آدم - عليه السلام - كان في جوار الرحمن فاستطرق إليه

الشيطان والنبى - صلى الله عليه وسلم - كان في جوار الرحمن ولم يهتد إليه الشيطان

السادسة : أنه لم يكن يقع على الذباب لأن الله تعالى عاب الأصنام بذلك فقال

عز وجل : ﴿ إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾

{الحج: ٧٣} فجعل سبحانه الصنم أسير الذباب ، وجعل الذباب أسير ظل النبي - صلى

الله عليه وسلم - واغتم بذلك الكافرين .

السابعة : أن الله تعالى أعمى الكفار عن رؤية هذه العبر التي اختصه الله بها .

(١) أخرجه مسلم : المتأقنين (٤/٢١٦٧) ح ٦٩/٢٨١٤ ، والدارمي : الرقاق (٢/٣٩٦) ح ٢٧٣٤ ، وأحمد :

المسند (١/٥٩٦) ح ٤٣٩١ .

وأما السبعة الخلقية : فأحدها : معجزة لسانه ، وذلك أنه أوتي بعظم لا لحم عليه فقال له : كن حياً بإذن الله تعالى فكان حياً وأكله .

٦٤٣ - وروى الحسن أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال له : قدمت من سفري فبينما بنيت لي خماسية تدرج حولي في صيحتها وجلوها إذ أخذت بيدها فانطلقت بها إلى وادي فلان فطرحتها فيه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « انطلق معي فأرني الوادي » فانطلق مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الوادي فقال له ما كان اسمها فأخبره باسمها فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا فلانة أجيبني بإذن الله فخرجت الصبية وهي تقول ليك وسعديك يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن أبوك قد أسلما فإن أحببت أن أردك عليهما فقالت لا حاجة لي إليهما وجدت الله خيراً لي منهما . والاسطوانة التي كان يستند إذ كلمته حين اتخذ المنبر والقصة مشهورة وهذا أجل من معجزة عيسى - عليه السلام - حين كلمه الأبكم والأبكم يستحيل منها الكلام وتقول للمؤمن إذا أقبل عليها وغلب نور معرفته حرها : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي فصارت ما هي له معجزة في الدنيا كرامة لامته في العقبى .

الثانية : معجزة سمعه - صلى الله عليه وسلم - حيث سمع كلام أبي سفيان مع زوجته هند وهو في منزله في الليل إذ قال لها أبو سفيان : أعطي محمد النبوة وأنا أكثر منه مالاً . فلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صبيحة تلك الليلة فقال له :

٦٤٤ - « يا أبا سفيان ما الذي قلت لامراتك البارحة في حديث النبوة ؟ أما علمت أن النبوة سماوية لا أرضية ، وهو يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء » فقال أبو سفيان في نفسه لأطلقنها لما فشت سري فعلم ذلك من سره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا أبا سفيان لا تطلق هند إن كانت هند أخبرتني البارحة فمن أخبرني الساعة بتفكيرك إنك تطلقها إذا عدت إليها هذا علم سماوي لا أرضي هذا علم إلهي لا إلهك » .

٦٤٥ - وهكذا يفعل بأمته كما روي في الخبر أن المؤمن لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة ويقربها منه بحيث يشم رائحتها ويدخله النار ولا يسمع حسيسها ليعلم

العالمون أنه الفعال لما يريد وأنه على كل شيء قدير .

٦٤٦ - والثالثة : معجزة أصابعه - صلى الله عليه وسلم - في سفر ونحن معه فعدنا الماء فشكونا ذلك إليه فقال : أعندكم ماءٌ في كوز فصبّه في إناءٍ ووضع يده فيه ففار الماء من الإناء وجعل الماء من خلال أصابعه - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : حتى كل الطهور المبارك فشربنا منه وتزودنا ^(١) . وهذا أعجب من أمر موسى - عليه السلام - حيث أتعب نفسه في ضربه الحجر بالعصا لما أمره الله تعالى بذلك في قوله تعالى ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنا عشرة عينًا قد علم كل أناس مشربهم ﴾ [البقرة: ٦٠] فأتعب نفسه في الضرب حتى أظهر الماء من معدن الماء ، ونبينا صلى الله عليه وسلم - ظهر له الماء من غير تعب من غير معدن الماء .

والحكمة في ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رمى بيده الحصا فأهلك أعداءه ثم وضعها في الإناء مرة أخرى فأحيى به أحبائه صلى الله عليه وسلم فكان الهلاك والنجاة في كفه - صلى الله عليه وسلم - كذلك كانت عصا موسى - عليه السلام - ضرب بها الحجر تارة فانفجر له الماء ، وضرب بها البحر تارة فصار يبساً وكذلك توحيد المؤمن يسترق به الكفار ويأخذ به الجزية منهم ويسبي أولادهم في الدنيا ثم يقوم يوم القيامة يظفر به على النار فيطفيئ حرها . فتوحيد في الدنيا هلاك الكفار وبه في الآخرة نجاة نفسه من النار .

٦٤٧ - الرابعة : معجزة خلقه - صلى الله عليه وسلم - وهو ما روي عن ثابت البناني - رضي الله عنه - أنه قال لأنس بن مالك - رضي الله عنه - أخبرني بأعجب شيء رأيته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : نعم . يا ثابت خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين فلم يعب عليّ شيئاً قط ولم يقل لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء تركته لم تركته ولا لماذا فعلت ولا لماذا لم تفعل ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري : المغازي (٧/٥٠٥ ح ٤١٥٢) من حديث جابر - رضي الله عنه - . ومسلم : الفضائل (٤/١٧٨٣ ح ٢٢٧٩/٦) من حديث أنس - رضي الله عنه .

(٢) أصله في البخاري ومسلم بلفظ : « خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . . ما قال لي : أف قط . . » وساق الحديث أخرجه البخاري : الأدب (١٠/٤٧١ ح ٦٠٣٨) ومسلم : الفضائل (٤/١٨٠٤ ح ٢٣٠٩/٥١) وأبو داود : الأدب (٤/٢٧٤ ح ٤٧٧٤) ، والترمذي : البر (٤/٣٦٨ ح ٢٠١٥) .

والحكمة في ذلك أنه كان - صلى الله عليه وسلم - مشغولاً بتحمل الأحوال لا بتغير الأحوال ألا ترى أن الله سبحانه سخر لك البهائم وملكك إياها ثم أباح لك الحمل عليها وذبحها والاكل من لحومها والانتفاع بأصوافها وأشعارها وأولادها وأخذ منها الالسن والنطق حتى لا تعترض عليك فيما فعلت بها من ذلك لأنك مالكتها وإذا تصرف المالك في ملكه فلا اعتراض عليه في فعله وأنت إن سلمت نفسك إليه وأقررت بأنه هو المالك لك وأنت المملوك له فما هذا التعرض عند نزول القضاء وما هذا الجزع عند حلول البلاء كأنك أنكرت ربوبيته واستحقاق الملك له فهكذا كانت صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يعترض على أحد في فعله خطأ كان أم صواباً إلا ما كان مأموراً أو فعل منهي عنه في شريعته فسلم الملك إلى المالك وقال : التحيات لله خير قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .

٦٤٨ - الخامسة : معجزة رجله - صلى الله عليه وسلم - كما روي عن جابر أنه قال : كان في منزلي بئر أجاج فسألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو لي ليطيب ماءها فدعى بطست وماءٍ فأدخل رجله فيه وأمرني أن أصب ذلك الماء في البئر ففعلت فطاب الماء وعذب .

والحكمة في ذلك أن ما أصابه رائحة النبي - صلى الله عليه وسلم - صار مرةً عذبةً وكذلك يعقوب - عليه السلام - لما أصابته رائحة القميص صار عماؤه بصراً كل ذلك بقدرته الله سبحانه ومعجزة النبي - صلى الله عليه وسلم - شرف ظاهر وتأييد من الله سبحانه .

٦٤٩ - معجزة وجهه - صلى الله عليه وسلم - وهو ما رأت عائشة - رضي الله عنها - قالت : سقطت إبرة من يدي كنت أخطب بها ثوبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ليلة ظلماء فطلبتها فلم أجدها حتى دخل - صلى الله عليه وسلم - فوجدتها في نور وجهه حين دخل فتعجبت من ذلك فقال : « مم تعجبين يا عائشة » فأخبرته بالقصة فبكي فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أبكاك قال : « أبكي على من لا يراني من أمتي يوم القيامة في ظلمتها » . والحكمة في ذلك أن هذا لمن عدم النبي - صلى الله عليه وسلم - فكيف يكون حال من عدم الإيمان والمعرفة .

٦٥٠ - والسابعة : معجزة نفسه - صلى الله عليه وسلم - وهو أن امرأة من اليهود ذبحت شاة وطلتها بالسم فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها فصاحت الشاة وقالت : يا رسول الله لا تأكل مني فإني مسمومة ^(١) . والحكمة في ذلك أن من قربه السلطان يتواضع له الحشم ويعرفه الخواص والخدم وهو - صلى الله عليه وسلم - لما قرب الله تعالى وكرمه بأنواع الكرامات عرفه السم فتواضع له ولم يضره ، ولما قرب الله تعالى الخليل - عليه السلام - للخلعة عرفته النار وتواضعت له وما ضرته ولا أحرقتة ولما قرب الله تعالى موسى - عليه السلام - بالمناجات تواضع له البحر وعرفه ولم يهلكه ، ولما قرب إسماعيل - عليه السلام - وضمه من الحلم ما ضمه تواضع له السكين وعرفه فلم يقطع في أوداجه حين أمره عليها أبوه إبراهيم - عليه السلام - ولما اختص الله تعالى يونس - عليه السلام - من الكرامة بما اختصه ثم عاقبه حين عاقبه فعرفه الحوت وتواضع له ، وقيل إن الله سبحانه أوحى إلى الحوت إنه وديعتي لديك فإن خدشت له جلد أو لو كسرت له عظماً عذبتك عذاباً أليماً لم أعذب الأولين والآخرين مثله فصام الحوت أربعين يوماً ولم يأكل ولم يشرب إلى أن أخرجه الله من بطنه . والحكمة في ذلك أن الحوت لما حل يونس - عليه السلام - في بطنه امتنع من الطعام والشراب والمعرفة حلت في قلب المؤمن فلا يمتنع من المعاصي والآثام .

ومن حسن سيرته - صلى الله عليه وسلم - أن أزواجه - رضي الله عن جميعهن - اجتمعن عنده ذات يوم وقلن يا رسول الله أينا أحب إليك فوعدهن أن يخبرهن بالغداة فلما كان تلك العشية أعطى لكل واحدة منهن خاتماً من غير أن يعلم واحدة بأخرى فلما اجتمعن بالغداة قلن له أينا أحب إليك ؟ قال لهن : «صاحبة الخاتم أحب لي» فظنت كل واحدة منهم أنها أحب إليه وأنه ما أعطى الخاتم إلا لها فقط ، والحكمة في ذلك أنه ستر المحبوب كي لا يطلع على ستره أحد وهذا المعنى موجود في قوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] ووصفهم بالإيمان لأن اسم الإيمان يعم العاصي والمطيع كي لا يهتك ستر العاصي ولا يطلع عليه أحد ولا يخرج من عديد المؤمنين بمعصيته .

(١) أخرجه أبو داود : اللديات (٤/١٧٢ ح ٤٥١٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٦٠) من حديث جابر بن عبد

الله - رضي الله عنه - بنحوه .

٦٥١ - ومنها أيضاً ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه دخل حائطاً فقيل له لا تدخله فإن فيه جملاً حقوداً هايجاً فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أنا في عصمة الله تعالى » فلما دخل جاء الجمل فسجد بين يديه - صلى الله عليه وسلم - وقال بلسان طلق : يا رسول الله إن صاحبي يؤذيني ويحمل عليّ فوق طاقتي . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - عليّ بصاحبه فلما جاء قال له أرفق به فقال له يا رسول الله لحضوره بين يديك قد أعتقته من العمل وأسقطت عنه الخدمة وأطبت له العلف والحكمة في ذلك أنه بسجدة واحدة لمخلوق أميط عنه جميع الأذى وأطيب له العلف فما ظنك بسجود ستين سنة وأكثر منها بين يدي العلي الكبير موجد الأشياء بعد العدم وخالق السماوات والأرض والنسم .

٦٥٢ - وروي أن النبي - صلى الله عليه وسلم : « لما أسري به رأى ملكاً فسأل عنه قيل : هو الذي بيده دواوين أمتك فقال له أوقفني عليها فلما رأى دواوين أمته جعل يتأملها فإذا هي مسودة مملوءة من الخطايا فغمه ذلك فأوتني في أواخرها كلمة واحدة تمح الدواوين كلها وتوجب لها البياض والنور فسأل عن دواوين الأولين فإذا التوبة والاستغفار عليهم عسيرة فرضي بذلك - صلى الله عليه وسلم بأن جعلت التوبة والاستغفار لأمته » .

٦٥٣ - وجاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : أنه قال : بينا أنا ببيت المقدس حين أسري بي إذا أنا بالنداء من قبل الله تعالى : يا محمد إني مننت عليك بخصال لم أمنّ بها على أحد قبلك ولا أمنّ بها على أحد بعدك فإني لها أني لا أذكر إلا وتذكر معي وهو قول العبد لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأن جميع الأنبياء والرسل مشتاقون إلى لقائك ومفتقرون إلى شفاعتك في تعجيل الحساب وأن الجنة محرومة على جميع الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى جميع الأمم حتى تدخلها أمتك . وإني جعلت توبتهم الندم والاستغفار ولم أجعل توبتهم قتل أنفسهم كما جعلت توبة بني إسرائيل ولم أواخذهم عند كل ذنب فعلوه كما فعلت ببني إسرائيل وإني سترت عليهم ذنوبهم وأخرت عليها عقابهم إلى يوم القيامة فإن شئت غفرتها لهم وإن شئت عاقبتهم وإني أخرتهم لآخر الزمان لثلاث بطول مكثهم تحت التراب وإني جعلت أمتك تقرأ عيوب الأمم ولم أجعل أمة من الأمم تقرأ عيوب أمتك لأنه لا أمة بعدها .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - يا رب اجعل حساب أمتي لي ألا يطلع أحد على عيوبهم فإذا النداء من قبل الله تعالى : يا محمد أنت لا تريد أن يطلع أحد على عيوبهم وحسابهم فيما بيني وبينهم . قال : يا رب فكيف بالمفرقين في الذنوب من أمتي في ذلك اليوم فإذا بالنداء من قبل العرش : يا محمد إذا كنت أنت شفيع المذنبين وأنا أرحم الراحمين فأبي ذنب يبقى بيني وبينك في ذلك اليوم أأست أنا الذي أوجبت الرحمة على نفسي وكتبت كتاباً رفعته فوق عرشي فيه مكتوب رحمتي وسعت كل شيء وأأست أنا الذي جعلت الموت رحمة للمذنبين من عبادي لأظهر به ذنوبهم وأحط به تبعاتهم وأخفف به أوزارهم وأنقلهم به من دار النكال والشقاء إلى دار السعادة والبقاء .

٦٥٤ - وقيل إن النبي - صلى الله عليه وسلم - : إذا كان يوم القيامة يقول : « يا رب هب لي العصاة من أمتي » فيقول له : لم لا تتكلم في أمر المطيعين ؟ فيقول : « يا رب للمطيعين حال وجاه يحفظهم ويمنعهم ، وأنا وافتد العصاة وقائدهم وخطيبهم » .

٦٥٥ - ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - : « نعم الرجل أنا لشرار أمتي » ^(١) .

وروي أيضاً أن والده النبي - صلى الله عليه وسلم - لما اشتد بها الأمر عند الولادة جاء طائر فمسح بطنها فلم تجد ما يجد النساء من الوجع ، والحكمة فيه أن مريم - عليها السلام - عوقبت باشتداد الأمر عند الولادة لأنها كان لها حظاً من عيسى - عليه السلام - في تمتعها بالنظر إليه في شبابه ثم بالوحي الذي كان ينزل عليه وبمعجزاته وأم النبي صلى الله عليه وسلم - لم يكن لها منه حظ ولا استمتعت به فلذلك دفعت عنها الشدة لأن مقومات الشدة موضوعة على حسب نيل النعمة لأن الله تعالى خلق من كل زوجين اثنين . فمن ذلك ما قيل إن الله تبارك وتعالى لما خسف بقارون الأرض استغاث أهل الأبحر والخلائق الذين تحت الأرض وقالوا : ربنا ما هذا ؟ قال : عدوي سخطت عليه . فسألوه أن يريهم حبيباً من أحببه كما أراهم عدواً من أعدائه ليتسلوا برؤية الحبيب عن رؤية العدو فحبس الله تعالى يونس في بطن الحوت وألهم الحوت حتى طاف به البحار إلى أن طاف به نيل مصر والدجلة والفرات إلى بحر فارس وغيره من البحار .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٧/٨ ح ٧٤٨٣) وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٣٨٠/١٠) : وفيه جميع بن ثوب الرحبي قال فيه البخاري : منكر الحديث . وقال النسائي : متروك الحديث . وقال ابن عدي : رواياته تدل على أنه ضعيف وبقيته رجاله رجال الصحيح . وأبو نعيم في الحلية (٢١٩/١٠) .

وكذلك قيل : إن أرض بيت المقدس سألت الله تعالى أن يرهبها حبيبا من أحبابه به رؤية أعدائه فأسري برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت المقدس إجابة لدعوتها ليرهبها حبيبه ويوفيهما ما وعدها من الإجابة . وكذلك قيل إن الله تعالى أوحى إلى البحر إني مرسل إليك عدواً من أعدائي لتغرقه فيك اسمه فرعون فضجّ البحر لذلك فسأل ربه أن يرهب حبيباً من أحبابه عند رؤية عدوه فأمر تعالى موسى - عليه السلام - أن يدخل البحر قبل فرعون إجابة لدعوة البحر وإنجازاً لوعده ، وكذلك قيل : إن الله تعالى لما خلق النار أوحى إليها إني إنما خلقتك ليعذب بك أعدائي ومن أشرك بي واستعان بخلقي من خلقي ، فضجت النار عند ذلك وهالت وسألت ربه أن يرهبها أحبابه كي تتسلى بروية أحبابه عن رؤية أعدائه فأقسم تعالى إجابة لسؤالها بقوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ فإذا أوردتها المؤمنون غلب نور معرفتهم بالله حرها فتخمد حتى لا يكون منها حارق ويرسل الله تعالى عليهم النعاس فلا يجدون حرها الماء ، وتقول لهم جوزوا يا أحباب الله فقد أطفأ نوركم لهيبه فراراً منهم إذا خمدوها عذاباً لها ونقصاً في حقها وكذلك سفينة نوح - عليه السلام - لأن نوحاً عليه السلام - دعى على قومه بالهلاك بقوله تعالى حكاية عن نوح - عليه السلام - : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ وإنما قال ذلك لأن الله تعالى لما أوحى إليه - عليه السلام - أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن له بالذعاء عليهم كي يتخلص من بلائهم لأنه لم يفرح بإيمانهم ولا قرت عينه بهم فجعل السفينة سبباً لنجاته وعضواً عما حل به منهم وكانت أحوال النبي - صلى الله عليه وسلم - بخلاف ذلك لأن الله تعالى علم أن أمته خير الأمم يؤمنون به بعده ويدخلون شريعته فلذلك أمره بالاحتمال والتجاوز عنهم بقوله عز وجل : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ ويقوله تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ لأن القضاء مقسوم على احتمال البلاء وكان تعالى يقول عبدي رفعت البلاء عن الملائكة فهم محفوفون من الهموم ولا يمنعهم الرزق ولا شدة الجوع ولا ألم للرمز ولا هم العواقب لأن الجنة غير معدودة لهم ولا الثواب معدود لهم وقد قدرت البلايا والشدائد والمحن وهم الرزق فعليك وخوف زوال الإيمان لأن الجنة معدودة لك والرزية موعدة لأجلك ومقاسات البلية مقسومة على حسب نيل العطية والنكال على حسب الأعمال ومن ذلك أن يوسف

عليه السلام لما جمع الله تعالى له شمله وأعطى النبوة والملك قال الله تعالى للملائكة :
 انظروا إلى العبد وما أعطيته فقالوا : ربنا قد رأيناه قبل ذلك ضرب وأهين وجرد وطرح
 في الجب ثم جعل بعد ذلك في السجن ويبيع بيع العبيد بالثمن البخس . فقال لهم عز
 وجل - هو ذلك فلو لم يكن ذلك لم يكن هذا وكذلك آدم - عليه السلام - لم يكن في
 أول أمره شيئاً مذكوراً ثم جعله صلصالاً كالفخار ثم جعله حمأً مسنوناً ثم جعله طيناً
 لارياً ثم جعله مسجود الملائكة وجعل رقاب الملائكة مراكبه وأسكنه جنته من غير عمل
 سبق منه ثم أنزله بعد ذلك إلى الأرض لمكابدة تعبها وهمومها ، كذلك إبليس كان في
 أول أمره مطيعاً عابداً ثم معلم الملائكة ثم خازن الجنة ثم جعله بعد ذلك طريداً شريداً
 لعيناً رجيماً والنبي صلى الله عليه وسلم - كان في أول أمره فقيراً يتيمًا تارة يسمى يتيم
 أبي طالب وتارة أجير خديجة ثم جعله في أواخره سيد الثقلين وفخر الدارين وفضله
 على جميع خلقه .

وأنت يا أخي قد قرّت عين نبيك - صلى الله عليه وسلم - بل حيث أمنت به
 وصدقته وتابعته في جميع أوامره واستننت بستته وأحبيت أصحابه رضوان الله عليهم فلا
 تمنع نفسك فضل الصلاة عليه في أكثر أوقاتك من الليل والنهار ولا تكن بخيلاً بذلك
 فهو أفتح البخل فإن صليت عليه فأليك تصل فائدة ذلك إذ هو غني عن صلاتك وإن لم
 تفعل فعليك يعود ضرره فإنك قد قطعت الوسيلة بينك وبينه إذ منك الصلاة ومنه
 الشفاعة وكيف تغفل عن الصلاة عمن ترجو به نجاتك غداً من الأهوال العظام وعمن
 خباً دعوته شفاعة لامته وعمن قال تعرض عليّ في كل جمعة أعمال أمّتي فما رأيت منها
 حسناً حمدت الله تعالى عليه وما رأيت منها شيئاً استغفرت الله تعالى لهم .

وقيل أيضاً أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم : لم يزل يُسأل في أمته حتى
 قيل له : أما ترضى وقد أنزلت عليك ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ فقد
 كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مشغولاً بنا أيام حياته وبعد وفاته حيث لم
 يغادر شيئاً يقرب أمته إلى الله تعالى ويبعدهم عن النار إلا أمرهم بذلك ودلهم على
 سبيله وعرفهم طريقه . فكان مشغولاً بأمته قبل وفاته وبعد مماته - صلى الله عليه وسلم
 - فنوروا رحمكم الله بالصلاة على المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ظلمة قبوركم
 وتزينوا بها ليوم عرضكم ونشوركم فالصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - نور في

القبور ، وجمال عند العرض والنشور ، وبهجة لأمته وسرور ، فأول لباس الخلق في القيامة ثياب الأعمال ، وبعده يلبسون حلة الكرامة والجلال أو مقطعات الخزي والنكال فيا ليت شعري ما الذي نسجت يديك من الملابس لظهورك . وما الذي أعددت له ليوم فافتك وفقرك . فأجمل لباس العبد يوم القيامة بعد ملابس الإيمان حلة الصلاة على سيد الإنس والجان . وللسادة يوم القيامة بهجة وأنوار ، وأفضل الأنوار يوم القيامة بعد نور معرفة الجبار ، نور صلاة العبد على السيد المختار . فظهروا بالصلاة عليه أوقاتكم . وطيبوا بطيها حياتكم ومماتكم وخففوا بها ثقل الأوزار . ونوروا بها القلوب والأسرار ، لأنه إذا صلى عليه أنسخ الهم من القلب . وزال عنه الغم والكرب فمن لم يجد هذا في نفسه فقد فقد ذلك من أعظم العطب . فتوسلوا بالصلاة عليه إلى المولى . واطلبوا لديه المحل الأعلى . يا أهل الزلل والجفاء . يا من هجر الفضل والوفاء . تشفع بذكر الصادق والمصطفى . واجعله ذخيرتك للأخرة والأولى . صلى الله عليه وسلم تسليمًا وأنشدوا في المعنى :

وإذا ذكرت محمدًا بمفاخرِ	نلت الأمان وفقت كل مفاخرِ
صلى الإله عليه ما غسق الدجى	ليلاً وما سرت الركاب بزائرِ
الهامشي المصطفى نور الهدى	الطاهر المقضال أفضل طاهرِ
من كلمته الشاة وهي طبيخة	والجذع حن له بوجود ظاهرِ
والماء من يده الكريمة انبعث	مثل السحاب بمائهن الماطرِ
من جاء يشكوه البعير تشكياً	إني استجرتك يا جائرة
فأجاره لما استجار بنصره	والله للمختار أفضل ناصرِ
ركب البراق بليلة من مكة	للمنجد الأغر الزاهرِ
ورقى سماوات طباقاً سبعة	فيها بقدرة ذي العطايا القادرِ

٦٧ - باب فضل الصحابة - رضي الله عنهم - وحرمان من أبغضهم

اعلم وفقنا الله وإياك لطاعته أن حب { (١) الصحابة رضوان الله عليهم فرض على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، لأن الله تعالى قد أنى عليهم في كتابه العزيز في

(١) ساقطة من الأصل .

غير موضع ، واختارهم - رضي الله عنهم - لنيه - صلى الله عليه وسلم - حين اختاره ، وقد أثنى عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووجدتهم في السراء والضراء وأحبهم وندب إلى حبهم ، وذكر فضلهم في مواضع كثيرة من أحاديثه ^(١) - صلى الله عليه وسلم - ، ولعن من أبغضهم ، وذكر أنهم يسقون أمته على الخوض .

فمن فضلهم ما ذكر إبراهيم بن الحسن الجوهري رحمه الله - يرفعه إلى ملك بن أنس - رحمه الله - عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده قال :

٦٥٦ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لما كان في الليلة التي ولد فيها أبو بكر - رضي الله عنه - أقبل ربكم عز وجل على جنة عدن فقال لها : وعزتي وجلالي لا أسكنت فيك إلا من أحب هذا المولود » ^(٢) .

٦٥٧ - وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لما أن حصلت مع صاحبي أبي بكر في الغار فمكثنا في الغار ثمانية أيام ولياليهن ، كانت من أبي بكر التفافة إلى أعلى الغار ، فنظر فيه إلى كوة ونظر فيها طيراً جالساً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، فتعجب أبو بكر لذلك ، وقال : واعجباه من هذا الطير من أين مأكوله ومشروبه ، وقول الله - عز وجل - ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فاختلج هذا في سرّ أبي بكر ، فهبط الأمين جبريل فوقف في الهواء ونادى : يا أحمد . العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول لك : قد علمت ما اختلج في سرّ أبي بكر ، فقل لأبي بكر يكلم الطير ، فإنني أمرت الطير أن يكلمه . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يا أبا بكر ما اختلج في سرّك في شأن هذا الطير . فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله عجبت من هذا الطير ولنا ثلاثاً في هذا الغار لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك

(١) في الاصل : أحاديثهم .

(٢) عزاه ابن عراق الكناني إلى « تاريخ بغداد للخطيب البغدادي من حديث ابن عمر من طريق أحمد بن محمد الهروي ، وفيه أيضاً مجاهيل ، وتابع الهروي أحمد بن عصفه ، وعنه محمد بن السري التمار . وميسرة بن عبد الله الخادم ، وهما ضعيفان (قلت) قال الذهبي في الميزان : وتبعه الحافظ ابن حجر في اللسان : أحمد بن عصفه النيسابوري عن إسحاق بن راهوية منهم هالك ، روى خبراً موضوعاً هو آفته ، فذكر هذا الخبر والله أعلم . وجاء أيضاً من حديث أبي هريرة أخرجه الخطيب من طريق الأشثاني ، ولعله من عمله . انظر : تنزيه الشريعة (١/٣٤٣ - ٣٤٤ ح٦) .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : هذا جبريل يخبرني عن رب العالمين أن تكلم الطير ، فأني أمرت الطير أن يكلمك ، فعند ذلك فرح أبو بكر فنأدى : أيها الطير كلمني بإذن الله وأنا عبد مثلك ، فأخبرني من أين مأكولك ومشروبك ، فبكى الطير حتى سقط إلى الأرض ثم تبسم ، وقال : يا أبا بكر سلني عما شئت ولا تسألني عن هذا ، فإن هذا ستر بيني وبين الله تعالى لا أريد أن يطلع عليه أحد سوى الله . فقال أبو بكر : أيها الطير إن كنت مأموراً لي بالسمع والطاعة محتاج تقول لي ما أسألك عنه . فقال الطير : يا أبا بكر والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، وارتنى بالعظمة وسمى نفسه الله لقد خلقتني في هذه الكوة من قبل أن يخلق آدم بألف عام ومأكولي ومشروبي في كلمات إذا جمعت العن من يعضك فأشبع ، وإذا عطشت أصلي على من يصلي عليك فأروي ، فعند ذلك بكى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : والله لا يحبك يا أبا بكر إلا مؤمن تقي ، وما يعضك إلا منافق شقي .

٦٥٨ - وقال عبيد بن مالك : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبل أبا بكر - رضي الله عنه - وقد وضع فاه على فيه سواء فقلت : يا رسول الله أتقبل أبا بكر هكذا ؟ فقال لي : « لا تلمني فوالله ما شبهت ثناياه إلا بلؤلؤ رأيت في الجنة » قلت : فما منزلته عندك يا رسول الله ؟ قال : « منزلته عندي كمنزلته عند ربي ولقد عجبت لأقوام يلومونني على حب الصديق فوالله إن الله لأشد حبا له مني » .

وأخبرنا عبد الرحمن بن الحسن بن واصل المهاجري بمصر قال : أخبرني رجل يكنى أبا أكزير بطرسوس قال : قال أبو الفضل بن عباس لابنه : يا بني لم سمي عتيق عتيقاً يعني أبا بكر - رضي الله عنه - ؟ قال : يا أباي لعتق وجهه وصحة نسبه . قال الفضل : كذلك هو في الظاهر وليس كذلك في الباطن . قال : فكيف هو يا أبت ؟ قال أبو الفضل : إن أم أبي بكر - رضي الله عنه - كانت تدعى بأم الخير ، وكانت كلما ولد لها ولد مات فلما ولدت أبا بكر - رضي الله عنه - احتضنته وحملته فأنت به المقام فطافت به الأركان ثم عادت إلى المقام فقالت : اللهم إنك لست برب استحدثناك ولا أعانك على خلقنا أحد سواك اللهم فهب لي ولدي هذا من الموت فإذا بكف بيبضاء قد خرجت من المقام لا معصم لها فقبضت على ناصية أبي بكر - رضي الله عنه - وهاتف

يقول : يا أمة الله ! على التحقيق فزت بحمل الولد العتيق يصاحب الولد الرفيق وقد وهب الله تعالى لك من السموت وجعله الخليفة من بعده - صلى الله عليه وسلم - .

٦٥٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أول من يرد يوم القيامة » فسكت الناس . قال : « والذي بعثني بالحق نبياً إن الخلق لوقوف بين يدي الله - تبارك وتعالى - إذ ينادي مناد : أين أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ؟ فيخرج من بين الخلق عليه حلتان من النور متتزر بواحدة مرتد بأخرى فيقف بين يدي الله تعالى فيعطى كتابه يمينه وفي عنوانه مكتوب من الله - عز وجل - إلى أبي بكر فيفضه ويقراه فإذا فيه سطران : أنت أول من صدق رسولي وآمن به ليس لي قبلك مظلمة إن شئت فقف للحساب وإن شئت فادخل الجنة ثم ينادي مناد : أين عمر - رضي الله عنه - ؟ فيخرج من بين الخلائق عليه حلتان من النور متتزر بواحدة مرتد بأخرى فيقف بين يدي الله - عز وجل - فيبينما هو واقف إذا هو بشخص حسن الوجه طيب الرائحة قد تعلق بعمر - رضي الله عنه - فيقول له : إلى أين يا عمر أنطمع أن تنجو مني ونحن بين يدي الله - عز وجل - ثم يقول : يا رب هذا عمر بن الخطاب أنصفتني منه وأنصفه مني . قال : فترتعد فرائص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ويقول : من أنت فما ظننت أنني ظلمت أحداً في الدنيا فإذا النداء من قبل الله تعالى : لا تروع عمر وعرفه بنفسك فيقول له : يا عمر أوما تعرفني ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا الذي كنت خفياً فأظهرني الله تعالى بك . أنا الإسلام . فإذا النداء من قبل الله - عز وجل - : قده أيها الإسلام إلى الصراط . قال النبي - صلى الله عليه وسلم - والذي بعثني بالحق نبياً أن عمر بن الخطاب ليس يجاوز الصراط حتى يشفع في سبعين ألفاً ممن استوجبوا العذاب .

٦٦٠ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما من أمتي أرحم بأمتي من أبي بكر »^(١) .

(١) أخرجه الترمذي : المناقب (٥/٦٦٤ ح ٣٧٩٠) وقال : حديث حسن غريب .

وابن ماجه : المقدمة (١/٥٥ ح ١٥٤) ، وأحمد : المسند (٣/٣٤٤ ح ١٣٩٩٨) عن أنس بن مالك - رضي

الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . . . » .

٦٦١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما مررت بسماء إلا وجدت فيها اسمي مكتوب محمد رسول الله أبو بكر من خلفي » ^(١) .

٦٦٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لجبريل - عليه السلام - : « من يهاجر معي ؟ قال : أبو بكر الصديق فسماه من ذلك الوقت صديقاً » ^(٢) .

٦٦٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن لي وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض ، فوزيراي من أهل السماء : جبريل وميكائيل - عليهما السلام - ، ووزيراي من أهل الأرض : أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - » ^(٣) .

٦٦٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ^(٤)

٦٦٥ - و « أبو بكر وعمر سيدا كهولها » ^(٥) .

٦٦٦ - وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى الصحابة عن القيام إليه ثم قام ذات يوم لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ثم قال للصحابة : « كنت نهيتكم

(١) عزاه الكتاني إلى أبي بكر الجوزقي من حديث أبي سعيد بلفظ : « لما عرج بي إلى السماء . قلت : اللهم اجعل الخليفة من بعدي علي بن أبي طالب ، فانجحت السموات ، وهتف بي الملائكة من كل جانب . يا محمد اقرأ ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ وقد شاء الله أن يكون من بعدك أبو بكر الصديق » .
وقال : وفيه يوسف بن جعفر الخوازمي ، قال أبو سعيد النقاش : وهذا من وضعه ، قال السيوطي : وجاء من طريق آخر أخرجه الديلمي (قلت) فيه الديري ، وعنه علي بن جعفر الخوارزمي ، وأظنه يوسف هذا ، دلس بتسميته علياً ، وإلا فمجهول ، وفيه مجهولون آخرون . والله أعلم .
انظر : تنزيه الشريعة (١/٣٤٥ ح ١١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/٥) من طريق أبي البحتري عن علي - رضي الله عنه - . فذكره . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٢٦٤) من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - فذكره . انظر : الدر المنثور للسيوطي (١/٩٤) . وعند الترمذي : المناقب (٥/٦١٦ ح ٣٦٨٠) بلفظ : « ما من نبي إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض ، فأما ... » وقال : حديث غريب .

(٤) أخرجه الترمذي : المناقب (٥/٦٥٦ ح ٣٧٦٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه : المقدمة (١/٤٤ ح ١١٨) وأحمد : المسند (٣/٥٠٥ ح ١١٠٠٥) .

(٥) أخرجه الترمذي : المناقب (٥/٦١١ ح ٣٦٦٦) وابن ماجه : المقدمة (١/٣٨ ح ١٠٠) وأحمد : المسند (١/١٠٠٤ ح ٦٠٤) .

عن القيام . ثم قمت لأبي بكر ما قمت له وإنما كان عندي جبريل - عليه السلام - فقام لأبي بكر فقمت لقيام جبريل - عليه السلام - .

٦٦٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « عمر سراج أهل الجنة » ^(١) .

٦٦٨ - وقيل : لما أسلم عمر - رضي الله عنه - نزل جبريل - عليه السلام - على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : استبشر أهل السماء بعمر حين أسلم .

٦٦٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « جاءني جبريل - عليه السلام - فقلت له : يا جبريل أخبرني أو قال : حدثني بأفضل فضائل عمر في السماء . فقال لي : لو حدثتك بفضائل عمر بمقدار ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ما حدثتك ببعض فضائله وإن عمر حسنه من حسنات أبي بكر » ^(٢) .

٦٧٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر - رضي الله عنه - يوماً : « لو لم أبعث لبعثت يا عمر » ^(٣) .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٣٣/٦) عن أبي هريرة ، وقال : غريب من حديث مالك تفرد به عنه الواقدي وعزاه الحافظ العجلوني إلى البزار عن ابن عمر بسند ضعيف ، وابن عساكر عن المصعب بن جثامة وعزاه الحافظ ابن حجر في تخريج مسند الفردوس للطبراني عن أبي هريرة ، قال : وفي الباب عن ابن عمر .
انظر : كشف الخفاء (٩٤/٢) ح (١٧٨٢) .

(٢) عزاه الكتاني في تنزيه الشريعة إلى الحسن بن عرفة من حديث عمار بن ياسر ، قال : وفيه إسماعيل بن عبيد بن نافع البصري ، وجاء من حديث أبي بن كعب من طريقين أخرجهما ابن بطة ، وفيه عبد الله ابن عامر الأسلمي ليس بشيء . قال ابن حبان يقلب الأسمانيد والمتون (قلت) قال الحافظ بن حجر في لسان الميزان : ليست الآفة منه ، وفي السند ابن بطة والنقاش المفسر وفيهما مقال صعب ، وأخرج الآخر تمام في فوائده وفيه حسان بن غالب . (قلت) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك من طريق حسان ، وقال : موضوع ، وجاء أيضاً من حديث زيد بن ثابت وأبي سعيد أخرجهما ابن عساكر ، الأول من طريق الكديمي ، والثاني من طريق داود بن سليمان ، قال الأزدي : خراساني ضعيف جداً ، وفيه غيره ممن ينظر في حاله ، وجاء أيضاً من حديث عائشة أخرجه الخطيب ، وفيه أبو القاسم برية بن محمد بن برية البغدادي
انظر : تنزيه الشريعة (٣٤٦/١) ح (٤) .

(٣) قال الحافظ العجلوني : قال الصغاني : موضوع انظر : كشف الخفاء (٢١٣/٢) ح (٢١٢٠) ، وعند الترمذي عن عتبة بن عامر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » . وقال : هذا حديث حسن غريب . أخرجه الترمذي : المناقب (٦١٩/٥) ح (٣٦٨٦) .

٦٧١ - وفي الخبر : أن جبريل - عليه السلام - جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد اقرأ على عمر بن الخطاب السلام وأعلمه أن غضبه عز ورضاه حكم^(١) .

٦٧٢ - وقال معاذ - رضي الله عنه - : سمعت عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - صف لنا عرش ربك فقال : « يا عثمان إن عرش ربنا له ثلاثمائة قائمة استدارة كل قائمة منها كمثل الدنيا ستين ألف مرة من وراء كل قائمة ستون ألف صحراء في كل صحراء ستون ألف عالم كل عالم منهم مثل الثقلين من الجن والإنس لا يعلمون أن الله خلق آدم ولا إبليس قد أمرهم الله تعالى أن يستغفروا لمجيء أبي بكر وعمر ، وأن من وراء المشرق لستون ألف صحراء كل صحراء مثل الدنيا ستين ألف مرة في كل صحراء ستون ألف عالم كل عالم منهم مثل الثقلين من الجن والإنس لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم ولا إبليس قد أمروا أن يلعنوا مبغضني أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما » .

٦٧٣ - وقال علي - رضي الله عنه - : قلت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله من أول من يدعى للحساب ؟ قال : « أنا ثم هنيهة ثم يغفر لي » فقلت : ثم من ؟ قال : « أبو بكر ثم هنيهة ثم يغفر له » قلت : ثم من ؟ قال : « عمر ثم هنيهة ثم يغفر له » قلت : ثم من ؟ قال : « أنت ثم هنيهة ثم يغفر لك » قلت : فما رأيتك ذكرت عثمان ؟ فقال : « إن عثمان ذو حياء وإني سألت الله تعالى ألا يناقشه الحساب ففعل تعالى » .

٦٧٤ - وحدثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم الشافعي - رحمه الله - ببغداد عن حدثه من الصحابة - رضي الله عنهم - قال : صلى بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة الظهر أو قال : العصر فأقام في الركعة الأولى حتى ظننا أنه لا يرفع رأسه ثم رفع رأسه ورفعتنا بعده فلما قضيت الصلاة انفتل في محرابه - صلى الله عليه وسلم - ونادى :

(١) عزاه الحافظ الهيثمي عن ابن عباس إلى الطبراني في الأوسط . وقال : وفيه خالد بن زيد العمري وهو ضعيف . انظر : مجمع الزوائد (٧٢/٩) .

«أين أخي وابن عمي ابن أبي طالب؟» فأجابه علي - رضي الله عنه - من آخر الصفوف لبيك لبيك يا رسول الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أذن مني يا أبا الحسن» فلم يزل يدينه حتى أجلسه بين يديه وقال : «يا أبا الحسن أما سمعت ما أنزل عليّ جبريل - عليه السلام - في فضل الصف الأول والتكبيرة الأولى؟» قال : بلى يا رسول الله . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «فما الذي أبطأ بك عن الصف الأول والتكبيرة الأولى هل شغلك حب الحسن والحسين؟» فقال علي - عليه السلام - وهل يشغلني جبهما عن الله - عز وجل؟ قال له : «فما الذي أشغلك عن ذلك؟» قال علي - رضوان الله عليه - : يا رسول الله إنه أذن بلال وأنا في المسجد فركعت ركعت ، وأقام بلال الصلاة وكبرت معك فوسوسني شيء من أمر الوضوء فخرجت عن المسجد إلى ابنتك فاطمة فناديت : يا حسن ، يا حسين ، يا فاطمة . فلم يجبني أحد فبينما أنا كالمرأة الثكلى أو كالحية على المقلبي أطلب ماء لوضوئي إذا هتف بي هاتف عن يميني : يا أبا الحسن التفت عن يمينك فالتفت فإذا أنا بقديس من الذهب الأحمر مغطى بمنديل أخضر فكشفت المنديل فإذا فيه ماء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج والين من الزبد فتطهرت للصلاة وتمندلت بالمنديل ورددته على القديس والتفت فلم أره ولا أدري من وضعه ولا أدري من رفعه . فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : «بخ يخ أتدري يا أبا الحسن من أتاك بالمنديل والقديس؟» قال : الله ورسوله أعلم . قال : «أتاك بالقديس جبريل - عليه السلام - والماء من حظيرة العرش ، والذي مندلك بالمنديل فذلك جبريل - عليه السلام - ، والذي أمسك يدي على ركبتني حتى أدركت معي الركعة إسرافيل - عليه السلام - . يا أبا الحسن من أحببك فقد أحبه الله وخاب من أبغضك» .

٦٧٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «ما هبط عليّ جبريل - عليه السلام - إلا وقال : يا محمد إن الله - تبارك وتعالى - وحمله عرشه وملائكته سماءً سماءً يقرءون على عليّ بن أبي طالب السلام» .

٦٧٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : «لما أسري بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله أيده بعلي» .

وقال ثعلبة : دخلت على علي بن أبي طالب - عليه السلام - ثاني يوم طعن وكان يغمى عليه وهو يجود بنفسه وأم كلثوم تبكي فلما أفاق قال : ما هذا الصوت ؟ فقيل له : أم كلثوم . فقال لها : ما يبكيك يا بنية ؟ فقالت : ما أرى بك يا أمير المؤمنين . فقال لها : إنك لو رأيت ما أرى ما بكيت هذا موكب ملائكة السماوات السبع يأتيني فوجاً فوجاً يسلمون عليّ ، وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين يدي يقول : أمامك خير لك .

٦٧٧ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلي - رضوان الله عليه - : « أنت أخي تغسل جثتي وتؤدي ديني وتواريني في حفرتي وتحمل لوائي » .

٦٧٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خير الصحابة أربعة ، وخير الطلائع أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن ينهزم اثني عشر ألف من قلة إذا صبروا وثبتوا » ^(١) .

٦٧٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لقد صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين فإنه لم يكن معي غيره » ^(٢) .

٦٨٠ - وذكر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخا بين أصحابه فجاء عليّ - عليه السلام - يبكي أو قليل : تدمع عيناه . فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخي بيني وبين أحد ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « أنت أخي في الدنيا والآخرة » ^(٣) .

(١) أخرجه أبو داود : الجهاد (٣/٣٧ ح ٢٦١١) ، وقال : والصحيح أنه مرسل .

والترمذي : السير (٤/١٢٥ ح ١٥٥٥) وقال : هذا حديث حسن غريب . وأحمد : المسند (١/٣٨٣ ح ٢٦٨٦) .

(٢) عزاه الكناني في التنزيه إلى ابن الجوزي من حديث أبي أيوب الأنصاري وفيه محمد بن عبد الله بن أبي رافع الهاشمي مولاهم ، وليس بشيء منكر الحديث ، وابن عدي من حديث أنس ، وفيه عباد بن عبد الصمد . أنظر : تنزيه الشريعة (١/٣٧٦ ح ٩٨) .

(٣) أخرجه الترمذي : المناقب (٥/٦٣٦ ح ٣٧٢٠) وقال : هذا حديث حسن غريب ، والحاكم في المستدرک (٣/١٤٣) .

٦٨١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعلي - رضي الله عنه - : « طوبى لمن أحببك وصدق بك ، وويل لمن أبغضك وكذب فيك » (١) .

٦٨٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لعلي - رضي الله عنه - : « إن الله تعالى أمرني أن أدنيتك ولا أقصيتك ، وأن تعمي ، وحق لك أن تعي فنزلت هذه الآية : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ » { الحاقة : ١٢ } (٢) .

٦٨٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « النظر إلى وجه عليّ عبادة » (٣) .

٦٨٤ - وعن أبا ذر - رضي الله عنه - أنه قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك إذا اجتاز بغیضة فوقف فوقنا لوقفه ثم أقبل عليّ بوجهه الكريم فقال : « يا أبا ذر إن الله تعالى ودیعة في هذه الغیضة خلقها الله من قبل أن يخلق آدم بألفي عام . يا أبا ذر اقتحم الغیضة ترى عجباً » . قال أبو ذر : فاقتمت الغیضة فإذا أنا بأربعة أغصان من الورد فدنوت من الأول فإذا أنا به من الورد الأبيض عليه بالحمرة مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق فعلى شائته لعنه الله فانصرفت أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فناداني الغصن الثاني : يا أبا ذر أدن مني ترى عجباً فرجعت نحوه فإذا بعض الورد الأحمر مكتوب عليه بالنور : لا إله إلا الله محمد رسول الله الفاروق عمر بن الخطاب فعلى شائته لعنه الله ، فانصرفت أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - فناداني الغصن الثالث : يا أبا ذر أقبل إليّ ترى عجباً فأقبلت نحوه فإذا أنا بأتربة خضراء على غصن الورد وإذا عليها مكتوب بالنور : لا إله إلا الله محمد رسول الله الشهيد عثمان فعلى شائته لعنه الله فانصرفت أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/١٣٥) عن عمار بن یاسر - رضي الله عنه - .

(٢) عزاه الحافظ السيوطي في الدر المنثور إلى ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بريدة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « فذكره » . انظر : الدر المنثور (٦/٢٦٠) . وأبو نعيم في الحلية (١/٦٧) بلفظ : « يا علي إن الله أمرني أن أدنيتك وأعلمك تعي فانزلت هذه الآية وتعيها أذن واعية فأتت أذن واعية لعلمي » عن علي - رضي الله عنه - .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/٥٨) من طريق علقمة عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -

وعزاه الكتاني في التنزيه إلى ابن الجوزي من حديث أبي بكر الصديق من طريقين ، والخطيب من حديث معاذ بن جبل ، وابن عدي من حديث أنس من طريقين . انظر : تنزيه الشريعة (١/٣٨٢ ح ١٠٦) .

وسلم - فناداني الرابع : يا أبا ذر أدن مني ترى عجباً فأقبلت نحوه فإذا أنا بلؤلؤة
 بيضاء على غصن الورد وإذا عليها مكتوب بالنور : لا إله إلا الله محمد رسول الله
 الفتى علي بن أبي طالب فعلى شأنه لعنه الله فانصرفت فأخبرت النبي - صلى الله عليه
 وسلم - فقال لي : « هذه ودیعة الله خلقها قبل أن يخلق آدم بالقي عام فمن أتى يوم
 القيامة ولم يستنقص منهم شيئاً دخل الجنة ، ومن أتى بها يوم القيامة واستنقصهم دخل
 النار » .

وأنشدوا في المعنى :

إني أحب أبا حفص وشيعته كما أحب عتيقاً صاحب الغار
 وقد رضيت علياً قدوة علماً وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
 كل الصحابة عندي قوة علم فهل عليٌّ بهذا القول من عار
 إن كنت تعلم أنني لا أحبهم إلا لأجلك فاعتقني من النار

٦٨٥ - وروي أن جبريل - عليه السلام - كان عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم في
 صورة دحية الكلبي فتعلق به الحسن والحسين - عليهما السلام - فقال : يا محمد متى
 عرفاني ؟ فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إنما فعلا ذلك لأن الرجل الذي
 تأتيني في صورته يحمل إليهما من الفواكه ما يظرفهما به » . فجاء جبريل بعد ذلك برمان
 فأكله فقال جبريل - عليه السلام : لو سقطت منه حبة واحدة لشقي بها أهل الأرض
 ولكن الله تعالى جعلها رزقاً لهما .

٦٨٦ - وروي عن الحسين - عليه السلام - أنه قال : دخلت على رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - وعنده أبي بن كعب فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
 « مرحباً بك يا عبد الله يا زين السماوات والأرض » . فقال له أبي : كيف يكون زين
 السماوات والأرض أحد غيرك ؟ فقال :

« يا أباي والذي بعثني بالحق نبياً إن الحسين بن علي في السماء أكبر منه في
 الأرض ، وإنه لمكتوب عن يمين عرش الله عز وجل مفتاح هاد وسفينة نجاة وإمام غير وهن
 وعز وفخر وعلم وذخر عليه وعلى آبائه السلام » .

٦٨٧ - وروي عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله خلقني وعلياً نورين بين يدي العرش يسبحان الله ويقدساه من قبل أن يخلق آدم بالفني عام فلما خلق آدم أسكننا صلبه ثم نقلنا من صلب طيب وبطن طاهر لا تحتك فينا عاهة حتى أسكننا صلب عبد المطلب ثم افترق النور من عبد المطلب فصار ثلثاه في عبد الله فخرجت منه وثلثه في أبو طالب فخرج منه علي ثم اجتمع النور مني ومن علي في فاطمة فالحسن والحسين نورين من نور رب العالمين » .

٦٨٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لفاطمة - رضي الله عنها - : « يا فاطمة إن الله تعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك » ^(١) .

٦٨٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - لما مات ولدي من خديجة أوحى الله تعالى إليّ لا تقربها وكنت لها محباً فسألت الله تعالى أن يجمع بيني وبينها فأتاني جبريل - عليه السلام - ليلة الجمعة لأربع خلون من شهر رمضان يطبق من رطب الجنة فقال لي : يا محمد كل هذا وواقع خديجة الليلة ففعلت فحملت بفاطمة فما لبثت فاطمة إلا وجدت ريح ذلك الرطب منها صلى الله عليها وعلى أبيها وأمها وجميع أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

وفي الخبر : أن فاطمة - رضي الله عنها إنما سميت فاطمة لأن الله عز وجل فطم من أحبها من النار .

٦٩٠ - وعن عائشة - رضي الله عنها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لها : « إن جبريل - عليه السلام - يقرأك السلام » فقلت : وعليه السلام ^(٣) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٨/١ ح ١٨٢) ، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٢٠٦/٩) : وإسناده حسن . والحاكم في المستدرک (١٥٣/٣ - ١٥٤) عن علي - رضي الله عنه - .

(٢) عزاه الكتاني في تنزيه الشريعة إلى أبو بكر الشافعي من حديث عمر ، وفيه عمرو بن زياد الثوباني (قلت) قال الذهبي في التخليص : وهو الذي وضعه فانتضح العثر ، فإن فاطمة ولدت قبل المبعث والله أعلم . أنظر : تنزيه الشريعة (١/٤٠٩ ح ٦) .

(٣) أخرجه البخاري : فضائل الصحابة (٧/١٣٣ ح ٣٧٦٨) ومسلم : فضائل الصحابة (٤/١٨٩٥ ح ٢٤٤٧/٩٠) ولفظه له .

٦٩١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كل نسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي » (١) .

٦٩٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الله الله في أصحابي استوصوا بهم خيراً لا تؤذوهم فمن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله » (٢) .

٦٩٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من أحب أصحابي كلهم واستغفر لهم كان معهم يوم القيامة في الجنة » .

٦٩٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا » (٣) .

وذكر أن أبا بكر - رضي الله عنه - ولي أربع سنين وأربعة أشهر ، وولي عمر - رضي الله عنه - عشر سنين وستة أشهر ، وولي عثمان - رضي الله عنه - اثني عشر سنة وقتل سنة خمس وثلاثين ، والجمل سنة ست وثلاثين ، وصفين سنة سبع وثلاثين ، وولي علي - عليه السلام - خمس سنين وستة أشهر وقتل سنة أربعين ، ودفن آدم - عليه السلام - بين بيت المقدس وصخرة إبراهيم - صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه رأسه عند البيت ورجلاه عند الصخرة وبينهما ثمانية عشر ميلاً .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : الدنيا كلها سبعة آلاف سنة مضى منها من آدم إلى نوح - عليهما السلام - ألفاً ومائتا سنة ، ومن نوح إلى إبراهيم - عليهما السلام - ألف سنة ومائة واثان وأربعون سنة ، ومن إبراهيم إلى موسى - عليهما السلام - خمسمائة سنة وخمسون سنة ، ومن موسى إلى داود - عليهما السلام - خمسمائة سنة

(١) أخرجه أحمد : المسند (٣٩٦/٤) ح (١٨٣١) بلفظ : الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري « عن المسور بن مخزومة ، والطبراني في الكبرى (٣/٤٤) ح (٢٦٣٣ - ٢٦٣٤) عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بلفظ : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا نسبي ونسبي » أنظر : الدر الثمور (١٥/٥) .

(٢) أخرجه الترمذي : المناقب (٥/٦٩٦) ح (٣٨٦٢) ، وقال : هذا حديث غريب . وأحمد : المسند (٥/٦٧) - ٦٨ ح (٢٠٥٧٤) عن عبد الله بن مغفل - رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/٩٦) ح (١٤٢٧) عن ثوبان عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكره . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٧/٢٠٥) : وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف ، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٠٨) عن عبد الله .

وتسعة وسبعون سنة ، ومن داود إلى عيسى - عليهما السلام - ألف سنة وثلاثة وخمسون سنة ، ومن عيسى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ستمائة سنة وخمس عشرة سنة فذلك ستة آلاف سنة ومائة وتسعة وثلاثون ، والساعة تقوم في الساعة ، وإنما مثلها كالمرأة الحامل إذا دخلت في تاسعها لم تدر في أوله تلد أم في أوسطه أم في آخره ، وقيل أن لسان الأرض الذي نطقت به موضع يقال له : الأردن .

جعلنا الله وإياكم ممن أحب النبي - صلى الله عليه وسلم - وجميع أصحابه - رضوان الله عليهم - ومن أبغض من أبغضهم وحشرنا في زمرة من أبغضهم ، وصلى الله على محمد وعلى جميع سببين .

٦٨ - باب تسوية التوبة والإصرار ونسيان الذنوب وترك الاستغفار

وهذا الباب يجمع أربعة أبواب .

اعلم وفقنا الله وإياك أن المقامات الشريفة المندوب إليها المرغوب فيها ليست على رتبة واحدة فإن بعضها مقصود لذاته كالمحبة والرضا فإنها أعلى المقامات ، وبعضها أيضاً مطلوبة لغيرها كالتوبة والخوف والزهد والصبر ، فاما التوبة فمعناها الرجوع في طريق البعد إلى طريق القرب والوصول إلى المقصود من غير مانع ، والخوف أيضاً يسوق صاحبه إلى ترك الشواغل من مهمات الدنيا وشهواتها ، والصبر أيضاً جهاد الشهوات القاطعة عن طريق القرب وكل ذلك غير مطلوب لذاته ، وإنما المطلوب القرب كالمحبة والمعرفة فهما مطلوبان لذاتها لا لغيرهما وإنما يتم ذلك بقطع حب غير الله تعالى عن القلب . فاجعل حياتك في إجابته وفناءك في محبته فإن القلب إذا خلا بما سوى الرب لم يبق فيه إلا محادثة المولى فلا يشغلنك عن الله تعالى أمره بل يكن جثمانك في أمره وقلبك معه ، واعلم أن الحاجب عن الله سبحانه حاجبان أحدهما أكثف من الآخر . وهما الذنوب وحجاب الشهوات وكلاهما ظلمة لا يتقن فيها نور القدس أبداً إلا عن توبة صادقة لأنهما لا يلتقيان النور والظلمة . فالتوبة مبدأ طريق السالكين ومفتاح سعادة الملحوظين قال الله - عز وجل ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ {البقرة: ٢٢٢} فقد اختص التائب بالمحبة . وأما الندب في ذلك فهو قوله - عز وجل - : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ {النور: ٣١} وقال تعالى : ﴿ وإنني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ {طه: ٨٢} .

وقال تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا ﴾ ، وقال جل تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فإما من تاب وآمن وعمل صالحًا فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ويل لكل أفيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أي : ذكروه في نفوسهم وعلموا أنه سائلهم عما عملوا فتابوا إليه واستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا : كأنه يقول ولم يقيموا على ما فعلوا وهم يعلمون أنها معصية ، وقال تعالى : ﴿ فمن جاء موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ واعلم أن للتوبة ثمرتين : إحداهما : تكفير السيئات ، وحتى يصير كمن لا ذنب له ، والثانية : نيل الدرجات حتى يصير حبيبًا .

٦٩٥ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

فكما أن التائب حبيب الله فالمصير إذاً ضده ، وكما أن التائب لا ذنب له فكذلك المصير ذنوبه موفورة ليوم حسابه لأنه لم يح منها شيئاً . وكذلك فاعلم أن توقع العفو مع خراب الأعمال توقع جائز يمكن أن يكون ، ويمكن أن لا يكون كنزول المطر وكرجل ترك التجارة والحراثة والتكسب وقعد لا يشتغل بشيء يكسب منه على نفسه وجعل يتوقع إصابة كنز يستكثر به من القلة ولم ينظر إلى قوله عز وجل : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وإلى قوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ وإلى قوله عز وجل : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في لأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحو السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿النمل: ٩٠﴾
 وقال عز وجل : ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا
 يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل
 لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴿السجدة: ١٩﴾ وقيل معنى قوله تعالى :
 ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ كأنه يقول : كلما
 فتحوا باباً من المعصية فتحنا عليهم باباً من الرزق ونسيناهم الاستغفار .

٦٩٦ — وقال — صلى الله عليه وسلم — : « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع
 استغفار » (١) .

فالتوبة تحل عقدة الإصرار ولو عاد في اليوم سبعين مرة .

والحكمة في ذلك أن الله تعالى قدر الأشياء وقدر لها أسباباً فجعل الطاعة سبب
 القربة والرفعة والثواب ، والمعصية سبب الحجاب والبعد والعذاب ، وجعل التوبة أيضاً
 سبباً لمحو السيئات ووفور الحسنات ، والإصرار سبباً لتمحيق الحسنات ووفور السيئات ،
 وجعل المباشرة سبباً للولد والحراثة سبباً للحصد ، والنقل سبباً للملك . فطلب الولد
 من غير مباشرة محال ، وطلب الحصد من غير حرث محال ، وطلب عبد من عبد
 محال ، وطلب درجات من غير تقوى محال بدليل قوله سبحانه : ﴿ مثل الجنة التي
 وعد المتقون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ .

ولما ورد في المناجات أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : يا موسى لا
 تكونن ممن يطول الأمل ويترك التوبة ويرجو الجنة بغير عمل ، يا موسى أطعني بقدر
 حاجتك إليّ ، واعصني بقدر صبرك على النار ، يا موسى اعبدني وارحُ رحمتي ولا
 تكونن ممن يعصيني ويرجو رحمتي فإن ذلك عمل المنافقين ، يا موسى قل لمن يعصيني

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٤٥٦ ح ٧٢٦٨) عن ابن عباس - رضي الله عنه موقوفاً . وعزه الحافظ
 العجلوني إلى أبي الشيخ والديلمي عن ابن عباس رفعه ، وكذا العسكري عنه في الأمثال بسند ضعيف ،
 لا سيما ورواه ابن المنذري في تفسيره عن ابن عباس من قوله ، والديلمي عن أنس مرفوعاً ، وإسحاق بن
 بشر في المبتدأ عن عائشة ، لكن حديثه منكر ، والطبراني عن أبي هريرة ، لكن في إسناده بشر بن عبيد
 الفارسي متروك ، والشعبي وابن شاهين في الترغيب عن أبي هريرة . انظر : كشف الخفاء (٢/٤٩٠)
 ح (٣٠٧١) .

إن العاصي سبب غضبي وما أنا بعجول ، يا موسى كثرة الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين ، ثبات الدين الورع ، وهلاك الدين الطمع .

وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه - عليهم السلام : لا تنظروا إلى قلة الهدية وانظروا إلى مهديها ، ولا تنظروا إلى صغر الذنب وانظروا إلى كبرياء من واجهته به .

٦٩٧ - وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن لم تستمن توبة التائب عليه فليس بتائب حتى يرضى الخصماء ، ويعيد ما فاته من الصلوات ، ويتجنب الشهوات ، ويتواضع بين الناس فيهزل جسمه بصيام النهار ، ويتغير لونه بقيام الليل ويخمص بطنه بقلة الأكل ، ويتقوص ظهره من مخافة النار ، وتدوب عظامه شوقاً إلى الجنة ، ويخف جلده بذكر الآخرة » . وأنشدوا :

مرض القرايح صحة الإعجاب	نوم الجوارح يقظة الألباب
إن الجوارح كالجوارح للنهي	خرجته من آفاتها بالناب
يا جانحاً بجوانح القلب التي	جمحت عن الولي إلى الأسباب
فيك الدواء وفيك داؤك فاجتهد	في شربة تشفى من الأوصاب
خذ من شراب الزهد في كأس التقى	فالزهد للألباب كالجلاب
وانقع عروق الذكر مع زهر الرضى	وبزور جند في إناء مناب
وأضف إليهم ماء دمعك خيفة	مما صنعت ومن وبيل مناب
وأشربه في أسحار قربك وابتدر	واحم الفؤاد مطاعم الآراب

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : كل ذنب أقام عليه العبد حتى يموت فهو كبيرة ، وكلما تاب منها قبل الموت فليس بكبيرة . وسئل الجنيد - رحمه الله - عن نعت التوبة ؟ قال : أن تكون إلى الله مقبلاً كما كنت عنه معرضاً .

وقال ذو النون المصري - رضي الله عنه - : يلزم التائب في توبته ثلاثة أشياء يستقيم بها أمره إن شاء الله : الندم بالجنان ، والاستغفار باللسان ، والاحترار من الأدران ، ثم يعلن بالاعتذار والاستغفار ويصرخ إلى سيده في الليل والنهار ويظهر البث والسكون ويتجرد من لباس أبناء الدنيا ويلبس أطمار أهل التقى ويطلب نفسه بالحسنى .

وأنشدوا في ذلك :

يا حبيب القلوب مالي سواك
 أنت سؤلي ومنيتي وسروري
 ارحم اليوم مذنباً قد أتاك
 قد أبى القلب أن يحب سواك
 يا منائي وسيدي واعتمادي
 طال شوقي متى يكون لقاك
 ليس سؤلي من الجنان نعيم
 غير أنني أريدها لأراك

قال وهب بن منبه - رضي الله عنه - : كان عابد من عباد بني إسرائيل عبد الله تعالى أربعين سنة مخلصاً ثم إنه أخطأ خطيئة بعد الأربعين خالف فيها ربه وترك فيها أمره فخرج من متعبده هارباً حتى أتى البحر فقال : يا بحر العريض عرضه البعيد طوله الطويل قعره الكثير سكانه وعجائبه هل فيك من مخبأ ؟ فأوحى الله تعالى إليه أن أجب عبيدي . فقال له البحر : يا عبد الله فممن تريد المخبأ ؟ قال : من رب العالمين استحياء منه لخطيئتي . فقال له البحر : ومن أين فيّ مخبأ وما فيّ قطرة إلا وهي موزونة بميزان ومكيلة بمكيال مع ملك موكل بها مع علم الله تعالى فلو أردت غير الذي أمرت به لحسف بي . فولى العابد وهو يقول : سبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك فأين المهرب ثم سار في الأرض حتى إذا قطع منها ما شاء الله أن يقطع فوقع في مفازة فيحاء واسعة لا يدري أين طرفها ولا ما قطع منها ولا ما بقي ، وهي قاع صفصفاً فنادى : أيتها الأرض البعيدة أطرافها الكثيرة ساكنها وعامرها هل فيك من مخبأ ؟ فأوحى الله تعالى إلى الأرض : أن أجيب عبيدي . فقالت له الأرض : يا عبد الله ومن تريد المخبأ وما فيّ حجر ولا مدر صغيرة ولا كبيرة إلا موزونة مكيلة مع ملك موكل بها مع علم الله تعالى فلو أردت غير الذي أمرت به لحسف بي . قال : فولى العابد يقول : سبحانك سبحانك يا عظيم ما أعظم سلطانك فأين منك المهرب ثم إن العابد سار حتى لحق بالجبال فجعل يتخللها حتى وقف على أطولها جبلاً وأكثرها شعاباً وطرفاً فنادى : أيتها الجبال الطويل طولها الضخم صخورها الكثيرة شعابها هل فيكم من مخبأ فيسترنني فإنني مذنب خاطئ ؟ فأوحى الله - عز وجل - إلى الجبل : أن كلم عبيدي . فقال له الجبل : سبحان الله وأين أسترك فوالله ما في صخرة ولا ورقة يابسة ولا رطوبة إلا وعليها ملك موكل بها لا يفتر من التسييح مع علم الله تعالى فيّ فلولاً أردت غير الذي أمرت به لصاغت بي الأرض ، فرفع عند ذلك يديه للسماء وقال : يا عظيم سبحانك ما أعظم سلطانك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك فمكث على ذلك أربعين سنة حتى بلي جسمه وغيرته الرياح والشمس وطال شعره حتى كان يلتف به ، فلما كان بعد الأربعين

سنة بعث الله تعالى إليه ملك الموت - عليه السلام - يقبض روحه وأمره أن يقرأه السلام ويخبره أنه قد غفر له ربه ذنبه بندامته على معصيته ، فأتى ملك الموت فسلم عليه ، وقال له العابد : من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا ملك الموت . قال : وما حاجتك إليّ : قال : إن ربك - عز وجل - أرسلني إليك وأمرني أن أقرئك منه السلام وأعلمك أنه قد غفر لك خطيئتك بندامتك على معصيتك وأوجب لك الجنة وأمرني بقبض روحك . قال : فكان العابد لم يعبد الله تعالى طرفه عين إستقلالاً منه للعبادة حيث بشره بالجنة ، وهو قد اجتهد لله تعالى ثمانين سنة . فقال العابد : يا ملك الموت إن أنت أذنت لي صليت لربي صلاة أختتم بها عملي فاستأذن ملك الموت - عليه السلام - ربه في ذلك فأذن له ، فصلى العابد ركعتين ثم قال : إلهي الحق روحي بالأرواح وجسدي بالتراب واتركني هماً بين يديك ولا تبعثني للحساب فإنني أستحي منك من أجل خطيئتي .

هكذا يكون حال من قارف ذنباً أو خالف أمراً يخلص التوبة ويكثر الاستغفار والتضرع . وذكر أن بعض أنبياء بني إسرائيل - عليهم السلام - سأل الله تعالى أن يتقبل توبته بعد أن اجتهد الرجل في العبادة سنين ولم ير قبول توبته فأوحى الله تعالى إليه : وعزتي وجلالي لو شفع أهل السموات والأرض ما قبلت ذلك وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه .

وذكر أن آدم - عليه السلام - لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبقيت عورته مكشوفة فاستحى التاج والإكليل من وجهه فلم يزولا ، فجاء جبريل - عليه السلام - فأخذ التاج عن رأسه والإكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش : اهبط من جواربي فإنه لا يجاورني من عصاني فالتفت إلى حواء وقال : هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوارحبيب . والحكمة فيه أن من طلب مقصوداً له ومراداً بمعصية يتخذها سبباً للوصول إلى مراده فإنه يزداد عن مقصوده ومراده بعداً كما أن إخوة يوسف - عليه السلام - طلبوا ازدياد قريهم عند أبيهم وخلوص محبته لهم بزوال يوسف من أبيه وعقوق أبيهم وقطع الرحم فلم يزدادوا بذلك إلا بعداً وبغضاً لهم وغضباً عليهم .

وكذلك يجب على العبد ألا يجعل معاصيه سبباً للوصول إلى مقصوده لكيلا يزداد من مقصوده بعداً وعليه غضباً ، وإنما يطلب المقصود والمراد بالطاعة للمالك - جل وعلا - بالتضرع والخشية من العقاب والتنصل من جميع الذنوب والرجوع عنها في

السر والجهر ، والاعتراف والرغبة في الصّبح بالدعاء للذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو
عن السيئات .

لأدعو الله في ظلم الليالي عسى ليل الفؤاد بذاك يجلا
لأنني قد صحبت الذنب ظلماً ولم أصحب طريق العدل جهلاً
لأنت إلهي الموجود صفحاً وهاد معي الصفوح لديك وبلا
لألئى عبرتي جنح الليالي إذا جنح الفؤاد إليك ذلاً
لأطلب حاجتي حججاً طوالاً واسأل سيدي طولاً وفضلاً
لأستشقى صحاب العلم حتى تفيض على فؤاد مات محلاً
لأستشقى بها من كل داء وأشرب فيضها نفلاً وعلاً
لأن الحسنة في طلب الأمانى ولا أدري أيقضى الله أم لا
لأنشد طالباً للفأل حتى يفل الدهر حد الذهن فلا
لأنت الصمدع مني يا إلهي فلاح لي الصديق فسرتُ أعلاً

وأما من عصمه الله تعالى بتوفيه حتى قبض روحه فكثير أيضاً ومن يهدي الله فهو
المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً ، ومعنى توجع القلب واحتراقه هو الندم على
ما مضى من العمر في غير طاعة وما حصل فيها من الذنوب المكتسبة والعزم على الترك
في المستقبل ولها مبدأ وكمال . أما مبدأها فهو الإيمان المطلق والتصديق ومعناه سطوع
نور المعرفة على القلب حتى يتضح فيه أن سموم الذنوب سموم مهلكة فيشتعل منها نار
الخوف والندم وينبعث من هذه النار صدق الرغبة في التلافي والحذر عن المعاصي في
المستقبل كما ذكرنا وبذلك يحصل الكمال بالتوبة إذ يبعد بها عن جميع الأخلاق المذمومة
التي عجنت في طينة الإنسان عجنًا محكمًا حتى لا يكاد يتخلص منها فذلك الإحراق
بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان أما بنار الندم وإما بنار
جهنم ولا يخلص أحد من كليهما إلا بنور الإيمان المستفاد من الشرع والعقل فمن سوف
التوبة أتته المنية على غير توبة مصرًا إذ الموت ليس له وقت مخصوص ولا سن
مخصوص ولا يقصد شخصًا مخصوصًا وقد جاء في الأثر أن أكثر صياح أهل النار من
التسوية . قال الله سبحانه : ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم
وتربصتم وارتمتم وقرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وقرتكم بالله الغرور ﴾ {الحديد : ١٤}

وذكر أبو حامد الغزالي - رضي الله عنه - أن مثال المسوّف من احتاج إلى قلع شجرة فأرها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال : أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفاً فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف ثم أخذ ينتظر الغلبة عليه إذ ضعف هو في جسمه وقوي الضعيف .

٦٩٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله ، ومن أبطأ عنه الرزق فليستغفر الله ، ومن حزنه أمر فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

٦٩٩ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه ما لم يقدر عليه » .

من ذلك : للبصر سبعة أملاك يذبون عليه كما يذب من قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهلٍ ووعرٍ شيطان كلهم باسط يده فاغر فاه ، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين .

وقال يوسف بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشأ معهم وقال جابر بن عبد الله : أن آدم - عليه السلام - لما أهبط قال : رب هذا العبد الذي جعلت بيني وبينه عداوة ألا أعتني عليه . قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك . قال : رب زدني . قال : أجزي بالسيئة سيئة وبالחסنة عشرًا إلى ما أريد . قال : رب زدني . قال : باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح . وقال أيضاً إبليس - لعنه الله - : رب هذا العبد الذي كرمته عليّ ألا أعتني عليه لأقوى عليه . قال : لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد . قال : رب زدني . قال : تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتاً . قال : رب زدني . قال : وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

(١) قال الحافظ الهيثمي : هذا الحديث رواه الطبراني في الصغير والأوسط وهو طويل ، وفيه يونس بن تميم ضعفه الذهبي بهذا الحديث بلفظ « من ألبسه الله نعمة فليكثر من الحمد لله ، ومن كثرت ذنوبه فليستغفر الله ، ومن أبطأ رزقه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومن نزل بقوم فلا يصومن إلا بإذنهم » انظر : مجمع الزوائد (٣/٢٠٤) .

فبادر رحمك الله إلى التوبة واستعن بالله على عدوك إبليس ، وبالجملة فلا باعث على التوبة إلا الخوف الصادر عن البصيرة والمعرفة ومما يعث على التوبة ذكر الموت وقصر الأمل ومتى أخلص القلب بالتوبة بالندم على ما مضى والعزم على ترك العودة في المستقبل فإن التوبة مقبولة لا محالة . قال الله - تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون ﴾ [الشورى : ٢٥]

٧٠٠ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله سبحانه يسطر يده بالليل لمسيء النهار ، وبالنهار لمسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ^(١) .

٧٠١ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن من قبل المغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة عرضه سبعون سنة فلا يزال كذلك الباب مفتوحاً حتى تطلع الشمس من نحوه » ^(٢) .

٧٠٢ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله تعالى : يا ابن آدم إن هممت بحسنة فلم تعملها كتبتها لك حسنة ، وإن عملتها كتبتها لك عسراً ، وإن هممت بسيئة فحجزتك عنها مخافتي غفرت لك » ^(٣) .

٧٠٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يقول : ابن آدم ما أنصفتني أتحبب إليك بالنعم وتبأغض إليّ بالمعاصي ، خيرني إليك نازل وشرك إليّ يتصاعد في كل يوم يأتييني عنك ملك كريم بعمل غير صالح . يا ابن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تدري من الموصوف لسارعت إلى مقتته » .

٧٠٤ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في ساعته الأولى في كتابه الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره فيمحو ما يشاء

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٤/١١٣ ح ٢٧٥٩/٣١) ، وأحمد في المسند (٤/٤٨٢ ح ١٩٥٤٨) .

(٢) أخرجه ابن ماجه : الفتن (٢/١٣٥٣ ح ٤٠٧٠) ، وأحمد : المسند (٤/٢٩٤ ح ١٨١١٩) .

(٣) أخرجه البخاري : الرقاق (١١/٣٣١ ح ٦٤٩١) بلفظ : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ،

فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعلها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعلها كتبها الله له سيئة واحدة » ، ومسلم في الإيمان (١/١١٨ ح ١٣١/٢٠٧) بنحوه .

ويثبت ، وينظر في الساعة الثانية أو قال : يطلع على جنة عدن التي هي مسكنه ومسكن الأنبياء والشهداء والصدّيقين ، وينزل في الساعة الثالثة ويقول : ألا من يستغفرني فأغفر له ، ألا من يدعوني فأستجب له ، ألا من يسألني فأعطيه حتى يطلع الفجر ثم قرأ : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء: ٧٨] (١) .

٧٠٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تتركوا صلاة الصبح وقيام الليل فإنها نجاة العبد في الدنيا والآخرة من النار » .

وقال كعب الأحبار - رضي الله عنه - : ما من مؤمن يقوم لصلاة من الليل على قدر طاقته إلا تناثر عليه الملائكة ما بينه وبين العرش فكل ينادي : يا ابن آدم لو تعلم ما لك في صلاتك ما انقلبت إلى حاجة فمن مات على هذا ليس له عند الله إلا الجنة .

وروي عن الحسن البصري - رضي الله عنه - أنه قال : سألت داود جبريل - عليه السلام - أي الليل أفضل ؟ قال : لا أدري إني أعلم أن العرش يهتز في السحر فتتحرك أشجار الجنة تهتز في السحر .

قال الحسن : وبلغني أن ريحاً تهب في السحر فتتحرك أشجار الجنة ببرد السحر وطيبه إنما هو ما يخرج من خلال أبواب الجنة من تلك الرياح . ثم قال : ألا ترى إلى السحر كيف يفوح له روائح السحر .

٧٠٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لله أفرح بتوبة المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه ونام ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال : ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعديه ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه فأنشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (٢) .

(١) أصله عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة . أخرجه البخاري : التهجد (٣/٣٦٠٣٥ ح ١١٤٥) ، ومسلم في المسافرين (١/٥٢١ ح ٥٢١/١٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (١١/١٠٥ ح ٦٣٠٨) عن ابن مسعود ، ومسلم في التوبة (٤/٢١٠٢ ح ٢٦٧٥/١) عن أبي هريرة .

٧٠٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ أعنان السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم » (١)

٧٠٨ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل الجنة . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يكون نصب عينيه نائباً منه فأرأى حتى يدخل الجنة » (٢) .

٧٠٩ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا تاب العبد وحسنت توبته قبل الله توبته وغفر سيئاته ورفع له بكل سيئة درجة في الجنة وإذا كان عاصياً لا يقبل الله تعالى منه حسنة حتى يتوب فإذا تاب رد الله عليه حسناته وغفر له سيئاته ورفع له مكان كل سيئة درجة في الجنة » .

وأنشدوا في مثل ذلك :

تب يا ابن آدم قبل الموت في مهلٍ	واستغفر الله إن الغافر الله
واهرب إلى الله من ذنب خلوت به	عن العيون وكان الشاهد الله
لا تكتن من فإن الله مطلع	لا تيئسن فإن الحافظ الله
يا نفس توبي فإن الله منقطع	عما قليل وكان الدائم الله
ثواب ربك جنات مزخرفة	لمن يتوب ويخشى حسبه الله

٧١٠ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مخبراً عن ربه - عز وجل - أن الله تبارك وتعالى يقول : « بشر المذنبين أنهم إن تابوا قبلت توبتهم ، وحذر الصديقين أنني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم » .

وذلك أن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العبد وأن نعم الله تعالى أكثر من أن تحصى . وقال الفضيل - رحمه الله - : إذا لم تقدر على صيام النهار ولا على قيام الليل فاعلم أنك محروم قد كبرت خطيئتك .

(١) أخرجه ابن ماجه : الزهد (٢/١٤١٩ ح ٤٢٤٨) بلفظ : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم » وانظر : الترغيب والترهيب للحافظ المنذري (٤/٩٠ ح ٦) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد : الزهد (ح ٢٣٥٧) .

وقال ابن السماك - رحمه الله - يعاتب نفسه : يا نفسي تقولين قول الزاهدين
وتعملين عمل المنافقين ، وفي دخول الجنة تطمعين إن للجنة قوماً آخرين وإن لهم
أعمالاً غير ما تعملين ، وأنشد في المعنى :

منعوك من شرف المودة والصفاء لما رأوك على الخيانة والجنا
إن أنت أصرفت العنان إليهم جادوا عليك تكراً وتعطفاً
حاشاهم أن يظلموك وإنما جعلوا الوفا منهم لأرباب الوفا

وقيل : لما تاب آدم - عليه السلام - قبل الله توبته وضربه مثلاً للمعاتبة وأسوة لمن
استقام وندم ، وإبليس ضربه مثلاً لمن تكبر وأصرّ على الذنب والمعصية والإصرار ،
فإبليس جعله الله دليلاً على الشقاء وآية ، وآدم عليه السلام جعله دليلاً على السعادة
والولاية . وأنشد إبليس بلسان الحال :

طُرِدْتُ فمالي غير ذنب فكيف من له ألف ذنب ذاك أجدر بالطرد

فإياك يا مسكين والإصرار ، فلا صغيرة مع إصرار ، واحذر أن تقتدي بالعدو في
شريعة الإصرار ، وتقنط من بعد حصولك على كثر مغفرة العزيز الغفار ، فتقول بلسان
الإيأس : أنا خير منه خلقتني من نار ، لثلا يثبت لك نسب لاملأن جهنم من الجنة
والناس أجمعين ، فمدّ أكف الضراعة ، وبادر بالإياب إلى باب الطاعة ، واغنّ بالرجوع
من الوقت والساعة ، وقم على سجادة التلقي ، وضع نفسك على درج التواضع
والتذلل رجاء الترقى ، فيخرج لك من صلوات المواهب والقرب غافر الذنب وقابل
التوب ، إرثاً من أبيك آدم - عليه السلام - الإقلاع عن الخطايا وقبضنا للميراث فتلقى
آدم من ربه كلمات ، فأبوك آدم أخرج من الجنة إلى الأرض لما خالف الأمر الواحد ،
ونسي الفرض ، وأنت قد رفع عنك المؤاخذه عن النسيان ، وفتح لك بمفتاح المتاب
أبواب الغفران ، ووعدت على امتثال الأوامر واجتناب النواهي بجنات الرضوان ، فلا
أنت للطاعة فاعل ، ولا للصواب قابل ، ولا عن الذهول والعصيان مقلع ولا رائل ،
ولا من شؤم المخالفة لمحل امتثال الأوامر راحل ، ولا لما تسمع من صدق الموعدة قابل
ولا لاشكال الحقائق بمرآة سرّك مقابل ، استيقظ يا غافل ، فقد سارت القوافل لا عن
المعاصي تنقلت ، ولا إلى المتاب إذ ولا بد من المخالفة تحولت ، ولا إلى معالم الوصول
بأدلة القبول توصلت ، فما الذي يصرفك عن تناول شراب المتاب الذي ذخره لك أبوك

آدم - عليه السلام - في مجلس تلقي الكلمات من رب الأرياب ، إلى أن حُجبت عن الباب ، وأخاف أن يرخى بينك وبين القبول الحجاب ، وتمنع من مواصلة الأحباب ، فقد ضرب بين الأضداد وأهل الأقراب بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وأنشدوا في المعنى :

مَتَى يَا هِنْدُ يُدْنِيكَ الْإِيَابُ وَنَتَعَمُّ حَسِيثُ تَأْتِينَا الرِّيَابُ
وَنَجْنِي مِنْ كُؤُوسِ الْوَصْلِ رَاحًا فَتَسْكُرُ قَبْلَ يُسْكُرُ فِي الشَّرَابِ

ومن جدّ في الطلب أدرك بإذن ربه المطلب ، لانه إذا أذن له في الجدّ فقد أذن في النيل ، والحكمة في ذلك أن الذلة للمالك والاستغفار ، واحتقار الذنوب والاضطرار بنور القلب والأسرار ، ويفتح باب مغفرة الغفار ، ويحجب عن حريق النار ودليل ذلك قول الله تعالى للملائكة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، كأنه يقول : أنتم تطيعوني بعين الافتخار ، وهم يعصوني بعين الاضطرار ، تقولون : نسبح بحمدك ونقدس لك ، وهم يعصون ويقولون : ربنا ظلمنا أنفسنا ، والعاصي إذا قال من حيث الاضطرار : ظلمت نفسي أقول له : إني قد غفرت لك أحب إليّ من المطيع المذل إذا قال من حيث الافتخار : أنا ، ولذلك قيل : خضوع العاصي خير من طاعة المذل .

وأنشد المؤلف - رضي الله عنه - :

عِيلٌ صَبْرِي وَأَثْقَلْتَنِي الذَّنُوبُ وَنَعْمَانِي لَمَّا أَتَانِي الْمَشْيِبُ
ذَهَبَ الْعَمْرُ فِي اتِّبَاعِ هَوَائِي نَزَلَ النُّوحُ وَالْبِكَاءُ وَالنَّحْيِبُ
أَسْقَمَ الْقَلْبَ سَقْمُ جِرْحِ الْمَعَاصِي عَظُمَ الْكَرْبُ مَا لِدَائِي طَيِّبُ
أَهْ مِنْ حَجَّتِي وَقَبِيحِ فِعَالِي يَوْمَ عَرْضِي وَنَشَرَهَا مَا أَجِيبُ
فَبِحَقِّ الْجَلَالِ أَسْأَلُ عَفْوًا وَبِحَقِّ الْجَلَالِ أَنْتَ الْحَبِيبُ
فَشْفِيعِي مُحَمَّدٌ وَعِترَاتِي وَدَعَائِي لِسَيِّدِي لَا يَخِيبُ
فَصَلَاةَ الْإِلَهِ سِرًّا عَلَيْهِ مَا أَضَاءَ النَّهَارَ ثُمَّ يَغِيبُ

واعلم أن ما من شيء بعد الشرك أعظم ذنبًا من لقائك ربك عز وجل على غير توبة . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ {النساء : ١٧} .

معناه على قرب عهدٍ بالخطيئة لا أن يسوف ذلك حتى يسود قلبه ويركبه الرين ، فلا يقبل الحق ، فإذا كان وقت المعاينة وكشف الغطاء طلب التوبة والإقالة فلا يقال له : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني نبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ ، كذلك يكون حال المؤمن والكافر عند كشف الغطاء . فحال العبد العاصي الذي كان يسأل التوبة ، ويدع الندامة أنه يظهر له عند خروجه من الدنيا موج الرحمة فيحول بين معرفته ومعصيته ، فتبقى معرفته وذلك قوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ كذلك حال الكافر والمصر يظهر عند خروجه من الدنيا موج الشقاء ، فيحول بينه وبين ما يشتهي من قبول العذر والإقرار بالوحدانية ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ، ويقال له أيضاً : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ .

وأنشدوا في مثل ذلك :

لو جرى دمك يا هذا دماء	ما قدمت إلينا قدماً
إنما يصفو هوانا لا مريئ	حفظ العهد وراعي الذمما
كيف يصفو لك أمر بعدما	نشر العذر عليك علماً
وكذا داؤك داء مفضل	أبدأ تزداد إلا سقماً
أنت لو سالتنا نلت المنى	قل من سالم إلا سلماً
عندك منك أمور كلها	حيرة فيها لدينا وعماً
لو أردناك لنا ما فتننا	أو وصلنا حبلنا ما انصمرماً
نح علينا أسقفاً ولا تنح	أقرع السن علينا ندماً
ما رأينا منصفاً عامله	منصف في صفقة فاختصما

يا أخي قد جفَّ عودك ، فأين عودك ؟ وذهب شبابك ، فأين متابك ؟ ودنا رحيلك فأين عويلك ؟ وقرب مسيرك فأين نصيرك ؟ أما لليل أملك صباح ؟ أما لفساد عملك إصلاح ؟ أما لداء قلبك دواء ؟ أما تنتسم من جو المعارف نسيم الهواء ؟ أما لضعيف شرك من خواطر الصدق قوى شيطان مخالفتك قد تمرس وغوى أصبحت والبالسة لولا كلمة التوحيد على حد سواء . وأنشدوا في المعنى :

لاح المشيب وهداً من
 عا طاك كأس سقامه
 أركان نهضتك القوا
 فسكرت من ألهم الجوا
 ونهاك ها هو قد نهها
 ك عن المعاصي والهوا
 أين التشوق للحبيب
 وقد تناولت النوا

يا آدم المعصية والنسيان ، إياك أن تحصد حبَّ الحبِّ من حنان الجنان عند اغترارك
 بوسوسة مارد الشيطان ، فينادي عليك عند الوقوع في روضة العصيان اهبطا منها جميعاً
 بعضكم لبعض عدو ، فأحبابك يرغبون في وصالك ، فما آخى هذا الصد ، وملاكك
 قد وعدوك بالحرية ، وقد آن اقتضاء الوعد ، رضيت لنفسك بالشقاء ، وهم يريدون أن
 تكون نجم السعد ، ماذا أقول : الله الأمر من قبل ومن بعد ، أما الليل هجرك آخر ؟ أما
 لجانح جوانح جواد أملك زاجر ؟ أما لضائع بضائع الفلاح تاجر ؟ مات التجار فكسدت
 أسواق هذه المتاجر ، يا ليل بلا صباح ، يا أجسام بلا أرواح ، يا خوالبُ بلا قلوب ،
 ما بقي من نوره ولا المغلوب ، يا مستحق العيوب ، يا من لا يرغب في انتشاق نسائم
 الغيوب أمرت أن تسقل مرءاتك وتقابل بها الملكوت فما قبلت ولا قابلت ، وأرشدت
 إلى مماثلة الأمثال بالامثال فلا امتثلت ولا ماثلت ، وهديت إلى حلّ إشكال التشكّل
 بهذه الاشكال ومخالطة الأشكال فما خالطت ولا شاكلت ، فأصبح كأسك كدرًا ،
 وجمعك منتشرًا ، وأصلك منعفرًا ومرضك خطرًا ، وسحابك قحطًا بعد أن كان مطرًا ،
 فلا في محلّك الأول أنت ماكث ، ولا لميراث التلقي من أبيك أنت وارث ، فجملتك
 قد فارقت جملتك ، وأرواح المعالي قد كرهت صحبتك وذاتك قد سئمت عشرتك ،
 وظلّك قد زائل صورتك ، وقلبك قد ملّ جثتك ، فبقيت مشتتًا بلا جامع ، وراغبًا في
 اللقاء ، ولك منه أقوى مانع ، انعكست الحقائق في حواسك الخمس ، اشتبه عليك
 الغد بالأمس ، وأنشدوا :

أحببناكم تهجرون وتبعدون حتى متى هذا الجفا منكم يكون
 إن كنت خنت عهدكم بجهالتي فالعفو منكم يرتجيه من يخون

أنت يا عاصي لما أهواك العدو في مهواة الهوى للهوان ، منعك اللحاق بشريف
 عنصر العصمة من العصيان ، وقطعتك عن الوصول إلى أصول الرضوان فأزلك عن
 مدارج معارج الجنان بأنواع الخداع ، وقام بينك وبين الصلاح في طريق تأدية العمل

مقام القطاع ، وحال بسرور وغرور التزليل بينك وبين اقتطاف غاية الأمانى ونهاية الاطماع ، وأراد إطفاء نور الإيمان من مصباح قلبك بعاصف هواء ذنبك ، وهم أن يقطع السبب الذي بينك وبين ربك صُدُّ عن مطالبه وحيل بينه وبين مآربه ، وخرج داعي الشرع بما يجبر هذا الصدعَ جامعاً بين الأصل والفرع بتوقيع الأزل أن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم .

قال الله سبحانه : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ { الاحزاب : ٧٣ }

وقيل : لولا ثلاث ما خلق ثلاث ، لولا المؤمنون ما خلقت الجنة ، ولولا الكافرون ما خلقت النار ، ولولا المذنبون ما خلقت الرحمة .

٧١١ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقاب ما طمع في الجنة ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما يشس من الجنة » (١)
وفي الخبر : أن الله تعالى أوحى إلى داود - عليه السلام - يا داود أحبني وأحب من يحبني ، وحببني إلى خلقك . قال : يا رب كيف أحببك إلى خلقك . قال : اذكرني بالحسن الجميل ، واذكر آثائي وإحساني وذكرهم ذلك ، فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل . فهذه معاملته مع عباده في دار الدنيا ، وأما معاملته معهم في الآخرة فهي ما قيل : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله تعالى : يا آدم ضمّ التوابين إليك ، يا نوح ضمّ الداعين إليك ، يا إبراهيم ضمّ الأسخياء إليك ، يا إسماعيل ضمّ الصادقين إليك ، يا موسى ضمّ المشتاقين إليك ، يا داود ضمّ القراء النادمين إليك ، يا سليمان ضمّ الأمراء العادلين إليك ، يا أيوب ضمّ الصابرين إليك ، يا يوسف ضمّ المحيين إليك ، يا يحيى ضمّ الزاهدين إليك ، يا عيسى ضمّ العلماء إليك ، يا محمد ضمّ السعافين إليك ، يا أبا بكر ضمّ الصديقين إليك ، يا عمر ضمّ أهل المعروف إليك ، يا عثمان ويا حمزة ويا حسن ويا حسين ضموا الشهداء إليكم ، يا علي ضمّ الشجعان والأبطال إليك ، يا أصحاب محمد ضموا الصالحين إليكم ، قال : فيبقى العصاة من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فييكون وينوحون على أنفسهم ، ويضجون فينظرون يميناً

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٤/٢١٠٩ ح ٢٣/٢٧٥٥) .

وشمالاً خائفين يقولون : يا ويلتنا إلى من نلتجئُ قد ذهب الأنبياء والصديقون والشهداء
والصالحون والأولياء والمتقون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . قال الله عز وجل :
﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ﴾ [السجدة: ١٢] فهم حيارى ،
فينظر الجبار جل جلاله إلى إيانهم من كل وجه ، فيناديهم برحمته : إلي أيها العصاة
المدنيون فإنني حميم من لا حميم له ، أنا مؤنس المفلسين ومنعش الآيسين ، فإذا كان
ملجأ أولئك الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون فانا ملجأ المهوفين ، ﴿ ثم إن
ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها
لغفور رحيم ﴾ فينصب لهم لواء مكتوب عليه سطران ، الأول : لواء الكريم من
الكريم ، والثاني : مذنبون ورب غفور ، فيسبقون إلى الجنة فإذا نظروا أولئك إلى
لوائهم منصوب على باب الجنة فيقولون : لمن هذا ؟ فيقال : لمن آيس من المخلوقين ،
واعتصم برب العالمين الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . وأنشدوا في المعنى :

حاسبونا فذققوا	فبيدونا وأوثقوا
بذنوب تكاثرت	ثم منوا فأعتقوا
سامحوا بعد شدة	وقللوب تمزق
هكذا كل مالك	بالمماليك يرفق
إن قلبي وخطري	وفوقادي يحقق
أن من مسلمات مسلماً	ليس بالنار يحرق

فسبحان من لم يرض بذنوب عباده المؤمنين حتى سترها ، سبحان من لم يرض
بالستر لها حتى غفرها ، سبحان من لم يرض بالغفران حتى بدلها بالحسنات ، سبحان من
أعطى على الحسنات الدرجات ، سبحان من لم يرض بأن لم يصلهم ناراً حتى أعد لهم
الجنة داراً ، سبحان من لم يرض بأن أسكنهم بها وآواهم حتى أكرمهم بها وحياهم .

وأنشدوا :

يا من نحلتهم لما رأيتهم	طيب الحياة التي نفسي تُرجيها
علي دين لكم روعي وما ملكت	فأحسنوا الإقتضاء حتى أفضيها
لا ترفعموني النوا عبث	فقد وهبتم الدنيا بما فيها
قد كنت مثبت روعي قبل رؤيتكم	فمذ رأيتكم أصبحت نافيها

أعاذنا الله وإياكم من التسويف وبصرنا عيوب أنفسنا وردنا إليه رداً جميلاً ، فإنه لا مهرب لأحد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة على طاعته إلا بمعونه وإرادته ولا حول ولا قوة إلا بالله صلى الله على محمد وعلى آله .

٦٩ - باب كراهية الموت والغفلة عنه

وهو يجمع بابين .

اعلم وفقك الله أن من الأمور العظيمة في دفع الخبائث المذمومة المعجونة في طينة الإنسان الشمية للنفوس ، وتركها والصبر على البأساء والضراء ، والقناعة بما تيسر ذكر الموت ، وذلك أعظم الشرع أمره وثواب ذكره إذ به يتنقل حب الدنيا الذي حُبها رأس كل خطيئة ، وتنقطع العلاقة عنها وعن شهواتها وخارفها . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم ﴾ [الجمعة: ٨] وقال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء: ٧٨] وقال عز من قائل : ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن: ٢٦] .

٧١٢ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » قيل : وما هادم اللذات ؟ قال : « الموت » ^(١) .

٧١٣ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ^(٢) .
وأشده المؤلف - رضي الله عنه - :

إني نظرت إلى الأنام فخلتهم	سكرو نياماً غافلين المراد
شغلتهم الدنيا بكثير خدامها	عماله خلق الجميع من العباد
ناموا عن المقصود لم يستفيضوا	والعمر ينقص والعماية في ازدياد
فهم حجاب القلب عن نور الهدى	وهم حجاب النفس عن طريق الرشاد

(١) أخرجه الترمذي في : الزهد (٤/٥٥٣ ح ٢٣٠٧) وقال : حسن غريب ، والنسائي : في الجنائز (٤/٤) باب كثرة ذكر الموت .

(٢) ذكره الحافظ العجلوني في « كشف الخفاء » وقال : هو من قول علي بن أبي طالب ، لكن عزاه الشعراني في « الطبقات » لسهل التستري ولفظه في ترجمته : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا ماتوا ندموا لم تنفعهم ندامتهم » أهـ . أنظر : « كشف الخفاء » للحافظ العجلوني (٢/٤١٤ ح ٢٧٩٥) .

٧١٤ - وقال رجل من الأنصار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله من أكيس الناس ، وأكرم الناس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأشدهم له استعداداً أولئك الأكياس ذهبوا براحة الدنيا وكرامة الآخرة » ^(١) .

٦١٥ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ^(٢) .

فإن قيل : فما الحكمة في بكاء آدم - عليه السلام - في حين خروجه من الجنة . ثم ميله إلى المقام في الدنيا وقت الخروج منها وكرهية الموت عند رجوعه إلى الجنة حتى استرجع ما كان وهب من عمره لابنه داود - عليه السلام - حين أتى قصر عمره ؟ فالمعنى في ذلك أنه لما ذاق حلاوة لذة نعيم الجنة أحب المقام فيها لحلاوتها وقلة تعبها ونصبها ، فلما دخل الدنيا وذاق حلاوة الخدمة ، فاختار حلاوة الخدمة على حلاوة النعمة ، لأن النعمة نصيبه ، والخدمة نصيب المولى والمحبة يؤثر نصيب محبوبه على نصيب نفسه ، ويدع شهوته لشهوة محبوبه ، ويفضل أحباب محبوبه على أحبابه ، فلذلك كره الخروج من الدنيا ليستكثر من خدمة مولاه .

٧١٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كفى بالموت واعظاً » ^(٣) .

٧١٧ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « تركت فيكم واعظين ناطقاً وصامتاً ، فالصامت الموت ، والناطق القرآن » .

وأشد المؤلف - رضي الله عنه - :

يا عجب السامع والناطق في غفلة عن سامع وناطق
فالناطق الحكيم يناديه إلى سبل النجاة من الهوى شاهق
وعظيم فتك أسوده وهوامه وسمام المنام سهام الراشق

(١) أخرجه ابن ماجه : الزهد (٢/١٤٢٣ ح ٤٢٥٩) . وقال في الزوائد : فروة بن قيس مجهول . وكذلك الراوي عنه . وخبره باطل . قاله الذهبي في « طبقات التهذيب » ، وذكره الحافظ المنذري في « الترغيب » وقال : حديث حسن . أنظر : الترغيب والترهيب « (٤/٢٣٨ ح ٦) .

(٢) أخرجه البخاري في « الرقاق » (١١/٣٦٤ ح ٦٥٠٧) ، ومسلم في الذكر « (٤/٢٠٦٥ ح ١٤/٢٦٨٣) .

(٣) ذكره الحافظ العجلوني في « كشف الخفاء » ، وعزاه للطبراني والبيهقي والقضاعي والعسكري أيضاً عن عمار بن ياسر رفعه بلفظ : « كفى بالموت واعظاً ، وكفى باليقين غنى ، وكفى بالعبادة شغلاً » .

فاسمع لحكمة واعظ من قوله قبل ورود الصامت المراهق
 تحظى غداً عند الملك بقربة وتنال رؤية ذي الجلال الخالق
 مع النبي محمد علم الهدى شرف القيامة ذي البهاء السابق
 صلى الإله عليه أفضل شافع من جاء بالنور المبين الصادق

٧١٨- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « كل عامل سيقدم على ما أسلف عند موته ، وإن ملاك الأعمال نجاتها ، والليل والنهار مطيتان فاركبوهما بلاغاً إلى الآخرة ، وإياكم والتسويق بالتوبة ، والغرة بحلم الله ، واعلموا أن الجنة والنار أقرب إلى أحدهم من شرك نعله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . »

٧١٩- وقالت عائشة - رضي الله عنها - : يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة . »

٧٢٠- ومرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجلس قد استعلاه الضحك . فقال : « شوبوا مجلسكم بهادم اللذات » قيل : وما هادم اللذات ؟ قال : « الموت »^(١) .

٧٢١- وذكر رجل عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأحسن الثناء عليه . قال : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت » قيل له : ما كنا نكاد نسمعه يذكره . فقال : « إن صاحبكم ليس هنالك » . وأنشدوا في ذلك :

الموت لا والدًا يبقي ولا ولداً هو السبيل إلى أن لا ترى أحداً
 كان الرسول فلم يخلد لأمته لو خلد الله حياً قبله خلدًا
 للموت فينا سهام غير مخطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غداً

٧٢٢- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « بش العبد من سهى ولهي ونسي المقابر والبلى »^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي : الزهد (٤/٥٥٣ ح ٢٣٠٧) والنسائي في الجنائز (٤/٤ ح باب : كثرة ذكر الموت) ، وأحمد في المسند (٢/٣٩٢ ح ٧٩٤٤) بلفظ : « أكثروا ذكر هادم اللذات » يعني الموت .
 (٢) أخرجه الترمذي في « القيامة » (٤/٦٣٢ ح ٢٤٤٨) قال أبو عيسى : هنا حديث غريب لا نعرفه إلا من هنا الوجه وليس إسناده بالقوي . وانظر : الترغيب والترهيب للمحافظ المنذري (٣/٥٧٠ ح ٤٠) .

٧٢٣- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « صم الدنيا ، واجعل إفطارك الموت ، وفر من الدنيا كما تفر من الأسد » .

٧٢٤- وقال - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإن أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من حياتك لموتك ، ومن صحبتك لسقمك ، فإنك يا عبد الله ما تدري ما اسمك غداً » (١) .

وأشردوا في المعنى :

تمر الليالي بأجالنا فكأين ترا الموت قد أزعجا
أناك فلم تك ذا عدة تقبيك من الهول ما قد فجأ
مضيت بلا عمل صالح ومالك من رجعة ترتجبا
فأين المفر وأين المكر وأين المقر وأين اللججا

٧٢٥- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن روح القدس نفث في روعي أحب ما أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي » (٢) .

وأشردوا في مثل ذلك :

اعمل على حذر فإنك ميت وانظر لنفسك أيها المغبون
فكان ما قد كان لم يك إذ مضى وكأئنا هو كائن سيكون

٧٢٦- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « عجبت لغافل ولا يغفل عنه ، وعجبت لمن يؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه » .

(١) أصله عند البخاري : أخرجه البخاري في الرقاق (١١/٢٣٧ ح ٦٤١٦) ، والترمذي في الزهد (٤/٥٦٧ ح ٢٣٣) واللفظ للإمام الترمذي .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/١٦٦ ح ٧٦٩٤) عن أبي أمامة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « نفث روح القدس في روعي أن نفساً لن تخرج من الدنيا حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فأجملوا في الطلب ، ... » وذكره أيضاً الحافظ العجلوني بلفظ : « أن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » وقال : رواه في مسند الفردوس عن جابر ، أنظر : كشف الخفاء (١/٢٦٨ ح ٧٠٧) وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٧) عن أبي أمامة .

٧٢٧- وعن أبي بن كعب : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ذهب ريح الليل قام ، فقال : « أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (١) .

٧٢٨- وعن يحيى بن أبي كثير قال : خطب أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال : أين المرصاة الحسنة ، وجوهم المعجبون بشبابهم ؟ أين الذين بنوا المدائن ؟ فحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ، تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا في ظلمات القبور ، فالوفا ، ثم الوفا ، ثم النجا ، ثم النجا (٢) .
وأشدد أبو بكر - رضي الله عنه - :

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الباب ما الدارُ
فأجابه عمر - رضي الله عنه - :

الدار جنة عدن إن عملت بما يرضى الإله وإن قصرت فالنار
فأجابه عثمان - رضي الله عنه - :

هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك أي الدار تختارُ
فأجابه علي - رضي الله عنه - :

ما للعباد سوى الفردوس إن عقلوا وإن هفوا هفوة فالرب غفارُ

٧٢٩- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكان الحق فيها على غيرنا وجب ، وكان الذي نشيع من الأموات تسفرُ عما قليل إلينا عائدون ، نبوأهم أجدانهم ، وناكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ، قد نسينا كل واعظة وأمنًا كل جائحة » (٣) .

(١) أخرجه الترمذي : صفة القيامة (٤/٦٣٦ ح ٢٤٥٧) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأبو نعيم في

« الحلية » (١/٢٥٦) ، والحاكم في المستدرک (٢/٤٢١) أنظر : الترغيب والترهيب للمنتزعي (٢/٥٠٠ ح ٢٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧/٣٦٤ ح ٩٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣٤) ، والزهد لأبي

داود السجستاني (ح ٢٨) وقال : رجاله ثقات غير أن يحيى بن أبي كثير لم يدرك أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - .

(٣) ذكره المحافظ الهيثمي في المجمع (١٠/٢٣١ - ٢٣٢) عن أنس - رضي الله عنه - وقال : رواه البزار وفيه

النصر بن محرز وغيره من الضعفاء . وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٠٣) عن علي - رضي الله عنه - .

وأنشدوا في ذلك :

أخي ما بال قلبك ليس ينقى كأنك ما تظن الموت حقًا
ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما ذهبوا لتبقى
فما أحد بزادك منك أولى ولا أحد بذنبك منك أشقى

٧٣٠- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الموت تحفة كل مؤمن »^(١) .

٧٣١- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن للموت ألف سكرة ، وكل سكرة أشد من ألف ضربة بالسيف ، وما الموت إلا أجر » .

٧٣٢- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « استحيوا من الله حق الحياء » قالوا : إنا نستحي . قال : « تبون ولا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون »^(٢) .

٧٣٣- وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : وعظنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا من الموت غايته ، ويا من القبر منزله ، يا من الكفن ستره ، يا من التراب وساده ، يا من الدود جيرانه ، يا من المنكر والسكري زواره ، يا أيها المودع غداً عرسه كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، ومتظر غداً لا يبلغه ، لو نظرتم إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره » .

وأنشدوا في المعنى :

المرء بيني والليالي تهدمُ ويظل يأمل والحوادث تصرمُ
ويبيت مسروراً ويصبح لاهياً وأمامه يوم فضيع مظلمُ
يسعى إليه كل شيء جاهداً ويكل حين عمره يتنلّمُ
فحياته أيامها معدودة تمضي بها أنفاسه لو يعلمُ
يا ناقصاً في كل حين عمره كعيون قلبك عن مالك نومُ

(١) ذكره الحافظ العجلوني وقال : رواه الديلمي عن جابر بزيادة : « والدرهم والدينار مع المناقق ، وهما زاده إلى النار » ورواه عن عائشة بلفظ : « المودة غنيمة ، والمعصية مصيبة ، والفقر راحة ، والغنى عقوبة ، والثائب من الذنب كمن لا ذنب له » انظر : كشف الحفاء (٢/٣٨٣ ح ٢٦٦٧) .

(٢) أخرجه الترمذي : صفة القيامة (٤/٦٣٧ ح ٢٤٥٨) وأحمد : المسند (١/٥٠٣ ح ٣٦٧٠) بمعناه .

يا من يعمل بالأماني نفسه
 إنني لأعلمُ يا معالجِ عِلتي
 ولكل حي مدة ما إن له
 لا بد أن منيتي ستصيبني
 ليس العلاج بزائد في مدتي
 لا شك في هذا ولكن يرجي
 حن العليل إلى الطبيب وإنما
 ظناً يطالب بالعلاج وإنما
 إن الطبيب ليستجيد غذاءه
 نفذ القضاء وليس منه مهرب
 يا من يحيط بكل شيء علمه
 يقظان أنت فكم وكم ذا تحلم
 أن الحمام على النفوس مُحكمٌ
 متأخر عنها ولا متقدمٌ
 فالموت حتمٌ لستُ منه أعصمٌ
 وقتاً ولا ما حمٌ عني يصرمٌ
 الحيُّ البقاء فظنه مُستقسمٌ
 فعلُ الطبيب تعلقٌ وتوهمٌ
 ضرُّ العليل علاجُه المتوهمٌ
 حذر المنون وليس منه ويسلمٌ
 وجرى القضاء حكمٌ مبرمٌ
 اغفر لعبدك سيدي ما تعلمٌ

٧٣٤ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (١) .

وأنشدوا في المعنى :

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل

٧٣٥ - وروي عن سويد بن الحارث - رضي الله عنه - أنه قال : وفدت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سابع سبعة في قومي ، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمنا وريتنا . فقال : « من أنتم ؟ » قلنا : مؤمنون . فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : « لكل قول حقيقة . فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ » قال سويد : فقلت له خمس عشرة خصلة خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن ، وخمس منها أمرتنا رسلك أن نعمل بهن ، وخمس منهن تخلقنا بهن في الجاهلية . ونحن على ذلك إلى أن تكره منهن شيئاً . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « فما الخمس الخصال التي أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بهن ؟ » . قلت : أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، ونحن على ذلك . قال : « فما الخمس التي أمرتكم رسلي

(١) أخرجه الترمذي : صفة القيامة (٦٣٨/٤ ح ٢٤٥٩) ، وقال : حسن . وابن ماجه : الزهد (١٤٢٣/٢ ح

٤٢٦٠) ، وأحمد : المسند (١٥٣/٤ ح ١٧١٢٨) بنحوه .

أن تعملوا بهن ؟ » . قلت : أمرتنا رسولك أن نقول جميعاً : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن نقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ونصوم رمضان ، ونحن على ذلك . قال - صلى الله عليه وسلم - : « فما الخمس التي تخلقتنم بهن في الجاهلية ؟ » قلت : الشكر عند الرخاء ، والصبر على البلاء ، والرضا بمواقع القضاء ، والصدق عند اللقاء ، ومناجزة الأعداء . فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « أدباءً فقهاء عقلاء حلماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء يا لهن من خصال ما أشرفهن وأزينهن وأعظم ثوابهن » ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أوصيكم بخمس خصال لتكمل لكم عشرون خصلة » . قلنا : أوصنا يا رسول الله . فقال : « إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء عنه ترحلون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلصون ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون وعليه تعرضون » ، فانصرف القوم من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد حفظوا وصيته وعملوا بها رضي الله عنهم .

٧٣٦ - وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مرت ليلة أسرى بي في السماء الرابعة بملك عظيم على كرسي من نور أعظم ما يكون من الملائكة خلقاً ، بين كتفيه خمسمائة عام ، وكان الدنيا مصورة بين عينيه كالدرهم بيد ولد آدم يقلبه يميناً وشمالاً ، تبلغ يده المشرق والمغرب ، وبين يديه لوح وهو ينظر فيه مقبلاً عليه ورجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى ، له جناحان جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، والخلائق بين ركبتيه ، فسلمت عليه وجزعت منه جزعاً شديداً ، ولم أر فيما عاينت من الملائكة أفضع منه منظراً فلم يرد عليّ السلام ، فدنا منه جبريل - عليه السلام - ، فقال : يا عزرائيل هذا سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، لم يبلغ هذا المكان آدمي قبله ، ولا يبلغه آدمي بعده ، وذلك لكرامته على رب العالمين . قال : فرفع الملك رأسه إليّ ثم تبسم في وجهي ، ثم قال : يا محمد أبشر فإن الخير فيك وفي أمتك من بعدك . فقلت : حبيبي يا جبريل من هذا ؟ قال : يا محمد هذا عزرائيل ملك الموت . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت له : أنت تقبض الأرواح الخلائق أجمعين ؟ قال : نعم يا محمد وعزة إلهي وجلاله ما من أهل بيت شعر ولا مدر في بر ولا بحر ولا نفس منفوسة ولا حيوان

مرزوق ولا دابة ممن كتب الله تعالى عليه الموت إلا وأنا أنصفح وجوههم في كل يوم ثلاث مرات . قال : فقلت : كيف تعرف إذا دنا أجل العبد ؟ قال لي : يا محمد يسود اسمه في هذا اللوح الذي بيدي ، وينفذ رزقه فيأمرني الله تعالى بقبض روحه . فقلت : يا جبريل أكل من مات ينظر إلى هذا ؟ قال : نعم . فقلت : كفى بالموت طامة . قال : يا محمد وما بعد الموت أطمّ وأعظم . قلت : وما ذاك يا جبريل ؟ قال : منكر ونكير . قلت : أرنيهما . قال : لا تفعل يا محمد لا يراهما أحدٌ إلا مات ، لأنهما أعظم وأهول ، لكنني أصفهما لك رؤسهما في السماء وأرجلهما قد خرقت الأرض السابعة السفلى ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأعينهما كالبرق الخاطف ، وأنيابهما كأمثال الصياصي ، يطشان الأرض بشعورهما ، ويحفران الأرض بأنيابهما ، يدخلان على كل مؤمن ومؤمنة إذا ترك في القبر وحيداً فريداً ، معهما مرزبتان من حديد ، لو اجتمع عليهما أهل الأرض جميعاً ما أقلوها ، يتناولونها من بين يديه ، يضربان الميت ضربة يشتعل قبره ناراً ، ثم يسلكان الروح في جسده بإذن الله تعالى ، ويقعدانه على نفسه ويتهرانه فتقطع عنه أضلاعه ، ويقولان له : اعقل شأنك فإنك قد أفضيت إلى معادك ، وأنت في البرزخ . فمن ربك ؟ وما دينك ؟ وما نبيك ؟ فإن كان مؤمناً لقنه الله تعالى حجته . فيقول : الله ربي ، والإسلام ديني ، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - نبي . قال : فينهرانه الثانية والثالثة فيقول لهما : أتشككاني في الله ربي وربكما وإياه نعبد . فإذا قال العبد هذا تواضعا له حتى يضحكان له ويقولان له : أبشر بكرامة الله والجنة . ثم يرفعان قبره هكذا وهكذا عن يمينه وعن يساره مد البصر ، ويفتحان له باباً إلى النار ، فيقولان : انظر ماذا صرف الله تعالى عنك . فيقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، ومنّ علينا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - . ثم يفتحان له باباً إلى الجنة . فيقولان له : انظر ما أعد الله لك من الكرامة والنعمة فما تقول ؟ فيقول : رب أقم الساعة . فيقولان له : أيسرك أن تردّ إلى الدنيا ؟ فيقول : لا قدماً إلى ربي قدماً إلى ربي . ثم يفرشان له ثلاثة فرش من إستبرق الجنة ، ومن حرير الجنة ، ويضعان له مصباحاً عند رأسه ، ومصباحاً عند رجله ، ويأتيه آت حسن الوجه كالبدر يتلألاً حسناً وجمالاً فيسلم عليه ويقول له : أبشر بكرامة الله والجنة . فيقول : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول له : أوما تعرفني ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا

عملك الصالح ، طالما صليت والناس نيام ، وصمت والناس يفترون ، وكنت معك في الدنيا فنعم الصاحب كنت ، ونعم الرفيق أنت جزاك الله خيراً أنا معك حتى تقوم الساعة ، وحتى تدخل الجنة . ثم يأتيه بريحانة من الجنة فيشمها فإذا شمها وقع عليه السبات فينام . فيقولان له : طويى لك وحسن مأب حتى ينفخ في الصور . ثم يسلم عليه الملكان ، ويطيران عنه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فقلت له حبيبي جبريل لقد شوقتني إلى الجنة وإلى الموت . ثم قلت : يا عزرائيل فما فعلت في أسماء من قد قبضتهم في الدهور الماضية ؟ قال : قد علمت عليها . قلت : يا عزرائيل من يلي قبض أرواح أمتي ممن بالشرق والمغرب ؟ قال : أنا بإذن الله سبحانه . قلت : فمن يلي قبض أرواح من في الأرض السابعة السفلى ؟ قال : أنا . قلت : يا عزرائيل وكيف ذلك وأنت قاعد في مكانك هذا ؟ قال : يا محمد أما ترى الدنيا كلها بين ركبتي ، والخلق كلهم بين عيني ، ويدي تبلغان المشرق والمغرب . قلت : يا عزرائيل فكيف تعلم إذا دنا أجل العبد . قال : يسود موضع اسمه ، ويشد باب رزقه فأنظر إليه ولي أعوان من الملائكة يعرفون ذلك مني إذا نظرت إلى عبد يبطشون به ، فيعالجون روحه حتى إذا دنت من الخلقوم مدت يدي فأقبض روحه ، ولا يلي قبض ذلك أحدٌ غيري . قال : فأبكاني حديثه . ثم قلت : يا عزرائيل كل دار وحجرة تنظر فيها مرة واحدة . قال : وعزة ربي وجلاله ما من دار ولا حجرة إلا وأنا أنظر فيها مائة مرة . فأقول : يا معشر أهل الدار لا تبكوا على ما مضى ، وابكوا على أنفسكم إن لي فيكم لعودة . ثم عودة حتى لا يبقى منكم أحد . قلت : يا عزرائيل أظنك قد غفلت مذ كلمتك قال : وعزة إلهي لقد قبضت مذ خاطبتك اثنين وسبعين ألف إنسان يا محمد ظننت أنني غفلت عن طاعة ربي .

وأنشدوا :

لم تدع لي الذنوب قلباً صحيحاً	عيل صبري فحق لي أن أنوحا
ونعاني المشيب نعيًا نصيحاً	أخلفت مهجتي أكف المعاصي
عاد قلبي من الذنوب جريحاً	كلما قلت قد برئ جرح قلبي
جاء في الحشر آمناً مستريحاً	إنما الفوز والنعيم لعبد

٧٣٧- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا يتمنين أحدكم الموت لشر نزل به ، ولكن يقول : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وأمتني إذا كان الموت خيراً لي » ^(١) .

٧٣٨- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار » ^(٢) .

٧٣٩- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء رجع لم يحب أن يرجع إلى مكانه » ^(٣) .

وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب أن يرجع الجنين إلى بطن أمه .

٧٤٠- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجل مات : « أصبح هذا مرتحلاً من الدنيا وتركها لأهلها فإن قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه » ^(٤) .

نعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ضيق الرحم وظلمته .

٧٤١- وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - إنما مثل المؤمن حين تخرج روحه مثل رجل كان في سجن فخرج منه فهو يتفسح في الأرض ، ويتقلب فيها كيف شاء يميناً وشمالاً شرقاً وغرباً .

٧٤٢- وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا شدد الله الموت على المؤمن فلا يعذبه في قبره ، وإذا عذبه في قبره فلا يعذبه في الآخرة الآخرة » .

(١) أخرجه البخاري : المرض (١٠/١٣٢ ح ٥٦٧١) ، ومسلم : الذكر (٤/٢٠٦٤ ح ٢٦٨٠/١٠) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري : بدء الخلق (٦/٣٦٦ ح ٣٢٤٠) ، ومسلم : الجنة (٤/٢١٩٩ ح ٢٨٦٦/٦٥) .

(٣) ذكره الزبيدي في الإنحاف (١٠/٣٨٤) ، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤/٤٨١) نحوه .

(٤) ذكره الزبيدي في الإنحاف (١٠/٣٨٤) .

٧٤٣ — وقال - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمنون يفتنون في قبورهم سبعة أيام ، فادعوا لهم بالرحمة وأكثروا بالدعاء » .

٧٤٤ — وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من مات فقد قامت قيامته » ^(١) .

وقال عليّ عليه السلام : حرام على كل نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة أم من أهل النار .

والحكمة في ذلك ما قيل : أنه لما صرع إسماعيل - عليه السلام للذبح كشف له عن الجنة ليسهل عليه الذبح ، وكذلك فعل بسحرة فرعون لما أراد صلبهم وعذابهم كشف لهم عن الجنة فطاب لهم الموت والعذاب ، وكذلك يفعل مع المؤمنين عند النزح يكشف له عن الجنة فيرى ما أعدّ الله تعالى له فيها من النعيم المقيم ، فيسهل عليه الموت ، وتهون عليه الدنيا ، وتذل الروح عند النظر إليها ، ويخف عليه النزح ، ويطيب الصبر على الآلام والكرب ، وما يخلف عن رؤيتهما وأنشدوا :

دمعي لفقد الشباب مسكوب	والصبر مني عليه مغلوبُ
كنت بشوب الشباب مشتماً	فجسمي اليوم منه مسلوب
أدبني الشيب حين شبت وفي	شيبني بعد الشباب تأديب
كفي به منذراً لمعتبر	بالموت والموت ويك مرهوب
يا نفس خافي وراقي ملكاً	يرى الخفيات وهو محجوب
ما أحد بالزمان مغتبط	إلا وبالناثبات منكوبُ
يا طالب العيش وهو مرئح	تطلب عيشاً وأنت مطلوب
تجمع مالاً وأنت تاركه	ترقب دنياً وأنت مرقوب
فاذكر من القبر طول وحشته	وثقل ترب عليك مصبوب
واذكر مقاماً تقوم فيه غداً	وأنت عند المقام مرعوب
وأنت للعرض واقف ولظي	منصوبة والصراط منصوب

(١) ذكره الحافظ العجلوني وقال : قال في المقاصد له : ذكر في أكثرها هادم اللذات ، ورواه الديلمي عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات . . . » انظر كشف الحفاء (٢/٣٦٨ ح ٢٦١٨) .

تعطى كتاباً هناك تقرؤه وفيه ما قد عملت مكتوب
فحاسب النفس يا أخا ثقة فني قدوم المشيب ترهيب^١

٧٤٥ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » (١) .

وأنشدوا في المعنى :

المرء بعد الموت أحدوثة يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت أخباره

واعلم أن طالب الدنيا لا تطيب بعد الموت أخباره ، وذلك أن من شارك أهل الدنيا في دنياهم أبغضوه في حياته وبعد مماته ، وإنما يطيب بعد الموت خبر من زهد في الدنيا ورفضها وترك أهلها يتجاذبونها كالعقيرة بين السفهاء والسباع .

وأنشدوا في مثل ذلك :

بنوا الدنيا بجهل عظموها فجعلت عندهم وهي الحقيرة
ينهاش بعضهم بعضاً عليها مناهشة الكلاب على العقير

فمن زهد في الدنيا وتركها لأهلها جمع الله تعالى له خيري الدنيا والآخرة ، فخير الدنيا : الله تعالى يجمع قلوب العباد على محبته والاستغفار له والخوف منه ، والذلة عند رؤيته ، وأما خير الآخرة : فرضى الله عنه ، والبشارة بالجنة ، ثم نعيم الجنة بعد دخولها . ثم النظر إلى ربه تعالى في الجنة .

وفي الخبر أنه إذا قامت الساعة ولم يبق على الأرض بشر ، وبقيت الدنيا بلا آدمي ولا جنّي ولا شيطان ، ويموت جميع من في الأرض من الهوام والوحوش والدواب ، وكل شيء له روح وهو الوقت المعلوم الذي كان بين الله سبحانه وبين إبليس فيقول الله عز وجل لملك الموت : إني خلقت لك بعدد الأولين والآخرين أعواناً ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٦/٤) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - ، وأبو نعيم في الحلية (١٤٨/٤) من حديث عمرو بن ميمون . . أنظر : الترغيب والترهيب للمنذري (٤/٢٥١ ح ٣٤) .

وجعلت فيك قوة الأولين والآخرين من أهل السماوات والأرضين ، وأنا اليوم البسك
ثياب السخط والغضب ، فانزل سخطي وغضبي وسطرتي إلى ملعوبي ورجيمي إبليس
فأذقه الموت ، وأحمل عليه مرارة الأولين والآخرين من الجن والإنس أضعاقا مضاعفة ،
وليكن معك سلسلة من سلاسل لظا ، فانزع روحه بسبعين كلوبًا من كلاب النار ،
فينزل ملك الموت عليه السلام في صورة لو نظر إليها أهل السماوات والأرضين لماتوا
أجمعين من هول ذلك المنظر ، فيأتي إليه إبليس لعنه الله فيزجره زجرة فإذا هو قد صعق
منها ، ويخور خورة لو سمعها أهل الأرض لماتوا من شدة تلك الخورة ، فيقول له ملك
الموت : يا خبيث لأذيقنك اليوم ألم الموت بأشد غصه فكم من عمر أفيت وكم من قرن
أضللت ، وكم من قرنائك في سواء الجحيم ، وهذا هو الوقت المعلوم الذي بينك وبين
رب العالمين . قال : فيهرب إلى المشرق فإذا ملك الموت بين عينيه . ثم يهرب إلى
المغرب فإذا ملك الموت بين عينيه . ثم يغوص في البحار فلا يزال يهرب في الأرض يمينًا
وشمالًا فلا يجد ملجأ ثم يأتي إلى قبر آدم عليه السلام فيقول : يا آدم من أجلك صرت
شيطانًا رجيمًا طريدًا ملعونًا ، فليتك لم تخلق ، وليتك إذ خلقت لم أخلق . ثم يقول
له : يا ملك الموت بأي كأس تسقيني ؟ وبأي عذاب تقبض روحي ؟ فيقول له ملك
الموت عليه السلام : بكأس أهل لظى أسقيك ، وأعذبك بعذاب أهل الجحيم أضعاقا
مضاعفة ، وإبليس لعنه الله يتمرغ في التراب ، ويصيح مرة ويهرب مرة حتى إذا بلغ
الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام ولعن فيه إبليس نصبت له الزبانية الكلابية ،
وصارت عليه الأرض كالجمرة المحماة فيكون في النزاع والعذاب ما شاء الله تعالى ، ثم
يقال لأدم وحواء : انظروا اليوم إلى عدوكما كيف يذوق الموت ؟ ثم يطلعان عليه فإذا
نظر إلى ما هو فيه من العذاب وعظيم الخزي والنكال والشدة والكرب والهوان . قالوا :
ربنا أتممت علينا النعمة ، فلما أحاط باللعين الزبانية الغضاب ، وأذاقوه شديد ألم عظيم
العذاب ، وضرب بينه وبين الرضا والرحمة الحجاب ، أيقن بعد ذهاب عمره مدة
الآمان ، بغلق باب الغفران ، وعظيم الغضب من الملك الديان ، ودوام تعاقب الخزي
والنكال والهوان بين أطباق النيران . فأنشد عند الرحلة والانتقال بلسان الحال :

لكن وقت ترحل الأظعمان بانوا وبان الصبر عن جثمان
وغدت جحيم الوجد تزفر في الحشا وجرت دموع العين كالطوفان
قد عوضوني عن كمال مسرتي بالوصل عند الفصل بالأحزان

أواه من سهم أصاب مقاتلي من أسهم التمذيب والهجران
 قد كنت في روض الوصال منعمًا أجنبي ثمار مسررتي وأمان
 حكم القضاء بفرقتي وقطيعتي ففدوت في ذل وأسره هوان

فَسأَل اللهُ عز وجل أن يميتنا مسلمين .

وجاء في الخبر أن الله تعالى يذيق ملك الموت طعم الموت . فيقول : وعزتك لو علمت أن طعم الموت يكون مثل هذا ما قبضت روح أحد .

وذكر أن موسى - عليه السلام - لما نزل عليه ملك الموت قال : يا موسى أشربت مسكرًا فاستنكته فقبض روحه . فقال له بعد ذلك : كيف وجدت طعم الموت ؟ فقال : كالشاة يسلخ جلدها وهي حية .

وقيل : إن الخواريين سألوا عيسى - عليه السلام - أن يحيي لهم سام بن نوح - عليه السلام . فقال : أروني قبره فلما أحياه سأله كم مضى له بعد أن مات ؟ فقال : أربعة آلاف سنة . فقال له عيسى - عليه السلام - : كيف وجدت طعم الموت ؟ فقال : يا روح الله أنا في سكرات الموت إلى الآن .

وفي المناجات : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - يا موسى أتعب أن تموت آمنًا وتبعث آمنًا ، وتدخل الجنة آمنًا . قال : نعم . قال : قل كل يوم عشرات مرات : اللهم بارك لي في الموت ، وفيما بعد الموت .

وذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مرَّ بقوم يحفرون قبرًا ، فأتى إليهم ثم نظر إلى داخل القبر وبكى . ثم قال : يا قبر والله إنك لغالٍ بالثمانية جنات .

وقال ابن عباس لجندب - رضي الله عنه - : أوصيك بتوحيد الله والعمل لله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فإن كل خير أنت آتبه بعد هذه الخصال منك مقبول ، وإلى الله مرفوع ، يا جندب : إنك لن تزداد من يومك إلا قربًا فصلِّ صلاة مودع ، وأصبح في الدنيا كأنك غريب مسافر ، وأنت من أهل القبور ، وابك على ذنبك ، وتب من خطيبتك ، ولتكن الدنيا أهون عليك من شمس نعلك ، فكان قد فارقتها وصرت إلى عدل الله ، ولن تنتفع بما خلقت ، ولن ينفعك إلا عملك .

وقال بعض الحكماء : لا بدَّ للمسافر أن يتهيأ الغاية .

وقال آخر : إنما يحظى يوم القيامة من نال المنى . وقال آخر : للمنايا علل .

وكتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله - : يسأله أن يعظه فكتب إليه . أما بعد : فإن الهول الأعظم والأمور المفضعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة ، وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجح ، ومن أطاع هواه ذلّ ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ، ومن أمن اعتبر ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا ذللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع ، وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك . وكتب إليه أيضاً أما بعد : فخف مما خوّفك الله ، واحذر ما حذرك الله ، وخذ فيما بين يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين .

وقال بعض العارفين : إن ملك الموت - عليه السلام - إذا ظهر للعبد أعلمه أنه بقي من عمرك ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيسبdo للعبد عند ذلك من الأسف والحيرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج عنها على أن يضمّ لتلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعقب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد لذلك سبيلاً ، وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ { سبأ : ٥٤ } ، وإليه الإشارة أيضاً بقوله عز وجل : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ { المنافقون : ١٠ - ١١ } .

ف قيل : الأجل القريب الذي يطلبه العبد معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملك الموت أخرني يوماً اعتذر فيه إلى ربي ، وأتوب إليه ، وأتزوّد صالحاً لنفسي . فيقول له ملك الموت : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول العبد : فأخرني ساعة . فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عنه باب التوبة ، فتغرغر روحه ، وتتردد أنفاسه في شرايينه ، فيتجرع حسرة الندامة على تضييع العمر ، وغصّة الناس عند التدارك ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين . بلى ﴾ فعند ذلك يضطرب أصل إيمانه في صدماته تلك إلا حتى تزهق نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه

على التوحيد وتصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذلك قوله تعالى : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله من ذلك خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة ، وذلك أيضاً معنى قوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ { الفرقان : ٢٣ }

فمن ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال فهو قريب من أن تنقلع شجرة الإيمان إذا صدمتها الرياح العاصفة عند رؤية ملك الموت فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ، ولم يتشرب في الأعمال فرعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ملك الموت ، وخيف عليه ، ولذلك قيل : إن قول العاصي للمطيع : أنا مؤمن كما أنت مؤمن ، كقول شجرة الصنوبر إلى الزيتون أنا شجرة وأنت شجرة . فقالت شجرة الصنوبر لها : سنعلم إغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقلع أصولك ، وتناثر أوراقك وينكشف اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبات الأشجار ، وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار ، وعليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تذكرون ﴾ { غافر : ٥٨ } وهذا أمر يظهر عند الخاتمة ، وإنما انقطعت مناط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأتفلون ، ثبتنا الله وإياكم عند هجومه .

وقيل : لما اجتمع يوسف - عليه السلام - يعقوب - عليه السلام - قال له : يا أبت بكيت عليّ حتى ابيضت عيناك أما علمت أن القيامة تجمعنا ؟ قال له : يا بني لقد علمت ذلك غير أنني خفت أن تعمل غير عملنا فتسلك غير مسلكنا .

فانظر يا أخي هذا الخطر العظيم ، واعلم أن أمر الموت آخره أن يزهد فيه ، وأن أمر الموت أوله لجدير أن يجزع منه ، ويستعد له . وأنشدوا :

يا ربيع تعاهدك القـدم	زمنًا فعرفت منك الرسم
وبقيت بلا قع موحشة	تبكي لتوحشك الدميم
أهم بانوا أم بين بهم	أم صرف الدهر أبادهم
أهدت سكاتك داهية	فبقيت خلاء بعدهم

أَهْمُ ظَمَعْنَا أَمْ هُمْ رَحَلُوا
أَهِي الْأَيَّامَ بِشِدَّتِهَا
فَاحْذَرِ دُنْيَاكَ وَزَلَّتْهَا
كَلَا وَالْبَيْتِ وَخَيْفِ مَنِي
فَكَانَ بِجَمِّ مَالِكَ مُنْتَكِسٌ
وَلَمَعِي نَصْحِي يَا نَفْسَ فِكْمِ
وَكَأَنَّ عَيْنَاكَ قَدْ نَكَحَتْ
وَكَأَنَّ بِالْمَوْتِ تَتَلَوَعُهُ
وَدَعْ الْأَمْرَ مَا لَمْ يَكُنْ أَمَلٌ
فَاعْمَلْ عَمَلًا يَنْجِيكَ غَدًا
بَلْ بَعْدَ الْمَوْتِ مَشَاهِدَةٌ
وَدَعْ التَّسْوِيفَ غَدًا بَغْدًا
مَنْ وَحَشَ الْقَبْرَ وَظَلَمْتَهُ
وَمَنْ الْأَهْوَالَ وَشِدَّتْهَا
فَإِذَا وَقَفُوا بِمَوْقِفِهِمْ
فِي يَوْمِ الْحَشْرِ كَأَنَّهُمْ
وَالنَّاسَ عَطَّاشٌ قَدْ غَلَبَتْ
أَشْتَدَّ الْخَوْفَ هُنَاكَ بِهِمْ
وَتَكَادَ تَمَيِّزُ مَنْ حَقَّقَ
وَالنَّارَ إِذَا تَرْمِي لَهُمْ
فَإِذَا مَا الْخَلْقُ أَضْرَبَهُمْ
قَصَدُوا الْمُخْتَارَ نَبِيَّهُمْ
يَشْكُونَ إِلَيْهِ وَقَدْ هَلَكُوا
فَإِذَا شَفَعَ الْمُخْتَارَ لَهُمْ
وَضَمَعَتْ فِي الْحَيْنِ مَوَازِنَهُمْ
أَمَّا الْأَبْرَارُ فَكُتِبَتْ لَهُمْ
وَذُورُ التَّكْذِيبِ شِمَائِلَهُمْ

أَمْ خَبِيلُ الْمَوْتِ سَمَّرَتْ بِهِمْ
غَدَرَتْ فَتَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ
فَلَهَا نَعْمَ وَلَهَا نَقْمٌ
إِنَّ الْأَعْمَارَ لَتَنْهَدُمُ
وَكَأَنَّ بِجَمِّ مَالِكَ يَنْهَزُمُ
نَعَصِي مَوْلَاكَ وَتَحْتَرِمُ
وَكَأَنَّ بَنِينَكَ قَدْ يَتِمُّ
وَكَأَنَّ بِتَرَاتِكُ يَقْتَسِمُ
عَقَبِي بَاهٍ وَإِنْ أَدْرَكَ النَّدْمُ
فِي الْحَشْرِ إِذَا وَهَتْ الْقَدْمُ
شَنَعَاءُ تَشْيِبُ لَهَا اللَّئِمُ
فَالْمَوْتُ حَذَاءُكَ مُلْتَزِمُ
وَقِيَامِ النَّاسِ لِرَبِّهِمْ
مَا يَغْشَى الْوَاصِفَ وَصَفَهُمْ
لِلْعَرَضِ وَطَالَ وَقُوفَهُمْ
سَكْرَى وَالنَّارَ تَسْوِقَهُمْ
مَنْ حَرَّ الشَّمْسَ رُؤُوسَهُمْ
وَتَكَادَ تَطْيِشُ عَقُولَهُمْ
فَإِذَا زَفَرَتْ جَشَّتِ الْأُمَمُ
شَرُّرٌ كَالْقَصْرِ وَتَضْطَرُّمُ
عَظْمِ الْأَهْوَالِ وَكُتِبَتْ لَهُمْ
وَرَسُولِ اللَّهِ شَفِيْعَهُمْ
بِمَقَامِهِمْ وَيَحْأَلُهُمْ
وَتَجَلَّى اللَّهُ لِعَرَضِهِمْ
لِلْقَسَطِ وَطَارَتْ صُحُفُهُمْ
يُؤْتُونَ لَهُمْ بِيَمِينِهِمْ
أَخَذَتْهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِمْ

فمقالتهم يا ويلتنا
 يكون على ما قد عملوا
 فتخال الشخص وقد شخصت
 والله الحساكم بينهم
 ربُّ أحدٍ فردٌ صمدٌ
 فتتري الأبرار على نُجُبٍ
 فأولئك قد خسروا أبدًا
 ويسار بهم للنار وقد
 فطمعهم الزقوم بها
 وظلالهم اليحموم كما
 وأناس الجنة في دعة
 الحور العين تعانقهم
 ولهم فيها عُرفٌ تجري
 يارب عليك توكلنا
 حاشي لعلائك خيبة من
 يارب ذنوبي إن عظمت
 قد جئت لتغفر لي ذنبي
 وعلى المختار وعترته
 في حين قراءة كتبهم
 وعلى تحصيل ذنوبهم
 أبصارهم لمليكم
 والناس لديه قد احتكموا
 نعم المولى عدلٌ حكيمٌ
 قصدوا الرحمن بوفدِهِم
 فالويل لهم يا ويحهم
 أغفل الله أكتفهم
 وحميم النار شرابهم
 أن القطران لباسهم
 طوبى لهم طوبى لهم
 فيها يا عظيم سرورهم
 أنهار الكوثر تحتهم
 أنت الغفار لك النعم
 أضحي بجلالك يعتمصم
 جرماً فلرحممتك العظم
 وشفيعي جودك والكرم
 أبداً صلواتك تنسجهم

وحكي عن علي بن محمد - رحمه الله - أنه قال: مرّ فارس بسلام يرعى غنماً فقال له: يا غلام أين العمران؟ فقال: اصعد الراية تشرف عليهم، فصعد الفارس فأشرف على مقبرة. فقال: إن الغلام لجاهل أو حكيم، فرجع إليه فقال: يا غلام سألتك عن العمران فدللتني على المقبرة. فقال الغلام: إني رأيت أهل الدنيا يتقلون إلى تلك الدار، ولم أر أحداً انتقل إلى هذه من تلك الدار، وإنما يتقل من الخراب إلى العمران، ولو سألتني عما يواريك أو دابتك لدللتك عليه.

وقال سبحانه: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ { غافر: ٣٨ - ٣٩ }.

وقال الأصمعي - رحمه الله - : رأيت أعرابياً به رمد يسيل الماء من عينيه . فقلت له : يا أعرابي أولاً تنضحه ؟ قال لي : لا . قلت : ولم ؟ قال : لأن الطبيب نهاني عن ذلك ، ولا خير فيمن نهى ، وأمر فلم يأتمر ، وزجر فلم يزدجر . فقلت : يا أعرابي أوتشتهي شيئاً . قال : لا يشتهي واحتمى ، فإن أهل النار غلبت حميتهم شهواتهم فافتضحوا عند الله تعالى . ثم أنشد :

عمرك في الحمية أفنيته خوفاً من البارد والحرار
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصي حذر النار

وقال رجل من الصالحين : خرجت من قرية إلى قرية ثانية ، فاستقبلتني عجوز عليها جبة صوف وقناع من شعر فقالت لي : إلى أين تريد يا رجل ؟ فقلت : أريد هذه القرية . فقالت : لماذا ؟ قلت : لحاجة عرضت لي فيها . قالت : فهلا سألت صاحب القرية فوجه إليك بحاجتك ولم يعنك . فقلت : ليس بيني وبينه معرفة ، فصهرخت صرخة سقطت مغشياً عليها ، فعرفت الذي أرادت ، فأخذت في البكاء . فلما أفاقت قالت : ما بالك تبكي ؟ قلت : أبكاني أمر غيب عني فهمه ثم فهمته . قالت : فاحمد الله تعالى حيث لم يتركك في الحياة متلوقاً ، ثم قالت : ما اسمك ؟ قلت : عثمان . قالت : يا أبا عمرو أتحب الله تعالى ؟ قلت : نعم . حباً شديداً . قالت : فما الذي أفادك حين واصلك ؟ فسكت ولم أجبها . فقالت : ما لك لا تتكلم ؟ لعلك تكتم حبه . قال : فسكت ولم أجبها . قالت : فلعلك تحب كتمان المودة ، ولكن سلني فوعزة سيدي لأتحين حجاب الكتمان عن قلبك . ثم قالت : لأحدثنك بطرف الفوائد . قلت : حدثيني . قال : فسكتت ساعة ثم رفعت رأسها إليّ فقالت : أباي أن يببيني الإظهار لثلاث تندر دخائره بممارسة البطالين اللاهين عن فصل القضاء الذين قصروا أنفسهم على العاجل . قال : قلت لها : ادعي الله لي . قالت : بم تحب أن أدعوك ؟ فقلت : أن يرزقني الله تعالى محبته . قالت : حسبك المحبة إذا سألتها فما تريد غيرها ؟ فإنه يعطيك ما سألت . قال : ثم نظرت إلى السماء فقالت : يا عجباً للخليفة كيف يريدون بك بدلاً ؟ وأنت الجواد الكريم ، أو يشغلهم شيء دون حبك والنظر إليك . فقال : ثم عارضت الطريق فقلت لها : ادعي الله لي . قالت : قد علم الحبيب ما ناجاه الضمير من أجلك . وأنشدوا :

يا لاهياً غافلاً عما يراد به حان الرّحيل فما أعددت من زاد
تظن أنك تبقى سرمداً أبداً هيهات أنت غداً فيمن مضى غداً

وقيل : مرض أبو الحسن النووي - رحمه الله - فخرج ذات ليلة إلى صحن الدار
فنظر إلى السماء وإلى ريتها ثم بكى بكاءً طويلاً . وأنشد في ذلك :

إن كنت للسقم أهلاً فأنت للشكر أهلاً
عذب فلم يبق قلب وأنزل السقم مهلاً

وحكي أن شيخاً كان يسير في قافلة إذ عدل عن الطريق يؤم البرية فصاحوا به :
يا شيخ إلى أين تريد ؟ قال : إني أريد العيش . قالوا له : قد تركت العيش خلفك .
قال : فإنكم تقولون : إن العيش في المنّ التي خلفتموها . قالوا : نعم . قال : ليس
العيش أن تبقى منك جارحة إلا جذبتك إلى طاعة الله عز وجل وخوفتك لقاءه فجأة
الموت ، وأنت تستعد للاقائه . وأنشدوا :

نزل المشيب بعارضي ولتي يا نفس فازدجري عن اللذات
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ولقد وعظتك إن قبلت عظات
فدعى الحياة لأهلها وتجهزي يا نفس وبك تجهز الأموات

وقال إبراهيم التيمي - رحمه الله - : كنت كثير المشي إلى المقابر ذاكراً للموت
وطول البلى إذ غلبتني عيني فاضطجعت على قبرٍ فسمعت قائلاً يقول : خلوا هذه
السلسلة فأدخلوها في فيه وأخرجوها من دبره . فإذا الميت يقول : يا رب ألم أكن
أصوم ؟ يا رب ألم أكن أصلي ؟ يا رب ألم أقرأ القرآن ؟ يا رب ألم أحج لبيتك
الحرام ؟ قال : فما زال يحصي أعمال البر كلها فإذا قائل يقول : بلى يا عبد الله ،
ولكنك إذا خلوت بالمعاصي لا تراقب الله عز وجل . وأنشدوا في المعنى :

يا ساهياً عن ذهاب ساعاته الموت آت والعمر منصرفٌ
قم فاغتنم يومك الجديد ففي يومك هذا من أمسه خَلْفٌ
إن أنت ضيعت ذا وذاك فقد أفسد أيام عصرك التَلَفٌ
فربّ يوم تقول وا أسفًا إذ منك لائم ينفع الأسفُ
يا ربّ يا ربّ تب على رجل أوبقسه من ذنوبه السرفُ

وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير في بلاد الشام إذ ملت إلى شجرة لاستريح تحتها ، فما قعدت حتى أتاني شيخ في هيئة الواله . فقال لي : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعتة يقول : كل نفس ذائقة الموت ، ثم قال : بارك الله لي في الموت . فقلت له : وفيما بعد الموت . فقال لي : من أيقن شمرّ متزر الحذر ، ولم تكن الدنيا له وطناً ، ثم مضى وهو يقول : كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون . ثم قال : يا من لوجه عنت الوجوه بيّض وجهي بالنظر إليك ، واملأ قلبي من محبتك ، وأجرني من ذلّ التوبيخ غداً عندك ، فقد آن لي الحياء منك ، وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعني أجلي ، ولولا عفوك لم ينسبط بي عمري ، ثم مضى وتركني . وأنشدوا :

يا ذا الذي لا تزال تشغلني دنياه في ورده وفي الصدرِ
أقصر فإن الذي شغلت بها لست ترى صفوها بلا كدرِ

وقال بعضهم : قلت لبعض العباد : ما الذي أضنى العباد وأكساهم الشحوب ؟ قال : ذكر المعاد وخوف الحساب . ثم قال لي : كيف لا تذوب أبدان العباد والزهاد والخدام خوفاً وفزعاً والقيامة أمامهم ، ولهم من يومها ما قد عملوه . ثم صاح وقال : من لغرتي في ذلك الموقف ؟ من لتحيري ؟ من لقلقي ؟ من لتذلي ؟ من لجزعي ؟ من لعطشي ؟ ثم صاح : إليك عني حركت مني ساكتاً ، وأبديت مني غمّاً ساكتاً . ثم قال : وأطولّ وقوفاه ، واثقل ظهره من حمل الذنوب ، واوساق العيوب ، أواه من حملها ومن ذكرها ، ومن إقاربي على نفسي بها . ثم قال : أين سترك يا قديم ؟ وأين عفوك يا كريم ؟ فبعفوك استنقذني وبرحمتك سلمني . ثم بكى فتركته باكياً . ثم انصرف عنه وأنشدوا :

اعطف عليّ إذا وقفت مروّحاً حيران بين يديك يوم الدين
ما حيلتي بين العصاة إذا همُّ خافوا الحساب فخفّ عنهم دُونِ
ما حيلتي في حين نشر صحيفتي إن قيل لي خذها بغير يمينِ
ما حيلتي عند الصراط وهوله إن قصّرت بي نيتي ويقينِ
لا حيلة أرجو سواك وموتلاً إلا اليقين بها وحسن ظنونِ

وذكر أن الاسكندر لما أتته الوفاة كتب إلى أمه يعزيها بنفسه : بسم الله الرحمن الرحيم من مرافق أهل الحياة قليلاً ، ومرافق أهل القبور طويلاً إلى أمه التي لم تستمتع بقربه في دار القرب ، وهي مجاورته غداً في دار البعد ، سلام عليك من مودع ظاعن اسمعي كلامي وتدبري ما فيه ، واعتصمي بحسن العزاء والصبر ، وترفعي عن شبه النساء في الضعف ، والجزع من المصيبة ، كما كان ابنك مرتفعاً عن شبه الرجال في أخلاقهم ، وكثير من أمورهم ، وكما لم تكوني ترضي له بغير ما أنت فيه من الفضل في نفسك ، والنعمة الظاهرة عليك في أدبك ، يا أمي هل وجدت لشيء من الدنيا ملكاً باقياً ؟ وحالاً دائمة ؟ ألم تري إلى الشجرة النضرة الخضرة كيف تهتز أغصانها ، وتلتف ورقها ، وتحمل ثمرها . ثم لا تلبث أن تتكسر أغصانها ، وتنتثر ثمرها ، وتسقط أوراقها ، يا أمي ألم تري إلى النبت الناضر يصبح نضراً ويمسي هشيماً ، يا أمي ألم تري إلى القمر المنير أنهى ما يكون ليلة البدر ينكسف ، يا أمي ألم تري إلى الكواكب الزاهرة كيف تغشيها الظلمة ، يا أمي ألم تري لهب النيران المتوقدة ما أسرع ما تخدم أنظري يا أمي هؤلاء الخلائق المتعيشين في الدنيا الذين قد امتلأت منهم الآفاق واستحارت منهم الأبصار والأوهام إنما هو كله شيء يولد وشيء يموت ، وهو كله مقرون بالبوارج والتلف ، يا أمي هل رأيت معطياً لا يأخذ ومقرضاً لا يتقاضى ، ومعيراً لا يسترجع عاريتة ، ومستودعاً لا يردّ وديعته ، يا أمي إن كان أحد بالبكاء حقيقاً فلبكت السماء على نجومها ، والبحار على حيتانها ، والجو على طيوره ، والأرض على نباتها وما فيها ، وليك الإنسان على نفسه التي تموت في كل ساعة ، وتتغصص في كل طرفة عين . بل على ما يبكي الباكي لفقد ما فقد كان قبل أن يفارقه من فارقه أمناً لفراقه فأتاه ما لم يكن يحتسب ، فأحدث ذلك له من البكاء والحزن ، يا أمي هل تري أنه بعد ذهاب من ذهب باقياً مقيماً لا يظعن لظعن لا يرجع ، فإن لم يكن هذا فشان الباكي البكاء ، والحزين الحزن ، يا أمي إني قد كنت بالموت موقناً ولم أذكر مجيئه إليّ ، ولا نزوله بي ، فاعتصمي بالصبر عني ، واسلُ عن البكاء عليّ ، فإن المكان الذي أذهب إليه خير من المكان الذي كنت فيه وأطهر . وأنشدوا في المعنى :

أعاتب قلبي فلا يسمع وأمنحه النصح لو ينتفع
وأعذله في اتباع الهوى فلا يستفنيق ولا يقلع
ويسعى إلى اللهو مستحسناً لما يستفيد وما يجمع

ويجزع إن لم ينل شهوة	وعمري يمر ولا يرجع
وأرغب في حظه جاهداً	ويأبى عليّ فمما أصنع
ولو أستطيع على دفعه	فعلت وأنى بي المدفع
إلى الله أرغب في رشده	فمالي سوى خالقي مفزع
أبعد المشيب أحب التي	برونقها أهلها نخدع
وازداد حرصاً وسمياً لها	فحتى متى أنا لا ألقع
وقد كان لي واعظاً أنثي	أراها بتكرارها تسرع

وروى الليث بن سعد وابن لهيعة عن الثقات قال : لما مات صابن مضر بن قيصر بن حام بن نوح - عليهما السلام - ولي بعده ابنه براديس بن صابن بلاد مصر ما شاء الله ، وبعث في أيامه صالح النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ثمود ، وكان براديس الملك ذا نفس شديدة وهمة بعيدة ومدة مديدة ، فغزا بلاد الحبيشة ، وقتل الملوك فيها ، وسبى الأموال والحريم ، ثم عاد إلا بلاده ، وأقام على سنن آبائه وأجداده حتى مات ، ودفن مع أجداده ، ويزر على قبره بالقبطية زبراً - وهو النقش - أوله : هذا قبر براديس الملك لهفًا ، قتل الفأ ، وسبى الفأ ، وأطلق الفأ ، وأوثق الفأ ، وغنم الفأ ، وأسر الفأ وكان من آبائه خلفًا لم يطق أن يدفع عن نفسه حتفًا ، فلهدف قومه عليه لهفًا ، وعلامة الموت لا تخفى ، وأسير الموت لا يعفى ، وصريع الموت لا يشفى ، وبعد الموت لا يوفى والموت لكل أحد مسلوك ، ولكل هارب مدرك ، ولكل سليم مهلك ، وفي انقضاء ملكه هلكت ثمود . ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ .

وأنشدوا في مثل ذلك :

أين أهل الديار من قوم نوح	ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسيرة بسطوا	ثم أنضت إلى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديد ولكن	بعد ذا الوعد كله والوعيد

وحكي أيضاً أنه ذكر للاسكندر وهو ذو القرنين أمر دفن من الملوك فهم باستخراجه فأمر الرجال بالحفر عليها ، فلما حفروا عليه غلبهم النعاس ومنعهم من ذلك

فأمر غيرهم فلما حفروا عليه غلبهم النعاس ولم يقدروا عليه ، فأخبر الاسكندر أرسطاطاليس بأمره . فقال له : إن هذا الدفين معقود بظلم النعاس ، فهو يحجبه عن إدراك الملتمس له بالنعاس ، وأنا أصنع لك طلسمًا يحله إن شاء الله ، فصنع له طلسمًا ثم أمر الرجال أن يحفروا عليه حتى أخرجوا الدفين ، فإذا هو تابوت من ذهب طول الواحه اثني عشر ذراعًا ، وعرضها أربعة أذرع ، غلظها أربع أصابع ، ففتحه الاسكندر فإذا فيه رجل صحيح جسمه لم يذهب من شكله شيء ولا تغيير من صورته شكل ، وعلى رأسه تاج من أربعة أرتال من قطعة واحدة من ياقوت أحمر ، وتحتة إكليل من الياقوت محفورة مملوءة بالجواهر النفيس ، وعلى صدره لوح من زمرد أخضر ، طوله ثلاثة أشبار ، وعرضه شبران ، وفيه مكتوب بالقلم السرياني : بسم الله الرحمن الرحيم كل ما كان له ابتداء كان له انتهاء ، ملكت الربيع المسكون ألف عام ، وانتهى خراجي في اليوم الواحد زينة قبوري هذا ، وأطاعني الشمس والقمر ، وما ملكت الريح ، وعلمت سر الطبيعة ، ومنتهى الخليقة ، ثم صعد روحي إلى الملأ الأعلى عند الرضا عنه ، وقبول عامله له ، وتركت هذا الشكل الأرضي يبلى ، فليعتبر به بعدي من أتى ، لا ملك إلا ملك من لا يفنى ، ولا سلطان إلا لمن انفرد بالحكمة العظمى تبارك اسمه وتعالى وتقدس عن قول الملحددين واستولى . قال الله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبادًا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

وأنشدوا في ذلك :

سهم المنية في البرية نافذُ ما الموت للأخاصُ منّا ناجذُ
 عمرٌ يمرُّ ودار لهو ينقضي وفناؤها من كنز عمرك آخذُ
 وغرابٍ حكم البين بنا ناعق وجمامه بجنابٍ وكرك لائدُ
 فاحذر من الآفات إن مصارع الأ يام حكم في الخلائق نافذُ

وذكر أنه دخل من جرههم على معاوية - رضي الله عنه - فنظر إلى شيخ كبير

قد سقطت حاجباه على عينيه ، فظن معاوية أنه قد خرف وأنه لا يهتدي إلى صواب . فقال له معاوية : كم سنة أتت عليك ؟ قال : مائة وثلاثون سنة . فقال له : يا أبا جرههم أخبرني ما أعجب ما رأيت في طول ما عمرت . فقال : يا أمير المؤمنين رأيت ليلة في أثر يوم ، ويومًا في أثر ليلة ، وقومًا يموتون ، وقومًا يولدون ، ولولا أن الحي يموت ما وسعهم بلد ولولا أن المولود يولد ما بقي على الأرض أحد ، فأعجب معاوية

بكلامه . ثم قال له ك أخبرني عن أعجب ما شهدته . قال : نعم أتيت حياً من أحياء العرب فإذا هم قد أخرجوا جنازة لهم فاتبعتها معهم ، فلما حصل الميت في قبره تنحيت عن القبر فقعدت قريباً منه ، فأدركتني عليه رقة فبكيت وأنشدت :

استقدر الله خيراً وارضيناً به فبينما العسر إذ زادت مياسيرُ
وبينما المرء في الأحياء مغتبطاً إذ صار في الرمس يعذوه الأعاصيرُ
حتى كأن لم يكن إلا تذكرة فالموت آخره والأمر مقدر
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحي مسرور

قال الشيخ : وكان إلى جانبي رجل يسمع كلامي . فقال لي : هل تدري من قائل هذه الأبيات ؟ قلت : لا أدري غير أنني رأيتها على وجه من الدهر . فقال لي : هذا الميت والله قائلها ، وقد والله صدق أنت الغريب تبكي عليه ليس تعرفه ، وهذا ابن عمه ووارثه ليس في القوم أسراً منه بموته لمكان ماله .

وقال أحد الحكماء : إنما أهل الدنيا كصورة في صحيفة كلما نشر بعضها طوى بعضها . وقال أيضاً : بطن الأرض ميت ، وظهرها سقيم . وأنشدوا :

عجبت والدهر لا تبقي عجائبه للمرء يرجو البقاء والموت يطلبه
يا طالب الخلد في دار الفناء لقد أصبحت تطلب ما عزت مطالبه
أما ترى الموت يا مغرور يطلبنا في كل يوم تفادينا مواكبه
فكن معداً لهول أنت وارده قبل الممات وكأس أنت شاربه
كن من مصاحبة الدنيا على حذر فليس تبقى على خدن تصاحبه
كم من جهول ومغرور بزيتها أمسى وأضحى وقد قامت نوادبه

وحكي سفيان بن عيينة - رحمه الله - عن ابن الزبير - رحمه الله - قال : دخلت على علي بن الحسين - رضي الله عنهما - في المسجد فوجدته يعاتب نفسه ويناجي ربه ويقول : حتى متى إلى الحياة سكوتك ، وإلى الدنيا وعمارتها ركونك ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ، ومن وارثه الأرض من إلافك ، وبمن فجعت به من إخوانك وأحبابك ، ونقل إلى دار البلى من أقرانك .

وأنشدوا في ذلك :

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنهم فيها بوال دوائر
خلت دورهم منهم ومرّت عراضهم وساقتهم نحو المنايا المقادر
تخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها وضمتهم نحو التراب الحفائر

كم خرمت أيدي المنون من قرن بعد قرن ، وكم غيرت الأرض بيلاءها ،
وغيبت في ترابها ممن عاشت من صنوف الناس ، وشيعتهم إلى الأرماس .

وأنشدوا في ذلك :

وأنت على الدنيا مكبّ منافس لخطامها فيها حريص مكائر
على خطر تمشي وتصبح لاهياً أتدري بماذا لو عقلت نخاطر
وإن امرءاً يسعى لديناه جاهداً ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

فحتى متى على الدنيا إقبالك ، وبشهواتها اشتغالك ، وقد وعظك السفير ،
ووافاك النذير ، وأنت عما يراد بك ساهية ، وبلدّ يومك لاهية .

وأنشدوا في ذلك :

وفي ذكر هول الموت والقبير والبلى عن اللهو واللذات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الأربعين تربص
ونفس الفتى لا شك مائلة إلى وشيب قذال^(١) المرء لا شك حاجز
بلوغ المنى وهو عن الرشيد حائر

انظر إلى الأمم الماضية ، والملوك الفانية ، كيف مزقتهم الأيام ، وأفنأهم الحمام
فأمحت من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأنشدوا في ذلك :

فاضحوا رميمًا في التراب وأقفرت مجالس منهم عطلت ومقاصير
وحلوا بدار لا تزاور بينهم وأنى لسكان القبور التزاور
فما أن ترى إلا قبوراً ثوروا بها مسنمة تجري عليها الأعاصير

وكم عاينت من ذي عزة وسلطان ، وصاحب جند وأعوان قد تمكن من دنياه ،
ونال فيها مناه ، فبنى الحصون والداكر ، وجمع الأعلاق والدخائر وأنشدوا في ذلك :

(١) جماع مؤخر الرأس . انظر : القاموس المحيط (٤/٣٦) .

فما صرّفت كَفَّ المنية إذ أتت مبادرة تهوي إليه الذخائر
ولا دفعت عنه الحصون التي بنا وحفّت بها أنهارها والدساكر
ولا نازعت عنه المنية حيلة ولا طمعت في الذبّ عنه العساكر

أتاه من أمر الله ما لا يُحدّ ، ونزل به ما لا يُردّ ، فتعالى الله الملك الحق الجبار ،
المهيمن القهار ، قاسم الجبارين ، ومذل المتكبرين ، ومخزي الملحدين .

وأنشدوا في ذلك :

ملك عزيز لا يردّ قضاؤه عليم حكيم نافذ الأمر قادر
عني كلُّ ذي عزٍّ لعزّة وجهه فكلُّ عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت لعزّة ذي العرش الملوك الأكابر

فالبدار البدار من الدنيا ، والحذر الحذر من مكائدها ، وما نصبت لك من
مصائدها ، وتحلت لك به من ربتها ، واستشرفت لك من بنيتها . وأنشدوا في ذلك :

ومن دون ما عاينت من فجعاتها إلى رفضها داع وبالزهد أمر
فجد ولا تغفل وعيشك زائلٌ وأنت إلى دار المنية صائر
ولا تطلب الدنيا فإن طلابها وإن نلت منها ثروة لك ضائر

وهل يحرص عليها اللبيب ؟ أو يُسرُّ بها أريب ؟ وهو على ثقة من فنائها ، وغير
طامع في بقائها ، أم كيف تنام عين من يخشى البيات ؟ أم كيف تسكن نفس تتوقع
الممات ؟ وأنشدوا في ذلك :

ألا لا ولكننا تعزُّ نفوسنا وتشغلنا اللذات عما نحاذر
وكيف يلدّ العيش من هو موقن بموقف عدل حين تبلى السرائر
كأنا نرى ألا نشوراً وأننا سدى ما لنا بعد الممات مصادر

وما عسى ينال طالب الدنيا من لذاتها ، ويتمتع به من شهواتها ، مع فنون
مصائبها ، وأصناف عجائبها ، وكثرة تعبها ، وما يكابده من أوصابها وأسقامها .

وأنشدوا في ذلك :

وما إن يرى في كل يوم وليلة
تعاوده آفاتها وهمومها
يروح عليها صرفها ويباكر
وكم ما عسى يخفى لها المتعاور
فلا هو مغبوط بدنياه آمن
ولا هو عن تطلابها النفس قاصر

كم غرت الدنيا من حريص عليها ، وصرعت من مكب عليها ، فلم تقله من
عثرته ، ولم تقمه من صرعته ، ولم تداوه من سقمه ، ولم تشفه من آله .
وأنشدوا في ذلك :

بلى أوردته بعد عزّ ومنعة
فلما رأى أن لا نجاة وأنه
موارد سوء ما لهن مصادر
هو الموت لا ينجيه منه المؤازر
تندم لو تغنيه طول ندامة
عليها وأبكته الذنوب الأكابر

بكى على ما سلف من خطاياها ، وتحسّر على ما خلف من دنياه ، حيث لا يغنيه
الاعتبار ، ولا ينجيه الاعتذار من هول المنية ، ونزول الرزية . وأنشدوا في ذلك :

أحاطت به آفاته وهمومه
فليس له من كربة الموت حاجز
وأبلس لما أعجزته المقادر
وليس له مما يحاول ناصر
وقد جشأت خوف المنية نفسه
تردها بين النيات الحناجر

هناك امتنع عنه عواده ، وأسلمه أهله وأولاده ، فارتفعت الرنة والعيول ويشوا
من برء العليل ، وغمضوا بأيديهم عينيه ، ومدّوا عند خروجه رجله .

وأنشدوا في ذلك :

فكم موجه يبكي عليه تفجعاً
ومسترجع داع له الله مخلص
ومستنجز صبراً وما هو صابر
يعدد منه خير ما هو ذاكر
وكم شامت مستبشر بوفاته
وعما قليل للذي صار صائر

فخرقن جيوبهن نساؤه ، ولظمن خدودهن إماءه ، وأعول لفقده أولاده وجيرانه ،
وتفجع عليه إخوانه وأحبابه ، ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لإبرازه .

وأنشدوا في ذلك :

فظل أحب الخلق أقربهم له يحث على تجهيزه ويبادر
 وشمر من قد أشخصوه لغسله ووجه لما فاض للقبر حافر
 فكفن في ثوبيه واجتمعت له فشيعه إخوانه والعشائر

فلو رأيت الأصغر من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، فغشي من الحزن
 عليه ، وقد ملأت الدموع عينيه ، وهو يندب أباه ، ويقول : يا ويلاه ، ويا شجواه ،
 ويا حسرتاه . وأنشدوا في ذلك :

لما بينت من هول المنية منظرًا يهـال بمرآة ويرتاع ناظر
 أكابر أولاد يهيج اكتئابهم إذا ما تناسوه البنون الأصاغر
 ورنه نسوان عليه جوازع مدامعن فوق الخدود غزائر

وأخرج من سعة قصره إلى ضيق قبره ، وحشوا عليه التراب ، وأكثروا الجزع
 والانتحاب ، ووقفوا ساعة عليه ، وقد يسوا بعد ذلك من النظر إليه .
 وأنشدوا في ذلك :

فولوا عليه معولين وكلهم بمثل الذي لاقى أخوهم مخاطر
 وأشغلهم قسم التراث عن التي بدا لهم من أمره وهو قاصر
 وعادوا كأمثال البهائم ترتمي فلما انتهى منها الذي هو حاضر

عادت إلى مراعيها ، ونسيت ما إليه منتهاها ، أفعال البهائم اقتدينا ؟ أم على
 عاداتنا جرينا ؟ عدُّ إلى ذكر المنقول إلى الثرى ، والمحمول إلى قول ما ترى .
 وأنشدوا في ذلك :

فوافى بلحد مفردًا وتوزعت موارثه أرحامه والأعاصر
 الحوا على الأموال يقتسمونها فلا حامدٌ منهم عليها وشاكر
 فيا عامر الدنيا ويا ساعيًا لها ويا آمنًا من أن تدور الدوائر

كيف أمنت هذه الحالة ؟ وأنت صائر إليها لا محالة ، أم كيف تنتهي في حياتك ؟
 وهي مطية إلى ممالك ، أم كيف تسبغ طعامك ؟ وأنت متظر لحمامك .

وأنشدوا في ذلك :

ولم تتزود للرحيل وقد دنا وأنت على حال الوشيك مسافرٌ
فله نفسي كم أسوق تويتي وعمري فان والردى لي ناظرٌ
وكل الذي أسلفت في الصحف ثبت بجازي عليها عادل الحكم قادرٌ

يا نفس كم ترقعي آخرتك بدنياك ، وتزكي في ذلك هواك ، وإني لأراك ضعيف
اليقين يا من ترقع الدنيا بالدين ، أفبهذا أمرك الرحمن ؟ أم على هذا ذلك القرآن ؟

وأنشدوا في ذلك :

تُخَرَّبُ ما يبقى وتعمرُ فانيًا فلا ذاك موفور ولا ذاك عامرٌ
وهل لك إن واناك حتفك بغنة ولم تكتسب خيراً لدى الله ناصرٌ
أترضى بأن تمضي الحياة وتنقضي ودينك منقوص وما لك وافرٌ

وحكي أن رجلاً جاء إلى إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - فقال له : عرفني كم
من فرض الله عليّ في اليوم والليلة . فقال له : ما لك وللتعرض لما لا تقوم به ، عليك
بما تعلمه ، فالح الرجل عليه مراراً . فقال له إبراهيم : أتعرف الحساب ؟ قال : نعم .
قال : فاحسب ولا تغفل ، اعلم أن في السنة اثني عشر شهراً ، والشهر ثلاثون يوماً ،
واليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، والساعة مائة وعشرون نفساً ، وفي كل نفس منها
لحظتان ، وفي كل لحظة يجب على العبد ثلاثة أشياء لازمة له يعصي بتركها . قال :
وما هي ؟ قال : هي ذكر الله تعالى ، والإخلاص لله ، والرضا بما يأتي من الله . ثم
قال إبراهيم : إن القلب لا يخلو من الخواطر والحركات ، وحركة القلب لا تخلو من
أحد معنيين ، إما أن يكون حقاً أو باطلاً ، فإن كان حقاً ففرض عليه أن يقبله ، وإن
كان باطلاً ففرض عليه أن يردّه ، فإذا قبل الحقّ وردّ الباطل كان قد أدى ما يجب عليه

اعلم أن هذه الأيام في العام ثلاثمائة وستون يوماً ، والساعات ثمانية آلاف ساعة
وستمائة وأربعون ساعة ، والأنفاس ألف ألف نفس ، وستة وثلاثون ألفاً وثمانمائة ،
واللحظات فيه ألف ألف لحظة ، وثلاثة وسبعون ألفاً وستمائة لحظة ، وكل لحظة منها
تقرب أو تبعد ، تقرب باستعمالها في الذكر له والفكر فيه ، وتبعد باستعمالها لغير الله
تعالى ، فانظر يا أخي ماذا يضيّع البطلان في الأوقات الشريفة التي تذهب عن صاحبها

صفحاً وهو لا يشعر ولا يدري أن كل نفس من أنفاسه جوهرة نفيسة لا قيمة لها ولا عوض . وأنشدوا :

نفائس أنفاس أضعت وإنها لمثمنة لو لم يكن ثم حرمان
وقال المعري أيضاً :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منك انتقضت به جزءاً
فتصبح في نقص وتمسي بمثله ومالك معقول تحس به رزءاً
يميتك ما يحييك في كل ساعة ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءاً

اعلم أن عمرك رأس مالك ، وأنفاسك تجارتك ، وريحك عليها سعادة الأبد ، أو شقاوة الأبد ، فيا من ذهبت أيامه ، وقرب منه حمامه ، وقل حرصه على الخير واغتنامه ، انتبه فقد طال منامك ، وانظر في انفكاكك فقد قيدتك آثامك ، ذهب العمر إلا اليسير ، وحصل من السيئات كثير ، وأنت ترى أنك غني وربما أنت عند الله فقير ، واعلم أن من الساعات تتولد الآفات ، فلا يغرنك صفاء الأوقات ، فإن تحتها غوامض الآفات ، فكم من ربيع نورت أزهاره وأشجاره ؟ وطن به أهله وأصحابه فلم يلبثوا أن جاءهم جائحة سماوية ، ونفحة إرادية . قال الله تعالى : ﴿أناها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾ {يونس : ٢٤} وكم من مرید لاحت عليه أنوار الإرادة ، وظهرت عليه آثار السعادة ، وانتشرت صفته في الآفاق ، وعقدت القلوب على محبته بإطباق ، وظنوا أنه من جملة أوليائه وأهل صفائه ، بدّل الفسق ضياؤه ، وبالكدر صفاؤه . وأنشدوا :

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وساعدتكَ الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال راشد بن سعد : نظر عيسى عليه السلام إلى غلام لم يدرك الحلم قد نحل جسمه . فقال له : ما الذي غيرك وردك إلى ما أرى ؟ فقال له الغلام : والله ما بي سقم ولكنني أخاف أن أكبر وأعصي الله سبحانه ، وأنت يا مسكين فني عمرك إلا اليسير ، وحظك من التقى حقير ، وعمّا قليل إلى البلى تصير . وأنشدوا في المعنى :

كيف يبقى فرع نابثة أصلها في الموت مغترس

فراجع نفسك فقد شاب الرأس ، وضعفت الحواس ، أتدري ما الذي شغلك عن النظر في أمر الرحيل ؟ الحرص على متاع قليل ، فقل لنفسك المتعوبة : قد أهملت حالك وأنت مطلوبة ، أفريقي فين يديك صعوبة ، وقد وافاك النذير ، فسعادتك في التشمير . وأنشدوا في المعنى :

لقد نزل المشيب على شبابي فقال له المشيب ارحل نزلنا
فقلت له أترحل ماشياً وتتركني فقال نعم عزلنا

واعلم أن الموت في آثاركم ركضاً ، فسيلحق بعضكم في البلى بعضاً .

وقال بعض الحكماء : كفى بالموت واعظاً ، وباليقين غناً ، وبالحشية علماً ، وبالفكرة شغلاً ، وبمواصلة الذكر أنساً .

وقال آخر : احرص على الموت تهب لك الحياة . وأنشدوا في مثل ذلك :

تناجيك أجدات وهن سكوت وسكانها تحت التراب خفوت
أباجامع الدنيا لغبر بلاغة لمن تجتمع الدنيا وأنت تموت

فانظر يا مسكين فإنك من التقوى عديم ، وقد ألح عليك الغريم ، غدا العرض على أسرع الحاسين ، فماذا قدمتم معشر اللاعبين ؟ غداً يظهر المطيع بالكرامة والنجاة ، ويرجع بالخيبة والحسرة العصاة ، غداً يفوز من أطاع مولاه ، غداً يظفر من كان له جاه ، غداً تبين الأقدار ، غداً يريح التجار ، غداً يجوز العمال ، غداً يتعرث أصحاب الأثقال ، غداً يسبق الضامر المهزول ، غداً يتأخر الغريق والموحول ، غداً يظهر الفضائح ، غداً تصح الصحائح ، غداً يذوبون خجلة أهل القبائح . قال الله عز وجل : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ [الحاقة : ١٨] وأنشدوا في المعنى :

حسبك إن القوم قد ودعوا أما ترى أنهم أسرعوا
دعاهم الداعي إلى حكمه فأسرعوا سيراً ولم يرجعوا
فأين عاد وثمرود الألى وأين سام بعده تبع
أراك تلهو والردى مسرع فمعن قريب أرف المصرع
يا ليت شعري عنهم إذ مضوا ما كان قول القوم لما دُعوا

واعلم أن للعارف في ذكر الموت فائدتين ، إحداهما النفرة عن الدنيا ، والأخرى الشوق إلى الآخرة ، فإن المحب لا محالة مشتاق ، والشوق في المحسوسات معناه استكمال الخيال بالترقي إلى المشاهدة ، والمشتاق إليه مدرك لا محالة بالخيال إذ هو غائب عن الأبصار ، فالعارف يدرك أحوال الآخرة من النعيم والعذاب ، وخيال الحضرة الإلهية بالخيال ويعرفه كأنه ينظر إليه من وراء ستر رقيق في نور ضعيف ، فهو مشتاق إلى استكمال ذلك بالتجلي والمشاهدة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بالموت ، فإذا مات العبد تحول من عالم الملك والمشاهدة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يدرك بعين أخرى ، خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لا يبصرها ولا يتصور فيها شيء من عالم الملكوت ما لم تنقش تلك الغشاوة عن عين قلبه ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] وأنشد المؤلف - رضي الله عنه - :

العين تكمل كي يعتر ناظرها	وعين قلبك بالأنوار مكتحل
النفس ناظرها والعقل إثمها	والعلم ميل فنعم الميل والكحل
فغذها بحلال واحم ناظرها	من الحرام فمنه يحدث الكسل

فلذلك لا يكره العاقل الموت ، لأنه لا يكره لقاء الله تعالى ، إذ هو السبب المؤدي إلى لقاءه سبحانه ، ولذلك قال عليّ - رضوان الله عليه - : لو كشف الغطاء يعني الموت ما ازددت يقيناً ، لأن الناظر إلى الشيء من وراء ستر رقيق لا يزداد برفع الستر يقيناً . بل وضوحاً فقط ، ومهما عفا الباطن انكشفت في حدة القلب ما سيكون في المستقبل ، واعلم أن الموت ينكشف لك عظم قدر ما فاتك طلبه من القرب من الله - عز وجل - ، والنظر إلى وجهه الكريم ، وإن كان لا يعظم قدره عندك قبل الموت ، لأن الموت سبب لانكشاف ما لم يكن يكشف مثله إلا به ، كما أن النوم سبب لانكشاف الغيب بمثال وغير مثال ، والنوم أخو الموت ، ولكنه دونه بكثير في الكشف ، فأول ما ينكشف للميت ما يضره وينفعه من سيئاته وحسناته ، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطويّاً في سرّ قلبه ، وكان يشغله عن الإطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت عنه بالموت انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة ويتحسر عليها تحسراً

يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا ، وينكشف له كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن فاعمله .

٧٤٦- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كل عامل سيقدم على ما أسلف عند موته ، وأن ملاك الأعمال بخواتمها ، والليل والنهار مطيتان فاركبوهما بلاغًا إلى الآخرة ، وإياكم والتسويف بالتوبة ، والغرة بحلم الله ، واعلموا أن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

٧٤٧- كما قيل : أن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - حين جاء رسلاً من اليهود ، فقال في بعض مسأله : يا رسول الله أين مقعد الملكين من ابن آدم ؟ وما قلمهما ؟ وما دواتهما ؟ وما مدادهما ؟ وما لوحهما ؟ قال : « مقعهما في كتفي الإنسان ، وقلمهما لسانه ، ودواتهما حلقه ، ومدادهما ريقه ، ولوحهما فؤاده ، يكتبان أعماله إلى يوم القيام » .

وأنشدوا في مثل ذلك :

فلو أننا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حيٍّ
ولكننا إذا متنا بعثنا ونُسألُ بعد ذَا عن كل شيء

واعلم أن الموت يتضاعف على المقبل على الدنيا ثلاثة أنواع من النيران الروحية وذلك حرقة فرقة المنسيات ، وخزي خجلة الفاضحات ، وحسرة فوت المحبوبات ، فهذه أنواع من العذاب عظيمة ، وآلام جسيمة ، تهجم عليها قبل الدفن ، وبعد الدفن تردّ روحه لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ، فتعاقب النيران على روح الميت إذا كان ممن أتر الدنيا إلى مقاساة النار الجسمانية ، وذلك يكون في آخر الاسم إلا من عفى الله عنه بحكم الكرم ، قال الله سبحانه : ﴿ والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيمًا ﴾ {الفتح : ١٤} .

واعلم أن حال تارك الطاعة في الآخرة كذلك ينكشف له أيضاً ، وتلك حسرة

أبدية ، وآلام تتضاعف كل يوم ، وكذلك يفيض على أهل المعرفة والطاعة من أنوار جمال الوجه ما يحصل به من اللذة ما مبلغها لا يوازيه نعيم الدنيا ، واعلم أن تحريم تلك اللذة وإفاضتها ليس من جنس تحريم الرجل نعمه على عبيده بغضب أو باختيار حتى يتصور تغييره بل هو كتحريم الله تعالى على الأبيض أن يكون أسوداً في حالة البياض ، وعلى الأسود أن يكون أيضاً في حالة السواد ، وعلى الحار أن يكون بارداً في حال الحرارة ، وعلى البارد أن يكون حاراً في حال البرودة ، وكذلك لا يتصور فيه التبديل ، واعلم أن المعصية سبب العذاب ، كما أن السمّ سبب الموت ، وكل ذلك تعرفه قطعاً إذا عرفت ذلك ، لكن تعمى عينيك ، وتصم أذنك ، وتفلج أعضائك ، وتبطأ حركتك ، ومهما بطل تصرف الروح في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإرادات ، ولم تبطل منها الأفراح والغموم ، ولم يبطل منها قبولها للألام واللذات ، فهذا المعنى المدرك من الإنسان لا يموت أصلاً ولا يندم ، ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن المؤن ، وخروج المؤن عن أن تكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد أو الرجل عن أن يكون آلة مستعملة ، والموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها ، وأما حقيقتك التي أنت بها ، فلا تفنى بالموت أصلاً . بل تتغير حالك فقط ، وتبقى جميع معارفك وإرادتك } ، وإنما تعذبك شهواتك بفراق ما أحببت ، وافتضحك بظهور ما ينكشف لك في تلك الحال ، وتحسرك على فوات ما تعرف قدره بعد الموت لا قبله ، وإنما يعظم العذاب بهذه الأصناف الثلاثة لإيرادها على الميت حالاً بعد حال .

فالصنف الأول : يلقاه الميت المعذب الراغب في الدنيا هو حرقة فرقة المشتبهات ، وذلك تنين حب الدنيا ، ولذلك أضيف إلى القلب ، وإنما سيق لهذا لأن أغلب الأشياء على قلب الميت فراق ما يفوته في دار الدنيا من مال وجاه ومنصب وأولاد ونعمة ، وغير ذلك .

ثم بعد ذلك تنكشف له أرواح الأعمال وحقائقها القيحة ، وذلك عند انغمار التسالم بالموت ، ويُعد العهد بصفات الدنيا ، وكلما كان إمعانه في الموت أبعد كان الكشف أقبل ، فيفيض عند ذلك عليه خزي الفضيحة ، ولذلك أضيف هذا إلى القيامة ، لأنه وسط بين منزلة القبر وبين دار القرار ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ [التحريم : ٨] .

وأما حسرة فوت المحبوبات فتستولي عليه آخرًا ، وذلك عند القرار في النار ،
وجميع ذلك في أم الكتاب ، وكل ميسر لما خلق له ، فمن خلق للنعيم سيسر للبسرى ،
ومن خلق للجحيم سيسر للعسرى .

وفي الخبر أن الله تعالى خلق جهنم من فضل رحمته سوطًا يسوق به عباده إلى
الجنة ، وهذه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل
ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾ [الزمر : ١٦] .

٧٤٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى خلق الجنة لها أهلاً
وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم » (١) .

وإنما مثل المؤمن ومثل الكافر في صلب آدم - عليه السلام - مثل تاجر أخفى
مسكًا طيبًا في وسط حَقٍّ مخافة قطاع الطريق ، فلما بلغ المأمن أخرج المسك من الحَقِّ ،
فكان المسك أخذ شيئًا من رائحة دهان الحَقِّ ، والحَقُّ أخذ شيئًا من رائحة المسك ، فلما
فرق بينهما وضربتهما الرياح ذهب عن كل واحد منهما ما كان تعلق به من رائحة غيره ،
ورجع كل واحد منهما كما كان ، وكذلك المؤمن والكافر في صلب آدم - عليه السلام -
أصاب الكافر رائحة من المؤمن فيعمل منها بالحسنات وأصاب المؤمن من رائحة الكافر
فيعمل منها بالسيئات ، فإذا كان يوم القيامة ترجع حسنات الكافر إلى المؤمن ، وترجع
سيئات المؤمن إلى الكافر فتتلاشى العوارى ، وتبقى الأصول على ما قدر وقُضِيَ . قال
الله تبارك وتعالى : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض
فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : ١٣] .

وقيل : لما أنزل الله تعالى آدم - عليه السلام - إلى الأرض قال : يا آدم أسكتك
جوارى فعصيتني فيه ، وأطعت عدوي ، الآن أسكتك في جوار العدو لتعصيه فيه ،
وتطيعني فيه ، فأقول هذا بذلك ، والمحبة بيننا باقية ، والحكمة في ذلك أنه يرحم من
عصاه في جواره ، والأولى أنه لا يعاقب من عصاه في جوار العدو ، وكذلك يقول الله
سبحانه للعبد المؤمن :

(١) أخرجه مسلم : القدر (٤/ ٢٠٥٠ ح ٣١ / ٢٦٦٢) ، وأبو داود : السنة (٤/ ٢٢٩ ح ٤٧١٣) .

يا عبدي أنعمت عليك برضاي ، وابتليتك بغير رضاك ، وأطعتني برضائي ،
وعصيتني مخالفاً لأمرى ، دَعِ الطاعة في مقابلة النعمة والزلة في مقابلة البلية ، فأقول هذا
بذلك والمعرفة بيننا باقية .

وقال بعض الحكماء : من آخره جدّه لم ينهض به جدّه .

وقال سهل بن عبد الله التستري - رضي الله عنه - : الفوز بالوجود لا بالسجود ،
والنجاة بسعادة الأزل لا بحصول العمل .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنی أولئك عنها مبعدون لا
يسمعون حسیسها وهم فیما اشتہت أنفسهم خالدون ﴾ { الأنبياء : ۱۰۱ } .

وقال سبحانه : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت
عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع
الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في
الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ { التحريم : ۱۰ } .

وأنشدوا في المعنى :

إن لله موقوف	خلقه فييه وقفوا
فيه تبدو صحائف	ستروها فتعرف
أنبيات عن قبائح	سترت ثم تكشف
ساعة ما أشدها	هولها ليس يوصف
إنما هي ساعة	تقفوا ثم تصرفوا
لنعيم وجنة	أو عذاب يضعف

وقال أبو الدرداء .. رضي الله عنه - : لو تعملون ما أنتم من بعد الموت ما شربتم
على شهوة ، ولا أكلتم طعاماً بلدة ، ولا دخلتم ظل البيوت ، ولخرجتم إلى البرية ،
ولضربتم صدوركم ، ولشققتم جيوبكم ، ولبيكيتم على أنفسكم . وأنشدوا :

أطوي سبوتاً وأحاداً وأنشرها	ونحن في الطي بين السبت والأحد
فعد ما شئت من شهر ومن سنة	حتى تصير مع المعدود في العدد

فمن تفكر فيما يصير إليه عند خروجه من الدنيا ونزوله في قبره ووحشة لحده
وضيقه وظلمته، وهل فيه أنس أم حبيب ؟ أم خليل ؟ أم جليس ؟ أم طعام ؟ أم شراب ؟
أم كليم ؟ أم مجيب ؟ أم رحيم ؟ أم شفيق ؟ أم مغيث ؟ أم صديق ؟ أم محب ؟
أم ودود ؟ أم نسيب ؟ أم قريب ؟ لا والله بل التراب غطاؤه ووطاؤه ودثاره ووساده ،
والدود أنيسه ، والصديد طعامه وشرابه، قد خلا بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ،
أفق يا أخي فكان بشمس وجودك في مغرب العدم قد غربت ، وبنابتات عروق عودك
بعواصف قواصف رياح السقم قد اضطربت ، وبساعة الوفاة من المغتر بطول الحياة قد
اقتربت ، ويمعالم شبابك قد عفت بتواتر الأيام والليالي وخربت ، فلا تغتر بالسلامة في
طول المسافة ، فعند المنزل آفة ، ولا تتق بسلوكك حادة الانقطاع ، ففي الشعاب قطاع ،
ولا تقطع الإياس إذا عصفت على سفيتك الرياح ، فكم بعد ركوب الأخطار ارتياح ،
ولا تعجب بسيرك على أقدام رأيك ، ولا تضم على المهالك أقدامك ، فإن المعاطب
قدأمك ، أحرف عنانك ، ولا تبذل فيما بقي المجهود ، فما تبلغ المقصود ، فإن المنبت
لا ظهرًا أبقى ، ولا أرضًا قطع . وأنشدوا في مثل ذلك :

تفانا الورى في حب دار تبيدهم	فما منهم فوق البسيطة ثابت
ترى المرء في برد الأمانى رافلا	يجر ذبول اللهو والعمر فانت
تهيم بلذات الزخارف نفسه	وطرف الردى غاد على النفس لانت
تسمع لوعظ الحق إن كنت ذا نهى	فإن له نطقاً وإن كان صامت
توالت شعوب آدم وفروعه	فسام وحام ثم سام ويافت
تمزقت الأجسام وانهدت القوى	فالسهم بعد الكلام سواكت
تراباً يعود الجسم بعد بلاته	على أنه غصن من الحسن نابت
تأمله في مثواه بعد ثلاثة	تجده بحال ليس يرضاه شامت
تشتت الأعضاء بعد اتصالها	فليس له نفسير ناعت
تمادى رميماً ثم ناداه صائح	فقيام له والروح لله قانت

يا ذاهباً في الطلب عند أول قدم تركت المطلب ، يا مولياً ارجع فأين تذهب ،
أثفكاً آلهة دون الله تريدون ، تبصر يا أخي فمحكمات آيات آمالك بإحكام أحكام الحمام
منسوخة ، وصفحات صحف صحائفك بما أملت جوائح الجوارح من الفضائح منسوخة

وعقود عهود وجود الأمانى بقواطع وقائع الأجل مفسوخة ، فلا تغتر بسامى سناء سماء
العمر فشارق نجمها غارب ، ولا تثق بتزوع يانع مخضر عود الشباب ، فإن أصله في
ساحة الفناء عاطب ، ولا تعجبك زهرة روضة الدنيا ، فإن ساقها من ماء الفناء شارب ،
وكن على حذر من سلطان الحمام فقد عمّ جنوده مملكة المشارق والمغرب ، واختلط
على سور سرّ صورة قلبك ، فقد قدم العدو اللعين مجرداً من أغماد سود وسوسته
مرهفات القواضب ، ولا تركز إلى زخرف الغرور فهو ساعد بنصال الآفات ضارب ،
أجلّ لواحظ الأفكار فيما سلف من عمرك الذاهب ، واصدق بأبصار الاستبصار ،
واجن تحت الأوزار من ثمار صدور ثبات الأفكار غوامض صحائف لوايح بدائع حكمة
صنع مخلوقات المخترع العزيز الجبار ، وتصفح في دواوين صحائفك فقد سودت الدفاتر
وأتعبت الكتاب ، ابك على نفسك ، فقاتل نصل سهم الممات صائب ، يا مطلوباً بنفسه
داوم الحزن فقد أدركك الطلب ، لا تصدق الأمل ، فوعد الأمل كاذب ، كن لعرائس
الجنان خاطب ، وفي نعيم دار الخلود راغب ، ولأبكار بنات الأفكار مصاحب ، تعرض
لمواهب الأزل فمواهب الأزل نعم المواهب ، اقصد جناب الكريم ، فما رجع قاصد عنه
خائب ، استطعم من ثمار العمل الأطايب ، كلوا من طيبات ما رزقناكم إن كتم إياه
تعبدون . وأنشدوا :

تيجان سمدك عالية	وعقود مجدك عالية
إن كانت الأكياس بل	إفلاس مالك خالية
فلرب أجبياد عوا	طل بالمحامدة حالية
إن كنت تكره فاقية	لغيوم قلبك جالية
فلربما كرهه التدا	وي بالكؤوس الصافية
صبراً على كاسات صب	رر في القيامة شافية
واصبر على مرّ الدواء	إن كنت تبغي العافية

اعلم وفقك الله أن المسرات إذا انقطعت أثارت الحزن ، وكل مثير للحزن ليس
بمسرة ، ومسرات الدنيا منقطعة ، وانقطاعها مثير للحزن ، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً
خليلاً فلا تفرح بنعيمها ، فلا مسرة فيه ، وكذلك النعيم إذ انقضى أورث حسرة ، وكل
مورث للحسرات فهو حسرة ، ونعيم الدنيا منغص ، وانقضاؤه يورث حسرة ، يا حسرتي

على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ، وكل صفو إذا اختلط بضده
 كدر ، وصفو الدنيا مختلط بكدر الفناء . وأنشدوا :

أيا حاديا يحدو مطية عمره	إلى منهل مرُّ المذاقة للمرء
أغرّك من دار الغرور لداذة	يعاقبها صاب المصائب والرؤء
أبى الله أن يصحو فؤادك عن هوى	ورب سقام لا يؤل إلى برء
أعد نظراً ما دام طرفك زائياً	فصافي الدنا داء يدور بلا برء
إذا عصفت ريح المنون تهدمت	حياة الفتى واستودع الجسم في خباء
ألم يصدع في ثرى الأرض موحش	مقيماً إلى يوم الإعادة والنشأ
أذل بساط الترب أئمن حده	وأيسره قد هده الخلق بالوطء
أقام به والروح إن كان محسناً	ففي راحة قد عوَّض الجد بالهزء
إلى أن دعى الداعي فضم انفصاله	كم ضم برء قد تشئت بالرفء
ألا إنما الإنسان يُفنيه حيفه	وبعد يعاد الجزء منه إلى الجزء

فإياك أن ينفث ساحر الأمل في عقد عقيدتك ، ويتم سحره في خراب بنية
 نيتك ، وليجد عندك من عود حسن سريرتك ، وإحراز التحرز في معاملتك ما يبطل
 سحره ، ويعطل مكره ، إن الذين اتقوا إذامهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم
 مبصرون ، فكن وفقك الله بمن أزعج منه تهديد الوعيد الخاطر الخاطر ، ودأوي
 بروشن الخوف من العذاب الشديد ومد الناظر الناظر ، وأسمع خطيب الوعظ الشديد
 سماع الحاذر ، وأراه ثلج نور الحق فعل الأمل بالعابد العابر ، كيف أصبح ستر الفنى
 لما ابتناه من القصور والداكر سائر ، فها هو من أبواب الحمام عن مناهل الحياة لأسوأ
 المصادر صادر ، إلى محل لا يغدر فيه غادراً غادر ، ولا يسمع فيه لمن يخبر بكثرة الجنود
 والعساكر شاكر ، فالظالم فيه إلى أرذل المصائر صائر ، لذاب هلعاً من ذكر محقرات
 الذنوب الصغائر فكيف الكبائر؟ وفنى جزعاً على طاعة من تبرص به الدوائر ، وقرع
 سنه ندماً على ما أودع من الذنوب الصحف والدفاتر، تأهب يا مغرور ففلك الحمام على
 نقطة سلب روحك دائر ، تنغم بتغريد التسييح قبل أن يفتح القفص، ويطلق هذا الطائر
 لا تغتر بالمهلة فإن عمرك سائر ، احذر أن تجور على نفسك في معاملتك ، فإن عرصات
 القيامة كل جائز بها حائر، تحقق بالعبودية فمن تمسك بالباطل قطع منه الدائر ، عمر من
 معالم تقواك المعلم الدائر، واصبر على ما صاب من المصاب، والزم الباب وصابر .

وأشردوا فيه :

اصبر على حب الحبيب ب ودم عليه وصابر
واحذر من السلوان عن طلب الوصال وحاذر
لأنا دين أحسبتي ما بال ريح القرب دائر
فلأي ذنب ربح هجـ ري عامر والوصل غامر
وغرام قلبي كالغريب م فعاذلي قد عاد عاذر
قد طال يوم بعدكم أوما ليوم البين آخر
لو كان وصلكم يبا ع شريرته بضياء النواظر

انظر لنفسك يا مسكين فإلى متى الهروب ، فقد آن أوان إيابك ، يا مدمن المعاصي هذا أوان متابك ، يا من خرّب بيت عمره استدرك عمارة مأبك ، أصابك سهم الغرور بنصل السرور ، فما تأملت لمصابك ، قد محت آية المشيب آية شبابك ، ونصل من حنسي^(١) العوارض مسودّ خضابك ، وأنت مستمر على الهيام في شعابك ، مغترّباً رخاء سترك وأغلاق بابك ، واثق باشمال شملك مع أخلائك وأصحابك ، واتصال وصلك بإخوانك وأحبابك ، ألا تجرع من عقابك يوم فراق أحبابك ، ألا تفرع من عذابك يوم لا تمتع بأنسابك ، ألا تستحي من عتابك يوم يختم على خطب خطابك ، خنت منك زاوية محرابك ، وطويت سجادة تصوفك لخروجك عن دويرة صوابك ، تيقظ يا مغرور فقد خيم الخيام بجانبك ، وتهياً الأهل والآل لاجتنابك ، ودبروا في إخراجك عن قصورك وأزواجك إلى دودك وترابك ، فخذ من عمارتك لخرابك ، وقدم من ذهبك لذهابك ، واستعد من مالك لمثالك ، واهرب من أمالك للمالك ، وادخر من دروع لبوسك ، ومن درهمك ودينارك منجاة من همك وتارك ، واقصر عن أوزارك ، وقصر من إزارك ، وقدم بين يدي نجواك تقواك ، ولا تكن بوعد الشيطان أوثق منك بوعد الرحمن ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، فلا يُمرّ عليكم الشيطان كؤس النصيحة ، فهي أحلى وأعذب من مرّ الفضيحة ، فلوامع أنوار الحق الصادع ساطعة ، ولكن ضعفت أبصار خفافيش القلوب عن النظر ، وتصاريف الليالي والأيام لم تزل مظهرة آيات عبرها ، ولكن القلوب غافلة

(١) أي ظلمة . انظر : القاموس المحيط (٢/٢٠٧) .

عن الآيات والعبر ، وإلا فأَي رَاكِب من الخلق سفينة الوجود سالم من الغير ، أو منهل من مناهل السرور لم يخلط صفوه بشائبات كدر ، ومخلد في مجالس الدنيا من جميع البشر ، أو عزيز امتنع عن وقائع الأجل شاع اسمه وانتشر ، أو حقير اختفى بأستار المهابة عن الحمام واستتر ، أو حكيم حصن من سهام الوفاة أسوار هذه الصُّور ، أو صغير نجا من الممات لعة الصغر ، أو كبيراً اختر من المنية لوقار الكبير ، أو ملك برز إلى حيلة الأجل فسطى على الفناء وانتصر ، أو مالك استولى على سرير المملكة من الخلائق فقمع الحمام وقهر . وأنشدوا :

يا نفسُ رحيلك قد حضرا	فـابـكـي سـكـبـاً وابـكـي درـاً
يا نفس ذنوبك قد عظمت	والشيب برأسك قد ظهرا
يا نفس فتويي واجتهدي	وسلي رباً خلق البشـرا
يا نفس عساه ينقذك	من حرّ لهيب قد زفرا
يا نفس فلو عاينت بلاءً	ما إن تجدي منه وزرا
يا نفس فلو عاينت لظى	يوماً ترمي الشـررا
يا نفس بهما قوم لعنوا	بنيانهم سكنوا سقرا
تغشى النيران وجوههم	ويروا ذلاً ويروا قنـرا
يا نفس دعى الدنيا فلقد	غرّت قوماً كانوا كانوا أمرا
جمعوا الأموال وغرهم	أمل حتى سكنوا الحفرا
ساروا في ظل قبورهم	فانظر عجباً وانظر عبـرا
عرج بالدّار فلست ترى	عيناً للقوم ولا أثرا
يا رب أغث سحنون لقد	من ثقل الذنب قد انبـهرا
واغفر واختم بالخير له	يا خير إله قد غفرا
سكنه الخلد ونحن معاً	أهل الإسلام به زُمرأ
بجوار محمد سيدنا	دين الإسلام به ظهـرا

أجل يا أخي لحاظك في أرجاء الوجود ، هل ترى إلا سرور يائم ، أو فرحاً أعقبه ماتم ، وانظر إلى صفحات ألواح الأزمان هل ترى إلا اسم حيّ بالممات أمحى ، أو مولياً عن الدنيا إلى الآخرة نحا ، وفكر في مجلس العصر هل فيه إلا مسرة رفعت ،

أو حسرة وضعت ، أم سهم محن تسدد ، أو ملتئم شمل تبدد ، وانظر في أحوال
 الليالي والأيام ، هل تراها أبقت على أحد من الأنام ، أو أرجعت من أوردته مصادر
 الحمام ، واعلم أن كؤوسها مريرة ، وجنود آفاتها كثيرة ، وعيون مصائبها غزيرة ،
 وطباعها أبكى العيون القريرة ، كم بदन شمل مسرة نظم عقدها بنات الالفه ،
 واسترجعت من الأفراح ما نحلت على سبيل الهدية والتحفه ، وسلبت ما وهبت من
 الحبور ، وجاءت به في العمر طرفه ، وأوردت المغتر بها إلى حياض المنية ، ولم تمهله
 طرفه ، فالسعيد من جعل أمامه من أمواله ما يخلف خلفه ، هل لك من مالك إلا ما
 أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، فإن كنت على ثقة من
 حمامك فتأهب ، أو كنت على يقين من عبوديتك واطلاع المالك عليه فتأدب ، وإن
 علمت خطير ما تطلب فاجهد في الطلب ، وإن صدقت أن الدنيا دار لهو وزينة فلا
 تغتر باللعب ، وإن طلبت الراحة فلا تضجر من يسير التعب ، فجدك من مجدك أولى
 من المزح في سوء الطلب ، فلا تنال عروس المعالي إلا بدوام النَّصب ، تعرض لخطبة
 عروس السعادة ، فالسعيد من خطب ، وإياك والامل فهو من مصائب العطب .

وأنشدوا في ذلك :

الحق أولى من البهتان والكذب	الجدّ في المجد أولى بي من اللعب
وفي الغزاة ما يلهيك عن زُحَلٍ	وفي الفضائل ما يغني عن الطرب
ومن يروم المعالي لا ينهتهه	عن قصده خوف سم الجهد والنَّصب
لا راحة قطّ إلا قبلها تعب	فاتعب تجد راحة تنجي من التعب

واعلم يا أخي أن أنوار ضياء فلق صباح فجر مشييك ساطعة الإشراق ، وغيب
 حندس ظلمة دهمة ليل شبابك آذن مالك بالفراق ، ولوامع قواطع وقائع مصارع
 الفجائع قد قدّت أوصال الوصال والتلاق ، وسابق سابق بارق صواعق الطوارق في جو
 الوجود ذات أبعاد وأبراق ، وسهام سمام إلام الألام بنصال نصال صاب المصائب ، قد
 سرى سرّ سرّها في أجساد العباد ، وحقا وبهاء سناء سماء البقاء قد وصل جمال كمال
 بدرها إلى سرّ سرّ المحاق ، ونجائب عجائب النوائب قد أوردت ركائب الحبايب ، وارد
 السياق في السباق . وأنشدوا في مثل ذلك :

ماذا أؤمل بعد الشيب والكبر وقد مضى جل ما تمتعت من عمر^و
 إني أريد غداً أو بعده سفراً وقلة الزاد ينهاني عن السفر
 الموت يطلبني والدهر يندبني كيف النجاة ولا منجاً من القدر
 يا رب وارحم فتى جلت خطيئته بمسي ويصبح حيراناً على خطر

وأنت أيها المغتر بزور غرور الأمل في مجلس الغرة بالمهل ، وساقى كأس الحمام
 على رجل ، فاصح أيها الغافل من هذه السكره ، قبل أن تقع فيما تكره ، وعدّ عن
 هذه الفترة ، فكأن قد هتك الحمام ستره ، ولا تثق بظهور غرة الغرة ، فطول الأجل قد
 أظهر لك ظهوره ، ولا تركز إلى ركن التواني ، فإن أس قاعدته ندم وحسرة ، ولا
 تعجبك نضارة غضارة زهرة الدنيا ، فإن ثمرات أغصانها عفصة مرة ، ولا تتشاغل
 بتشيد حصن قصرك فكم أمسى في القبور من أصبح في القصور بكرة ، ولا تطمع
 زائد التسويف ، فإن هداه ضلالة وحيرة ، وفكر في إصلاح لحدك ، فإنما هو من الجنة
 روضة ، أو من النار حفرة ، يا راكناً لعبرة ، يا جامد العبرة ، يا دائم العثرة ، يا نائم
 الفكرة ، يا عادم النصره ، يا غافلاً عن رشده ، يا معطياً فكره . وأنشدوا :

يا غافلاً عن رشده حاذر وخف مما جنيت
 ناداك شيبك واعظاً قُرب الحمام فما ارعويت
 ودعاك داعي الرشد للـ فعمل الجميل فما أتيت
 وسبيل هديك واضح فعلاً فيه قد سمعت
 فاغرس أصول مكارم من قبل قولك ليت كسيت
 تحنى السعادة والمنى يفرز بذاك بما اجتتيت

فيا أيها المغتر بذخائره وأمواله ، والمعتز بخدمه ورجاله ، والمتشاغل عن حظه
 بآماله ، والمتغافل عن تضرعه وابتهاله ، ما بالك إذا أقامك غداً بين يديه ووجدت ما
 قدمت من خير أو شرٍ لديه ، وعرضت ذنوبك وفضائحك لديه ، وليس لك ملجأ منه
 إلا إليه ، فإن لم يكن لك حيثئذ جواب مجيب ، والألم يكن لك من الرحمة نصيب ،
 فحيثئذ تنطق جوارحك بما فجرت ، وتعترف ، مقلتك بما نظرت ، وتشهد مسامعك بما
 سمعت ، وتقرّ أناملك بما ظلمت ، في يوم تبلى فيه سرائرك ، وتظهر جرائرك ،
 ويخرس لسانك عن الجواب ، وتعاین شديد أليم العذاب ، وأنشدوا في ذلك :

إذا شهدت يوم المعاد جوارحي
 إذا قالت العينان تذكر ساعة
 وقال لساني كم لفظت بباطل
 وقال يدي كم تناولت مائماً
 وقال لي الرجلان كم محرم بنا
 وإنني إلى نار تلظى وقودها
 فإن من ذو الإحسان بالعفو الرضى

فكيف خلاصي من ظهور فضائحي
 نظرت بنا للمنكرات الفضائح
 وكنت إلى العصيان أول رائح
 فوا أسفى إن كنت غير مُسامح
 مشيت ولم تسمع مقالة ناصح
 أساق ذليلاً خاسراً غير رايح
 نجوت وإلا كنت رهن قبائح

فلا تكن يا أخي غرضاً لسهام الآلام ، فالمستهدف معرضاً لرام الحمام ، ولا تكن
 متعرضاً لرشق نبال الويال ، ومتقياً بظلال الضلال ، وغافلاً عن قبيح مآل المآل ،
 وراسخاً في أوحال المحال ، ومعانقاً الأوجال الآجال ، ومبايناً لأعمال العمال ،
 ومفارقاً برفاق الأرفاق ، ومماذقاً بالنياق في الآفاق ، يا أخي أما أزعجك النذير ، أما
 أسمعك التحذير ، أما أذكرك المصير ، أما أبصرك البصير ، أما أخبر الخبير ، أما أظهر
 لك التكبير ، أما تحققت المصير ، أما بلغك النفير ، أما علمت أنك مجزيّ بالقليل
 والكثير . وأنشدوا في ذلك :

أيا من يومه أمس
 ويا من همسه الفليس
 فقد دنا بك الشيب
 توقى الذنب والديب
 صباح الشيب قد لاح
 فهل من نائح ناح
 وغفلاً عن دعاء ربه
 إلى أعلى مساعيه
 رأى الطوع أنه أغلى
 فإن العمر قد ولى
 فهاجر شره وبك
 من السوء وصافيك

ويا من بيته الرمس
 أوان قد أنه
 بلا شك ولا ريب
 ولا تركن بيان
 وجل الدهر قد راح
 على ما منه قد آن
 ولي عن دواعيه
 فإن النصيح قد آن
 ويقل التوب أولى
 فاذر الدمع تهتان
 وما يصدر عن فيك
 بإخلاص وإيمان

إذا أدركك الموت
 سلبت الحس والصوت
 غداً تنقبض الكف
 إذا ما جسمك المجذ
 فمن لي بك يا صاح
 وبالويل فقد باح
 وولّى الأهل والآل
 وحازوا قسمة المال
 وهذا الجسم ملحود
 وفي الأموات معدود
 وممرّ الأب والأم
 وفمرّ الهمّ والغمّ
 وقالوا ذاك قد مات
 فوقت المرن قد فات
 وأضحى فيه فريداً
 من كلّ الأحل شرداً
 وصلب المعظم مرترض
 وأن النشور والعرض
 هناك العقل قد طاش
 وخافي سرّه فاش
 نويم الخطب والخطب
 وجف المنطق الرطب
 فبادر للنجا واجهد
 سبيل الرشد كي تسعد

ولا قبّيت الفـوت
 وجاء الخطب ألوان
 عز الخيـر وتـنكف
 فلا تبخل بإحسان
 ومن والاك قد صاح
 إذا أدرجت في أكفـان
 عن القبر يا جمال
 كان الكل خـوان
 ببطن الرمس مع دود
 ومن واه له قد بان
 وفمرّ الخـال والعمّ
 فلم يبـد له سلوان
 وكل الخلق أموات
 وصعب الخطب قد مان
 ببطن الرمس وحبـداً
 لا يرى في اللحد إنسان
 وقد ضاقت به الأرض
 لما للإنس والجـان
 ولم يبق له جـاش
 وصاح الناس سكران
 وزاد الهم والكـن
 فلم ينطق ببـرهان
 وخف ربّاً يرى واقـصد
 بسكنى دار رضـوان

* * *

قال الشيخ أبو الحسن - رضي الله عنه - : هنا انتهى بنا القول فيما بيناه وجمعناه وانتجز الغرض الذي قصدناه ، واستوفى العدد الذي شرطناه ، مما أرجو أن في كل باب منه للمريد الخائف مقنع ، وفي كل حكمة منها منهج لبغيته ومنزِع ، واعلم يا أخي أنني قد بذلت لك النصيحة جهدي وبلغت في ذلك جهدي ، وبسطت لك مبلغ فهمي وجدي ، فاحظر لقبول ما بينت لك من ذلك عقلك وفهمك ، واصغ بسمعك وع بقلبك ، واحمل نفسك الصبر على احتمال ما نفرت عنه من ذلك ، واعتقد القبول وإياك والمخالفة ، فإنه من خالف الطبيب فيما أمره به من علاج نفسه طال سقمه ، وعضل دواؤه ، وبعدُ بره ، واشتد حزنه وكرهه عند اليأس من البرء ، وإن لم تطاوعك نفسك على القبول فاعلم أن دنياك قد حجبتك عن فهم المخاطبة ، فارجع في سرّك إلى الله تعالى ، واستعن به على أمرك ، ولا تضع نصيحة الناصح الباذل جهد ، في رشذك والمسرك إلى منهج النجاة ، وسبيل الاستقامة في مركب السلامة ، واعتقد اعتقاداً صحيحاً ، إن الله تعالى لا يخيب من قصده ولا يردّ من توكل عليه ، ولا يضل من استرشده ، ولا يغلق بابه دون من أقبل إليه ، ولا يعرض عمّن صرف وجهه ونظره إليه ، ولا يعمي قلب من استنار بنوره ، ولا يذل من تعزز به دون غيره ، ولا يخيب من هرب إليه ، ولا يهمل أمر من جمع أمره فيه ، ولا يضيع أجر من أخلص بالعمل إليه ، وعوّل في جميع الأمور عليه ، والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون .

ومنه سبحانه - عز وجل - أسأل العصمة من الزلل في القول والعمل ، وأسأله الثبات على الإسلام ، والراحة عند الموت ، والأمن عند الحساب ، وأعوذ به من أمل يمنع خير العمل ، ومن حياة تمنع خير الممات ، ومن دنيا تمنع خير الآخرة . آمين رب العالمين ، والصلاة والتسليم على نبي الرحمة وشفيح الأمة وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وعترته وأهل بيته وسلم وشرف وكرم إلى يوم الدين آمين .

وأنشد المؤلف - رضي الله عنه - :

عصيت ربي وطال الحرص والأمل	والوصل باللهو والأحباب متّصل
والنفس تمرح بالراح الرضاب إذا	غنى القيان وستر الليل منسدل
والغيم بيكي وزهر الروض مبتسم	والطير يطرب والأغصان تنفتل

حتى بدا النور من فجر الهدى ومضى
فقال سائق ركب الشيب حين أتى
راح الشباب وأضحى الشيب يطلبه
الشيب ينذرني والدّهر يندبني
والقلب تحرقه نيران حسرته
سير بعبد وأحمال مثقلّة
وبعد أخشى عتاباً منه يقلقني
عسى الذي أبدع الأشياء من عدم
وأوجد المصطفى نوراً يسبّحه
يحيي الفؤاد من همّ ومن زلّل

جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وأنشد أيضاً - رضي الله عنه - :

تم الكتاب بحمد الله ربنا
وقد علمت يقيناً إذ كتبت بأ
لا غرو فاغفر لعبد أنت ملجأه
وقل إذا قلت شيئاً أو مررت به
ومن بلا شكّ بعد الموت يُحيينا
نّ اليد تبلى ويبقى خطها حيناً
يا قارئ الخط قل بالله آميناً
صلى الإله على خير النبيينا

عدد آيات الشعر في هذا الديوان ألف وثلاثمائة وتسعة وتسعون بيتاً ، منها
للمؤلف رحمته مائة وأربعون بيتاً، قال المؤلف : وقد نظمت في عدتها سبعة آيات وهي :

يا سائل كم في الكتاب الزاهر
فذاك ألف واحد من بعدها
يتبعها تسعون ثم تسعة
تُسمعكم الحان رحمة ربنا
يا ربنا اغفر للعصاة جميعهم
يتوسلون لك بالنبي محمد
صلى الإله عليه أفضل شافعٍ
من بيت شعر ناصح أو زاجر
ثلاثة مئنون كالجواهر
في كل بيت حكمة للناظر
تسقيكم كأس المتاب الوافر
مصنف وقارئ وشاعر
في العفو عن صفائر وكبائر
علم الهدى في أولٍ وآخرٍ

تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه ،

والصلاة والسلام الأفضلان الأكمالان الأتقان على سيدنا مولانا وشفيع ذنوبنا محمد ،
وعلى آله وصحبه وعشيرته صلاة وسلاماً دائماً بدوام ملك الله رب العالمين .

على يد الفقير إلى رحمة ربه المعترف بذنبه

عبيد الله أي القاسم بن علي بن داوود البلوي الأندلسي ،

غفر الله تعالى له ولوالديه ولإخوانه ، ولمن دعا لهم بالرحمة والمغفرة والتوبة آمين ،
ضحوة يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر المولد الشريف ربيع الأول سنة ثلاثين وتسعمائة ،
عرفنا الله خيره ، كتبه من نسخة مختلة كثيرة الخلل ، فأصلحت ما تيسر إصلاحه ،
وعلمت على بعض إلى أن ييسر الله تعالى في نسخة صحيحة ، وعلمت على بعض
الكلمات الملحقة بالعين أعني به لعله إلى أن يصحح من موضعه ،

والله الميسر برحمته .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	وصف المخطوط
٩	مقدمة المؤلف
٤٣	١ - باب الصلاة
٥٦	٢ - باب حب الدنيا
٩٣	٣ - باب حب الجاه
٩٦	٤ - باب حب المال
١١٢	٥ - باب البخل ومنع الزكاة
١٣٣	٦ - باب الحسد
١٣٧	٧ - باب الكبر
١٤٦	٨ - باب العُجب
١٥٣	٩ - باب الفخر بالأباء والأحساب
١٥٦	١٠ - باب الرياء
١٦٤	١١ - باب الغضب
١٦٨	١٢ - باب الظلم
١٨٠	١٣ - باب الربا
١٨٢	١٤ - باب أكل الحرام
١٨٦	١٥ - باب أكل أموال اليتامى
١٨٨	١٦ - باب الخيانة في الوزن والكيل
١٨٩	١٧ - باب في السرقة
١٩٠	١٨ - باب الغل والغدر
١٩٥	١٩ - باب القتل

- ٢٠ - باب السعي في مضرة الخلق ١٩٩
- ٢١ - باب شهادة الزور ٢٠٤
- ٢٢ - باب البهتان والمباهة ٢٠٧
- ٢٣ - باب الكذب ٢٠٧
- ٢٤ - باب النميمة ٢١٤
- ٢٥ - باب الغيبة ٢١٥
- ٢٦ - باب الكلام فيما لا يعني ٢٢٠
- ٢٧ - باب التجسس ٢٣١
- ٢٨ - باب فضيحة من يستتر بمعصية ٢٣٢
- ٢٩ - باب المن بالإفضال والجود ٢٣٣
- ٣٠ - باب الزنا ٢٣٤
- ٣١ - باب اللياطة ٢٤٣
- ٣٢ - باب النظر بشهوة إلى ما لا يحل النظر إليه ٢٤٩
- ٣٣ - باب الإصغاء إلى ما لا يحل سماعه ٢٥٣
- ٣٤ - باب شرب الخمر ٢٥٤
- ٣٥ - باب الأيمان الكاذبة ٢٦٠
- ٣٦ - خدمة السلطان ٢٦٢
- ٣٧ - باب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٧٥
- ٣٨ - باب الحمية لغير الله عز وجل ٢٨١
- ٣٩ - كراهية النصيحة ٢٨٢
- ٤٠ - تزكية النفس في القول والفعل ٢٨٣
- ٤١ - باب حب المدح وخوف الذم ٢٨٤

- ٢٨٦ - ٤٢ - باب سوء الخُلُق
- ٢٨٩ - ٤٣ - باب سوء العِشرة مع الصاحب
- ٢٩٣ - ٤٤ - باب سوء العِشرة مع الزوجة
- ٢٩٦ - ٤٥ - باب إذاية الجار وكثرة الجَوْر على المملوك
- ٢٩٩ - ٤٦ - باب ترك صلة الرحم
- ٣٠١ - ٤٧ - باب حقوق الوالدين
- ٣٠٤ - ٤٨ - باب خَلْف الوَعْد ونقض العهد
- ٣٠٦ - ٤٩ - التطاول في البنیان
- ٣١١ - ٥٠ - قلة الصبر على المكاره والشكوى بها
- ٣١٩ - ٥١ - باب قلة الشكر على المُنعم
- ٣٢١ - ٥٢ - باب ترك الرضا بالقضاء
- ٣٢٥ - ٥٣ - باب المزاح والضحك وقلة الخوف
- ٣٢٩ - ٥٤ - باب الطمع وكثرة الأكل
- ٣٣٨ - ٥٥ - باب الإشتغال بالنساء والأولاد عن الطاعات
- ٣٤٣ - ٥٦ - باب صحبة الجاهل
- ٣٤٥ - ٥٧ - باب المراء والجِدال
- ٣٤٧ - ٥٨ - باب فضل العلم ومقت من يطلبه للدنيا
- ٣٥٣ - ٥٩ - باب ترك حضور مجالس العلماء
- ٣٥٨ - ٦٠ - باب ترك قراء القرآن
- ٣٦٢ - ٦١ - باب ترك الذكر
- ٣٦٦ - ٦٢ - باب ترك الدعاء
- ٣٦٨ - ٦٣ - باب القُدح في الأئمة والعلماء

- ٣٦٩ - ٦٤ - باب موالة أهل الكفر والجحد
- ٣٧٢ - ٦٥ - باب فضل الجهاد ومقت الفرار من الزحف
- ٣٧٤ - ٦٦ - باب فضل النبي ﷺ .
- ٤٠٣ - ٦٧ - باب فضل الصحابة
- ٤١٦ - ٦٨ - باب تسوية التوبة
- ٤٣٣ - ٦٩ - باب كراهية الموت